

الجامعة الإسلامية - المكتبة - قسم الرسائل الجامعية

المواد المصاحبة: مع 10892 CD



الجامعة الإسلامية - غزة
عمادة الدراسات العليا
كلية الآداب

المقاومة الشعبية للاحتلال الصليبي في بلاد الشام (491-690 هـ / 1098-1291 م)

ف ر ا / 940.18



1241142

مكتبة جامعة غزة

إعداد الطالب /

عبد الحميد جمال عبد الحميد الفراني

إشراف /

د. رياض مصطفى شاهين

مكتبة الجامعة الإسلامية - غزة
المجموعات الخاصة
التاريخ: 28-06-2005
الرقم العام: 01241142
رمز التصنيف: 940.18/ص

قدمت هذه الرسالة استكمالاً لمتطلبات الحصول على درجة الماجستير في التاريخ الإسلامي (بحث تكميلي) في قسم التاريخ والآثار بكلية الآداب في الجامعة الإسلامية بغزة - فلسطين.

1426 هـ / 2005 م



بسم الله الرحمن الرحيم

الجامعة الإسلامية - غزة
THE ISLAMIC UNIVERSITY OF GAZA

ج م غ / 35
Ref 2003/05/07
Date

نتيجة الحكم على أطروحة ماجستير

بناءً على موافقة عمادة الدراسات العليا بالجامعة الإسلامية بغزة على تشكيل لجنة الحكم على أطروحة الباحث/ عبدالصمد جمال اللواتي للبل درجة الماجستير في كلية الآداب/ قسم التاريخ وموضوعها:

"المقاومة الشعبية للاحتلال الصليبي في بلاد الشام 491-690هـ / 1098 - 1291م"

وبعد المناقشة العلنية لنتي تمت اليوم الأربعاء 10 ربيع آخر 1426هـ الموافق 2005/5/18م الساعة 12 ظهراً اجتمعت لجنة الحكم على الأطروحة والمكونة من:

د. رياض شاهين
د. عصام مسيخ
د. سعيد البيضاوي
مترقاً ورئيساً
مناقشاً داخلياً
مناقشاً خارجياً

وبعد المدولة أوصت اللجنة بمنح الباحث درجة الماجستير في كلية الآداب/ قسم التاريخ.

والجنة إذ تمنحه هذه الدرجة فإنها توصيه بتقوى الله و التزام طاعته وأن يستقر عمله في خدمة دينه ووطنه.

والله ولي التوفيق ،،،

عميد الدراسات العليا

أ.د. أحمد يوسف أبوخليفة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الإهداء

إلى من جعلهما الله سبباً في وجودي، والذي أبقاهما الله ومتعهما بالصحة والعافية.

إلى زوجي التي لم تدخر وسعاً في مساعدتي، وتشجيعي نحو مواصلة درب العلم، وإلى ابني معاذ وأسيل عصفورتي الحب، والأمل.

إلى الشعب الفلسطيني المجاهد الصامد.

إلى رجال المقاومة الشعبية في فلسطين والعراق وإلى كل من يقاوم صنوف الشر والطغيان في كل زمان ومكان.

شكر وتقدير

يسعدني أن أقدم بجزيل الشكر والعرفان والتقدير - بعد شكر الله والثناء عليه - إلى كل من قدم لي المساعدة معنوية كانت أو مادية، إلى كل من كان لهم الفضل في توجيهي، ومنحوني الرعاية، وأسدوا لي النصيحة، وأعطوني من خبرتهم وإرشاداتهم وتوجيهاتهم ونصائحهم ما كان لي زاداً ونبراساً أضاء لي طريق البحث، وأخص بذلك كله أستاذي ومشرفي الدكتور "رياض مصطفى شاهين"، الذي تجشم العناء والمتاعب في سبيل اخراج هذا البحث إلى النور، ولم يبخل عليّ بوقته وجهده وتوجيهاته ومكتبته ليخرج البحث بالصورة التي بين أيدينا.

كما وأسجل شكري وعرفاني إلى أساتنتي في قسم التاريخ بالجامعة الإسلامية، وأخص بالذكر الدكتور العلامة "عصام ناجي سيسالم".

والشكر موصول إلى الأستاذ الدكتور/ سعيد عبد الله البيشاوي صاحب الفكرة الأولى لموضوع المقاومة الشعبية من خلال تشجيعه لي بالإضافة إلى بحثه في هذا الموضوع، وغيره من المواضيع ذات الصلة.

كذلك أقدم بالشكر إلى أختي "سوزان" صاحبة الفضل في طباعة البحث. والأستاذ محمد حيدر ساق الله الذي تفضل بتسيق البحث وتهذيبه، كما وأقدم بالشكر والتقدير إلى الأساتذة أحمد أبو الفحم، وإسماعيل الزيان على تفضلهما بترجمة المادة المتعلقة باللغة الإنجليزية وكتابة الملخص الإنجليزي.

وشكري وعرفاني إلى زوجتي أم معاذ على صبرها وتجشمها معي عناء البحث والدراسة والعناية والتشجيع، فجزاها الله عني كل خير، كما وأشكرها على تفضلهما بمراجعة الرسالة من الناحية اللغوية.

والشكر أيضاً إلى الأستاذ/ ناهض زقوت الذي تفضل بمراجعة الفصلين الأول و

الثاني من الدراسة.

ويسعدني أن أقدم الشكر لكل من أسهم بإمدادي بالمعلومات القيمة لإتمام بحثي، وأخص بالذكر مكتبة: الجامعة الإسلامية والعاملين فيها، والمكتبة العامة التابعة لبلدية غزة والعاملين فيها.

الفهرس

الصفحة	الموضوع
أ	الإهداء
ب	شكر وتقدير
ج	الفهرس
هـ	فهرس الأشكال في الملاحق
و	قائمة المختصرات والرموز
ز	ملخص الدراسة
ط	المقدمة
م	عرض وتحليل لأهم مصادر الدراسة ومراجعتها
46-1	الفصل الأول: أوضاع بلاد الشام قبيل الغزو الصليبي
2	أولاً: أهمية بلاد الشام وموقعها الجغرافي
5	1- المظاهر التضاريسية
5	أ- السهول الساحلية
6	ب- السلسلة الجبلية
7	ج- حفرة الانهدام
8	د- السلسلة الشرقية لجبال بلاد الشام
8	هـ- المناطق الداخلية
12	ثانياً: الأقسام الإدارية لبلاد الشام
17	ثالثاً: الأوضاع السياسية في بلاد الشام
17	أ- الفاطميين والسلاجقة
19	ب- الإمارات العربية في بلاد الشام قبيل الغزو الصليبي
19	1- إمارة ابن أبي عقيل في صور (455-482هـ/1063-1089م)
31	2- إمارة بني عمار في طرابلس (462-491هـ/1069-1098م)
34	3- إمارة خلف بن ملاعب في حمص وأقامية (466-491هـ/1074-1098م)
36	4- إمارة بني منقذ في شيزر (433-491هـ/1041-1098م)
40	رابعاً: أوضاع السكان
147-47	الفصل الثاني: المقاومة الشعبية للغزو الصليبي أثناء حصار المدن

48	-مدخل
50	أولاً: الحملة الصليبية الأولى
118	ثانياً: الحملة الصليبية الثانية
121	أ- المقاومة الشعبية خلال حصار الصليبيين لدمشق
127	ب- المقاومة الشعبية خلال حصار الصليبيين لعسقلان
133	ثالثاً: الحملة الصليبية الثالثة
136	المقاومة الشعبية خلال حصار الصليبيين لعكا
206-148	الفصل الثالث: موقف فئات السكان المختلفة من الاحتلال الصليبي
149	أولاً : موقف الفقهاء والطماء من المقاومة الشعبية
167	ثانياً : مشاركة الأدياء والشعراء في المقاومة الشعبية
185	رابعاً : دور الأحداث والمطوعة في المقاومة الشعبية
189	خامساً: موقف البدو من الاحتلال الصليبي
198	سادساً: موقف أهل الذمة من الاحتلال الصليبي
292-207	الفصل الرابع: أساليب المقاومة الشعبية للاحتلال الصليبي وأثرها في بلاد الشام
208	أولاً: نصب الكمائن وتعقب الصليبيين
222	ثانياً: المشاركة في فتوح القلاع والمدن
240	ثالثاً: المشاركة في المعارك
254	رابعاً: المشاركة في رصد تحركات الصليبيين
263	خامساً: أثر المقاومة الشعبية على المسلمين والصليبيين
263	1- الهجرة والنزوح
269	2- المحاكم الصليبية
272	3- ثورات الفلاحين ضد الاحتلال
284	4- الأوضاع الاقتصادية للصليبيين
293	الخاتمة
25	الملاحق
356-309	المصادر والمراجع
	ملخص باللغة الإنجليزية

48	-مدخل
50	أولاً: الحملة الصليبية الأولى
118	ثانياً: الحملة الصليبية الثانية
121	أ- المقاومة الشعبية خلال حصار الصليبيين لدمشق
127	ب- المقاومة الشعبية خلال حصار الصليبيين لعسقلان
133	ثالثاً: الحملة الصليبية الثالثة
136	المقاومة الشعبية خلال حصار الصليبيين لعا
206-148	الفصل الثالث: موقف فئات السكان المختلفة من الاحتلال الصليبي
149	أولاً : موقف الفقهاء والعلماء من المقاومة الشعبية
167	ثانياً : مشاركة الأدباء والشعراء في المقاومة الشعبية
185	رابعاً : دور الأحداث والمطوعة في المقاومة الشعبية
189	خامساً: موقف البدو من الاحتلال الصليبي
198	سادساً: موقف أهل الذمة من الاحتلال الصليبي
292-207	الفصل الرابع: أساليب المقاومة الشعبية للاحتلال الصليبي وأثرها في بلاد الشام
208	أولاً: نصب الكمانن وتعقب الصليبيين
222	ثانياً: المشاركة في فتوح القلاع والمدن
240	ثالثاً: المشاركة في المعارك
254	رابعاً: المشاركة في رصد تحركات الصليبيين
263	خامساً: أثر المقاومة الشعبية على المسلمين والصليبيين
263	1- الهجرة والنزوح
269	2- المحاكم الصليبية
272	3- ثورات الفلاحين ضد الاحتلال
284	4- الأوضاع الاقتصادية للصليبيين
293	الخاتمة
25	الملاحق
356-309	المصادر والمراجع
	ملخص باللغة الإنجليزية

فهرس الأشكال فى الملاحق

الصفحة	الموضوع	الملحق
296	نص رسالة الناصر إلى العز بن عبد السلام	الملحق رقم (1)
197	خريطة بلاد الشام قبل الغزو الصليبي	الملحق رقم (2)
198	خط سير الحملة الصليبية الأولى	الملحق رقم (3)
299	خريطة شمال بلاد الشام	الملحق رقم (4)
300	خريطة جنوب بلاد الشام	الملحق رقم (5)
301	خريطة معركة جسر الصنبرة	الملحق رقم (6)
302	لوحة تمثل حصار الصليبيين لأنطاكية عام 1098م/491هـ	الملحق رقم (7)
303	لوحة تمثل حصار الصليبيين للقدس عام 1099م/492هـ	الملحق رقم (8)
304	خط سير الحملة الصليبية الثالثة	الملحق رقم (9)
305	لوحة تمثل آلة من آلات الحصار الصليبية للمدن الإسلامية (السلام)	الملحق رقم (10)
306	لوحة تمثل آلة من آلات الحصار الصليبية للمدن الإسلامية (الرافعة)	الملحق رقم (11)
307	لوحة تمثل آلة من آلات الحصار الصليبية للمدن الإسلامية (خطاف طويل لتخريب السور وفتح ثغرة)	الملحق رقم (12)
308	لوحة تمثل آلة من آلات الحصار الصليبية للمدن الإسلامية (الدبابة، أو برج الاقتحام)	الملحق رقم (13)

قائمة المختصرات والرموز

- 1- ت: توفي.
- 2- ج: جزء.
- 3- ط: طبعة.
- 4- ق: قسم.
- 5- م: السنة الميلادية.
- 6- هـ: السنة الهجرية.
- 7- د.ط: دون طبعة.
- 8- د.ت: دون تاريخ.
- 9- د.ن: دون ناشر.
- 10- مج: مجلد.
- 11- Vol: Volume.
- 12- P: Page.
- 13- R. H. C. H. Occ. Recueil des Historiens des Croisades, Historiens Occidentaux.
- 14- R. H.E. Revue d'Hist Ecclesiastique.
- 15- R.H.G.F. Recueil des Historiens des Gaules et de la France.
- 16- R.O.L. Revue de L'orient Latin.

ملخص الدراسة

تناولت هذه الدراسة المقاومة الشعبية للاحتلال الصليبي في بلاد الشام منذ قدوم الصليبيين في العام 491هـ/1098م، وحتى طردهم في عام 690هـ/1291م، حيث بدأت الدراسة بالحديث عن وصول الصليبيين إلى مشارف بلاد الشام، واحتلالهم لأنطاكية ثم مواصلة زحفهم حتى الوصول إلى الحدود الجنوبية لبلاد الشام ناحية العريش. ونتيجة لعدم صراحة المعلومات المتعلقة بموضوع المقاومة الشعبية وندرتها وتأثيرها في بطون المصادر، فإن الباحث أطل مدة الدراسة لتشمل فترة الوجود الصليبي في بلاد الشام والممتدة نحو مائتي عام.

وقد قسمت الدراسة إلى أربعة فصول مقسمة إلى عدة نقاط ركز فيها الباحث على «وصاع بلاد الشام قبيل الغزو الصليبي، حيث تعرض فيها للحديث حول جغرافية بلاد الشام، وتقسيماتها الإدارية منذ الفتح الإسلامي ومروراً بالفترة موضوع الدراسة، ثم تناول الباحث الأوضاع السياسية، وأثرها على بلاد الشام قبيل وصول الصليبيين، ولم ينس الباحث التعرض لأوضاع السكان العرقية والمذهبية والدينية وتأثيرها على الوضع العام في بلاد الشام».

كما وتناول الباحث بالدراسة موقف أهالي الشام من الغزو الصليبي من خلال تصديهم للقوات المحاصرة للمدن الشامية، حيث أظهر السكان في تلك المدن مقاومة لا مثيل لها.

وأفرد الباحث أهمية خاصة لدراسة الدور الذي لعبته فئات وطبقات المجتمع الشامي رجاله ونساؤه، الكبار والصغار، العلماء والفقهاء، الأدباء والشعراء، البدو والحضر والفلاحين، ومختلف المذاهب والديانات وكافة أطراف السكان في بلاد الشام.

وقد تعرض الباحث لدراسة الأساليب المتنوعة التي استخدمها الأهالي في بلاد الشام لمقاومة الاحتلال الصليبي، والمتمثلة في نصب الكمائن، والمشاركة في المعارك والفتوحات، وتقديم المعلومات للقوات الإسلامية المحاربة للصليبيين.

كما تناول الباحث أثر المقاومة الشعبية في بلاد الشام على الجانبين الإسلامي والصليبي، أما الجانب الإسلامي فقد أثرت المقاومة الشعبية على السكان من خلال ما حدث من موجات نزوح وهجرة، وما كان يتخذه الصليبيون من إجراءات تعسفية ضد من يشبته بتعاونة مع المسلمين، حيث أقام الصليبيون المحاكم ضد السكان المحليين وعاقبهم.

وأثرت ثورات الفلاحين في المناطق المحتلة على الصليبيين الذين انهكوا من استمرار الهجمات، وخاصة تلك التي كان يقوم بها أفراد المقاومة الشعبية من عمليات سلب ونهب وحرق للمستوطنات والضياع الصليبية، مما كان له أسوأ الأثر على الاقتصاد الصليبي.

وأنهى الباحث دراسته بخاتمة أورد فيها ما توصل إليه من نتائج، ووضع قائمة بأسماء المصادر والمراجع التي تم الاستعانة بها، وذيّل دراسته ببعض الملاحق الضرورية لبحثه.

ويأمل الباحث من خلال هذه الدراسة التفصيلية أن يكون قد أوفى المقاومة الشعبية حقها وأن يكون قد ألم بالموضوع من كل جوانبه بشكل موضوعي، وأعطى فكرة واضحة عن جهود الشعب العربي الإسلامي في بلاد الشام في مقاومة المحتل الصليبي، وخاصة أن هذا الجهد قد أهمله غالبية المؤرخون، ولم يتعرض له جُلّ الباحثين، وأن تكون هذه الدراسة بداية لدراسات لاحقة عن مراحل أخرى من تاريخ المقاومة الشعبية ضد الغزاة والمستعمرين عبر الأزمنة المختلفة.

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الخلق والمرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار على نهجه واستن بسنته إلى يوم الدين.
تعد الحقبة الزمنية ما بين (491هـ - 1098م) إلى (690هـ - 1291م) من أخطر حقب التاريخ الإسلامي، حيث احتل خلالها الصليبيون بلاد الشام، وشهدت مقاومة ضارية للاحتلال.

وقد عكف الباحثون على دراسة هذه المرحلة من تاريخ بلاد الشام، حيث تعرضوا لحركة الجهاد الإسلامي التي تزامنت مع وصول الصليبيين إلى المنطقة. ولما كانت معظم الدراسات التي قام بها الباحثون في موضوع الحروب الصليبية تركز على أسباب تلك الحروب، وأحداثها السياسية والعسكرية ونتائجها بصورة كبيرة، وترتكز على الدور الرسمي في الجهاد ضد الصليبيين، مهملة بذلك دور السكان في مقاومة الاحتلال الصليبي في بلاد الشام، فإن الباحث رأى ضرورة إلقاء الضوء على دور هؤلاء السكان في نضالهم ضد المحتل بعيدا عن متاهات السياسة ودهاليزها، وبلاط الأسر الحاكمة وقصورها.

ولعل التجربة الفلسطينية التي نعايشها اليوم هي أكبر المحفزات للباحث على دراسة موضوع المقاومة الشعبية، لأن هذه التجربة النضالية دليل واضح على أنه ليس بالجيش النظامي وحده يمكن مقاومة المحتل، فمن الممكن أن يقاوم السكان الاحتلال في غياب الجيش النظامي، وهذا ما هو حاصل فعلا في الأراضي الفلسطينية، إذ أن الشعب الفلسطيني بكافة شرائحه يقاوم الاحتلال الإسرائيلي بما يملكه من قوة لا تضاهي بحال من الأحوال قوة المحتل العاتية، وليس لهم جيشا نظاميا يسانده في مقاومة العدو، ومع ذلك فهم بحول الله وقوته يحققون الكثير من الانتصارات مع بساطتها، بينما يستخدم الاحتلال الإسرائيلي أعتى الأسلحة لوقف هذه المقاومة لكنه لا يستطيع أن يثنيها عن عزمها.

أما عن سبب اختياري لهذا الموضوع فتمثل في:

- 1- إبراز دور السكان بمختلف فئاتهم في مقاومة الاحتلال الصليبي لبلاد الشام.
- 2- التأكيد على أنه ليس بقوة الجيش النظامي وحده يتم طرد المحتل.
- 3- رغبة الباحث في الربط بين دور المقاومة الشعبية في الماضي، وما تقوم به في الحاضر من عمليات تهدف إلى التخلص من الاحتلال وطرده.

4- التأسيس لموضوع المقاومة الشعبية، من خلال التأكيد على أن مقاومة الشعب الفلسطيني للاحتلال الصهيوني ليست جديدة على هذا الشعب ، فهو أيضا قاوم الاحتلال الصليبي إلى جانب سكان بلاد الشام.

وقبل التعرف على المواضيع التي تناولتها الدراسة، لابد من التعرّيج على الصعوبات والمشاكل التي واجهتها أثناء الكتابة والتي من أهمها:

1- طول مدة الدراسة بحيث شملت مرحلة الاحتلال الصليبي لبلاد الشام والتي استمرت ما يقارب القرنين من الزمان، مما أجبر الباحث على العودة إلى قائمة طويلة من المصادر والمراجع التي عالجت الفترة .

2- تناثر المعلومات حول المقاومة الشعبية في بطون المصادر والمراجع التي لم تتحدث عن هذا الموضوع بشكل مباشر.

3- صعوبة التوفيق بين الدراسة والعمل، فساعات العمل الطويلة جعلت أبحاثي صعبة جداً مضنية في كتابة هذا البحث.

أما عن خطتي في تناول الموضوع ومناقشته فهي على النحو الآتي:

فقد قسمت الدراسة إلى أربعة فصول، تطرقت في الفصل الأول من الرسالة لدراسة "أوضاع بلاد الشام قبيل الغزو الصليبي" وتناولت فيه عبر أربعة نقاط، جغرافية البلاد الشامية التي احتلها الصليبيون وأهمية تلك البلاد التي دفعت الأهالي فيها للاستماتة بالدفاع عنها، ثم تحدثت عن أقسامها الإدارية ابتداءً من الفتح العربي الإسلامي لها، ومروراً بالجهود الإسلامية المختلفة، وخاصة في زمن الأيوبيين والمماليك في الفترة موضوع البحث، وأشارت إلى الأوضاع السياسية في بلاد الشام قبيل الاحتلال الصليبي وتأثير ذلك على تسريع موجة المد الصليبي، كما تعرضت بشكل سريع لأصناف السكان وأثر اختلافهم من الناحية العرقية والدينية والمذهبية على سرعة احتلال الصليبيين لبلاد الشام.

وناقشت في الفصل الثاني "المقاومة الشعبية للغزو الصليبي في بلاد الشام أثناء غزو المدن" فقد بحثت فيه جهود السكان في الدفاع عن مدنهم وقراهم منذ وطأت أقدام الصليبيين ، بلاد الشام في الحملة الصليبية الأولى، ثم عودتهم في الحملة الثانية وما واجهوه من مقاومة ضارية خلال حصارهم لمدينة دمشق، وأقيمت الضوء على حصار الحملة الصليبية الثالثة لمدينة عكا بعد نجاح المسلمين في تحرير بيت المقدس سنة 583هـ/1187م، وما واجهه الصليبيون من دفاع مستميت من قبل السكان الذين ساعدوا حامية المدينة على الصمود إلى أن سقطت في أيدي الغزاة.

ويأتي الحديث في الفصل الثالث من الرسالة عن موقف فئات السكان المختلفة من الاحتلال الصليبي وبدأت الحديث فيه عن مشاركة العلماء والفقهاء في المقاومة الشعبية باللسان واللسان، ثم أشرت إلى الحملة التحريضية التي قادها الشعراء لتحفيز الزعماء والحكام والسكان على مقاومة المحتلين الصليبيين، ولم أنس جهود النساء و الأطفال والأحداث، وتعرضت لما أطلق عليه المؤرخون اسم " المطوعة" الذين اعتقد الباحث أنهم أفراد المقاومة الشعبية المجهولين من كافة طبقات المجتمع الشامي.

كما وألقى الباحث الضوء على موقف البدو بإيجابيته وسلبية من الاحتلال الصليبي، وعالجت الموقف السلبي والإيجابي أيضاً لأهل الذمة من النصارى واليهود على اختلاف طوائفهم ومذاهبهم.

أما الفصل الرابع فقد دار البحث فيه حول "أساليب المقاومة للاحتلال الصليبي وأثرها في بلاد الشام" تحدثت فيه عن مختلف أساليب وأشكال المقاومة الشعبية، حيث أشرت إلى الكمائن التي نصبها السكان المحليون لجنود الاحتلال الصليبي، ثم تعرضت لانضمام الشعب للجيش النظامي الإسلامي في فتوح المدن والقلاع الإسلامية، وكذلك المعارك التي تم خوضها ضد الصليبيين، وأشرت إلى مجموعة من الأمثلة التي توضح مدى اسهام الأهليفي تقديم المعلومات الهامة التي خدمت تحركات الجيوش الإسلامية ضد الصليبيين.

وفي الجزء الثاني من هذا الفصل عالجت أثر المقاومة الشعبية على الجانبين الإسلامي، والصليبي، أما السكان فقد تأثروا من مقاومتهم للمحتل الصليبي من خلال ما حدث من موجات نزوح وهجرة، وما أقامه الحكام الصليبيون من محاكم لمعاقبة المقاومين، كذلك أشرت إلى رد الفعل الذي ترجمه الفلاحون إلى واقع ملموس على ما كانوا يعانونه من إجراءات تعسفية، فقاموا بالعصيان المدني ضد الصليبيين، مما كان له أسوأ الأثر على الاقتصاد الصليبي الذي كان يعتمد في أساسه على العمل الزراعي، وزاد الأمر سوءاً مما كانت تقوم به المقاومة الشعبية من عمليات سلب ونهب و حرق للضياح الصليبية.

وقد ضمننت الرسالة مقدمة ودراسة تحليلية لأهم المصادر وخاتمة احتوت على أهم النتائج التي استخلصت منها وأضفت بعض الأشكال والملاحق التي رأيتها ضرورية للبحث. وفي الختام فهذه خلاصة جهدي وضعتها في الرسالة، اجتهدت قدر طاقتي أن أقدم شيئاً نافعاً جديداً، فإن وفقت في الوصول إلى ما أريد فهو توفيق من الله، وإن لم أبلغ المراد فذلك ضعف مني، وأبى الله إلا أن يكون الكمال لجلاله وكتابه العزيز.

هذا وبالله التوفيق.

دراسة تحليلية لأهم المصادر والمراجع

تتطلب دراسة موضوع المقاومة الشعبية ضد الصليبيين⁽¹⁾ في بلاد الشام الرجوع إلى عدد كبير من المصادر والمراجع العربية والأجنبية، ويعود ذلك إلى طبيعة هذا الموضوع الذي لم تذكره المصادر المعاصرة بشكل مباشر، إذ أن معظم المصادر ركزت على الجهود الرسمية للحكام وجهاد بعضهم للصليبيين، والسبب الثاني في العودة إلى الكم الكبير من المصادر يظهر في أن الدراسة التي بين أيدينا شملت فترة الوجود الصليبي في بلاد الشام والتي استمرت حوالي قرنين من الزمان (491-690هـ/1098-1291م) فكان لزاماً علينا تغطية تلك المرحلة من خلال المصادر المعاصرة واللاحقة، ولعل نظرة تحليلية سريعة لأهم مصادر البحث تعطينا فكرة هامة عن المصادر التي زودت موضوع الدراسة بكثير من المعلومات القيمة، التي لولاها لما قدر لهذا البحث أن يخرج بالصورة التي هو عليها الآن....

أولاً المصادر العربية:

1- كتب التاريخ العام:

أ- ابن القلاسي: أبو يعلى حمزة بن أسد بن علي بن محمد التميمي (ت 555هـ/1160م) هو ابن أسرة دمشقية وكانت رئاسة دمشق لبعض رجالها، وفي ظل هذه

(١) أطلقت المصادر التاريخية على القوى الأجنبية التي قدمت من الغرب الأوروبي لغزو الشرق الإسلامي تسميات عديدة منها (الفرنج، المسيحيون) وقد اعتمدت التسمية الأولى، نظراً لأن كلمة (المسيحيون) تطلق على كل من يدين بالنصرانية، وهي كلمة شاملة لكل مسيحي سواء اشترك في الحروب ضد الشرق الإسلامي، أو لم يشترك، وسواء أكان في الشرق العربي الإسلامي، أو في الغرب، كما أن هذه الكلمة ذات مدلول ديني فقط، بينما لا يخفى على أحد بأن تلك الحروب تمثلت فيها -إلى جانب الدين- المصالح الاقتصادية والسياسية، أضف إلى ذلك أن كلمة المسيحيين حديثة الاستعمال في اللغة العربية، وأن المصادر الإسلامية تذكر النصارى، وهكذا وردت في القرآن الكريم، الذي لم يرد فيه ذكر المسيحيين.

أما كلمة فرنجة، فيبدو أنها تطلق على جماعة معينة فقط من الأمم النصرانية، وربما فقط على أولئك الذين أسسوا الدولة الجرمانية جنوبي فرنسا في القرن الثاني الميلادي والذين اعتنقوا النصرانية الغربية سنة 496م على المذهب الكاثوليكي.

وقد أطلق بعض المؤرخين المسلمين كابن القلاسي وابن الأثير و أبو شامة و ابن واصل و تغري بردي، وغيرهم كلمة الفرنجة، على كل محارب مسيحي غير عربي، وأطلقها (Sivan) على المسيحيين الغربيين لا على الروم، بينما وجدت بأن كلمة (الصليبيين) أقرب التسميات لواقع الحركة السابقة، لأنها ظهرت في العصور الوسطى سنة 490هـ/1096م في بدء الحرب الصليبية الأولى، وأن هذه التسمية ارتبطت فعلاً بالحروب التي شنتها أوروبا المسيحية على المشرق الإسلامي، بعد أن وضع المحاربون شارة الصليب المصنوعة من القماش الأحمر على صدورهم وأكتافهم وظهورهم. انظر حول هذا الموضوع، انظر: الشيخ، دولة الفرنجة، ص 13-15. عبد القادر، سياسة صلاح الدين، ص 48-49، هامش (2).

الأسرة ترعرع ابن القلانسي، وقد تولى رئاسة ديوانها مرتين، وجمع بين كتابة الإنشاء، (ديوان الرسائل)، وكتابة الحساب (ديوان الخراج) فأتيح له أن يطلع على محفوظات الدولة في دمشق وأن يتعرف على الكثير من الأمور السياسية خلال حكم الأتابكة من أبناء طغتكين لدمشق⁽¹⁾، ويعتبر كتابه "المذيل في تاريخ دمشق" المشهور خطأ باسم "ذيل تاريخ دمشق" لأن مؤلفه قد جعله تذييلاً على تاريخ هلال الصابئ⁽²⁾، الوحيد الذي وصلنا كاملاً عن المرحلة الواقعة بين قدوم السلاجقة إلى بلاد الشام وبين حكم صلاح الدين لهذه البلاد⁽³⁾، وقد أمد هذا المصدر الدراسة بقدر وافر من المعلومات شكلت مادة مهمة في معظم فصول الدراسة، وبشكل خاص في الفصل الثاني حول ما يورده ابن القلانسي من قدوم الصليبيين إلى بلاد الشام وحصارهم للمدن الشامية خلال الحملة الصليبية الأولى، وتناول ابن القلانسي تصدي أهالي المدن وخاصة الساحلية للغزو الصليبي.

ب- العماد الأصفهاني: عبد الله محمد بن محمد (ت 579هـ/1200):

ولد في أصفهان سنة 519هـ/1152م، تفقه على المذهب الشافعي وعمل في خدمة نور الدين محمود زنكي بدمشق حتى وفاة الأخير في سنة 569هـ/1173م، وأشرف على ديوان الإنشاء، ثم عمل في خدمة السلطان صلاح الدين، و كان من كتاب عصره المشهورين⁽⁴⁾، يتميز أسلوبه بالإسراف في المحسنات اللفظية والصياغة البديعية، غير أن تأليفه كان يحوي الكثير من الروايات التاريخية الممتازة التي تستحق العناية لأن مؤلفها شاهد وعاصر الأحداث بنفسه، ثم سجلها بأسلوبه الأدبي⁽⁵⁾.

وقد ألف الأصفهاني خمسة كتب في التاريخ، والذي يعنينا منها ما كان له علاقة

بمادة الدراسة وهي:

1- كتاب البرق الشامي: ويغلب على هذا الكتاب طابع المذكرات الشخصية، حيث وصف فيه ما شاهده بنفسه أثناء مصاحبته لصلاح الدين⁽⁶⁾، ويقع هذا الكتاب في سبعة

(1) اليافعي، مرآة الجنان، ج3، ص308. ياقوت، معجم، ج10، ص278. العريني، مؤرخو الحروب، ص192. بروكلمان، تاريخ الأدب، ج6، ص68-69. مصطفى، التاريخ، ج2، ص226-237. عمار، التاريخ، ص203. محمد، مقدمة، ص159.

(2) ابن القلانسي، الذيل، ص86. مصطفى، التاريخ، ج2، ص238. عمار، التاريخ، ص203-204. Gibb, The Damascus, P.9

(3) العريني، مؤرخو، ص192. الحناوي، ص7.

(4) الأصفهاني، الفتح القسي، ص88-89، 142، 209. سعداوي، المؤرخون، ص19-28.

(5) عبد القادر، سياسة صلاح الدين، ص17.

(6) الأصفهاني، البرق الشامي، ج1، ص236-238.

مجلدات لا يوجد منها سوى الجزء الثالث والخامس والذي حققه فالح حسين، وقد اعتمدنا عليهما، أما باقي الأجزاء فقد اعتمدنا على مادتها فيما نقله إلينا أبو شامة في الروضتين، بالإضافة إلى المختصر الذي ألفه الفتح البنداري، والذي أطلق عليه اسم "سنا البرق الشامي".

2- كتاب الفتح القسي في الفتح القدسي: وهو المصدر الثاني للعماد الذي اعتمدنا عليه. وترجع أهمية المصدرين السابقين إلى كون صاحبهما من رجال الإدارة في عهد صلاح الدين وأحد كتابه المقربين، والقائمين على الأمور بديوان إنشائه والمطلعين على مراسلاته ووثائقه، ولقد أفاد الأصفهاني بهذين المؤلفين الدراسة بما قدمه من معلومات مهمة خاصة حول غارات صلاح الدين على المناطق الخاضعة للسيطرة الصليبية، وفتوح المدن والقلاع الإسلامية، وأمدنا بمعلومات هامة حول الثورات التي قام بها الأهالي قبيل فتح المسلمين للمدن الإسلامية وخاصة ثورة أهالي نابلس.

3- خريدة القصر وجريدة العصر: وهو كتاب أدبي جمع الكثير من القصائد الشعرية وأسماء الشعراء الذين عاصروا حكام تلك الحقبة من تاريخ بلاد الشام، وقد استفاد الباحث من ذلك المصدر في معرفة موقف الأديباء والشعراء من الاحتلال الصليبي، ودورهم في دفع الناس إلى مقاومة الصليبيين.

ج- ابن الأثير: عز الدين أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني (630هـ/1234م):

ولد سنة 555هـ/1160م في جزيرة ابن عمر، وهاجر مع أسرته سنة 576هـ/1180م إلى الموصل وشاهد حروب الصليبيين مع جيش الموصل بعد سنة (584هـ/1188م)، ولهذا اعتمد على ماسمعه ونقله في الحوادث الواقعة قبل سنة 584هـ/1188م⁽¹⁾، أما بعدها فيعتبر ابن الأثير مصدراً معاصراً لها⁽²⁾، ولكون ابن الأثير معاصراً لأحداث الغزو الصليبي، فقد امتاز بحسن الاطلاع والنظرة الشاملة للأحداث التاريخية المتعلقة بهذا الغزو، وقد جاءت معرفته وإطلاعه على شكل تفصيلات وقائعية على مستوى عال، اقتربت بالتسلسل الزمني الذي امتاز بالدقة في تصوير الغزو ونتائجه⁽³⁾، وقد أفدت من كتابه "الكامل في التاريخ" بدرجة كبيرة في معظم فصول الدراسة، وخاصة الفصل الأول والثاني، حيث أمدنا بالكثير من المعلومات حول أحوال بلاد الشام قبيل الغزو الصليبي،

(1) عمار، التاريخ، ص 60.

(2) سعون، المؤرخون، ص 9. عمار، التاريخ، ص 61-63.

(3) محمد، مقدمة، ص 136.

كما دون العديد من الحوادث الهامة والتي لم يكن ابن القلانسي المعاصر لها والأكثر قرباً منها قد دونها، وتحدث حول حصار الصليبيين للمدن ومقاومة الأهالي لهم، وأُفدت بالدرجة الثانية من كتابه "التاريخ الباهر"، خاصة بما يتعلق بحصار الحملة الصليبية الثانية لدمشق، ذلك لأن هذا الكتاب هو تاريخ للدولة الزنكية التي حكمت دمشق بعد فشل الحملة الثانية والتي كان يدين لها ابن الأثير بالولاء والود⁽¹⁾.

د- بهاء الدين يوسف بن شداد: (ت 632هـ/1234م)

كان مولده بالموصل 539هـ/1145م، تفقه على المذهب الشافعي، وتلقى علومه على يد شيوخ البصرة والموصل⁽²⁾، ومع أن بيئته موصلية، إلا أنه يختلف عن ابن الأثير في أن نزعه الموصلية لم تؤثر على كتابته، كان يعمل لدى أتابكة الموصل، وقد كلفوه مهمة القيام بالسفارة إلى صلاح الدين بعد فتح القدس سنة 583هـ/1187م، ولما وصل إلى صلاح الدين، أعجب به لدينه، وصدقه ومقدرته في الكتابة، فأبقاه إلى جانبه، وكان ابن شداد نفسه قد مال إلى صلاح الدين وأحبه لحيه في الجهاد، فخدمه بصدق⁽³⁾.

ويمثل ابن شداد نموذجاً للكاتب والسياسي والمؤرخ الأمين في نقل الأحداث وتفصيلاتها⁽⁴⁾ وقد ألف له كتاباً في الجهاد وفنونه كما ألف كتاباً آخر بحث فيه سيرة صلاح الدين كاملة وبصورة مركزة أسماه:

"النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية"، وقد قدم فيه معلومات هامة أفادت موضوع الدراسة، وبخاصة أن المؤلف كان شاهد عيان للأحداث التي جرت في عكا، فقد تحدث عن الكثير من الوقائع التي شاركت فيها المقاومة الشعبية إلى جانب صلاح الدين، كما تناول حصار الصليبيين لعكا بشكل مفصل، و بين دور الأهالي والحامية في الدفاع عنها، وأورد معلومات هامة عن أولئك اللصوص (أفراد المقاومة الشعبية) الذين كانوا يهاجمون خيام العدو، ومعلومات حول العرب البدو، ودورهم في مقاومة الصليبيين.

ولعل المعلومات التي يقدمها ابن شداد عن الأسلحة وأصنافها وأنواعها⁽¹⁾ سواء تلك التي كان يستعملها المسلمون أو الصليبيون، فيذكر المنجنقات⁽²⁾، والدبابات وآلات الحصار⁽³⁾ التي أمكنهم اصطحابها أو وجدوها في المشرق.

(1) مصطفى، التاريخ، ج2، ص114.

(2) سعداوي، المؤرخون، ص142.

(3) عبد القادر، سياسة صلاح الدين، ص28-29.

(4) ابن شداد، النوادر، ص 7-10، 14، 17-19. وغيرها حيث ينص فيها على أنه رأى الأحداث التي يؤرخ لها

أو سمع الأقوال التي يرويها. محمد، مقمة، ص163-164.

هـ- سبط ابن الجوزي: شمس الدين أبو المظفر بن قزاوغلي بن عبد الله
(ت654هـ/1256م):

وهو حفيد أبي الفرج عبد الرحمن بن الجوزي، وقد ولد سنة 582هـ/1186م في بغداد ونشأ في حنف جده لأمه المؤرخ ابن الجوزي مؤلف كتاب المنتظم في تاريخ الأمم والملوك تنقل بين بغداد ودمشق ومصر، وعمل كاتباً ومدرساً ومحدثاً، حيث تلقى علومه على يد العديد من الشيوخ والعلماء⁽⁴⁾.

يعتبر كتاب "مرآة الزمان في تاريخ الأعيان" من أهم المصادر لموضوع البحث، ومن أشهر الكتب التي وصلتنا عن فترة الدراسة وهو تاريخ عام يبدأ من بدء الخليفة وينتهي بسنة 654هـ/1256م، أي نفس السنة التي توفي فيها المؤلف⁽⁵⁾.

وقد اعتمدنا خلال الدراسة على الجزء الثامن الذي اشتمل على القسمين الأول والثاني اللذان أصدرتهما مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، واعتمدنا على الجزء الأول والثاني حتى سنة 571هـ، واللذان حققهما محمد مسفر الغامدي.

وقد استفاد الباحث من هذا المصدر في مواضع كثيرة من الدراسة، منها الفصل الأول الذي تناول أوضاع بلاد الشام السياسية قبيل الغزو الصليبي، ومن المعلومات المتعلقة بحصار الصليبيين للمدن الإسلامية ومقاومة الأهالي لذلك الغزو مع العلم أن معلوماته لم تكن تختلف كثيراً عن تلك التي أوردها ابن القلانسي و ابن الأثير في ذلك الموضوع.

أما الموضوع الأهم والذي استفاده الباحث من ذلك المصدر هو ما يتعلق بالفترة التي عاصرها المؤلف وكان شاهد عيان عليها بل وشارك في صنع الكثير من أحداثها، من خلال ما كان يقوم به من وعظ وتحريض للسكان ضد الصليبيين، حتى أنه قاد حملة شعبية من دمشق إلى نابلس لمهاجمة الصليبيين في عكا وذلك في سنة 607هـ/1210م⁽⁶⁾.

أضف إلى ذلك العلاقة التي كانت تربط بين سبط ابن الجوزي والملك المعظم عيسى إذ كان صديقاً حميماً له ولغيره من ملوك ابن أيوب⁽⁷⁾، وهذا ما أعطى أهمية قصوى للأخبار

(1) ابن شداد، النوادر، ص26.

(2) المصدر نفسه، ص26، 41.

(3) المصدر نفسه، ص42.

(4) سالم، التاريخ، ص103. الغامدي، بلاد الشام، ص15.

(5) مصطفى، التاريخ، ج2، ص544-545.

(6) ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج8، ق2، ص544-545.

(7) المصدر نفسه، ج8، ق2، ص597، 604، 619، 620، 654.

التي أوردها عن هذه الحقبة، والتي تعتبر جديدة ومفيدة، وعنه نقل كثير من المؤرخين الذين أتوا بعده.

ومن المعلومات التي استفاد منها الباحث في هذا المصدر ما يتعلق بتراجم بعض العلماء والفقهاء الذين شاركوا في المقاومة الشعبية، وانفرد سبط ابن الجوزي بما أورده حول ما يسمى "حرامية الفرنج" الذين كانوا يهاجمون المناطق الإسلامية ولكنهم كانوا أقل قوة من "حرامية المسلمين" وهم من أفراد المقاومة الشعبية الذين كانوا يكبسون على الضياع الصليبية.

ونظراً لأهمية هذا الكتاب فقد ذيل عليه قطب الدين موسى بن محمد بن أبي الحسن اليونيني المتوفي سنة 726هـ/1326م كتاباً هاماً سماه "ذيل مرآة الزمان في تاريخ الفضلاء والأعيان"، ورتبه على أساس حولي، وقد أفاد البحث من هذا الكتاب في الكثير من الأحداث، خاصة وأن معظم كتابات اليونيني هي عبارة عما شاهده وسمعه بنفسه في تلك الحقبة من تاريخ بلاد الشام⁽¹⁾، أما التي سبقت عهده فقد دون معلوماته عنها نقلاً عن مؤرخين معاصرين أمثال ابن واصل، وابن شداد الحلبي وغيرهما⁽²⁾، ومما أفاده البحث من هذا المصدر ما أورده عن المواردنة واشتراكهم في الثورة إلى جانب أهل طرابلس ضد حاكمها بونز.

و- ابن العديم: كمال الدين ابن القاسم عمر بن أحمد بن وهبة الله (ت660هـ-1261م): ولد ابن العديم سنة 588هـ/1192م. وهو من أسرة عريقة في حلب، نشأ ابن العديم في حلب وتعلم في مدارسها على يد العديد من العلماء ورافق أباه في بعض رحلاته إلى دمشق وبيت المقدس والعراق والحجاز وجالس العلماء وأخذ عنهم⁽³⁾، ومن هنا جاءت أهمية كتبه، ومن هذه الكتب:

1- "بغية الطلب في تاريخ حلب":

ترجع أهمية هذا الكتاب إلى أنه من أوثق المصادر وأصدقها عن تاريخ بلاد الشام وخاصة في الفترة موضوع الدراسة، نظراً لأن ابن العديم اعتمد على مصادر أصلية ومعاصرة معظمها مفقود. ومن تلك المصادر التي نقل عنها ابن العديم كتاب في التاريخ لمؤلفه ابن هلال الصابئي (ت480هـ)، ومن مصادره أيضاً ما نقله ابن العديم من خط المؤرخ يحيى

(1) اليونيني، ذيل مرآة الزمان، ج2، ص30، 42، ج3، ص133، ج4، ص94.

(2) المصدر نفسه، ج2، ص114، 115، 161.

(3) ابن تغري بردي، النجوم، ج7، ص208-209. مصطفى، التاريخ، ج2، ص263. الغامدي، بلاد الشام، ص26-

ابن زريق، كما نقل ابن العديم بعض الروايات عن العماد الأصفهاني، يبدو أنها من كتب العماد المفقودة، إذ لا توجد هذه المعلومات في مؤلفات العماد التي بين أيدينا، واعتمد أيضاً على والده فيما يرويه عن أسلافه، كما قابل ابن الأثير ونقل عنه مشافهة، هذا عدا مصادر أخرى كثيرة نقل عنها ابن العديم، ولا يتسع المجال لنكرها⁽¹⁾

2- "زبدة الحلب في تاريخ حلب" :

وهو في ثلاثة أجزاء استله ابن العديم من كتابه الكبير بغية الطلب، وأفرده للتاريخ السياسي لحلب على طريقة الحوليات وهو يبدأ من العصر البيزنطي حتى سنة 641هـ⁽²⁾. وقد أفاد الباحث كثيراً من هذين المصدرين كمصدرين أساسيين لتاريخ بلاد الشام في تلك الحقبة، وخاصة في الفصل الأول عند دراسة أوضاع بلاد الشام قبيل الاحتلال الصليبي، وعند حديثه عن حصار الصليبيين المتكرر لحلب، ومن المعلومات القيمة التي قدمها حول معركة البلاط سنة 513هـ/1119م، وكان لهذين الكتابين أهمية كبيرة في المادة المتعلقة بالفصل الرابع.

ز- ابن واصل: جمال الدين أبو عبد الله محمد بن سالم بن نصر الله (ت 697هـ/1298م):

ولد بحماة سنة 604هـ/1208م، وتلقى بها علومه الأولى ثم رحل في طلب العلم إلى دمشق وحلب وبيت المقدس والكرك والقاهرة، وبغداد ومكة والمدينة، ونبغ في علوم كثيرة وله عدة مصنفات، وأقام بمصر مدة طويلة وعاصر الحملات الصليبية المتأخرة وسقوط الدولة الأيوبية⁽³⁾.

وقد اعتمد ابن واصل على من سبقه من المؤرخين المعاصرين، فنقل العديد من روايات القاضي الفاضل وابن شداد وابن الأثير، وكان كثيراً ما يقول: "تكرر عماد الدين الكاتب"⁽⁴⁾، قال ابن الأثير ما ذكره العماد في البرق⁽⁵⁾، وحكى القاضي بهاء الدين ابن شداد⁽⁶⁾.

(1) الغامدي، بلاد الشام، ص 27-28.

(2) المرجع نفسه، ص 29.

(3) ابن واصل، مفرج للكروب، ج 1، مقدمة المحقق، ص 4، ج 4، ص 248.

(4) المصدر نفسه، ج 2، ص 9، 43.

(5) المصدر نفسه، ج 2، ص 40.

(6) المصدر نفسه، ج 2، ص 59.

ومما يؤخذ على ابن واصل أنه لم يميز بين "الفتح" و "الاستيلاء"، فكان يصف دخول صلاح الدين لبعض المدن الإسلامية التي احتلها الصليبيون، بأنه "استيلاء"⁽¹⁾. وقد استفاد الباحث من هذا المصدر في الكثير من فصول الدراسة وخاصة الفصل الرابع منها فيما يتعلق بفتح صلاح الدين للمدن الإسلامية ومشاركة أفراد من المقاومة الشعبية في ذلك الفتح، بالإضافة إلى المعلومات التي قدمها حول أساليب المقاومة في نصب الكمائن وبالتحديد خلال حصار الصليبيين لعكا.

ح- أبو شامة: شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم المقدسي الدمشقي (ت665هـ/1267م):

ولد بدمشق 599هـ/1203م، وعرف بأبي شامة لوجود شامة كبيرة فوق حاجبه الأيسر، تفقه على المذهب الشافعي⁽²⁾.

وهو مؤلف كتاب "الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية"، الذي حفظ فيه أبو شامة كثيراً من روايات البرق الشامي للعماد الأصفهاني، المفقود أغلب أجزائه، وروايات المؤرخ ابن أبي طيء، والكتب والمناشير التي كان يصدرها القاضي الفاضل بتوقيع صلاح الدين⁽³⁾.

وقد أفاد البحث من هذا المصدر إفادة كبيرة وخاصة في المعلومات التي يقدمها لنا في الفصل الثالث، حيث أورد الكثير من أبيات الشعر التي قيلت لتحريرض الحكام والسكان على مقاومة الصليبيين وحفظ لنا قصائد ابن القيسراني وابن الساعاتي وابن منير الطرابلسي وغيرهم من الشعراء، واستفاد الباحث مما أورده أبو شامة حول حصار الصليبيين للمدن الإسلامية وخاصة دمشق وعكا، كما واستعان الباحث بهذا المصدر في الفصل الرابع خلال الحديث عن مشاركة المقاومة الشعبية في نصب الكمائن، وفتح المدن، ومشاركتهم في المعارك.

كما واستفاد البحث من مصدر آخر لأبي شامة ألا وهو "الذيل على الروضتين"، الذي تحدث فيه عن الفترة من 590هـ حتى وفاته سنة 665هـ، وأكثر فيه من التراجم للعلماء والفقهاء الذين عاشوا في بلاد الشام خلال تلك الحقبة، ومن بينهم الفقيه والعالم العز بن عبد السلام الذي كان له موقفاً مشرفاً من الصليبيين، وشارك في التحريرض ضدهم، كما أفاد

(1) المصدر نفسه، ج2، ص93، 105.

(2) السبكي، طبقات الشافعية، ج8، ص165-167. مصطفى، التاريخ، ج2، ص266.

(3) عبد القادر، سياسة صلاح الدين، ص35.

الباحث من هذا المصدر خاصة في الفصل الثالث وبالتحديد تناول المؤرخ لتلك الحملة الشعبية التي قادها سبط بن الجوزي سنة 607هـ/1210م.

ط- ابن عبد الظاهر: محي الدين أبو الفضل عبد الله بن رشيد الدين عبد الظاهر بن نشوان بن عبد الظاهر السعدي المصري (ت 692هـ/1293م):
ولد في القاهرة سنة 620هـ/1223م، ومات في اليوم الثالث من رجب سنة 692هـ/1292م⁽¹⁾.

كان محي الدين كاتباً في ديوان الإنشاء عندما تولى بيبرس السلطنة، ويبدو أنه عمل في الديون على الأقل من أيام السلطان المظفر قطز، فقد رافق حملته على الشام ضد المغول، وسرعان ما حاز ثقة بيبرس بعد توليه الحكم⁽²⁾، ومن مؤلفات ابن عبد الظاهر:

1- "الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر": وقد استفادت الدراسة من هذا المصدر بكونه معاصراً للحقبة المملوكية في بلاد الشام، حيث تناول بالتفصيل الجهود التي بذلها السلطان الظاهر بيبرس في تحرير المدن والقلاع الإسلامية من الصليبيين حتى وفاته، وأشار ابن عبد الظاهر في عدة مواضع من كتابه إلى مشاركة المقاومة الشعبية إلى جانب الجيش الإسلامي بقيادة الظاهر بيبرس في تلك الفتوح.

2- "تشریف الايام والعصور في سيرة الملك المنصور": الذي تناول فيه ابن عبد الظاهر سيرة السلطان المنصور قلاوون فقد فقد معظمه ولم يعثر منه إلا على تاريخه للحوادث من سنة 680هـ، إلى وفاة قلاوون⁽³⁾، وقد أمد هذا الجزء المتبقي البحث بمعلومات في غاية الأهمية، حيث أوضح تلك الجهود التي بذلها قلاوون لإكمال مشروع اقتلاع الوجود الصليبي من بلاد الشام حتى تمكن من فتح مدينة طرابلس، وطرد الوجود الصليبي منها⁽⁴⁾.

ي- المقرئزي: أحمد بن علي (ت 845هـ/1442م):

ولد سنة 766هـ/1364م، بحارة برجوان بمدينة القاهرة، وهو بعلبكي الأصل، مصري المولد والمنشأ، عرف باسم المقرئزي نسبة إلى حارة المقارزة في مدينة بعلبك، عكف على دراسة القرآن، وعلوم الدين، والتاريخ وغيرهما، وتقلد العديد من الوظائف، كان آخرها وظيفة الحسبة بالقاهرة، ويعتبر المقرئزي من أشهر

(1) ابن تغري بردي، النجوم، ج8، ص38. ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، مقدمة المحقق، ص9. تشریف الايام، مقدمة المحقق، ص9.

(2) ابن عبد الظاهر، الروض، مقدمة المحقق، ص9.

(3) ابن عبد الظاهر، تشریف الايام، مقدمة المحقق، ص15.

(4) ابن عبد الظاهر، تشریف الايام، مقدمة المحقق، ص15.

المؤرخين المسلمين، وله مؤلفات تاريخية كثيرة، وقد تميزت كتاباته بالدقة في إيراد الحقائق والاعتماد على مصادر ووثائق لا تزال أصولها مفقودة⁽¹⁾.

وقد أفاد البحث من كتابين للمقريزي هما:

- 1- "تعاط الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء"، وتناول فيه المقريزي بالشرح والتفصيل تاريخ الدولة الفاطمية، وأفاد البحث من هذا المصدر عند دراسة النفوذ الفاطمي في بلاد الشام، وتنازع السلاجقة والفاطميين وأثر ذلك على أحوال بلاد الشام قبيل الغزو الصليبي⁽²⁾.
- 2- "السلوك لمعرفة دول الملوك"، الذي كان من المصادر الأساسية فيما يتعلق بالفترة المملوكية وجهاد المماليك ضد الصليبيين، ومشاركة المقاومة الشعبية في فتح المدن الإسلامية المحتلة في الفصل الرابع من الدراسة.

(1) السخاوي، الضوء اللامع، ج2، ص21. زيادة، دراسات، ص7-8. الغامدي، بلاد الشام، ص9. عنان، مؤرخو مصر، ص87.

(2) انظر عن ذلك بالتفصيل: الفصل الأول من الدراسة.

2- كتب التراجم:

قدمت هذه الكتب، خلال ترجمتها للأشخاص الكثير من المعلومات الهامة حول المقاومة الشعبية في بلاد الشام، أضف إلى ذلك أنها تطرقت أحياناً إلى مشاركة تلك الشخصيات من الفقهاء والعلماء في المقاومة الشعبية ضد الصليبيين، فضلاً عن استفادة الباحث من هذه المصادر في التراجم الموجودة في هوامش البحث.

وأهم كتب التراجم التي اعتمدت عليها الدراسة، كتاب "وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان" لابن خلكان (ت 681هـ/1282م)، و"طبقات الشافعية الكبرى" للسبكي (ت 771هـ/1369م)، وكتب الطبقات الأخرى التي لا داعي لذكرها.

ومن كتب التراجم أيضاً كتاب "سير أعلام النبلاء" و"تاريخ الإسلام" و"العبر" لشمس الدين الذهبي (ت 748هـ/1347م)، وكتاب "الوافي بالوفيات" لابن أبيك الصفدي (ت 764هـ/1363م)، وكتاب "المنهل الصافي" لابن تغري بردي (ت 874هـ/1464م)، وكتاب "شذرات الذهب في أخبار من ذهب" لابن عماد الحنبلي (ت 1089هـ/1678م).

3- كتب الجغرافية والرحلات:

قدمت هذه المجموعة من الكتب معلومات قيمة عن الناحية الجغرافية لبلاد الشام موضوع الدراسة وخاصة في الفصل الأول، واستفاد الباحث من هذه المصادر خلال تعريفه للكثير من المناطق الإسلامية في بلاد الشام ومن هذه المصادر:

أ- ابن منقذ: مؤيد الدين أسامة بن مرشد بن علي بن منقذ الكناني (ت 584هـ/1188م):

ولد في قلعة شيزر سنة 488هـ/1095م، ثم سكن دمشق زمن نور الدين محمود، وانتقل بعدها إلى القاهرة، وعندما دخل صلاح الدين دمشق استدعاه صلاح الدين وغمره بعطفه وإحسانه وقربه إليه فمدحه أسامة، وكان قد جاوز الثمانين عاماً من عمره، ويعتبر أسامة بن منقذ من الرجال المشهورين والشعراء المبرزين، وكان له علاقات شخصية مع الصليبيين في أوقات السلم⁽¹⁾.

(1) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج1، ص195-196. اليافعي، مرآة الجنان، ج3، ص427. الغساني، المسجد المسبوك، ص205-206. عوض، الجغرافيون، 245-247. البيضاوي، نابلس، ص33. هامش (80).

وكتابه "الاعتبار": وتكمن أهمية هذا المصدر في أن واضعه كان معاصراً للأحداث التي أرخ لها، فضلاً عن أن كل ما تعرض له كان خلاصة تجاربه ومشاهداته في البلاد التي زارها، وانفرد عن غيره بذكر الأحداث التي أمدنا بها والخاصة بموضوع البحث⁽¹⁾. ومن المعلومات القيمة التي أفاد من هذا المصدر خلال دراسته ما يتعلق بمهاجمة أفراد المقاومة الشعبية للصليبيين واستنزافهم اقتصادياً، والمعلومات المهمة عن المحاكمات الصليبية التي جرت في الأراضي المحتلة، وأفادنا ابن منقذ بالكثير من الإشارات حول المقاومة الفردية والجماعية التي مارسها سكان الأراضي المحتلة ضد الصليبيين، ولم يغفل عن ذكر المرأة الشامية من دور في مقاومة الاحتلال الصليبي. ولكن مما يؤخذ على ابن منقذ وصفه للسكان الذين يهاجمون المناطق والضياع الصليبية بالحرق والنهب والسرقة بأنهم "حرامية المسلمين" مع أن المفترض أن نسميهم أبطال المقاومة الشعبية⁽²⁾.

ب- ابن جبير: محمد بن أحمد الأندلسي (ت 614هـ/1217م):

ولد في مدينة بلنسية 540هـ/1145م، وتلقى العلم على شيوخ عصره في غرناطة، وسبته، وقام ابن جبير بثلاث رحلات إلى المشرق الإسلامي، الأولى 578هـ، وانتهى منها بعودته إلى نابلس 581هـ، والثانية في 585هـ، أي بعد أن استرد السلطان صلاح الدين بيت المقدس، أما الثالثة فكانت في 614هـ، ولكن لم يطل به العمر حيث توفي فالإسكندرية في العام نفسه⁽³⁾.

وقد سجل ابن جبير كل ما شاهده في بلاد الشام في كتاب "تذكرة الأخبار عن اتفاقات الأسفار" المعروف برحلة ابن جبير، من خلال زيارته لتلك البلاد، حيث أشار إلى بعض عادات الصليبيين، كما أشار إلى حصار الصليبيين لمدينة صور وسجل لنا موقف الأهالي من هذا الحصار، وانفرد ببعض الروايات التي تتحدث عن هذا الحصار، كما أشار إلى القوافل التجارية التي كانت تعبر البلاد المحتلة، كما تحدث عن الضرائب التي كان يفرضها الاحتلال الصليبي ضد السكان، ودون ما شاهده عن الأسرى والأسيرات المسلمين، أضف إلى ذلك وصفه للعديد من الحصون والقلاع الصليبية في بلاد الشام، كما انفرد بالحديث عن حصن الزيب الصغير الواقع إلى الشمال من عكا والذي شكل

(1) البيشاوي، نابلس، ص 26. محمد، مقمة، ص 160.

(2) البيشاوي، نابلس، ص 27.

(3) سالم، التاريخ، ص 220-221. عوض، الجغرافيون، ص 283-287.

حماية لها مع بعض القلاع الأخرى، واستفاد الباحث من المعلومات التي أوردها ابن جبير حول السكان في شمال فلسطين وتبنين وأنهم كانوا يشكلون أغلبية وخاصة في الريف والقرى بسبب عدم هجرة الكثير منهم، أو أنهم عادوا بعد فترة وجيزة إلى قراهم وأراضيهم، أما الصليبيين فقد انتشروا فقط في القلاع والمدن؛ وبالطبع فإن تلك المعلومات قد استفاد منها الباحث في معظم فصول الدراسة.

ج- **ياقوت الحموي**: ياقوت بن عبد الله (ت 626هـ/1228م):

ولد في الفترة الواقعة بين سنتي 574-575هـ/1178-1179م ببلاد الروم، ولكنه وقع في الأسر وهو صغير فاشتراه أحد تجار بغداد كي يعتمد عليه في تجارته، وتنقل ياقوت بين كثير من الأمصار وتوفي بظاهر مدينة حلب⁽¹⁾.

ومن أهم مؤلفاته "معجم البلدان"، وهو بمثابة موسوعة جغرافية قائمة بذاتها، نظراً لوفرة المادة التي أوردها وتحدث فيها عن البلدان والأقاليم والمدن والجبال والأنهار، وكتاب معجم البلدان مرتب على حسب الحروف الأبجدية ولا غنى عنه للباحث في التاريخ والجغرافيا والأدب وتاريخ البلدان خاصة في تحقيق أسماء المدن والبلدان والمعالم الجغرافية⁽²⁾، وقد أفاد منه الباحث من حيث كونه المصدر الأول للتعريف بالبلدان والقلاع والقرى والحصون التي تناولتها الدراسة، إضافة إلى أن ياقوت كان يتحدث أثناء تعريفه بالبلدان والمدن التي تعرضت لغزو الصليبيين عن مقاطعة سكانها للغزاة واستردادها من قبل المسلمين.

ومن المصادر الجغرافية الأخرى التي استفاد منها الباحث -وخاصة الفصل الأول من الدراسة والذي تناول الجزء الأول منه جغرافية بلاد الشام- كتاب "البلدان" لليعقوبي (ت 192هـ/905م)، وكتاب "مسالك الممالك" لابن خردادبة (توفي في حدود 300هـ)، وكتاب "أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم"، (ت 387هـ/997م)، وكتاب "المسالك والممالك" للإصطخري (توفي في النصف الأول من القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي)، و"صورة الأرض" لابن حوقل (عاش في القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي)، و"المسالك والممالك" لأبي عبيد البكري (ت 487هـ/1094م)، وكتاب "تزهة

(1) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج6، ص127-129. اليافعي، مرآة الجنان، ج4، ص59. فراج، معجم، ص78.

سالم، التاريخ، 196. الفاخوري، تاريخ، ص774. عوض، ص73، 75.

(2) البيضاوي، نابلس، ص26.

المشتاق في اختراق الآفاق" للإدريسي (ت560هـ/1124م)، وغيرها من المصادر الجغرافية وكتب الرحالة.

4- كتب ومصادر أخرى:

بالإضافة إلى المصادر سألقة الذكر فقد استفاد الباحث خلال دراسته من عدد من المصادر الأخرى المخطوطة والمطبوعة ومن بينها على سبيل المثال لا الحصر: "المنتظم في تاريخ الأمم والملوك" لابن الجوزي (597هـ/1202م)، وكتاب "الأعلاق الخطيرة في نكر أمراء الشام والجزيرة" لابن شداد الحلبي (ت684هـ/1285م)، و"تاريخ مختصر الدول" لابن العبري (ت685هـ/1286م)، وكتاب "شفاء القلوب في مناقب بني أيوب" للحنبلي (عاش في القرن السابع الهجري - القرن السابع الميلادي)، وكتاب "المختصر في أخبار البشر" لأبي الفداء (ت732هـ/1331م)، وكتاب "تهاية الأرب في فنون الأدب" للنويري (ت732هـ/1331م)، ومصادر عديدة أخرى.

كما ويجب أن ننوه هنا إلى أهمية المصادر الأدبية للدراسة التي بين أيدينا حيث أفاد البحث من عدد من الدواوين الشعرية فيما يتعلق بالفصل الأول، والثالث عندما تناول الباحث دور الشعراء والأدباء حيث تم الرجوع إلى عدد من الدواوين "ديوان ابن أبي حصينة"، لابن أبي حصينة (ت457هـ/1065م)، و"ديوان ابن حيوس" لابن حيوس، أبو الفتيان محمد بن سلطان بن محمد، (ت473هـ/1080م)، و"ديوان ابن خياط"، لابن خياط (ت517هـ/1123م)، وديوان ابن أسعد"، لابن أسعد الموصلبي (ت581هـ/1185م).

أضف إلى ذلك ما قدمته لنا المصادر اللغوية من فائدة عظيمة في شرح وتفسير بعض الكلمات العربية مثل كلمة التناء، والأحداث، الرعاع، والشطار، وغيرها من الكلمات. ونخص بالذكر هنا المصدرين اللغويين الأساسيين اللذين لا غنى للباحثين والدارسين عنهما ألا وهما: كتاب "لسان العرب" لابن منظور (ت711هـ)، و"مختار الصحاح" للرازي (ت721هـ).

ثانياً: المصادر الأجنبية:

1- المصادر التاريخية:

أ- المؤرخون الأوائل:

وتكمن أهمية أعمالهم في أنهم كانوا شهود عيان على أحداث الحملة الصليبية الأولى وما بعدها حتى سنة 521هـ/1127م وهذه الكتب هي:

1- المؤرخ المجهول⁽¹⁾ Anonymus صاحب كتاب "أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس. Gesta Francorum et aliorum Hierosolymitanorum.

وقد اعتمدنا الترجمة العربية لهذا الكتاب والتي قام بها حسن حبشي.

2- ريموندا جيل⁽²⁾ Raimond d, Agiles صاحب كتاب "تاريخ الفرنجة غزاة بيت المقدس" Historia Francorum qui ceperunt Iherusahalem، وقد اعتمدنا الترجمة العربية لهذا الكتاب التي قام بها حسين محمد عطية.

3- فوشيه الشارترى⁽³⁾ الذي وضع كتاب "أعمال الفرنجة الحاجين إلى بيت المقدس" Gesta Francorum Iherusalem Peregrinantium، وقد اعتمدت على الترجمة العربية التي قام بها قاسم عبده قاسم لكتاب الشارترى تحت عنوان "الاستيطان الصليبي في الأرض المقدسة"، كما أن هناك ترجمة لزياد العسلي تحت عنوان "تاريخ الحملة إلى بيت المقدس"

(1) كان تابعاً لبوهيمند النورماني، وينحدر من أسرة نورمانية تبعت أسرة تنكريد أوف هوتفيل إلى بريطانيا في القرن 11م، وكل ما عرف عنه أنه من طبقة الفرسان، بقي في خدمة بوهيمند حتى نهاية عام 1098م، ثم التحق بقوات ريموند كونت صنجيل إلى بيت المقدس، وجاء كتابه عبارة عن يوميات لم تدون مرة واحدة، ولكن على فترات خلال الحملة الأولى، انظر: يوسف، العرب، ص4 وما بعدها. توديبود، تاريخ الرحلة، مقممة المحقق، ص18، هامش(1).

(2) ينتمي إلى إقليم اللوار الأعلى بفرنسا، بدأ رحلته إلى الشرق ضمن قوات المنسوب البابوي أدهيمار، ثم أصبح كاهناً لريموند كونت تولوز، وكتابه بعالج تاريخ الحملة الصليبية منذ الدعوة لها وحتى معركة عسقلان. انظر: ريموندا جيل، تاريخ الفرنجة، مقممة المحقق، ص3. توديبود، تاريخ الرحلة، مقممة المحقق، ص18، هامش(3).

(3) ولد فولشر بمدينة شارتر بفرنسا في عام 1059م، وكان ممن حضروا مؤتمر كليرمونت الكنسي، ثم توجه إلى الشرق في صحبة روبرت النورماندي، ثم اصطحب بلدوين البولوني إلى الرها وأصبح كاهناً لكنسيته، وظل ملازماً له حتى وفاة بلدوين في عام 1118م. انظر: توديبود، تاريخ الرحلة، مقممة المحقق، ص19، هامش(1). العريني، مؤرخو الحروب، ص37-43. البيشاوي، الممتلكات، ص32، هامش(1). نابلس، ص28، هامش(10).

4- بطرس توديبود⁽¹⁾ Petrus Tudebodus مؤلف كتاب "تاريخ الرحلة إلى بيت المقدس". Historia de Hierosolymitano Itinere.

وقد عالج هؤلاء في أعمالهم أحداث الحملة الصليبية الأولى منذ دعا إليها البابا أوربان الثاني وحتى استيلاء الصليبيين على مدينة بيت المقدس، وما قام به فرنج الحملة من أعمال منذ خروجهم من أوروبا مروراً بأراضي الدولة البيزنطية وآسيا الصغرى وبلاد الشام، وعلاقاتهم بكل من البيزنطيين والأرمن والمسلمين على السواء، وبينما تتوقف أعمال كل من مؤلف الجستا وريموندا جيل وتوديبود بذكر أحداث معركة عسقلان (14رمضان 492هـ/12أغسطس 1099م)، فإن كتاب فولشر يغطي الفترة حتى عام 521هـ/1127م، وخلال الفترة من عام 514هـ/1120م وحتى عام 521هـ/1127م يعتبر هو المصدر اللاتيني الوحيد المعاصر الذي يعالج تاريخ الإمارات الصليبية في بلاد الشام⁽²⁾.

وقد أفاد الباحث من هذه المصادر كون أصحابها شهود عيان على أحداثها وما شاهده من مقاومة شعبية شديدة خلال حصار الجيوش الصليبية للمدن الإسلامية في بلاد الشام أثناء الحملة الصليبية الأولى، حيث أوردوا الكثير من الروايات حول جهود السكان وما فعلوه في سبيل دفع العدوان الصليبي، وهذه الأهمية لتلك المصادر تمحورت في الفصل الأول.

أما الشارترى فالأنه متأخر قليلاً عن المصادر الثلاثة الأولى فإنه أفاد الدراسة بالعديد من الروايات التي انفرد بها، أو كان شاهد عيان عليها، من ذلك إشارته حول الهجوم الذي قامت به القوات الإسلامية على نابلس سنة 507هـ/1113م، ودور السكان المحليين في مساعدة تلك القوات، كما وأفاد الباحث من هذا المصدر فيما يتعلق في الفصل الثالث حول ما أورده من موقف للمسيحيين الشرقيين -الذين أطلق السريان أو السوريين- من الصليبيين في بلاد الشام، فضلاً عن أنه أورد بعض المعلومات حول الكمائن التي كانت تنصبها المقاومة الشعبية.

(1) كان بطرس توديبود من مواطني بواتيه بفرنسا، ثم رحل إلى الشرق بصحبة مواطنيه الذين كان يقودهم جاستون دي بيرن Gaston de Bean وحين حمل بوهيمند الصليب ترك توديبود رئيسته الأول ليلحق بقوات بوهيمند حتى انقسام الصليبيين إلى ثلاثة جيوش بعد سقوط نيقية، حيث صحب قوات كونت صنجيل الذي قاد بقية الفرنج للاستيلاء على مدينة بيت المقدس، وفي معسكر صنجيل بدأ توديبود في تدوين تاريخه، ولا نعرف عن هذا المؤرخ متى ولد أو توفي . انظر: توديبود، تاريخ الرحلة، مقدمة المحقق، ص 27-31.

(2) توديبود، تاريخ الرحلة، مقدمة المحقق، ص 19.

ب- المؤرخون المتأخرون:

وجاءوا إلى بلاد الشام بعد انتهاء أحداث الحملة الصليبية الأولى، ونقلوا عن المؤرخين الأربعة السابق ذكرهم، أو سجلوا ما رواه لهم من بقي في الشرق من صليبي الحملة الصليبية الأولى.

ومن هؤلاء المؤرخين الذين استفاد منهم الباحث: راؤول كاين⁽¹⁾ Raoul de caen، صاحب كتاب "أعمال تنكريد في الحملة إلى بيت المقدس" Gesta Tancredi in Expeditione Hierosolymitana. وقد روى له تنكريد ذكرياته عن الحملة الصليبية وأحداثها، فقام رادولف بتدوين تلك الأحداث، وقد استفاد الباحث من بعض الروايات التي أوردها رادولف خاصة عند الحديث عن هجوم تنكريد على إقليم الجليل وهروب السكان دون مقاومة.

ج- مصادر صليبية متأخرة:-

وقد كتبوا عن الحملة الصليبية الأولى وما بعدها دون أن يشاركوا فيها، ومن هؤلاء المؤرخين الذين أفادت منها الدراسة:

1- ألبرت دكس⁽²⁾ Albert d, Aix، صاحب كتاب "تاريخ بيت المقدس" Historia Hierosolymitana، فعلى الرغم من أن هذا المؤلف لم يكن معاصراً للحملة الصليبية الأولى، واعتمد في تأليف كتابه على ماسمعه ممن اشترك بالحملة الأولى، إلا أنه يعد من المصادر الصليبية الهامة لدراسة الحملة الصليبية الأولى، وقيام مملكة بيت المقدس، وغزوات الصليبيين وحروبهم وأحوال الشام في الفترة الواقعة بين سنتي 1103-1120م⁽³⁾. وقد أفاد الباحث من هذا المصدر في الفصل الأول فيما يتعلق بحصار الصليبيين للمدن ومقاومة الأهالي لهم، وحول احتلال تنكريد لإقليم الجليل.

(1) ولد راؤول كاين Raoul de Caen عام 1080م بمدينة كان بفرنسا، وانخرط في سلك الرهينة، رافق بويمند النورماندي في حملته على بيزنطة في 1108م، ثم وصل إلى بلاد الشام لينضم إلى تنكريد في أنطاكية، ووضع كتابه في عام 1112م، ومات في عام 1131م. انظر: توديبود، تاريخ الرحلة، مقدمة المحقق، ص20.

(2) كان ألبرت أميناً لخزانة مدينة أكس Aix (أخن) وعاش فيما بين عامي 1119م، وعام 1150م، وربما يكون قد دون كتابه في عام 1125م، تميز كتابه بالدقة والمعلومات الوفية بالرغم من أنه لم ير شيئاً مما رواه، بل اعتمد على روايات من عاد إلى الغرب من الصليبيين وعلى أعمال شاهدي العيان من مؤرخي الحملة إلا أنه لم يذكر أيًا منهم في كتابه. انظر: توديبود، تاريخ الرحلة، مقدمة المحقق، ص21. البيشاوي، نابلس، ص29، هامش (16). يوسف، العرب، ص10.

(3) البيشاوي، نابلس، ص17.

2- حنه كومنين Anna Comnina الأميرة البيزنطية صاحب كتاب "الألكسياد" Alexiad، التي استفاد الباحث من كتابها في بداية الفصل الأول حول ما يتعلق بتسليم الصليبيين للمدن التي يتم احتلالها في آسيا الصغرى إلى البيزنطيين.

3- وليم الصوري⁽¹⁾ William of Tyre كتاب "تاريخ الأعمال المنجزة فيما وراء البحار" Gesta rerum in Partbus transmarinis Gestarum ، والذي وضعه أهم مؤرخي الحروب الصليبية قاطبة وليم الصوري رئيس أساقفة صور، وقد اعتمدنا على الترجمة العربية للكتاب التي قام بها سهيل زكار، وهناك ترجمة أخرى قام بها حسن حبشي.

ويعتبر هذا الكتاب الذي نقله المؤلف عن المؤرخين المعاصرين موسوعة في تاريخ الحروب الصليبية حيث عالج فيه المؤلف تاريخ الفرنجة في الشرق حتى عام 580هـ/ 1184م، وقد افاد منه الباحث في جميع فصول الدراسة تقريباً، نظراً لما يزرخ به هذا المصدر من معلومات وإشارات هامة جداً حول موضوع المقاومة الشعبية، ومنها على سبيل المثال لا الحصر ما تعرض له حول حصار الصليبيين للمدن والمقاومة الشعبية الشديدة التي واجهوها، كما أشار إلى حادثة هجوم المسلمين على مدينة نابلس عام 507هـ/ 1113م، ومشاركة المقاومة الشعبية لتلك القوات، كما أورد معلومات هامة حول تعرض قوافل الحجاج الصليبية لهجمات المقاومة الشعبية، وانفرد بالحديث عن محاولة أفراد المقاومة الشعبية اغتيال الملك بلدوين، كما ذكر ثورة أهل الجبل على حاكم طرابلس، وتعرض للحديث عن امتناع الفلاحين عن زراعة الأراضي المحتلة بهدف تجويع الصليبيين، وتناول في كتابه بإسهاب واعترف بالأسباب التي هدف الصليبيون من ورائها إنشاء القلاع، وهي ليست فقط لصد الهجمات الإسلامية، وإنما لتكون

(1) ولد وليم الصوري في مدينة بيت المقدس في عام 524هـ/ 1130م، وأمضى عشرين عاماً من حياته (1145-1165م) مسافراً في فرنسا وإيطاليا طلباً للعلم، فدرس علم اللاهوت والفلسفة والرياضيات في باريس وشارتر، كما درس الكلاسيكيات في أوليانز، والقانون في بولونيا، وعاد إلى الشرق في عام 1165م حيث تقلد عدة مناصب دينية كان آخرها رئيساً لأساقفة صور، وفي عام 1170م أصبح مربيًا لبولدين الرابع ملك بيت المقدس، ابن الملك عموري الأول، ومنذ عام 1174م صار مستشاراً للمملكة الصليبية إلى جانب رئاسة لأساقفة صور، وكلفه بولدين بمهام رسمية إلى القسطنطينية وإلى مجلس اللاتيران، وفي 1180م تولى هرقل بطريركية بيت المقدس الأمر الذي كان يحلم به وليم الصوري لنفسه، ومات وليم حوالي عام 1186م، ويبدأ كتابه بالحديث عن فتوح المسلمين لبلاد الشام وينتهي بأحداث عام 580هـ/ 1184م. انظر: توديبود، تاريخ الرحلة، مقدمة المحقق، ص 26. العريني، مؤرخو الحروب، 10-103، 110-113، 145-156. سعداوي، المؤرخون، ص 41-42. توفيق، المؤرخ، ص 181-200. عثمان، مدينة صور، ص 339-340.

مراكز مراقبة لحماية طرق الحجاج من هجمات المقاومة، ومراكز هجوم على السكان المحليين في المناطق الإسلامية الريفية.

كما واستفاد الباحث من المعلومات التي أوردها الصوري وغيره من المصادر السابقة عن المذابح التي ارتكبت بحق السكان في بلاد الشام، وبيان الأهداف الكامنة وراء ذلك وهي إجبار السكان على هجر أراضيهم.

4- امبرواز⁽¹⁾ Ambroise صاحب كتاب "حملة ريتشارد قلب الأسد" The Crusade of Richard Lion- Heart وعلى الرغم من أن الباحث لم يستطع الإطلاع على هذا الكتاب الهام، إلا أنه اعتمد في معلوماته الواردة فيه على كتابين حديثين، هما: هارولد لامب: شعلة الإسلام، وستيفن رينسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، وقد أفاد الباحث من هذين الكتابين في الفصل الثاني، خاصة عند الحديث عن حصار الصليبيين لمدينة عكا.

5- المؤلف المجهول صاحب كتاب "هرقل"⁽²⁾ Empereur et de Conaues de la Terre d, outrs mer، وقد أفاد الباحث من هذا الكتاب في الفصل الرابع عندما تحدث عن هجوم الأهالي على القدس التي كان قد سلمها الملك الكامل لفريدريك الثاني سنة 626هـ/1229م تعبيراً عن سخطهم لما فعله الملك الكامل.

6- يعقوب الفيتري⁽³⁾: مؤلف كتاب "تاريخ بيت المقدس" The History of Jerusalem، وقد اعتمدنا على الترجمة العربية لسعيد البيشاوي، وأفاد الباحث من هذا الكتاب بشكل أساسي في الفصل الثاني عند الحديث عن حصار الصليبيين لعكا واستيلاء الصليبيين عليها بعد مقاومة شعبية ورسمية، حيث أشار الفيتري إلى استسلام السكان والحامية، ثم قيام القوات الصليبية بدخولها بالقوة وقتلهم لحاميتها.

(1) لم أشر على تعريف له.

(2) نشر هذا الكتاب باللغة الفرنسية القديمة في الجزء الثاني من (مجموعة الحروب الصليبية) باعتباره تكملة لتاريخ وليم الصوري ولم يعرف مؤلفه، وقام أحد رعايا الملك لويس التاسع بترجمة تاريخ وليم الصوري في منتصف القرن الثالث عشر الميلادي، ولكنه لم يكتف بذلك، بل أضاف إليه نيلاً سماه (تاريخ هرقل) لأن أول كلمة افتتح بها الكتاب (الإمبراطور هرقل). انظر: البيشاوي، نابلس، ص29، هامش(24).

(3) كرس يعقوب الفيتري جهوده لخدمة القضية الصليبية في بلاد الشام، وفي عام 614هـ/1271م عين أسقفاً لمدينة عكا ورافق قوات الحملة الصليبية الخامسة إلى دمياط في عام 615هـ/1218م، وفي عام 627هـ/1229م، عين كاردينالاً وأسقفاً لكنيسة بيت المقدس ومندوباً للبابا جريجوري التاسع. انظر: عطية، إمارة أنطاكية، ص247، هامش (1).

3- كتب الرحالة:

تركنا لنا رحلات الحج المسيحي إلى الأراضي المقدسة في بلاد الشام تراثاً على جانب كبير من الأهمية، وعبرت تلك الرحلات عن العاطفة الدينية، وأيضاً عن الطابع الديني لتقافة معظم الرحالة ونجد من خلالها العديد من الإشارات التي ارتبطت بها أحداث المسيحية في عهدها الباكر.

وقد ارتبط بنشاط الرحالة إلى الأماكن المسيحية المقدسة في فلسطين ظهور نوع من المؤلفات اللاتينية اهتم بإيراد وصف للأراضي المقدس، وذلك لكي يكون بمثابة دليل جغرافي في أيدي الحجاج القادمين لأول مرة إلى تلك البقاع ولا يعرفون عنها إلا النذر اليسير⁽¹⁾.

ومن أمثلة ما وصلنا من الرحلات، رحلة سايلولف الذي قام برحلته عام 497هـ/1102م- 1103م، ورحلة الأب الروسي دانيال الذي قام برحلته ما بين عامي 500-515هـ/1106- 1107م، ثم الرحالة بينامين التطيلي الذي قام برحلته في خلال المدة من عام 556-569هـ/1160-1173م.

أ- رحلة سايلولف Saewulf: وقد اعتمدنا على الترجمة العربية التي قام بها سعيد البيشاوي، وأفادت منه الدراسة فيما يتعلق بإشارته إلى الطريق الجبلي الذي كان يصل بين يافا وبيت المقدس حيث اعتاد المسلمون على نصب الكمائن والمصائد للصليبيين في الأماكن الجوفاء من الجبال والكهوف الصخرية.

ب- رحلة الحاج الروسي دانيال الراهب Abbot Daniel⁽²⁾ Pligrimage of the Russian abbot Daniel in the Holy Land وقد اعتمدنا على الترجمة العربية التي قام بها أيضاً سعيد البيشاوي، وأفادت الدراسة من هذه الرحلة من خلال ما قنمه الرحالة من وصف للطرق التي كان يمر بها الصليبيون عبر المناطق المحتلة، وخاصة طريق بيت المقدس الذي وصفه وصفاً هاماً، وأشار إلى تلك الكمائن والمصائد التي كان ينصبها رجال المقاومة الشعبية عبر تلك الطرق، وأوضح المعاناة التي عاناها خلال رحلته بسبب تلك الهجمات.

(1) عوض، التنظيمات، ص19.

(2) يلاحظ هنا أن الروس كانوا قد تنصروا في عهد ملكهم فلايمير عام 378هـ/988م، ونجد أنهم اتجهوا منذ ذلك الحين إلى زيارة الأماكن المسيحية المقدسة في فلسطين منذ القرن الرابع هجري/ القرن العاشر الميلادي، ومع الاحتلال الصليبي لبيت المقدس تزايد حجمهم وكان الأب دانيال أحد رهبان الكنيسة الأرثوذكسية ويبدو أنه كان على علاقة طيبة مع الملك الصليبي لبيت المقدس بلوين Baldwin. انظر: يوغوليوسكي، رحلة، ص641-644. زيادة، رواد الشرق، ص82-83. عوض، التنظيمات، ص23، هامش (34).

الفصل الأول

أهمية بلاد الشام وموقعها الجغرافي

أولاً:- أهمية بلاد الشام وموقعها الجغرافي:-

تُشكل بلاد الشام حلقة وصل ما بين البحر المتوسط، وهضبة الأناضول وشبه جزيرة العرب كما أنها تربط بين وادي الرافدين، ووادي النيل، وأوروبا، وقد سكنتها الأقاليم السامية⁽¹⁾ منذ عصور قديمة، وسكنتها قبائل عربية هاجرت إليها من جزيرة العرب⁽²⁾. وكان العرب يتاجرون معها قبل الإسلام⁽³⁾، وبعد بعثة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم الذي أوصى بسكناها بقوله: "عليكم بالشام فإنها خيرة الله من أرضه، يجتبي إليها خيرته من عباده.. وإن الله توكل لي بالشام وأهله"⁽⁴⁾. ومن بلاد الشام أُسري بالرسول صلى الله عليه وسلم إلى السماء⁽⁵⁾، فهي أرض الإسراء والمعراج، فيها أولى القبليتين، وثاني المسجدين، وثالث الحرمين الشريفين⁽⁶⁾. وقد صنفت العديد من الكتب حول فضائل الشام، والقدس الشريف، والمسجد الأقصى⁽⁷⁾ بشكل خاص.

(1) من هذه الأقاليم الحثيون الشماليون وعاصمتهم مدينة كركميش، والحثيون الجنوبيون وانتشروا من أرض حماة إلى فلسطين وكانت عاصمتهم مجدو في وادي نهر المقطع بفلسطين، والباتينيون وعاصمتهم مدينة كتلوا أسفل نهر العاصي، والحمويون وعاصمتهم مدينة حماة، والآراميون الذين سكنوا الجوانب الشرقية من سورية وعاصمتهم الخاصة دمشق، والكنعانيون، والفينيقيون الذين سكنوا الساحل من يافا إلى اللاذقية، ومنهم الفلسطينيون الذين كانوا يسكنون الجنوب الغربي من تخوم الفينيقيين إلى تخوم مصر، وكذلك العبرانيين، والعرب. انظر تفاصيل ذلك في: بورتر، مختصر، ص92 فما بعدها. مقلد، الكنعانيون، ص195 فما بعدها. غلاب، سكان فلسطين، ص135-142.

(2) غلاب، سكان فلسطين، ص136. الحويري، الأوضاع، ص15، العاني، إدارة، ص17.

(3) وهي المعروفة برحلة الصيف. انظر: اليعقوبي، تاريخ، ج1 ص242.

(4) أبو داود، السنن، ج2 ص4. ابن عساکر، تهذيب تاريخ ابن عساکر، ج1 ص26 "حديث أبي حوالة. كما وأورد الحديث ياقوت في معجمه، ج3 ص313.

(5) يقول الله تعالى "سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير" سورة الأسراء آية(1). وانظر: حديث الأسراء: مسند الإمام أحمد بن حنبل، "حديث عبد الصمد عن ابن عباس"

(6) يقول الرسول صلى الله عليه وسلم: "لا تُشدُّ الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام ومسجدي ومسجد إيليا". أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب الصلاة حديث مسجد مكة. ص56، 51، وكتاب الصيد، ص26. والصوم، ص67. الإمام مسلم، كتاب الحج، حديث رقم، 415، 511. الترمذي في كتاب الصلاة، ص126. والنسائي في سننه، ص10. وابن ماجه، كتاب الإقامة، ص196. والدرامي، كتاب الصلاة، ص133. ومسند الإمام أحمد، ج2، ص501، 278، 224، ج3، ص247.

(7) يكفي للتدليل على ذلك مطالعة مؤلفات الفقهاء المعاصرين لفترة الحروب الصليبية وحتى من جاء قبلهم أو بعدهم، وهذه المؤلفات لا يزال جزءاً كبيراً منها مخطوطاً ولم يحقق إلا الجزء البسيط منها، ومن هذه المؤلفات على سبيل المثال لا الحصر: كتاب فضائل البيت المقدس والصخرة وما اتصل بذلك من أخبار وأثار وفضائل الشام، وهو =

هذه الأهمية جعلت سكان الشام يستميتون في الدفاع عنها، ويبدلون الغالي والنفيس من أجل المحافظة عليها، والموت دفاعاً عن ثراها المقدس.

وقد وصلت درجة حب أهل الشام لها أنهم جعلوا حبهم لوطنهم الشام شعبة من شعب الإيمان، فقال بعضهم مستحثاً الناس على مقاومة الصليبيين: " حب الوطن من الإيمان"⁽¹⁾.

احتلت بلاد الشام موقعاً جغرافياً "متميزاً" كان له أعمق الأثر في عدم استقرار هذه المنطقة، التي تفاعلت على أرضها حضارات متعاقبة، إضافة لازدهارها الاقتصادي الناجم عن ارتباطها بطرق المواصلات مع كافة أرجاء البلاد المجاورة، فغصت أسواقها بالتجارة، وانتعشت حياة السكان فيها اقتصادياً واجتماعياً، هذا إلى جانب رسو الأساطيل التجارية في موانئها على البحر المتوسط، ومن تجارة البحر الأحمر القادمة من الهند⁽²⁾.

وهي من الناحية الجغرافية تقع على امتداد الساحل الشرقي للبحر المتوسط، في قلب

=كتاب مفيد رواه بالأسانيد أبو القاسم مكي بن عبد السلام الرميلي الذي استشهد عشية اجتياح الصليبيين للقدس، عن مؤلفه أبي المعالي المشرف بن المرجا بن إبراهيم المقدسي. انظر: العليمي، الأنس الجليل، ج1ص298، كتاب فضائل الشام للحافظ عبد الكريم بن محمد السمعاني المتوفى سنة562هـ. فضائل الشام ودمشق للرعي المتوفى بدمشق سنة 583هـ والذي اعتمد عليه ابن عساكر في كتابه تاريخ دمشق ج1ص146-154 فما بعدها. وكتاب فضائل بيت المقدس لابن صصري المتوفى سنة 586هـ، وكتاب فضائل القدس، لابن الجوزي المتوفى سنة 597هـ، وكتاب فضائل بيت المقدس للواسطي وكتاب المستقصى في فضائل المسجد الأقصى لابن عساكر (غير ابن عساكر صاحب تاريخ دمشق) المتوفى سنة600هـ، وكتاب الأنس في فضائل القدس للقاضي أحمد الشافعي المتوفى سنة 610هـ، وكتاب مفتاح المقاصد ومصباح المراصد في زيارة بيت المقدس لابن إسحاق المتوفى سنة 625هـ وكتاب فضائل الشام لأبي عبد الله السعدي المتوفى سنة643هـ، وكتاب فضائل بيت المقدس، وفضائل الشام فيها لشمس الدين الكنجي المتوفى سنة 682هـ، مثير الغرام إلى زيارة القدس والشام لابن تميم المقدسي، وكتاب فيه فضائل بيت المقدس، وفضائل الشام لأبي إسحاق المكناسي، وكتاب فضائل الشام وفضائل مدنها وبيت المقدس وعسقلان وغزة والرملة وأريحا ونابلس وبيسان ودمشق وحمص، وذكر الأنبياء المشهورين منها، وذكر الصحابة المعروفين فيها لمؤلف مجهول، وكتاب باعث النفوس إلى زيارة القدس المحروس للفراري المتوفى سنة 729هـ. حول كتب الفضائل وتحقيق بعض مخطوطاتها انظر بالتفصيل: السبكي، طبقات الشافعية، ج5، ص148. ابن تميم المقدسي، مثير الغرام، ص377. الواسطي، فضائل، ص4. الكتبي مؤلف الوفيات، ج2، ص238. خليفة، كشف الظنون، ج1، ص296، 300، 178، العسلي، مخطوطات، 41-61. إبراهيم، فضائل، ص12، 39-93، 208-529. بروكلمان تاريخ، ج6، ص73-75. ششون، نوادر، مج2، ص448. عبد المهدي، الحركة، ص172-173. رمضان، الأقصى، ص68-73. كاهن، الشرق، ص186.. عوض، السياسة الخارجية، ص277. بدوي، الحياة العقلية، ص130. الحياة الأدبية، ص537-540.

(1) أبو شامة، الروضتين، ج3ص217، وقد أورد هذه العبارة في معرض حديثه عن الكتاب الذي أرسله =العماد الكاتب إلى زين الدين علي بن نجا الواعظ ويتحدث فيه عن فضائل الشام. انظر: البنداري، سنا البرق، ص246-247. وأبو شامة، الروضتين، ج3ص215-216. وفيه يورد هذا الكتاب (الرسالة) مفصلاً.

(2) الحناوي، العلاقات، ص19.

العالم القديم، إذ تتوسط قاراته الثلاث، آسيا وأفريقيا وأوروبا⁽¹⁾. وتشمل بلاد الشام المنطقة وشبه الجزيرة العربية من الشرق، والجنوب الشرقي، وخليج العقبة وصحراء سيناء من الجنوب والجنوب الغربي⁽²⁾. وهذه الحدود ذكرها الإصطخري⁽³⁾، وصاحب كتاب حدود العالم⁽⁴⁾، وابن حوقل⁽⁵⁾، وياقوت⁽⁶⁾ وغيرهم⁽⁷⁾، بقولهم بأن الشام " غربها بحر الروم (المتوسط)، وشرقها البادية من أيلة (العقبة) إلى الفرات، ثم من الفرات إلى حد الروم، وشمالها بلاد الروم، وجنوبها مصر وتيه بني إسرائيل (سيناء)"، أي أن البحر المتوسط يحدها من الغرب، والصحراء من الشرق، وبلاد الروم من الشمال، ومصر وسيناء من الجنوب⁽⁸⁾، أما حدودها الشمالية فمتصلة ببلاد الروم البيزنطيين، وهي متغيرة بسبب الحروب المستمرة على تلك الحدود، غير أنه من حيث العموم، كانت جبال طوروس الحد الطبيعي الذي يفصلها من الشمال عن بلاد الروم⁽⁹⁾.

أما حدودها من الجنوب فهي برية تكاد تكون خالية من السكان، وتنتهي عند مدينة رفح⁽¹⁰⁾ على الساحل الجنوبي من البحر المتوسط⁽¹¹⁾، وهي المنطقة الصحراوية الممتدة من فلسطين إلى الشراة، وهي على العموم يمكن أن تعتبر حداً فاصلاً بين الشام، وبين بلاد الحجاز، ويؤيد ذلك قول شيخ الربوة⁽¹²⁾: " بأن " الشام تقع في جهة الشمال من جزيرة العرب". والشام لفظ عربي يعني اليسار أو الشمال، وهناك اشتقاق آخر لهذا الاسم أورده المقدسي⁽¹³⁾ حيث يذكر بأن العرب أطلقوا اسم الشام على سورية، لأنها تقع على يسار الكعبة

(1) نصرى، جغرافية، ج1 ص15.

(2) بورتير، مختصر، ص91. حتى، تاريخ، ج1، ص62 فما بعدها. العاني، إدارة، ص26.

(3) مسالك، ص55.

(4) حدود العالم، ص128.

(5) صورة الأرض، ص153.

(6) معجم البلدان، ج3، ص312.

(7) ابن الشحنة، الدر المنتخب، ص8.

(8) لي سترانج، فلسطين، ص33.

(9) العاني، إدارة، ص26. وحول الحدود الشمالية لبلاد الشام انظر: عثمان، الحدود، صفحات مختلفة.

(10) رفح: منزل في طريق مصر بعد الداروم بينه وبين عسقلان يومان (88.704 كم) للقاصد مصر. ياقوت، معجم، ج4

ص54. وانظر: اليعقوبي، البلدان، ص90. البكري، معجم، ج2، ص663. الإدريسي، نزهة، ج1، ص357.

(11) الإصطخري، مسالك، ص55.

(12) نخبة الدهر، ص192.

(13) أحسن التقاسيم، ص140. وانظر: الهمذاني، مختصر، ص89. البكري، مسالك، ج2، ص33.

أو لأن أولئك الذين يسافرون إليها من الحجاز يتجهون يساراً أو شمالاً، أو لأن سورية تحتوى على كثير من الأماكن الجميلة التي تشبه ما نسميه بالشامات التي تكون عادة حمراء أو بيضاء، أو سوداء، وهو يعني بذلك الحقول والحدائق التي تشبه الشامات على الوجه الجميل⁽¹⁾.

وقد تميز سطح بلاد الشام بتنوع مظاهره التضاريسية بين السهول الساحلية والمرنقات الجبلية، التي تخترقها الكثير من الأودية والسهول النهرية⁽²⁾، ولا شك أن الظاهرة التضاريسية في بلاد الشام قد لعبت دوراً هاماً تسببت في تقسيمه دائماً إلى دول أو ممالك متعددة⁽³⁾.

وتمتد هذه المظاهر التضاريسية امتداداً "طولياً" من الشمال إلى الجنوب، فتقترب من بعضها حيناً، وتبتعد حيناً آخر:—

أ- السهول الساحلية: وتمتد هذه السهول على طول ساحل البحر المتوسط من خليج الإسكندرونة⁽⁴⁾ شمالاً حتى نهاية السهل الساحلي الفلسطيني جنوب غزة، وتتسع هذه السهول في بعض الأجزاء في منطقة عكار⁽⁵⁾ وصيدا⁽⁶⁾ وصور⁽⁷⁾ في لبنان مما يؤدي إلى اتساع الطريق الساحلي، بينما يفصل جبل الكرمل⁽⁸⁾ سهول فلسطين الساحلية الشمالية عن جنوبها،

(1) الهمداني، مختصر، 89. البكري، مسالك، ج2، ص33. ياقوت، معجم، ج3، ص312.

(2) حسين، أثر العوامل، ص289.

(3) السيد، تاريخ، ص33.

(4) الإسكندرونة: إلى الشمال من أنطاكية على سيف البحر وهي ميناء حلب. الإدريسي، نزهة، ج1، ص646.

ياقوت، معجم، ج1، ص182. وانظر: الإصطخري، مسالك، ص63. ابن حوقل، صورة، 167.

(5) عكار: وقع حصن عكار Akkar على بعد مرحلة (18 ميل) من طرابلس إلى الشمال منها، ويشكل موقعه أهمية

استراتيجية كبيرة، حيث كانت نقطة اتصال بين حصن الأكراد وبقية الحصون والقلاع الصليبية في سوريا ولبنان وقد وصف بأنه حصن منيع بني منذ الفتح الإسلامي. انظر: ابن عبد الظاهر، الروض الزاهرة، ص382.

القلقشندي، صبح الأعشى، ج4، ص150. ابن شاهين، زبدة، ص48. لي سترانج، فلسطين، ص424. عنان، قلاع المسلمين، ص554.

(6) صيدا: مدينة على ساحل البحر الأبيض المتوسط من أعمال دمشق شرقي صور بينهما سنة فراسخ، ياقوت، معجم البلدان، ج3، ص437. ابن شداد الحلبي، الأعلام الخطيرة، ج2، ص98. ابن بطوطة، الرحلة، ج1، ص81.

(7) صور: مدينة مشهورة وهي مشرفة على بحر الشام داخلية في البحر مثل الكف على الساعد يحيط بها البحر من جميع جوانبها إلا الرابع الذي منه شروع بابها وهي حصينة جدا ركنية لا سبيل إليها، انظر: الإدريسي، نزهة

المشتاق، ج1، ص365. ابن جبير، الرحلة، ص212. ياقوت، معجم البلدان، ج3، ص433. ابن شداد الحلبي،

الأعلام الخطيرة، ج2، ص163.

(8) جبل الكرمل: من جبال فلسطين ويبدأ من حيفا غرباً ويمتد شرقاً حتى يتصل بالقسم الشمالي من جبال نابلس،

وترتفع أعلى قممه 546 متراً فوق مستوى سطح البحر. 373-372-371. Abel, Geographie. Vol.1p,

كما أدى قربه من البحر إلى تضيق طريق الساحل، فاتجهت الطريق إلى الداخل لتدور حول جبل الكرمل في اتجاهها نحو الجنوب⁽¹⁾، وبينما يتسع السهل الساحلي الشامي في بعض أجزائه، وتشرف الجبال على البحر الأحمر مباشرة في أجزاء أخرى، كما يكثر فيه النتوءات الطبيعية والصخور الضاربة مما يسهل قيام العديد من الموانئ على امتداده، وعبر هذه السهول ارتبطت بلاد الشام بمصر، كما أنها أيضاً اتصلت بالداخل عبر عدد من الممرات والأودية النهرية⁽²⁾.

ب- السلسلة الجبلية: وهي سلسلة جبلية متقطعة بفواصل طبيعية تمتد من الشمال إلى الجنوب، وأعلى قممها قمة القرنة السوداء في شمال جبال لبنان، وارتفاعها (3088م). وتنحدر هذه الجبال بشدة نحو الشرق، وباعتدال نحو البحر المتوسط غرباً⁽³⁾، وتنحرف جبال فلسطين نحو الجنوب الشرقي من جبل الكرمل، وتعتبر مدينة نابلس⁽⁴⁾ الواقعة بين جبال جرزيم وعيبال مدخلاً "طبيعياً" بين الساحل وغور الأردن⁽⁵⁾، وتنتهي هذه السلسلة في جبال القدس، والخليل جنوباً، ومعدلات ارتفاعها لا تقل عن الألف متر⁽⁶⁾، ويوجد في هذه السلسلة عدد من الجبال الحاجزة التي منعت قيام ممالك أو دول متحدة، نذكر منها: جبل اللكام الذي يقطع الشام طولاً ممتداً بأطرافه إلى مصر، والبحر الأحمر جنوباً، وبلاد آسية الصغرى شمالاً، ويعد من أهم مظاهر التضاريس في شمال الشام الغربي، ويقع محاذياً للسهل الشامي الساحلي، وفيه بالذات تقع ثغور الشام التي تسمى أيضاً الدروب- جمع درب-، وعندما

= خمار، موسوعة فلسطين، ص 97.

(1) حسين، أثر العوامل، ص 289. الحناوي، العلاقات ص 20. ماير، الحملة الصليبية، ص 93. براور، الاستيطان، ص 67.

(2) حسين، أثر العوامل، ص 289.

(3) فضل الله، لبنان، ص 29.

(4) نابلس: وقد أطلق عليها الصليبيين Neapolis, Nablus، مدينة فلسطينية عريقة، إلى الشمال من القدس وتبعد عنها حسب المصادر الجغرافية العربية نحو عشر فراسخ (69 كم) ووصفت بأنها مستطيلة ولها كورة واسعة، وعمل جليل، الإدريسي، نزهة المشتاق، ج 1 ص 356، ابن جبير، الرحلة، ص. ابن شداد، الأعلام الخطيرة، ج 2 ص 243، 249. ياقوت، معجم البلدان، ج 5، ص 248. الأنصاري، نخبة الدهر، ص 200. القزويني، آثار البلاد، ص 277.

(5) Smith, the Hist, Geogranhy, p. 247. طوطح، جغرافية، ص 13. النحال، جغرافية، ص 40. خمار، موسوعة فلسطين، ص 80-81، 94. أبو الرب، تاريخ فلسطين، ص 20. الحناوي، العلاقات، ص 21.

(6) الإصطخري، مسالك، ص 43. ابن حوقل، صورة الأرض، ص 56. وللمزيد انظر: نصري، جغرافية فلسطين، ج 1 ص 19-20. طوطح، جغرافية، ص 13. النحال، جغرافية، ص 40. خمار، موسوعة فلسطين، ص 84، 90،

101. Abel, Geographie, vol. 1, p.371-332, 373.

يجاوز اللاذقية⁽¹⁾ يسمى جبل بهراء وتتوخ إلى أن يصل حمص⁽²⁾، ثم يسمى بعد ذلك جبل لبنان، الذي يسمى جزء منه جبل الثلج لأنه مغطى بالثلج، إذ أن جبل اللكام له أسماء متعددة⁽³⁾، ويتجاوز دمشق فإذا صار شماليها سمي جبل سنير، كما يُسمى جانبه المطل على دمشق جبل قاسيون⁽⁴⁾، ويتجاوز دمشق ويمر غربي بعلبك⁽⁵⁾ ويسمى الجبل المقابل لبعلبك جبل لبنان⁽⁶⁾، ثم يمتد على الشام حتى ينتهي إلى بحر القلزم (الأحمر)⁽⁷⁾ وفي الجزء الجنوبي من فلسطين هضاباً أقرب منها إلى الجبال، وهي هضاب حاجزة منها الهضاب العالية في جنوب الشام (فلسطين) في إقليم طبرية⁽⁸⁾ وهضبة الأردن، ويفصل غربها عن شرقها، أخدود الغور، ويوجد في هضبة الأردن مسالك وأغوار تتجه نحو مصر⁽⁹⁾.

ج- حفرة الانهدام: وهي جزء من الانهدام الآسيوي الأفريقي العظيم، إذ تمتد من أقصى شمال سورية حتى البحر الأحمر الذي يشكل امتداداً طبيعياً لحفرة الانهدام في بلاد الشام وتشمل وادي النهر الأسود، وسهل العمق ومجرى نهر العاصي في سورية ثم سهل البقاع في

(1) اللاذقية: مدينة في ساحل بحر الشام تعد من أعمال حمص وهي غربي جيلة بينهما ستة فراسخ (33.264 كم) ثم أصبحت من أعمال حلب. ياقوت، معجم، ج5، ص5. وانظر: البكري، معجم، ج1، ص1147. الإدريسي، نزهة، ج2، ص645.

(2) حمص: بلد مشهور قديم كبير مسور وفي طرفه القبلي قلعة حصينة على تل عال كبيرة وهي بين دمشق وحلب في نصف الطريق. ياقوت، معجم، ج2، ص302. وانظر: البكري، معجم، ج1، ص468. الإدريسي، نزهة، ج1، ص374. ابن جبير، الرحلة، ص182. ابن بطوطة، الرحلة، ج1، ص85.

(3) الإصطخري، مسالك، ص55. المقدسي، أحسن، ص173. ابن حوقل، صورة الأرض، ص155—156. الإدريسي، نزهة المشتاق، ج1، ص353—354، ياقوت، معجم، ج1، ص239. القزويني، عجائب، ص139. القلقشندي، صبح، ج4، ص79.

(4) قاسيون: هو الجبل المشرف على مدينة دمشق وفيه عدة مغاور وفيها آثار الأنبياء وكهوف وفي سفحه مقبرة أهل الصلاح وهو جبل معظم مقدس يروى فيه آثار وللصالحين. ياقوت، معجم، ج4، ص295. القزويني، عجائب، ص138. ابن جبير، الرحلة، ص192.

(5) بعلبك: مدينة قديمة فيها أبنية عجيبة بينها وبين دمشق ثلاثة أيام من جهة الساحل ياقوت، معجم البلدان، ج1، ص453. وانظر: الإدريسي، نزهة المشتاق، ج1، ص369. ابن بطوطة، الرحلة، ج1، ص100.

(6) المقدسي، أحسن، ص172. ياقوت، معجم، ج4، ص295. القلقشندي، صبح الأعشى، ج4، ص79.

(7) الإصطخري، مسالك، ص55.

(8) طبرية: مدينة فلسطينية في الأغوار "على ضفة بحيرة لها، طولها اثنا عشر ميلاً وعرضها ستة أميال" أبو الفداء، تقويم البلدان، ص243. وانظر: المقدسي، أحسن، ج1، ص150. البكري، معجم، ج3، ص887. ياقوت، معجم، ج1، ص352. ج4، ص17، ص468. الإدريسي، نزهة، ج1، ص363.

(9) السيد، تاريخ، ص34.

لبنان⁽¹⁾، وتظهر في مجرى نهر الأردن حتى البحر الميت⁽²⁾، وتمتد من جنوب البحر الميت حتى خليج العقبة باسم وادي عربة ويبلغ طوله (168 كم)، ويتراوح عرضه ما بين 15-30 كم⁽³⁾.

د- السلسلة الشرقية لجبال بلاد الشام: وتمتد هذه السلسلة الجبلية من شمال سورية إلى القسم الجنوبي من شرق الأردن، وتمتد بموازاة جبال الشام الغربية من الشمال إلى الجنوب، ويعتبر جبل الشيخ وارتفاعه (2814 م) فوق مستوى سطح البحر من أعلى قمم هذه السلسلة الجبلية، ويفصل سهل الزبداني⁽⁴⁾ جبال لبنان الشرقية إلى قسمين: شمالي وجنوبي⁽⁵⁾.

5- المناطق الداخلية: وتتخللها بعض السهول مثل: سهول حلب وحماة وحمص في وسط وشمال سورية⁽⁶⁾، ثم سهول الجولان⁽⁷⁾، وهوران⁽⁸⁾ الواقعة في جنوب غرب سورية⁽⁹⁾ إلى جانب بعض الكتل الجبلية المتفرقة كجبال البلعاس الواقعة إلى الشمال الشرقي من حمص، إضافة لجبال تدمر الواقعة في بادية الشام إلى الشرق من دمشق⁽¹⁰⁾، كذلك توجد أنهار وأودية تفصل بين أجزاء مناطق الشام - يتفرع معظمها إلى نهيرات - أشهرها نهر الفرات، الذي يخترق الجزء الشمالي الشرقي من الشام، وهو أعظم أنهار الشام، وينحدر من هضبة الأناضول في طريقه إلى العراق، وهو يقطع الأراضي الشامية في هذه الجهة من الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي⁽¹¹⁾.

ونذكر نهر حماة ويسمى نهر العاصي أو نهر الأرنت أو الأرنط Orontes ، وهو

- (1) نصري، جغرافية سورية، ج1 ص22. الحناوي، العلاقات، ص21.
- (2) المقدسي، أحسن، ص171. ويعتبرها المقدسي بأنها الصف الثالث - أي القسم الثالث - من الأقسام الطبيعية لبلاد الشام المعروفة بالأغوار، وهو نفس الذي تعرف به حالياً. Smith, the Hist. Geography, p.469.
- (3) Ibid, p.471. وانظر: خمار، موسوعة فلسطين، ص31. نصري، جغرافية سورية، ج1 ص22. الحناوي، العلاقات، ص22. أبو الرب، تاريخ فلسطين، ص21.
- (4) الزبداني: كورة مشهورة بين دمشق وبعليك. ياقوت، معجم، ج3 ص130.
- (5) فضل الله، لبنان، ص34. الحناوي، العلاقات، ص22.
- (6) نصري، جغرافية سورية، ج1 ص41. الحناوي، العلاقات، ص22.
- (7) الجولان: قرية وقيل جبل من نواحي دمشق ثم من عمل حوران. ياقوت، معجم، ج2، ص188 وانظر: البكري، معجم، ج1، ص406.
- (8) حوران: كورة واسعة من أعمال دمشق. ياقوت، معجم، ج2 ص317. وانظر: البكري، معجم، ج1، ص468.
- (9) ابن العديم، زبدة الحلب، ج2 ص340-341.
- (10) Smith, the Wist. Geography, p.430.
- (11) السيد، تاريخ، ص34.

اسمه القديم ويعرف بالميماس ومخرجه من بحيرة قدس⁽¹⁾ وهذا النهر يعكس غالب الأنهار في الشام يجري من الجنوب من وسط الشام شمال بعلبك ويمتد شمالاً غرب حمص، ثم حماة إلى قرب أنطاكية⁽²⁾.

ويصب في خليج اسكندرونة، ويبلغ طوله نحو (571كم) في لبنان، و(325كم) في سوريا والباقي في لواء اسكندرون⁽³⁾. وهذا النهر يقطع الممر الواصل بين جبل عمان وجبال لبنان⁽⁴⁾.

ونذكر نهر الأردن⁽⁵⁾ وسمي زمن الاحتلال الصليبي لبلاد الشام بالشريرة وتعني مورد الشارية⁽⁶⁾، وينبع نهر الأردن من جبل الشيخ، ويمر بسهل الحولة⁽⁷⁾، ويخترق بحيرة طبرية ليصب في البحر الميت، ويبلغ طوله من منبعه إلى مصبه حوالي (260كم) ويتراوح عمقه ما بين متر واحد وأربعة أمتار، وهو غير صالح للملاحة، نظراً لضحالة مياهه، وشدة انحداره، وسرعة جريانه⁽⁸⁾، ومن فروع نهر الأردن، اليرموك الذي يصب فيه بعد خروج الأول من بحيرة طبرية من الجهة الشرقية هو ونهر الزرقاء، ومن الجهة الغربية وادي القلت إلى الجنوب من أريحا⁽⁹⁾، ونذكر نهر أبي فطرس، المعروف اليوم بنهر العوجاء، ويقع إلى

(1) ياقوت، معجم، ج4ص67. القلقشندي، صبح الأعشى، ج4ص75. وبحيرة قدس تقع بالقرب من حمص وطولها (12ميل = 22.176كم) وعرضه (4 أميال = 7.392كم) وهي بين حمص وجبل لبنان حيث تصب فيها مياه تلك الجبال لتكون نهر العاصي. ياقوت، معجم، ج1ص352. واعتمدنا في إيجاد طول البحيرة وعرضها بالكيلومتر على: عبيدات، أهمية غور الأردن، ص23.

(2) ياقوت، معجم، ج4ص67-68. وأنطاكية: تقع في الركن الجنوبي لسهل العمق الواقع في القسم الشمالي الغربي لبلاد الشام، عند النقطة التي يدخل فيها نهر العاصي على الشاطئ الأيسر منه، ويحيط بها سور قوي مزود بأربعمئة (400) برج، وأربعة وعشرون ألف (24.000) شرفه، بناها الإمبراطور جوستينيان، مما جعلها مدينة حصينة من الناحية العملية، انظر: المقدسي، أحسن التقاسيم، ص154. ياقوت، معجم، ج3ص741. العمري، مسالك الأبصار، ص23.

(3) حسن، جغرافية، ص95.

(4) براور، الاستيطان، ص67.

(5) نهر الأردن: وهو اسم كنعاني يعني المتدهور أو السريع، وسمي بذلك لشدة انحداره وسرعة جريانه. انظر: طوطح، جغرافية فلسطين، ص16، 19. خمار، موسوعة فلسطين، ص11.

(6) بول، الأردن، دائرة المعارف الإسلامية، ج1ص589.

(7) الحولة: اسم لكورة بين بانياس وصور. ياقوت، معجم، ج2ص370.

(8) ياقوت، معجم، ج1ص147.

(9) بول، الأردن، دائرة المعارف، ج1ص590. وأريحا: مدينة في الغور من أرض الأردن بالشام بينها وبين بيت المقدس يوم (44.352)، ياقوت، معجم، ج1، ص165 وانظر: الإدريسي، نزهة، ج1، ص356.

الشمال من مدينة الرملة⁽¹⁾، ومنبعه من جبال نابلس، أما مصبه فألى الشمال من مدينة يافا⁽²⁾ في البحر المتوسط، وطوله من منبعه إلى مصبه (26كم)⁽³⁾.

كما وتوجد في بلاد الشام الصحاري، التي تسببت في تقسيم الشام قسمين رئيسيين، تضم مساحات واسعة من أراضي الشام، اشتهرت باسم بادية الشام أو البلقاء⁽⁴⁾.

والخلاصة مما سبق أن تضاريس الشام، كانت سبباً في توزيعه بين أقسام مختلفة، كما أن هذا التباين في التضاريس قد ترك أثره على اختلاف المناخ من منطقة لأخرى، ففي المناطق الساحلية تسقط الأمطار بغزارة، وتغطي الثلوج قمم الجبال، أما فصل الصيف فيتميز مناخ السهل الساحلي بالحرارة والرطوبة، وتأخذ الحرارة في الشدة كلما اتجهنا شرقاً حتى يصبح صحراوي في المناطق الداخلية⁽⁵⁾، وقد أثرت هذه المعالم الرئيسة لهذه المناطق في مصير الأقاليم التي احتلها الصليبيون، وعمد الصليبيون لاحتلال المناطق الساحلية والموانئ في محاولة منهم لتوسيع أقاليمهم بمد حدودها جهة الشرق، بيد أن النجاحات التي أحرزوها في هذا المجال كانت متواضعة، ولم تخضع الأقاليم الواقعة إلى الشرق من المنخفض الشمالي الجنوبي العظيم لحكم الأمراء الصليبيين في الإمارات الصليبية بشكل فعلي باستثناء فترات قصيرة جداً، ومن وقت لآخر كانت الجيوش الصليبية تنفذ إلى عمق هذا القطر الإسلامي، وفي بعض الأوقات وصلت منطقة النفوذ الصليبي إلى أعماق مدينة حلب، بيد أن هذه الجيوش الصليبية انسحبت، وتركت القلاع وتوترت العلاقات بين المسلمين وبين الصليبيين على هذه الحدود، التي كانت قد أنشئت على امتداد الوادي العظيم، وثمة استثناء غريب وشاذ، وهو أن الكيانات الصليبية الواقعة جهة الجنوب، والتي كانت تابعة لمملكة بيت المقدس اللاتينية ظلت تبسط سيادتها على الأراضي الواقعة بين شرق الأردن حتى ميناء العقبة. وهكذا كانت الأقاليم الصليبية في بلاد الشام تمثل شريطاً طويلاً ضيقاً من الأرض ينحصر بين

(1) الرملة: وقد أطلق عليها الصليبيون اسم (Rama- al- Ramlah) إحدى مدن فلسطين شيدها سليمان بن عبد الملك وسميت كذلك لغلبة الرمل عليها تقع الى الشمال من القدس وتبعد عنها حوالي خمسة عشر ميلاً، وبينها وبين قيسارية إلى الشرق حوالي 30كم، انظر: المقدسي، أحسن، ص151. ريموندا جبل، تاريخ الفرنجة، ص220 الإدريسي، نزهة، ج1، ص356. ياقوت، معجم، ج3 ص69.

(2) يافا: مدينة على ساحل بحر الشام من أعمال فلسطين بين قيسارية وعكا. ياقوت، معجم، ج5، ص426.

(3) اليعقوبي، البلدان، ص89. ياقوت، معجم، ج5 ص315.

(4) ياقوت، معجم، ج1 ص489 والبلقاء: كورة من أعمال دمشق بين الشام ووادي القرى، قصبتهما عمان وفيها قرى كثيرة ومزارع واسعة، وفيها مدينة الشراة (شراة الشام) وبها كهف والرقيم. نفس المصدر، ج1 ص489. وانظر: القلقشندي، صبح الأعشى، ج4 ص75.

(5) حسين، أثر العوامل، ص289. ماير، الحملة الصليبية ص94.

البحر المتوسط، وبين الوادي الكبير والفسيح جهة الشرق، وانحصرت هذه الأقاليم وسط محيط واسع من الأمطار والأراضي التاريخية الشهيرة والتي كانت تضم خليطاً من الأجناس والديانات وأنواعاً مختلفة من السكان⁽¹⁾.

والجدير بالذكر أن لهذا التباين في الظواهر الطبيعية لبلاد الشام، واختلافها في الامتداد والارتفاع أثر كبير في تحديد الطرق والمسالك التي سلكتها القوافل التجارية والحملات العسكرية، وتحركات السكان خلال مقاومتهم للاحتلال الصليبي داخل بلاد الشام وخارجها وقد اختلفت أهمية تلك الطرق، وتباينت من حين لآخر، فبعضها يمثل طرق رئيسة دائمة لا غنى عنها، وأخرى فرعية أقل أهمية منها، وثالثة استثنائية، ويمكن استخدامها في أحوال نادرة وفق ما تقتضيه مصلحة كل قوة من القوى الموجودة في بلاد الشام⁽²⁾.

وأما الطرق الرئيسية فأهمها طريق مصر إلى الشام التي تمر من دمياط⁽³⁾ إلى العريش⁽⁴⁾ والخروبة⁽⁵⁾ ورفح والداروم⁽⁶⁾ وغزة⁽⁷⁾ ومنها إلى مدينة عسقلان⁽⁸⁾ على ساحل البحر المتوسط، ثم إلى بينا⁽⁹⁾ ومنها إلى الرملة، ومنها إلى مدن الساحل الأخرى شمالاً، ثم تتجه إلى الشرق عبر سهل بيسان⁽¹⁰⁾ إلى جسر الصنبرة⁽¹⁾ جنوبي بحيرة طبرية، ثم تتجه

(1) براور، الاستيطان، ص 68.

(2) الحناوي، العلاقات، ص 23.

(3) دمياط: مدينة قديمة بين تيس ومصر على زاوية بين بحر الروم (المتوسط) والنيل. ياقوت، معجم، ج 2 ص 472.

(4) العريش: مدينة كانت أول عمل مصر من ناحية الشام على ساحل بحر الروم في وسط الرمل. ياقوت، معجم، ج 4 ص 113.

(5) الخروبة: حصن بسواحل بحر الشام مشرف على عكا. ياقوت، معجم، ج 2، ص 362.

(6) الداروم: قلعة بعد غزة للقاصد إلى مصر بينها وبين البحر مقدار أربعة فراسخ (24 كيلومتر). انظر: هنتس، المكابيل، ص 94. ياقوت، معجم، ج 2، ص 432.

(7) حسين، تاريخ، ص 35-36.

(8) عسقلان: مدينة فلسطينية على ساحل البحر الأبيض المتوسط على بعد 12 كم إلى الشمال من غزة، وقد زارها الإدريسي وهي خاضعة للاحتلال الصليبي ووصفها بأنها معدودة في أرض فلسطين. نزهة المشتاق، ج 1 ص 356. و انظر: اليعقوبي، البلدان ص 229. المقدسي، أحسن التقاسيم، ص 174. ياقوت، معجم البلدان، ج 4 ص 122. القزويني، آثار البلاد. البغدادي، مرصد الإطلاع، ج 2 ص 940. ابن بطوطة، ج 1 ص 78.

(9) بينا، أو بينى: بلدة قرب الرملة، فيها قبر صحابي يقال أنه أبو هريرة، وبعضهم يقول: قبر عبد الله بن أبي السرح. ياقوت، معجم، ج 5، ص 428.

(10) بيسان: مدينة صغيرة بلا أسوار، ذات بساتين وأنهار وأعين وهي على الجانب الغربي من الغور، وهي كثيرة الخصب، أبو الفداء، تقويم البلدان، ص 243. انظر كذلك: دانيال الراهب، الرحلة، ص 110. الإدريسي، نزهة المشتاق، ج 1 ص 356. البكري، معجم، ج 1 ص 292. ياقوت، معجم، ج 1 ص 292. ابن شداد، الأعلام الخطيرة، ج 2، ق 2، ص 136.

شمالاً حتى تصل إلى دمشق، ثم إلى العراق⁽²⁾، وبالإضافة إليها كان الطريق الممتد من دمشق إلى الزرقاء شرقي نهر الأردن ومنها إلى شرق الكرك⁽³⁾، ثم إلى وادي عربة في قسمه الجنوبي ثم عبر سيناء⁽⁴⁾ إلى مصر.

كما أن هناك طرقاً فرعية أقل أهمية، وأهمها الطريق التي تمر عبر غور الأردن من البلقاء إلى الزرقاء فدمشق⁽⁵⁾، وهناك الطريق التي تمر عبر اللجون⁽⁶⁾ ثم إلى البلقاء، ومنها إلى حسان ثم الوالة⁽⁷⁾ ثم ماعين⁽⁸⁾، وهناك ممر ثانوي يصل بين دمشق وبيروت⁽⁹⁾، وكان ممر هام لحركة التجارة بينهما، وبرزت أهميته بعد سيطرة الصليبيين في بيروت على تجارة لأهل دمشق كانت تمر عبر هذه الطريق⁽¹⁰⁾.

ثانياً: - الأقسام الإدارية لبلاد الشام:

اختلفت بلاد الشام في تقسيمها الإداري من وقت لآخر منذ الفتح الإسلامي ولاشك أن الظروف الجغرافية والتضاريسية السابقة الذكر لبلاد الشام كانت من الأسباب التي جعلت تلك البلاد تشهد لوناً من التغيير والتطوير في التقسيم الإداري⁽¹¹⁾.

(1) الصنبرة: موضع بالأردن مقابل لعقبة أفيق بينه وبين طبرية ثلاثة أميال (حوالي 30كم. الدباغ، بلادنا، ج6، ق2، ص436). ياقوت، معجم، ج3 ص425.

(2) الحناوي، العلاقات، ص23.

(3) الكرك: كلمة أعجمية اسم لقلعة حصينة جدا في طرف الشام من نواحي البلقاء في جبالها بين أيلة وبحر القلزم وبيت المقدس وهي على سن جبل عال تحيط بها أودية إلا من جهة الربيض. ياقوت، معجم، ج4، ص453 بناها الصليبيون على مرتفع يشرف على المنطقة الواقعة شرق الأردن حتى البحر الميت جنوباً على بعد 35 ميلاً من القدس، وثمانين ميلاً شمال البحر الأحمر، وقد حملت هذه القلعة في المصادر الصليبية اسم (Karak material) انظر: ابن شداد الحلبي، الأعلام الخطيرة، ج2 ق2 ص69-70. ابن جبير، الرحلة، ص201. ابن شداد الحلبي، الأعلام الخطيرة، ج2، ق2، ص69. ابن بطوطة، ج1 ص129. لي سترانج، فلسطين، ص450.

(4) سيناء: اسم موضع بالشام يضاف إليه الطور فيقال طور سيناء. ياقوت، معجم، ج3 ص300.

(5) ابن الأثير، الباهر، ص86.

(6) اللجون: بلد بالأردن وبينه وبين طبرية عشرون ميلاً وإلى الرملة مدينة فلسطين أربعون. ياقوت، معجم، ج5 ص13. المقدسي، أحسن التقاسيم، ص162.

(7) الوالة: لم يعثر الباحث على تعريف فيما بين يده من مصادر.

(8) ماعين: لم أعثر لها على تعريف فيما بين يدي من مصادر.

(9) بيروت: ويطلق عليها الصليبيون Beiruts، مدينة مشهورة على ساحل بحر الشام تعد من أعمال دمشق بينها وبين صيدا ثلاثة فراسخ، انظر: الإدريسي، نزهة المشتاق، ج1 ص371. ياقوت، معجم البلدان، ج1 ص525. ابن بطوطة، الرحلة، ج1 ص82.

(10) الحناوي، العلاقات، ص24.

(11) السيد، تاريخ، ص35. العاني، إدارة، ص32.

ويؤيد ذلك أن الأقسام الإدارية كانت تجعل من كل قسم منها في الشام، شاماً قائماً بذاته بحيث قسمت إلى خمسة شامات⁽¹⁾، على أساس أن التقسيم الجغرافي يجعل كل تقسيم إداري كياناً قائماً بذاته، وهذه الشامات هي: الشام الأعلى أو الأولى وهي فلسطين وتسمى سوريا، وأول حدوده عريش مصر والحد الآخر طرف التيه، والحد الآخر الفرات، والحد الآخر جبل هود⁽²⁾، والشام الثانية: هي الأردن ومدينتها العظمى طبرية، ومنها الخور، واليرموك وبيسان، ثم الشام الثالثة وهي الغوطة ومدينتها العظمى دمشق، ومن سواحلها طرابلس، والشام الرابعة: وهي حمص ومدينتها حمص حيث يقول القلقشندي⁽³⁾: "ويجعلون سوريا - وهي التسمية المتداولة التي تدل على معظم الشام الآن - وهي حمص وبلادها إلى رحبة مالك بن طوق - اسم معروف في ذلك الوقت ولعله أمير عربي ثم الشام الخامسة: قنسرين⁽⁴⁾ ومدينتها العظمى حلب، ومن سواحلها أنطاكية، ومن ثغور حلب المصيصة⁽⁵⁾، وطرطوس⁽⁶⁾.

ولاشك أن تسمية الشام سواء الأولى أو الرابعة بسوريا يرجع بأصله إلى العصر البيزنطي، لأن كلمة سوريا أصلها بيزنطي⁽⁷⁾.

إلا أن القلقشندي وابن الشحنة ذكرا تسمية الشام بسوريا خلال معرض حديثهما عن التقسيم القديم للشام، إلا أنهما لم يحددا زمناً بعينه لظهورها ونلاحظ أن القلقشندي⁽⁸⁾ بعد ذكره

(1) الإصطخري، مسالك، ص 43. البكري، مسالك. ج 2، ص 33-34.

(2) القلقشندي، صبح الأعشى، ج 4 ص 94. ابن الشحنة، الدر المنتخب، ص 10.

(3) صبح الأعشى، ج 3 ص 94.

(4) قنسرين: كورة بالشام منها حلب، وكانت قنسرين مدينة بينها وبين حلب مرحلة من جهة حمص بقرب العواصم والبعض يدخلها في العواصم. ياقوت، معجم، ج 4 ص 404. وانظر: الإصطخري، مسالك، ص 61. البكري، مسالك. ج 2، ص 34. الإدريسي، نزهة، ج 2، ص 648. ابن جبير، الرحلة، ص 179-180. أبو الفداء، تقويم، ص 267. ابن بطوطة، الرحلة، ج 1، ص 91.

(5) المصيصة: وهي مدينة على شاطئ جيجان من ثغور الشام بين أنطاكية وبلاد الروم تقارب طرسوس. ياقوت، معجم، ج 5، ص 145. وانظر: الإصطخري، مسالك، ص 63. ابن حوقل، صورة، 168. الإدريسي، نزهة، ج 2، ص 646.

(6) ابن الشحنة، الدر المنتخب، ص 10. وانظر: القلقشندي، صبح الأعشى، ج 4 ص 94. وطرطوس أو أنطرطوس Tortosa, Antaradus مدينة ساحلية وميناء في بلاد الشام على البحر الأبيض المتوسط شرق مدينة عرقه بينها ثمانية فراسخ (24 كم) ياقوت، معجم، ج 4، ص 30. وانظر: الإصطخري، مسالك، ص 61. ابن حوقل، صورة، 116. البغدادي، مراصد، ج 2، ص 201. القزويني، آثار البلاد، ص 151.

(7) السيد، تاريخ، ص 36.

(8) صبح الأعشى، ج 4 ص 94.

للتقسيم السابق، ذكر تقسيم الشام في العصرين الأيوبي والمملوكي، ولم يذكر كلمة سوريا، كما ذكر أن كلمة بلاد الشام، ونائب الشام لم يكن يقصد بها في العصر المملوكي إلا دمشق ونائبها.

وفي العصر الأموي بالذات كان التقسيم الإداري مثل التقسيم البيزنطي المبني على أساس وجود العسكر للجيش، ولكن أخذت اسم الجند لوجود الأجناد، وهذه الأجناد كانت تتغير من وقت لآخر (1).

ويبدو أن التقسيم الإداري لبلاد الشام تعرض للتغير أكثر من مرة (2) تبعاً للظروف السياسية التي واجهتها بلاد الشام، بعد الحكم العباسي المباشر، تحت حكم الطولونيين (3)، ثم الإخشيديين (4)، ثم الفاطميين في مصر، وبقي التقسيم الإداري كولايات كما هو حتى العصر الأيوبي، حيث استمرت تسميتها بالولايات (5)، فعندما تمكن الطولونيون من إخضاع بعض أقاليم الشام لسلطانهم، مثل دمشق عام 264هـ/877م وحمص وحلب، حيث كانت قنسرين إحدى الولايات الخمسة الهامة في العصر العباسي، ثم ضعفت وحلت محلها حلب، التي انتزعها الحمدانيون (6) من الإخشيد عام 333هـ/944م وأقاموا عليها الدولة الحمدانية وجعلوا

(1) العاني، إدارة، ص34.

(2) نفس المرجع، ص34-35.

(3) الطولونيون: أو بنو طولون: سلالة من الأتراك المستعربة حكمت في مصر، الشام وفلسطين سنوات 254هـ—292هـ/868-905 م. مؤسس السلالة "طولون" كان من الجنود الأتراك في جيش العباسيين. تدرج في الرتب حتى أصبح رئيس الحرس الخاص بالخليفة العباسي في بغداد. ورث ابنه أحمد (868-884م) هذه الرتبة سنة 854م. ثم أصبح سنة 868م والياً على مصر من قبل الخليفة. فور توليه بدأ أحمد بن طولون استقلالية كبيرة في حكمه. منذ 877م استطاع أن يضم إليه الشام وفلسطين. تمكن ابنه خمارويه (884-895 م) من أن ينتزع الاعتراف باستقلال حكمه في مصر والشام. انظر: البلوي، سيرة أحمد بن طولون. ابن الجوزي، المنتظم، ج12، ص234، 232. الأزدي، أخبار ج122، 1-134. ابن خلكان، وفيات، ج1، ص173. الكتبي، الوافي، ج6، ص430-431. الصفدي، تحفة، ج1، ص314، 320. المقرئ، ج1، ص448. ج3، ص823.

(4) الإخشيديون: بنو إخشيد: سلالة تركية مستعربة حكمت في مصر والشام سنوات 935-969 م. المقرئ: القسطاط. تنحدر هذه الأسرة من أحد القادة العسكريين الصغد في فرغانة (اليوم طاجكستان). أسس الأسرة محمد بن طنج (935-946م) والذي تولى سنة 930م ولاية الشام من قبل العباسيين، ثم أصبح سنة 933م والياً على مصر. استقل بالأمر منذ سنة 935/39م. الأزدي، أخبار، ج1، ص138—154. ابن خلكان، وفيات، ج1، ص376-377، 56، 59، 62، 378. الصفدي، تحفة، ج1، ص345-346، 369. المقرئ، ج1، ص536.

(5) السيد، تاريخ، ص39. وانظر: الحناوي، العلاقات ص22.

(6) الحمدانيون: هم حكام حلب خلال القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي، نسبة إلى مؤسس الدولة علي بن عبد الله بن حمدان (سيف الدولة، أبو الحسن) والذي حكم من 330—356هـ/941—967م. انظر: ابن حوقل، صورة، ص165-167 الثعالبي، بئيمة الدهر، ج1، ص37. الأزدي، أخبار، ج1، ص41-106. أخبار الدولة

من حلب "دار الإمارة وبها الأسواق ومجمع الناس"⁽¹⁾ حتى عام 394هـ/1003م. وضم الحمدانيون إلى دولتهم أنطاكية واللاذقية، وشيزر⁽²⁾ ودمشق وحماة، وحمص، وأجزاء من إقليم قيليقية وإقليم الجزيرة⁽³⁾. وكانت دمشق في ذلك الوقت خاضعة للحكم الإخشيدي في مصر، ثم جاء الفاطميون الذين ورثوا أملاك أسلافهم الإخشيديين في مصر والشام، وامتد سلطان المصريين في الشام فشمّل طرابلس وغالب مدن الساحل الشامي⁽⁴⁾. وبقي التقسيم الإداري مثلما كان نظام الولايات الذي وضع زمن العباسيين⁽⁵⁾، وكانت إدارة الفاطميين لبلاد الشام تتم من خلال دمشق، والرملة، أما المدن الساحلية فكانت اتصالاً وارتباطاً بمصر لوجود الأساطيل الفاطمية التي لم تنقطع صلتها بهذه المدن⁽⁶⁾. وفضلاً عن الفاطميين والحمدانيين في الشام، فقد ظهر القرامطة كقوة ثالثة أيضاً استطاعت أن تؤثر في مجريات الأحداث في الشام⁽⁷⁾، ثم وقع القتال بين الفاطميين والقرامطة انتهت بانتصار الفاطميين وانسحاب القرامطة⁽⁸⁾. ومع انسحاب القرامطة إلى بلادهم البحرين عاد النظام الإداري لبلاد الشام إلى ما كان عليه سابقاً من زمن العباسيين⁽⁹⁾.

أما في العهد الأيوبي، فقد قُسم الشام بين أبناء صلاح الدين بحيث أُطلق على كل قسم منها اسم مملكة، ومن يحكمها فهو الملك: مملكة دمشق وحلب، ومملكة حماة، ومملكة

الحمدانية، ص 11-21 وما بعدها، ابن الأثير، الكامل، ج 7، ص 162-164، 179-171، 203، 301-302. ابن خلكان، وفيات، ج 3، ص 401-406، 402. ابن تغرى بردى، النجوم، ج 4، ص 17. السيوطي، اللباب، ج 1، ص 386. ابن العماد، شذرات، ج 3، ص 100. وانظر: زامبور، معجم، ج 2، ص 201. الشهابي، معجم، ص 48-51.

(1) الإصطخري، مسالك، ص 67. وانظر: الأزدي، الدولة الحمدانية، ص 30. أخبار القلقشندي، صبح الأعشى، ج 4 ص 168. السيد، تاريخ، ص 39.

(2) شيزر: قلعة تشتمل على كورة جنوب معرة النعمان إلى الشمال من مدينة حماة تبعد عنها حوالي 44 كم، ياقوت، معجم البلدان، ج 3 ص 383. البكري، معجم، ج 3 ص 818.

(3) الأزدي، أخبار الدولة الحمدانية، ص 24-37. ابن الأثير، الكامل، ج 7، ص 211، 203-212.

(4) عن ضم الفاطميين لبلاد الشام، انظر: المقرئ، اتعاظ الحنفا، ج 1 ص 122-127.

(5) السيد، تاريخ، ص 39.

(6) الحناوي، العلاقات، ص 22.

(7) ابن القلانسي، الذيل، ص 1-2. المقرئ، اتعاظ الحنفا، ج 1 ص 187-188. سرور، النفوذ، ص 25-26.

(8) ابن القلانسي، الذيل، ص 3. المقرئ، اتعاظ الحنفا، ج 1 ص 202-203. وانظر: الغامدي، بلاد الشام، ص 45.

(9) السيد، تاريخ، ص 40.

صرخد⁽¹⁾، ومملكة الكرك، ومملكة حمص⁽²⁾.

كانت مملكة حماة التي بقيت تحت حكم ملوك بني أيوب، حتى معركة عين جالوت عام 659هـ/1260م، وقيام دولة المماليك في مصر والشام ولم يشأ سلاطين المماليك أن ينتزعوا حماة من ملوك بني أيوب فابقوا على الأيوبيين وأقروهم على حكمهم فيها، وظلت مملكة حماة مملكة أيوبية في ظل دولة المماليك، ثم صارت نيابة عام 746هـ/1341م⁽³⁾، والأرجح أن تسمية الممالك الإسلامية أو الشامية ترجع إلى عصر خلفاء صلاح الدين الأيوبي من أبنائه وأخوته الذين اقتسموا الشام وجعلوا كل قسم مملكة مستقلة بذاتها⁽⁴⁾ كما ذكرنا، فهذه التسمية ترجع إلى أيام الأيوبيين.

وقد اختلفت كلمة مملكة فيما عدا مملكة حماة، وأصبح الشام في تقسيمه الإداري نيابات، تسهيلاً لإدارتها⁽⁵⁾.

وتم تقسيم الشام في عهد المماليك إلى ست أقاليم أو أقسام إدارية، سميت بالنيابات، وذلك لأن المماليك الذين جعلوا من القاهرة عاصمة لمملكتهم كانوا يعينون نواباً لهم على تلك الأقاليم، يحكمونها نيابة عن السلطان المملوكي، وأعلاها دمشق⁽⁶⁾، على أن نيابات الشام في عهد المماليك كانت ستة هي: دمشق، وحلب، وحماة، وطرابلس، وصفد والكرك⁽⁷⁾، وقد أضيفت إلى هذه النيابات، نيابة غزة في عام 711هـ/1311م⁽⁸⁾.

وهذا يعني أن تلك النيابات لم تنشأ في وقت واحد، وإنما أنشئت على عدة مراحل فضلاً عن نيابة غزة، فإن دمشق وحلب صارتا نيابة عقب انتصار المماليك على التتار في

(1) صرخد: بلد ملاصق لبلاد حوران من أعمال دمشق وهي قلعة حصينة وولاية حسنة. ياقوت، معجم، ج3، ص401. أبو الفداء، تقويم، ص259.

(2) ابن شداد، النوادر، ص246-247. أو أصل، مفرج الكروب، د3ص3. الحنبلي، شفاء القلوب، ص179-181، 197. القلقشندي، صبح الأعشى، ج4ص101.

(3) القلقشندي، صبح الأعشى، ج4ص172.

(4) ابن شداد، النوادر، ص246-247. ابن أصل، مفرج الكروب، د3ص3. الحنبلي، شفاء القلوب، ص179-181، 197.

(5) عطا الله، نيابة غزة، ص63. الطراونة، مملكة صفد، ص42.

(6) القلقشندي، صبح الأعشى، ج12، ص199.

(7) شيخ الربوة، نخبة الدهر، ص210-212.

(8) ابن حجر العسقلاني، الدرر، ج2، ص266. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج9، ص193. وانظر: عطا الله،

نيابة غزة، ص63-64.

عين جالوت عام 659هـ/1260م⁽¹⁾.

ثالثاً: الأوضاع السياسية في بلاد الشام:-

أ - الفاطميين والسلاجقة⁽²⁾:

كان الصراع الفاطمي السلجوقي في الشام على أشده قبيل الغزو الصليبي لأن السلاجقة بعد سيطرتهم على زمام الأمور في الخلافة العباسية عشية القضاء على حركة البساسيري⁽³⁾ في بغداد أواخر ذي القعدة 451هـ/1059م عزموا على القضاء على الخلافة الفاطمية⁽⁴⁾ - الخصم اللدود للعباسيين - مستغلين حالة الضعف التي أصابها على أثر ثورة ناصر الدولة بن حمدان⁽⁵⁾ (459-465هـ/1066-1072م) التي هزت كيان الدولة الفاطمية وأوقعتها في أزمة سياسية واقتصادية كبيرة.

(1) السيد، تاريخ، ص40.

(2) السلاجقة: مجموعة من قبائل الأتراك الذين عرفوا باسم "الغز" وقد هاجروا من أقصى تركستان خلال القرون الثاني والثالث والرابع الهجرية، وهم ينتسبون إلى زعيمهم سلجوق بن دقاق، فعرفوا نسبة له بالسلاجقة، انظر: الحسيني أخبار ص2. البنداري، تاريخ، ص7. حسنين، سلاجقة إيران، ص16-17. حميدان، سلاجقة الشام، ص15. بالار، الحملات، ص253.

(3) البساسيري: هو أرسلان بن عبد الله (أبو الحارث) التركي، أحد كبار قادة الأتراك في العراق، وكان الخليفة العباسي القائم بأمر الله (422-467هـ/1031-1074م) لا يقطع أمراً دونه، ولا يمضي أياً إلا بعد إذنه، فسيطر على أمور البلاد، إلا أنه سرعان ما خرج على طاعة الخليفة سنة 447هـ/1055م على أثر الخلاف مع الخليفة وبعض قادة الأتراك، وأعلن الولاء للخلافة الفاطمية الشيعية، واستمر بثورته حتى قتل سنة 451هـ/1059م على أثر سيطرة السلاجقة مقاليد الأمور في الدولة العباسية. عن هذه الحركة ودورها في الصراع السني - الشيعي. انظر: الشيرازي، سيرة المؤيد، ص96-182. ابن القلانسي، الذيل، ص139-145. الحسيني، أخبار، ص18-21. ابن الجوزي، المنتظم، ص163-196. ابن الأثير، الكامل، ج8، ص322-347، 348-345. البنداري، تاريخ، ص14، 17-20. ابن ميسر، المنتقى، ج2، ص11.

(4) ابن الجوزي، المنتظم، ج8، ص164. ابن العمراني، الإتياء، ص191. ابن الأثير، الكامل، ج8، ص322.

(5) تمخضت ثورة ابن حمدان، والقائد التركي إيلدكز عن الفتنة التي وقعت في مصر بين الأتراك والسودان كنتيجة للشدة المستتصرية التي أصابت البلاد، ولجأ ابن حمدان إلى السلطان السلجوقي في حلب عام 462هـ/1070م طالباً منه المدد العسكري ليعلن الدعوة للخلافة العباسية، واستغل ألب أرسلان تلك الفتنة وأعلن وجهته نحو الشام في ثلاث حملات باءت كلها بالفشل ولكنها توجت بالاشتباك مع البيزنطيين الذين كانوا يزحفون نحو الشام، فاشتبك معهم في معركة ملازكرد التي انتصر فيها أرسلان. عن ثورة ابن حمدان وعلاقته بألب أرسلان وحملاته على الشام. انظر: ابن الأثير، الكامل، ج8، ص397-401. ابن العديم، زبدة، ج2، ص23. ابن العبري، تاريخ مختصر، ص185. ابن ميسر، أخبار مصر، ج2، ص13-19. ابن أبيك، الدرر المضيئة، ص390-392.

لذا سار أئسز بن أوق الخوارزمي⁽¹⁾ في سنة 463هـ/1070م إلى الشام لانتزاعها من الفاطميين فانتزع الزملة، وبيت المقدس، ومعظم فلسطين ما عدا عسقلان⁽²⁾، ثم سار إلى دمشق وحاصرها حصاراً شديداً، فقطع المؤن عنها ونهب أعمالها، غير أنه فشل في اقتحامها لشدة المقاومة⁽³⁾، ومع ذلك استمر في محاربتها اقتصادياً وعسكرياً إلى أن اضطرت إلى الاستسلام في سنة 468هـ/1075م⁽⁴⁾، وكان السلاجقة قد قصدوا مدينتي صور وطرابلس، وفرضوا عليها هدنة دان بموجبها أمراء تلك المدينتين بالولاء لهما⁽⁵⁾.

كما هاجموا عكا سنة 464هـ/1071م، وسيطروا عليها، لكن الفاطميين استعادوها في العام نفسه ثم ملكها السلاجقة سنة 466هـ/1073م، غير أن واليها السلجوقي⁽⁶⁾، سرعان ما دخل في طاعة الفاطميين، واستمر على ذلك إلى سنة 483هـ/1090م. فحاول العصيان الأمر الذي دفع الفاطميين إلى انتزاعها منه وإعادتها إلى سيادتها⁽⁷⁾.

وهكذا أصبح أئسز يملك جميع فلسطين ومعظم بلاد الشام، ما عدا عكا وعسقلان، وكان فتحه لهذه المناطق دون مساعدة السلاجقة، غير أنه رأى أن من مصلحته الارتباط بالخلافة العباسية والسلطنة السلجوقية، حتى يكسب الحماية من السلاجقة عندما يتعرض لهجمات الفاطميين الذين لم يسلموا بضياح نفوذهم من بلاد الشام⁽⁸⁾، التي أعلن فيها السلاجقة

(1) أئسز أو (أطسز) بن أوق الخوارزمي وهو من أصل تركماني ولا يمت للأسرة الخوارزمية بصلة، وكان ضمن الجماعات التركمانية التي خلفتها حملة ألب أرسلان على بلاد الشام، ثم أصبح مقدم الأتراك السلاجقة بعد أن نجح في انتزاع دمشق من الفاطميين وولى أمرها سنة (468هـ/1076م) ولقب بالملك المعظم. قتله تاج الدولة تنتشرا سنة (471هـ/1071م) وسيطر على مملكته. انظر: ابن الأثير، الكامل، ج8، ص410-412. ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج5، ص295. الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج18، ص131-132. ابن كثير، البداية والنهاية، ج12، ص140. المنجد، ولاة دمشق، ص4. الشهابي، معجم، ص154.

(2) ابن القلانسي، الذيل، ص176. ابن الأثير، الكامل، ج8، ص390. ابن ميسر، المنتقى، ج2، ص44. ابن شداد الحلبي، الأعلام الخطيرة، ج3، ص200. وانظر أيضا: الغامدي، بلاد الشام، ص142-144. خرابشة، فلسطين، 659.

(3) ابن القلانسي، الذيل، ص177-181. ابن الأثير، الكامل، ج8، ص390.

(4) ابن الأثير، الكامل، ج8، ص410. المقريزي، المقفى، ج2، ص221-222. الصفدي، أمراء دمشق، ص4. ابن بدران، تهذيب، ج2، ص331. خرابشة، فلسطين، 659.

(5) سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج8، ق1، ص178. مصطفى، دخول الترك، ص369.

(6) يدعي منكلي أو شكلي التركي ولم تذكر المصادر شيئاً عنه.

(7) سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج8، ق1، ص171. ابن ميسر، المنتقى، ج2، ص41. ابن شداد، الأعلام، ج3، ص173-174.

(8) سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج8، ق1، ص178. خرابشة، فلسطين، 659.

الخطبة للعباسيين، ومنعوا الآذان "بحي على خير العمل"، وأظهروا مشايعتهم للسنة⁽¹⁾، ولم يفتح أتسز بسيطرته على معظم بلاد الشام فتوجه بجيوشه إلى مصر للقضاء على الخلافة الفاطمية فيها، فوصل إلى منطقة الريف⁽²⁾، وأقام فيها قرابة الشهرين، قضاها في أعمال السلب والنهب، إلى أن تمكن الأمير بدر الجمالي⁽³⁾ من هزيمته في أواخر رجب سنة 469هـ/1076م⁽⁴⁾ مما شجع الفاطميين إلى إرسال حملة عسكرية في سنة 470هـ/1077م، وأخرى في سنة 471هـ/1087م لاستعادة النفوذ الفاطمي في بلاد الشام، فحاصر دمشق سنة 470هـ/1077م عدة أيام إلا أنه لم يتمكن من اقتحامها⁽⁵⁾، واضطر أتسز إلى الاستجداء بتاج الدولة نتش⁽⁶⁾ الذي وصل بجيوشه إلى دمشق فدخلها في 12 ربيع الثاني سنة 472هـ/12 أكتوبر 1079م، ثم أمر بقتل أتسز⁽⁷⁾، وبذلك أصبح نتش أول أمير سلجوقي من سلاجقة الشام يحكم هذه البلاد.

وقد سعى تاج الدولة نتش لإحكام سيطرته على سائر الشام، فقصد طبرية والرملة واستولى عليها في سنة 472هـ/1080م⁽⁸⁾، ثم قصد الساحل الشامي فافتتح طرطوس وكانت في يد خلف ابن ملاعب⁽⁹⁾ وهي ورفنية⁽¹⁾ في سنة 474هـ/1081م⁽²⁾. وفي أوائل سنة

(1) ابن الأثير، الكامل، ج8، ص410.

(2) الريف في لغة العرب موضع الزرع والشجر، إلا أنه غلب في مصر على أسفل الأرض، وفيها سبع كور أهمها: دقهلة، وتيس، ودمياط، والعباسية، انظر: المقدسي، أحسن، ص194.

(3) بدر الجمالي: أرمني الأصل، دخل في خدمة الفاطميين في عهد خليفهم المستنصر بالله (427-487هـ/1035-1094م)، قلد وزارة التفويض سنة 468هـ/1075م وصار صاحب الأمر والنهي في الدولة والحكم حتى وفاته سنة 487هـ/1094م. انظر: ابن الأثير، الكامل، ج8، ص496-497. المقرئ، ج2، ص329-331.

(4) ابن الأثير، الكامل، ج8، ص412-413. ابن ميسر، المنقذ، ج2، ص25. سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج8، ق1، ص182-184. المقرئ، ج2، ص317-318. المقف، ج2، ص222-223. وانظر: مصطفى، دخول الترك، ص373. خرابشة، فلسطين، ص661. رمضان، شبه جزيرة سيناء، ص92.

(5) ابن الأثير، الكامل، ج8، ص418، 440-441.

(6) تاج الدولة نتش: (أبو سعيد) بن محمد ألب أرسلان بن داود بن ميكائيل بن سلجوق بن دقاق، من ملوك السلاجقة، وصاحب البلاد الشرقية، ولد سنة 458هـ/1066م) وقتل سنة 488هـ/1094م) ويلقب =أيضاً بتاج الملوك، والملك المظفر. انظر: الحسيني، أخبار، ص72، 75-76. ابن الأثير، الكامل، ج8، ص418، 428-430، 502-503. البنداري، تاريخ، ص83-84. ابن خلكان، وفيات، ج1، ص295. ابن كثير، البداية والنهاية، ج12، ص140. الشهابي، معجم، ص30.

(7) الحسيني، أخبار، ص72. ابن الأثير، الكامل، ج8، ص418. البنداري، تاريخ، ص71-72. ابن خلكان، وفيات، ج1، ص295. وانظر: مصطفى، دخول الترك، ص375-382.

(8) ابن شداد الحلبي، الأعلاق، ج3، ص131-132، 183.

(9) ابن ملاعب، سيتم الحديث عنه في موضع تناول إمارته المستقلة في نهاية هذا الفصل.

سنة 475هـ/1082م جهز تتش حملة بقيادة القائد التركماني أرتق بن أكسب⁽³⁾ إلى القدس و استطاع دخولها، ثم قام تتش بإقطاعه إياها عام 479هـ/1086م⁽⁴⁾ لاتخاذ الأراتقة حاجزاً بينه وبين الفاطميين في مصر⁽⁵⁾، ثم سار تتش إلى بيروت فافتتحها في سنة 476هـ/1083م⁽⁶⁾ التي كانت تتبع الفاطميين وأخذها في نفس العام⁽⁷⁾.

وقد أسفرت فتوحات تتش عن تحرك فاطمي نحو دمشق، فقام الوزير الفاطمي بدر الجمالي في ربيع الأول سنة 478هـ/يوليو 1085م بحملة على دمشق بغية استردادها من السلاجقة، ولكنه فشل وعاد إلى مصر⁽⁸⁾، وفي 26 ربيع الأول 479هـ/11 يوليو 1086م تمكن تتش من دخول حلب لكنه عاد عنها إثر قدوم السلطان ملكشاه السلجوقي⁽⁹⁾، وذلك في 23 شعبان سنة 479هـ/3 ديسمبر 1086م⁽¹⁰⁾.

(1) رافية Kephalia ذكر ياقوت أن فيها قولان: الأول أنها كورة ومدينة من أعمال حمص، والثاني أنها بلدة عند طرابلس من سواحل الشام، والراجح أنها من أعمال حمص لأنه في أثناء هجوم القوات الصليبية على بعين ورفنيه ثم حصن الأكراد القريب من حمص وصلت رسل حمص تعلن الولاء وبطلون الأمان لمدينتهم انظر: ياقوت، معجم، ج3ص55. البغدادي، مراصد، ج1، ص474.

(2) ابن القلانسي، الذيل، 187. ابن العديم، زبدة الحلب، ج2، ص65. ابن أبيك، الدرّة المضيئة، ص407. ابن تغري بردي، النجوم، ج5، ص113.

(3) أرتق بن أكسب أن أكسك ويلقب بظهير الدين، ينتمي إلى قبيلة الدقر التركمانية وهي إحدى البيوت الكبيرة التي تنتمي إلى الغز، وانتهت زعامتها إلى أرتق الذي كان من مماليك السلطان ملكشاه بن ألب أرسلان (465-485هـ/1072-1072م)، ظل مخلصاً للسلاجقة حتى وفاته سنة (484هـ/1091م). انظر أخباره وترجمته في: ابن الأثير، الكامل، ج8، ص443. البنداري، تاريخ، ص75. ابن العديم، زبدة، ج2، ص99. ابن خلكان، وفيات، ج1ص191. وانظر عنه بالتفصيل: خليل، الإمارات الأرتقية، ص57.

(4) ابن الأثير، الكامل، ج9، ص19. سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج8، ق1، ص239. ابن خلكان، وفيات، ج1، ص191. ابن تغري بردي، النجوم، ج5، ص115. خرايشة، فلسطين، 663.

(5) النقاش، العلاقات، ص16-17. خليل، الإمارات، ص66. خرايشة، فلسطين، 663.

(6) ابن شداد الحلبي، الأعلام، ج3، ص102.

(7) المصدر نفسه، ج3، ص44-45.

(8) ابن الأثير، الكامل، ج8، ص440-441. الذهبي، العبر، ج3، ص289. ابن الوردي، نعمة المختصر، ج1، ص576.

(9) ملكشاه (الأول) أبو الفتح بن عضد الدولة محمد ألب أرسلان بن داود بن ميكائيل بن سلجوق بن دقاق (جلال الدولة) ثالث سلاطين السلاجقة، ولد سنة (447هـ/1055م) وتولى سنة (465هـ/1073م) وتوفي، وقيل قتل مسموماً سنة (485هـ/1092م) ولقب أيضاً بجلال الدنيا والدين، والسلطان العادل. انظر عنه: الحسيني، أخبار، ص57-61، 65، 71-74. ابن الأثير، ج8، ص482-484. ابن خلكان، وفيات، ج5، ص283. البنداري، تاريخ، ص48، 50، 57-61، 64-75. سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج1، ص182-192.

(10) ابن القلانسي، الذيل، ص194-195. ابن الأثير، الباهر، ص7. الكامل، ج8، ص443-344. ابن العديم، زبدة

وبعد سيطرته عليها سار إلى أنطاكية⁽¹⁾، وأقطعها لقائده ياغي سيان⁽²⁾ وأعطاه فرقة من الفرسان لحماية المدينة⁽³⁾.

عاد السلطان السلجوقي ملكشاه من أنطاكية إلى حلب في رمضان 479هـ/ديسمبر 1086م، وشرع في تقسيم بلدان الشام كإقطاعات حربية، ومنحها لقائده وغيرهم من الأمراء، ووصل إليه وفد من نصر بن علي بن منقذ أمير شيرز يعلن دخول ابن منقذ في طاعة السلطان، وتنازله عن اللاذقية وأفامية⁽⁴⁾، وكفر طاب⁽⁵⁾، فكتب السلطان له توقيعاً بإمارة شيرز، كما أقر خلف ابن ملاعب على إمرة حمص بعد أن قدم للسلطان خيلاً وهدايا فاخرة، وجدد السلطان إقطاعه لأخيه تتش في دمشق وجنوب الشام⁽⁶⁾، وعندما قرر السلطان ملكشاه مغادرة حلب عائداً إلى خراسان⁽⁷⁾ خلف وراءه قسيم الدولة آقسنقر⁽¹⁾. ومنحه

= = = الحلب، ج2، ص97-99. ابن واصل، مفرج الكروب، ج1، ص16-17. ابن كثير، البداية والنهاية، ج11، ص131. زكار، إمارة، ص179-180.

(1) كان يحكمها الحسن بن طاهر وزير سليمان بن قطلمش سلطان سلاجقة الروم الذي قتله ألب أرسلان سنة 479هـ/1084م بعد معركة قرب الري، وكان سليمان بن قطلمش قد استولى على أنطاكية من سلاجقة الشام سنة 477هـ/1084م. الحسيني، أخبار، ص63. ابن الأثير، الكامل، ج8، ص437-438. ابن واصل، مفرج الكروب، ج1، ص15-16. ابن العديم، زبدة الحلب، ج2، ص96-97. وانظر كذلك: رابيس، السلاجقة، ص29. الغامدي، بلاد الشام، ص177-178، 182، 186.

(2) اختلف حول رسم اسمه في المصادر وحتى في المراجع الحديثة فمنهم من ذكره باسم Cassianus، Giticianus، Axoianus إلى جانب أسماء أخرى أطلقها عليه المؤرخون اللاتين، وقد انفرد الفارقي بأن اسمه هو يخرسغان، ذكرته بعض المراجع باسم ياغي بستان وقال عاشور في هامش كتابه نقلاً عن زكي محمد حسن: أن هذا النطق للاسم هو الأصح. انظر: ابن القلانسي، الذيل ص132، 133-133، =

ابن الأثير، ج9 ص14، ابن العديم، زبدة، ج2 ص127، الفارقي، تاريخه، ص237، الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج19 ص401، ابن العديم، ج1 ص482، ج3 ص113، عاشور، تاريخ العلاقات هامش(1) ص142، توديبود، تاريخ الرحلة هامش(16) ص193. نسيم، الوحدة، ص13_14، عطية، إمارة أنطاكية 111_112، وقد أثار الباحث استخدام الاسم الشائع لياغي سيان.

(3) ابن العديم، زبدة الحلب، ج2، ص101. وانظر: رابيس، السلاجقة، ص54.

(4) أفامية: مدينة حصينة من سواحل الشام، وكورة من كور حمص، إلى الغرب من مدينة حلب على نحو أربع مراحل منها. (حوالي 69.392 كم). ياقوت، معجم، ج1، ص227. ابن العديم، بغية الطلب، ج1 ص144. القلقشندي، صبح الأعشى، ج4، ص125.

(5) كفر طاب: بلدة صغيرة من جند حمص غربي حلب، على الطريق بين معرة النعمان، وشيرز. ابن العديم، بغية الطلب، ج1، ص141-142، 468. القلقشندي، صبح الأعشى، ج4، ص125.

(6) الحسيني، أخبار، ص68، 72. ابن الأثير، الكامل، ج8، ص444. ابن العديم، زبدة الحلب، ج2، ص100-101. بغية الطلب، ج4، ص1956. أبو شامة، الروضتين، ج1، ص93.

(7) خراسان: بلاد واسعة أول حدودها مما يلي العراق أزادوار قسبة جوين وبيهق وآخر حدودها مما يلي الهند

إقطاعاً ضخماً اشتمل على (حلب وحماة ومنبج⁽²⁾ واللاذقية والمعرة⁽³⁾ وأعمالها)، وترك له فرقة عسكرية مؤلفة من أربعة آلاف فارس⁽⁴⁾، وهنا يجب التنبيه على تلك الأعداد القليلة التي تركت لحماية مدن هامة كحلب وحماة ومنبج واللاذقية ومعرة النعمان، وهي لا تكفي مطلقاً مع العلم أن هذه الأعداد من الجنود سيقتل منها الكثير في الصراع مع تتش وولديه رضوان ودقاق فيما بعد، وبالتالي فإن مثل هذا الصراع سيؤثر سلباً على صمود تلك المدن وغيرها، وسيترك العبء الأكبر في حماية تلك المدن على المقاومة الشعبية وهذا ما أريد تأكيده للرد على احتمال التشكيك في مقاومة الأهالي وهذا إجابة لسؤال يطرح نفسه وهو: أين دور الحامية والقوات النظامية أثناء الغزو الصليبي لبلاد الشام؟.

أما عن نفوذ تتش في بلاد الشام بعد رحيل أخيه ملكشاه فقد استطاع تتش صد محاولات الفاطميين المتتالية لاستعادة نفوذهم على المناطق الداخلية من بلاد الشام⁽⁵⁾، أما المناطق الساحلية فلم يستطع تتش مواجهة البحرية الفاطمية، ولذلك احتفظ الفاطميون في قبضتهم بالعديد من موانئ الشام ومن ذلك مدينة صيدا التي لم يستطع تتش المحافظة عليها

طخارستان وغزنة وسجستان وكرمان وليس ذلك منها إنما هو أطراف حدودها وتشتمل على أمهات من البلاد منها نيسابور وهراة ومرو وهي كانت قصبتها وبلخ وطالقان ونسا وأبورد وسرخس وما ينخلل ذلك من المدن التي دون نهر جيحون ومن الناس من يدخل أعمال خوارزم فيها ويعد ما وراء النهر منها. ياقوت، معجم، ج2، ص350.

(1) آقسنقر، أو آق سنقر، أبو السعيد بن عبد الله، جد البيت الأتابكي في الموصل، ووالد عماد الدين زنكي كان من مماليك السلطان ملكشاه بن ألب أرسلان السلجوقي قتله تاج الدولة تتش سنة (487/1094م) ويلقب أيضاً بالحاجب. انظر عنه: الحسيني، أخبار، ص72. ابن الأثير، الباهر، ص4. الكامل، ج4، ص444، 468، 477-478، 494-495. ابن العديم، بغية الطلب، ج4، ص1954-1962. زبدة الطلب، ج2، ص103-104. أبو شامة، الروضتين، ج1، ص93-94، 102. ابن واصل، مفرج الكروب، ج1، ص11، 27. ابن خلكان، وفيات، ج1، ص241. وانظر كذلك: الشهابي، معجم، ص82.

(2) منبج: تقع إلى الشمال الشرقي من حلب على بعد 12 كم من نهر الساجور الذي يمر إلى الشمال منها وعلى بعد نحو 3 كم من نهر الفرات الذي يجري إلى الشرق منها. انظر: ابن حوقل، صورة، ص166. البكري، معجم، ج4، ص1265. الإدريسي، نزهة، ج2، ص651. ياقوت، معجم، ج5، ص205.

(3) معرة النعمان: تقع معرة النعمان على مسافة ثمانية أميال إلى الشرق من البارة وهي مدينة كبيرة قديمة من أعمال حمص بين حلب وحماة، انظر الإدريسي، نزهة المشتاق، ج2، ص652. ياقوت، معجم ج5 ص156. ريمونداجيل، تاريخ الفرنجة ص164.

(4) ابن الأثير، الكامل، ج8، ص434. ابن العديم، بغية الطلب، ج4، ص1956، 1962. أبو شامة، الروضتين، ج1، ص94. ابن واصل، مفرج الكروب، ج1، ص19. ابن أبيك، الدرّة المضيئة، ص430. ابن تغري بردي، النجوم، ج5، ص125، 141. وانظر: ربيع، النظم، ص27. طرخان، الإقطاع، ص75.

(5) الغامدي، بلاد الشام، ص195.

في مواجهة الأسطول الفاطمي بعد استعادتهم لها في عام 473هـ/1080م، أي بعد عام فقط من افتتاح تنش لها⁽¹⁾.

وبعد رحيل ملكشاه أعاد تنش محاولاته للسيطرة على الساحل الشامي فتمكن من السيطرة على صيدا وبيروت سنة 480هـ/1087م، وصور سنة 482هـ/1089م⁽²⁾.
غير أن بدر الجمالي أرسل أسطولاً لاستعادة صور وصيدا وعكا⁽³⁾، واستولى على جبيل⁽⁴⁾، وهناك أعلن حاكم حمص خلف بن ملاعب تبعيته للفاطميين⁽⁵⁾.

وكرر فعل على التحرك الفاطمي أصدر ملكشاه أوامره إلى آسنقر حاكم حلب وياغي سيان حاكم أنطاكية بالانضمام إلى أخيه تنش ومساعدته، فأطاعا أوامره، وساروا جميعاً إلى حمص، وحاصروا ابن ملاعب حليف الفاطميين، وقبضوا عليه وأرسلوه في قفص حديد هو وولديه إلى السلطان ملكشاه وذلك في سنة 483هـ/1090م، وأقطع حمص لتنش⁽⁶⁾، ومن حمص سار التحالف السلجوقي تحت قيادة تنش وتوجهوا إلى الساحل حيث استطاعوا السيطرة على عرقة⁽⁷⁾ ثم وصلوا إلى طرابلس⁽⁸⁾، ولكنهم لم يستولوا عليها لخلاف وقع بين آسنقر وتنش الذي عاد إلى دمشق سنة 484هـ/1091م⁽⁹⁾، أما آسنقر فقد عاد إلى حلب،

(1) ابن شداد، الأعلام الخطيرة، ج3، ص98-99.

(2) ابن ميسر، المنقبي، ج2، ص28. المقرئزي، تعاض، ج2، ص326.

(3) عكا: وتكتب عكاء أو عكة، وترد في المصادر التاريخية الصليبية Acron, Accoron, Acte, Acras، وهي من مدن الساحل الفلسطيني، وبعثت عن وقسارية مسافة ستة وثلاثون ميلاً، انظر: المقدسي، أحسن التقاسيم، ص162-162. ناصر خسرو، سفر نامه، ص50، الإدريسي، نزهة المشتاق ص365، ابن جبير، الرحلة، ص212. ياقوت، معجم البلدان، ج4 ص143. ابن بطوطة، الرحلة، ج1، ص81. دانيال، الرحلة، ص127.

(4) جبيل: بلد مشهور تقع شرقي بيروت. ياقوت، معجم، ج2، ص109.

(5) ابن ميسر، المنقبي، ج2، ص28. المقرئزي، تعاض، ج2، ص326. ابن تغري بردي، النجوم، ج5، ص128.

(6) ابن العديم، زبدة الحلب، ج2، ص206. بغية الطلب، ج7، ص3355، 3356. ابن واصل، مفرج الكروب، ج1، ص20-21.

(7) ابن الأثير، الكامل، ج8، ص477. ابن شداد، الأعلام، ج2، ق2، ص94. وعرقة: بلدة في شرقي طرابلس بينهما أربعة فراسخ (22.176كم) وهي آخر عمل دمشق في سفح جبل، بينهما وبين البحر نحو ميل، حوالي ثمانمائة متر (ياقوت، معجم، ج4، ص109. البكري، معجم، ج3، ص394. ابن شداد، الأعلام، ج2، ق2، ص92.

(8) طرابلس: Tripolis يتألف اسم المدينة من مقطعين "Tri" بمعنى ثلاث أو مثلث، و "Polis" بمعنى مدينة، ومن هنا فإن اسم المدينة يعنى المدينة المثلثة، وهي إحدى المدن الساحلية الواقعة على ساحل البحر المتوسط. ناصر خسرو، سفر نامه، ص47. ياقوت، معجم البلدان، ج4 ص25. ابن شداد، الأعلام الخطيرة، ج2 ق2 ص104. ابن بطوطة، الرحلة، ج1 ص83-84. الفيتري، تاريخ بيت المقدس هامش (3) ص40.

(9) ابن القلانسي، الذيل، ص120-121. ابن الأثير، الكامل، ج8، ص477-478. البنداري، تاريخ، ص65-66. ابن واصل، مفرج الكروب، ج1، ص21-22. ابن أبيك، الدررة المضينة، ص431-432. ابن تغري بردي، النجوم،

وفي الطريق استولى على أفامية التي كانت تتبع ابن ملاعب وسلمها إلى نصر بن علي بسن منقذ بهدف حرمان تتش منها⁽¹⁾.

وما أن توفي السلطان ملكشاه في سنة 485هـ/1092م حتى بادر تتش بالسيطرة على شمال الشام حيث سيطر على حلب بعد هزيمة أميرها آقسنقر ومن معه من بعض الأمراء⁽²⁾ وابن أخ تتش بركياروق بن ملكشاه في المعركة التي جرت رحاها عند نهر سبعين شرقي حلب، مع تاج الدولة تتش وحليفه ياغي سيان أمير أنطاكية في يوم السبت التاسع من جمادي الأولى سنة 487هـ/26مايو 1094م حيث تم القبض على كل من آقسنقر وبوزان وقتلها، وتم أسر كربوقا وإداعه في سجن حمص⁽³⁾.

ثم جاءت نهاية تتش عندما قرر مهاجمة جيوش ابن أخيه بركيارق، حيث دارت بينهما معركة حاسمة في 17 صفر سنة 488هـ/27(شباط) فبراير 1095م، وفي الميدان تم قتل تتش⁽⁴⁾، وكان لهذه المعركة نتائج بالغة الأهمية على تاريخ بلاد الشام قبيل الغزو الصليبي، فهذه المعركة قضت على تتش ومملكته في بلاد الشام، ولو قدر للصليبيين أن يواجهوا تلك المملكة القوية التي أقامها تتش في بلاد الشام بمواردها الضخمة وقوتها العسكرية، لكان من المحتمل أن الحركة الصليبية قد أجهضت في سنواتها الأولى. وبمقتل تاج الدولة تتش انقسمت أملاكه بين ولديه رضوان⁽⁵⁾ ودقاق⁽⁶⁾، وتمزقت بلاد

ج5، ص133.

(1) ابن القلانسي، الذيل، ص121. ابن العديم، زبدة الحلب، ج2، ص106. بغية الطلب، ج7، ص3355، 3356.

(2) الأمراء هم: الأمير كربوقا، وأمير بني عقيل علي بن مسلم بن قريش العقيلي، وأمير الرها، بزان أو بوزان. انظر: ابن القلانسي، الذيل، ص126. الفارقي، تاريخ، ص243. أبو شامة، الروضتين، ج1، ص102. ابن العديم، زبدة الحلب، ج2، ص110. سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج1، ص199-200. ابن تغري بردي، النجوم، ج5، ص155.

(3) انظر تفاصيل هذه المعركة وأحداثها ونتائجها في: ابن القلانسي، الذيل، ص126-130. الحسيني، أخبار، ص75-76. ابن الجوزي، المنتظم، ج9، ص77. الفارقي، تاريخ، ص237. ابن الأثير، الكامل، ج8، ص494-495. ابن العديم، زبدة الحلب، ج2، ص106، 108-110، 119-120. أبو شامة، الروضتين، ج1، ص102. ابن كثير، البداية والنهاية، ج12، ص144. ابن تغري بردي، النجوم، ج5، ص137-138.

(4) ابن القلانسي، الذيل، ص129-130. ابن الأثير، الكامل، ج8، ص502. البنداري، تاريخ، ص84.

(5) رضوان: فخر الملوك بن تاج الدولة تتش بن ألب أرسلان بن داود. من ملوك السلاجقة وصاحب حلب سنة 488هـ/1095م. وتوفي سنة 507هـ/1113م. انظر: ابن الأثير، الكامل، ج8، ص503-504، ج9، ص4، 11، 151. ابن خلكان، وفيات، ج1، ص296. الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج19، ص315-321. ابن العماد، شذرات، ج2، ص22.

(6) دقاق: شمس الملوك (أبو نصر) بن تاج الدولة تتش. من ملوك السلاجقة وصاحب دمشق سنة 488هـ/1095م

الشام، كما ظهرت النزعات الانفصالية في كثير من بلدان الشام فضلاً عن ازدياد خطر الأقليات العرقية والدينية في بلاد الشام. ونتج عن ذلك كله اندلاع النزاع على نطاق واسع بين جميع القوى في بلاد الشام، الأمر الذي يفسر نجاح الصليبيين في الاستيلاء على أنطاكية سنة 491هـ/1098م، والمضي في حملتهم على بقية بلاد الشام دون صعوبة كثيرة⁽¹⁾، وترك العبء الأكبر في مواجهة هذه الحملة على المقاومة الشعبية كما سنرى .

أما رضوان فخرج من دمشق سنة 488هـ/1095م متجهاً إلى حلب، وتسلمها من أتابكه (مريبه)⁽²⁾ جناح الدولة حسين بن ايتكين⁽³⁾ بينما ذهب دقاق إلى دمشق، ووصل إليه طغتكين⁽⁴⁾، فجعله أتابكاً له بعد أن تزوج من والده

= قيل أنه توفي مسموماً سنة (497هـ/1104م). انظر: ابن الأثير، الكامل، ج8، ص503-504، ج9، ص11، 15، 36، 43، 55، 67، 74. ابن خلكان، وفيات، ج1، ص296. الذهبي، سير، ج19، ص210-211. ابن العماد، شذرات، ج2، ص405.

(1) الغامدي، بلاد الشام، ص289. الحناوي، العلاقات، ص30.

(2) أتابك: لقب يتكون من لفظين، أتا بمعنى أب، وبك بمعنى أمير، ولما كانت نظرية السلاجقة في الحكم ترتكز على أن يتولى أفراد الأسرة السلجوقية حكم الأقاليم فقد ارتبط بكل فرد من هؤلاء الأمراء السلاجقة قائد تركي يحمل لقب أتابك، أي الأمير الوالد الذي يعتبر مسؤولاً عن تربية ابن الأمير وتلقيه أصول الحكم والإدارة. انظر: ابن خلكان، وفيات، ج1، ص365. القلقشندي، صبح الأعشى، ج4، ص18. وانظر: الباشا، الألقاب، ص122-123. العربي، الشرق، ص20-21..24-25. Gibb, The Damascus.

(3) حسين بن ايتكين: من مماليك تاج الدولة نتش، سلمه حمص بعد مقتل أفسنقر، وجعله أتابك عسكر ولده رضوان. انظر: العظيمي، تاريخ، ص665. ابن القلانسي، الذيل، ص133. ابن الأثير، الكامل، ج8، ص503، ج9، ص11. ابن العديم، بغية الطلب، ج6، ص2806-2808. زبدة الحلب، ج2، ص127. ابن الفوطي، مجمع الآداب، ج4، ق3، ص170-171. الصفدي، أمراء، ص33. الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج19، ص405. وانظر: Gibb, The Damascus, p.30 The Cambridge, vol. IA.p. 195.

(4) طغتكين: (ظهير الدين، أبو منصور) كان في بداية أمره غلاماً لتاج الدولة نتش، فأعتقه وأضحى من كبار قادته العسكريين، ثم أسند له منصب الإسفهلارية (مقدم العسكر). انظر: القلقشندي، صبح الأعشى، ج3، ص483. الباشا، الألقاب، ص156-157). ثم أسند إليه ولاية حلب خلال انشغاله في الحرب، وسلمه ابنه دقاق ليكون مريباً له، وعندما سار نتش إلى الري سنة 487هـ/1094م وانهزم هناك وقتل، تم أسر طغتكين في يد السلطان بركياروق الذي أطلق صراحه سنة 488هـ/1095م مقابل إطلاق رضوان صاحب حلب القائد كربوقا صنيع السلطان بركياروق والذي أصبح أميراً للموصل، وعندما توفي دقاق قام طغتكين بإدارة ولاية دمشق وتخلص من بقايا أسرة نتش وأقام أسرة حاكمة جديدة دعيت الأسرة البورية. انظر: ابن القلانسي، الذيل، ص130-131. ابن الأثير، الكامل، ج8، ص496، ج9، ص4، 248، 5، 74. ابن العديم، زبدة الحلب، ج2، ص120-121، 150. ابن كثير، البداية والنهاية، ج12، ص164. مصطفى، طغتكين، مجلة كلية الآداب والتربية، جامعة الكويت، عدد(2) 1972م.

دقاق⁽¹⁾، وقام دقاق ببسط نفوذه على بعلبك⁽²⁾، وعرقة⁽³⁾.

وترتب على استقلال رضوان بحلب ودقاق بدمشق، عودة التفكك والانقسام من جديد إلى بلاد الشام وأضحت مرتعاً خصباً للفتن والمنازعات والمنافسات بعدما بذله تاج الدولة تتش من جهود لتوحيد شمال الشام مع جنوبه، وتمخض عن استقلال دقاق بحكم دمشق أن خشي رضوان من هروب أخويه الصغيرين أبي طالب وبهرام من حلب والاستقلال ببعض بلدان الشام الأخرى كما فعل دقاق، فبادر بقتلهما سنة 488هـ/1095م⁽⁴⁾، وترتب على انقسام دولة تتش بعد موته تأرجح القادة الأتراك في ولائهم إزاء رضوان ودقاق حسب ما تمليه عليهم مصالحهم، ومن هؤلاء الأمراء حاكم أنطاكية ياغي سيان فقد خالف رضوان في البداية، ثم رأى أن مصلحته تقتضي الانضمام إليه، "فصالحة"⁽⁵⁾، وما لبثت أن ساءت العلاقة بينهما⁽⁶⁾، ووقف سقمان أو سقمان بن أرتق إلى جانب رضوان فكافأه رضوان، وأقطعته معرفة النعمان وأعمالها⁽⁷⁾.

أثارت أعمال رضوان العدائية الفزع في نفس ياغي سيان فاستتجد بدقاق لمساعدته في صد هجمات أخيه⁽⁸⁾ رضوان الذي كان يتوق إلى الاستيلاء على دمشق، واستغل خروج دقاق وطغتكين لمساعدة ياغي سيان، فهاجم دمشق سنة 489هـ/1096م، هو وسقمان (أو سقمان) بن أرتق ولكنه لم يستطع رغم غياب العسكر، مما اضطره إلى تركها والعودة إلى حلب⁽⁹⁾.

غير أن رضوان لم يتوقف عن غاراته ضد أملاك ياغي سيان، وخرج هو وأتابكه

(1) ابن القلانسي، الذيل، ص 130-131. ابن الأثير، الكامل، ج 8، ص 503. ابن العديم، زبدة الحلب، ج 2، ص 120-

121. سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج 1، ص 245-247.

(2) ابن شداد الحلبي، الأعلام، ج 3، ص 44-45.

(3) المصدر نفسه، ج 3، ص 94.

(4) ابن الأثير، الكامل، ج 9، ص 151. ابن العديم، زبدة الحلب، ج 2، ص 121. ابن العماد، شذرات، ج 2، ص 22.

(5) ابن الأثير، الكامل، ج 8، ص 503، 504.

(6) كان السبب في ذلك هو تحالف ياغي سيان مع (القائد التركماني يوسف بن أبق) أبي القاسم الحسن بن علي

الخوارزمي قائد تتش في مدينة حلب والذي كان يحكمها قبيل استيلاء رضوان عليها. انظر: ابن الأثير، الكامل،

ج 8، ص 503. ابن العديم، بغية الطلب، ج 6، ص 2805-2806، زبدة الحلب، ج 2، ص 123-124.

(7) ابن الأثير، الكامل، ج 9، ص 11. ابن العديم، زبدة الحلب، ج 2، ص 123-124. وانظر: Gibb, The

Damascus, p. 31.

(8) ابن القلانسي، الذيل، ص 132. ابن الأثير، الكامل، ج 9، ص 11.

(9) ابن القلانسي، الذيل، ص 131-132. ابن الأثير، الكامل، ج 9، ص 11. ابن العديم، زبدة الحلب، ج 2، ص 124.

حسين في أول رمضان سنة 489هـ/ أواخر أغسطس 1096م قاصدين دمشق، فقام ياغي سيان بالخروج لنجدة دقاق، وقطع على رضوان طريقاً صحراوياً إلى أن وصل إلى حلب⁽¹⁾. وكردة فعل على ما قام به رضوان وحلفاؤه، قام ياغي سيان بإقناع دقاق وأتابكه طغتكين بالمبادرة بمهاجمة أملاك رضوان للحيلولة دون قيامه بمهاجمة دمشق مرة ثالثة، فخرج دقاق وطغتكين من دمشق في سنة 490هـ/1097م بمهاجمة حماة وأعمالها، ثم استولوا على المعرة وسلموها إلى ياغي سيان، وعندما علم بذلك رضوان، حشد جيوشه واشتبك مع دقاق وحلفائه على ضفتي نهر قويق بين حلب وقنسرين في الخامس من شهر ربيع الأول سنة 490هـ/ الخامس والعشرين من مارس (آذار) 1097، وحلت الهزيمة بدقاق وأصحابه، وأسفر ذلك عن عودة ياغي سيان إلى أنطاكية، بينما رجع دقاق وطغتكين إلى دمشق، وأرسل دقاق إلى أخيه رضوان معلناً قبوله بإقامة الخطبة له بدمشق⁽²⁾.

استغل ياغي سيان الخلاف الذي وقع بين رضوان وأتابكه حسن الذي كان على خلاف شخصي مع ياغي سيان وقدم إلى حلب سنة 490هـ/1097م وزوجه ابنته، وجعل نفسه أتابكاً لرضوان بدلاً من جناح الدولة حسين⁽³⁾.

وانتهز رضوان تحالفه مع ياغي سيان وسكمان بن أرتق فهاجم شيزر ليتخذها قاعدة للهجوم على حمص ودمشق غير أن أخبار وصول الصليبيين إلى حدود الشام الشمالية فككت هذا التحالف بدلاً من توحيدهم لصد الصليبيين، وعاد ياغي سيان إلى أنطاكية ليواجه الصليبيين لوحده⁽⁴⁾، ويبدو أن هذا ما دعاه إلى الاعتماد على جهود المقاومة الشعبية في صد الهجوم لأنه لم يكن يملك الجيش الكافي لحماية المدينة بعد أن خسر الكثير من الرجال والأموال جراء اشتراكه في حملات تتش على بلاد الشام، وسانده في مطالبته بعرش السلطنة السلجوقية وتدخله في النزاع بين ابني تتش رضوان ودقاق بالانضمام تارة إلى رضوان، وأخرى إلى دقاق، وكان يمكن له أن يدخر رجاله وأمواله لمواجهة الصليبيين، وانشغل بذلك

(1) ابن الأثير، الكامل، ج9، ص11. وذكر بأن رضوان حين عجز عن دمشق بسبب وجود ياغي سيان إلى جانب دقاق توجه إلى نابلس ومنها إلى القدس التي كانت بيد حليفه سقمان ليأخذها ولكنه عجز عن ذلك فعاد إلى حلب. وانظر كذلك: ابن العديم، زبدة الحلب، ج2، ص125.

(2) ابن الأثير، الكامل، ج9، ص11. ابن الفوطي، مجمع الآداب، ج4، ق3، ص171. ابن العديم، زبدة الحلب، ج2، ص125-127. الذهبي، دول الاسلام، ج2، ص19. العبر، ج3، ص327.

(3) ابن القلانسي، الذيل، ص133. ابن الأثير، الكامل، ج9، ص11. ابن العديم، زبدة الحلب، ج2، ص127.

(4) ابن القلانسي، الذيل، ص133-134. ابن العديم، زبدة الحلب، ج2، ص129-130. وانظر: العريني، الشرق،

عن توطيد حكمه في أنطاكية وتنظيم شؤونها وتحصينها، مما كان له بالغ الأثر في عجزه عن الصمود طويلاً أمام حصار الصليبيين، وهذا ما يبرز لنا القول بالجهود التي بذلتها المقاومة الشعبية لحماية المدينة والدفاع عنها بعد أن عجز ياغي سيان وقواته عن الحماية، وهذا ما سنراه في الفصل الثاني من البحث.

واكب التنازع السلجوقي في بلاد الشام انهيار النفوذ الفاطمي بالشام، فعلى الرغم من استرداد بدر الجمالي المدن الساحلية مثل صور وجبيل سنة 482هـ/1089م إلا أن هذه المحاولة لاستعادة النفوذ الفاطمي في بلاد الشام حملت في طياتها دلائل الضعف، إذ أن الوالي الفاطمي⁽¹⁾، الذي أعاد تلك المدن الساحلية إلى سيطرة الفاطميين، قام بإعلان التمرد ومحاولة الاستقلال بصور، وعندما سمع بدر الجمالي بنبأ عصيان منير الدولة، جرد حملة عسكرية سنة 486هـ/1093م بقيادة ابنه الأفضل⁽²⁾، استرد بها صور وقبض على واليهاء، وأرسله إلى مصر ليتم قتله هناك، أما سكان صور فقد تم عقابهم بفرض مبلغاً كبيراً من المال عليهم، مما كان له أسوأ الأثر في نفوس أهل صور، وأثناء عودة الأفضل بجيشه إلى مصر، تمكن من استرداد ياقا من أتباع تاج الدولة تنش⁽³⁾.

غير أن الوالي الجديد لصور ويدعى الكتيلة مالبت أن أعلن التمرد على الدولة الفاطمية سنة 490هـ/1097م، فأرسل الأفضل حملة بحرية حاصرت المدينة وتمكنت من اقتحامها وقتلت أعداد كبيرة من سكانها، وتم القبض على الكتيلة وأرسل إلى مصر حيث جرى قتله⁽⁴⁾، وقد انعكس هذا الصراع الفاطمي السلجوقي على موقف الفاطميين من الغزو الصليبي لبلاد الشام فكان موقفها سلبياً، مما دعاها إلى إقامة تحالف بينها وبين زعماء الحملة الصليبية ضد السلاجقة في بلاد الشام، وبناء عليه أرسل الأفضل بن بدر الجمالي سفارة إلى الصليبيين ورد عليه السلاجقة بإرسال سفارة إلى القاهرة تؤكد أواصر التحالف⁽⁵⁾.

(1) هو منير الدولة الجيوش.

(2) الأفضل بن بدر الجمالي: هو أبو القاسم شاهنشاه الملقب بالملك الأفضل، ابن أمير الجيوش بدر الجمالي، ولد سنة 458هـ/1066م، وتولى وزارة مصر بعد وفاة أبيه سنة 466هـ/1073م. انظر ترجمته في: ابن خلكان، وفيات، ج2، ص488-451. الأزدي، أخبار، ج1، ص223-229. الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج19، ص507-509.

المقريزي، اتعاظ، ج2، ص329.

(3) ابن القلانسي، الذيل، ص124-125. ابن شداد الحلبي، الأعلام، ج3، ص255-256، 266. ابن ميسر، المنتقى، ج2، ص29. ابن كثير، البداية والنهاية، ج12، ص145. المقريزي، اتعاظ، ج2، ص328.

(4) ابن القلانسي، الذيل، ص133-134. ابن الأثير، الكامل، ابن شداد الحلبي، الأعلام، ج2، ص266. ابن ميسر، المنتقى، ج2، ص38. ابن تغري بردي، النجوم، ج5، ص159. المقريزي، اتعاظ، ج3، ص159.

(5) انظر عن هذا التحالف: المؤلف المجهول، أعمال الفرنجة، ص59، 63. وانظر: العوفي، الحركة الصليبية، =

ويبدو أن هذا المشروع هو الذي دفع بعض المؤرخين⁽¹⁾ إلى اتهام الفاطميين، بأنهم السبب في قدوم الصليبيين إلى بلاد الشام، ولكن الحقيقة لم يثبت صحة هذا الاتهام، وإن حاولت الدولة الفاطمية التآمر على الوجود السلجوقي في بلاد الشام من خلال محاولتها للتحالف مع الصليبيين كما أسلفنا، وعدم حماسها للتصدي لهم أثناء توغلهم في الشام.

ب - الإمارات العربية في بلاد الشام قبيل الغزو الصليبي:-

1-إمارة ابن أبي عقيل في صور (455-482هـ/1063-1089م):-

ينتمي ابن أبي عقيل (عين الدولة علي بن عبد الله بن علي بن عياض بن أحمد) مؤسس الإمارة العقيلية في صور، إلى أسرة يبدو أنها توارثت قضاء صور زمنياً طويلاً، وكان علي بن عياض جد مؤسس الإمارة يلي قضاء صور، حيث ذكره الرحالة ناصر خسرو، أثناء زيارته لصور وهو في طريقه إلى مصر سنة 438هـ/1047م، فبعد أن ذكر ناصر خسرو⁽²⁾ موقع صور وحصانيتها وناפורاتها، وأسواقها وثراءها، أضاف بأن معظم سكانها "شيعية"، وأن القاضي هناك رجل اسمه ابن أبي عقيل، وهو رجل طيب ثري". ونظراً للجهود الكثيرة التي بذلها القاضي علي بن عياض في خدمة الدولة الفاطمية فقد منحوه لقب "عين الدولة"⁽³⁾.

وفي سنة 488هـ/1056م زار المؤيد في الدين داعي الدعاة الفاطمي ميناء صور واستشار ابن أبي عقيل في اصطحاب أفراد من قبيلة كلب إلى شمال الشام لحراسة الأموال المرسلة معه لدعم حركة البساسيري ضد السلاجقة، فأشار القاضي ابن أبي عقيل على المؤيد بخطورة اصطحاب كلب خوفاً من إثارة روح العصبية القبلية بين قبيلتي كلب وكلاب، واندلاع الحرب بينهم، وبالتالي انشغال المؤيد عن مهمته التي ذهب لتحقيقها، وقد اقتنع المؤيد بمشورة ابن أبي عقيل فلم يصطحب أحداً من قبيلة كلب⁽⁴⁾

أخذ النفوذ الفاطمي في بلاد الشام يتدهور منذ النصف الثاني من القرن الخامس

=ص18-19. غوانمة، الأفضل، ص79. عاشور، شخصية الدول، ص170-172. بيضون، تاريخ، ص71.

توديبود، تاريخ الرحلة، ص142-143. ريمونداجيل، تاريخ الفرنجة، ص105، 112-115

(1) انظر: ابن الأثير، الكامل، ج9، ص13-14. النويري، نهاية الأرب، ج28، ص250. ابن خلدون، العبر، ج5، ص215.

(2) سفر نامه: ص50. وانظر: ابن الأثير، الكامل، ج8، ص348. وقد وصفه هو الآخر بأنه كان وافر العلم والأدب، وتوفي سنة450هـ.

(3) المقرئزي، اتعاظ، ج2، ص213.

(4) المصدر نفسه، ص73-79.

الهجري/ النصف الثاني من القرن الحادي عشر الميلادي، وانتَهز القاضي عين الدولة علي بن عبد الله بن علي بن عياض الفرصة وتغلب على صور "وعصى فيها واستبد بها وخلق طاعة المستنصر وذلك في سنة خمس وخمسين وأربعمائة"⁽¹⁾.

وفي سنة 460هـ/1068م حاول بدر الجمالي استعادة صور من ابن أبي عقيل فحاصر صور بضعة أيام ثم تركها خوفاً من القائد الفاطمي حيدرة بن منزو، الذي خرج عن طاعة الفاطميين وقاد عسكره مع بعض الدمشقيين وقرر مهاجمة بدر الجمالي أثناء حصاره لميناء صور، فانسحب بدر عائداً إلى عكا⁽²⁾.

شعر ابن أبي عقيل أنه سيتعرض للخطر من قبل الأسطول الفاطمي ولما كان لا يملك جيشاً قوياً يستطيع به الدفاع عن صور لجأ إلى استخدام التركمان الذين وفدوا على بلاد الشام⁽³⁾، وعاد بدر الجمالي في سنة 462هـ/1070م وحاصر صور ونجح في استمالة ابن خان زعيم التركمان القادمين لمساعدة ابن أبي عقيل، الذين خرج من صور وانضم إلى بدر الجمالي، عندئذ اتصل ابن أبي عقيل ببعض أتباع ابن خان، وحرصهم على قتله، وأغراهم بالمال "فوثب عليه منهم اثنان وقتلاه، وحملوا رأسه إلى ابن أبي عقيل، فطيف به في صور". وترتب على مقتل ابن خان فرار أتباعه من صور، وانضمامهم إلى بدر الجمالي "فقوي بهم"⁽⁴⁾، ولما اشتد حصار بدر لصور

استجد ابن أبي عقيل بالأمير قرلو زعيم التركمان النواكية في جنوب الشام، فسار الأمير التركماني على رأس قواته لفتح حصار صور، ولما كان بدر الجمالي يحتفظ بأهله وأمواله وذخائره في صيدا، فإن قرلو ضرب الحصار عليها، مما أجبر بدرًا على التخلي عن حصار صور، بعد أن استمال إليه الكثير من سكانها وعساكرها، وحينما انسحب بدر عن صور عاد قرلو بأتباعه إلى فلسطين للعمل لحسابهم الخاص، الأمر الذي أتاح الفرصة من جديد لبدر الجمالي لمعاودة حصار صور، وحاصرها بدر الجمالي براً وبحراً لمدة سنة، حتى ارتفعت بها الأسعار، ومع ذلك ظلت صور صامدة وأخيراً قرر بدر إنهاء حصار صور سنة 463هـ/1070م بسبب ازدياد خطر التركمان في جنوب الشام، ووقوع الفتنة في مصر، التي أثارها القائد الفاطمي ناصر الدولة بن حمدان ضد الخليفة المستنصر، وهكذا حالت هذه

(1) ابن شداد، الأعلام، ج2، ق2، ص265.

(2) ابن الأثير: الكامل، ج8، ص384. سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج1.

(3) الغامدي، بلاد الشام، ص279.

(4) سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج1، 95. وانظر: مصطفى، دخول الترك، ص346.

الظروف دون سقوط إمارة ابن أبي عقيل⁽¹⁾

ظل عين الدولة علي بن عبد الله بن أبي عقيل يحكم صور حتى توفي سنة 465هـ/1073م، فخلفه في الإمارة ابنه نفيس ومعه أخواه⁽²⁾.

ويفهم مما أورده ابن القلانسي أنه على الرغم من ثراء صور وطرابلس فإن ضعف مواردها البشرية جعلهما غير قادرتين على الإسهام بدور فعال في حوادث بلاد الشام، في الوقت الذي أخذت فيه طوائف التركمان تصل تباعاً إلى بلاد الشام، وحفاظاً على المدينتين من خطر التركمان لجأ قضاتهما إلى مصانعة الأتراك "بالهدايا والملاطفات" على حد قول ابن القلانسي⁽³⁾.

ولم تفد سياسة العزلة التي اتبعتها أبناء القاضي عين الدولة ابن أبي عقيل في حماية إمارتهم في صور من السقوط سنة 482هـ/1089م بيد تاج الدولة تتش، الذي سرعان ما فقدتها في السنة نفسها لحساب حملة فاطمية أرسلها بدر الجمالي لاستعادة سواحل الشام⁽⁴⁾. ولقد أدى تنازع السلاجقة والفاطميين على صور إلى تدهور أحوالها وبخاصة بعد أن عادت إلى الحكم الفاطمي المباشر، الأمر زاد في ضعفها وجعلها تسير من سيئ إلى أسوأ، مما سهل في نهاية الأمر سقوطها بأيدي الصليبيين.

2- إمارة بني عمار في طرابلس (462 - 491هـ/1069-1098م):-

ومن الإمارات العربية في بلاد الشام قبيل الغزو الصليبي إمارة بني عمار في طرابلس وهي الإمارة الثانية التي ظلت قائمة في بلاد الشام حتى الغزو الصليبي لتواجه بمفردها جحافل الصليبيين وهجماتهم العنيفة على طرابلس إلى أن سقطت بأيديهم سنة 502هـ/1109م.

أسس هذه الإمارة القاضي أمين الدولة أبو طالب عبد الله بن محمد ابن عمار الطائي الذي كان فيما يبدو يتولى قضاء طرابلس في منتصف القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي⁽⁵⁾.

(1) ابن القلانسي، الذيل، ص 98. ابن الأثير، الكامل، ج 8، ص 460. ابن ميسر، أخبار مصر، ج 2، ص 20= ابن شداد، الأعلام الخطيرة، ج 3، ص 165.

(2) ابن شداد، الأعلام الخطيرة، ج 2، ق 2، ص 165-166.

(3) الذيل، ص 112.

(4) سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج 1، ص 129-130.

(5) لا توجد صلة بين بني عمار حكام طرابلس وبين بني عمار المغاربة الذين قدموا مع المعز الفاطمي = من المغرب وتولى أحدهم وزارة الحاكم الفاطمي، وأورد المقرئ في الخطط ج 2، ص 36. نسب وزير الحاكم =

وفي سنة 456هـ/1063م تغلب على طرابلس أبناء إحدى الأسر في طرابلس، ويدعون أبناء أبي الفتح، الأمر الذي دفع والي دمشق الفاطمي معلى بن حيدرة بن منزو⁽¹⁾، في السنة التالية (457هـ/1064م) إلى المسير مع قائد حامية الرملة لإخضاع طرابلس وإعادتها للحكم الفاطمي، وقبل وصول ابن منزو إلى طرابلس، انضم إليه أبو طالب بن عمار قاضي طرابلس الذي قام بدور هام، لإعادة المدينة للحكم الفاطمي، واستطاع ابن عمار إقناع أحد أخوة بني أبي الفتح، بترك أخوته والخروج إلى ابن منزو، وعندما دخل ابن منزو وابن عمار إلى طرابلس قبضاً على بني أبي الفتح وجميع أنصارهم، وقتلوا بعضهم، وطردهم الآخرين وأعادوا الحكم للخليفة الفاطمي⁽²⁾.

انتهاز أبو طالب بن عمار اضطراب أحوال بلاد الشام خلال الشدة المستتصرية وانحسار النفوذ الفاطمي عن بلاد الشام، وانهيار نفوذ أسرة بني أبي الفتح فتغلب على طرابلس سنة 462هـ/1070م⁽³⁾، غير أنه لم يرفض السيادة الروحية للخلافة الفاطمية، إذ كان ابن عمار نفسه يدين بالمذهب الشيعي إضافة إلى الغالبية الشيعية من سكان طرابلس، ولذلك ظلت الخطبة الفاطمية قائمة⁽⁴⁾.

عمل القاضي أبو طالب ابن عمار على توطيد نفوذه داخل طرابلس، وبعد أن تم له ذلك استولى على مدينة جبيل الواقعة جنوب طرابلس وشمال شرق بيروت وبسط نفوذه على الشريط الساحلي الممتد فيما بين طرابلس وبيروت⁽⁵⁾.

توفي أبو طالب بن عمار سنة 464هـ/1072م وخلفه في إمارة طرابلس ابن أخيه جلال الملك علي بن محمد بن عمار، غير أن أخوة أبي طالب نازعوا جلال الملك عرش

وهو الحسن بن عمار بن علي بن أبي الحسن الكلبي زعيم قبيلة كتامة، أما نسب ابن عمار قاضي طرابلس فهو أبو طالب عبد الله بن محمد بن عمار بن الحسن بن إدريس ابن أبي يوسف الطائي، انظر: ديوان ابن حيوس، ج1، ص132-133. المقرئزي، اتعاض، ج2، ص307. وقد اختلط الأمر على محقق الجزء الثالث من كتاب اتعاض الحنفا فأرجع أصل بني عمار أصحاب طرابلس إلى الحسن بن عمار وزير الحاكم الذي قتل سنة 390. انظر: اتعاض الحنفا، ص78. وانظر: تدمري، تاريخ طرابلس، ج1، ص337-338.

(1) تولى أمر دمشق من قبل الفاطميين سنة 456هـ ثم صرف عنها بعد ذلك وكان من قبل واليا على حمص قبل أن يستولي عليها المردياسيون. انظر: ابن القلائسي، الذيل، ص95-92. ابن العديم، زبدة، ج1، ص265.

(2) الغامدي، بلاد الشام، ص272.

(3) ابن الأثير، الكامل، ج8، ص392. ابن شداد الحلبي، الأعلام الخطيرة، ج2، ص96. وانظر: الشيخ، الإمارات، ص200.

(4) خسرو، سفرنامه، ص48. ابن شداد، الأعلام الخطيرة، ج2، ص107.19. Gibb, The Damascus,

(5) ابن شداد، الأعلام، ج2، ص96-97. Gibb, Op.cit. P.19.

الإمارة فقام سيدد الملك علي بن منقذ الذي كان مقيماً بطرابلس بمساعدة جلال الملك وعضده بماليكه وعشيرته حتى انفرد بالإمارة، وتمكن جلال الملك من ضبط الأمور بطرابلس وكافاً صديقه ابن منقذ بأن منحه الكثير من النفوذ والمكانة داخل طرابلس⁽¹⁾.

عمل جلال الملك علي بن عمار على درء الأخطار التي تعرضت لها إمارته في عهده فعندما بسط أئسز نفوذه على جنوب الشام ضايق طرابلس سنة 468هـ/1076م، الأمر الذي جعل ابن عمار يفضل مهادنة التركمان وعدم الدخول معهم في نزاع قد يهدد إمارته بالخطر، فقد عقد هدنة مع أئسز وقدم له بعض المال وسمح لأتباعه التركمان بالمتاجرة مع طرابلس⁽²⁾، ويبدو أن مهادنة جلال الملك ابن عمار للتركمان أثارت حفيظة الوزير الفاطمي بدر الجمالي، فدبر في سنة 468هـ/1076م مؤامرة مع بعض أعيان طرابلس للإطاحة بجلال الملك والقبض عليه، وإعادة المدينة للحكم الفاطمي المباشر، واكتشف جلال الملك المؤامرة فقبض على المتآمرين وصادر أموالهم وقتل بعضهم، ونفى الآخرين⁽³⁾، وعلى الرغم من سوء العلاقات بين جلال الملك بن عمار وبين الخلافة الفاطمية فإن جلال الملك ظل معترفاً بالسيادة الروحية للفاطميين وبدل على ذلك الدنانير التي ضربت في طرابلس في سنة 465هـ، 471هـ، 475هـ، وعليها اسم الخليفة المستنصر وشعار الدولة الفاطمية⁽⁴⁾.

عمل جلال الملك علي بن عمار جاهداً لتوسيع دائرة نفوذه وبخاصة على المناطق الواقعة شمال طرابلس ولا سيما قلعة جبلة، وكانت قلعة جبلة خاضعة للبيزنطيين منذ سنة 357هـ/967م، وفي سنة 473هـ/1080م كان يلي قضاء جبلة القاضي منصور بن الحسين التتوخي، المعروف بابن صليحة، فاتصل بجلال الملك علي بن عمار طالباً مساعدته على تحرير جبلة من أيدي البيزنطيين، فجهز علي بن عمار فرقة من التركمان عددها ثلاثمائة رجل في صحبة بعض البحارة، ودبر أمر دخول جبلة مع ابن صليحة حتى تم ذلك وأصبح ابن صليحة والياً على جبلة من قبل ابن عمار، وامتد بذلك نفوذ ابن عمار من جنوب اللاذقية شمالاً إلى مشارف بيروت جنوباً، ولم تستمر جبلة طويلاً خاضعة لجلال الملك بن عمار إذ توفي منصور بن صليحة وخلفه ابنه أبو محمد عبيد الله بن منصور الذي أحب الجندية وكون جيشاً خاصاً به، وحاول ابن عمار القبض على عبيد الله بن صليحة فاستعصى عليه واستقل جبلة وأقام الخطبة للخليفة العباسي المقتدي وللسلطان ملكشاه، ولم تنجح محاولات ابن عمار

(1) ابن العديم، زبدة، ج2، ص34-36. ابن شداد، الأعلام، ج3، ص108. ابن الأثير، الكامل، ج8، ص392.

(2) مصطفى، دخول الترك، ص359. تدمري، تاريخ طرابلس، ج1، ص351. الغامدي، بلاد الشام، ص274.

(3) الغامدي، بلاد الشام، ص247. الشيخ، الإمارات، ص207-208.

(4) Lavoix. CATLOGUE Vol.III. P. 132-133.

في سبيل استعادة جبلة، رغم استعانتته بدقاق بن نتش الذي حاصر جبلة دون جدوى، وظل ابن صليحة يحكم جبلة إلى أن تنازل عنها سنة 494هـ/1101م لصالح طغتكين أتابك دقاق، بعد أن تكررت محاولات الصليبيين للاستيلاء عليها، وبعد أن آلت جبلة إلى طغتكين تمكن فخر الملك بن عمار من استعادتها سنة 494هـ/1101م⁽¹⁾.

وكيفما كان الأمر، فقد عمل جلال الملك على تحسين علاقته مع تاج الدولة تتش خشية أن الاستيلاء على طرابلس، وقد أثمرت تلك العلاقة الطيبة عن تنازل تتش لجلال الملك بن عمار من طرطوس سنة 476هـ/1083م مقابل مبلغ من المال⁽²⁾. وتجدر الإشارة هنا، إلى أن تدهور علاقة إمارة طرابلس بالفاطميين وانهييار قوة السلاجقة في بلاد الشام جعل طرابلس تقف بمفردها أمام الصليبيين بحيث لم تستطع المقاومة طويلاً حتى سقطت سنة 502هـ/1109م.

3- إمارة خلف ابن ملاعب في حمص وأفامية (466-491هـ/1074-1098م) :-

أما إمارة خلف بن ملاعب، فقد أسسها سيف الدولة خلف بن ملاعب الأشهبي، بعد أن استولى على مدينة حمص سنة 466هـ/1074م⁽³⁾، ويبدو أن ابن ملاعب انتهاز فرصة ضعف النفوذ الفاطمي في بلاد الشام، واستيلاء التركمان بزعامة أئسز بن أوق على جنوب الشام، وتمزق القبائل العربية في بلاد الشام، فتغلب على حمص التي كانت من أملاك قبيلة كلب اليمينية⁽⁴⁾.

استطاع خلف بن ملاعب المحافظة على إمارته في حمص، عن طريق مداهنة حكام بلاد الشام الأقوياء⁽⁵⁾، واستفاد خلف بن ملاعب من تبعيته لتاج الدولة تتش في نجاته من السقوط أمام مسلم بن قريش سنة 475هـ/1092م، وعاد مسلم بن قريش في السنة التالية

(1) ابن الأثير، الكامل، ج9، ص35-36. سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج1، ص369. ابن تغري بردي، النجوم، ج5، ص111. وانظر: الشيخ، الإمارات، ص209. الغامدي، بلاد الشام، ص275.

(2) ابن أبيك، الدرّة المضية، ص407. الذهبي، العبر، ج3، ص280.

(3) ابن واصل، مفرج الكروب، ج1، ص20-21. وقد ظن المستشرق جب Gibb أن خلف ابن ملاعب أسس إمارته في حمص سنة 475هـ/1082م بمساعدة مسلم بن قريش، واعتمد جب على نص أورده ابن القلانسي، الذيل، ص115. والنص لا يوحى بهذا الرأي. انظر: Gibb, The Damascus, P.20. وانظر: الغامدي، بلاد الشام، ص283.

(4) الغامدي، بلاد الشام، ص59، 78.

(5) ومثال ذلك عندما حاصر تتش حلب سنة 471هـ/1079م واستولى على الأقاليم الواقعة جنوب حلب كالمعرة وحماة وأعمالها، وأعلن دخوله في طاعة تاج الدولة تتش الذي أقره على حكم حمص. انظر ما سبق في هذا الفصل.

وصالح ابن ملاعب وزاد في أملاكه ريفية وسلمية ليجعله بذلك حاجزاً بين أملاكه في حلب وبين تتش في دمشق وجنوب الشام⁽¹⁾، وفي سنة 479هـ/1086م قدم السلطان ملكشاه إلى الشام وكان خلف بن ملاعب في جملة زعماء الشام، الذين وفدوا على السلطان السلجوقي، وقدموا له فروض الطاعة والولاء⁽²⁾.

لم يحافظ خلف بن ملاعب على علاقته الودية مع السلاجقة، ففي سنة 482هـ/1089م دخل في طاعة الفاطميين نظراً لأنه كان شيعياً⁽³⁾، كما درج على قطع الطريق، وإخافة السبيل، إضافة إلى سوء سيرته مع رعاياه، ففي سنة 482هـ/1089م قبض على أحد أعيان سليمة، ويدعى الشريف بن إبراهيم الهاشمي، وقذفه بالمنجنيق إلى برج سليمة، واعتقل عدداً من أبناء عمه فهرب الباقيون إلى السلطان ملكشاه، وشكوا له سلوك أميرهم خلف بن ملاعب، فأصدر السلطان ملكشاه أوامره بالقبض على ابن ملاعب وإرساله أسيراً إلى السلطان بخراسان، وقام قادة السلاجقة بتنفيذ أوامر السلطان، وتم القبض على خلف بن ملاعب سنة 483هـ/1090م وأرسل في قفص حديد إلى بلاط السلطان⁽⁴⁾.

ظل خلف بن ملاعب سجيناً حتى وفاة السلطان ملكشاه سنة 485هـ/1092م فقامت ترکان خاتون، أرملة السلطان ملكشاه بإطلاق سراحه فسار إلى مصر وأقام بها سنة 489هـ/1096م، وفي تلك السنة قدم إلى مصر وفد من أهل أقامية، وكانوا يعتنقون المذهب الشيعي، ويرفضون خضوع مدينتهم للحكم السلجوقي السني، فطلبوا من الوزير الفاطمي الأفضل بن بدر الجمالي تعيين خلف بن ملاعب حاكماً عليهم، فأجابهم إلى طلبهم بعد أن أخذ ابن خلف رهينة لديه لضمان ولاء أبيه⁽⁵⁾.

استقر خلف بن ملاعب في أقامية وما لبث أن خلع طاعة الفاطميين، فأرسلوا إليه يهددونه بولده الذي ما زال رهينة لديهم، فأجابهم: "إنني لا أنزل من مكاني وأبعثوا إليّ ببعض أعضاء ولدي حتى آكله"⁽⁶⁾، ثم أعاد سيرته الأولى في قطع الطريق وأخافه السبيل، واجتمع حوله الكثير من اللصوص وقطاع الطرق حتى كثرت أمواله وبدأ خلف بن ملاعب في شن

(1) الغامدي، بلاد الشام، ص 244، 248.

(2) انظر ما سبق.

(3) ابن العديم، بغية الطلب، ج 7، ص 3356. ابن واصل، مفرج الكروب، ج 1، ص 20-21.

(4) انظر ما سبق.

(5) ابن الأثير، الكامل، ج 9، ص 93-94. ابن العديم، بغية الطلب، ج 7، ص 3356-3357. ابن ميسر، أخبار مصر،

ج 2، ص 37. ابن واصل، مفرج الكروب، ج 1، ص 21. المقرئ، اتعاظ الحنفا، ج 3، ص 18

(6) ابن الأثير، الكامل، ج 9، ص 94.

الغارات على أراضي إمارة بني منقذ في شيزر مما جعل نصر بن علي بن منقذ يخرج لقتاله غير أن ابن منقذ انهزم أمامه، وأخيراً تم الصلح بين إمارة شيزر وإمارة خلف بن ملاعب⁽¹⁾، وظل بن ملاعب يحكم أفامية إلى أن أعتيل سنة 494هـ/1105-1106م⁽²⁾.

4- إمارة بني منقذ في شيزر (433-491هـ/1041-1098م):-

وإذا كانت إمارة مسلم بن قريش في بلاد الشام قد سقطت أمام زحف السلاجقة مثلها في ذلك مثل الإمارة المرداسية في حلب فإن إمارة بني منقذ في شيزر نجت من السقوط أمام السلاجقة بسبب اعتصامها بقلعة شيزر وعدم دخولها في نزاع مع السلاجقة. ويرجع بنو منقذ إلى قبيلة كنانة العربية القحطانية، ولكن هذه القبيلة كانت قليلة العدد في بلاد الشام بحيث لا يمكن مقارنتها قط بالقبائل العربية الكبيرة في بلاد الشام والجزيرة مثل كلاب وعقيل وطيء وكنب، والشهرة التي نعم بها آل منقذ لا تعود إلى قوة عصبيتهم بل إلى ما تمتع به أفراد هذه الأسرة من صفات الشجاعة والشهامة وإلى اهتمامهم بالعلم والأدب، واشتهارهم بقرض الشعر حتى غدوا من الشخصيات البارزة⁽³⁾، وأول ذكر لبني منقذ يرجع إلى سنة 433هـ/1041م عندما ثار جنود الخلافة الفاطمية على أنوشتكين الدزبري وخرج هارباً من دمشق وأزمت قبيلة كلاب على مهاجمته ونهب أمواله وذخائره، فاستتجد أنوشتكين بالمقلد بن نصر بن منقذ، فقدم إليه في الفي رجل من عشيرته وغلماؤه ودافع عنه حتى أدخله إلى حلب⁽⁴⁾.

وكان المقلد بن نصر يقيم وقتذاك بعشيرته بالقرب من قلعة شيزر عند جسر بني منقذ المنسوب إليهم، ويتردد مع أقاربه من حين لآخر إلى حلب وحماة لتوطيد علاقته مع زعماء بلاد الشام⁽⁵⁾، ويبدو أن صالحاً بن مرداس منح بني منقذ إقطاعاً حول بلدة كفر طاب، وتمكن المقلد بعد ذلك من بسط نفوذه على أجزاء من وادي العاصي⁽⁶⁾، وبعد وفاة المقلد سنة 450هـ/1059م خلفه ابنه سديد الملك علي بن المقلد وأخذ سديد الملك يوطد نفوذه عن طريق إقامة علاقات الود والصدقة مع بعض حكام بلاد الشام، فقد كانت علاقة بني منقذ مع

(1) ابن العديم، بغية الطلب، ج7، ص3354.

(2) ابن القلاسي، الذيل، ص149-150. ابن الأثير، الكامل، ج9، ص95. ابن العديم، بغية الطلب، ج7، ص3358.

(3) الأصفهاني، خريدة القصر، ج1، ص497، 522-553. باقوت، معجم الأدباء، ج2، ص187-196. ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج5، ص270.

(4) ابن الأثير، الكامل، ج8، ص253. الصفدي، الوافي بالوفيات، ج9، ص426.

(5) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج5، ص270.

(6) ابن الأثير، الكامل، ج8، ص253.

أمراء بني مرداس جيدة، إذ كان علي بن منقذ أخاً لمحمود بن نصر المرديسي من الرضاة⁽¹⁾، وظل علي بن منقذ حطب إلى سنة 464هـ/1072م عندما استوحش من أخيه محمود المرديسي، فسار إلى طرابلس حيث عاش في كنف ابن عمار⁽²⁾، وفي سنة 468هـ/1076م قام ببناء حصن على تل الجسر غربي شيزر قاصداً بذلك التربص بشيزر لانتزاعها من أيدي البيزنطيين، وبعد أن اكتمل بناء حصن الجسر قام علي بن المقلد بنقل أهله وعشيرته إليه وبدأ التخطيط للاستيلاء على شيزر⁽³⁾.

وعندما استقر علي بن منقذ في حصن الجسر، أدرك أنه من المستحيل الاستيلاء على قلعة شيزر من البيزنطيين إلا بالحيلة والسياسة، وذلك لشدة حصانيتها وطبيعتها الجغرافية، فقام ابن منقذ بالاستيلاء على حصن يعرف بالخراص يقع بين شيزر وحصن الجسر، وبعد الاستيلاء على حصن الخراص قام سديد الملك بالإحسان إلى أهله من البيزنطيين، ولم يكلفهم ما لا يطيقون وأخذ يتقرب إليهم ليحقق بذلك أهدافه لدى أهل شيزر⁽⁴⁾.

ولما رأى أهل شيزر من البيزنطيين إحسان علي بن منقذ إلى أهل الخراص اطمأنوا لجواره ووفدوا عليه فأجرى لهم الرواتب والعطايا واختلطوا بأهله وعشيرته، وساعدهم ضد كل من أراد حصنهم بسوء، وهاجمهم مسلم بن قريش بعد استيلائه على حطب وقتل منهم عشرين رجلاً، فقام علي بن منقذ بإعطاء أهل شيزر عشرين رجلاً عوضهم، ثم جرى بين أهل شيزر وبين حاكمهم دمتری خلاف أدى إلى نفورهم منه، وتقدم أهل شيزر إلى سديد الملك علي بن منقذ بتسليم شيزر إليه دون علم أسقفهم، فتظاهر ابن منقذ بالرفض في بادئ الأمر وأخيراً استرضى الأسقف دمتری واتفق معه على تسليم شيزر، مقابل مال يدفعه ابن منقذ للأسقف وعدم المساس بأملكه داخل شيزر، ودفع راتب ستة أشهر للحامية البيزنطية داخل القلعة، وتم الصلح وتسلم علي بن منقذ شيزر في شهر رجب سنة 474هـ/ديسمبر 1081م ونقل إليها سبعمائة رجل من عشيرته، وقد أثمرت سياسة التسامح التي اتبعتها علي بن منقذ مع أهل شيزر في قيام أهل عين تاب وبرزية وبقية الحصون الخاضعة للبيزنطيين على نهر وادي العاصي بتسليمها إلى ابن منقذ، والدخول في طاعته، وبعد أن بسط ابن منقذ نفوذه على شيزر وما يحيط بها سمح لحاميتها البيزنطية بالرحيل عنها، وقام بترميم قلعة

(1) ابن العديم، زبدة الحلب، ج2، ص34.

(2) المصدر نفسه، ج2، ص34-36.

(3) أبو الفداء، المختصر، ج3، ص31.

(4) ابن الوردي، تمة المختصر، ج2، ص89-90.

شيزر ونقل إليها كثير من المؤن والغلال بما يكفيه ومن معه مدة طويلة⁽¹⁾.

أدرك سديد الملك علي بن منقذ أنه ليس بمقدوره أن يلعب دوراً هاماً في تاريخ بلاد الشام التي كانت تشهد في هذا الوقت الزحف السلجوقي، ويرجع ذلك إلى الموارد المحدودة لإمارة شيزر إضافة إلى أنه لم يكن لدى ابن منقذ من العصبية القبلية ما يستطيع بها فرض زعامته على القبائل الأخرى، وبالتالي الإسهام في حوادث بلاد الشام، فقبيلته كانت عبارة عن عشيرة قليلة العدد لن تقبل القبائل الشامية الكبرى مثل التدخل في شؤون بلاد الشام إلا بالقدر الذي يحافظ على إمارته من السقوط أمام تنازع القوى المختلفة، وخوفاً من عودة مسلم بن قريش لمهاجمة شيزر، فإن علي بن منقذ انضم سنة 475هـ/1083م مع زعماء الشام الآخرين في تحالفهم مع تاج الدولة تنتش لوقف أطماع مسلم بن قريش في بلاد الشام⁽²⁾.

ويبدو أن تنتش شعر بأن إمارة شيزر تمثل عقبة أمام جهوده في سبيل ضم شمال الشام إلى أملاكه، فلما أغار تنتش على حلب سنة 476هـ/1083م أرسل علي بن منقذ ابنه نصر إلى تاج الدولة تنتش لتقديم فروض الطاعة والولاء، ولما وصل نصر إلى تنتش، قبض عليه واعتقله دون سبب معروف، ولكن نصراً تمكن من الخروج من سجنه، وهرب عن طريق غلام له⁽³⁾، ثم تحسنت العلاقات بين بني منقذ وبين تنتش وبخاصة بعد أن تزوج سلطان بن علي بن منقذ من خاتون ابنه تنتش، وبالتالي سادت علاقات الود والصدقة بين الجانبين⁽⁴⁾.

وقد تعرضت إمارة شيزر للتهديد سنة 478هـ/1085م من قبل سليمان بن قطلمش، الذي أخذ يسعى جاهداً لتوسيع أملاكه في بلاد الشام، فاستولى ابن قطلمش على معرة النعمان، وكفر طاب التابعة لابن منقذ فسارع سديد الملك علي بن منقذ بإيفاد ابنه مرشد، والد أسامة صاحب كتاب الإعتبار، وغيره، إلى الاستجداء بملكشاه، وبادر ابن قطلمش بالهجوم على شيزر فاضطر علي بن منقذ لدفع مبلغ من المال له مقابل وقف هجومه على شيزر⁽⁵⁾.

ولم يلبث علي بن المقلد بن نصر بن منقذ أن توفي في السادس من شهر محرم سنة 479هـ/23 أبريل 1086م وخلفه في حكم إمارة شيزر ابنه أبو المرهف نصر بن علي⁽⁶⁾،

(1) ابن العديم، زبدة الحلب، ج2، ص77. ابن الوردي، تنمة، ج2، ص89-90.

(2) ابن القلانسي، الذيل، ص114. ابن العديم، زبدة الحلب، ج2، ص79-89.

(3) ابن منقذ، الإعتبار، ص53-55.

(4) المصدر نفسه، ص148.

(5) ابن منقذ، الإعتبار، ص212-213. ابن العديم، زبدة الحلب، ج2، ص95.

(6) أبو الفداء، المختصر، ج3، ص31-32.

واستغل نصر بن علي بن منقذ النزاع الذي نشب بين سليمان بن قطلمش وبين تاج الدولة تتش والذي انتهى بمقتل سليمان، واستعاد نصر ما فقده أبوه من الحصون والقرى مثل كفر طاب وأفامية⁽¹⁾، واستطاع نصر بن علي بن منقذ خلال حكمه أن يضم إلى إمارته بعض القرى والحصون والقلاع مثل لطمين قرب حمص وحصن اسفونا القريب من معرة النعمان، وحصن أبي قبيس في قبالة شيزر⁽²⁾، وحكم نصر بن علي بن منقذ شيزر حتى وفاته سنة 491هـ/1098م فألت الإمارة إلى أخيه مجد الدين أبي سلامة مرشد بن علي والد أسامة، على أن شغف مجد الدين مرشد بنسخ القرآن الكريم جعله يتنازل عن الإمارة لأخيه الأصغر عز الدين أبي العساكر سلطان، الذي نعمت الإمارة في عهده برخاء اقتصادي كبير⁽³⁾، وعندما وصل الصليبيون إلى أنطاكية لم تسهم إمارة شيزر بأي جهد لمساعدة أنطاكية أو الدفاع عن بلاد الشام أمام الصليبيين⁽⁴⁾.

وهكذا أدى قيام الإمارات العربية المستقلة في بلاد الشام وانتشار العصبية القبلية فيما بينها إلى زيادة التمزق في بلاد الشام، وأصبح هم كل إمارة المحافظة على كيائها غير عابئة بما تتعرض له بقية أجزاء بلاد الشام الأخرى من أخطار، وقد ساعد هذا التمزق الصليبيين في المضي قدماً في حملتهم على بلاد الشام دون صعوبة كبيرة حيث لم يواجهوا قوة متحدة تستطيع صدهم عن بلاد الشام.

كما أدى تنازع القوى والأوضاع السياسية المتدهورة في بلاد الشام إلى عدم وجود قوة إسلامية موحدة قادرة على صد الحملة الصليبية الأولى، ولم يكن نجاح هذه الحملة الصليبية ناتجاً عن التمزق الذي شهدته بلاد الشام فحسب بل أيضاً إلى تمزق هذه البلاد بين أمراء السلاجقة المتصارعين مع بعضهم البعض من ناحية والخلافة الفاطمية من ناحية أخرى، الأمر الذي ساعد على نجاح الصليبيين في اجتياح معظم الشام وألقي عائق المقاومة لهذا العدوان على أكتاف الأهالي الذين رأوا ضعف الجيوش عن حمايتهم والتصدي للعدو.

(1) ابن الأثير، الكامل، ج8، ص444. الغامدي، بلاد الشام، ص268.

(2) رمضان، المجتمع الإسلامي في بلاد الشام، ص46. وأبو قبيس، حصن مقابل شيزر. ياقوت، معجم البلدان، ج1، ص81.

(3) ابن الأثير، الكامل، ج9، ص415. رمضان، المجتمع الإسلامي في بلاد الشام، ص46.

(4) ابن الأثير، الكامل، ج9، ص16.

رابعاً: أوضاع السكان:-

وبالإضافة إلى التمزق السياسي الذي خيم على بلاد الشام قبيل وصول الصليبيين، فإن تركيب السكان في بلاد الشام شهد كثيراً من الانقسامات اللغوية والمذهبية والعرقية، مما يوضح مدى تأثير الأوضاع السياسية على الأوضاع العامة للسكان، فمن الناحية اللغوية كانت اللغة العربية هي السائدة بين المسلمين من غير الأتراك والمسيحيين اليعاقبة⁽¹⁾، واليونانيين، وظلت اللغة العربية مستعملة في أنطاكية واللاذقية، على الرغم من الصفة البيزنطية التي تغلب عليها، أما اللغة الأرمنية فقد كانت منتشرة بين الأرمن دون غيرهم، بينما سادت اللغة التركية بين التركمان الذين استقروا في شمال الشام⁽²⁾.

أما عن التركيب السكاني للمجتمع في بلاد الشام، فقد انتشرت العناصر العربية، ولكل منها أفضاء وبطون، مثلما كان الحال منذ وجود الشام، فمعلوم أن القبائل العربية كثيراً ما اتجهت إلى بلاد الشام من أجل المتاجرة، والتخلص من موجات الجفاف التي عانت من جرائها شبة الجزيرة العربية، وكذلك من جراء الصراع القبلي⁽³⁾.

ومع موجة الفتوحات الإسلامية لبلاد الشام، اندفعت القبائل العربية وبطونها إلى الشام⁽⁴⁾، وهكذا فإنها لم تقم بغزو الشام فحسب- كما لاحظ دوسو- بل أنها اتجهت إلى الإقامة المستمرة فيها⁽⁵⁾، وقد وجدت عدة قبائل عربية استقرت في بلاد الشام مثل بني كلاب، وبني طيء، وبني كلب⁽⁶⁾، ووجد فيها من لعب دوراً هاماً في تاريخ بلاد الشام قبيل الغزو

(1) اليعاقبة: ينتسبون إلى يعقوب البرادعي، وهو راهب من القسطنطينية نصب أسقفاً في حوالي عام 541م، وقد اتبع اليعاقبة المذهب المونوفيزي القائل بالطبيعة الواحدة، ولم يقبلوا بمبدأ (الإلهية والبشرية) في الشخص الواحد المسيح، وقد نظمت الكنيسة المونوفيزية من قبل يعقوب البرادعي المتوفي سنة 578م، وانتشر مذهب الطبيعة الواحدة في المنطقة الواقعة من سوريا إلى أرمينيا في الشمال ومصر في الجنوب. انظر: المسعودي، التنبيه، ص 145-146. الفيتري، تاريخ بيت المقدس، ص 108-110. حتى تاريخ، ص 412-413. فارح، المسيحيون، ص 77. براور، الاستيطان، ص 74. أبو زهرة، محاضرات، ص 159.

(2) براور، الاستيطان، ص 75، 78-79. فارح، المسيحيون، ص 77. العريني، الشرق الأوسط، ص 29. كاهن، الشرق، ص 218. جب، صلاح الدين، ص 58. Cahen, La.Syrie.P.18.

(3) الحويري، الأوضاع، ص 15. عوض، السياسة، ص 249.

(4) الحويري، الأوضاع، ص 15.

(5) عوض، السياسة، ص 249.

(6) انظر: المقرئزي، البيان، ص 110. و القلقشندي، نهاية الأرب، ص 325، 407، 408. صبح الأعشى، ج 1، ص 340 وانظر كذلك: الحويري، الأوضاع، ص 16-24. الشيخ، الإمارات، ص 16-19. العلي، القبائل ص 47-

49 السيد، تاريخ، ص 43-58.

الصليبي، مثل بني كلاب الذين أسسوا الدولة المرداسية⁽¹⁾ في حلب عام 415هـ/1025م. ومن القبائل العربية التي وجدت في بلاد الشام قبيل الغزو الصليبي: الدعجيون (ويقال لهم الدعاجنة) وهم من بني جذام، وكانوا يسكنون منطقة شرقي الأردن ما حولها، وقبيلة (العطويون) من بني صخر، الذين امتدت سكناهم في مناطق شرقي الأردن أيضاً، وكذلك بني جرم، وهم من بني طيء فقد سكنوا المنطقة من غزة حتى شرقي الأردن⁽²⁾، وبني ثعلبة من بني طيء أيضاً وهم "بمشارق الديار المصرية ومغارب الديار الشامية"⁽³⁾، وبالتحديد في "بلاد غزة والداروم مما يلي الساحل، إلى الجبل وبلاد النخيل (أريحا)"⁽⁴⁾.

وفي الفترة السابقة على قدوم الحملة الصليبية الأولى سكن جنوب فلسطين وشمالها بنو سنابس، وهم ينسبون إلى سنابس بن معاوية الطائي⁽⁵⁾، وتمتد أفضاخ بني طيء في سكانها إلى شرقي الأردن، ومنهم: بنو كنانة، وبنو حابور، وبنو خالد، وقد أقام إلى الشمال منهم بنو مر، وبنو أبي⁽⁶⁾ ثم بنو عوف؛ وبنو ربيعة شمال دمشق⁽⁷⁾.

وكان هؤلاء العرب من المسلمين، واعتنق معظم أهل الشام مذهب أهل السنة، فيما عدا المناطق الشمالية مثل حلب وطرابلس.

وتجدر الإشارة إلى أن الوضع القبلي في بلاد الشام كان في تغير مستمر لتتنقل القبائل من مكان إلى آخر، ونتيجة وصول موجات جديدة من القبائل المهاجرة، تغير الوضع القبلي تغيراً ملحوظاً، ففي زمن ابن حوقل⁽⁸⁾ (القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي) كانت قبائل من ربيعة ومضر تسكن الجزيرة الفراتية وشمال الشام، ثم هاجرت إليها بطون من قشير وعقيل ونمير وكراب، فطردت قبائل ربيعة ومضر، واستولت على معظم ديارها في هذه المناطق.

(1) الدولة المرداسية: نسبة إلى مؤسسها صالح بن مرداس. انظر: ابن العديم، زبدة الحلب، ج1، ص202-203. ابن خلكان، وفیات الأعيان، ج2، ص108. وحول هذه الإمارات وتأسيس الكلابيين لها. انظر: ابن العديم، زبدة، ج1، ص98-99، 207-202، 216-223، 228، 230-234، 237-239، 250-251. ج2، ص9-70. وانظر: زكار، إمارة، ص105-147. السامرائي، الدولة المرداسية، رسالة دكتوراة. الشيخ، الإمارات، ص65-187.

(2) القلقشندي، نهاية الأرب، ص117، 129، 138، 141. المقرئ، ضوء الساري، ص28-35.

(3) القلقشندي، نهاية، ص118. العمري، قبائل، ص106-108، 154.

(4) القلقشندي، صبح، ج4، ص209، 211.

(5) المقرئ، البيان، ص4.

(6) ذكر ابن منقذ أن بنو أبي عرفوا بأكل المواشي المينة. الاعتبار، ص15.

(7) القلقشندي، نهاية، ص111. صبح الأعشى، ج4، ص208. وانظر: براور، الإسطيطان، ص70-71. السيد، الخليل، ص81.

(8) صورة الأرض، ص205.

وبجانب القبائل العربية في بلاد الشام وجدت العناصر التركية التي قدمت مع تقدم القبائل التركية إلى المنطقة خاصة في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري، الحادي عشر الميلادي⁽¹⁾، وقد اتصف دخول القبائل التركية التركمانية إلى بلاد الشام بالغزو البربري الهمجي لأنه على شكل غارات مدمرة انتهت بالإستقرار غير التام بعد أن أضافت المزيد من أسباب الضعف والانهيار لبلاد الشام قبيل الغزو الصليبي، فما أن حلت سنة 463هـ/1070م حتى وصلت بلاد الشام إلى أقصى درجات الضعف والتمزق، مما مهد لدخول السلاجقة تلك البلاد⁽²⁾، وبالإضافة إلى الأتراك، استقر الأكراد⁽³⁾ في بلاد الشام وشمال العراق، ومن المعروف أن عناصرهم دافعت عن الحصن المجاور لطرابلس⁽⁴⁾ وما جاورها من أعمال وذلك في عام 428هـ/1033م⁽⁵⁾، ويلاحظ أن من الأكراد من تشكل في صورة جماعات أو أقوام رحل، كما أن بعضهم سكن المدن أيضاً، خاصة الجهات الشمالية من بلاد الشام⁽⁶⁾، حيث وجدت العناصر الكردية تقوم بخدمة آل منقذ في شيزر، كما شاركوا في المعارك الحربية التي خيضت غمارها، وكذلك ساهموا في المظاهر العمرانية وفي هذا المجال نجد أسر كردية بأكملها استقرت في تلك المدينة⁽⁷⁾.

ومن العناصر الغير عربية والتي لعبت دوراً في تفكك وانقسام الشام قبيل الغزو

(1) ويندرج تحت هذه القبائل كل من الغز والناوكية والتركماني. عن ذلك انظر: ابن العديم، زبدة، ج1، ص294-295 ابن أبي حصنة، ديوانه، ج1، ص360. زكار، إمارة، ص156-162. مصطفى، دخول الترك (المؤتمر) ص303-386. الغامدي، بلاد الشام، ص97-106. الشيخ، الإمارات، ص449-451. الحيارى، حصن، ص143.

(2) انظر حول التدمير الذي ألحقته غارات الأتراك: ابن الجوزي، المنتظم، ج8، ص255. ابن العديم، زبدة، ج2، ص11-12، 16، مصطفى، دخول الترك (المؤتمر) ص347. الغامدي، بلاد الشام، ص106.

(3) المقرئزي، اتعاظ، ج3، ص305. إبراهيم، الحياة، ص27.

(4) وهو حصن الأكراد الذي كان يسمى بحصن السفح، وأطلق عليه الفرنجة الصليبيون اسم حصن كرك الفرسان Karak des Chevaliers. يقع على بعد أربعين كم من مدينة حمص، وعلى بعد حوالي ستة وأربعين كم إلى الشمال الشرقي من طرابلس، وكان صالح بن مرداس قد عهد بأمر الدفاع عن ذلك الحصن لعائلات كردية وذلك في سنة 422هـ/1031م فقاموا بتحسينه حتى نسب إليهم. انظر: البغدادي، مراصد، ج10، ص406. ابن شداد الحلبي، الأعلام، ج2، ق2، ص115. أبو الفداء، تقويم، ص258. مصطفى، المدن، ج1، ص206. عنان، قلاع المسلمين، ص544. إبراهيم، الحياة، ص27. الغامدي، بلاد الشام، ص328-329. Marino, Secrets For 329-328. True.Crusaders, Vol. VII, P.5. الفيتري، تاريخ بيت المقدس، ص139. هامش5

(5) ابن شداد الحلبي، الأعلام، ج1، ص115. ابن واصل، مفرج الكروب، ج1، ص187.

(6) الحويري، أوضاع، ص28. عوض، السياسة، ص250-251.

(7) ابن منقذ، الاعتبار، ص48-49، 66-67، 95-96، 116، 122، 149.

الصليبي، الأرمن، وقد هاجروا من مواطنهم الأصلية بعد انتصار السلاجقة في موقعة (ملاذكرد سنة 463هـ/1071م) إلى شمالي بلاد الشام مثل أنطاكية، واللاذقية، وأفامية وغيرها⁽¹⁾.

ولم تقتصر هجرة الأرمن على المناطق الشمالية من بلاد الشام، بل هاجرت أعداد أخرى إلى جنوبه، بيد أنهم لم يلبثوا في جنوب الشام إلا فترة قصيرة⁽²⁾، وقد بدأت تبعية أنطاكية ومن فيها من الأرمن لسلاجقة الروم سنة 477هـ/1085م⁽³⁾، وقد قبل الأرمن الخضوع لسلاجقة خلال فترة حكم ملكشاه غير أنه عندما حدث الانقسام بعد وفاته سنة 485هـ/1092م، سرعان ما عمد الأرمن بدافع من مسيحياتهم ونزعتهم إلى الاستقلال بالمناطق الشمالية من بلاد الشام عن القوى الإسلامية الأخرى⁽⁴⁾، وإلى جانب نزعة الأرمن للاستقلال وإنشاء الإمارات المستقلة، فقد شاركوا في المنازعات التي كانت تحدث بين القوى الإسلامية، حيث استخدم بعض القادة السلاجقة الأرمن في جيوشهم، ومن ذلك ما حدث سنة 490هـ/1097م إذ اشترك عدد من الأرمن في الحرب بين دقاق وأخيه رضوان بعد أن جلبهم ياغي سيان للقتال إلى جانب دقاق⁽⁵⁾، وهنا لعبت المقاومة الشعبية دوراً في قتال هؤلاء الأرمن "وقتل الفلاحون في الطريق وقت الهزيمة من الأرمن الذين كانوا مع ياغي سيان جماعة كثيرة"⁽⁶⁾.

أما الأقاليم المذهبية التي لعبت دوراً هاماً في تفكك بلاد الشام قبيل الحملات الصليبية فإنها تظهر في الجهات الجبلية من بلاد الشام، وتتمثل في نحتين متطرفتين لا تمتان للإسلام بصلة، وتتمثل النحلة الأولى في الدروز⁽⁷⁾ الذين ظهروا في العقد الثالث من القرن

(1) عاشور، سلطنة، ص228-229. رنسيان، تاريخ الحروب، ج1، ص112-113. براور، الاستيطان، ص76-

Cahen. La Syrie du Nord, P.190 .77

(2) الغامدي، بلاد الشام، ص324.

(3) ابن الأثير، الكامل، ج8، ص. الباهر، ص6. ابن العديم، زبدة الطلب، ج2، ص88. ابن واصل، مفرج الكروب، ج1، ص14. ابن الشحنة، الدر المنتخب، ص132.

(4) من أمثلة ذلك قيام أحد أتباع الإمبراطور فيلارتيوس واسمه جبريل Gabriel بالاستقلال بمطية، وفي المنطقة الواقعة غرب جبل اللكام (طوروس) قامت أسر أرمنية أشهرها أسرة قسطنطين الروبيني. Cahen, Le Syrie,

du. Noud, p. 190

(5) ابن العديم، زبدة الطلب، ج2، ص126.

(6) المصدر نفسه، ج2، ص127.

(7) ينتسب الدروز إلى داع أعجمي يدعى محمد بن إسماعيل الدرزي، المعروف بنشينكن، قدم إلى مصر سنة

408هـ/1017م واتصل بالحاكم بأمر الله فأنعم عليه وقربه فدعا الدرزي إلى القول بألوهية الحاكم فأنكر الناس=

الحادي عشر الميلادي في أعقاب اختفاء الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله سنة 411هـ/1020م، ونادوا بألوهيته، واستقر أصحاب هذا المذهب بين السكان النازلين بالمرتفعات جنوب لبنان، وانتشروا في الجهات الواقعة على الهضبة بين نهر العاصي، وحلب والمعرة بجبل السماق⁽¹⁾.

أما النحلة الثانية فهي المعروفة بالنصيرية⁽²⁾ وكانت تلك الطائفة تقيم في شمال الشام، وموطن اتباعها جبل النصيرية (أو الأنصارية) وهو جزء من لبنان، وتمتد بلاد النصيرية شرقاً إلى سهل حماة وحمص وحلب، وشمال إلى ما وراء أنطاكية على حدود بلاد الأناضول⁽³⁾، وفيما بين مواطن النصيرية في الشمال والدرز في الجنوب، انتشرت طائفة الموارنة⁽⁴⁾ وموطنهم الأصلي في وادي العاصي، لاسيما معرة النعمان وشيزر وحمص

=ذلك، وقتلوه، وبعد مقتله قام داعية آخر يدعى حمزة بن أحمد الملقب بالهادي توفي 430هـ، وأقام خارج القاهرة ودعا إلى مذهب الدرزي، وبث دعائه في مصر والشام، ومنذ ذلك الحين ظهر مذهب الدرز في بعض مناطق بلاد الشام. المقرئزي، اتعاط، ج2، ص 113. ابن تغري بردي، النجوم، ج4، ص188. وانظر: براور، الاستيطان، ص72-73. الموسوعة، ص223-227.

(¹) ابن العديم، بغية الطلب، ج7، ص3357. زبدة الطلب، ج1، ص248-258. و جبل السماق: جبل عظيم من أعمال حلب الغربية يشتمل على مدن كثيرة وقرى وقلاع. ياقوت، معجم البلدان. ج2 ص102. القزويني، عجائب، ص135. (²) النصيرية: طائفة من غلاة الشيعة ينسبها البعض إلى محمد بن نصير الكوفي توفي (260هـ/873م) ويقوم مذهبهم على مبدأ تأليه علي بن أبي طالب لذلك أطلق على النصيريين اسم " العلويين " ، ويرون أن قاتل علي عبد الرحمن بن ملجم أفضل الخلق لأنه- حسب اعتقادهم خلص روح اللاهوت من ظلمة الجسد كدره، ومذهب النصيرية وخليط من الآراء الشيعية المتطرفة، نبتت في أصل وثني ثم تبناوا بعض الظواهر المسيحية السطحية، ومنها احتفالهم ببعض أعياد النصارى، ويستخدمون بعض الأسماء الشائعة عند المسيحيين. ابن حزم، الفصل، ج4، ص183-188. الشهر ستاني، الممل والنحل، ص195-197. القلقاشندي، صبح الأعشى، ج3، ص250. الموسوعة، ص511-516.

(³) الحويري، الأوضاع، ص42. كاهن، الشرق، ص114.

(⁴) الموارنة: طائفة من طوائف المسيحيين الكاثوليك الشرقيين، اختلفت الآراء حول أصلهم، وانتحلهم لهذا الاسم، ومن تلك الآراء، أنهم جماعة من السوريين ينسبون إلى القديس مارون الذي كان موجوداً في أواخر القرن الرابع الميلادي، والموارنة من أصحاب المشيئة الواحدة التي تتوسط بين عقيدة أصحاب الطبيعة الواحدة (المونر فيزيون) وبين أصحاب العقيدة الأرثوذكسية العقيدة الرسمية للكنيسة البيزنطية، وترجع أصول الموارنة إلى عناصر صرشتي، أهمها الموارنة المهاجرون إلى لبنان من شمال بلاد الشام ووسطها وقد انضم إليهم الفارين الذين لادوا بحمي المرادة أو الجراجمة (نسبة إلى بلدة الجرجمة في ثغور الشام. ياقوت، معجم، ج2، ص123. ابن العديم، بغية الطلب، ج1، ص231.) الباقين في لبنان، وقد امتزجت تلك العناصر بمرور الزمن، وصارت تعرف بالطائفة المارونية، وكانوا يستخدمون الحروف الكلدانية، واللغة العربية. انظر حول الموارنة وأصلهم وأماكن انتشارهم. المسعودي، التتبيه، ص147. لامنس، بحث، ص244-250. شيخو، أثر، ص958. الصليبي، الموارنة، ص13. عوض، أضواء، ص188. بالار، الحملات، ص162-163. فارس، المسيحيون، ص77. غنيم، =

وحماه، وجبيل وعكار، غير أنهم انتقلوا إلى جبل لبنان، بادئين بالهجرة من وادي العاصي إلى الجبل من ناحية الشمال ثم تقدموا إلى أواسطه، إلى أن بلغوا في النهاية جنوبيه وكان ذلك على دفعات في أزمنة متوالية، وعرفت تلك المناطق على الجبل بدير القمر، وجبة المنيطرة، وجبة بشرى على السفح الشرقي لجبل لبنان⁽¹⁾.

ويضاف إلى كافة العناصر السابقة، وجود عناصر من الأقليات الدينية المعروفة بأهل الذمة وتمثلوا بالمسيحيين الشرقيين واليهود.

ومن الفريق الأول وجد الروم⁽²⁾، والسوريان⁽³⁾ (السريان) واليعاقبة الذين شكلوا العنصر الرئيس بين الطوائف المسيحية الشرقية⁽⁴⁾ والنساطرة الذين ينتمون كاليعاقبة إلى أصل سرياني، ولكنهم يرون انفصال الطبيعتين الإلهية عن البشرية في السيد المسيح، وهم أقل عدداً في الشام، وكانوا يقطنون طرابلس وعكا وبيروت، وجبيل⁽⁵⁾.

ويضاف إلى الجماعات المسيحية هناك اليهود، وقد استقروا في المدن الشامية مثل دمشق وحلب، وكان عددهم بالآلاف في تلك المدينتين حسب الرحالة بنيامين التطيلي⁽⁶⁾ (1160-1173م)، أما في فلسطين فلم يجد إلا ألف ومائة يهودي، موزعين في مدن القدس وطبرية وبيت لحم ويافا والرملة وعسقلان، ومدن أخرى كصور⁽⁷⁾ وجبيل، وطرابلس التي كانت تضم مائة وخمسون عائلة⁽⁸⁾.

=جغرافيو القرن الرابع، ص48. السيد، تاريخ، ص58-60. Cahen, La Syrie.du.Nord, P.192.

(1) المسعودي، التنبيه، ص147. لامنس، السواحل، ص947.

(2) الروم: من المسيحيين الأرثوذكس وقد سمو بالروم لاعتقاد البعض بان أصولهم بيزنطية وسكنوا بلاد الشام، وارتبطوا بالتقاليد البيزنطية وبكنيستها. انظر عنهم: Cahen, La.syrie, du. Mord, P. 190 . عاشور، الحركة، ج1، ص493. الحويري، الأوضاع، ص95-96.

(3) السوربان: وهم من المسيحيين الشرقيين ويعتقد أنهم هم أنفسهم الروم وكان المسلمون يطلقون عليهم اسم "النبط" أما المؤرخين الفرنجة فيسمونهم السريان ويتصفون بالكثير من أوصاف العرب المسلمين وعاداتهم. انظر: القفيري، تاريخ بيت المقدس، ص108-110.

(4) بالار، الحملات، ص162. الحويري، الأوضاع، ص97. عوض، السياسة، ص251.

(5) Grousset, L. Empire du Levant, P.313

(6) الرحلة، ص116-117. براور، الاستيطان، ص79. عوض، الرحالة، ص161.

(7) التطيلي، الرحلة، ص116.

(8) سلم، طرابلس، ص229-230.

وتنقسم الجماعات اليهودية إلى قسمين الربانيين⁽¹⁾ والقرائيين⁽²⁾، وانشق عنهم السامريين⁽³⁾، الذين سكنوا في نابلس وقراها ولا يوجدون في أي مكان آخر سواها لأن بهما الجبل الذي يحجون إليه⁽⁴⁾.

وهكذا لم يكن سكان بلاد الشام متناسقين في التركيب العرقي والمذهبي والديني، رغم الغالبية العظمى التي تكونت من العرب والمستعربين الذين يتكلمون العربية.

(1) الربانيون: هم اليهود الأرثوذكس وبنفردون بشروح موضوعة لفرائض التوراة وتفريعات زعموا أنها منقولة عن موسى، ويصفون ما وقع من صفة الله في التوراة، ويذكرون لهم تأويلاً في الصفات الربانية. انظر: بالار، الحملات، ص 165. براور، الاستيطان، ص 80.

(2) من طوائف اليهود التي ترفض وجود التلمود، ولا يقبلون مرجعية سوى مرجعية التوراة، ويذكرون أفعال الله عز وجل على ظواهرها. بالار، الحملات، ص 165. براور، الاستيطان، ص 80. السيد، تاريخ، ص 95.

(3) السامريون: فرقة من اليهود انشقت عن الربانيين والقرائيين بسبب خلافات مذهبية، وعقيدتهم هي عقيدة التوحيد اليهودية، وكتابهم المقدس أسفار موسى الخمسة (الأسفار الخمسة الأولى من العهد القديم)، وهم ينكرون نبوءة من بعد موسى ما عدا هارون ويوشع بن نون عليها السلام، ويستقبلون طور نابلس. هم صنفان: صنف يقال لهم الدستان، وصنف يقال لهم الكوشان. انظر: البلاذري، فتوح، ص 216. المسعودي، مروج، ج 1، ص 59. القلقشندي، صبح الأعشى، ج 4، ص 103. وانظر: الحويري، الأوضاع، ص 100.

(4) الإصطخري، مسالك، ص 58. البكري، المسالك، ج 2، ص 37. ياقوت، معجم، ج 1، ص 522. ابن الوردي، خريدة العجائب، القلقشندي، صبح الأعشى، ج 4، ص 103.

الفصل الثاني
المقاومة الشعبية للغزو
الصليبي أثناء حصار المدن

مدخل:

تحركت القوات الصليبية من مدينة القسطنطينية في جمادى الأولى 490هـ/ مايو سنة 1097⁽¹⁾ وصلت إلى مدينة نيقية⁽²⁾، وتمكنت من دخولها وإعادتها إلى نفوذ البيزنطيين في جمادى الثانية 490هـ/ 19 يونيو 1097م⁽³⁾، ومن نيقية تحرك الجيش الصليبي مخترقا آسيا الصغرى جنوبا وبعد أن وصل مدينة هرقله واستراح بها مدة أربعة أيام افترق الجيش إلى قسمين قسم بزعامه بلدوين الأول⁽⁴⁾ الذي اتجه شرقا ليقم أول إمارة صليبية هي الرها⁽⁵⁾ في 490هـ/ 1097م⁽⁶⁾، والقسم الرئيسي بزعامه تتكرد⁽⁷⁾ الذي تحرك من هرقله صوب الشمال الشرقي، ثم الجنوب الشرقي محتلين خلال تقدمهم العديد من المدن والتي كان يتم تسليمها إلى حكام بيزنطيين⁽⁸⁾، بعد الاتفاق الذي تم عقده بين الصليبيين والبيزنطيين، وفي

- (1) توديبود، تاريخ الرحلة، ص110، ابن الأثير، الكامل، ج9، ص 14.
- (2) توديبود، تاريخ الرحلة، ص110. مجهول: أعمال الفرنجة ص38-41. ريمونداجيل: تاريخ الفرنجة، ص77-80. الصوري، الأعمال المنجزة، ج1، ص231. سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان ج1 ص300. ونيقية: مدينة قديمة يرجع إنشاؤها إلى عام 316 ق.م وتقع على بحيرة اسكانيوس Ascanius (بحيرة ازنيق Iznils الآن). في واد محاط بجبال قليلة الارتفاع، وقد حكم السلاجقة بقيادة قلع ارسلان المنطقة زمن الحملة الأولى. انظر: الصوري، الأعمال المنجزة، ج1، ص229. توديبود، المصدر السابق، هامش (29) ص71. ريمونداجيل، تاريخ الفرنجة، ص77. وهامش (1) ص81.
- (3) Anne Comnen, The Alexiad. P268
- (4) بلدوين الأول: اشتهر بالفروسية والخبرة العسكرية وقد تولى حكم إمارة الرها حتى توفي أخوه جودفري- كان ملك بيت المقدس- حيث استدعي لحكم بيت المقدس بصفته صاحب الحق الشرعي في خلافة أخيه، وتم ذلك في الخامس والعشرين من ديسمبر (كانون أول) 1100م/ العشرين من صفر 494هـ، واستمر حكمه حتى 1118م- 512. عن ذلك انظر: الشارترى، تاريخ الحملة، ص51-53. الصوري، الأعمال المنجزة، ج1 ص375، 477-479. الفيتري، تاريخ بيت المقدس ص31. Monitum in Baleuini III, Historia Nicecae Vel Antiochena Prologum, Ed., R.H.c-H.Occ. Tome V. p.177.
- (5) الرها بضم أوله والمد والقصر مدينة بالجزيرة بين الموصل والشام بينهما ستة فراسخ. انظر: الإدريسي، نزهة المشتاق، ج2 ص663. ياقوت، معجم البلدان، ج3 ص106. الصوري الأعمال المنجزة، ج1، ص265.
- (6) مجهول، أعمال الفرنجة، ص44-46. الصوري، الأعمال المنجزة، ج1، ص265-267. باركر، الحروب، ص34. ويست، الحروب، ص60.
- (7) تانكرد أو تتكرد: ينتمي إلى أسرة شهيرة، فوالده هو الماركيز اودو بونز Odo Bonus ووالدته هي إماما Emma ابنة روبرت جوسكارد. قدم مع الحملة التي قادها خاله بوهمند النورماندي، وعمل إلى جوار جودفري إلى أن أصبح أميرا لأنطاكية. انظر: C.F Klou de Caen, Gesta Tancredi, PP.605, 703.
- الصوري، الأعمال المنجزة، ج1، ص215.
- Chalandon, F., Historie de la premiere Croisade P300. Claud Cahen, - La syrie du Nord, P421; Henri Glaesner, Raoul de Caen, Historien et Ecrivain, vol.,46, PP.5-21.
- = Anne Comnen, The Alexiad, P268 (8)

هل رجعت
إلى هذا المسار

Raoul de Caen

ذلك يقول الذهبي " وجرت لهم مع طاغية الروم حروب وعجز عنها ثم قالوا ما نفتحه من بلاد الروم فهو لك ومهما نفتحه من بلاد الشام فهو لنا"⁽¹⁾ ومضوا في طريقهم لاحتلال مدن بلاد الشام والتي كانت أولها مدينة أنطاكية.

ويمكن القول أن وصول الصليبيين إلى مشارف بلاد الشام في حد ذاته، قد أحدث هلعا كبيرا في قلوب الأهالي، ذلك أن الناس شعروا لأول مرة أنهم أمام خطر من نوع جديد لم يكونوا يألفوه من قبل، خصوصا إذا ما وضعنا في اعتبارنا أنه في الوقت الذي أخذت فيه جيوش الصليبيين طريقها إلى بلاد الشام، كانت بعض الأساطيل الحربية وبخاصة الإيطالية والفلمنكية والإسكندنافية تمد لهم يد العون⁽²⁾ وقد عبر عن ذلك ابن القلانسي بقوله أن الصليبيين: "وصلوا في عالم لا يحصى عدده كثرة، وتتابعت الأنباء بذلك، فقلق الناس لسماعها وانزعجوا لاشتهارها"⁽³⁾ ومهما يكن من أمر فإن أخبار هذه التحركات للمحتلين الصليبيين قد وصلت إلى أهالي المدن والنواحي المختلفة من بلاد الشام فقام سكان المدن الغير محصنة بالنزوح والهجرة للسكن في المدن المحصنة بالأسوار والقلاع، أملا في أن تحميهم، وتساعدهم في الدفاع عن أنفسهم وممتلكاتهم، والتصدي للغزاة المحتلين من الصليبيين⁽⁴⁾ وعلى كل حال فقد

لعبت المقاومة الشعبية دورا بارزا في مقاومة الغزو الصليبي لبلادهم، وقاموا باتخاذ العديد من الإجراءات لمواجهة خطر الغزو والاجتياح الصليبي والتصدي له بكافة الإمكانيات المتاحة لديهم، ومن هذه الوسائل، المشاركة في حفر الخنادق، فقد كانت المقاومة الشعبية تشارك في حفر الخنادق حول المدن لإعاقة تقدم الغزاة المحتلين من الصليبيين ومن أمثلة

= توديبود، تاريخ الرحلة ص110. مجهول، أعمال الفرنجة ص38-41. ريمونداجيل، تاريخ الفرنجة، ص77-80. يوسف، العرب والروم، ص219-228. عاشور، الحركة الصليبية، ج1 ص155-159. تاريخ، ص131-132. باركر الحروب ص33. الجميلي، أنطاكية، ص19. عطاء، الشرق الإسلامي، ص38.

(1) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج19، ص316

(2) ريمونداجيل، تاريخ الفرنجة، ص87، 89، 224.

(3) الذيل، ص134 .

(4) الأمثلة على ذلك كثيرة منها هجرة أهالي الرملة ويافا ومنبج وارتاح وغيرها حيث ذكرت المصادر المعاصرة أن سكان هذه المناطق قد هجروها بعد الهول والفرع الذي أحدثته المذابح التي حدثت لإخوانهم في المدن الأخرى وستعرض لهذه المسألة فيما بعد. انظر: ابن القلانسي، الذيل، ص139-163. ابن الأثير، الكامل، ج8 ص182. سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج1 ص366. الحريري، الإعلام، ص72. ريمونداجيل، تاريخ الفرنجة، ص183 ص136. الشارترى، تاريخ الحملة، ص177. الصوري، الأعمال المنجزة ج1، ص416. حبشي: الحملة، ص164. رنسيما، تاريخ الحروب، ج2، ص16-17.

ذلك ما قام به أفراد المقاومة الشعبية من الأهالي المسلمين في أنطاكية من حفر خندقا خارج السور⁽¹⁾ وذلك أثناء علم الأهالي بقرب وصول الغزاة سنة 490هـ/1097م.

وفي سنة 586هـ/1190م أثناء حصار الصليبيين لمدينة عكا خرج المسلمون من البلد فحفروا الخندق⁽²⁾ وسيقوم الباحث بتتبع الدور الذي قامت به المقاومة الشعبية في المدن المحاصرة في بلاد الشام ابتداءً بمدينة أنطاكية.

أولاً: الحملة الصليبية الأولى:

وقد تم خلالها احتلال العديد من المدن والمناطق، والحصون، والبلدان الإسلامية، بل يمكن القول: أنه لم تمض سنوات قليلة من 490-492هـ/1097-1099م حتى صار في أيدي الصليبيين الجانب الأكبر من فلسطين وساحل الشام، هذه الرقعة التي بلغ امتدادها من الشمال إلى الجنوب نحو خمسمائة ميل. وبلغ عرضها حوالي خمسين ميلاً⁽³⁾ وفي ذلك يقول أبو شامة: " كانت الفرنج قد اتسعت بلادهم وكثرت أجنادهم وعظمت هيبتهم وزادت أجنادهم وصولتهم. وامتدت إلى بلاد المسلمين أيديهم وضعف أهلها عن كف عاديتهم تتابعت غزواتهم وساموا المسلمين سوء العذاب واستطار في البلاد شرر شرهم، وامتدت ممتلكاتهم من ناحية ماردين⁽⁴⁾ وشبختان⁽⁵⁾ إلى عريش مصر⁽⁶⁾."

وقد استمر الصليبيون في سياستهم الرامية لاحتلال المدن الإسلامية في بلاد الشام بعد انتهاء الحملة الصليبية الأولى حتى بداية الحملة الصليبية الثانية في عام 542هـ/1148م، حيث تمكن بلدوين الأول من إخضاع عدد من المدن الساحلية المهمة على البحر الأبيض المتوسط فسقطت حيفا⁽⁷⁾، عام 494هـ/1100م، وكذلك

(1) ابن الأثير، الكامل، ص 14.

(2) العليمي، الأس الجليل، ج 1، ص 346.

(3) Stanley, Saladin PP. 26-31.

(4) ماردين: قلعة مشهورة على قمة جبل الجزيرة مشرفة على نيسر ودارا ونصيبين من ديار ربيعة، انظر: ياقوت، معجم البلدان، ج 5، ص 39. البكري، معجم ج 2، ص 568. الإدريسي، نزهة المشتاق، ج 2، ص 662.

(5) وشبختان: ذكر المقدسي في أحسن التقاسيم بأن ديار ربيعة القريبة من شبختان هي قصبه الموصل شمال العراق انظر ص 130. وعلى هذا الأساس فإن شبختان تقع في شمال العراق.

(6) أبو شامة، الروضتين، ج 1، ص 117.

(7) حيفا: ويطلق عليها الصليبيون Haifa مدينة على الساحل الفلسطيني تقع إلى الجنوب من عكا وإلى الشمال من قيسارية، ويلاحظ أن اسم حيفا اختلف في أصله، واعتقد البعض أنه يرجع إلى اسم رئيس الكهنة (قيافا)، أو إلى اسم بطرس وهو كفا، وقد استمر العرب يطلقون عليها حيفا، ووجدت عدة أشكال لكتابة اسم المدينة في اللغات الأجنبية مثل: Caipha / Cefa/ Chopha/ Heiffa/Kheifa/Haipha/ Ciffa. وقد وقعت حيفا على الجزء الجنوبي من أكبر خليج على شاطئ فلسطين، وتعد منفذاً إلى البحر لمرج ابن عامر، وتعتبر حيفا مركزاً لشبكة=

أرسوف⁽¹⁾، وقيسارية⁽²⁾ عام 495هـ/1101م، ثم عكا عام 498هـ/1104م، وطرابلس عام 502هـ/1108م، وبيروت، وصيدا عام 504هـ/1110م، ثم صور عام 518هـ/1124م. كانت مرعش⁽³⁾ آخر نقطة يخرج منها الصليبيون الفرنجة في آسيا الصغرى ليدخلوا حدود بلاد الشام، فغادروها بعد التزود بالطعام والماء وفي طريقهم إلى أنطاكية استولوا على حصن بغراس⁽⁴⁾ وقلعة أرتاح⁽⁵⁾ بعد مقاومة شعبية من أهالي المنطقتين، ولم تلبث أن وصلت طلائع هذا الجيش المحتل بقيادة بوهيمند⁽⁶⁾ مدينة أنطاكية في 13 ذو القعدة 490هـ/21 أكتوبر 1097م⁽⁷⁾ وأمام هذا الخطر الداهم قام أهالي المدينة⁽⁸⁾ باتخاذ مجموعة من الإجراءات للدفاع عن مدينتهم وحمايتها، وقام حاكم المدينة ياغي سيان "فأخرج المسلمين من أهلها ليس معهم غيرهم وأمرهم بحفر الخندق، ثم أخرج من الغد النصارى لعمل الخندق

=طرق شمالا وشرقا وجنوبا. انظر الكتاب المقدس، إنجيل لوقا، الإصحاح الثالث فقرة (2). ناصر خسرو، سفر نامه، ص53. الإدريسي، نزهة المشتاق ج1، ص365. ياقوت، معجم، ج4، ص332، ابن شداد، الأعلام الخطيرة، ج2، ق2، ص177..

(1) أرسوف: وأطلق عليها الصليبيون Arsuf، تقع على عشرة أميال إلى الشمال من يافا على ساحل فلسطين. انظر: المقدسي، أحسن التقاسيم، ص54، ياقوت، معجم، ج1ص151. أبو الفداء، تقويم البلدان، ص538-539. بورشارد، وصف الأرض، ص161-162. جونز، مدن، ص14، 12-15.

(2) قيسارية: وأطلق عليها الصليبيون Caesarea وتكتب قيسرية أو قيسارية وتقع على الساحل الفلسطيني، وتبعد عن يافا من الناحية الشمالية بنحو ثلاثين ميلا، وهي على بعد اثنين وستين ميلا شمال غرب بيت المقدس، وبعدها عنها عكا بنحو ستة وثلاثين ميلا. انظر: البكري، معجم ما استعجم، ج3، ص1106. الإدريسي، نزهة المشتاق ج1، ص365. ياقوت، معجم البلدان، ج4، ص421. أبو الفداء، تقويم، ص238 ابن شداد، الأعلام، ج2، ق2، ص250. حسنين، تاريخ قيسارية الشام، ص5-8.

(3) مرعش: مدينة في نغور أرمينية بين الشام وبلاد الروم. انظر: البكري، معجم ما استعجم، ج4ص1215. الإدريسي، نزهة، ج2، ص652. ياقوت، معجم البلدان، ج5، ص107، وقد استردها نور الدين عام 568هـ. انظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج5، ص185.

(4) بغراس: مدينة في لحف جبل اللكام إلى الشمال من أنطاكية ب12ميل، وقد فتحها جيش صلاح الدين سنة 584هـ/1188م. انظر: الإدريسي، نزهة المشتاق، ج2ص652. ياقوت، معجم البلدان، ج1ص652. ابن العديم، بغية الطلب، ج1، ص151

(5) أرتاح، حصن منبع كان من العواصم من أعمال حلب بالقرب من حارم، انظر: ياقوت، معجم البلدان، ج1ص140 ابن العديم، بغية الطلب، ج1ص68، ج4ص1652.

(6) بوهيمند (1050-1111م) ابن روبرت جويسكارد Robert Guiscarsd ، شارك بوهيمند في الحملة الصليبية الأولى على أنطاكية ، وبقي أميرا عليها من 1099م وحتى توفي في ايطاليا عام 1111م.

(7) ابن العديم، زبدة، ج2، ص131.

(8) كانت غالبية أهالي أنطاكية فسي ذلك الوقت من النصارى السريان والأرمن، انظر: بالار، الحملات الصليبية، ص87. سميل، الحروب الصليبية، ص49-50. عاشور، العلاقات، ص144.

أيضا ليس معهم مسلم فعملوا فيه الى العصر⁽¹⁾ وبذلك شارك النصارى⁽²⁾ إلى جانب المسلمين في حفر خندق حول مدينتهم كإجراء احترازي لعله يحمي المدينة من المحتلين. إلا أنه قد أخذ على "ياغي سيان" منعه النصارى ممن شارك في حفر الخندق من دخول البلد⁽³⁾ لأنه بذلك تركهم يشتركون مع الصليبيين الفرنجة في حصار المدينة⁽⁴⁾ وقد برر حبشي موقف سيان بالقول: أنه كان يخشى الخيانة من طرف هؤلاء النصارى، كما كان يتخوف من حصول ميل - أو تمرد- من قبل هؤلاء النصارى إلى من هم على دينهم⁽⁵⁾، ويؤكد ذلك رواية وليم الصوري التي تقول بأن "الأرمن والسريان الذين كانوا بداخل المدينة أسرعوا بالخروج والهروب منها تاركين خلفهم نساءهم وأولادهم بالمدينة فاستفسروا منا عن هدفنا وأمدونا بمعلومات عن كافة أسرار المدينة"⁽⁶⁾ وإذا ما دمجنا بين الروايتين العربية واللاتينية نجد أنهما متقاربتين من ناحية خروج النصارى من الأرمن والسريان ولكن الاختلاف هو حول آلية خروجهم من المدينة هل كانت برغبتهم وذلك لنقل الأخبار والاستفسار عن أحوال الغزاة أم بأمر من ياغي سيان حين أخرجهم بحجة حفر خندق يحمي المدينة، إلا أن الراجح أن ياغي سيان كان بالفعل يتخوف من نصارى المدينة فأخرجهم منها كما ذكرنا، وعندما سأله هؤلاء النصارى عن مصر أبنائهم ونسائهم قال لهم: "أنا أخلفكم فيه فأمسكوا وأقاموا في عسكر الفرنج"⁽⁷⁾ غير أن صاحب أعمال الفرنجة يخرج علينا برواية مخالفة لما سبق فيؤكد على أن خروج النصارى من المدينة ثم عودتهم وما دار بينهم وبين ياغي سيان هو مجرد اتفاق يعود بالفائدة على أفراد المقاومة الشعبية في المدينة إذ أن هؤلاء النصارى من السريان والأرمن وقد كانوا داخل المدينة "دأبوا على مغادرتها كل يوم متظاهرين بالفرار والمجيئ إلينا - أي إلى الصليبيين- بينما أبقيت نساؤهم في المدينة، وكانت عادتهم أن يتقصوا حالنا وخبر موقفنا ثم يحملون كل شئ إلى أولئك المحصورين"⁽⁸⁾ وإذا ما صحت هذه الرواية ودمجت مع الروايات السابقة فهذا يعني أن حاكم المدينة "ياغي

- (1) ابن الأثير، الكامل ج9، ص14. سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج1، ص279.
- (2) لسنا هنا بمعرض الحديث عن المقاومة الشعبية التي ساهم بها النصارى الشرقيين الى جانب المسلمين والتي سيتم الحديث عنها منفردة في مباحث لاحقة.
- (3) القلانسي، الذيل ص134. ابن الأثير، الكامل ج9، ص14. الحريري، الإعلام، ص63.
- (4) عاشور، تاريخ العلاقات ص144.
- (5) حبشي، الحملة الصليبية، ص115.
- (6) ابن الأثير، الكامل ج9، ص14.
- (7) المصدر نفسه، ج9، ص14.
- (8) مجهول، أعمال الفرنجة، ص50.

سيان" قد خطط لمعرفة أخبار العدو المحاصر لمدينتهم من خلال مجموعات المقاومة الشعبية من النصارى الذين لا يمكن للعدو الشك فيهم لكونهم أخوة في الدين بالإضافة إلى كونهم أناس مدنيين، وحتى يبعد أي فرصة للشك في نفوس الصليبيين الفرنجة قام بافتعال الحيلة السابقة الذكر، وإلا فكيف له أن يخلفهم في أبنائهم ونسائهم وقد أخرجهم من المدينة ولماذا لم يلحق بهم الأبناء والنساء ما دام أخرجهم دون رجعه، وكيف لهم أن يقيموا في معسكر الفرنج كما يقول ابن الأثير دون الاكتراث لمصير أسرهم. ومهما يكن من أمر فإن رواية صاحب أعمال الفرنجة تفيدنا بأنه كان من الإجراءات التي اتخذتها المقاومة الشعبية لحماية مدينة أنطاكية التجسس على العدو لمعرفة أخبار تحركاته وما يعدوه للهجوم "إلى أولئك المحصورين الذين أغلقت عليهم منافذ المدينة و مسالكها"⁽¹⁾. ومن الإجراءات الأخرى التي اتخذتها المقاومة الشعبية جمع المحاصيل والغلات الزراعية الموجودة حول المدينة وضواحيها لكي لا يبقى للأعداء شيئاً يفتاتون منه، كما أمن الغذاء والمؤونة والعلف داخل المدينة وأودعها في المستودعات "وأخفى السكان المحليون ما تبقى من السلع والبضائع"⁽²⁾، وبذلك لم يترك خارج المدينة ما يفيد العدو وهذا من باب التحسب لحصار سيقع على المدينة وربما تطول مدته⁽³⁾ مع العلم من أن المسلمين كانوا في بعض الأحيان قادرين على تهريب المواد التموينية الكافية للمدافعين عن المدينة⁽⁴⁾، وعند وصول السفن المحملة بالمؤن إلى القوات الصليبية المحاصرة للمدينة ورسوها في الميناء "بدأ المحاصرون - يقصد أهل أنطاكية- يسدون الطريق إلى البحر ويقتلون أطقم التموين"⁽⁵⁾ وقد قُبل هذا الإجراء من قبل المقاومة الشعبية فعله بالمحاصرين للمدينة الذين كابدوا "مصاعب ومشاق كثيرة"⁽⁶⁾ فمع حلول فصل الشتاء عانى الصليبيون من نقص في الطعام، ومن شدة البرد القارص⁽⁷⁾، وأخذت أحوال الصليبيين تسوء يوماً بعد يوم بسبب عدم وجود المؤونة، وقد حلت بهم المجاعة مما

(1) مجهول، أعمال الفرنجة، ص 50.

(2) سميث، الحملة الصليبية، ص 123.

(3) الجميلي، أنطاكية، ص 19. حبشي، الحملة، ص 115. سميث، الحملة، ص 123. وقد أورد ابن الشحنة رواية تفيد بأن هذه المؤونة والغذاء قد استنفذت بسبب طول مدة الحصار فيقول بأنه من "شدة حصارهم لها - لأنطاكية- أكل الناس الذين بها الخيل الفطس والحمير والقطط من شدة الجوع" وهذه الرواية تبرز قوة حصار الغزاة للمدينة وصبر الناس على المقاومة. انظر: ابن الشحنة، الدر المنتخب، ص 214.

(4) سميث، الحملة، ص 123.

(5) ريمونداجيل، تاريخ الفرنجة، ص 105.

(6) الشارترى، تاريخ الحملة، ص 124.

(7) ماير، الحملة، ص 81.

أدى إلى موت الكثير من الرجال والخيل من الجوع⁽¹⁾ و"عدم القوت عندهم حتى أكلوا الميتة" على حد قول ابن القلانسي⁽²⁾ وأمام ذلك أخذت بعض فرق الجيش الصليبي بشن غارات على بعض القرى القريبة لنهبها والحصول على المؤن والغذاء⁽³⁾ ووصل الغزاة الصليبيون في غاراتهم في سبيل البحث عن الطعام إلى معرة مصرين شرقاً حيث " قتلوا من وجدوا وكسروا منبرها"⁽⁴⁾ ويبدو أن عقابهم لأهل تلك المنطقة بالقتل كان دليلاً على مقاومة عنيفة واجهها الصليبيون هناك، خاصة وكما يقول سميث " أن العقوبة الرادعة للرد على مقاومة أي مدينة، تمثلت في تدمير هذه المدينة تدميراً شاملاً والقضاء على سكانها"⁽⁵⁾.

وخلال جولات القوات الصليبية للبحث عن الطعام في الريف و القرى المجاورة رأى أهل أنطاكية هذا الفريق فاندفعوا فجأة...وركضوا بكل ما ملكوهم بسرعة وانقضوا على المسيحيين الذين كانوا يتجولون دونما حذر، وهاجموهم على حين غرة وقتلوا عددا كبيرا منهم"⁽⁶⁾، وعندما عاد أفراد المقاومة الشعبية من أهالي أنطاكية إلى المدينة التقاهم الصليبيون وبدأوا يقتلون فيهم وعند ذلك تحركت أفئدة سكان المدينة بالشفقة عندما رأوا زملاءهم من أهل المدينة في هذا الخطر الشديد، ففتحوا الباب واندفعوا...لمد يد العون لأصدقائهم وهاجموا قواتنا - الصليبية - ببسالة"⁽⁷⁾ وراحت مجموعات المقاومة الشعبية"المختبئة في الغابات والحقول، تنصب الكمائن للإيقاع بهم، وهي كمائن نجحت في معظم الأحيان، ولم يتجرأ جنودنا - الكلام للصوري - على الخروج من معسكرهم، أو التجول إلى مسافة بعيدة بحثاً عن الطعام"⁽⁸⁾.

ومهما يكن من أمر فقد نجحت المقاومة الشعبية في حرمان المحاصرين لمدينتهم من مصدر مهم لحياتهم ألا وهو الطعام، وتحت تأثير الجوع والإنهاك الذي سببته المقاومة نشبت

(1) ريموند جيل، تاريخ الفرنجة، ص 90. وقد ذكر توديبود أن حالة الجوع في الجيش المحاصر وصلت إلى حد أكل الصليبيون للحوم الخيل والحمير وطهي أوراق التين والكروم والأشجار، وكان البعض يضعون جلود الخيل والحمير والجمال والثيران والبقر الوحشي الجافة في الماء المغلي ويأكلونها. انظر: توديبود، ص 225. الحريري، الإعلام، ص 63.

(2) الذيل، ص 136 .

(3) مجهول، أعمال الفرنجة، ص 55. رنسيان، تاريخ الحروب ، ج 1 ص . ماير، الحملة، ص 82.

(4) ابن العديم، زبدة، ج 2، ص 132.

(5) سميث، الحملة، ص 200.

(6) (الصوري، الأعمال المنجزة، ج 1، ص 386.

(7) (المصدر نفسه، ج 1، ص 287.

(8) (المصدر نفسه، ج 1، ص 287.

الفوضى وسوء النظام بين الغزاة⁽¹⁾ وأخذ بعضهم يفر من المعركة ويتسلل خفية⁽²⁾، أما عن حال المقاومة الشعبية داخل المدينة فقد اعتلى المقاومون برفقة الجند أسوار المدينة وأبراجها لمواجهة الاقتحام الذي ستشنه القوات الغازية وقاتلوا قتالاً شديداً، وفي ذلك يقول الشارترى⁽³⁾: إن المقاومين "كانوا يندفعون نحونا بقوة كبيرة لدرجة أننا يمكن أن نقول: إننا كنا تحت حصار أولئك الذين حاصرناهم في أنطاكية" سواء كانوا من حامية المدينة أو من سكانها المحليين الذين أسند إليهم مهمة حفر الخندق من قبل حاكم المدينة ياغي سيان ليس كأمر عسكري لأن الواضح أن عدد أفراد الحامية كان قليلاً لا يكفي إلا لحامية بعض أبراج المدينة البالغ عددها أربعة وعشرون ألفاً برج كما ذكرنا عند تعريفنا للمدينة، ولو كان عدد أفراد الحامية التابعين لياغي سيان يكفون لحماية المدينة الكبيرة المتعددة الأبواب والأبراج لما أرسل إلى حاكم الموصل وباقي أمراء السلاجقة في الشام⁽⁴⁾ يستنجدهم إلا أنهم لم يسعفوه في الوقت المناسب لأنهم وصلوا بعد أن كانت المدينة قد سقطت بأيدي الصليبيين، فحاضوا معركة خاسرة معهم⁽⁵⁾

استمرت الحامية والأهالي في المقاومة تسعة أشهر ابتداءً من 13 ذو القعدة 490هـ / 21 أكتوبر (تشرين الأول) 1097م إلى رجب 491هـ / يونيو (حزيران) 1098م⁽⁶⁾ حتى "تعب الناس من كثرة السهر والحراسة"⁽⁷⁾، "ولم يعد أخيراً سكان المدينة قادرين على المقاومة"⁽⁸⁾

(1) الصوري، الأعمال المنجزة، ج1، ص289.

(2) عاشور، العلاقات، ص147. بالار، الحملات، ص87.

(3) تاريخ الحملة، ص124.

(4) أبرز هؤلاء الأمراء: طغتكين أتابك حاكم دمشق، وجناح الدولة صاحب حمص وأرسلان ناش صاحب سنجار، وسليمان بن أرتق وغيرهم. انظر: ابن القلانسي، الذيل، ص134. ابن الأثير، الكامل، ج9، ص15. ابن العديم، زبدة الحلب، ج2، ص137. أبو الفداء، المختصر، ج2، ص27. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج5، ص46 [البيطار، دور حمص، ص2.

(5) ابن الأثير، الكامل، ج9، ص15. ابن العديم، زبدة الحلب، ج2، ص137. أبو الفداء، المختصر، ج2، ص27. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج5، ص146. الصوري، الأعمال المنجزة، ج1، ص299.

(6) ابن الأثير، الكامل، ج9، ص14. أبو الفداء، المختصر، ج2، ص27. ابن تغري بردي، النجوم، ج5، ص144. النويري، نهاية، ج28، ص252. العليمي، الأنس الجليل، ج1، ص307. الحريري، الأعلام، ص63. ابن العماد، الشذرات، ج2، ص396. توديبود، تاريخ، ص260.

(7) ابن الأثير، الكامل، ج9، ص14. النويري، نهاية، ج28، ص252.

(8) (الصوري، الأعمال المنجزة، ج1، ص314.

ولم يتمكن الصليبيون الفرنجة من اقتحام المدينة إلا من خلال خيانة وتآمر جماعة كان يقودها أحد حماة الأبراج وهو فيروز⁽¹⁾ الذي كان يكن العداوة لحاكم المدينة، فما كان منه إلا أن سهل مهمة اجتياح المدينة من جهة البرج الذي كان قد عهد إليه بحفظة، واستطاعت القوات المحتلة بذلك اقتحام المدينة بخيانة أحد أفراد الحامية وليس لتقصير من الحامية نفسها أو مجموعات المقاومة الشعبية وذلك في آخر جمادى الأولى 491هـ/ الموافق فجر اليوم الثالث من حزيران 1098م.

وقد عقب الشارترى⁽²⁾ على ذلك بقوله: " وهكذا استولينا على المدينة التي كانت تقاوم المسيح" ، ولدى اقتحامهم للمدينة ارتكبوا ضد السكان مذبحه جماعية ضمن سياسة العقاب الجماعي⁽³⁾ الذي تتبعه القوات الصليبية الغازية وستتبعه في المدن والمناطق التي سيحتلوها فيما بعد ضد المقاومة الشعبية، فلم يفرقوا في ذلك بين الأطفال والنساء والشيوخ والرجال فقتلوا في أنطاكية منهم وأسروا "ما لا يدركه الحصر"⁽⁴⁾ وقد أثار سقوط أنطاكية على الرغم من المقاومة الشعبية الشديدة التي أبدتها سكانها موجة من الذعر والخوف في البلدان المجاور " فهرب من كان بها من المسلمين"⁽⁵⁾ خشية أن يصيبهم نفس المصير الذي حل بأهل أنطاكية.

واصل الصليبيون زحفهم بعد اقتحامهم أنطاكية فوصلوا إلى حصن الراج⁽⁶⁾ الذي كان "يعج بالمسلمين"⁽¹⁾ وقد احتله الصليبيون بعد مقاومة من أهله، لأن الحامية كانت قد

(1) عن الدور الخياني الذي مارسه فيروز والذي ساهم في سقوط أنطاكية، انظر ابن القلانسي، الذيل، ص 135، ابن الأثير، الكامل، ج 8، ص 186. ابن العديم، زبدة، ج 2، ص 132-134. الحريري، الإعلام، ص 63. سبط ابن الجوزي، مرآة، ج 1، ص 308. أبو الفداء، المختصر، ج 2، ص 27. ابن خلدون، العبر، ج 4، ص 19. الصوري، الأعمال المنجزة، ج 1، ص 326-328. ريموندا جيل، تاريخ الفرنجة، هامش (1) ص 123. توديبود، تاريخ الرحلة ص 183، وقد اختلف حول اسمه فقيل انه (فيروز وبيروس Pairus و بيرهوس Pyrhus و فيروس Fiuous أو برزويه أو(نيروز) وفي أصله هل هو تركي أم ارمني، انظر ريموندا جيل، ص 119، وهامش (1) ص 123 وذكر انه تركي على اختلاف ما ذكرته المصادر والمراجع السابقة من انه ارمني.

(2) تاريخ الحملة، ص 124.

(3) يمكن لنا هنا ملاحظة التشابه في المذابح والمجازر و سياسة العقاب الجماعي التي مارسها الاحتلال الصليبي مع ما تمارسه إسرائيل اليوم بحق الشعب الفلسطيني والأمثلة على ذلك كثيرة كما في جنين و رفح والزيتون وغيرها.

(4) ابن القلانسي، الذيل، ص 135. وانظر كذلك ابن الأثير، الكامل، ج 9، ص 14-15. الحريري، الإعلام، ص 63. سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج 1، ص 309. أبو الفداء، المختصر، ج 2، ص 27.

(5) ابن العديم، زبدة الحلب، ج 2، ص 135.

(6) الراج: كورة من كور حلب في غربيها بينها وبين المعرة. ياقوت، معجم البلدان، ج 3، ص 76. وقد احتلها الصليبيون في 23 شعبان 491هـ/ 25 يوليو 1098م.

خرجت لنجدة مدينة أنطاكية⁽²⁾، وقد حكم على من بقي حياً منهم بالأسر " وقتلوا كل من رفض منهم اعتناق المسيحية"⁽³⁾ فكان القتل عقاب من لم ينتصر.

وفي 26 شوال 491هـ/ الموافق 25 سبتمبر 1098م وصل ريموند كونت سانجيل⁽⁴⁾ إلى مدينة البارة⁽⁵⁾ التي خرجت حاميتها مع جيش حاكم حلب لتحذو حذو حصن الروج، واحتلتها بعد مقاومة شعبية باسلة⁽⁶⁾ ومما يؤكد ذلك أن ريموند " عاقب الرجال والنساء واستصدر أموالهم وسبى بعضاً"⁽⁷⁾ بسبب مقاومتهم الشديدة له ولحملته لأن "العقوبة الرادعة للرد على مقاومة أية مدينة تمثلت في تدمير هذه المدينة تدميراً شاملاً والقضاء على سكانها"⁽⁸⁾ ولأن المسجد هو أساس تلك المقاومة الشعبية فقد حول الصليبيون جامع المدينة الكبير إلى كنيسة⁽⁹⁾.

-
- (1) توديبود: تاريخ الرحلة، ص256.
 - (2) ابن الأثير، الكامل، ج9، ص15. ابن العديم، زبدة الحلب، ج2، ص137. أبو الفداء، المختصر، ج2، ص27. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج5، ص146.
 - (3) توديبود، تاريخ الرحلة، ص256، سميث، الحملة الصليبية ص200، وقد عالج حسين عطية قضية تنصير المسلمين وارتدادهم عن الدين الإسلامي في ترجمته لكتابي تاريخ الرحلة الى بيت المقدس لتوديبود هامش 44 ص252 وتاريخ الفرنجة غزاة بيت المقدس لريمونداجيل هامش 11 ص161، كذلك محمد مؤنس عوض في كتابه الحروب الصليبية، ص95- 107.
 - (4) ريموند كونت سانجيل: هو ريموند الرابع كونت تولوز، وكان أكبر الصليبيين سناً وربما كان أغناهم وقد أمضى بقية حياته في الشرق حتى مات في 1105م في Hill and Laurita L. Raymond IV de saint- Gilles 1105 - (ou 1042) 1041، توديبود هامش 2 ص83.
 - (5) البارة (al- Barah) Albare) مدينة تقع على بعد 42 ميلاً جنوب شرق مدينة أنطاكية، وهي تابعة لمملكة حلب إلى الشرق من نهر العاصي بين جسر الشاغور، ومعرة النعمان، وذكر ياقوت أن بها حصناً وأنها ذات بساتين، وقد علق على ذلك حسن عطية بأن الغارة على البارة لم يكن عشوائياً فالصليبيون بدأوا استراتيجيتهم بفتح البلدان الغنية بالبساتين لتوفر لهم المؤن. ياقوت، معجم، 1، ص320. ريمونداجيل، تاريخ الفرنجة ص163، هامش (1) ص175. توديبود، تاريخ الرحلة، 157، 260، هامش (15) ص269-270.
 - (6) ريمونداجيل، تاريخ الفرنجة، ص هامش (2) 191.
 - (7) ابن العديم، زبدة الحلب، ج2 ص141.
 - (8) سميث، الحملة الصليبية، ص200.
 - (9) ابن العديم، زبدة الحلب، ج2، ص141 وقد أشار توديبود إلى ذلك بقوله بأن ريموند أعاد المدينة إلى الدين المسيحي، تاريخ الرحلة، ص257، وسيعرض الباحث لتلك السياسة التي مارسها الاحتلال الصليبي للقضاء على المقاومة الشعبية.

ويذهب بعض المؤرخين إلى أبعد من ذلك ويتفقون على وقوع مذبحه جماعية، ومن هؤلاء من شهد تلك المذبحة وهم من اللاتين أمثال توديبود الذي قال بأن ريموند " قام بقتل كل من وُجد من المسلمين، رجل أو امرأة، كبير أو صغير" (1)

أما الشارترى (2) فإنه يؤكد أنه قد تم " قتل كل رجل من سكانها"، بينما أكد ريمونداجيل (3) على أنه ثمة أحياء بقوا على قيد الحياة وتم القبض عليهم " لبيعوا كعبيد في أنطاكية" ومهما يكن من أمر فإن سياسة القتل الجماعي وبشراهة كانت الصفة الأساسية التي اتصف بها الاحتلال الصليبي والتي ظهرت منذ البداية وسنراها تتجلى بوضوح بعد أن يحتل الفرنجة مدن أخرى كالمعرة والقدس وحيفا وقيسارية أرسوف وغيرها وكل ذلك رداً على الحق المشروع لأهالي تلك المدن في المقاومة والتصدي للعدوان. وبعد اجتياح الصليبيين للبارة ساروا إلى معرة النعمان في الأول من محرم 492هـ / 27 نوفمبر 1098م وفرضوا عليها الحصار تمهيداً لاجتياحها (4)، ولم يخش أهل المعرة من هذا الحصار بل عملت المقاومة الشعبية على استفزاز المحاصرين لمدينتهم، وذكرهم بالهزيمة الأولى التي وقعت لهم في 21 شعبان 491هـ / 23 يوليو 1098م (5) عند ذلك هاجمت القوات الصليبية بقيادة ريموند (6) المدينة بقوة غير أن المقاومة الشعبية قاتلتهم "قتالاً شديداً ورأى الفرنج منهم شدة ونكاية ولقوا منهم الجد في حربهم والاجتهاد في قتالهم" (7) وعملوا على استغلال الموارد المتاحة في مدينتهم -كخلايا النحل مثلاً- واستخدموها كأسلحة ورشقوا بها القوات الصليبية

(1) توديبود، تاريخ الرحلة، ص 257 وقد أورد عبارته دون أي اشمئزاز أو رفض بل بالعكس استبق العبارة بكلمة دينية هي مشيئة الرب وكأن الرب يأمرهم بقتل الناس الأمنين وذلك لأنهم يقاومونهم.

(2) تاريخ الحملة، ص 128.

(3) تاريخ الفرنجة، ص 163.

(4) من الجدير بالذكر هنا أن الفرنج حاولوا احتلال معرة النعمان في 25 شعبان 491هـ / 27 يوليو 1098م مقابل تسلمهم ثل منس ولكنهم فشلوا بسبب تصدي المقاومة الشعبية لهم وخروج رضوان حاكم حلب إليهم بقطعة من جيشه الذي استطاع هزيمتهم "وقتل منهم زائداً عن ألف رجل، وجملت رؤوسهم إلى معرة النعمان". انظر: ابن العديم، زبدة الحلب، ج 2، ص 138. توديبود، تاريخ الرحلة، ص 256. ريمونداجيل، تاريخ الفرنجة، ص 165. سميث، الحملة الصليبية، ص 200. جويو، على خطى الصليبيين ص 184.

(5) ريمونداجيل، تاريخ الفرنجة، ص 165.

(6) توديبود، تاريخ الرحلة، ص 260، ص 279 هامش (32). ريمونداجيل، تاريخ الفرنجة، ص 166. مجهول، أعمال الفرنجة، ص 107.

(7) ابن الأثير، الكامل، ج 9، ص 16.

فقد "أطلق المحاصرون في معرة النعمان الأحجار من المجانيق⁽¹⁾ والنبال والنيران، وخاليا النحل، والجير"⁽²⁾ على القوات الصليبية ليردوهم عن السور.

ولما رأى المهاجمون شراسة المقاومة عمدوا إلى صناعة الأبراج والآلات الحربية التي تمكنهم من اجتياز السور فـ" قطعوا الأشجار"⁽³⁾ التي حول المدينة، وصنعوا منها سلالما⁽⁴⁾ وبرجا خشبيا يسير على عجلات⁽⁵⁾ ليتحصن به الجند، وشنوا هجوماً جديداً زاد من تصميم المقاومة الشعبية على الاستمرار في المقاومة ودفعهم لمشاهدتهم للبرج الجديد إلى " إقامة العديد من آلات الحرب ورشق البرج منها بأحجار ضخمة فقتلوا كل فرساننا"⁽⁶⁾ على حد اعتراف توديبود بذلك وأستخدموا النار الإغريقية⁽⁷⁾ لحرق البرج ولكن ذلك كان عبثاً⁽⁸⁾ واستمرت القوات الصليبية بالزحف نحو السور إلى أن استطاعوا وضع البرج بموازة سور المدينة وجرت مقاومة شعبية باسلة في سبيل دفع البرج. "وثبت الناس في الحرب من الفجر

(1) المنجنيق (Manganniaux): مفرد جمعه: مجانيق ومناجيق، اسم أعجمي لأن الجيم والقاف لا يجتمعان في كلمة عربية وهي آلة حربية قديمة كانت تستعمل لأغراض الحصار، ترمى قذائف عرفها العرب واستخدموها بشكل خاص أثناء صراعهم مع الصليبيين، انظر: الطرطوسي، تبصرة أرباب الألباب، ص 17. القلقشندي، صبح الأعشى، ج 2، ص 143. الخطيب، معجم المصطلحات، ص 410. العجم، موسوعة مصطلحات علم التاريخ، ص 641. سالم، تاريخ البحرية، ج 1، ص 142.

(2) ريمونداجيل: تاريخ الفرنجة، ص 168.

(3) ابن الشحنة: الدر المنتخب، ص 216.

(4) ذكر ريمونداجيل أن الصليبيين عندما عمدوا لحصار المدينة لم يكن يملكوا غير سلمين قصيرين ضعيفين، تاريخ الفرنجة، ص 166.

(5) المصدر نفسه، ص 168، وانظر كذلك: توديبود، تاريخ الرحلة، ص 261 وقد ذكر بأن هذا البرج كان قادراً على حماية أكثر من مئة فارس مدججين بالسلاح. انظر أيضا الشارترى، تاريخ الحملة، ص 128. ابن الأثير، الكامل، ج 9، ص 16؛ ابن العديم، زبدة الحلب، ج 2، ص 142. سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان ج 1، ص 306. النويري، نهاية الأرب، ج 28، ص 255-256. ابن الشحنة، الدر المنتخب، ص 216.

(6) توديبود، تاريخ الرحلة، ص 261.

(7) النار الإغريقية: وتسمى النار اليونانية أو البحرية وعرفت فيما بعد بالنار الإسلامية، لإتقان المسلمين صناعتها وهي عبارة عن سائل كيميائي قابل للاشتعال وسريع الالتهاب يتكون من الكبريت وحمض الطرطريك والصبغ الفارسي والقار الخام والنترات وقد كان يتم غمس الكتان بهذا الخليط ثم يتم إشعال النار فيه والغريب في هذه النار أنها تزداد اشتعالاً عند ملامستها الماء ولا تخمد إلا بالرمل أو الخل، وقد نسب اختراعها إلى مواطن سوري يدعى (كالينيكوس)، في الفترة ما بين (54-60هـ/674-680م) انظر: الطرطوسي، تبصرة أرباب الألباب، ص 20-21. رنسيان، الحضارة البيزنطية، ص 287. العدوي، الأمويون، ص 145-148. عاشور، دراسات، ص 118.

حماد، علم الكيمياء، ص 67-68.

(8) توديبود، تاريخ الرحلة، ص 261.

إلى صلاة المغرب، وقتل على السور وتحتة خلق كثير⁽¹⁾ واندفع المقاومون " نحو الصليبيين بضراوة من أعلى السور ومن الأرض وقذفوهم بالسهام، واشتبكوا معهم يداً بيد مستخدمين الحراب، فاستبد الذعر بالمسيحيين فقفزوا من أعلى السور"⁽²⁾ وعلى الرغم من حلول الظلام فقد استمر الصليبيون " في مقاتلة أهل المعرة في جناح الظلام"⁽³⁾ فخاف قوم من المسلمين وتداخلهم الفشل والهلع وظنوا أنهم إذا تحصنوا ببعض الدور الكبار امتنعوا بها فنزلوا من السور وأخلوا الموضع الذي كان يحفظونه فرأتهم طائفة أخرى ففعلوا كفعالهم فخلا مكانهم أيضاً من السور ولم تزل تتبع طائفة منهم التي تليها في النزول حتى خلى السور فصعدت القوات الصليبية إليه على السلام واستطاعوا اجتياح المدينة⁽⁴⁾ بعد عشرين يوماً⁽⁵⁾ من الحصار والمقاومة وذلك في 15 محرم 492هـ / 11 ديسمبر 1098م، فلما رأى أفراد المقاومة الشعبية هول الاجتياح لجأوا لتحصن في خنادق وكهوف تحت الأرض لتصيد بعض الجنود المحتلين، غير أن قوات الاحتلال الصليبي علمت بأماكن وجودهم وقاموا بإجبارهم على الخروج من هذه الكهوف والخنادق " فأطلقوا الدخان باستخدام النار والأبخرة الكبريتية"⁽⁶⁾ وتم القبض على هؤلاء المقاومين ليقودونهم إلى أماكن الغنائم ولكن أفراد المقاومة الشعبية فضلوا الشهادة على أن يدلوا المحتلين على أماكن الأسلحة والغنائم فلجأ بعضهم إلى خداع الصليبيين " فكان أسراهم يقودونهم إلى الآبار ثم فجأة يلقون بأنفسهم في الآبار ليلقوا حتفهم، مؤثرين الموت على كشف النقاب عن مكان المتاع المملوك لهم أو لغيرهم"⁽⁷⁾ وربما أن بعض الأسرى لم يلقوا بأنفسهم فقط بل يمكن أن يكونوا قد اسقطوا معهم

(1) ابن العديم، زبدة الحلب، ج2، ص142. ابن القلانسي، الذيل، ص136. ابن الأثير، الكامل، ج9، ص16. ابن الشحنة، الدر المنتخب، ص216. وقد أورد ريمونداجيل ما يشبه نص ابن العديم ولكنه ركز على وصف الهجوم الصليبي وليس المقاومة بقوله " إن الصليبيين هاجموا السور بجرأة في هجوم استمر من طلوع الشمس حتى غروبها" ووصف القتال بأنه " كان قتالاً كبيراً لم يسترح به أحد" في إشارة إلى قوة المقاومة، انظر تاريخ الفرنجة ص168.

(2) توديبود، تاريخ الرحلة، ص262.

(3) ريمونداجيل، تاريخ الفرنجة، ص169.

(4) ابن القلانسي، الذيل، ص136. ابن الأثير، الكامل، ج9، ص16.

(5) الشارنري، تاريخ الحملة، ص128، وهو في هذا الصدد يتحدث عن مجاعة وقعت في صفوف القوات الصليبية المحاصرة للمدينة ألجأتهم إلى أكل جثث الشهداء المسلمين ممن سقط عن الأسوار وأخذوا " يلتهمون اللحم الأدمي بوحشية على الرغم من أنه لم ينضج في الشواء" انظر كذلك ريمونداجيل، تاريخ الفرنجة، ص166. جويبو، على خطى الصليبيين، ص185-186. سميت، الحملة الصليبية، ص125.

(6) ريمونداجيل، تاريخ الفرنجة، ص169.

(7) المصدر نفسه، ص169.

بعض من كان يقودهم وهذا ما يشبه العمليات الاستشهادية، ولكن يبدو أن ريمونداجيل الذي أورد الرواية السابقة لم يفصح عن ذلك لأن رواياته تركزت على إبراز جهد الفرنج في دخول المدينة - المعرة - ولم يبرز أي دور للمقاومة وهي عادته في وصف المعارك بين المسلمين والصليبيين، وإن كان يغالي في ذلك عن غيره من مؤرخي الحملة الصليبية الأولى⁽¹⁾.

وحتى تضمن القوات الصليبية عدم بقاء أحد من أهل المعرة مختبئاً أو على قيد الحياة، بعث بوهيمند من ينادي بين أهل معرة النعمان بالأمان إن هم استسلموا وأوقفوا مقاومتهم الشعبية له ولقواته وقطع على نفسه العهد ببسط حمايته عليهم ويأمنهم على أرواحهم وأموالهم، وطلب منهم أن يتوجهوا إلى القصر الواقع قرب بوابة المدينة هم وزوجاتهم وأطفالهم⁽²⁾ وهناك في القصر حدثت مجزرة جماعية منظمة، إذ حنث بوهيمند بوعدده هو ومن معه من القوات الصليبية " وغدروا بهم ولم يفوا بشئ مما قرروا"⁽³⁾.

وفي القصر تم " ذبح كل من وجدوه من المسلمين من الرجال والنساء"⁽⁴⁾ والأطفال أما في باقي أجزاء المدينة فقد أطلق بوهيمند وقواته " فيهم السيف ثلاثة أيام"⁽⁵⁾ وقد ذكر توديبود بأن شوارع المدينة قد امتلئت بالقتلى بحيث لم يكن باستطاعة أحد عبور الشوارع دون أن يخطو فوق جثثهم⁽⁶⁾ وهذا دليل واضح على روح الانتقام التي امتلأت بها نفوس الصليبيين بعد المقاومة الشديدة التي لاقوها من أهل معرة النعمان، فالصليبيين في بداية حصارهم للمدينة " لم يتمكنوا من إيقاع الأذى بهم بأي وسيلة، بل إنهم عانوا الكثير من الشرور"⁽⁷⁾ وقد اختلف المؤرخون حول تحديد عدد الشهداء في معرة النعمان ومنهم من أحجم عن ذكر العدد كإبن القلانسي الذي قال بأنهم " خلق كثير"⁽⁸⁾ أما ابن الأثير فقد قدرهم بـ " مائة

(1) يراجع التعليق الذي كتبه مترجم كتاب تاريخ الفرنجة حسين عطية في معرض حديثه عن المقاومة الشديدة التي أبدتها سكان المعرة هاشم (10) ص 178. كذلك تعليقه في الكتاب الذي ترجمه لتوديبود، تاريخ الرحلة، هاشم (32) ص 280.

(2) توديبود، تاريخ الرحلة ص 262. لم يذكر ريمونداجيل شيئاً عن هذا الوعد الذي منحه الصليبيون لسكان المعرة.

(3) ابن القلانسي، الذيل، ص 136

(4) توديبود، تاريخ الرحلة، ص 262. شارترى، تاريخ الحملة، ص 128.

(5) ابن الأثير، الكامل، ج 9، ص 16.

(6) توديبود، تاريخ الرحلة، ص 262

(7) المصدر نفسه، ص 260

(8) الذيل، ص 136.

ألف⁽¹⁾ وكذلك سبط ابن الجوزي⁽²⁾ وأبو الفداء⁽³⁾ والعلمي⁽⁴⁾ والحريري⁽⁵⁾ ويبدو أن ابن العديم كان أكثر عقلانية في تقديره لعدد الشهداء فذكر بأنهم كانوا عشرين ألف رجل وإمراة وصبي⁽⁶⁾ وذلك لأن هذا العدد الذي أورده ابن العديم يتناسب مع مساحة مدينة المعرة، فمن غير المعقول أن تكون معرة النعمان بهذه الكثافة السكانية التي أوردها المؤرخون، وإن افترضنا أن هذا العدد صحيح فأين عدد الأسرى والسبايا الذين تم القبض عليهم، وهل يمكن أن لا يكون أحد قد نجى وهرب من المدينة بعد الاجتياح الصليبي، كما أن ابن العديم هو الأصوب من وجهة نظرنا لأنه من أبناء حلب التي كانت تتبع لها معرة النعمان وهذا يعني أن تقديره مبني على أحد الروايات الشفوية المتناقلة من بعض الناجين من تلك المذبحة إلى حلب التي لم يحتلها الصليبيون.

أما ابن الشحنة⁽⁷⁾ فإنه يجمع بين الرأيين مع ترجيحه للعدد الذي قدمه ابن العديم، لأنه هو أيضاً من أبناء حلب وقد نقل الكثير من رواياته من ابن العديم، بينما أحجم المؤرخون اللاتين عن تحديد عدد الذين استشهدوا خلال معركة الصمود والمقاومة في معرة النعمان.

مكث الصليبيون أربعين يوماً⁽⁸⁾ في معرة النعمان قاموا خلالها بتغيير معالم المدينة العمرانية، وطمس هويتها الإسلامية فـ"هدموا أسوارها وأحرقوا المساجد وكسروا المنابر وهدموا الدور"⁽⁹⁾ "ورفعوا الصلبان"⁽¹⁰⁾.

(1) الكامل، ج9، ص16.

(2) مرآة الزمان، ج1، ص306

(3) المختصر، ج2، ص27.

(4) الأنس، ج1، ص307

(5) الإعلام، ص63، وهو يورد خبر اجتياح الصليبيين للمعرة مرتين في الأولى يذكر فيها بأن الصليبيين قتلوا غالب أهلها" الإعلام، ص62، وفي المرة الثانية يحدد عدد القتلى بمائة ألف، الإعلام ص63.

(6) زبدة الحلب، ج2، ص142.

(7) الدر المنتخب ص216 وقد وقع في تناقض واضح عندما أورد في صفحة سابقة بأن الصليبيين عندما اجتاحوا المعرة "قتلوا كل من فيها" الدر المنتخب، ص77.

(8) ابن الأثير، الكامل، ج9، ص16 و ج8، ص187. أبو الفداء، المختصر، ج2، ص27. العلمي، الأنس، ج1، ص307. ابن العماد، الشذرات، ج2، ص396

(9) ابن الشحنة، الدر المنتخب، ص217 ومع أنه متأخر فإنه انفرد بذكر تلك الرواية دون غيره من المؤرخين المسلمين انظر: ريمونداجيل، ص171

(10) ابن القلانسي، الذيل، ص136

لم يتحرك لنجدة المعرة أي من زعماء المنطقة من الأمراء السلاجقة في الشام بمن فيهم أمير حلب رضوان، وخاصة أن المعرة كانت تتبع لإمارته⁽¹⁾، أو جناح الدولة حسين صاحب حمص الذي استتجد به أهل المعرة، أما عن حكام دمشق والموصل وحماة فإنهم فضلوا أن يكونوا مراقبين سلبيين⁽²⁾ فقد استغاث بهم أهل المعرة جميعاً " فلم ينجدهم أحد"⁽³⁾.

ويتضح مما سبق من الروايات أن معرة النعمان يبدو أنها كانت فارغة من المدافعين من الجنود النظاميين الذين يمكن أن يكونوا قد هربوا بعد أن سمعوا بالمذبحة التي حلت بأنطاكية والروج والبارة، وتركوا الأهالي في المعرة يواجهون الجيوش الصليبية لوحدهم، وقد بينت الروايات السابقة بوضوح كيف أن الأهالي من السكان المحليين قد تصدوا للقوات الصليبية الغازية برميهم بخلايا النحل واشتبكوا معهم في بعض الأحيان بالأيدي، فهل من المعقول أن يترك الجنود والحامية المدافعة عن المدينة أسلحتهم ليرموا العدو بخلايا النحل ويشتبكوا معهم بالأيدي؟! وبالتالي فإن الأهالي في المعرة هم الذين قاموا بالتصدي للقوات الغازية واستخدموا في ذلك ما لا يمكن أن يستخدمه الجنود الذين عادة ما يكونون مدججين بالسلاح، والدليل الآخر على هرب الحامية والجنود النظاميين هو ما ذكره ابن الأثير، وابن العديم من أن أهل المعرة استغاثوا بأمير حلب الذين كانوا يتبعون له، وأمير حمص القريب منهم، وبباقي الأمراء فلم ينجدوهم.

تحركت القوات الصليبية من معرة النعمان في الثامن عشر من صفر 492هـ / الموافق الثالث عشر من يناير 1099م ناحية الجنوب لتستكمل مسيرتها الهادفة لاحتلال بلاد الشام لتصل إلى هدفها الأسمى مدينة القدس، فمروا في طريقهم على بلدان وإمارات عربية منها كفر طاب حيث مكثوا هناك حتى 21 صفر 492هـ / الموافق السادس عشر من يناير 1099م ولم يجدوا من أهلها أي مقاومة، ثم تابعوا سيرهم وصولاً إلى شيزر التي قام حاكمها⁽⁴⁾ بتقديم فروض الطاعة إلى القوات الصليبية " وراسلهم ابن منقذ صاحب شيزر

(1) يونس، دور سكان الشام، ص9.

(2) ماير، تاريخ الحملة، ص87. قاسم، ماهية الحروب، ص127.

(3) ابن الأثير، ج9، ص17. ابن العديم، ج2، ص141-142.

(4) حاكم شيزر آنذاك هو أبو العساكر عز الدين سلطان بن علي بن مقلد بن نصر بن منقذ الكناني (491هـ-1098م 549هـ/1154م) تولى حكم شيزر بعد أن تنازل له أخوه مرشد بن علي الذي رفض تولى ذلك الأمر بعد وفاة نصر ابن علي سنة 491هـ/1098م وكان أديباً شاعراً وهو عم أسامة بن منقذ المشهور، انظر: ابن الأثير، الكامل، ج9، ص431. أبو شامة، الروضتين، ج1، ص353.

فصالحهم عليها⁽¹⁾ وتعهد لهم بألا يعترض طريقهم عند اختراقهم إقليمه وأن يقدم لهم ما يحتاجونه، كما أنه أرسل إليهم في 22 صفر 492هـ / 17 يناير سنة 1099م الأذلاء الذين يوضحون لهم مسالك إقليم العاصي، ثم قادوهم إلى أحد الأودية الذي جمعت فيه أكثر من خمسة آلاف رأس من الغنم إضافة إلى بعض الحبوب التي خبأها أهالي المناطق المجاورة لحمايتها من نهب القوات الصليبية⁽²⁾، وبدل من أن يحث -ابن منقذ- المناطق المجاورة على المقاومة والصمود أرسل إليهم "رسائل تحث كل المواطنين على الهرب"⁽³⁾ ومع حصول الخلاف حول الطريق الذي يجب أن تسلكه قوات الاحتلال الصليبي، فقد قرر الصليبيون اتخاذ أقصر الطرق الداخلية إلى بيت المقدس، مع الاقتراب بين حين وآخر من شاطئ البحر كلما استدعت ظروف التموين ذلك، وفعلاً استأنف الصليبيون زحفهم وفقاً لتلك الخطة⁽⁴⁾، فمروا بقلعة مصياف⁽⁵⁾ العربية في 27 صفر 492هـ / 22 يناير سنة 1099م التي عقد صاحبها اتفاقاً مماثلاً⁽⁶⁾ للاتفاق الذي عقده حاكم شيزر وبذلك لم يقاوم أهلها القوات الغازية. ثم اتجهوا نحو بعرين⁽⁷⁾ فرفنية⁽⁸⁾، فلم يجدوا مقاومة لنزوح أهلها⁽¹⁾ عنها ثم نزلوا سهل البقاع "حيث وجدوا وفرة من المؤن والحبوب والماشية"⁽²⁾.

- (1) ابن الأثير، الكامل ج9، ص16.
- (2) المؤلف المجهول، أعمال الفرنجة، ص109. توديبود، تاريخ الرحلة، ص289. ريموندا جيل، تاريخ الفرنجة، ص181. ابن منقذ، الاعتبار ص65 ص81 وما بعدها. علي، بنو منقذ ص310. الشيخ، الإمارات العربية، 211-223.
- (3) ريموند جيل، تاريخ الفرنجة، ص181.
- (4) فهم كانوا في حيرة من أمرهم فإذا ما اتخذوا الطريق الداخلي فسوف يلاقوا مقاومة عنيفة، أما الطريق الساحلي فإنها قد تجنبهم ذلك ولكن سيكلفهم حصار جميع الموانئ التي سيمرون بها وهذا يكلفهم الكثير ولكنهم انتهوا إلى الحل الوسط الذي ذكرناه، عن هذا الخلاف وتفصيله انظر: ريموندا جيل، تاريخ الفرنجة، ص182-183، وقد انفرد بالحديث عن هذا الخلاف ولم يذكر توديبود أو صاحب أعمال الفرنجة أو الشارترى حوله شيء راجع كذلك عاشور، تاريخ العلاقات ص179-180. توديبود، تاريخ الرحلة، هامش6، ص298.
- (5) مصياف Massyas ، أو مصياب، أو مصيات، أو مصياء حصن مشهور بالساحل الشامي قرب طرابلس انظر: ياقوت، معجم، ج5، ص144. وكان غالبية سكانها من الحشاشين. حول هذه القلعة انظر: ابن القلانسي، الذيل، ص272. ابن منقذ، الاعتبار، ص148، هامش2. مولر، القلاع، ص88-89.
- (6) توديبود، تاريخ الرحلة، ص289. والجدير بالذكر أن توديبود لم يذكر اسم القلعة أما من عرفها بأنها مصياف فهو هاجنمير انظر: Cf. Hagenmer, Chronologie de La Premiere Croisade, 1094- 1100, P418.
- (7) بعرين: مدينة حسنة بين حلب وحماة من جهة الغرب وقد صوبها ياقوت بقوله بارين انظر: ياقوت، معجم البلدان ج1، ص321.
- (8) من الجدير بالذكر أن المصادر العربية لم تذكر وصول رسل حمص إلى الصليبيين المحاصرين لرفينية وحصن الأكراد كما تذكر المصادر اللاتينية- وهي الأرجح- وإنما ذكرت بأن القوات الصليبية سارت إلى حمص

ولم يكن نزوح أهالي تلك المناطق عن جبن منهم أو خوف، وإنما بسبب عدم حصانة مدنها و دليل ذلك أنهم لم يهاجروا إلى مناطق بعيدة جداً عن مدنها بل أنهم هاجروا إلى الحصن القريب منهم وهو حصن الأكراد⁽³⁾ حيث احتفى أهالي تلك المناطق من العرب والبدو تمهيداً لمقاومة القوات الصليبية بمساعدة القوات الكردية التي بداخل الحصن ثم بدأت مقاومة شعبية شديدة، فقد شن أفراد المقاومة الشعبية من الفلاحين والبدو هجمات خاطفة على القوات الصليبية التي بدأت حصاراً مشدداً على الحصن في 3 ربيع الأول 492هـ/ 28 يناير 1099م ولمعرفتهم وخبرتهم بالمنطقة المحاصرة فقد " اندفعوا من أعلى جبلهم وهاجموا بعض الأتباع المسلحين والرجالة الذين كانوا يبحثون عن الكلاء هنا وهناك وسط الحقول وقتلوا عدداً منهم"⁽⁴⁾ غير أن تلك المقاومة لم تدم إذ أن القوات الصليبية استطاعت أن تهاجم الحصن " من ثلاث جوانب ودحروا المزارعين"⁽⁵⁾ وسقط الحصن في أيديهم في 4 ربيع الأول 492هـ/ 29 يناير سنة 1099م، أما من في داخل الحصن فإنهم قد استوعبوا درس أنطاكية ومعرة النعمان وما جرى فيهما من مذابح وحشية فـ"اختفوا أثناء الليل وتركوا حصنهم"⁽⁶⁾ بعد أن دافعوا عنه بشجاعة منقطعة النظير⁽⁷⁾.

غادرت القوات الصليبية حصن الأكراد في 21 ربيع الأول 492هـ/ 14 فبراير 1099م متجهة نحو عرقة التي كانت تتبع إمارة طرابلس، فحاصروها ثلاثة أشهر⁽⁸⁾ دون أن ينالوا منها منالهم، ولم يضرها موقف أمير طرابلس المتخاذل⁽⁹⁾، بل أقبلت جموع

وحاصرتها بعد المعرة فصالحهم أهلها وحاكم المدينة. ينظر: ابن الأثير، الكامل، ج9، ص16. أبو الفداء، المختصر، ج2، ص27. ابن العماد، الشذرات، ج2، ص396.

(1) توديبود، تاريخ الرحلة، ص290، ريمونداجيل، تاريخ الفرنجة، ص183.

(2) توديبود، تاريخ الرحلة، ص290.

(3) انظر ما سبق في الفصل الأول ص

(4) ريمونداجيل، تاريخ الفرنجة، ص183.

(5) المصدر نفسه، ص183-184.

(6) توديبود، تاريخ الرحلة ص290. انظر كذلك ريمونداجيل، تاريخ الفرنجة، ص185.

(7) علي، بنو منقذ، ص310.

(8) توديبود، تاريخ الرحلة، ص293. ريمونداجيل، تاريخ الفرنجة، ص215، أعمال الفرنجة بينما حدد الشارترى

مدة الحصار بخمسة أسابيع، أم ابن الأثير فحدد الحصار بأربعة أشهر ج9، ص16.

(9) عندما علم فخر الملك ابن عمار بوصول الصليبيين إلى عرقة خشى على إمارته فأرسل رسله إلى قائد الصليبيين

ريموند وعقد معهم اتفاقية يدفع بمقتضاها مبلغ من المال وأن يرفع أعلام الصليبيين على أسوار إمارته إشارة إلى

ولائه لهم، انظر: ابن القلانسي، الذيل، ص136-137. ريمونداجيل، تاريخ الفرنجة، ص185، 189.

توديبود، تاريخ الرحلة، ص293.

أهلها على المقاومة، واستطاعوا إنزال الكثير من الضربات بالصليبيين الذين فقدوا الكثير من محاربيهم الشجعان ومن أبرزهم " أنسلم من ريبمونت Anselm of Ribemont الذي كان فارساً مقداماً، نتيجة إصابته بحجر"⁽¹⁾ من الأحجار التي كان يرشقها أفراد المقاومة الشعبية على القوات الصليبية المحاصرة، وكثفت القوات الصليبية ضرباتها على عرقة " ونقبوا سورها عدة نقوب فلم يقدروا عليها"⁽²⁾.

وقد وقف صاحب عرقة آنذاك موفقاً مشرفاً حيث راسل طغتكين حاكم دمشق قائلاً له: "أرسل إلى من يتسلم هذا الحصن مني، فقد عجزت عن حفظه، ولأن يأخذه المسلمون خير لي دنيا وآخره من أن يأخذه الصليبيون"⁽³⁾.

وقد حالت الظروف الطبيعية في ذلك الوقت دون وصول جنود طغتكين الذين أرسلهم لمساعدة عرقة⁽⁴⁾ لتسقط في الحصار الثاني للمدينة سنة (502هـ/1108م) إذ أن الصليبيين "حاصروها حتى نفذت قوت من فيها وتسلموها بالأمان"⁽⁵⁾، وهذا يعني أن نفاذ المواد الغذائية وتأخر المساندة الخارجية أدى إلى إضعاف المقاومة الشعبية في المدينة وقتل من صمودها مما أدى إلى سقوط المدينة بعد ما أبداه أفراد المقاومة من تحد وصمود أمام جحافل المحتلين الصليبيين.

ولم يقنع الصليبيون بما أظهره أمير طرابلس من التودد والخنوع فراحوا يشنوا هجمات خاطفة وغارات سريعة على الضياع والقرى القريبة من طرابلس فخرجت إليهم جموع المقاومة الشعبية من طرابلس " خرج إلينا أهل طرابلس وهم واقفون"⁽⁶⁾ ولكن تخاذل زعيمهم جعلهم يقفوا وحيدين أمام القوات الصليبية⁽⁷⁾ التي هاجمتهم بقوة، وهذا ما جعل توديبود يصرح بالقول " وقتل رجالنا صفوة أهل طرابلس"⁽⁸⁾ وكان جزء من القوات الصليبية

(1) الشارترى، تاريخ الحملة ص129 انظر كذلك: توديبود ص293 وقد أضاف اسماً آخر هو بونز أوف بلازون ريمونداجيل، تاريخ الفرنجة، ص186-187.

(2) ابن الأثير، الكامل ج9 ص16. وقد تم رفع الحصار عنها في 20 جمادى الآخرة 492هـ / 13 مايو 1099م.

(3) ابن القلانسي، الذيل ص162. حاكم المدينة في ذلك الوقت هو شمس الملوك دقاق بن تاج الدولة بن تتش. انظر: ابن شداد الحلبي، الأعلام الخطيرة، ج2، ق2، ص94.

(4) ابن القلانسي، الذيل ص162. علي، بنو منقذ ص310.

(5) ابن شداد، الأعلام الخطيرة، ج2، ق2، ص94.

(6) ريمونداجيل، تاريخ الفرنجة، ص215.

(7) حبشي، الحملة، ص171.

(8) توديبود، تاريخ الرحلة، ص292، وانظر: ريمونداجيل، تاريخ الفرنجة ص215-216. وهما في هذا الصدد يتحدثان عن مذبح لا تقل بشاعة عن المذابح السابقة قد وقعت في صفوف المقاومين.

قد اتجه نحو أنطرطوس بغية احتلالها وهاجموها براً وبحراً⁽¹⁾ إلا أن المدينة قاومت حتى عجزت المقاومة الشعبية عن الصمود فانقلبت مقاومتهم إلى سلبية إذ أنهم " انسلوا تحت جناح الظلام تاركين المدينة"⁽²⁾ ولم يبق منهم إلا بعض المقاومين الذين تم قتلهم بوحشية⁽³⁾ لا تقل فظاعة عن تلك التي حدثت في معركة النعمان وستحدث في مدن أخرى كبيت المقدس مثلاً وقد أدى استيلاء القوات الصليبية على ميناء طرطوس إلى سهولة تموينهم بواسطة الأساطيل الإيطالية والبيزنطية⁽⁴⁾، كما ساعدهم في احتلال ميناء ومدينة مرقية أو (Maraglyah, Maraclea كما يسميها الفرنج إلى الشمال من أنطرطوس (طرطوس) والتي عقد أميرها المتخاذل اتفاقاً مع القوات الصليبية " ووافق على السماح لرجالنا بدخول مدينته ورفع أعلامنا فوقها"⁽⁵⁾ على حد قول توديبود، وبذلك تم دخول المدينة دون أدنى مقاومة، وكذلك الحال بالنسبة لللاذقية التي وصلوا إليها في حوالي الخامس من ربيع الآخر 492هـ/ نهاية فبراير 1099⁽⁶⁾ وخلال حصار عرقة أيضاً تم مهاجمة وحصار جبلة⁽⁷⁾ واستمرت في المقاومة من 7 إلى 16 ربيع الآخرة 492هـ/ 2 إلى 11 مارس 1099م، فلما وجدت القوات الصليبية نفسها عاجزة عن اجتياح المدينة وافقوا على العرض الذي قدمه أهل جبلة وقاضيها وهو أن يدفعوا لهم جزية من المال والخيول والبغال بشرط أن يرحلوا عن مدينتهم⁽⁸⁾ فوافقت القوات الصليبية على هذا العرض.

غادر الصليبيون إقليم طرابلس في 23 جمادى الآخرة 492هـ/ 16 مايو سنة 1099م ومعهم بعض الأدلاء الخونة الذين أمدهم أمير طرابلس للصليبيين⁽⁹⁾ لإرشادهم إلى آمن الطرق إلى بيروت التي لم تكن مستعدة للمقاومة فقام أهلها بتقديم مبلغ كبير من المال وعرضوا عليهم إمدادهم بالتموين، مقابل تعهد القوات الصليبية بعدم التعرض لمزارعهم وبساتينهم⁽¹⁰⁾ ثم

(1) الشارثري، تاريخ الحملة، ص 183.

(2) توديبود، تاريخ الرحلة، ص 291.

(3) الشارثري، تاريخ الحملة، ص 183، وقد سقطت المدينة في 23 ربيع الأول 492هـ/ 17 فبراير 1099م.

(4) ريمونداجيل، تاريخ الفرنجة، ص 186.

(5) توديبود، تاريخ الرحلة ص 291.

(6) توديبود، تاريخ الرحلة، ص 291.

(7) جبلة Jubelet مدينة بساحل الشام من أعمال اللاذقية في منتصف الطريق بين عرقة وأنطاكية، ريمونداجيل، تاريخ الفرنجة، ص 188، البغدادي، مرصد الإطلاع ج 1، ص 212.

(8) ريمونداجيل، تاريخ الفرنجة، ص 187-188، وقد قدر الضريبة أو الجزية بخمسة آلاف قطعة ذهبية.

(9) توديبود، تاريخ الرحلة، ص 290، 293. ريمونداجيل، تاريخ الفرنجة، ص 185.

(10) رنسيان، تاريخ الحروب، ج 1، ص 388.

قصدوا صيدا في 27 جمادى الآخرة 492هـ / 20 مايو 1099م إلا أنهم لم يتمكنوا من اجتياحها لشدة المقاومة الشعبية والرسمية لهم، فرحلوا عنها بعد أن أثلثوا المزارع المجاورة لها⁽¹⁾، ثم رحلت القوات الصليبية بعد ذلك إلى صور⁽²⁾ ومنها إلى عكا التي فرض عليها جودفري بويون Godfrey de Boullion (3) حصاراً شديداً في 2 رجب 492هـ / 24 مايو 1099م بغية اجتياحها ثم احتلالها " فلم يقدروا عليها"⁽⁴⁾ بسبب المقاومة الشديدة التي أبدتها حامية المدينة و أهالي عكا.

لكننا نجد أن الروايات اللاتينية تقلل من شأن المقاومة الشعبية التي أبدتها أهالي المدينة وتعزو انسحابها من محيط المدينة الى المرونة التي أبدتها حاكم المدينة زهر الدولة الجيوشي⁽⁵⁾ حيث قام بالتفاوض مع القوات الصليبية المحاصرة والذي انتهى بتعهد الوالي بتسليم المدينة لهم حال سقوط بيت المقدس فضلاً عن تقديم المؤن والأدلاء لتسهيل أمر وصولهم إلى القدس⁽⁶⁾.

مضى الصليبيون في زحفهم فمروا بقيسارية في 4 رجب 492هـ / 26 مايو 1099م، ثم أرسوف⁽⁷⁾ ويبدو أن هاتين المدينتين لم تبدأ أي مقاومة في البداية وهذا ما جعل المصادر العربية تغفل ذكرها، أما المصادر اللاتينية فقد مرت على ذكرها سريعاً.

ترك الصليبيون طريق الساحل تاركين مدينة ياقا وشقوا طريقاً داخلياً ناحية الشرق، فاستولوا على مدينة الرملة التي هجرها أهلها قبيل وصول القوات الصليبية بلبلة

(1) سالم، تاريخ مدينة صيدا، ص 92.

(2) لم تبد صور مقاومة في أثناء الحملة الأولى المتجهة إلى بيت المقدس. انظر: ريمونداجيل، تاريخ الفرنجة، ص 224.

(3) جودفري أف بويون Godfrey de Boullion ولد في شهر يولييه 1058م/450هـ في مقاطعة الرايمز في مدينة بولون بفرنسا وكان والده الكونت يوستاش، ووالدته إيدا Ide ذات النسب الرفيع أخت لجودفري دون اللورين الملقب ستروما Storma، وحيث لم يكن للدوق أطفال فقد تبني ابن أخته جودفري وجعله وريثاً له ولكل ممتلكاته وخلف جودفري خاله في الدوقية بعد وفاته وقد توج بعد ذلك ملكاً لبيت المقدس ولقب بحامي القبر المقدس وتوفي في يولييه 1100م/493هـ. انظر: الصوري، تاريخ الحروب ج 1، ص 450-451. البيشاوي، نابلس، هامش 213. ص Archer and Kingdford, The 'Besant, and palmen, Jerusalem.p21366 crusades.p.93

(4) ابن الأثير، الكامل، ج 9، ص 16.

(5) زهر الدولة الجيوشي أرمني الأصل اشتراه جمال الدين بن عبد الله وإلي طرابلس، وتربى عنده، امتاز بالحنكة السياسية وحسن للتكبير، انظر: ابن ميسر، المنتقى ص 75. ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج 2، ص 448-449.

(6) ريمونداجيل، تاريخ الفرنجة، ص 224. الشارترى، تاريخ الحملة، ص 106. الصوري، تاريخ الحروب، ج 1، ص 399.

(7) Al bert d, Aix, P.460.

واحدة⁽¹⁾ في 11 رجب سنة 492هـ/2 يونية (حزيران) عام 1099م وذلك "عند إدراك الغلة"⁽²⁾ أي في وقت الحصاد حيث الكثير من الحبوب⁽³⁾ التي ساعدت القوات الصليبية في إحكام حصارها على القدس تمهيداً لاحتلاله.

وبالقرب من الرملة كانت اللد فلما علم أهلها باقتراب الصليبيين قام أفراد المقاومة الشعبية بحرق كنيسة القديس جرجس (جورج) التي كانت موجودة بها⁽⁴⁾ ولعل ذلك الإجراء لإغاضة القوات الصليبية التي قامت بترميم الكنيسة وتعيين أسقف كاثوليكي يدعى روبرت روين على إقليم اللد والرملة⁽⁵⁾، وحرصاً على سلامته من أي هجوم قد يشنه المقاومون تركوا معه حامية صغيرة⁽⁶⁾ لحفظ الأمن هناك.

وقد وصلت القوات الصليبية إلى مدينة القدس في 16 رجب 492هـ/ السابع من يونيو (حزيران) 1099م وبدأوا في حصار المدينة من ثلاث جهات⁽⁷⁾ "وحاصروها أشد حصاراً"⁽⁸⁾ حتى لا يتمكن أهل البلد من الاتصال بالخارج وبذلك عزلوا المدينة عن العالم الخارجي.

ولم يكن يعلم الصليبيون أن المقاومة الشعبية في المدينة قد أخذت كافة الاستعدادات اللازمة تحسباً لهذا الحصار، فقاموا بمساعدة حاكم المدينة وحاميته التي لم تتجاوز الألف

(1) ريمونداجيل، تاريخ الفرنجة، ص 220. مجهول، أعمال الفرنجة، ص 114. الشارترى، تاريخ الحملة، ص 115. الصوري، الأعمال المنجزة، ج 1، ص. ماير الحملة، ص 88.

(2) ابن القلائسي، الذيل، ص 136.

(3) ريمونداجيل، تاريخ الفرنجة، ص 225.

(4) أعمال الفرنجة، ص 114. الصوري، الأعمال المنجزة، ج 1. Stevenson, The crusaders in the east. p.33.

(5) أعمال الفرنجة، ص 114. الصوري، الأعمال المنجزة، ج 1. والأسقف هو رجل الدين النورماني روبرت أوف

روين Robert of Rouen ، انظر Richard, Jean, The Latin Kingdom of Jerusalem P.98

(6) Richard, Jean, The Latin Kingdom of Jerusalem P.99

(7) قسم الصليبيون أنفسهم خلال بداية حصارهم للمدينة أقساماً حتى يكون حصارهم للمدينة من جميع منافذها، فوقف

جودفري بويون بقواته من الناحية الشمالية الغربية من المدينة وامتدت قواته حتى باب يافا وانضمت إليه كتائب

تكرد، ووقف إلى الجنوب منه ريموند كونت سانتجيل، لكنه ما لبث أن انتقل بمن معه إلى ناحية جبل صهيون؛

أما روبرت توك نرمنديا فقد وقف تجاه باب هيردوس ومع روبرت كونت فلاندر في مواجهة باب دمشق. بينما

خلت الناحية الشرقية من المهاجمين الصليبيين، يراجع تفاصيل الحصار في توديبود، تاريخ الرحلة، ص 313.

ريمونداجيل، تاريخ الفرنجة، ص 235. مجهول، أعمال الفرنجة، ص 114-115، 117؛ بالار، الحملات، ص 172

حبشي، الحملة الصليبية، ص 175.

(8) ابن شداد الحلبي، الأعلام الخطيرة، ج 2، ق 2، ص 201.

مقاتل⁽¹⁾ بتسميم مصادر المياه المحيطة بالمدينة وطم القنوات، ورم الآبار⁽²⁾، كما أخفوا قطعان الماشية في " داخل المغارات والكهوف"⁽³⁾ وبتسميم رجال المقاومة الشعبية للمياه فإنهم كما يقول صاحب أعمال الفرنجة " عملوا على نشر المرض بين رجالنا بإفسادهم مياه الينابيع والعيون في المناطق المحيطة بمدينة بيت المقدس"⁽⁴⁾، وفي الحقيقة لا يمكن أن نفسر ما فعله من تسميم إلا بأنه شكل من أشكال المقاومة الشعبية بالقدر الذي كان في حدود طاقتهم، وتوضح رواية صاحب أعمال الفرنجة أن هؤلاء كانوا من سكان الريف المقدسي المحيطة بالقدس الذين تمكنوا من خلق مشكلة أساسية للقوات الصليبية المحاصرة، وذلك عن طريق استخدام المياه بوصفها سلاحاً له فعالية⁽⁵⁾.

هذا خارج الأسوار، أما بداخلها فإن أفراد المقاومة الشعبية اتخذوا احتياطات أشد صرامة فقاموا بتسييج "مزاغل"⁽⁶⁾ الأبراج بحزم من القطن والتبن، وملاً خزانات المدينة بكمية كافية من المياه⁽⁷⁾، كما وقاموا بترميم الأسوار⁽⁸⁾ التي قد دمر بعضها خلال حصار الأفضل للقدس في أغسطس 1098م/رمضان 490هـ، والذي دام نحو أربعين يوماً، ولم يستسلم السلاجقة حكامه إلا بعد أن ضربت المدينة بأربعين منجنيقاً⁽⁹⁾.

-
- (1) زابوروف، الصليبيون، ص120 وحاكم المدينة في ذلك الوقت هو افتخار الدولة الذي تم تعيينه من قبل الفاطميين في مصر انظر: ابن الأثير، الكامل، ج9، ص19. سبط ابن الجوزي، ج1، ص323.
 - (2) ريمونداجيل، تاريخ الفرنجة، ص237. مجهول، أعمال الفرنجة، ص116. الصوري، الأعمال المنجزة، ج1، ص415. جويبو، على خطى الصليبيون، ص214. حبشي، الحملة الصليبية، ص174. من الجدير بالذكر هنا أن هذه الإجراءات قد أثبتت نجاعتها ودليل ذلك إعادة نفس الأسلوب في عام 588هـ حينما تخوف المسلمون من قيام الصليبيين بحصار القدس فقام المقاومون بـ"إفساد المياه بظاهر القدس وتخريب الصهاريج و الجباب" انظر: ابن شداد، النوادر، ص211. وانظر: ابن واصل، مفرج الكروب، ج2، ص385.
 - (3) توديبود، تاريخ الرحلة، ص315، مجهول، أعمال الفرنجة، ص116، جويبو، على خطى الصليبيون، ص214، (4) مؤرخ مجهول، ص116.
 - (5) المصدر نفسه، وانظر: الصوري، الأعمال المنجزة، ج1، ص401.
 - (6) المزاغل: عبارة عن فتحات لإلقاء القنورات والمواد الحارة على المهاجمين لمنع تقدمهم، وتتواجد هذه المزاغل في أرضية أبراج القلعة انظر: العبيدي، التراث المعماري، ص169؛ الصوافي، القلاع، ص117.
 - (7) زابوروف، الصليبيون، ص120.
 - (8) المرجع نفسه، ص120.
 - (9) ابن القلانسي، السذيل، ص135. ابن الأثير، الكامل، ج9، ص19، وانظر: سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج1، ص277-278. ابن ميسر، المنتقى، ج2، ص38، ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، ص197، أبو الغداء، المختصر، ج2، ص299. الصوري، الأعمال المنجزة، ج1، ص401، 458.

وقد أبدى صاحب أعمال الفرنجة إعجاباً بالتحصينات التي قام بها أفراد المقاومة الشعبية ووصفها بالرائعة⁽¹⁾ وشارك في هذه التحصينات جموع الأهالي من المناطق المجاورة كاللد والرملة وغيرها، وكانوا قد أحضروا معهم كافة الاستعدادات العسكرية وقاموا بمساعدة أهالي القدس بتصنيع آلات حربية أخرى، خاصة وأنهم كانوا من العمال المهرة وقد جلبوا معهم الأرزاق والطعام، استعداداً للحصار⁽²⁾ مما جعل وليم الصوري يصف هذه الاستعدادات التي قام بها الأهالي بالمبالغ فيها⁽³⁾ وهذه المبالغة في الاستعدادات للدفاع عن المدينة ليست من قبيل المصادفة لأن القدس ليست أي مدينة من حيث أهميتها ومكانتها الدينية في نفوس المسلمين، فالمقاومة هنا تختلف عن سابقاتها في المدن الأخرى في طبيعتها وموحياتها ومؤثراتها، ومن هنا فإن المسلمين إن لم يكونوا يقاومون من أجل الدنيا فإنهم كانوا يقاومون من أجل شريعة محمد صلى الله عليه وسلم⁽⁴⁾ وإن كانوا يقاومون من أجل الدين والدنيا فإن هذين العاملين سيدفعانهم إلى الاستبسال في الدفاع والمقاومة عن أولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين أولاً، وعن أرواحهم وأعراضهم وأطفالهم ثانياً.

ومهما يكن من أمر فقد صنع أفراد المقاومة الشعبية آلاتهم القاذفة، وهي كما يذكر ريمونداجيل⁽⁵⁾ "كانت تفوق آلاتنا بنسبة تسعة أو عشرة إلى واحد" وبدأوا يقذفون القنابل الصليبية بكل ما أتيج لهم من وسائل المقاومة وأمطروهم بالحجارة والسهام والخشب المشتعل وجذوع الأشجار ورزم القش الملتهبة، والمطارق المغطاة بالبقار المشتعل، والشمع والكبريت، والكتان، والخرق، وقد ثبتت المطارق بالمسامير بحيث تلتصق بأي جزء تصيبه ثم تشتعل مما حال دون تقدم القوات الصليبية⁽⁶⁾. وقد قامت المقاومة الشعبية ببعض الأعمال التي ليست من أعمال الجيوش النظامية، ومن هذه الأعمال بالإضافة ما سبق ذكره، ما قاموا به بخصوص حرمان العدو من مصادر الحياة، فقد كان أفراد المقاومة الشعبية يدركون نقص المياه عند المهاجمين وما كانوا يبذلونه من جهد في طلبها⁽⁷⁾ فقد راحوا ينصبون الكمائن حول

(1) المؤلف المجهول، ص 117. جويبو، على خطى الصليبيين، ص 217.

(2) الصوري، الأعمال المنجزة، ج 1، ص 416، 420-421. وانظر: معلوف، الحروب الصليبية، ص 74.

(3) الصوري، الأعمال المنجزة، ج 1، ص 416.

(4) ريمونداجيل، تاريخ الفرنجة، ص 245.

(5) تاريخ الفرنجة، ص 246.

(6) المصدر نفسه، ص 245-246. وانظر: توديبود، تاريخ الرحلة، ص 318.

(7) لم يبق للقوات الصليبية أي مصدر للمياه بعد الإجراءات التي قام بها أفراد المقاومة الشعبية، وكان عليهم أن يسيروا مسافة ستة أميال ليصلوا إلى أقرب عين ليشرىوا منها، مجهول، أعمال الفرنجة، ص 116. توديبود، تاريخ

الرحلة، ص 314. الصوري، الأعمال المنجزة، ج 1، ص 419.

النيابيع والآبار وبالقرب منها وفي الطرقات المؤدية إليها، وقاموا بمهاجمة الصليبيين⁽¹⁾ "وقتلوا الكثير وأسروا الكثير، واستولوا على ماشيتهم وقطعانهم"⁽²⁾ ولم يكتف أفراد المقاومة الشعبية بذلك بل قاموا بتعقب الصليبيين⁽³⁾ الذين خرجوا بحثاً عن الكلاً في مزارع الكروم⁽⁴⁾ وكانت هجمات هذه المجموعات من أفراد المقاومة الشعبية ناجحة وأسفرت في كثير من الأحيان عن قتل وجرح العديد من الصليبيين، وكان الحظ حليف من يستطع الهرب فلا يقع بأيدي المقاومين⁽⁴⁾ ولتعزيز صمود المقاومين في القدس قامت مجموعات من السكان خارج مدينة القدس باختراق الحصار من خلال الأجزاء التي لم تكن محاصرة، وكانوا يقومون بالمقاومة إلى جانب إخوانهم دفاعاً عن المدينة ضد القوات الصليبية⁽⁵⁾.

وحرص المسلمون على معرفة ما يدور داخل معسكر القوات الصليبية المحاصرة للمدينة، بهدف التعرف على أسرارهم وخططهم العسكرية، والعمل على إحباطها فقد قام أحد أفراد المقاومة الشعبية بالتسلل إلى داخل المعسكر الصليبي ليتجسس على كيفية عمل الصليبيين للأبراج، إلا أن الصليبيين استطاعوا التعرف على هويته فرد عليهم قائلاً: "أرسلني المسلمون إلى هنا، لأكتشف مختراعاتكم"⁽⁶⁾، ونظراً لشدة المقاومة رأى الصليبيون أنه لا بد لهم من اصطناع كل وسيلة من وسائل القوة لتعينهم على سحق المقاومة الشعبية التي حالت دون اجتياحهم للمدينة، فقرروا بناء آلات الحصار والحرب وأجبروا الأسرى المسلمين على حمل الأخشاب من مناطق بعيدة⁽⁷⁾ على أكتافهم وبنوا منها عدة أبراج "وأسندوها إلى السور"⁽⁸⁾، وعندما رأى المسلمون هذه الأبراج وآلات الحرب بدأوا باتخاذ "إجراءات استثنائية لتحسين المدينة ولتنقية الأبراج ليل نهار"⁽⁹⁾، وأمطروا هذه الأبراج والآلات بكل ما لديهم من وسائل للمقاومة⁽¹⁰⁾، "وأطلق سكان المدينة، المصممون من جانبهم على المقاومة وإبلا من السهام

-
- (1) مجهول، أعمال الفرنجة، ص116. توديبود، تاريخ الرحلة، ص315. ريمونداجيل، تاريخ الفرنجة، ص238
 - حبشي، الحملة الصليبية، ص175-176
 - (2) ريمونداجيل، تاريخ الفرنجة، ص238. توديبود، تاريخ الرحلة، ص315.
 - (3) توديبود، تاريخ الرحلة، ص315.
 - (4) للصوري، الأعمال المنجزة، ج1، ص419. البيشواوي، المقاومة، ص2.
 - (5) للصوري، الأعمال المنجزة، ج1، ص420.
 - (6) توديبود، تاريخ الرحلة، ص317، وهو المؤرخ الوحيد الذي انفرد بذكر تلك الحادثة.
 - (7) ريمونداجيل، تاريخ الفرنجة، ص243. توديبود، تاريخ الرحلة، ص316.
 - (8) ابن القلانسي، الذيل، ص136.
 - (9) توديبود، تاريخ الرحلة، ص316.
 - (10) المصدر نفسه، ص316.

والقذائف على المسيحيين - كما يطلق عليهم الصوري -، كما سقطت الحجارة المقذوفة بالأيدي، والمنطلقة من آلات القذف الحربية بقوة مخيفة⁽¹⁾.

وقد اسند الصليبيون البرج الأول ناحية صهيون⁽²⁾ فتمكن أفراد المقاومة الشعبية من إحراقه بعد أن سكبوا عليه الزيت والدهن المغلي والمشاعل المتأججة⁽³⁾ "وقتلوا كل من به"⁽⁴⁾ غير أن القوات الصليبية أدركت ضعف السور من الناحية الشمالية عند باب العامود (القديس ستيفن)⁽⁵⁾ لأن بعده "جعل المسلمين يتركونه بدون تحصين"⁽⁶⁾ واعتمدوا في تحصينه على وجود خندق استطاع ريمونداجيل قواته على ردمه، فردموه خلال ثلاثة أيام من أيام الحصار⁽⁷⁾ وقاموا بإسناد البرج الثاني ناحية باب العامود⁽⁸⁾ "وركبوا سور البلد فانهمز الناس عنه"⁽⁹⁾ واجتاحت القوات الصليبية المدينة من تلك الجهة فـ "توقفت المقاومة في أحد مناطق المدينة عملياً، ولكن المسلمين في المنطقة القريبة من جبل صهيون قاتلوا قوات ريموند بشراسة"⁽¹⁰⁾. ومهما يكن من أمر فقد دخلت القوات الصليبية المدينة في يوم الجمعة 23 شعبان 492هـ/14 يولييه (تموز) 1099م⁽¹¹⁾ بعد حصار دام أكثر من أربعين يوماً⁽¹⁾ على الرغم من

(1) (الصوري، الأعمال المنجزة، ج1، ص427. وهو يشير هنا إلى نفس الأسلوب المستخدم في الانتفاضة الفلسطينية الأولى والثانية، وهو قذف الحجارة بالأيدي .

(2) ويقصد ابن الأثير هنا باب صهيون وهو أحد أبواب القدس ويقع في الجهة الجنوبية منها، أما جبل صهيون فيقع في الركن الجنوبي الغربي منها. انظر: المقدسي، أحسن التقاسيم، ص156. الإدريسي، نزهة المشتاق، ج1، ص358. ياقوت، معجم البلدان، ج5، ص169.

(3) الشارترى، تاريخ الحملة، ص145.

(4) ابن الأثير، الكامل ج9، ص19. سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج1، ص232. الحريري، الإعلام، ص65. ريمونداجيل، تاريخ الفرنجة، ص247. توديبود، تاريخ الرحلة، ص318، وقد سمي البرج المحترق برج ريموند لأنه هو الذي أشرف على بنائه بنفسه.

(5) باب القديس ستيفن Sint Stephen وهو نفسه باب العامود أو باب نابلس ويقع في الجهة الشمالية من القدس، وقد أطلق عليه الصليبيون اسم القديس ستيفن تكريماً - حسب زعمهم - لأول شهداء المسيحية. انظر: الكتاب المقدس، أعمال الرسل ص6، 7. بورشارد، وصف الأرض، ص145-146. الإدريسي، نزهة المشتاق، ج1، ص358.

(6) ريمونداجيل، تاريخ الفرنجة، ص244.

(7) توديبود، تاريخ الرحلة، ص317-318. الصوري، الأعمال المنجزة، ج1، ص434.

(8) ريمونداجيل، تاريخ الفرنجة، ص244. ابن الأثير، ج9، ص19. سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج1، ص324. الحريري، الإعلام، ص65.

(9) ابن القلانسي، الذيل، ص137. سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج1، ص324.

(10) ريمونداجيل، تاريخ الفرنجة، ص247.

(11) ابن القلانسي، الذيل، ص137. ابن الأثير، الكامل، ج9، ص19. سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج1، ص323. مجهول، أعمال الفرنجة، ص117. ريمونداجيل، تاريخ الفرنجة، ص347. توديبود، تاريخ الرحلة،

كل ما أبداه سكانها من " مقاومة بالغة الشدة"⁽²⁾ وما قاموا به من إجراءات وتدابير وأعمال فدائية نفذوها هم وسكان الريف المجاور⁽³⁾.

وبمجرد دخول القوات الصليبية المدينة قامت باستباحتها "وركب الناس السيف ولبث الفرنج في البلدة أسبوعاً يقتلون فيه المسلمين"⁽⁴⁾، وقد التجأ بعض الأهالي إلى المسجد الأقصى ظناً منهم أن القوات الصليبية ترعى حرمة المساجد غير أن تلك القوات لاحقتهم واقتحمت عليهم المسجد بعد مقاومة شديدة وأعملت فيهم السيف⁽⁵⁾ حتى "خاض الصليبيون بخيولهم في الدم الذي وصل إلى ركبهم وسروج خيولهم"⁽⁶⁾.

وقدّر عدد شهداء هذا العدوان بسبعين ألفاً⁽⁷⁾ وزاد البعض عددهم إلى مائة ألف⁽⁸⁾، أما الرواية اللاتينية فقدرت عدد شهداء المسجد الأقصى بعشرة آلاف قتيل فقط⁽⁹⁾، غير الذين استشهدوا خارج ساحة المسجد الأقصى⁽¹⁰⁾ الذين تناثرت جثثهم في كل شوارع المدينة وميادينها⁽¹¹⁾ وقد رجح البيشاوي⁽¹¹⁾ الرواية اللاتينية على الرواية العربية لعدة اعتبارات ذكر

-
- ص319. الصوري، الأعمال المنجزة، ج1، ص436. أما ابن شداد فيحدد تاريخ دخول الصليبيين القدس في الثاني من شعبان، انظر: الأعلام الخطيرة، ج2، ق2، ص202.
- (1) ابن الأثير، الكامل، ج9 ص19. أبو الفداء، المختصر، ج2، ص28. العليمي، الأسن، ج1، ص307-309. وقد حدد ابن العماد مدة الحصار تحديداً دقيقاً فنكر بأنها كانت 45 يوم. انظر: شنرات الذهب، ج2، ص397.
- (2) زابوروف، الصليبيون، ص122.
- (3) ريمونداجيل، تاريخ الفرنجة، ص237-238. مجهول، أعمال الفرنجة، ص116-117. توديبود، تاريخ الرحلة، ص315. الصوري، الأعمال المنجزة، ج1، ص416، 421. البيشاوي، المقاومة، ص3.
- (4) ابن الأثير، الكامل، ج9 ص19. وانظر: ابن العبري، تاريخ مختصر، ص197. ابن تميم المقدسي، مثير الغرام، ص367. العليمي، الأسن الجليل، ج1، ص308.
- (5) ابن الأثير، الكامل، ج9 ص19. أبو الفداء، المختصر، ج2، ص28. العليمي، الأسن، ج1، ص307-309. ريمونداجيل، تاريخ الفرنجة، ص247. مجهول، أعمال الفرنجة، ص18-19. توديبود، تاريخ الرحلة، ص318. الصوري، الأعمال المنجزة، ج1، ص436. رنسيان، تاريخ الحروب، ج1، ص103.
- (6) ريمونداجيل، تاريخ الفرنجة، ص247، مجهول: أعمال الفرنجة، ص119.
- (7) ابن الأثير، الكامل، ج9، ص19. أبو الفداء، المختصر، ج2، ص28. ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، ص197. العليمي، الأسن، ج1، ص307-309.
- (8) سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج1 ص324. الحريري، الإعلام، ص65. وقد اكتفى ابن القلانسي بالقول بأن عدد القتلى " خلق كثير " انظر: ذيل تاريخ دمشق، ص139.
- (9) الشارترى، تاريخ الحملة، ص146. الصوري، تاريخ الحروب، ج1 ص437. البيشاوي، المقاومة، ص3. غوانمة، الأفضل، ص76.
- (10) الصوري، تاريخ الحروب، ج1، ص437.
- (11) المقاومة، ص3. الاستيطان، ص3.

منها: أن مساحة المدينة كانت حوالي كيلو متراً مربعاً فقط، وكان يقطنها في منتصف القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي حوالي عشرين ألف نسمة⁽¹⁾ وأن هذا العدد أخذ بالتراجع بسبب الحروب الكثيرة التي عانت منها المدينة، فضلاً عن عدم الاستقرار الذي شهدته خلال الربع الأخير من القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي⁽²⁾ بسبب الحصار الذي تعرضت له أكثر من مرة سواء من السلاجقة أو الفاطميين⁽³⁾ إلا أن هذا الرأي بحاجة إلى إعادة تدقيق، من حيث أنه أورد بأن مساحة القدس في ذلك الوقت كانت كيلو متراً واحداً، ولم يشر إلى مصدر تلك الحقيقة، وهل لهذه المساحة الصغيرة جداً أن تتسع حتى لعشرين ألف نسمة⁽⁴⁾!!

كما أن (بروج)⁽⁵⁾ قد ذكر بأن مدينة عسقلان أصغر من القدس مساحة عندما تحدث عن حصار الصليبيين لها، فإذا ما اتفقنا مع البيشاي على أن مساحة القدس كانت في ذلك الوقت كيلو متراً فقط فهذا يعني أن عسقلان كانت أقل بكثير من كيلو متر إذا ما أخذنا بالحسبان المكانة المتفوقة للقدس على باقي المدن كعسقلان مثلاً، ومن المستحيل أن تكون مدينة عسقلان المزدهرة كما نكرها الجغرافيون والرحالة أن تكون مساحتها بهذا الحجم الصغير جداً.

أما ما أورده ناصر خسرو حول عدد سكان المدينة، فإنه يقول بأن القدس " مدينة كبيرة كان بها في ذلك الوقت عشرون ألف رجل"⁽⁶⁾ فأين النساء وأين الأطفال، وإذا فرضنا أنه يقصد الرجل بعائلته، فكان أحرى به أن يقول: (عشرون ألف إنسان)، لأن هناك فرق شاسع بين الرجل والمرأة والطفل، وهذا يعني أن ناصر خسرو كان يقصد عدد الرجال فقط ولا نعلم لماذا لم يذكر عدد النساء والأطفال، ويبدو أن ذلك راجعاً إلى عدم وجود إحصائيات دقيقة للسكان مثلما يحدث في وقتنا الحاضر.

(1) خسرو، سفر نامه، ص 56.

(2) البيشاي، المقاومة، ص 3. وقد أورد نليلاً على ذلك من أحداث سنة 469هـ — عندما هاجم اتسز بن أوق الخوارزمي القدس وقتل عدداً من سكانها انظر: ابن الأثير، الكامل، ج 8، ص 412.

(3) من أمثلة ذلك حصار اتسز للقدس سنة 469هـ، كما نكرنا وحصار الأفضل بن بدر الجمالي لها سنة 489هـ/ 1097م. انظر: ابن الأثير، الكامل، ج 8 ص 412، ج 9، ص 19.

(4) ففي المناطق الأشد ازدحاماً مثل قطاع غزة 365كم — يصل عدد السكان للكيلو متر المربع الواحد إلى حوالي ثلاثة آلاف وخمسين نسمة حسب ما أورده جهاز الإحصاء المركزي الفلسطيني.

(5) تاريخ الحروب، ص 163.

(6) سفر نامه، ص 56.

أما ما تعرضت له مدينة القدس من حروب ففي ذلك مبالغة كبيرة لأن القدس كما أوردنا لم تتعرض إلا لحربين نتيجة الصراع الذي دار حولها بين السلاجقة من جهة والفاطميين من جهة أخرى، الأولى كانت سنة 469هـ/1077م عندما استطاع اتسز بن أوق السلجوقي احتلال القدس وأخذه من الفاطميين وقد قتل عدد غير محدد من المقدسة⁽¹⁾، الثانية كانت سنة 489هـ/1096م والتي قام الأفضل بن الجمالي خلالها باسترداد المدينة من السلاجقة ولم يذكر المؤرخون بأن أحداً قد قتل في تلك النوبة، بل أن الأفضل ملك المدينة بالأمان بعد أن هدم جزء من أسوارها⁽²⁾

ومعنى ذلك أن عدد من في المدينة المقدسة لم يتناقص إلا في الحدود الطبيعية، أما ما أورده الشارترى⁽³⁾ من أن عدد القتلى كان عشرة آلاف في ساحة المسجد الأقصى ومثلهم في الطرقات والمنازل، وأيده في ذلك وليم الصوري⁽⁴⁾ الذي لم يكن معاصراً للأحداث، ويبدو أنه قد نقل عن الشارترى ولم ينقل عن غيره من المؤرخين الآخرين مثل: صاحب أعمال الفرنجة، وريمونداجيل، وبطرس توديبود، لأنهم لم يحددوا عدد القتلى أصلاً، وبهذا فإن روايته تبدو غير دقيقة وخاصة أنها منفردة ويدحضها ما أورده ريمونداجيل بأن عدد سكان المدينة كانوا " نحو ستين ألف مقاتل، ونساء، وأطفال، لا حصر لهم"⁽⁵⁾.

وأضاف بأن الرؤوس والأيدي والأقدام قد انتشرت في كل مكان من المدينة، في الشوارع و الساحات⁽⁶⁾ وأن الصليبيين عندما أمروا المسلمين الأحياء بالتخلص من جثث القتلى خارج المدينة قاموا بتكفينها "وجمعوها في أكوام في روابي بلغت ارتفاع البيوت"⁽⁷⁾ والروايتين الأخيرتين تدعمان ما ذهبت إليه المصادر العربية حول عدد الشهداء، كما ولا ننسى الأعداد الكثيرة من المهاجرين المسلمين الذين تدفقوا من المناطق المجاورة ليحتموا

(1) سفر نامة، 56

(2) الأزدي، أخبار، ج1، ص230. ابن الأثير، الكامل، ج9، ص19. أبو الفداء، المختصر، ج2، ص28. ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، ص197؛ خليل، الإمارات، ص77-78.

(3) تاريخ الحملة، ص146.

(4) الأعمال المنجزة، ج1، ص437.

(5) ريمونداجيل، تاريخ الفرنجة، ص244.

(6) الصوري، الأعمال المنجزة، ج1، ص437.

(7) توديبود، تاريخ الرحلة، ص319، وفي روايته إشارة إلى أن هناك مسلمين ظلوا على قيد الحياة وقد استغلهم

الصليبيون للقيام بمهمة التخلص من جثث إخوانهم ولم يحدد توديبود مصيرهم بعد ذلك

خلف أسوار القدس وشاركوا أهلها في المقاومة ضد الصليبيين⁽¹⁾ وهذه الأعداد من المهاجرين أدت إلى زيادة غير طبيعية في سكان القدس.

ومن كل ما سبق تتضح صحة الرواية الإسلامية حول عدد الشهداء الذين قُضوا نحبيهم دفاعاً عن شرف القدس والمقدسات، وفي نفس الوقت تتضح بشاعة المحتل الصليبي، وما قام به من عمليات إبادة وحشية وتطهير عرقي⁽²⁾ ضد أهالي مدينة القدس ليس إلا لأنهم قاوموا الغزاة ببسالة وإباء فلم يرحموا شيخاً لهرمه⁽³⁾، ولا عالماً لفضله⁽⁴⁾، ولا طفلاً لضعفه، ولا امرأة لعجزها⁽⁵⁾.

وقد أظهر الصليبيون مدى الجشع الذي سيطر عليهم فقاموا بعمليات سلب واسعة للمدينة⁽⁶⁾ وأخذوا من عند الصخرة المشرفة أكثر من ألفين وأربعين قنديلاً كبيراً من الفضة، و مائة وخمسين قنديلاً صغيراً، وثلاثة وعشرين قنديلاً من الذهب وقنديلاً من الفضة يصل وزنه وحده إلى أربعين رطلاً من أرطال الشام⁽⁷⁾، وأخذوا من الأموال ما لا يحصى⁽⁸⁾.

-
- (1) للصوري، الأعمال المنجزة، ج1، ص416، 420-421. البيشاوي، المقاومة، ص2
- (2) أفاضت المصادر المعاصرة والمراجع الحديثة في الحديث عن تلك المجرزة وللمزيد حول ذلك، انظر: مجهول أعمال الفرنجة، ص118-119. ريمونداجيل، تاريخ الفرنجة، ص247. توديبود، تاريخ الرحلة، ص318-319. الشارترى، تاريخ الحملة، ص146-147؛ الصوري، الأعمال المنجزة، ج1، ص437. ابن الأثير، الكامل، ج9، ص19. سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج1، ص324. أبو الفداء، المختصر، ج2، ص28. ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، ص197. العلمي، الأسن، ج1، ص307-309. الحريري، الإعلام، ص65.
- (3) يقول سبط ابن الجوزي في ذلك "وقتلوا الشيوخ والعجائز" انظر: سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان ج1، ص324. الحريري، الإعلام، ص65.
- (4) كان من بين الشهداء عدد من الأئمة والعلماء والزهاد انظر: ابن الجوزي، المنتظم ج9، ص108. ابن الأثير، الكامل، ج9، ص19. أبو الفداء، المختصر، ج2، ص28. العلمي، الأسن، ج1، ص307. ابن الراهب، تاريخ، ص72. ابن تغري بردي، النجوم، ج5، ص148. السلامي، مختصر التسواريخ، ورقه27. النويري، نهاية، ج28، ص257.
- (5) توديبود، تاريخ الرحلة، ص318-319. الصوري، الأعمال المنجزة، ج1، ص437. حيث يذكر بأن الصليبيين "اقتحموا المنازل حيث قبضوا على أرباب الأسر، وزوجاتهم، وأطفالهم وجميع أسرهم، وقتلت هذه الضحايا أو قذفت من مكان مرتفع حيث هلكت بشكل مأساوي".
- (6) توديبود، تاريخ الرحلة، ص318
- (7) ابن الأثير، الكامل، ج9، ص19. سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج1، ص324. العلمي، الأسن الجليل، ج1، ص308. الحريري، الإعلام، ص65.
- (8) سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج1، ص308.

وعمل الصليبيون على تغيير معالم المدينة⁽¹⁾ وطمس هويتها الإسلامية فقاموا بمجموعة من الإجراءات التي تهدف إلى ذلك بعد أن "أحرقوا المصاحف و أخرجوا المساجد"⁽²⁾.

وقد عمد الصليبيون إلى تغيير استخدامات الأبنية الدينية الإسلامية كالمسجد الأقصى وقبة الصخرة لتستخدم لأغراضهم الدينية، حيث قاموا بتحويل قبة الصخرة إلى كنيسة أسموها **كنيسة السيد Templum Domimi**، ووضع فوقها صليب كبير، وزينت بالصور والتماثيل⁽³⁾ كما " قطعوا من الصخرة قطعاً وحملوا منها إلى قسطنطينية ونقلوا منها إلى صقلية"⁽⁴⁾، كذلك شرع الصليبيون في تغيير هوية المسجد الأقصى، والذي أنقص حجمه إلى الحجم الموجود الآن⁽⁵⁾ وقسموه إلى ثلاثة أقسام: الأول كنيسة والثاني وهو القسم الأكبر مقراً وسكناً لهيئة الداوية⁽⁶⁾ Templars ، والثالث مستودع لذخائرهم، وجعلوا من السراييب التي أسفل المسجد إصطبلًا لخيولهم وجمالهم، وأطلقوا على المسجد الأقصى اسم " معبد سليمان" Templum Solomonis⁽⁷⁾، ولم يقتصر أمر التغيير والطمس على الأماكن الدينية فقط،

(1) انظر عن هذا الموضوع بالتفصيل : النقر، التغييرات الإدارية والعمرائية والسكانية في مدينة القدس في فترة الاحتلال الفرجي الصليبي، بحث ضمن ندوة بلاد الشام في فترة الصراع الإسلامي الفرنجي 491-690هـ، والمنعقد في جامعة اليرموك- إربد الأردن، في الفترة من 8-10، تشرين الثاني 1999م الموافق 20 رجب إلى 2 شعبان 1120هـ.

(2) ابن شداد الحلبي، الأعلام الخطيرة، ج2، ق2، ص202.

(3) البنداري، سنا البرق، ص312. أبو شامة، الروضتين، ج3، ص396. ابن واصل، مفرج الكروب، ج2، ص217. العليمي، الأسس، ج1، ص339. النقر، التغييرات، ص12.

(4) أبو شامة، الروضتين، ج3، ص396.

(5) النقر، التغييرات، ص12.

(6) الداوية: هيئة عسكرية صليبية تأسست عام 1118م/512هـ بقيادة هيو دي باينز من شمبانيا Hugu de Paynes وقد حملوا لقب فرسان الهيكل، بعد أن منحهم بلدوين الثاني محلاً قرب المسجد الأقصى الذي سماه الصليبيون هيكل سليمان، ويعود أصل كلمة الداوية إلى لفظ "Divi" اللاتينية وتعريب للفظة (تسسا) السريانية، انظر حول الداوية أصلها ما يلي: الصوري، الأعمال المنجزة، ج1، ص567. الدومينيكي، أصل كلمة الداوية، ص241-249. King: The Kinghts Hospitallers in the Holy Land, pp.31-32; Archer & Kingsford, The Crusades. pp.170-172; Chalandon: Histoire de la Preiniere, pp.332-333. Forey. "the military orders 1120-1312. pp.184-216." "the military orders 1312-1798". menache, "Rewriting the history " pp. 183-213. Baber. "suppting the crusader states". pp.190-207.

(7) الإدريسي، نزهة المشتاق، ج1، ص360. ابن منقذ، الاعتبار، 172. ابن الأثير، الكامل، ج10، ص158.

البنداري، سنا البرق، ص314. أبو شامة، الروضتين، ج3، ص396. ابن واصل، مفرج الكروب، ج2، ص317.

يوسف، العرب، ص263. شلبي، القضية التاريخية للقدس، ص44. عن منطقة معبد سليمان انظر: Marino

Sanutos, Secrets for True Crusaders to help them to recover the Holy Land, Trans.by

بل تعداه الى الأماكن التعليمية، فقد قام الصليبيون بتحويل المدرسة الشافعية إلى كنيسة أطلق عليها اسم كنيسة القديسة صندحنة⁽¹⁾ وهكذا تم احتلال المدينة المقدسة فعلم بذلك الأفضل فندم "حيث لم ينفعه الندم"⁽²⁾ ، وأرسل إلى الصليبيين الرسل يوبخهم على ما فعلوه⁽³⁾ فما كان منهم إلا أن واصلوا زحفهم نحوه حيث كان يعسكر بالقرب من عسقلان، ينتظر المدد البحري⁽⁴⁾ ليتجه بعد ذلك إلى القدس ويخلصها من الصليبيين⁽⁵⁾ "وقد فات الأمر"⁽⁶⁾.

وكان جزء من القوات الصليبية تحت قيادة تتكرر قد اتجه لاحتلال مدينة نابلس ولم يصادف صعوبات في تلك المهمة، لأن الخوف والقلق قد سيطر على سكان المدينة بعد سماعهم أخبار المذبحة الرهيبة التي تعرض لها سكان بيت المقدس فأرسلوا وفداً إلى الصليبيين يدعونهم لتسلم المدينة، فتسلمها تتكرر منهم في 25 يولييه تموز 1099م/5رمضان سنة 492هـ، أي بعد اجتياح القدس بنحو عشرة أيام⁽⁷⁾، ويبدو أن هذا عائدا لعدم وجود مقاومة شعبية، مما يدل على أن الكثير من أبناء المقاومة الشعبية في نابلس وغيرها من المدن قد سبق واتجهوا للقدس للدفاع عنها، وبسقوط القدس تقلصت المقاومة في كثير من المدن الفلسطينية والتي منها مدينة نابلس.

وبالعودة إلى الأفضل بن بدر الجمالي فقد واصلت القوات الصليبية زحفها لمباغته قواته⁽⁸⁾ قبل أن يتحرك إلى القدس ومن ثم يقوموا بمهاجمة عسقلان ويضربوا بذلك عصفورين بحجر واحد⁽⁹⁾، وفي الطريق إلى عسقلان ألفت القوات الصليبية القبض على مجموعة من الرعاة الذين كانوا يعتزمون نقل أخبار التحركات الصليبية نحو عسقلان

Aubrey Stewart, PPTS, Vol. XII, London 1896. Bernard the wise, How the city of = Jerusalem is situated, trans. By J.H.Bernard, PPTS, Vol. II, London 1893.P.12, The pilgrimage of Arculfus in the holy land, Trans. By J.R. Macepherson, PPTS, Vol. III, London 1896.P.68.

- (1) أبو الفداء، المختصر، ج1، ص29.
- (2) الأردني، أخبار الدول المنقطعة، ج1، ص230. ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج2، ص451.
- (3) ابن ميسر، المنتقى، ص67، ابن الأثير، الكامل، ج9، ص21، المقرئ، اتعاظ الحنفا، ج3، ص24.
- (4) ابن القلانسي، الذيل، ص137. سبط ابن الجوزي، ج1، ص125.
- (5) توديبود، تاريخ الرحلة، ص341. الصوري، الأعمال المنجزة، ج1، ص457.
- (6) ابن القلانسي، الذيل، ص137.
- (7) مجهول، أعمال الفرنجة، ص120. توديبود، تاريخ الرحلة، ص337. رنسيان، تاريخ الحروب، ج1، ص416.
- (8) البيشاوي، نابلس، ص47-48.
- (9) ذكر ابن الأثير بأن وصول جيش الأفضل إلى عسقلان كان سريعاً ولم يكن الأفضل على أهبة القتال وبأنه هو وقواته "قد أعجلهم الفرنج فهزموهم" الكامل، ج9، ص21.
- (9) ريمونداجيل، تاريخ الفرنجة، ص260-261.

فأجبروهم بعد أن استجوبوهم على الاعتراف بكافة المعلومات عن تحركات جيش الأفضل، المرابط في عسقلان وعن مدى استعدادهم⁽¹⁾، أما عن عدد الجيش الفاطمي فـ"لم يغامر الرعاة بتقدير حجم جيشهم تقديراً قاطعاً، لأنه يتزايد يوماً بعد يوم"⁽²⁾ كما يقول ريمونداجيل ولم تقتصر مقاومة هؤلاء الرعاة من العرب على رصد تحركات الجيش الصليبي، بل إنهم ساهموا في دعم الجيش الفاطمي وأفراد المقاومة الشعبية التي كانت تساند⁽³⁾ الجيش بالدواب والحيوانات اللازمة لهم⁽⁴⁾.

وفي 14 رمضان 492هـ/ الثالث عشر من أغسطس 1099م، وصلت القوات الصليبية إلى السهل القريب من عسقلان ودارت رحى المعركة التي شاركت فيها مجموعات من المقاومة الشعبية فهزم الجيش الفاطمي⁽⁵⁾، " وتمكنت سيوف الإفرنج من المسلمين فأنتى القتل على الرجل والمطوعة وأهل البلد وكانوا زهاء عشرة آلاف نفس"⁽⁶⁾، وهذا يدل على المشاركة الواسعة للمقاومة الشعبية الذين لجأ أفرادها بعد الهزيمة التي حاقت بهم إلى تسلق أشجار الجميز ليحتموا بها، فعمد الصليبيون إلى إحراق تلك الأشجار " حتى هلك من فيها، وقتلوا من خرج منها" على حد قول ابن الأثير⁽⁷⁾.

أغرى الانتصار الذي حققته القوات الصليبية في معركة عسقلان جودفري للقيام بحصار مدينة عسقلان بغية احتلالها وبالفعل " نازل الفرنج عسقلان وضايقوها"⁽⁸⁾ فنهض سكانها للدفاع عنها في مقاومة شعبية لا مثيل لها، إذ استشهد نتيجة صد هذا العدوان " من

(1) ريمونداجيل، تاريخ الفرنجة، ص 261. وانظر: توديبود، تاريخ الرحلة، ص 337.

(2) ريمونداجيل، تاريخ الفرنجة، ص 261.

(3) ذكر ابن القلانسي بأن عسقلان من في الأعيان والتجار والأحداث قد شاركوا في التصدي للقوات الصليبية إلى جانب جيش الأفضل والدفاع عن عسقلان وهذا دليل على المشاركة الشعبية في المقاومة. انظر: ابن القلانسي، الذيل، ص 137؛ سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج 1، ص 327.

(4) ريمونداجيل، تاريخ الفرنجة، ص 361.

(5) ابن القلانسي، الذيل، ص 137. الأزدي، أخبار، ج 1، ص 230. ابن الطوير، نزهة المقلتين، ص 3-5. ابن الأثير، الكامل، ج 9، ص 21. ابن ميسر، المنتقى، ص 66-67. سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج 1، ص 325. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج 5، ص 148. الشارترى، تاريخ الحملة، ص 141 Raould de Caen, Gesta Tancredi P703.

(6) ابن القلانسي، الذيل، ص 137.

(7) ابن الأثير، الكامل، ج 9، ص 21. توديبود، تاريخ الرحلة، ص 340. الشارترى، تاريخ الحملة، ص 141. سبط ابن

الجوزي، مرآة الزمان، ج 1، ص 325.

(8) ابن الأثير، الكامل، ج 9، ص 21. وانظر: ابن القلانسي، الذيل، ص 137.

أهل عسقلان من شهودها وتثاتها⁽¹⁾ وتجارها وأحداثها سوى أجنادها ألفان وسبعمائة نفس⁽²⁾ وأمام هذا الصمود الشعبي قرر الصليبيون رفع الحصار عن المدينة بعد " أن قرروا عليها عشرين ألف دينار تحمل إليهم"⁽³⁾ كما يقول ابن القلانسي، أما رواية ابن الأثير فذكرت بأن المبلغ الذي قرر على أهل عسقلان هو اثني عشر ألف دينار، وذكر المبلغ الثاني دون أن يرجح أحدهما⁽⁴⁾ وأنا أرجح رواية ابن القلانسي المتوفى سنة 555هـ/1160م لأنه الأقرب للحدث من ابن الأثير المتوفى سنة 630هـ/1233م.

لكن الخلاف الذي وقع بين كل من ريموند الصنجيلي وجودفري البويوني، حيث خشي الأخير من تأسيس ريموند إمارة لنفسه على الساحل فيحرم مدينة بيت المقدس المحتلة من شواطئها الطبيعية على البحر⁽⁵⁾ كان لصالح أهل عسقلان الذين شرعوا في جباية الأموال لتسليمها للقوات الصليبية نظير فكها الحصار عن مدينتهم، وعندما علم أهل عسقلان بوقوع الخلاف بين قادة الجيش الصليبي وانسحاب الجزء الأكبر⁽⁶⁾ من هذا الجيش اشتدت مقاومتهم مما أدى إلى رحيل هذه القوات بعد شهرين من الحصار⁽⁷⁾ وفي الوقت نفسه حدث خلاف بين وجوه ومشايخ وأعيان البلد حول شرعية هذا المال فرحل الصليبيون " ولم يقبضوا من المال شيء"⁽⁸⁾.

اتجهت القوات الصليبية بعد فشلها في الاستيلاء على عسقلان بسبب المقاومة الشعبية التي واجهتها تلك القوات إلى الشمال من يافا المحتلة حيث أرسوف لاحتلالها⁽⁹⁾ وتكون بعد

(1) تثاتها: بمعنى ساكنيها وقاطنيها، يقال تثأ بالمكان يتأ: أقام وقطن. ابن منظور، لسان العرب، ج1، ص40، وقد

أوردها السبط خطأ بأنها بناتها، سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج1، ص327.

(2) ابن القلانسي، الذيل، ص137. انظر: سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج1، ص327.

(3) ابن القلانسي، الذيل، ص137.

(4) الكامل، ج9، ص21.

(5) Raoul de Caen (Hist. Occid, III) P 703, Hagenmeyer : Chronologie, no.,P435, Albert d.

(6) Aix, Historia , P 497. فنك، تأسيس الإمارات، ص67.

(7) ذكر ألبرت دكس Albert of Aix أن نحو عشرين ألفا ساروا مع ريموند والقادة الذين معه أما جودفري وتانكرد

للذان ظلا محاصرين لعسقلان فلم يتبق معهما إلا ألف و مائتي فارس وألف من المشاة. ينظر: Albret d.

(8) Aix, Historia , P 503. فنك، تأسيس الإمارات، ص67.

(9) Hagenmeyer : Chronologie de La Premiere Croisade, Albret d. Aix . p, 496

497

(8) ابن القلانسي، الذيل، ص137.

(9) كانت المرة الأولى التي فرض فيها الحصار على المدينة في مايو 1099م أثناء مرور الحملة الصليبية الأولى

المتجهة نحو القدس، ينظر ص ، من البحث

ذلك المنفذ البحري الثاني للإمارة الناشئة في القدس إلى جانب الميناء الأول لها وهي مدينة يافا وخاصة بعد فشل الحصول على منفذ بحري جنوب يافا يتمثل بعسقلان، وقد ظن جودفري خطأ أن مدينة أرسوف سهلة المنال و يمكن أن استسلامها له بعد أن يعطيها الأمان إذا سلموا له المدينة، ولكنه كما يذكر ألبرت دكس " وجدهم يقاتلون ويقاومون، تماماً مثل العسقلانيين"⁽¹⁾، وبذلك فشل حصار القوات الصليبية لأرسوف وذلك في 5 شوال 492هـ/أغسطس 1099م ولكي يتخلص أهالي أرسوف من حصار جودفري لمدينتهم قرروا أن يحتالوا عليه ويظهروا له الصداقة والمودة، فعرضوا عليه مبلغ من المال وتسليمه بعض الرهائن الذين تم خطفهم خلال حصار الصليبيين للمدينة⁽²⁾، وحتى يضمنوا تنفيذ جودفري لهذا الاتفاق طلبوا منه تسليم حارسه الشخصي كرهينة، فوافق جودفري وانسحب من حول سور المدينة في شوال 492هـ⁽³⁾/أغسطس 1099م، وحين ضمن أهالي المدينة انسحاب القوات الصليبية، أطلقوا سراح ما لديهم من رهائن، وأطلق جودفري ما لديه من رهائن، وعاد بقواته إلى بيت المقدس مع بقاء حارسه الخاص رهينة لديهم، وأخذوا بالاستعداد تحسباً لهجوم آخر، ورفضوا تسليم مبلغ من المال - الجزية- والرهينة المحتجز، فعادت إليهم القوات الصليبية هذه المرة في صفر 493هـ/ديسمبر 1099م بحملة مجهزة بجميع الآلات الحربية أبراج ومنجنيقات وفرض حصاراً ثالثاً أشد من الثاني، فما كان من المقاومة في أرسوف إلا أن قامت بشد وثاق الرهينة الصليبي وعلقته على إحدى الصواري على قمة أحد الأبراج مما أدى إلى مقتله بسهام القوات الصليبية المهاجمة⁽⁴⁾، واشتدت مقاومة الأهالي للهجوم الصليبي "وقاوم سكان المدينة بشراسة"⁽⁵⁾ ونجحوا في تدمير البرجين اللذين صنعهما الصليبيون بعد قذفها بالنار الإغريقية، وساهمت العوامل الجغرافية حيث الأمطار الغزيرة⁽⁶⁾، إضافة إلى المقاومة الباسلة التي أبداها الأهالي في انسحاب القوات الصليبية مخذولة مدحورة وذلك في 30 محرم 493هـ/ 15 ديسمبر 1099م.

(1) Albert d. Aix, op, cit, p 498

(2) الشارترى، تاريخ الحملة، ص170.

(3) Albert d, Aix. op cit. P499

(4) Grousset. R. Historia Vol 1. P. 182

(5) Albert.d. Aix. Historia, PP. 507-511; Grousset.R. Historia Vol 1.p. 182

المنجزة، ج1، ص494. رنسيان، تاريخ الحروب، ج1، ص434-435.

(6) Albert.d. Aix. , op, cit, PP. 507-511.

والسبب كما ذكر ألبرت دكس⁽¹⁾ وغيره⁽²⁾ هو المقاومة الشديدة من أهالي تلك المدينة الفلسطينية إضافة إلى أنها " كانت جيدة الدفاع بمقاتلين شجعان مدربين على استخدام السلاح فضلاً عن أنها كانت مزودة بالطعام والأشياء الأخرى الضرورية لإعالتهم"⁽³⁾، وانسحبت القوات الصليبية تاركة حامية صغيرة في مدينة الرملة المحتلة القريبة من أرسوف، والتي قامت بين الحين والآخر بعدة توغلات داخل الأراضي و المناطق المحيطة بأرسوف، وكانت تلك القوات تلوح بين الحين والآخر بإمكانية مهاجمة المدينة مرة أخرى، وانتقاماً للمقاومة الشعبية الباسلة التي أبدتها مدينة أرسوف قامت تلك القوات المغادرة في ربيع الآخر 493هـ/ فبراير 1100م⁽⁴⁾ بمهاجمة عشرات المزارعين من أهالي المدينة، الذين خرجوا لمباشرة عملهم في المزارع والحقول المحيطة بمدينتهم والتي تبعد نحو ميل منها وكانوا عزلاً من السلاح، وأعملوا فيهم السيوف وتركوهم "تصف أحياء بعد أن جزعوا أنوفهم وقطعوا أيديهم وأرجلهم"⁽⁵⁾، ثم عادوا إلى القدس ومعهم زوجات وأبناء المصابين⁽⁶⁾. ويبدو أن الهاجس الأمني المسيطر على تلك القوات لم يجعلهم يهتئوا لحظة واحدة وظنوا أن المزارعين الذين خرجوا لممارسة عملهم اليومي قد خرجوا لمهاجمتهم، لأن أهالي أرسوف كثيراً ما دأبوا على مهاجمة الصليبيين متى أتحت الفرصة، وهذا ما ذكره الشارترى⁽⁷⁾ حين قال بأن " حصن أرسوف كان مصدر ضيق لنا، وكان سكانه يقتلون كثيرين من أهلنا ويسببون لنا الأسى والبؤس، وكان يشكل خطراً شديداً" ، على مدينة القدس المحتلة التي لا تبعد كثيراً عن أرسوف ولا يفصل بين المدينتين إلا مدينة الرملة التي لم تكن محصنة أو محاطة بالأسوار، ولم يكن بها إلا حامية صغيرة من القوات الصليبية التي نادراً ما يستقر ثم تعود إلى مقرها الرئيسي في القدس المحتلة.

ويلاحظ أن ما ذكره الشارترى وهو أحد المعاصرين للحملات الصليبية، ما هو إلا تبرير للأعمال الوحشية التي لا تمت للإنسانية بصلة والتي قام بها الصليبيون ضد أهالي أرسوف، مدعياً كما فهمنا من روايته أن ما قام به الجنود الصليبيين ما هو إلا دفاع عن

(1) Ibid P 498.

(2) الشارترى، تاريخ الحملة، ص 169.

(3) الصوري، تاريخ الحروب، ج 1، ص 494-495.

(4) Albert.d. Aix, op, cit, PP.511-512; Grousset.R. Historia Vol 1.p. 182 (4)

الحروب، ج 1، ص 435.

Albert.d. Aix. , op, cit, P. 513.(5)

Ibid p 513. (6)

(7) الشارترى، تاريخ الحملة، ص 169.

النفوس. إلا أن هذا الادعاء الذي أورده الشارترى لا يمكن أن يصمد بأي حال من الأحوال أمام الحقيقة التاريخية من أن هؤلاء المزارعين كانوا عزلاً من السلاح، يعملون بزراعة الأرض، وإلا لدافعوا عن أنفسهم أو هربوا على الأقل من أجل عدوهم، غير أن الصليبيين كانوا محبين لسفك الدماء البريئة، ووجدوا من يدافع عنهم من المؤرخين مساندين لهم.

ولما رأى أهالي أرسوف الخطر الصليبي المحقق بمدينةنتهم، واستمرار التوغل الصليبي في أراضيهم وما ينتج عنه قرروا الاستجداء بالسلطة الرسمية في القاهرة حيث الخلافة الفاطمية والتي كانت أرسوف تتبعها فاكتفى الأفضل بإرسال مدد بحري مكون من ثلاثمائة جندي في 16 ربيع الآخر 493هـ/28 فبراير 1100م⁽¹⁾، وعندما علم أهل أرسوف بالرد الفاطمي الإيجابي نتيجة استغاثتهم، ارتفعت الروح المعنوية لديهم وقرروا القيام بعمليات انتقامية رداً على التوغل الأخير للقوات الصليبية " وكانوا يخرجون بكل الأسلحة إلى الحقول"⁽²⁾ ولكن يبدو أن الصليبيين علموا بخبر السفارة التي أرسلت لطلب النجدة من مصر، فقامت القوات الصليبية في ربيع الآخر 493هـ/ مارس سنة 1100م بنصب عدة كمائن للمقاومة من أهالي أرسوف الذين خرجوا من المدينة، وهاجموها فرد عليهم المقاومون من أهل أرسوف في معركة غير متكافئة أدت إلى هزيمتهم ومن معهم من القوات الفاطمية الضعيفة وأدرك بعدها أهل أرسوف أنهم كالمستجير من النار بالرمضاء، وأنهم بمفردهم ودون سند رسمي يدعمهم، لا طائل من مقاومتهم للقوات الصليبية النظامية وقرروا من منتصف جمادى الأولى 493هـ/ أواخر مارس 1100م إعلان التبعية للصليبيين بدفع جزية مالية كدليل على ذلك⁽³⁾.

أما إقليم الجليل⁽⁴⁾ والذي تأخرنا قليلاً في الحديث عن المقاومة فيه ومن ثم احتلاله، فإنه بعد انتصار الصليبيين في عسقلان في الحادي والعشرين من رمضان 492هـ/ الحادي

(1) Albert.d. Aix. Historia, P.512-513.; Hagen meyer, H. Chronologie. Vol. VI, P.323

(2) Albert.d. Aix, op, cit, P. 513.

(3) Ibid, P. 513-514

(4) شمل إقليم الجليل آنذاك كل المنطقة الواقعة ما بين نهر الليطاني شمالاً حتى جبال نابلس جنوباً، ومن بحيرة طبرية شرقاً إلى مدن (صور، عكا، حيفا) على البحر المتوسط غرباً ومن أهم مدنه: طبرية والناصرية، وصفد، وبيسان، وتبينين، وصفورية. انظر: السيد، إمارة الجليل، ص46-47، 58. والجدير بالذكر أن إقليم الجليل كان قبيل وصول الصليبيين محل نزاع بين نقاق أمير دمشق، والفاطميين الذين احتفظوا به من محاولات نقاق لسيطرة عليه رغم هزيمتهم أمام الصليبيين. انظر: Raoul de Caen, III. P. 703. الصوري، الأعمال المنجزة، ج، ص463. رنسيان، تاريخ الحروب، ج1، ص429. عاشور، الحركة، ج1، ص251-252، العلاقات، ص211-212. البيشاوي، نابلس، ص49.

عشر من أغسطس 1099م، وعودة جودفري ومعه تتكرد إلى القدس في أغسطس 1099م/22 رمضان 492هـ، أوعز جودفري إلى تتكرد بالاتجاه شمالاً لاحتلال إقليم الجليل، بينما يتجه هو للسيطرة على أرسوف، وبالفعل اتجه تتكرد بقواته إلى الجليل ووصل إلى طبرية عاصمة الإقليم، لكن أهلها من المسلمين لم يتصدوا لهم، ولم يقاوموهم وإنما هربوا شمالاً إلى دمشق وضواحيها، فلم يجد تتكرد من يعترض طريقه، ليصل بعد ذلك إلى الناصرة⁽¹⁾، التي دخلها هي الأخرى دون مقاومة، ثم إلى جبل طابور⁽²⁾، ليتجه بعدها إلى بيسان في الجنوب الشرقي من الإقليم ويدخلها بدون مقاومة⁽³⁾.

ويبدو أن الصراع المستمر بين دمشق والفاطميين حول الإقليم، قد أنهك الأهالي في ذلك الإقليم مما جعلهم يملون من كثرة الحروب والنزاعات ففضلوا النزوح والهجرة، بدلاً من المقاومة التي لا تجدي في ظل الصمت من حكام دمشق والقاهرة وبغداد، وخاصة أنهم قد سمعوا بأخبار المذابح والمجازر التي وقعت في أنطاكية والمعرة ومن ثم القدس⁽⁴⁾.

قررت القوات الصليبية بعد ذلك احتلال مدينة عكا التي كان يحكمها زهر الدولة الجيوشي قد وعد بتسليمها فور احتلال الصليبيين لبيت المقدس، غير أنه لم يوف بوعدته ويبدو أنه استغل فترة حصار الصليبيين لمدينة القدس فعمد إلى تحصين المدينة وتقويتها، وشحذ همم السكان فيها لمقاومة أي هجوم صليبي والتصدي له، كما أن أهالي المدينة - كما يبدو - قد تلقوا وعداً من الدولة الفاطمية التي كانت عكا تتبع لها، بالناصره والمساعدة المادية والمعنوية⁽⁵⁾.

(1) الناصرة: مدينة فلسطينية تقع إلى الشمال من مدينة القدس بنحو 70 ميلاً (141 كم)، وهي إلى الشرق من طبرية، انظر: القزويني، آثار البلدان، ص 277. الدباغ، بلادنا فلسطين، ج 1، ق 2، ص 170. البيشاي، نابلس، هامش 246، 68.

(2) جبل طابور Tabor: يعرف الآن بجبل الطور، يقع في إقليم الجليل، إلى الشرق من مدينة الناصر نحو أربعة أميال ويطل على مرج ابن عامر، ويبلغ ارتفاعه نحو 588م عن مستوى سطح البحر، وقد وصفه الرحالة الروسي دانيال بأنه من عجيب صنع الله. انظر: دانيال الراهب، الرحلة، ص 122-123. الشابشتي، الديارات، ص 132. البغدادي مراصد الإطلاع، ج 2، ص 896. ابن الفرات، تاريخ، مج 5، ج 1، ص 123-124.

(3) Roul. de, Caen, Gesta Tancredi, 111, PP. 703-704; Albert d, Aix. Historia, PP. 517-518; (4) Grousset. R. Historia, Vol.1, PP 179-180; ولليم الصوري، الأعمال المنجزة، ج 1، ص 463.

رنسيان، تاريخ الحروب، ج 1، ص 429. البيشاي، الممتلكات، ص 68-69. عاشور، الحركة الصليبية، ج 1، ص 251-253. العلاقات، ص 212. الدويكات، إقطاعية طبريا، ص 93-95.

(4) انظر: الدجاني، القاضي، ص 3-4. الدويكات، إقطاعية طبريا، ص 94.

(5) سلامة، عكا، ص 46.

زحفت القوات الصليبية البرية، والبحرية التي كانت تتألف من مائتي سفينة بندقية⁽¹⁾ من ميناء يافا في 17 رمضان 493هـ/ يوليو (تموز) 1100م، لفرض الحصار البري والبحري على المدينة حتى يسهل الاستيلاء عليها⁽²⁾، وما أن نصبت الخيام الصليبية قبالة عكا حتى وصل نبأ وفاة جودفري بويون ملك القدس المحتلة في 9 رمضان 493هـ/ 17 يوليو (تموز) 1100م في اليوم الثاني لوصول الصليبيين⁽³⁾، وأدى ذلك إلى تأجيل الزحف نحو عكا وكفى الله المؤمنين القتال، وقد ذكر ابن الأثير غير ذلك وهو أن جودفري حاصر عكا " فأصابه سهم فقتله"⁽⁴⁾ وروايته تدلل على وقوع الحصار وحصول مقاومة أدت إلى إصابة جودفري ثم وفاته.

واستغل تنكرد تلك الظروف وكان يطمع في إيجاد منفذ بحري لإمارته في إقليم الجليل فقرر اجتياح حيفا واحتلالها، والتي كان من المقرر مهاجمتها قبل عكا⁽⁵⁾، واستطاع إقناع كل من حوله من الزعماء البارزين لتحقيق تلك الغاية، ويحول أنظارهم لاحتلال حيفا بدل من عكا وبرر غايته الشخصية تلك بأهمية حيفا كمنفذ بحري لبيت المقدس إلى جانب ميناء يافا فوافق الجميع على خطة تنكرد الذي سار بقواته نحو حيفا وفرض عليها حصاراً برياً شديداً⁽⁶⁾، أما السفن البندقية فقد حاصرت المدينة من جهة البحر⁽⁷⁾، وذلك في شوال 493هـ/ أغسطس 1100م⁽⁸⁾، وقد تصدى سكان المدينة للهجوم الصليبي، واستطاعت تلك المقاومة الشعبية الفردية المشتركة والتي لم تسهم فيها الدولة الفاطمية إلا بحامية صغيرة⁽⁹⁾

(1) صبرة، العلاقات، ص 20. عاشور، العلاقة بين البندقية والشرق، ص 102. رنسيان، تاريخ الحروب، ج 1، ص 440. سلامة، عكا، ص 46، والبندقية ميناء إيطالي على رأس البحر الأديراتيكي انظر: دائرة المعارف الحديثة، ج 1، ص 380.

(2) Benvnisti. The Crusaders, PP. 79-80

(3) Albert d, Aix, Historia, P520; Benvenisti. The Crusaders, P. 80 ج 1، ص 446، والجدير بالذكر أن السفن البندقية قد تأخرت في الوصول إلى عكا، وكانت القوات البرية أسرع في الوصول منها، وذلك بسبب الرياح الشمالية التي أعاققت وصول تلك السفن. انظر: رنسيان، تاريخ الحروب، ج 1، ص 442، 446.

(4) الكامل، ج 9، ص 43. سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج 1، ص 366. ابن كثير، البداية والنهاية ج 2، ص 160.

(5) Albert, Aix. Historia, P519-520 CF also: Hagenmeyer. Chroniogie de La Premire V1, PP. 326-328; Benveniste, The Crusaders, P.79.

(6) Hagenmeyer. Chroniogie de La Premire V1, PP. 354; Benveniste, The Crusaders, P.80.

(7) رنسيان، تاريخ الحروب، ج 1، ص 447.

(8) رنسيان، تاريخ الحروب، ج 1، ص 447. سلامة، عكا، ص 47.

(9) Albert d, Aix, Historia. PP. 522-523 ; Transiltio Sanctic Nicolica, PP, 276-278; Grousset, (9) Histoira P. 200 . انظر كذلك: رنسيان، تاريخ الحروب، ج 1، ص 447.

أن ترد أكثر من محاولة صليبية لاجتياح المدينة⁽¹⁾ واستطاع أفراد المقاومة الشعبية الذين تصدوا للهجوم البحري من جهة خليج حيفا تدمير إحدى السفن البندقية المشاركة في الحصار، وأجبروا باقي السفن على التراجع⁽²⁾.

وينفرد ابن شداد الحلبي⁽³⁾ بالقول بأن الرجال في مدينة حيفا قاموا بقتل عائلاتهم من الأطفال والنساء ثم شرعوا بفتح أبواب المدينة " وخرجوا بالسلاح، وقاتلوا من عليها من الفرنج، حتى قتلوا عن آخرهم، ودخل الفرنج المدينة فوجدوهم، قد قتلوا أولادهم ونساءهم"، وواضح أن هذه الرواية غير صحيحة من عدة وجوه، الوجه الأول: هو انفراد ابن شداد الحلبي وهو متأخر عن ابن القلانسي، وابن الأثير وغيرهم في إيراد تلك الرواية، ولو كانت صحيحة لوجدنا المؤرخين السابقين وغيرهم من المؤرخين الذين أتوا بعدهم قد تناقلوها. والوجه الثاني: هو أن مثل هذا العمل الذي كان ينوي أفراد المقاومة تنفيذه منافي لتعاليم الإسلام الذي يحرم الانتحار، أو قتل الأطفال والنساء بسبب أو لآخر، كما أن مثل هذا العمل من شأنه أن يحطم معنويات أفراد المقاومة الشعبية، ولا يزيدهم إلا يأساً.

ومهما يكن من أمر فإن القوات الصليبية استطاعت اجتياح المدينة عنوة⁽⁴⁾، عقب سقوط البرج الرئيس للسور في 13 شوال 492هـ/20 آب (أغسطس) عام 1100م⁽⁵⁾ بعد مقاومة باسلة شديدة من سكان المدينة.

وخلافًا لما أورده ابن شداد الحلبي، فقد ذكرت المصادر الأجنبية بأن بعض سكان المدينة وهم قلة استطاعوا الهرب إلى المدن المجاورة مثل قيسارية وعكا، لكن الغالبية العظمى من السكان قد تم قتلهم دون رحمة⁽⁶⁾، وبذلك سقطت حيفا كغيرها من المدن الإسلامية في بلاد الشام بعد مقاومة شديدة من سكانها الذين وقفوا وحيدين أمام الهجمة

(1) رنسيان، تاريخ الحروب، ج1، ص447. البيشواوي، المقاومة، ص3.

(2) ; Transiltio Sanctic Nicolii, PP, 276-278; Grousset, - Albert d, Aix, Historia. PP. 522-523

Histoira P. 200 انظر كذلك: رنسيان، المرجع السابق، ج1، ص447.

(3) الأعلام الخطيرة، ج2، ق2، ص177.

(4) ابن الأثير، الكامل، ج9، ص43، وقد نكر ذلك في حوادث سنة 494هـ. ياقوت، معجم البلدان، ج2، ص332؛

سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج1، ص368. ابن شداد الحلبي، الأعلام الخطيرة، ج2، ق2، ص177، ويورد

الحدث في سنة 494هـ، بينما نكر الذهبي بأن الصليبيين ملكوا حيفا بالأمان. انظر: سير أعلام النبلاء، ج19،

ص405.

(5) رنسيان، تاريخ الحروب، ج1، ص447. البيشواوي، المقاومة، ص3.

(6) ; Transiltio Sanctic Nicolii, PP, 276-278; Grousset, Albert d, Aix, Historia. PP. 522-523

Histoira P. 200. ينظر كذلك: رنسيان، تاريخ الحروب، ج1، ص447.

الصليبية، ولم تحرك الدولة الفاطمية ساكناً وتركت السكان ومعهم حامية صغيرة من القوات الفاطمية، يقاتلون ويقاومون حيفا واحداً كأنهم بنيان مرصوص مما دعم صمودهم وساهم في إلحاق خسائر فادحة في صفوف القوات المحاصرة، غير أن تلك المقاومة لم تقف حائلاً دون سقوط المدينة بين براثن المحتل الصليبي الغاصب.

وعلى الجبهة الشمالية من بلاد الشام، لم تتوقف المقاومة الشعبية عن العمل على صد العدوان الصليبي، ففي شهر رجب من نفس العام الذي احتلت فيه حيفا أي عام 493هـ/مايو 1100م هاجمت القوات الصليبية بقيادة بوهيمند أمير أنطاكية مدينة أفامية "فحاصروها، وقاتل أهلها أياماً"⁽¹⁾، غير أنه وبسبب المقاومة الشديدة من أهالي المدينة لم يستطع احتلالها فـ"رحل عنها"⁽²⁾، بعد أن أفسد ما حول المدينة من الأراضي الزراعية والحقول⁽³⁾، وهنا تبدو سياسة المحتل واضحة جلية في سعيه الدائم والمستمر لنشر الخراب والفساد وتدمير الاقتصاد من خلال الإضرار بمصدر الرزق الأساسي للسكان ألا وهي الأراضي الزراعية، وهي نفس السياسة التي يتبعها الاحتلال الإسرائيلي اليوم في الأراضي الفلسطينية المحتلة من خلال تجريف الأراضي الزراعية، وتدمير البنية التحتية، والعمل على الأضرار بالاقتصاد الوطني الفلسطيني، كل ذلك من أجل تركيع الشعب المحتل، وإسكات المقاومة.

وقد حاولت الدولة الفاطمية استدراك الوضع الخطير في المدن الساحلية التي تتهاوى الواحدة تلو الأخرى، وحماية المدن التي ما تزال تدين بالتبعية لها، فقامت بإرسال حملة عسكرية استطاعت الوصول إلى مدينة الرملة في ذو القعدة 494هـ/ سبتمبر (أيلول) 1100م⁽⁴⁾، أي عقب سقوط مدينة حيفا بيد الصليبيين.

وقد علم بأخبار تلك الحملة الفاطمية، بلدوين الأول الملك الجديد لبيت المقدس المحتل فخرج بقواته واشتبك معها في معركة قوية عرفت بمعركة الرملة الأولى، والتي كان من أهم نتائجها هزيمة الجيش الفاطمي وازدياد عزم بلدوين الأول على استكمال خطة سلفه جودفري القاضية باحتلال المدن الساحلية التي كانت ما تزال تدين بالتبعية للدولة الفاطمية، واستطاعت المقاومة الشعبية فيها أن ترد أكثر من محاولة صليبية لاحتلالها، وفعلاً اتجه بلدوين بقواته

(1) ابن الأثير، الكامل، ج9، ص125.

(2) المصدر نفسه، ج9، ص125.

(3) المصدر نفسه، ج9، ص125.

(4) الشارثري، تاريخ الحملة، ص108.

لاحتلال تلك المدن، وكانت وجهته الأولى مدينة أرسوف التي طالما استطاعت المقاومة الشعبية فيها صد أكثر من حملة قامت بها القوات الصليبية تحت قيادة جودفري البويوني. فرضت القوات الصليبية الحصار على تلك المدينة في جمادى الأولى 494هـ/ نيسان (ابريل) 1101م براً، وبحراً⁽¹⁾ بمساعدة الأسطول الجنوبي الذي كانت ترسو سفنه في ميناء يافا⁽²⁾، واستطاع سكان المدينة الصمود والمقاومة ثلاثة أيام متواصلة بكل ما أوتوا من قوة وما توفر لهم من وسائل إلى حد القتال والعراك بالأيدي، واستطاعت المقاومة تدمير أحد الأبراج الخشبية التي استخدمها الصليبيون في الحصار، والذي تم تحويله إلى قطعاً صغيرة أدت إلى مقتل وجرح ما يقارب المائة جندي صليبي⁽³⁾، "ولكن عندما تأكد لسكان المسلمون أنهم لن يستطيعوا الدفاع عن أنفسهم بأي وسيلة"⁽⁴⁾ فضلاً عن تخلي الدولة الفاطمية عن مساعدتهم، قرروا التفاوض مع بلدوين الأول على تسليم المدينة مقابل الحصول على الأمان، والرحيل إلى عسقلان بأهلهم وأموالهم، فوافق الملك على ذلك⁽⁵⁾. وهكذا سقط حصن أرسوف الذي طالما قاوم القوات الصليبية " وكان سكانه يقتلون كثيرين من أهلنا" على حد تعبير الشارترى⁽⁶⁾.

ومن أرسوف بعث بلدوين الأول برسالة تهديد ووعيد إلى أهالي قيسارية يطالبهم فيها بتسليم المدينة، وإلا كان عليهم أن يتحملوا حصارها، فإذا ما خضعت بالقوة فسيتم قتل كل من يوجد فيها". فرد عليها أهل المدينة برسالة قصيرة جداً قالوا فيها " هيهات لنا أن نسلم بأنفسنا مدينتنا إلى قبضة ملك الصليبيين بينما نسعى إلى التحرر من قبضة ملك مصر في أقرب وقت ممكن"⁽⁷⁾ فما كان من القوات الصليبية إلا أن زحفت نحو المدينة لاحتلالها بالقوة وذلك في 2 رجب 494هـ/ 2مايو (أيار) 1101م وفرض عليها حصاراً شديداً من البر، والبحر حيث رست سفن من بيزا وجنوة لتشارك في الحصار البحري⁽⁸⁾.

(1) الشارترى، تاريخ الحملة، ص 169.

(2) الفيتري، تاريخ بيت المقدس، ص 31؛ انظر كذلك: فنك، تأسيس الإمارات، ص 76.

(3) الشارترى، تاريخ الحملة، ص 170.

(4) المصدر نفسه، ص 169.

(5) المصدر نفسه، ص 169. ابن القلانسي، الذيل، ص 139. ابن الأثير، الكامل، ج 9، ص 43. النويري، نهاية الإرب، ج 28، ص 260؛ رنسيمان، تاريخ الحروب، ج 2، ص 120. وقد أخطأ ياقوت في كتابه معجم البلدان، ج 1، ص 151. حين ذكر أن الملك الصليبي الذي احتل أرسوف عام 494هـ/ 1101م هو جودفري وليس بلدوين الأول.

(6) تاريخ الحملة، ص 169.

(7) ابن القلانسي، الذيل، ص 139. الفيتري، تاريخ بيت المقدس، ص 32. Albert d, Aix. Historia, p 543.

(8) الشارترى، تاريخ الحملة، ص 170. Albert d, Aix. Historia, p 543.

وقد عززت القوات الصليبية نفسها بكافة أنواع الأسلحة وآلات الحصار للمساعدة في قصف المدينة و أسوارها ودفاعاتها الشاهقة التي ساهمت في تأخير سقوط المدينة⁽¹⁾ وحماية السكان؛ ولـ "إثارة رعب المواطنين"⁽²⁾ والحط من معنوياتهم ومن ثم إضعاف مقاومتهم لهم.

وعند وصول تلك القوات إلى قيسارية شرعت في تنفيذ السياسة القديمة- الحديثة في اقتلاع وتدمير الغابات والأراضي الزراعية المحيطة بالمدينة بحجة إطلاق أفراد المقاومة الشعبية لسهامهم القاتلة باتجاه القوات الصليبية من خلال نصب الكمائن بين الأشجار الكثيفة في تلك الغابات⁽³⁾.

وبالرغم من كل الإجراءات التي اتخذها الصليبيون فقد "كان سكان المدينة يقاومون بعنف" استطاعوا مقاومتهم بشدة⁽⁴⁾ والدفاع "عن أنفسهم قدر طاقتهم"⁽⁵⁾ لمدة خمسة عشر يوماً⁽⁶⁾ من أيام الحصار 2 رجب 494هـ إلى 17 رجب سنة 494هـ / 2 مايو 1101م إلى 17 مايو سنة 1101، " وكانوا يشجعون بعضهم البعض"⁽⁷⁾ على الاستمرار في المقاومة ضد الغزاة لأن ذلك من واجبه الديني والوطني.

وخلال الحصار الخانق على المدينة لم تتوقف آلات الحرب والمنجنيقات عن قصف أسوار المدينة وبيوت المواطنين التي تصدعت وأصبحت آيلة للسقوط، ومن ثم قاموا بإسناد سلالهم إلى السور واجتاحوا المدينة فلم يستطع سكان المدينة وأهلها المقاومة أكثر مما قاوموا، فسقطت المدينة بعد مقاومة شعبية شديدة في يوم الجمعة 17 رجب 494هـ / 17 مايو (أيار) 1101م⁽⁸⁾،

Albert d, Aix. Historia, p 543 (1)

Ibid, p 543 (2)

Albert d, Aix. Historia, p 543(3)

(4) السوري، الأعمال المنجزة، ج1، ص495.

(5) الشارترى، تاريخ الحملة، ص170.

(6) Albert d, Aix. Historia, p 543. يقول السوري: "بقي سكان المدينة وجيشنا وهذا الصراع نحو خمسة عشر يوماً". الأعمال المنجزة، ج1، ص495.

(7) الشارترى، تاريخ الحملة، ص170.

(8) الشارترى، تاريخ الحملة، ص170-171. ابن القلانسي، الذيل، ص139. الفيتري، تاريخ بيت المقدس، ص32.

السوري، الأعمال المنجزة، ج1، ص496. انظر أيضاً: ابن الأثير، الكامل، ج9، ص43. سبط ابن الجوزي، مرآة

الزمان، ج9، ص368. أبو الفداء، المختصر، ج2، ص32. ابن شداد الحلبي، الأعلام الخطيرة، ج2، ق2،

ص251؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج19، ص405؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج5، ص167.

ودخلت القوات الصليبية قيسارية "وقتلوا أهلها"⁽¹⁾ في مذبحه لا تقل بشاعة عن سابقتها من المذابح بحيث لم ينج إلا عدد قليل من الرجال⁽²⁾.

أما النساء، فقد أبقى الصليبيون على حياة بعضهن " لأنهن يستطعن إدارة الطواحين اليدوية"⁽³⁾، وقاموا بالمتاجرة بهن فيما بينهم لاستغلالهن بالشكل الذي يرتأوه، كما قاموا بالمتاجرة بالرجال الأحياء وأبقوا على حياة من استطاع منهم افتداء نفسه بالمال مثل قاضي المدينة الذي نجى من القتل بأعجوبة بعد ما دفع فدية مالية كبيرة⁽⁴⁾.

وقد استطاع بعض أهالي قيسارية الاحتماء بجامع المدينة لكن الصليبيين لاحقوهم وذبحوهم داخل الجامع عن آخرهم حتى تحول الجامع إلى بركة كبيرة من الدماء⁽⁵⁾.

وانشغل قسم من القوات الصليبية بعمليات النهب والسرقه في المدينة " ونهبوا ما فيها"⁽⁶⁾ وقد شاهد الشارتري كيف أن عمليات النهب والسرقه لم تقتصر على الأحياء من سكان المدينة وعلى بيوتهم ومساكنهم بل تعدتها إلى الأموات الذين تم قتلهم بوحشية وحتى يسهل عليهم تفتيش جثث القتلى بسرعة وسهولة قاموا بتكويم تلك الجثث في كومة كبيرة ثم أحرقوها طمعاً في استخراج النقود التي كان يظن الصليبيون بأن المسلمين قد ابتلعوها أو خبئوها في حلوهم، " رغبة في ألا يأخذ الفرنج أي شئ يخصهم"⁽⁷⁾.

وفي نفس العام 494هـ / 1101م حاصر الصليبيون مدينة جبلة الساحلية التي قاومتهم، وبذل أهلها الكثير لرد القوات الصليبية عن مدينتهم، فقد تم حصار المدينة ثلاث مرات خلال سنة واحدة، ففي المرة الأولى حاصروا المدينة فقام أهلها وقاضيها ابن صليحة بخداع القوات الصليبية، وأشاعوا قدوم قوات سلجوقية من العراق لمساندتهم، فصدقوا ذلك ورحلوا عن المدينة، وعندما تحقق لهم انشغال السلاجقة عنهم عاودوا الحصار، فأشاع أهل

النويري، نهاية الإرب، ج28، ص261. انظر كذلك: Albert d. Aix. Historia, p. 543- CF, also:

.Benvenisti, The Crusaders, p. 80.

(1) ابن القلانسي، الذيل، ص139. ابن الأثير، الكامل، ج9، ص43. سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج1، ص168.

(2) الشارتري، تاريخ الحملة، ص171. وقد أورد ابن شداد الحلبي بأن الصليبيين عندما دخلوا قيسارية " قتلوا من بها من الرجال" الأعلق الخطيرة، ج2، ق2، ص250-251.

(3) الشارتري، تاريخ الحملة، ص171.

(4) المصدر نفسه، ص171. الصوري، الأعمال المنجزة، ج1، ص497. رنسيان، تاريخ الحروب، ج2، ص121.

(5) Albert d. Aix. Historia, p. 543-544. الصوري، الأعمال المنجزة، ج1، ص496-497. رنسيان،

تاريخ الحروب، ج2، ص121.

(6) ابن القلانسي، الذيل، ص139. انظر: ابن الأثير، الكامل، ج9، ص43.

(7) الشارتري، تاريخ الحملة، ص171.

جبله قدوم مساندة فاطمية لهم فخدعوا للمرة الثانية وفكوا الحصار عن المدينة، ثم عادوا، فقرر الأهالي بالتعاون مع نصارى المدينة تكبيد القوات الصليبية أكبر الخسائر حتى لا يعودوا مرة أخرى، فأوعز قاضي المدينة وحاكمها إلى أهل المدينة من النصارى بمراسلة الصليبيين والاتفاق معهم على التعاون من أجل تسليم المدينة، ويكون ذلك بأن يقوموا بمقابلتهم عند أبراج المدينة ليسلموه إليهم ومنه يقوموا باجتياح المدينة دون علم من أهل المدينة المسلمين، وقد تمت الخطة حسب ما رسم لها وانطلقت على الصليبيين الحيلة، فأرسلوا ثلاثمائة من القوات الخاصة لتسلم البرج من نصارى المدينة، وقد تسللوا وبشكل فردي حتى لا يراهم المسلمون "واحدًا بعد واحد، وكلما صار عند ابن صليحة وهو على السور رجل منهم قتله، إلى أن قتلهم أجمعين"⁽¹⁾ ثم قاموا أهل جبله باللقاء الرؤوس في الصباح الصليبيين الذين فروا مذعورين من هول ما رأوا، ثم عادوا الحصار بعد مدة ومعهم تعزيزات عسكرية وآلات حربية استطاعوا هدم أحد أبراج سور المدينة الذي لم يكن الصباح قد أصبح عليه حتى كان الأهالي قد بنوه أقوى مما سبق ليفوتوا الفرصة على القوات الصليبية اقتحام المدينة من ذلك البرج، ولم يدخر القاضي ابن صليحة وسعاً في تدبير الخطط العسكرية التي توقع أكبر خسارة ممكنة بالعدو، فأوعز إلى رجال المقاومة الشعبية بنقب السور عدة نقوب تتسع لخروج المقاومين، ثم قام بالخروج ومعه بعض أهل المدينة لقتال الصليبيين فقاتلهم ثم انحرف ناحية الباب ودخل المدينة فلقق به الصليبيون، فخرج إليهم رجال المقاومة الشعبية من "النقوب فأتوا الفرنج من ظهورهم فولوا منهزمين وأسر مقدمهم"⁽²⁾، غير أن الأهالي رغم المقاومة الشعبية الباسلة التي أبدوها للدفاع عن جبله، فأنهم قرروا أن يستعينوا بمن يحميهم من الهجمات الصليبية المتكررة على مدينتهم لأن المقاومة الفردية من وجهة نظرهم لا تفيد دون وجود عون عسكري رسمي، فأرسلوا إلى طغتكين حاكم دمشق ليتسلم منهم المدينة⁽³⁾.

ومما سبق ندرك أن المقاومة الشعبية لا تستطيع وحدها مجابهة العدو دون مساندة عسكرية رسمية تقابل القوات الصليبية المنظمة، غير أنه لا يمكن إنكار الدور الفاعل الذي لعبته المقاومة الشعبية في استنزاف قوى العدو وإضعافه، وإحاق الخسائر في صفوف

(1) ابن الأثير، الكامل، ج9، ص35.

(2) المصدر نفسه.

(3) المصدر نفسه.

جنوده، والحيل والخدع ضرورية جداً في هذا النوع من المقاومة التي لا تعتمد في الغالب على القتال وجهاً لوجه.

وهذا ما رأيناه في مقاومة أهل مدينة جبلة التي استطاعت الصمود على الرغم من حصار القوات الصليبية لمدينتهم أربع مرات، لم يتمكنوا خلالها من احتلالها⁽¹⁾، لتسقط في عام 502هـ/1109م بعد حصار طويل، لم تستطع مقاومته إذ كان "القوت فيها قليلاً"⁽²⁾، مما اضطر فخر الملك ابن عمار المعتصم فيها بعد سقوط إمارته طرابلس إلى تسليمها للقوات الصليبية المحاصرة في 22 ذي الحجة 502هـ / 22 يوليو 1109م⁽³⁾، ولا نعلم ما المصير الذي حل بالأهالي في جبلة، إذ يبدو أن تنكرد قد سمح لهم بالرحيل كما سمح لابن عمار الذي لجأ إلى طغتكين حاكم دمشق فأشفق عليه " وأقطع الزبداني وأعماله"⁽⁴⁾ لتصبح جبلة بعد ذلك جزءاً من إمارة أنطاكية الصليبية.

أما مدينة أنطرطوس (طرطوس) الساحلية فإن المسلمين استطاعوا تحريرها و إعادتها إلى أملاك إمارة طرابلس، التي كانت تتبع لها بعد عام من سقوطها في سنة 492هـ/ 1099م فعاودت القوات الصليبية بقيادة ريموند الصنجيلي حصارها في نهاية 494هـ/1101م، واشتدت مقاومة الأهالي لهذه الهجمة عن مقاومتهم الأولى إذ يبدو أنهم استوعبوا درس الاحتلال، ولم تسقط مدينتهم إلا بعد حصار بري، وبحري، بمساعدة الجنوبية، وقام الصليبيون "بقتل من بها من المسلمين"⁽⁵⁾، وذلك في جمادى الأولى 495هـ/ فبراير 1102⁽⁶⁾.

ومن أنطرطوس اتجهت القوات الصليبية نحو طرابلس لاحتلالها في جمادى الأولى 495هـ/ مارس 1102م، والغريب في الأمر أن هذه القوات لم تتجاوز الثلاثمائة جندي⁽⁷⁾،

(1) ذكر ابن تغري بردي أن جبلة سقطت في عام 494هـ/1101م وهو نفس العام الذي تحدثنا فيه عن هجمات الصليبيين ولم يورد أحد من المؤرخين هذه الرواية غيره، بالإضافة إلى أنه متأخر ومختص بأخبار مصر أكثر من الشام. انظر: النجوم الزاهرة، ج5، ص167.

(2) ابن الأثير، الكامل، ج9، ص137، وقد خلط بينها وبين مدينة جبيل الساحلية؛ وانظر: ابن القلانسي، الذيل، ص164؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج5، ص180.

(3) ابن الأثير، الكامل، ج9، ص137. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج5، ص180.

(4) ابن القلانسي، الذيل، ص165. وانظر: ابن الأثير، الكامل، ج9، ص137.

(5) أبو الفداء، المختصر، ج2، ص34.

(6) Albert d, Aix, Historia, p.583-584.

(7) Raoul . de, Caen, gesta Tancredi, 111, P 707. انظر كذلك: عاشور، الحركة الصليبية، ج1، ص356؛ العلاقات، ص292. سالم، طرابلس، ص91.

غير أنهم أثاروا رعب صاحب طرابلس ابن عمار، الذي أرسل إلى حكام وأمراء المدن المجاورة ليساندوه مع قدرة أهل طرابلس على هزيمة هذه الشردمة الصليبية كما سنرى، فأرسل إلى (ياخز) نائب جناح الدولة على حمص، وإلى الملك دقاق بن تتش في دمشق، الذي أرسل ألفي مقاتل، وكان ريموند من الذكاء والجرأة ما جعله يخصص لقوات (ياخز) خمسين جندي، ولقوات دقاق مائة، ومائة جندي آخرين لأهل طرابلس، وبقي هو في خمسين، أما (ياخز) و (دقاق) فلم تستطع قواتهما الصمود و"انكسروا عند المشاهدة وولوا منهزمين"⁽¹⁾، بينما قاوم أهل طرابلس تلك القوات، مع أن عدد الجنود الذين خصصوا لهم أكثر في مقابل الجنود الذين قاموا بمقاتلة قوات حمص ودمشق، وتجلت المقاومة الشعبية بوضوح في هذا الموقف حيث يذكر ابن الأثير ذلك الحدث الشعبي المثير بقوله: "أما أهل طرابلس فإنهم قاتلوا المائة الذين قاتلوهم"⁽²⁾ وعندما شاهد ريموند شدة المقاومة التي أظهرها الأهالي "حمل في المائتين الباقية فكسروا أهل طرابلس وقتلوا منهم سبعة آلاف رجل"⁽³⁾، ولم يكتف بذلك بل قام بفرض حصار خانق على المدينة وأتاه أهل الجبل⁽⁴⁾، فأعانوه على

حصارها وكذلك أهل السواد⁽⁵⁾ وأكثرهم نصارى فقاتل من بها أشد قتال فقتل من الفرنج ثلاثمائة⁽⁶⁾، ولم يكف ريموند عن المدينة إلا بعد أن دفع أهلها وحاكمها جزية من المال والخيول⁽⁷⁾ "فرحل عنهم"⁽⁸⁾ في جمادى الآخرة 495هـ/نيسان (إبريل) 1102م.

ومما سبق نستوضح بجلاء كيف استطاعت الهبة الشعبية أن تظفر بالقوات الصليبية، مع أن تسليحهم كان خفيفاً، فضلاً عن أنهم غير مدربين واعتمدوا على القتال الفردي وحرب العصابات، ومع ذلك فقد استطاعوا الصمود أمام قوات كانت على ثقة كبيرة بالنصر بعد هزيمتها للقوات الرسمية المسلحة والمدربة، والفرق يبدو واضحاً بين قوات

(1) ابن الأثير، الكامل، ج9، ص55.

(2) المصدر نفسه، ج9، ص55. انظر: ابن القلانسي، الذيل، ص141.

(3) ابن الأثير، الكامل، ج9، ص55.

(4) ويقصد بهم الموارنة وكانت تربطهم علاقة ودية مع الصليبيين منذ بداية الحملة الصليبية الأولى، انظر: سالم، طرابلس، ص91-92، 129.

(5) السواد: والمقصود به سواد طبرية ويشمل المناطق والأراضي الواقعة جنوب كورة الجولان بين بحيرة طبرية والبيشة وحران أي شمال نهر اليرموك. انظر: ابن شداد، الأعلام، ج2، ق2، ص87-88.

(6) ابن الأثير، الكامل، ج9، ص55.

(7) المصدر السابق؛ أبو الفداء، المختصر، ج2، ص33. وانظر كذلك: Raoul. de Caen, gesta Tancredi, 111, P 707 عاشور، الحركة الصليبية، ج1، ص356.

(8) ابن الأثير، الكامل، ج9، ص55.

حمص ودمشق التي لم تكن لتقاتل إلا على استحياء، وقد تلكأ قادتها بالرد على حاكم طرابلس فأرسل لهم بضرورة الاستعجال، وأن الأمر لا يحتاج إلى صبر فقال لهم في رسالته " من الصواب أن نعالج صنجيل- ريموند- إذ هو في هذه العدة القليلة"⁽¹⁾، فوصلت إليه القوات العسكرية الإسلامية متفرقة حتى في أحلك الظروف، ويبدو أن ريموند قد أدرك حقيقة التعاون وأن تفرق القوات الإسلامية جاء لصالحه فقسم جيشه إلى ثلاث مجموعات_ كما ذكرنا_ لتقاتل جيشين بدلاً من أن تقاتل جيش إسلامي موحد كان من الممكن له لو كان كذلك أن يهزم الشرذمة الصليبية، لكن تفرق الجيش الإسلامي كما رأينا كان ضعفاً وهزيمة، وفي المقابل استطاعت المقاومة الموحدة لأهل طرابلس أن تجمع الجيش الصليبي الذي استعان بالمدد لإخماد تلك المقاومة، وأن تكبده خسائر كبيرة في الأرواح مساوية لمدد الجنود الذين وصلوا في بداية المعركة والحصار.

ولأن حصار طرابلس لم يكن ذا نتيجة بسبب المقاومة الشديدة - كما رأينا- فإن القوات الصليبية أخذت تعيثُ فساداً بأعمال طرابلس وتم " قتل من بها من المسلمين"⁽²⁾، ثم اتجهت إلى حصن يقال له طوبان - شمال شرق حصن الأكراد- " فقاتلهم فنصر عليه أهل الحصن"⁽³⁾ واستطاعوا أسر أحد قادة الصليبيين الكبار في جيش ريموند فلم يقبل أهل طوبان إطلاق سراحه بعد أن " بذل صنجيل- ريموند - في فدائه عشرة آلاف دينار وألف أسير"⁽⁴⁾، وواصلت القوات الصليبية زحفها لتصل إلى حصن الأكراد الذي تم احتلاله في بداية الحملة الصليبية الأولى صفر 492هـ/ يناير عام 1099م، واسترده أمير حمص جناح الدولة، وفرضت عليه الحصار؛ فعلم بذلك أمير حمص وجمع جيشاً لنجدة الحصن غير أنه استشهد في رجب 495هـ/ مايو 1102م، بعد أن " قتله باطني بالمسجد الجامع"⁽⁵⁾ فاستغل ريموند الصنجيلي هذا الحادث المأساوي والاضطراب والقلق الذي أصبحت عليه مدينة حمص " ونازلها وحصر أهلها وملك أعمالها"⁽⁶⁾ فقام أهلها بالاستتجاد بدقاق ملك دمشق، وعندما شعر

(1) ابن الأثير، الكامل، ج9، ص55.

(2) المصدر نفسه.

(3) المصدر نفسه، ج9، ص56. انظر كذلك: البيطار، دور حمص، ص4.

(4) ابن الأثير، الكامل، ج9، ص56، ويبدو أن في روايته مبالغة كبيرة وخاصة أن أهل طوبان لم يقبلوا بهذا العرض النسخي من الفدية والأسرى.

(5) ابن الأثير، الكامل، ج9، ص56. ابن العديم، زبدة الحلب، ج2، ص146.

(6) ابن الأثير، الكامل، ج9، ص56.

ريموند بقرب اقتراب دقاق، قرر الانسحاب مقابل جزية مالية يدفعها أهل حمص⁽¹⁾ خيراً من أن يقع بين نارهم من جهة، ونار دقاق وقواته من جهة أخرى.

وفي 18 جمادى الآخرة 496هـ/ 29 مارس سنة 1103م زحفت القوات الصليبية بقيادة بلدوين الأول نحو عكا في محاولة لاحتلالها، مصطحباً معه كل ما يلزم من آلات الحصار كالمنجنيقات والأبراج التي قام بنصبها حول سور المدينة " وضيق عليها وكاد يأخذها"⁽²⁾ لكن أهالي المدينة قاوموا بشدة ذلك الحصار، "ودافعوا عن أنفسهم بشجاعة تستحوذ على أقصى درجات الإعجاب"⁽³⁾، وزاد في مقاومتهم ما قدمته المدن المجاورة - والتي لم يكن قد احتلها الصليبيون مثل صور وصيدا - من مدد ولوازم عسكرية⁽⁴⁾ ساهمت في اشتداد مقاومة سكان عكا وقاموا بمهاجمة الآلات الحربية الصليبية والسفن الإنجليزية المشاركة في الحصار " فأحرقوها وأحرقوا سفنهم أيضاً"⁽⁵⁾، ولم يقتصر أمر مقاومة سكان المدينة على داخلها، بل خرج بعض الفدائيين - اللصوص وقطاع الطرق كما يسميهم السوري - وقاموا بنصب كمين بالقرب من قيسارية التي كان من المقرر لبلدوين الخروج منها بعد احتلالها إلى عكا، لاغتياله ولكن تلك المحاولة باءت بالفشل⁽⁶⁾، وقد ساهمت الدفاعات الخارجية القوية للمدينة وأسوارها المتينة في مساعدة السكان على الصمود والمقاومة، مما دفع بلدوين الأول لفك الحصار عن المدينة وسكانها بعد " أن دمر الملك محصولاتهم وكرومهم وبساتينهم"⁽⁷⁾ عقاباً لهم على مقاومتهم له ، وللحظ من معنوياتهم وإخماد عزيمتهم، وعلى الرغم من هذا التدمير الذي لحق بأهل عكا إلا أن ابن الأثير اعتبر ما قاموا به " نصراً عجبياً أذل الله به الكفار"⁽⁸⁾.

وفي نفس العام 496هـ/ 1103م حاولت القوات الصليبية احتلال بيروت التي كانت هي الأخرى قد وعدت بالاستسلام بمجرد سقوط القدس، وحتى يرحل عنهم العدو قدموا له ما يلزمه من تسهيلات - كما ذكرنا سابقاً- ومن المحتمل أن سكان بيروت قاموا بتحسين مدينتهم في المدة التي غاب فيها الصليبيون عنهم لذلك نجدهم بعد ذلك يقاومون الحصار

(1) ابن العديم، زبدة الحلب، ج2، ص147.

(2) ابن الأثير، الكامل، ج9، ص56.

(3) الشارترى، تاريخ الحملة، ص191.

(4) سالم، تاريخ مدينة صيدا، ص94.

(5) ابن الأثير، الكامل، ج9، ص56. وانظر: سالم، تاريخ مدينة صيدا، ص94.

(6) السوري، الأعمال المنجزة، ج1، ص511. وانظر: سلامة، عكا، ص49.

(7) الشارترى، تاريخ الحملة، ص191.

(8) ابن الأثير، الكامل، ج9، ص56.

الثاني الذي فرضه بلدوين الأول وقد " أطل المقام عليها فلم ير فيها مطعماً فرحل عنها"⁽¹⁾ وفي الوقت نفسه شتاء 497هـ/1103م واصل ريموند عملياته الهادفة لاحتلال طرابلس فعاد إليها مستغلاً وصول أسطول جنوى الى اللاذقية وفرض عليها حصاراً برياً وبحرياً "وضايقوها وقتلوا أياًماً"⁽²⁾ وكان للمقاومة الشديدة التي أبداها أهل طرابلس دوراً فعالاً في هزيمة تلك القوات ورحيلها⁽³⁾.

وكان الحصار التي فرضته القوات الصليبية على طرابلس في نهاية سنة 497هـ/1103م، لا يزال مفروضاً عليها في الوقت الذي كانت فيه القوات الصليبية بقيادة ريموند وبلدوين الأول يشن الغارات وتفرض الحصار تلو الحصار على المدن التي كانت ما تزال في أيدي أهلها من المسلمين.

وحتى تحكّم القوات الصليبية قبضتها على مدينة طرابلس قامت باحتلال مدينة أنطربوس (طرطوس) وجبيل كما ذكرنا، كما وقامت ببناء حصن⁽⁴⁾ قريب من المدينة لمراقبة تحركات أهالي طرابلس ومنع وصول أي إمدادات إليهم و" ليتسنى لهم محاصرتها بشكل مناسب"⁽⁵⁾، ويتم بذلك "خلق مشاكل يومية لسكان طرابلس"⁽⁶⁾ لكن المقاومة الشعبية في طرابلس لم يعجزها الحصن وزاد من عزيمتهم في مقاومة الصليبيين فخرج ابن عمار "صاحبها في عسكره وأهل البلد وقصدوا الحصن الذي بناه صنجيل عليهم"⁽⁷⁾، واستطاعوا "قتل من به ونهب ما فيه وأحرق وأخرب"⁽⁸⁾، جزء كبير منه وقد أصيب قائد القوات

(1) ابن الأثير، الكامل، ج9، ص56.

(2) ابن الأثير، الكامل، ج9، ص72. سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج2، ص422. أبو الفداء، المختصر، ج2، ص35.

(3) ابن الأثير، الكامل، ج9، ص72.

(4) عَرَف هذا الحصن بحصن صنجيل لدى المصادر العربية، أما المصادر الأجنبية فقد أطلقت عليه اسم قلعة الحجاج أو جبل الحاج، وقد وصف جويبو هذا الحصن بأنه عبارة عن قلعة ضخمة على تلة صخرية تأخذ شكل قاعدة المثلث الذي تشكله شبه الجزيرة والذي تشغل المدينة رأسه. انظر: ابن القلانسي، الذيل، ص146. ابن الأثير، الكامل، ج9، ص95. سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج2، ص425. أبو الفداء، المختصر، ج2، ص39. الحريري، الإعلام، ص69. الصوري، الأعمال المنجزة، ج1، ص511. الفيتري، تاريخ بيت المقدس، ص41. جويبو، على خطى الصليبيين، ص198.

(5) الفيتري، تاريخ بيت المقدس، ص41.

(6) الصوري، الأعمال المنجزة، ج1، ص511.

(7) ابن القلانسي، الذيل، ص146.

(8) ابن القلانسي، الذيل، ص146، انظر كذلك: ابن الأثير، الكامل، ج9، ص95. سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج2، ص426. أبو الفداء، المختصر، ج2، ص39.

الصليبية المحاصرة وباني الحصن ريموند الصنجيلي، ولم يلبث أن توفي متأثراً بجراحه في 12 جمادى الآخرة 498هـ/ نهاية فبراير 1105م⁽¹⁾.

وفي سنة 1106م/499هـ ضاق بهم الحصار خاصة بعد تأخر النجدة المأمولة من سكران بن أرتق الذي تحرك بقواته ومعه كل ما يلزم لمقاومة الحصار لكنه لم يلبث أن توفي في الطريق⁽²⁾ وقد أبلى أهالي طرابلس خلال هذا الحصار والسذي سيستمر مدة خمس سنوات⁽³⁾ حتى 502هـ/1108م، بلاءً حسناً.

يقول ابن الأثير "ولم تزل الحرب بين أهل طرابلس والفرنجة خمس سنين فعُدمت الأقوال وخاف أهله على نفوسهم وأولادهم وحرّمهم فجلاء الفقراء وافتقر الأغنياء"⁽⁴⁾.

وحتى يخفف ابن عمار من وطأة الحصار على الأهالي ويقوي من عزيمتهم على المقاومة قام بتخصيص مبالغ من المال وتوزيعها على الضعفاء منهم، لكن الأموال قلت عنده فشرع في جمع مبالغ من المال من الأغنياء لتمويل المجاهدين والمقاومين، غير أن رجلين من الأغنياء رفضا ذلك وخرجا إلى الصليبيين ليكونا معهم ضد إخوانهم من أهل طرابلس، ودلا الصليبيين على المدخل السري للمؤن والعتاد، فقاموا بوضع حامية صليبية في ذلك المكان مما زاد من سوء الحصار، فعمد ابن عمار إلى مراسلة الصليبيين في شأن هذين العميلين "وبذل للفرنجة مالاً كبيراً ليسلموا الرجلين فلم يفعلوا فوضع عليهما من قتلتهما غيلة"⁽⁵⁾، وفي هذا العمل الذي قام به ابن عمار -كما يعلق حسن الأمين- ما يدل على أنه كان حازماً بعيد النظر محكم التدبير جلدأ أمام الأهوال؛ ففي كل شعوب الأرض يوجد من هم ضعاف النفوس خواري العزائم، ويوجد حريصون على المال، لا يبالون في هذا الحرص أن يخونوا أوطانهم، فلا يضير أهل طرابلس أن يوجد في صفوفه مثل هذين الخائنين اللذين لا نشك في أنهما جمعا مالهما من الحرام ومن كل مصدر غير شريف، لأن من يقدم على ما أقدم عليه يكون قد أقدم على كل رذيلة في جمع المال، فلم يشغل ابن عمار ما هو فيه عن التفكير في أمر هذين الخائنين، إن تركهما سالمين يشجع أمثالهما على الخيانة، فأحكم تدبير اغتيالهم، وفي هذا ما فيه من قوة العزم وسداد الرأي وإحكام الأمر⁽⁶⁾.

(1) ابن الأثير، الكامل، ج9، ص96. الحريري، الإعلام، ص96. أبو الفداء، المختصر، ج2، ص39.

(2) ابن الأثير، الكامل، ج9، ص82، ص96.

(3) المصدر نفسه، ج9، ص96. الحريري، الإعلام، ص69.

(4) الكامل، ج9، ص96.

(5) ابن الأثير، الكامل، ج9، ص96.

(6) الأمين، بنو عمار، مجلة نور الإسلام، العدد (73-74) السنة السابعة، ص2-3.

وزدادت ظروف الأهالي المحاصرين في طرابلس سوءاً بعد معرفة القوات الصليبية للمدخل السري للمؤن فضلاً عن طول المدة التي مرت عليهم وهم محاصرين فبعد أن كانت طرابلس من أعظم بلاد الإسلام وأكثرها تحملاً وثروة⁽¹⁾ على حد قول ابن الأثير، وأصبحت بعد سنوات طويلة من الحصار بلداً فقيراً معدماً قباع أهلها من الحلبي والأواني الغربية مالا حد عليه⁽²⁾ وقد اضطروا إلى ذلك ليشترتوا ما يلزمهم من القوات لأنهم لم يعودوا بحاجة إلى التجمل بالحلي وتزيين البيوت بالأواني مع حاجتهم إلى الطعام الذي وصلت الحاجة إليه إلى حد أن أهل طرابلس "أكلوا الجيف"⁽³⁾.

اتجهت القوات الصليبية المنهزمة في طرابلس جنوباً إلى مدينة جبيل التي كانت تتبع بنو عمار حكام طرابلس⁽⁴⁾، وحاصروها براً ووصلتهم القوات الجنوبية "في نيف وتسعين مركباً"⁽⁵⁾ لتحاصرها من ناحية البحر، وقد أبدت مدينة جبيل مقاومة شديدة لهذا الحصار بعد أن قاتلها الصليبيون قتالاً عنيفاً من البر والبحر "فلما رأى أهلها عجزهم عن الفرنج"⁽⁶⁾، اضطروا إلى الاستسلام في 497هـ/ أواخر سنة 1104م بعد أخذهم الأمان⁽⁷⁾، غير أن الصليبيين لم يتجاهلوا المقاومة الشديدة التي أبدتها أهل جبيل، فتظاهروا بقبول استسلامهم وأعطوهم الأمان، وبمجرد استسلامهم لم يفوا لهم "بما بذلوه من الأمان وصادروهم واستنفذوا أموالهم بالعقوبات وأنواع العذاب"⁽⁸⁾ ويضيف سبط ابن الجوزي بأن الفرنج بعد غدرهم بأهل جبيل قاموا بقتلهم⁽⁹⁾.

والواقع أن ما فعله الصليبيون بأهل جبيل لم يكن بالجديد عليهم، لكن عجز الأهالي في جبيل عن مواصلة المقاومة وعدم وصول أي نجدة فاطمية أو طرابلسية من بني عمار، إضافة إلى الحصار الخانق الذي فرض من البر والبحر، وخاصة بعد وصول الإمدادات البحرية الجنوبية اضطر أهل جبيل للتخلي عن مقاومة لا تجدي في ظل صمت الحكام العرب

(1) ابن الأثير، الكامل، ج9، ص96.

(2) المصدر نفسه، ج9، ص96.

(3) الحريري، الإعلام، ص69.

(4) ابن القلائسي، الذيل، ص143. انظر: سالم، طرابلس، ص93.

(5) ابن القلائسي، الذيل، ص144.

(6) ابن الأثير، الكامل، ج9، ص72.

(7) Albert d, Aix, Historia, P.606. وانظر: ابن القلائسي، الذيل، ص143. أبو الفداء، المختصر، ج2، ص35.

(8) ابن القلائسي، الذيل، ص143. وانظر: ابن الأثير، الكامل، ج9، ص72. ابن شداد الحلبي، الأعلام، ج2، ص2.

ق2، ص96. النويري، نهاية الأرب، ج28، ص263.

(9) مرآة الزمان، ج2، ص422.

والمسلمين ففضلوا قبول الأمان على أن لا يقعوا فريسة مذبحه شبيهة بتلك التي حدثت لإخوانهم في المدن المحتلة، ولكن غدر القوات الصليبية لم يكن ضمن حسابات الأهالي في جبيل.

أغرى سقوط جبيل الملك بلدوين الأول بالتفكير مرة أخرى بحصار عكا بغية احتلالها، فطلب المساعدة من ريموند والسفن البحرية الجنوبية التي ساعدته في احتلال جبيل⁽¹⁾

فجاء الجنويون بمجموعة كبيرة من السفن تراوحت ما بين السبعين⁽²⁾ إلى التسعين سفينة⁽³⁾ فضلاً عن وصول عدة من السفن البندقية والبيزانية⁽⁴⁾ لتشارك هي الأخرى في حصار المدينة؛ كما وقدمت مدينة مرسيليا الإيطالية الكثير من المعونات العسكرية، والقروض المالية للصليبيين كنوع من المساهمة في حصار المدينة⁽⁵⁾، وانضم إلى هذا الحلف العسكري المتجه لحصار عكا أمراء الجليل الذين قدموا مساعدات عسكرية للجيش المتجه إلى عكا، وقاموا بمناوشة القوات الإسلامية خارج عكا لمنعها من تقديم العون إلى سكان المدينة المحاصرة⁽⁶⁾.

وبعد أن استكمل بلدوين استعداداته، اتجه نحو عكا ليحاصروها براً وبحراً⁽⁷⁾ في 20 شعبان 497هـ / 17 مايو 1104م⁽⁸⁾.

وقد قاوم سكان المدينة هذا الحصار رغم ما ألحقته آلات الصليبيين القاذفة من دمار كبير في البيوت والممتلكات جراء قصفها المتعاقب بالصخور الضخمة⁽¹⁰⁾، ولم يستطع سكان المدينة تحمل الهجوم المتكرر والعنيف⁽¹¹⁾، وقرروا التفاوض مع القوات الصليبية حول تسليم

-
- (1) ابن الأثير، الكامل، ج9، ص72. أبو الفداء، المختصر، ج2، ص35.
 - (2) الشارترى، تاريخ الحملة، ص192. الفيتري، تاريخ بيت المقدس، ص33.
 - (3) ابن القلانسي، الذيل، ص144، ويذكر أنه نفس الأسطول الذي شارك في حصار جبيل. انظر كذلك: سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج2، ص80.244 CF, also: Benve nisti, The Crusaders, p. 80.244
 - (4) الصوري، الأعمال المنجزة، ج1، ص512. الحريري، الأخبار السنية، ص55. سلامة، عكا، ص48.
 - (5) التميمي، النظم، ص400.
 - (6) على، إمارة الجليل، ص209.
 - (7) ابن القلانسي، الذيل، ص144. ابن الأثير، الكامل، ج9، ص72. ابن شداد الطلي، الاعلاق الخطيرة، ج2، ق2، ص174. أبو الفداء، المختصر، ج2، ص35.
 - (8) ابن القلانسي، الذيل، ص144.
 - (9) الشارترى، تاريخ الحملة، ص192. الصوري، الأعمال المنجزة، ج1، ص513.
 - (10) الشارترى، تاريخ الحملة، ص192. الصوري، الأعمال المنجزة، ج1، ص513. الفيتري، تاريخ بيت المقدس، ص33.
 - (11) الفيتري، تاريخ بيت المقدس، ص33.

المدينة مقابل الحصول على الأمان والخروج من المدينة، وبالفعل جرى تسليم المدينة بشروط، كان منها السماح لمن يرغب بالرحيل أن يرحل ومعه كل ما يملك⁽¹⁾، بعد عشرين يوماً من المقاومة⁽²⁾، فدخلها الصليبيون في شعبان 497هـ/ أيار مايو 1105م، "بالسيف قهراً، وفعلوا بأهلها الأفعال الشنيعة"⁽³⁾، ثم قاموا بنهب كل ما وقعت عليه أعينهم من ذخائر وثروات وممتلكات⁽⁴⁾، ضاربين بعرض الحائط الاتفاق الذي جرى مع أهل المدينة.

وكان أهالي عكا وقائد حاميتها زهر الدولة بنا الجيوشي قد أرسلوا إلى الدولة الفاطمية يطلبون المدد والنجدة⁽⁵⁾، غير أن الدولة الفاطمية تأخرت في الرد الذي جاء على شكل حملة عسكرية برية قوامها خمسة آلاف جندي يساندها أسطول بحري لإمداد الحملة بما يلزمها⁽⁶⁾ فوصلت هذه الحملة إلى عسقلان في أواخر ذي القعدة 498هـ/ 12 أغسطس 1105م، واشتبكت مع القوات الصليبية في معركة عنيفة عرفت بمعركة الرملة الثالثة، هزم فيها الجيش الفاطمي⁽⁷⁾.

وفي سنة 499هـ/ 1106م حاصر بلدوين الأول بقواته مدينة صيدا، ولكن أهل صيدا تخلصوا من هذا الحصار بأن بذلوا له قدرأ كبيراً من المال بلغ (15 ألف دينار) فقبل بلدوين الأول هذا العرض لحاجته إلى المال، فضلاً عن وصول الأخبار بوفاة حاكم طبرية⁽⁸⁾.

وفي ذات السنة 499هـ/ 1106م هاجمت القوات الصليبية بقيادة أمير أنطاكية تتكرد مدينة أفامية وحاصروها بشدة " بعد أن حفر خندقاً حولها ليمنع الناس من الدخول إلى المدينة والخروج منها"⁽⁹⁾، ونظراً لقلّة الأتوات التي كانت لا تكفي إلا لمدة شهر واحد فإن المدينة لم تستطع المقاومة إلا عدة أسابيع بعد أن "جاع أهلها"⁽¹⁰⁾، فاستسلموا للقوات الصليبية في 13

(1) الصوري، الأعمال المنجزة، ج1، ص513.

(2) الشارترى، تاريخ الحملة، ص192. الفيتري، تاريخ بيت المقدس، ص33.

(3) ابن الأثير، الكامل، ج9، ص72. انظر: أبو الفداء، المختصر، ج2، ص35.

(4) الشارترى، تاريخ الحملة، ص193. الحريري، الأخبار السنية، ص55.

(5) ابن القلاسي، الذيل، ص144. ابن شداد الحلبي، الأعلام الخطيرة، ج2، ق2، ص175.

(6) ابن الأثير، الكامل، ج9، ص85.

(7) ابن القلاسي، الذيل، ص149.

(8) Albert d. Aix Historia. P 632; Stevenson, Crusades in the East, p18

ج2، ص148-149. سالم، تاريخ مدينة صيدا، ص95. عوض، الحروب الصليبية، ص28-29. فايد، جهاد المسلمين ص135.

(9) رنسيان، تاريخ الحروب، ج2، ص88.

(10) ابن الأثير، الكامل، ج9، ص95.

محرم 500هـ/14 سبتمبر سنة 1106م بعد حصار دام ثمانية أشهر⁽¹⁾ بشرط الإبقاء على حياتهم، ووافق تنكرد على الشروط، غير أنه عند دخول المدينة أمر قواته⁽²⁾ فـ"قتلوا القاضي"⁽³⁾ الموجود في المدينة، إذ يبدو أنه كان يقود حركة المقاومة الشعبية فيها.

أما طرابلس المحاصرة فقد استطاع الأهالي فيها في سنة 500هـ/1107م الظفر بمجموعة من السفن الصليبية المحملة بالموءن من البندقية وأنطاكية فكان هذا باعثاً على استمرارهم في مقاومة الحصار المفروض على مدينتهم و"اشتدت قلوبهم وقوا على حفظ البلد"⁽⁴⁾ بينما كان ابن عمار ي كاتب السلاجقة حول ما وصلت إليه الأحوال في مدينته المحاصرة من ترددي، ويستصرخهم "على تدارك الناس بالمعونة"⁽⁵⁾ ولكن لا حياة لمن تنادي، مما اضطره للسفر بنفسه إلى بغداد في السنة التالية 501هـ/1108م لكنه عاد بخفي حنين، ليصل إلى دمشق التي أرسلت معه نجدة من العساكر الذين لم يصل بهم إلى طرابلس وإنما إلى جبلة القريبة منها⁽⁶⁾ "لأن أهلها دخلوا في طاعة خليفة مصر"⁽⁷⁾، وخرجوا عن طاعة ابن عمار⁽⁸⁾ وكان أهل طرابلس قد أرسلوا إلى الفاطميين في مصر "واستجدوا بعساكرها"⁽⁹⁾ فجاءتهم النجدة في وقت خروج ابن عمار، وبينما طرابلس على تلك الحال قام بلدين بجمع قواته ليهاجم مدينة صور في سنة 501هـ/1108م، وشدد عليها الحصار غير أن أهلها قاوموا ذلك الحصار الذي استمر شهراً وحتى يرحل الصليبيون عنهم اضطروا لدفع مبلغ سبعة آلاف دينار كجزية سنوية، وخلال مدة الحصار قام الصليبيون ببناء قلعة على تل

(1) ابن العديم، زبدة الطلب، ج2، ص152. ابن العديم، بغية الطلب، ج1، ص144.

(2) رنسيان، تاريخ الحروب، ج2، ص89.

(3) ابن الأثير، الكامل، ج9، ص95، وذكر بأن القاضي هو أبو طاهر بن الصائغ وقد قتله الصليبيون ببيعاز من أحد أبناء ابن ملاعب حاكم أقمية السابق. وانظر: ابن شداد الحلبي، الأعلام الخطيرة، ج2، ق2، ص39.

(4) ابن الأثير، الكامل، ج9، ص120.

(5) ابن القلانسي، الذيل، ص156.

(6) ابن الأثير، الكامل، ج9، ص121.

(7) خليفة مصر في ذلك الوقت هو: الأمر بأحكام الله المنصور (أبو علي) بن المستعلي بالله أحمد بن المستنصر بالله معد بن الظاهر لإعزاز دين الله علي بن الحاكم بأمر الله المنصور، عاشر الخلفاء الفاطميين بمصر، ولد سنة (490هـ/1097م) وقتل سنة (524هـ/1130م). للمزيد حول ترجمته انظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج5 ص299. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج5، ص170-172. الزر كلبي، الأعلام، ج8، ص234. الشهابي، معجم، ص23.

(8) أبو الفداء، المختصر، ج2، ص42. وانظر: ابن القلانسي، الذيل، ص161. ابن الأثير، الكامل، ج9، ص121.

الحريري، الأعلام، ص69.

(9) الحريري، الأعلام، ص69.

المعشوقة القريب من صور⁽¹⁾، ووضعت فيه عناصر من القوات الصليبية كي "تراقب أهل صور"⁽²⁾ وترصد تحركات أفراد المقاومة الشعبية ، ويمكن لها أن تمنع وصول أي مساعدات خارجية لأهالي المدينة، وقد ذكر الفيتري أن من بين أهداف الصليبيين لبناء تلك القلعة "التضييق على أهل صور"⁽³⁾.

ومن صور تحركت القوات الصليبية إلى صيدا وحاصرتها من البر والبحر⁽⁴⁾، وقد ساندتهم سفن إيطالية مختلفة من بيزة، وجنوة، والبندقية⁽⁵⁾، وعندما وصلت القوات الصليبية البرية قامت بنصب برجاً خشبياً، وتأهبت لضرب المدينة واقتحام أسوارها عنوة، وبينما هي كذلك وصلت النجديات العسكرية البحرية الفاطمية والتي استطاعت هزيمة السفن الإيطالية⁽⁶⁾، وفي نفس الوقت وصلت قوات برية من دمشق لمساندة أهل صيدا مما اضطر بلدوين الأول لرفع الحصار عن المدينة⁽⁷⁾ بعد أن أصاب أسوارها وبرجين من أبراجها بأضرار بالغة⁽⁸⁾.

وبالنسبة لمدينة طرابلس فقد قرر الصليبيون حسم أمرها بعد عشر سنوات⁽⁹⁾ من

(1) ابن القلانسي، الذيل، ص 159، 172. ابن الأثير، الكامل، ج 9، ص 122. سبط ابن الجوزي، ج 2، ص 492. الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج 9، ص 407-408. الحريري، الإعلام، ص 71. والقلعة كما تذكرها المصادر اللاتينية هي قلعة تبنين أو تورون Toron على بعد سبعة عشر ميلاً (نحو ثلاثة وعشرين كم ونصف) إلى الجنوب الشرقي من بانياس. حول هذه القلعة أو الحصن، انظر: الشارترى، تاريخ الحملة، ص 233. الصوري، الأعمال المنجزة، ج 1، ص 525. الفيتري، تاريخ بيت المقدس، ص 52 وهامش (1) من نفس الصفحة. بور شاردي، وصف الأرض، ص 509. القلقشندی، صبح الأعشى، ج 4، ص 152. عوض، الرحالة، ص 116-117.

(2) الشارترى، تاريخ الحملة، ص 233.

(3) تاريخ بيت المقدس، ص 52.

(4) ابن الأثير، الكامل، ج 9، ص 122.

(5) رنسيان، تاريخ الحروب، ج 2، ص 149. سالم، تاريخ مدينة صيدا، ص 100، 95، 101. عاشور، العلاقة، ص 103.

(6) ابن الأثير، الكامل، ج 9، ص 122. المقرئ، اتعاظ الحنفاء، ج 3، ص 43. زكي، صيدا، ص 87. سالم تاريخ البحرية، ص 112.

(7) ابن الأثير، الكامل، ج 9، ص 122.

(8) سالم، تاريخ مدينة صيدا، ص 96.

(9) بدأ الحصار الأول للمدينة بحصار عرقة التي كانت تتبع لها وذلك في 14 فبراير 1099م/492هـ، واستمرت محاولات الصليبيين بعد ذلك لاحتلال طرابلس العاصمة حتى العام الذي سقطت فيه 1109م/502هـ، أما الحصار الفعلي للمدينة فقد استمر سبع سنين من سنة 495هـ-502هـ/1102-1109م. انظر: الفيتري، تاريخ بيت المقدس، ص 41. ابن شداد الحلبي، الأعلاق الخطيرة، ج 2، ق 2، ص 111. ابن العماد، الشذرات، ج 2، ص 6 وقد ذكر بأن الحصار استمر سبع سنين وأربعة أشهر. انظر: جويبو، على خطى الصليبيين، ص 198. قاسم، ماهية

الصمود والمقاومة، وتضافرت جهودهم من أجل ذلك⁽¹⁾، فحاصروها من البر، كما حاصرها الجنويون من جهة البحر بما يقرب من ستين⁽²⁾ إلى سبعين سفينة⁽³⁾ حربية وذلك في شعبان 502هـ/ يوليو 1109م.

وشرع الصليبيون بالتضييق على المدينة وأهلها "وأسندوا أبراجهم إلى السور"⁽⁴⁾ فاستمات أهل طرابلس في الدفاع عن مدينتهم، ولكن أبراج الصليبيين تكاثرت على السور، وأخذ الصليبيون "يعملون بجد"⁽⁵⁾ للضغط على الأهالي كي يتوقفوا عن المقاومة " فلما شاهد الجند والمقاتلة من أهل البلد سقط في أيديهم وأيقنوا بالهلاك"⁽⁶⁾ خاصة وأن الأسطول المصري قد تأخر في الوصول ومع مرور الأيام وتأخر الإمدادات بدأت المقاومة بالفتور، وقرر والي المدينة الفاطمي الاستسلام بعد أن بئس من وصول النجدة المصرية؛ ولكن نفرأ من أهل طرابلس عز عليهم أن تنتهي مقاومتهم الطويلة على هذه الصورة، فأبوا تسليم المدينة بالأمان، وآثروا المضي في المقاومة حتى النهاية، فما كان من الوالي إلا أن طلب الأمان له ولجماعة من جنده للخروج إلى دمشق⁽⁷⁾ وترك المدينة وأهلها ليقاوموا وحدهم العدو الصليبي؛ ويبدو أن انقساماً قد حصل داخل طرابلس حول الاستمرار في المقاومة أو طلب الأمان، فكان الوالي والحامية الفاطمية ينادون بالتسليم بينما أصر أهالي طرابلس على الاستمرار في المقاومة والنضال⁽⁸⁾.

الحروب، ص 134. أما الذهبي فقد حدد مدة الحصار بست سنوات مع أنه ذكر سقوط المدينة في سنة 503هـ / 1109م . انظر: سير أعلام النبلاء، ج 19، ص 408.

(1) اجتمع على حصار طرابلس كل من الجنوبية من البحر، وتكرد أمير أنطاكية وبرتراند بن ريموند الصنجيلي والملك بلدوين الأول ملك مملكة بيت المقدس اللاتينية من البر. انظر: ابن القلانسي، الذيل، ص 163. الشارترى، تاريخ الحملة، 210-211؛ ابن الأثير، الكامل، ج 9، ص 136. سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج 2، ص 504-505.

(2) ابن القلانسي، الذيل، ص 163. سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج 2، ص 504.

(3) الشارترى، تاريخ الحملة، ص 210.

(4) ابن القلانسي، الذيل، ص 163. وانظر: سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج 2، ص 505. ابن شداد الحلبي، الأعلام، ص 69، ج 2، ق 2، ص 111. الحريري، الإعلام، ص 69.

(5) الشارترى، تاريخ الحملة، ص 212.

(6) ابن القلانسي، الذيل، ص 163. وانظر، ابن الأثير، الكامل، ج 9، ص 136؛ سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج 2، ص 505.

(7) ابن القلانسي، الذيل، ص 163. انظر: ابن الأثير، الكامل، ج 9، ص 136.

(8) أبو الفداء، المختصر، ج 2، ص 44.

وقد علل (سالم) خروج الوالي وحاميته من المدينة بأمرين: إما أن أهل طرابلس لم يقبلوا أن يبقى بين ظهرانيهم جبناء ودعاة هزيمة، فأرغموهم على الخروج منها، وإما أنهم خرجوا من تلقاء أنفسهم بعد أن استأمنوا على أرواحهم، ومضوا إلى دمشق⁽¹⁾ بمجرد اقتحام الصليبيين للمدينة، كما ونستنتج من نص ابن القلانسي⁽²⁾، وابن الأثير⁽³⁾، أن الوالي والحامية توقفوا عن القتال واتصلوا بالصليبيين وطلبوا لأنفسهم الأمان ولم يتم إطلاقهم إلا بعد اجتياح الصليبيين المدينة، ومهما يكن من أمر فإن موقف والي طرابلس كان مخزياً وفي قمة التخاذل، فبدلاً من أن يبيت روح الثبات والصمود في نفوس أهل طرابلس لمقاومة الغزاة؛ وبدلاً من أن تقف حاميته الفاطمية إلى جانب الأهالي في مقاومة العدو⁽⁴⁾، كان موقفهم سلبياً، وكانوا هم أول من طلب الاستسلام فكان ذلك من العوامل التي أدت إلى سقوط المدينة فلم يعد بمقدور الأهالي الصمود والمقاومة أكثر مما قاوموا.

ومع مرور الأيام ازدادت هجمات الصليبيين على سور المدينة، وانتهزوا فرصة الارتباك الداخلي الذي سببه خروج الوالي والحامية الفاطمية، فشددوا القتال، وحملوا "حملة رجل واحد"⁽⁵⁾ وهاجموها من الأبراج فملكوها بالسيف في يوم الإثنين 11 ذي الحجة 502هـ/ الموافق 12 يوليو 1109م، ونهبوا مافيها، وأسروا رجالها، وسبوا نساءها وأطفالها وحصل في أيديهم من أمتعتها وذخائرها ودفاتر دار علمها⁽⁶⁾ وما كان منها في خزائن أربابها ما لا يحسد عدده وما يحصر فيذكر، وعوقب أهلها واستصفيت أموالها واستتيرت ذخائرهم من مكانها ونزل بهم أشد البلاء ومؤلم العذاب⁽⁷⁾.

(1) سالم، طرابلس، ص 119.

(2) ابن القلانسي، الذيل، ص 163.

(3) ابن الأثير، الكامل، ج 9، ص 136.

(4) سالم، طرابلس، ص 120.

(5) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج 5، ص 180.

(6) كانت دار العلم في طرابلس من أعظم دور العلم، ومن أعرق المكتبات وقد ذكر ابن شداد الحلبي أن عدد الكتب فيها وصل إلى 100 ألف كتاب كانت وفقاً لإسلاميا، وذكر البعض أن عدد كتبها بلغ ثلاثة ملايين مجلد وقد أحرقها الصليبيون كلها. انظر: الأعلام الخطيرة، ج 2، ق 2، ص 107. انظر كذلك: ابن الأثير، الكامل، ج 9، ص 136؛ البستاني، دائرة معارف البستاني، ج 11، ص 243. جويو، على خطى الصليبيين، ص 201. تومبسون، المكتبة، ص 352. حمادة، المكتبات، ص 133-134. الحياة الثقافية، ص 25. تاريخ طرابلس، ج 1، ص 357-358. بدوي، الحياة العقلية، ص 29. الشيخ، الإمارات، ص 434-435.

(7) ابن القلانسي، الذيل، ص 163. انظر كذلك: ابن الأثير، الكامل، ج 9، ص 136. سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج 2، ص 504-505؛ أبو الفداء، المختصر، ج 2، ص 44. ابن شداد الحلبي، الأعلام الخطيرة، ج 2، ق 2، ص 10=

وقد ذكر الشارترى بأن الجنوبية هاجموا المدينة من جهة البحر وتسلقوا أسوارها بالحبال والسهل ثم قتلوا كل من وجدوه من المسلمين⁽¹⁾ وعلق جويبو على سقوط مدينة طرابلس بالقول أن مقاومتها كانت عجيبة وأطلق عليها اسم المدينة المتمردة لأنها قاومت بشدة ولزمن طويل⁽²⁾.

أما السنة التي سقطت فيه المدينة فقد كانت محل خلاف بين المؤرخين المسلمين فبعضهم يحددها بيوم الإثنين 11 ذي الحجة سنة 502هـ / الموافق 12 يوليو 1109م⁽³⁾، و بعضهم يجعل سقوطها في 503هـ / 1110م⁽⁴⁾.

ويبدو أن الرأي الأول هو الأقرب إلى الصحة من الرأي الثاني⁽⁵⁾، ويدعمنا في ذلك

رواية ابن القلانسي التي تقترب من رواية الشارترى والتي تؤكد سقوط المدينة في 25 ذو القعدة 502هـ / السادس والعشرين من يونيو 1099م.

والحقيقة أن ما أورده ابن القلانسي هو الأصوب لأن جبلة والتي لجأ إليها ابن عمار

بعد سقوط طرابلس سقطت في 22 ذي الحجة من سنة 502هـ / 23 يوليو 1109م..

أما النجدة الفاطمية والتي لو كانت وصلت إلى طرابلس في وقت مبكر لساهمت إلى حد كبير في دعم المقاومة في طرابلس، لأنها تختلف عن سابقتها من النجديات فابن القلانسي

ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج5 ص180؛ الشارترى، تاريخ الحملة، ص212؛ الصوري، الأعمال المنجزة، ج1، ص533.

(1) الشارترى، تاريخ الحملة، ص212، وقد ذكر ابن الفرات أن عدد من قتلوا في المدينة هو عشرين ألف إنسان، وأورد في رواية مفادها بأن الصليبيين كانوا على وشك قتل كل المسلمين لولا أن أحدهم نبه إلى نقص العنصر البشري في المدينة بعد قتل سكانها واقترح إبقاءهم أحياء ومن ثم يتم مصادرتهم وفرض ضريبة الأعناق عليهم، وإجبارهم على البقاء في المدينة ليصبحوا كالمساجين ومن ثم يتم الاستفادة من إقامتهم. انظر: ابن الفرات، تاريخ، ج8، ص78. كاهن، وثيقة رقم (4) ص285.

(2) على خطى الصليبيين، ص198.

(3) ابن القلانسي، الذيل، ص163. العظيمي، تاريخ، ص667. سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج2، ص504. ابن شداد الحلبي الأعلق الخطيرة، ج2، ق2، ص111. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج5، ص180. القلقشندي، مآثر الأناقة، ج2، ص16. وهو في ص20 من نفس الجزء يذكر أنها سقطت في سنة 503هـ. الحريري، الإعلام، ص70.

(4) ابن الأثير، الكامل، ج9، ص136. أبو الفداء، المختصر، ج2، ص44. الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج19، ص408. ابن كثير، البداية والنهاية، ج12، ص171. ابن الفرات، تاريخ، ج8، ص78. ابن العماد، الشذرات، ج2، ص6.

(5) تاريخ الحملة، ص212.

(6) ابن القلانسي، الذيل، ص164. ابن الأثير، الكامل، ج9، ص137. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج9، ص180.

يعطينا صورة واضحة عن هذا الأسطول الذي " لم يكن خرج للمصريين مثله كثرة رجال ومراكب وعُدَد وغلل" (1) كانت تكفي لسنة كاملة، ولكن الظروف شاعت أن يصل هذا الأسطول بعد ثمانية أيام من سقوط طرابلس "وقد فات الأمر" (2) وعلل ابن القلانسي عدم وصول هذا الأسطول إلى ظروف الطقس إذ أن الرياح جاءت بما لا تشتهي سفن الأسطول الفاطمي فكانت تلك الرياح "ترده لما يريد الله تعالى من نفاذ الأمر المقضي" (3)، ومع تأييد ابن الأثير لرواية ابن القلانسي حول عرقلة الرياح لسير الأسطول المصري، إلا أن في روايته ما يدل على استهتار قد حصل في الجانب المصري، حيث أن الإجراءات الخاصة بجمع قطع الأسطول الذي أعده الفاطميون لنجدة طرابلس استغرق وقتاً طويلاً، وأن خلافاً نشب بين قادة الفاطميين حول تولي قيادة الأسطول، وقد دام هذا الخلاف "أكثر من سنة، وسار فردته الريح، فتعذر عليه الوصول إلى طرابلس" (4)، ويعني هذا أنه لو لم يحصل الخلاف السابق، وكانت العزيمة الفاطمية صادقة في إنقاذ طرابلس لما حصل ما حصل ولكن القدر كان أقوى. وقد بانّت نية الفاطميين السيئة عندما استجد أهالي المدن الساحلية التي ما تزال صامدة وهي صور وصيدا وبيروت، فمع وصول هذا الأسطول "تمسك به أهل صور وصيدا وبيروت وشكوا أحوالهم وضعفها عن محاربة الإفرنج" (5) ولكن لا حياة لمن تتادي، لأن هذا الأسطول لم يعبأ بتلك الشكاوى ولم يكن يعنيه ما الذي سيحل بتلك المدن "فأقلع عائداً عند استقامة الريح إلى مصر" (6) وترك أهل المدن السابقة لمصيرهم المظلم ومستقبلهم البائس.

كان لسقوط طرابلس أثراً إيجابياً على الصليبيين ليواصلوا عدوانهم على باقي المدن الإسلامية التي لم تسقط بأيديهم بعد، وفي نفس الوقت أحدث سقوط تلك المدينة المتمردة - كما

(1) الذيل، ص 164.

(2) المصدر نفسه.

(3) المصدر نفسه، ص 163.

(4) الكامل، ج 9، ص 136، وقد اختلف ابن تغري بردي عن رواية ابن القلانسي وابن الأثير وذكر بأن الأسطول الفاطمي وصل بالفعل إلى طرابلس، وأن الذي كان يرده هم الفرنج وليست الريح "وصار كلما سار نحو البلد رده الفرنج إلى مصر". انظر: النجوم الزاهرة، ج 5، ص 179، والراجح هو رواية كل من ابن القلانسي، وابن الأثير، لأنهما متقدمان على ابن تغري بردي.

(5) ابن القلانسي، الذيل، ص 164.

(6) المصدر السابق، وقد أقلع هذا الأسطول بعد أن وزع ما يحمله من غلال على المدن ولكن لا يورد ابن القلانسي ما يشير إلى عمليات إنزال عسكرية من ذلك الأسطول وكان الأهالي بحاجة لملى بطونهم فقط، وهذا ما يحصل في عصرنا بفلسطين المحتلة حيث تتركز النجديات والمعونات من الدول الإسلامية والعربية على المواد الغذائية والتأمينية فقط مع حاجة الفلسطينيين إلى السلاح والعتاد والمجاهدين للدفاع عن أولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين.

يصفها جويبو-⁽¹⁾دويأ هائلاً لدى المسلمين فكان لسقوطها أثراً سلبياً على مقاومة المدن الساحلية التي استعصت على الصليبيين، فسقطت جبلة كما رأينا سابقاً بعد أحد عشر يوماً فقط من سقوط طرابلس أي في 22 ذي الحجة 502هـ/23 يوليو 1109م⁽²⁾، وقبل أن تسقط جبلة كان تتكرد قد حاصر مدينة بانياس التي لم يبد أهلها سوى مقاومة بسيطة، مما جعل تتكرد لا يتعرض لأرواحهم ويأمنهم على أنفسهم⁽³⁾ ثم عاد إلى أنطاكية.

وفي المناطق الداخلية من بلاد الشام زحف الصليبيون في نفس السنة 502هـ/1109م، على شرقي طرطوس " فلم يقدروا على منازل ريفية"⁽⁴⁾، ولعل السبب في ذلك مقاومة أهلها، وخاصة أن حاكم دمشق طغتكين عندما علم بزحف الصليبيين، نحوها أسرع للدفاع عنها ولكنه لم يهاجم القوات الصليبية المحاصرة للمدينة بل اكتفى بمراقبة الأمور قرب حمص وترك الأهالي في ريفية يقاومون لوحدهم،

وعندما علم الصليبيون بقنوم قواته خشوا أن يقعوا بين نار المقاومة في الداخل، وهجوم قوات طغتكين واكتفوا بعقد اتفاق ودي مع طغتكين، وافق بمقتضاه الطرف الثاني على أن يستولي الصليبيون على ثلث دخل البقاع، فضلاً عن حصني المنيطرة⁽⁵⁾ وعكار⁽⁶⁾.

وفي سنة 503هـ/1110م قام تتكرد بمهاجمة مدينة شيزر وحاصرها ولكنه لم يستطع اجتياحها بسبب المقاومة الشديدة من أهلها، ولم يفك حصاره عنها إلا بعد أن فرض عليها عشرة آلاف دينار تحمل إليه⁽⁷⁾.

أما بلدوين فقد كون تحالفاً صليبياً⁽⁸⁾ وهاجم مدينة بيروت وفرض عليها حصاراً من البر والبحر⁽¹⁾ استمر ما يقارب الشهرين ونصف، أو ثلاثة أشهر من 9 شوال 503هـ/30 ابريل 1110م، وحتى 21 شوال / 13 مايو (أيار) من نفس العام⁽²⁾.

(1) على خطى الصليبيين، ص 198.

(2) ابن القلانسي، النيل، ص 164. ابن الأثير، الكامل، ج 9، ص 137. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج 5، ص 180. انظر: ص من البحث.

(3) ابن القلانسي، النيل، ص 163-164. ابن الأثير، الكامل، ج 9، ص 137.

(4) سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج 2، ص 506.

(5) المنيطرة: حصن بالشام قريب من طرابلس، انظر: ياقوت، معجم البلدان، ج 5، ص 217.

(6) ابن القلانسي، النيل، ص 165.

(7) المصدر نفسه، ص 167. وانظر: المشهداني، موقف بني منقذ، ص 4-5.

(8) تكون هذا الحلف من أمير طرابلس برتراند بن ريموند الصنجيلي، وجوسلين الذي كان يحكم تل باشر، انظر: ابن

القلانسي، النيل، ص 167. الشارتر، تاريخ الحملة، ص 212. سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج 2، ص 524.

ومع بدء الحصار شرع الصليبيون في صناعة الأبراج لإسنادها إلى السور، وبمجرد أن أسندت على سور بيروت قام أهل المدينة بقذفه بحجارة المجانيق، فكسروه⁽³⁾ واستماتوا في الدفاع عن مدينتهم وقاتلوا "قتال لم تشاهد الفرنج مثله"⁽⁴⁾، وزاد من شدة صمود ومقاومة أهل بيروت وصول تسعة عشر سفينة بحرية فاطمية محملة بالموثون "إلى بيروت فقويت بها نفوس من فيها من الرعية"⁽⁵⁾ فلما رأى الصليبيون أهل بيروت يستلهمون مقاومتهم من البحر، قام بلدوين باستدعاء المدد البحري، فوصله أربعين سفينة جنويه⁽⁶⁾، قامت "بسد الميناء أمام السفن التي كانت راسية فيه لمنعها من مساعدة"⁽⁷⁾ أهالي بيروت، كما استطاعت تلك السفن هزيمة السفن الفاطمية وقتل مقدمها⁽⁸⁾ وشجع هذا النصر البحري الذي حققته القوات الجنوبية بلدوين ومن معه على الزحف بقوة نحو السور، واستطاعوا اجتياح المدينة في يوم الجمعة 21 شوال 503 هـ الموافق 13 مايو (أيار) 1110 م⁽⁹⁾ "وانخذل الناس في البلد وأيقنوا بالهلاك"⁽¹⁰⁾ بعد أن قاوموا القوات الصليبية مقاومة لم يروا "من ما تقدم وتأخر أشد"⁽¹¹⁾ منها، وبعد أن دخل الصليبيون المدينة قاموا بقتل من رأوه⁽¹²⁾، بل أن بعض

-
- (1) ابن القلانسي، الذيل، ص 167. الفيتري، تاريخ بيت المقدس، ص 33. سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج 2، ص 525. الحريري، الإعلام، ص 71. ابن يحيى، تاريخ بيروت، ص 20. وانظر: شعبان، بيروت، ص 31.
- (2) الشارترى، تاريخ الحملة، ص 212. باقوت، معجم البلدان، ج 1، ص 525. وقد ذكر الفيتري بأن الحصار قد استمر شهرين فقط: انظر: تاريخ بيت المقدس، ص 33.
- (3) ابن القلانسي، الذيل، ص 168.
- (4) ابن شداد الحلبي، الأعلام الخطيرة، ج 2، ق 2، ص 102.
- (5) ابن القلانسي، الذيل، ص 168. وانظر، سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج 2، ص 525. لامنس، الحياة في بيروت، ص 721. شعبان، بيروت، ص 33.
- (6) ابن القلانسي، الذيل، ص 168. سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج 2، ص 525، والجدير بالذكر أن الشارترى الفيتري والصوري لم يذكروا وصول تلك التعزيزات البحرية الجنوبية.
- (7) الشارترى، تاريخ الرحلة، ص 212-213.
- (8) ابن القلانسي، الذيل، ص 168.
- (9) ابن القلانسي، الذيل، ص 168. ابن شداد الحلبي، ج 2، ق 2، ص 102. الشارترى، تاريخ الحملة، ص 213. الفيتري، تاريخ بيت المقدس، ص 33-34. أما ألبرت دكس فيذكر أنه تم الاستيلاء على المدينة 27 مايو 1110 م الموافق 6 ذي القعدة 504 هـ ويتفق معه الحريري وهذا غير صحيح. انظر: النويري، نهاية الأرب، ج 28، ص 264-265. وانظر: Albert d, Aix, Historia, p.671. الحريري، الإعلام، ص 71.
- (10) ابن القلانسي، الذيل، ص 168.
- (11) المصدر نفسه، ص 168.
- (12) الشارترى، تاريخ الحملة، ص 213. الفيتري، تاريخ بيت المقدس، ص 33. وانظر: شعبان، بيروت، ص 33.

المؤرخين يذكر بأنه لم ينج أحد من سكان المدينة من القتل⁽¹⁾ ثم قاموا "بنهب البلد وسبي من كان فيه"⁽²⁾ واستولوا على ما وقع تحت أيديهم من الأموال والذخائر⁽³⁾،

ثم عملوا على تغيير معالم المدينة وطمس هويتها الإسلامية، فعمدوا إلى تدمير المساجد، وهدم المقامات والأضرحة، التي دفن فيها زهاد المسلمين و صلحاؤهم، ولم يتركوا فيها إلا مقام الإمام الأوزاعي⁽⁴⁾، استجابة لشفاعة من أبناء دينهم نصارى جبل لبنان الذين ذكروا للإمام شفاعته بأسلافهم عندما نقضوا عهد الأمان زمن العباسيين⁽⁵⁾.

وفي نفس العام 503هـ/1110م اتجهت القوات الصليبية مزهوة بالنصر الذي حققته في بيروت إلى مدينة صيدا وحاصروها، إلا أنهم لم يتمكنوا من اجتياحها لشدة مقاومة أهالي المدينة وحاميتها فرحلوا عنها بعد موافقة السكان على حمل قطيعة سنوية لهم قدرها ستة آلاف دينار⁽⁶⁾.

ومن الواضح أن بلدوين الأول لم يكن مستعداً تماماً لحصار صيدا وكان ينتظر وصول الإمدادات البحرية من أوروبا، وبالفعل وصلته أمداد بحرية جديدة وهذه المرة كانت نرويجية⁽⁷⁾ شجعت على العودة مرة أخرى إلى صيدا ليحاصرها من البر والبحر⁽⁸⁾ في 3 ربيع الآخر 504هـ⁽⁹⁾/19 أكتوبر 1110م⁽¹⁰⁾، وقد بلغ عدد السفن البحرية النرويجية، وإن لم

(1) فارح، المسيحيون، ص 77.

(2) ابن القلانسي، الذيل، ص 168.

(3) المصدر نفسه، ص 168. وانظر، سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج 2، ص 525. الشارترى، تاريخ الحملة، ص 213.

(4) الأوزاعي: هو أبو عمرو عبد الرحمن بن عمر، والأوزاع بطن من بطون همدان وهو بالتالي عربي الأصل، ولد عام 88هـ/في مدينة بعلبك، وتوفي عام 157هـ/773م. عنه انظر: ابن سعد، الطبقات، ج 7، ص 488—489. ابن خياط، تاريخ، ص 428. الطبقات، ص 315. ابن حبان، ص 180. الربيعي، تاريخ مولد العلماء، ج 1، ص 365—367. الشيرازي، طبقات، ص 71. ابن الأثير، الكامل، ج 5، ص 213. ابن خلكان، وفيات، ج 3، ص 127—128 الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج 7، ص 107—134. ابن العماد، الشذرات، ج 1، ص 241—242.

(5) الولي، تاريخ المساجد، ص 15. طيارة، الإمام الأوزاعي، ص 244.

(6) ابن القلانسي، الذيل، ص 168. سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج 2، ص 525. ابن شداد الحلبي، الأعلاق الخطيرة، ج 2، ق 2، ص 99.

(7) الشارترى، تاريخ الحملة، ص 216. رنسيان، تاريخ الحروب، ج 2، ص 150. عوض، الحروب الصليبية، ص 30—31.

(8) ابن القلانسي، الذيل، ص 171. الشارترى، تاريخ الحملة، ص 215—216. ابن الأثير، الكامل، ج 9، ص 139.

(9) الشارترى، المصدر نفسه، ص 213، 217. Albert d, Aix, Historia, p 679. رنسيان، تاريخ الحروب، ج 2، ص 150. عوض الحروب الصليبية، ص 31.

(10) ابن القلانسي، الذيل، ص 171.

يفصح القلانسي عن هويتها "تيف وستون مركباً مشحونة بالرجال"⁽¹⁾ وهذا العدد من السفن كان كافياً لإخضاع أي مدينة وليس مدينة صيدا فقط⁽²⁾.

أما من الناحية البرية فقد أحضر الصليبيون معهم كل ما يلزم من آلات الحصار كالأبراج والتي فاق ارتفاعها أسوار المدينة، وقد وصف ابن القلانسي أحدها بأنه كان "ملبس" بحطب الكرم والبسط وجلود البقر الطرية ليمنع من الحجارة والنفط⁽³⁾.

ولكن شدة المقاومة من أهل صيدا جعلتهم يفكرون في كيفية إحراق تلك الأبراج، وبذلوا كل جهد لتدميرها، فعمدوا إلى حفر أسفل سور المدينة بحيث تنفذ إلى الأماكن التي توجد فيها آلات الحصار ووضع مواد حارقة محلية الصنع هناك فألحقت بها الضرر ودمرت الكثير منها⁽⁴⁾.

والجدير بالذكر هنا، أن أهل صيدا إذا كانوا استطاعوا مقاومة القوات الصليبية المحاصرة لهم من ناحية البر، إلا أنهم لم يتمكنوا من مواجهة الأسطول البحري النرويجي الذي أحكم الخناق على المدينة⁽⁵⁾ ومنع وصول أي إمدادات يمكن أن تصل إليهم من مصر أو صور التي كانت ما تزال ترفع راية الإسلام.

ومهما يكن من أمر فقد استمر الأهالي في صيدا يقاومون القوات المحاصرة لمدينتهم مدة سبعة وأربعين يوماً⁽⁶⁾ لم يستطيعوا بعدها الصمود بعد أن "ضعفت نفوسهم وأشفقوا من مثل نوبة بيروت فأخرج إليهم قاضيها وجماعة من شيوخها وطلبوا من بغدوين -بلدوين

(1) ابن القلانسي، الذيل، ص 171. وانظر: ابن الأثير، الكامل، ج 9، ص 139.

(2) ذكر بعض المؤرخين مشاركة أساطيل بندقية وصليبية أخرى إلى جانب الأسطول النرويجي في حصار مدينة صيدا، وقد ناقش هذه القضية عوض في كتابه الحروب الصليبية وأثبت عدم مشاركة أساطيل أخرى غير الأسطول النرويجي والصواب هو ما قاله عوض لأن أكثر من ستون مركباً كما ذكر ذلك أن القلانسي كان كفيلاً بمحاصرة أي مدينة انظر في ذلك: رنسيان، تاريخ الحروب، ج 2 ص 150-151 وهو ممن ذكر أن الأسطول البندقية قد شارك في الحصار. عاشور، العلاقة، ص 103. الحفناوي، الصراع من أجل صيدا، مجلة المنهل السنة (50) مجلد (46) صفر 1404هـ، نوفمبر 1983م ص 71.

(3) ابن القلانسي، الذيل، ص 171. وانظر: ابن الأثير، الكامل، ج 9، ص 139.

(4) Albert d, Aix, op.cit , p678 ، وعلى الرغم من تلك المقاومة الباسلة من جانب أهل صيدا والتي اعترفت بها المصادر الصليبية نجد أن أمين معلوف يذكر ما نصه "أن أهلها لم يكونوا راغبين في القتال" على نحو يجعلنا لا نقبل تصوره، انظر: معلوف، الحروب الصليبية، ص 13. عوض، الحروب الصليبية، هامش (108) ص 55-56.

(5) عوض، الحروب الصليبية، ص 35.

(6) ابن القلانسي، الذيل، ص 171. الشارترى، تاريخ الحملة، ص 217. ابن الأثير، الكامل، ج 9، ص 139 وانظر: العظمي، تاريخ، ص 668، الدولة البورية، ص 136. أما ألبرت دكس فيوضح أن الحصار بدأ في سبتمبر واستمر سنة أسابيع، انظر: Albert d, Aix, op.cit, p.679.

الأول - الأمان⁽¹⁾ والواضح من نص ابن القلانسي أن الصيداويين خشوا من وقوع مذبحة تشبه مثل تلك التي حدثت في بيروت⁽²⁾ بعد أن يقتحموا المدينة بالقوة، ففضل زعماء المقاومة وهم القاضي وشيوخ المدينة طلب الأمان، وتسليم المدينة بعد أخذ كافة العهود والمواثيق التي تضمن عدم التعرض لهم من جانب الصليبيين⁽³⁾.
أما الصليبيون فقد اجتمع بهم بلدوين الأول لتدارس أمر استسلام المدينة؛ واتفقوا على قبوله⁽⁴⁾ وذلك في 4 جمادى الأولى 504هـ/4 ديسمبر 1110م.

وبسقوط مدينة صيدا لم يبق للصليبيين إلا مهاجمة مدينة صور في منتصف الساحل وعسقلان في الطرف الجنوبي، وبما أن عسقلان كانت أشد خطراً من صور على مملكة بيت المقدس، فقد بادر الجيش الصليبي تحت قيادة بلدوين الأول بالمسير لحصارها في نفس العام 504هـ/1110م، ومع وصوله إلى مشارف المدينة سارع حاكمها المخذول ليقدم فروض الطاعة، والولاء للملك بلدوين الأول مفضلاً التحالف معه على أن يجاهد في سبيل الله، أو حتى يترك الأهالي يقاومون "فاستقرت الحال بينهما على مال يحمله إليه ويرحل عنه ويكف الأذى عن عسقلان"⁽⁵⁾ وقد علل ابن القلانسي هذا التحالف المفرط من حاكم المدينة بحب الدنيا ووصفه بأنه "أرغب في التجارة من المحاربة"⁽⁶⁾، وقد وصل به الأمر إلى أن توجه إلى مدينة القدس ليضع نفسه ومدينته تحت حماية بلدوين الأول ثم عاد وفي صحبته ثلاثمائة⁽⁷⁾ "من الأرمن واتخذهم جنداً"⁽⁸⁾؛ كما ورفض دخول قوات فاطمية إلى المدينة كان قد أرسلها الأفضل لحمايتها والوقوف إلى جانب الأهالي في الدفاع عنها⁽⁹⁾.

(1) ابن القلانسي، الذيل، ص171. ابن الأثير، الكامل، ج9ص139. وانظر سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج2ص527.

(2) ابن علي، تاريخ بيروت، ص17. وانظر ابن الأثير، الكامل، ج9، ص139.

(3) ابن القلانسي، الذيل، ص171 حيث يذكر أن أهل صيدا لم يسلموا مدينتهم إلى بلدوين الأول إلا بعد "أن استحلوه على ذلك وتوثقوا منه" وهذا يؤكد علم الأهالي بعدم وفاء الصليبيين بتعهداتهم للكثير من المدن التي أعطوها الأمان ولكنهم حنثوا بالعهد ولم يوفوا الأمان.

(4) Albert d, Aix, Historia, p678.

(5) ابن القلانسي، الذيل، ص172.

(6) المصدر نفسه، ص172.

(7) رنسيان، تاريخ الحروب، ص154.

(8) ابن الأثير، الكامل، ج9، ص140.

(9) ابن القلانسي، الذيل، ص172. ابن الأثير، الكامل، ج9، ص140-679. Albert d, Aix, Historia, pp. 679-680.

ولما جئ أهل عسقلان على حب الجهاد والمقاومة، فإن ما قام به من يوصف بأنه ولي أمرهم لم يكن ليرضيهم "فأنكر أمره أهل البلد"⁽¹⁾ وطبقوا عليه حكم الخائن المتعاون مع العدو "ووثبوا عليه فقتلوه"⁽²⁾ ثم هاجموا من معه من الأرمن فقتلوه⁽³⁾؛ وقد هرع بلدوين لإنقاذهم لكنه لم يتمكن من ذلك، فلم يسعه سوى العودة لـ"تبقى عسقلان شوكة في جنب الفرنج لمدة أربعين سنة أخرى"⁽⁴⁾.

وبينما يحاول الصليبيون في الجنوب احتلال عسقلان، استطاع صليبيو الشمال احتلال الأثارب⁽⁵⁾ بعد أن حاصروه ومنع عنه أي مساعدة خارجية "فضاق الأمر على من به من المسلمين فنقبوا من القلعة نقباً قصدوا أن يخرجوا منه إلى خيمة صاحب أنطاكية فيقتلوه"⁽⁶⁾ أي أن رجال المقاومة الشعبية من أهالي الحصن حاولوا اغتيال قائد الحملة المهاجمة للمدينة ولكنهم فشلوا بعد أن عرف مخططهم عن طريق أحد المستأمنين الأرمن وهذا ما جعله يجد في حصارهم "حتى ملك الحصن قهراً وعنوة وقتل من أهله ألفي رجل وسبى وأسر الباقين"⁽⁷⁾ والواضح مما سبق أن المقاومة الشعبية التي أبادها أهالي الأثارب كانت شديدة جعلت الصليبيين يحتلونهم بالقوة ويقتلوا ذلك العدد الكبير من الرجال الذين أبو إلا الشهادة.

واستكمالاً لخطة الصليبيين القاضية باحتلال المدن الساحلية زحف بلدوين نحو صور التي كانت تشكل بالنسبة للصليبيين إلى جانب صيدا وبيروت جزءاً من فينيقيا⁽⁸⁾، وبمثابة واسطة العقد بين صيدا في الشمال وعكا في الجنوب، فحشد جيشه في نهاية نوفمبر 25 جمادى الأولى 505هـ/1111م⁽⁹⁾، وما أن وصل إلى سور المدينة حتى شرع بقطع

(1) ابن القلانسي، الكامل، ص172. وانظر: ابن الأثير، الكامل، ج9، ص140. سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج2 ص537.

(2) سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج2، ص537.

(3) Albert d, Aix, op.cit, p 681.

(4) رنسيان، تاريخ الحروب، ج2، ص154.

(5) قلعة معروفة بين حلب وأنطاكية، بينها وبين حلب نحو ثلاثة فراسخ (الفرسخ 3أميال) ياقوت، ج1، ص89. ابن الأثير، الكامل، ج9، ص140.

(6) ابن الأثير، الكامل، ج9، ص140.

(7) ابن الأثير، الكامل، ج9، ص140. وانظر: ابن العديم، زبدة الحلب، ج2، ص191-192. خليل، الإمارات، ص249.

(8) الصوري، الأعمال المنجزة، ج2، ص612-613.

(9) الشارثري، تاريخ الحملة، ص218. ابن الأثير، الكامل، ج9، ص144. رنسيان، تاريخ الحروب، ج2، ص152.

الأشجار⁽¹⁾ والنخل لبناء بيوت الإقامة منها⁽²⁾ استعداداً لحصار طويل والذي استمر لمدة أربعة أشهر ونصف الشهر حتى العاشر من شوال 505هـ/ العاشر من إبريل 1112م⁽³⁾، وكانت هذه البيوت والتي تمثل معسكر الصليبيين قد ضربت على شكل دائرة تلتف حول سور المدينة "فحال هذا الوضع بين الأهالي وبين الدخول إليها أو الخروج منها"⁽⁴⁾، ونقد أسهبت المصادر العربية والصليبية على حد سواء في الحديث عن المقاومة الشعبية البطولية والباسلة التي أبداهأ أهالي مدينة صور، فبعد أن أكملت القوات الصليبية استعداداتها العسكرية⁽⁵⁾ بدأت بشن هجمات سريعة على سور المدينة وفي كل مرة تعود خاسرة بسبب شدة المقاومة خاصة و" أن أهل صور رشقوا في بعض أيام مقاتلتها في يوم واحد بعشرين ألف سهم"⁽⁶⁾ ومع ذلك استمر الصليبيون في محاولاتهم لاجتياح المدينة، ولأجل ذلك قاموا بصناعة ثلاثة أبراج خشبية تميزت بأنها كانت أكثر ارتفاعاً من سور المدينة⁽⁷⁾ حتى وصل طول الصغير منها أكثر من أربعين ذراعاً⁽⁸⁾، بينما بلغ ارتفاع البرج الكبير سبعون ذراعاً، وباستطاعة كل برج حمل ألف جندي⁽⁹⁾، كما قاموا ببناء مجموعة من الآلات الحربية القادرة على قذف الأحجار الضخمة لتدك الأسوار والأبراج وتبث الفزع في قلوب أهل المدينة⁽¹⁰⁾ وينالوا من عزيمتهم الصادقة في مقاومة الغزاة. زحف الصليبيون بالأبراج المدعمة بالكبوش⁽¹¹⁾ وأسندوها إلى السور وبدعوا بذك الأبواب بالكباش لكن شجاعة أهل صور

(1) ابن القلانسي، الذيل، ص178. ابن الأثير، الكامل، ج9، ص144. سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج2ص545. ابن شداد الحلبي، الأعلام الخطيرة، ج2، ق2، ص163. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج5، ص181.

(2) ابن القلانسي، الذيل، ص178.

(3) المصدر نفسه، ص180. وانظر: الشارثري، تاريخ الحملة، ص218. رنسيان، تاريخ الحروب، ج2، ص152.

(4) الصوري، الأعمال المنجزة، ج2، ص618.

(5) المصدر نفسه، ج2، ص619-620.

(6) ابن القلانسي، الذيل، ص178.

(7) الشارثري، تاريخ الحملة، ص218. الصوري، الأعمال المنجزة، ج2، ص618.

(8) ابن القلانسي، الذيل، ص179. وانظر: ابن شداد الحلبي، الأعلام الخطيرة، ج2، ق2، ص167. ابن تغري

بردي، النجوم الزاهرة، ج5، ص181.

(9) ابن الأثير، الكامل، ج9، ص145. وانظر: الحريري، الإعلام، ص73.

(10) الصوري، الأعمال المنجزة، ج2، ص618.

(11) الكبوش: مفردها كبش، آلة حربية من عتاد العصور الوسطى، سميت بذلك لأنها تشبه رأس الكبش(الخروف)

وهي مصنوعة من الخشب وملبسة بالحديد والنحاس، مدورة الشكل، ذات رقبة شديدة من الحديد، ويمكن أن=

ومهارتهم كما يذكر الشارترى جعلتهم يواجهون تلك المشكلة وذلك ببناء برجين فوق أسوار المدينة أثناء الليل، وكان هذان البرجان مرتفعين بحيث تمكن الأهالي من الدفاع عن أنفسهم بشكل جيد⁽¹⁾ "ولما كان أول شهر رمضان سنة 505هـ/ 2مارس 1112م، خرج أهل صور من الأبراج بالنفط والحطب والقطران وآلة الحرق"⁽²⁾ ليحرقوا آلات الصليبيين وأبراجهم الحربية، ولما لم يتمكنوا من ذلك قام بعض أفراد المقاومة الشعبية باستغلال هبوب الرياح نحو الصليبيين فألقوا النار بالقرب من البرج الصغير، فاحترق بعد أن هبت رياح ألفت بالنار عليه⁽³⁾، ومع ذلك استمر الصليبيون في زحفهم نحو السور، كما واصلت مناجيقهم قصف المدينة وراحت الصخور تتساقط بعنف في داخل المدينة حتى دمرت العديد من البيوت، وأهلكت عدد من السكان الذين كانوا بها⁽⁴⁾.

استطاع الصليبيون الاقتراب من السور بشكل كبير وهم يحتمون بالبرج الكبير " وصدموا بالكباش التي فيه السور فزعزعه ووقع منه شيء من الحجارة وأشرف أهل البلد على الهلاك"⁽⁵⁾، فقام والي المدينة⁽⁶⁾ بجمع الناس لاستشارتهم بكيفية إفشال الهجوم "فقام شيخ من أهل طرابلس وضمن على نفسه إحراقها"⁽⁷⁾ ونجح هذا الشيخ المهاجر من طرابلس بإعمال الحيلة فأمر من معه من المقاومين بإلقاء جرار القاذورات والأوساخ على من بالبرج ليشغلهم بأنفسهم من سوء الرائحة والتلويث بدل أن يشتغلوا بإطفاء الحريق، بينما قام هو بإلقاء النار على البرج "فتمكنت النار منه فهلك كل من به إلا القليل، وأخذ المسلمون ما قدروا عليه بالكلاليب، ثم أخذ سلال العنب الكبار، وترك فيها الحطب الذي سقاه بالنفط والزفت والكتان والكبريت، ورماهم بسبعين سلة وأحرق البرجين الآخرين، ثم إن أهل صور حفروا سراديب تحت الأرض ليسقط فيها الفرنج إذا زحفوا إليهم ولينخسف البرج إذا

¹ يكون له قرنان طويلان كالرمحان، وكان يُنطح به السور لخلخلته بضرباته المتكررة. انظر: العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص 432-433. أبو شامة، الروضتين، ج 4، ص 159، 165. الخطيب، معجم المصطلحات، ص 362.

(1) الشارترى، ص 118. الصوري، الأعمال المنجزة، ج 2، ص .

(2) ابن القلانسي، الذيل، ص 179. وانظر: ابن شداد الحلبي، الأعلام الخطيرة، ج 2، ق 2، ص 167-168. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج 5، ص 181.

(3) ابن القلانسي، الذيل، ص 179. الشارترى، تاريخ الحملة، ص 218.

(4) الصوري، الأعمال المنجزة، ج 2، ص .

(5) ابن القلانسي، الذيل، ص 179. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج 5، ص 181.

(6) والي المدينة: يدعى عز الملك الأعز أنوشكين الأفضلي وكان يحكم صور كنائب عن الفاطميين وخليفتهم الأمر بأحكام الله، ينظر: ابن الأثير، الكامل، ج 9، ص 145. المقرئ، اتعاظ الحنفا، ج 3، ص 48.

(7) ابن الأثير، الكامل، ج 9، ص 145.

عملوه وسيروه إليهم⁽¹⁾ ولما رأى الصليبيون شدة المقاومة من أهل صور، وما تكبده من خسائر، وقع اليأس في نفوسهم⁽²⁾، "وشرعوا في الرحيل"⁽³⁾ بعد أن أحرقوا البيوت التي كانوا قد عمروها، وأغرقوا الكثير من السفن التي كانت لهم على الساحل، لأنهم كانوا قد استخدموا كثيراً من قطعها في صناعة آلاتهم الحربية⁽⁴⁾.

وهكذا استطاعت المقاومة الشعبية في صور هزيمة القوات الصليبية المحاصرة لمدينتهم وكبدتهم خسائر كبيرة في الأرواح والممتلكات، واستنفذت تلك المقاومة كل الوسائل الممكنة للدفاع عن المدينة فحفروا الخنادق والسراديب واستخدموا كل ما توافر لديهم من أدوات حتى القاذورات والأوساخ والنجاسة، وقد وصف ابن الأثير ما كابده أهل صور أثناء مقاومتهم للصليبيين بقوله: "وقاتل أهل صور قتال من آيس الحياة"⁽⁵⁾ أما رنسيما فقد علق على ذلك بقوله: "وأظهر أهل صور البلاء في القتال"⁽⁶⁾، وبعد رحيل القوات الصليبية عن صور أعاد الأهالي تحصين مدينتهم تحسباً لعودة ثانية للصليبيين، وفي ذلك يقول ابن القلانسي: "وشرع أهل صور في ترميم ما شعثه الإفرنج من سورها، وأعادوا الخنادق إلى حالها، ورسمها بعد طمها، وحصنوا البلد"⁽⁷⁾.

وقد استمر أهل صور في الثبات أمام الصليبيين تارة بالقتال وتارة بالمهادنة من 27 ذي الحجة/16 شباط فبراير، حتى عام 517م/1124هـ، حيث عاود الصليبيون فرض الحصار عليها مدعمين بأسطول بحري قد تجاوز الأربعين سفينة حربية من البندقية⁽⁸⁾.

وقد أظهر أهل صور صنوفاً من الشجاعة والصمود أثناء مقاومتهم لذلك الحصار الذي فرض على مدينتهم من البر والبحر وكانوا يندفعون بقوة "خارج بوابات صور وقد استلوا سيوفهم على أقوى معدائنا، وقبل أن يتمكن رجالنا -أي الصليبيين- الذين تولوا الحراسة من أخذ أسلحتهم ساقهم العدو أمامه وجرح بعضهم وأضرم النار في المعدات في

(1) المصدر نفسه. وانظر: ابن القلانسي، الذيل، ص 179-180.

(2) الشارترى، تاريخ الحملة، ص 218.

(3) ابن القلانسي، الذيل، ص 180.

(4) ابن القلانسي، الذيل، ص 180. وانظر: ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج 5، ص 182.

(5) ابن الأثير، الكامل، ج 9، ص 146. وقد أورد الحريري ذلك بلفظ قريب منه فقال "وقاتل المسلمون على صور قتال الموت". انظر: الإعلام، ص 73.

(6) رنسيما، تاريخ الحروب، ج 2، ص 152.

(7) ابن القلانسي، الذيل، ص 181.

(8) الفيتري، تاريخ بيت المقدس، ص 53. وانظر: عاشور، العلاقة، ص 107.

هذه الهجمة المفاجئة فقدنا - كما يقول الشارترى- ثلاثين رجلاً، وقد جرح أهل المدينة رجالنا وأذوهم كثيراً بنار السهام السريعة، والصخور والقاذورات التي قذفوها من فتحات السور"⁽¹⁾، هذه شهادة أحد الصليبيين الذين عاصروا الحملة الأولى، فضلنا أن نوردتها كما لتكون دليلاً دامغاً على المقاومة الشديدة التي أبداها أهل صور الذين اعتمدوا أساساً في مقاومتهم على عنصر المباغثة والهجمات الخاطفة السريعة بحيث كانوا يهاجمون عدوهم دون إعطائه الفرصة لحمل سلاحه، وركزوا هجماتهم على آلات الصليبيين الحربية، لأنها بمثابة دعم كبير لهم ففي تلك الآلات كانوا يتحصنون وفيها يدكون سور المدينة ومنها تنطلق القذائف التي طالما أضرت بالمواطنين وهدمت بيوتهم وكان السلاح المستخدم للإضرار بتلك المعدات هو حرقها باستخدام النار الإغريقية وبالنفط والقطرات وحزم الحطب وغير ذلك.

و كرد فعل انتقامي قامت القوات الصليبية بصب جام غضبها على بيوت المزارعين التي تقع خارج أسوار المدينة فهاجموا " منزلاً صغيراً قرب سور المدينة وذبحوا رجلين وجدوهما هناك"⁽²⁾، ولا نعلم ما هوية هذين الرجلين إذ يبدو أنهم من رجال المقاومة الشعبية الذين تسللوا خفية لمهاجمة الصليبيين واحتموا بذلك البيت الصغير ولكن الصليبيين قد رصدوهم وحدث ما حدث وقد علق الشارترى على تلك الحادثة بقوله بأن ما فعله الصليبيون بهذين الرجلين " لم تكن له جدوى"⁽³⁾، لأن ذلك لم يوقف من عزيمة المقاومة الشعبية في صور لأنه لا يضرهم لو استشهدوا جميعاً دفاعاً عن مدينتهم، وواصلوا مقاومتهم.

شدد الصليبيون حصارهم على المدينة لما رأوا شدة مقاومة أهلها " إلى أن خفت الأقوات فيها، وعمت الميرة، وتمادت الأيام بذلك إلى أن ضعفت النفوس، وأشرف أهلها على الهلاك"⁽⁴⁾، ويبدو أن الصليبيين لم يجدوا وسيلة تقهر أهل صور أقوى من سلاح التجويع فاستخدموه⁽⁵⁾ ومنعوا وصول أي نجدة يمكن أن تصل إلى المدينة⁽⁶⁾.

(1) الشارترى، تاريخ الحملة، ص 275.

(2) الشارترى، تاريخ الحملة، ص 275.

(3) المصدر نفسه.

(4) ابن القلانسي، الذيل، ص 211. الفيتري، تاريخ بيت المقدس، ص 54. الصوري، الأعمال المنجزة، ج 2، ص.

(5) جب، صلاح الدين، ص 68.

(6) ومن الجدير بالذكر أن الدولة الفاطمية وهي المسؤول الأول والأخير عن صور والتي كانت تتبعها لم ترسل أي نجدات خلال حصار الصليبيين للمدينة بل أن صاحب النجوم الزاهرة يحملهم المسؤولية الكاملة عن سقوط المدينة، أنظر: ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج 5، ص.

لكن الجوع الذي أصاب الأهالي لم يثني من عزيمة المقاومة الشعبية بل على العكس زادهم تصميماً على مواصلة المقاومة حتى الشهادة لذلك عزم رجال المدينة على قتل نساءهم وأطفالهم "غيرة من تملك النصارى لهم ثم يخرجوا إلى عدوهم بعزيمة نافذة، ويصدوهم صدة صادقة حتى يموتوا على دم واحد فمنعهم من ذلك فقهاؤهم والمتورعون منهم"⁽¹⁾ وفي تلك الرواية التي ينفرد بها ابن جبير دليل واضح على الرغبة الصادقة في المقاومة دفاعاً عن ثرى البلاد، وقد فضل الرجال في صور أن يموت نساءهم وأطفالهم بأيديهم خيراً من أن يموتوا فريسة الجوع أو يقتلوا عند اجتياح الصليبيين للمدينة.

واجتمع أفراد المقاومة الشعبية مع الفقهاء العلماء لتدارس الموقف في المسجد الجامع، وقرروا التفاوض مع الصليبيين حول تسليم المدينة دون قتال مقابل الحصول على الأمان ويُسمح بمغادرة السكان مدينتهم "من غير إكراه لهم في ذلك الخروج ولا تعنت، وأن يكونوا سالمين في أنفسهم ونسائهم وأبنائهم وكل متاعهم، أما الذين يؤثرون البقاء في صور فلهم ما أرادوا وتعود إليهم دورهم وممتلكاتهم"⁽²⁾.

وفعلاً استولت القوات الصليبية على المدينة بعد حصار استمر خمسة أشهر وذلك في 23 جمادى الأولى 518هـ/ يوليو (تموز) 1124م⁽³⁾.

وقبل أن تطوى صفحة المقاومة الباسلة في صور لابد لنا من أن نورد ما ذكره وليم الصوري حول إعجاب الصليبيين بالمقاومة الشجاعة التي أبداهها أهل صور في دفاعهم عن مدينتهم فيذكر أنهم "أثنوا الثناء العاطر على شدة مقاومة أهلها الذين استطاعوا أن يؤجلوا الاستسلام زمناً طويلاً رغم مكابدتهم فظاظة المجاعة وندرة الطعام"⁽⁴⁾.

ثانياً:- الحملة الصليبية الثانية:-

نبتت فكرة الحملة الصليبية الثانية في بلاط الملك لويس السابع عام 540هـ/1145م⁽⁵⁾ عقب سقوط إمارة الرها⁽⁶⁾ في يد المسلمين في ديسمبر

(1) ابن جبير، الرحلة، ص214.

(2) الصوري، الأعمال المنجزة، ج2، ص. وانظر: ابن القلانسي، الذيل، ص211.

(3) الفيتري، تاريخ بيت المقدس، ص54. وانظر: ابن القلانسي، الذيل، ص211. نيكلسون، تطور الدويلات، ص113.

(4) الأعمال المنجزة، ج ، ص.

(5) Holt , The Age of the Crusades, p43, 170 . بردج، تاريخ الحروب، ص146-147.

(6) كانت الرها هي أول إمارة صليبية تسقط بيد المسلمين لتعود الى السيطرة الإسلامية، وذلك على يد الزعيم المسلم

عماد الدين زنكي ابن أبق سنقر في عام 539هـ/1144م: للمزيد حول هذا الموضوع انظر: ابن القلانسي، الذيل،

ص279-284؛ ابن الأثير، التاريخ الباهر، ص57-69؛ الكامل، ج9ص. ابن العديم، زبدة الحلب، ج2، ص279.

أبو شامة، الروضتين، ج1، ص138-149. ابن تغري بردي، النجوم، ج5، ص275. الصوري، الأعمال=

539هـ/1144م، وقد كان هذا الملك معروفاً بورعه وتقواه، فأحزنه كثيراً أبناء سقوط تلك الإمارة، فقرر القيام بحملة صليبية لتعزيز الكيان الصليبي في بلاد الشام ومنع سقوط مدن أخرى على أيدي المسلمين⁽¹⁾.

ولم يكن وقع سقوط الرها قاسياً على نفس الملك لويس السابع فقط بل كان له أثر كبير على جميع الصليبيين في الشرق والغرب على حد سواء، فأبدى الصليبيون في بلاد الشام انزعاجهم الشديد لهذا الحدث، الذي يحمل في طياته نذر شؤم على باقي الإمارات بقرب النهاية⁽²⁾، ويعطى إشارة ببدء تداعي الكيان الصليبي في المنطقة⁽³⁾.

وكما كان لسقوط الرها وقعه القاسي على صليبي الشام فقط كان له الأثر الشديد على الأوروبيين في الغرب، الذين اعتبروا أن سقوطها لطمة شديدة لهم، وتحد لمشاعرهم، وصدمة كبيرة لآمالهم، وتأكدوا أن الأمور لا تجري طبيعياً في الشرق، فظهر الدعاة ومن بينهم لويس السابع لحملة صليبية جديدة تهدف إلى تعزيز الوجود والاستقرار الصليبي في بلاد الشام، وتقوية الكيانات الصليبية الباقية في مواجهة المقاومة الرسمية والشعبية الإسلامية ضدهم⁽⁴⁾.

تكفل القديس برنار⁽⁵⁾ بالدعوة إلى الحملة الجديدة والتي كان هدفها استعادة الرها، واستجاب لدعوته ملك ألمانيا كونراد الثالث أولف هوهنز نوفن، إضافة إلى الملك الفرنسي

=المنجزة، ج2ص. بردج، تاريخ الحروب، ص143-144. جب، زكي وسقوط الرها، ص142-154. ماير،

تاريخ الحملة الصليبية، ص130-131. الشيخ، الجهاد المقدس، ص365. عصر الحروب، ص252-255.

Michel, Chronique, ed.pt.III,pp.259-263 ; Grousset, Histoire, pt.II, pp

.176-178; Stevenson Crusades in the east.p.153

(1) دويل، رحلة لويس، ج1، ص295. الصوري، الأعمال المنجزة، ج2، ص758 Holt, The Age of the Crusades, p.170.

(2) Stevenson Crusades in the east.p.158. بردج، تاريخ الحروب، ص145. بلدوين، الدويلات اللاتينية، ص191.

(3) دويل، رحلة لويس، ج1، ص295. الصوري، الأعمال المنجزة، ج2، ص758. الشيخ، الجهاد المقدس، ص376. عصر الحروب، ص257.

(4) حبشي، نور الدين، ص50. الشيخ، عصر الحروب، ص257. جوني، دمشق، ص189.

(5) برنار، صاحب الدور الرئيسي لدعوة الأوروبيين إلى الحملة الثانية والذي يشبه دور البابا أوربان الثاني الذي دعا للحملة الصليبية الأولى، وهو أحد رجال الدين المسيحيين وراعي دير كليرفو. وقد ولد في عائلة نبيلة في فونتين بفرنسا في العقد الأخير من القرن الحادي عشر، وأصبح ناسكاً في الثالثة والعشرين من العمر ومؤسساً لدار الرهبنة البندكتية في كليرفو بعد سنتين، وقد وصف بأنه على قدر كبير من الذكاء والقدرة على الخطابة. انظر: انظر: دويل، رحلة لويس، ج1، ص295. رنسيان، تاريخ الحروب، ج2، ص407 بردج، تاريخ الحروب، ص146-147. باركر، الحروب، ص73. زكار، حطين، ص67.

لويس السابع⁽¹⁾ وبذلك تألفت الحملة الصليبية الثانية من جيشين كبيرين ينتميان إلى أكبر دولتين في الغرب الأوروبي، ويقودها أكبر ملكين⁽²⁾.

ومهما يكن من أمر فقد اكتملت الجموع الصليبية في بيت المقدس التي كانت تحكم مملكتها الملكة ميليسند كوصية على الملك الصليبي بلدوين الثالث بن فولك الأنجوي⁽³⁾، وقد دعمتهم جميعاً في 3 صفر 543هـ / 24 يونيو 1148م لحضور الاجتماع الكبير في مدينة عكا ليقرروا وجهة حملتهم الصليبية الجديدة⁽⁴⁾، وفي هذا الاجتماع بحث الملوك والأمراء والأساقفة الصليبيون "أنسب وقت وأحسن مكان ليزيدوا من رقعة المملكة اتساعاً ويضيفوا إلى مجدها مجداً"⁽⁵⁾ على حد قول الصوري، فكان القرار والذي وصف بالأحمق هو مهاجمة مدينة دمشق⁽⁶⁾ والتي كان يحكمها معين الدين أنر⁽⁷⁾ الحليف الوحيد للصليبيين من بين الأفراد المسلمين⁽⁸⁾.

(1) الصوري، الأعمال المنجزة، ج2، ص759. دويل، رحلة لويس، ج1، ص298 وما بعدها بدرجة، تاريخ الحروب، ص146.

(2) باركر، الحروب، ص73. عاشور، الحركة، ج2، ص622. جوني، دمشق، ص194.

(3) الملك بلدوين الثالث: هو الابن الأول للملك فولك الأنجوي (ت 1143م/537هـ)، كان يبلغ من العمر عند وفاة والده ثلاثة عشر عاماً، ولما كان السن القانوني لاعتلاء عرش المملكة خمسة عشر عاماً، فقد وافق سادة المملكة والمحكمة العليا (The Haute Court of the Assises de Jerusaem) على تنصيب زوجة الملك ميليسند وصية على بلدوين الثالث حتى يبلغ السن القانونية لتولي عرش المملكة غير أن ميليسند لم تتنازل لابنها عن الحكم حتى بعدما بلغ السن القانونية، فنشأ بينها وبين ابنها صراعاً بعد أن بلغ من العمر عشرون عاماً في عام 1150م، لدرجة أنه قد تم تقسيم المملكة إلى قسمين شمالي يضم عكا وصور وتوابعها تحت حكم بلدوين الثالث، وجنوبي يشمل بيت المقدس ونابلس تحت حكم أمه ميليسند، إلى أن استطاع إجبارها على التنازل عن الحكم فلم يبق بيدها إلا نابلس وتوابعها. عن ذلك الصراع انظر: الصوري، الأعمال المنجزة، ج2، ص644، 655، 734، 796؛ Archer and kingsford. The Crusaders. P 113, 224. بلدوين، الدويلات اللاتينية، ص191، 194-195. البيشاوي، نابلس، ص88-89.

(4) رنسيان، تاريخ الحروب، ج2، ص453-454.

(5) الصوري، الأعمال المنجزة، ج2، ص779. ابن القلانسي، الذيل، ص298.

(6) الصوري، المصدر السابق، ج2، ص779. رنسيان، تاريخ الحروب، ج2، ص454. وينظر: ابن القلانسي، الذيل، ص298. بروج، تاريخ الحروب، ص155.

(7) معين الدين أنر: هو أتابك "مربي" حاكم دمشق مجير الدين أبق 534هـ/1139-1154م والحاكم الفعلي في عهده ووالده خاتون زوجة السلطان نور الدين محمود زنكي، توفي بدمشق عام 544هـ/1158م وكان حسن السيرة، عاقلاً، خيراً كما يصفه ابن الأثير. انظر: ابن الأثير، الكامل، ج9، ص353. ابن قاضي شهبة، الكواكب الدرية، ص126.

(8) Grousset, Historie, p. 255. رنسيان، تاريخ الحروب، ج2، ص452. بروج، تاريخ الحروب، ص155.

أ- المقاومة الشعبية خلال حصار الصليبيين لدمشق:

زحف الجيش الصليبي والذي وصف بأنه " أضخم ما قذف الفرنج من جيوش إلى ساحة المعركة"⁽¹⁾ نحو دمشق في منتصف يوليو سنة 543هـ/ 1148م، وقد بلغ عدد المقاتلين فيه نحو خمسين ألف مقاتل⁽²⁾ اجتمعوا أولاً في طبرية ثم تحركوا إلى بانياس و"قصدوا المنزلة المعروفة بنزول العساكر"⁽³⁾ وهي منطقة داريا، والتي غالباً ما كانت الجيوش المهاجمة لدمشق تأتي منها⁽⁴⁾ ولكنهم تصادفوا بانقطاع المياه كإجراء قام به الأهالي للتضييق على المهاجمين فغيروا من اتجاه الهجوم إلى قرية المزنة⁽⁵⁾، وفي يوم 6 ربيع الأول 543هـ/ 24 يوليو 1148م عسكروا على حافة الحدائق والبساتين التي تحيط بالمدينة المستهدفة والتي وصفها الصوري بأنها "أشبه ما تكون بغابة كثيفة تعمل على حماية المدينة، لأن الأشجار المزروعة بعضها إلى بعض كانت تجعل من الصعوبة بمكان الاقتراب من دمشق من ذلك الجانب"⁽⁶⁾ الجنوبي، والجنوبي الغربي⁽⁷⁾، ومن الجدير بالذكر أن حاكم دمشق معين الدين أنر عندما علم بوصول القوات الصليبية أخذ " في التأهب والاستعداد لحربهم ورفع شرهم وتحصين ما يخشى من الجهات وترتيب الرجال في المسالك والمنافذ، وقطع مجاري الميرة إلى منازلهم وطم الآبار، وعفي المناهل"⁽⁸⁾ وهذه الاستعدادات تنفي مزاعم بعض المؤرخين الغربيين⁽⁹⁾ حول تفاجئ الأهالي وحاكمهم أنر من هجوم الصليبيين على المدينة.

- (1) رنسيان، تاريخ الحروب، ج2 ص453. وانظر: بردج، تاريخ الحروب، ص155.
- (2) ابن القلانسي، الذيل، ص298. أبو شامة، الروضتين، ج1 ص185. ابن قاضي شهبه، الكواكب الدرية، ص126. وقد بالغ بعض المؤرخين في ذكر عدد الجنود المشاركين في الزحف نحو دمشق فذكر ابن خلكان بأنهم سبعمائة ألف أما الذهبي وابن كثير فلم يختلفوا كثيراً عن ابن القلانسي فاتفقا على أن الصليبيين زحفوا نحو دمشق بسبعين ألف. انظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج2، ص452. الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج20، ص405. ابن كثير، البداية والنهاية، ج12، ص223. انظر، مجهول، الحملتان، ج2، ص523.
- (3) ابن القلانسي، الذيل، ص298. أبو شامة، الروضتين، ج1، ص85.
- (4) الصوري، الأعمال المنجزة، ج2، ص780.
- (5) المزنة: قرية كبيرة غناء في وسط بساتين دمشق، بينها وبين دمشق نصف فرسخ. انظر: باقوت، معجم البلدان، ج5 ص122. وانظر: الإدريسي، نزهة المشتاق، ج1، ص366. ابن بطوطة، الرحلة، ج1، ص117.
- (6) الصوري، الأعمال المنجزة، ج2، ص779.
- (7) بن موسى، نظرة عربية، ص136.
- (8) ابن القلانسي، الذيل، ص298.
- (9) رنسيان، تاريخ الحروب، ج1، ص453. بردج، تاريخ الحروب، ص155.

وقد استغل أفراد المقاومة الشعبية من "أحداث البلد والمطوعة والغزاة"⁽¹⁾ أشجار البساتين الكثيفة وأخذوا ينصبون الكمائن ويشنون حرب عصابات⁽²⁾، وكان أول فريسة لتلك الكمائن التي نصبها المقاومون جيش بلدوين الثالث الذي كان أول الجيوش المتقدمة، حيث وجد أن أفراد المقاومة الشعبية "قد سدوا المسالك في وجهه واستولوا على الدروب الملتوية- كما- تربص أهل البلاد له في الشعاب في محاولة منهم لقطع الطريق عليه بهجمات يشنونها عليه خفية وعلانية"⁽³⁾، وهو ما نسميه بأسلوب حرب العصابات أو حرب الشوارع والذي يستخدمه أفراد المقاومة الشعبية في الوقت الحاضر في فلسطين والعراق.

كما استغل أفراد المقاومة الشعبية تلك البساتين وبدأوا "يقذفون منها وإبلاً لا ينقطع من السهام، ومنعوا أي أحد من الاقتراب منها بأي حال من الأحوال"⁽⁴⁾.

وخلف البساتين أحيطت المدينة بسور استغله أفراد المقاومة الشعبية لحمايتهم من هجوم الصليبيين "وراحو يطلون دون أن يراهم أحد من الفجوات الصغيرة الموجودة بكثرة في الأسوار فيطعنون المارة بالرماح التي في أيديهم"⁽⁵⁾.

وفي البيوت التي داخل البساتين تعاهد سكانها المتلاصقين بجانب بعضهم البعض "عهداً وثيقاً أن يبذلوا النفس والنفيس دفاعاً عنها"⁽⁶⁾ ضد العدوان الذي كان يستهدف الجميع. وعلى الرغم من كل الجهود السابقة لأهل دمشق إلا أن الصليبيين بأعدادهم الهائلة استطاعوا الدخول إلى تلك البساتين والحدائق⁽⁷⁾، "واستظهر الكفار على المسلمين بكثرة الأعداد والعدد وغلبوا على الماء، وانتشروا في البساتين وخيموا فيها وقربوا من البلد وحصلوا منه بمكان لم يتمكن أحد من العساكر قديماً وحديثاً فيه"⁽⁸⁾، ثم شرعوا بقطع أشجار تلك البساتين ليتخذوا منها متاريس وتحصينات⁽⁹⁾ تحميهم من هجمات أهل المدينة، كما

(1) ابن القلانسي، الذيل، ص298. وانظر: أبو شامة، الروضتين، ج1، ص180.

(2) بردج، تاريخ الحروب، ص155. رنسيان، تاريخ الحروب، ج1، ص454.

(3) الصوري، الأعمال المنجزة، ج2، ص780.

(4) المصدر نفسه. ج2، ص781-782.

(5) الصوري، الأعمال المنجزة، ج2، ص782.

(6) المصدر نفسه.

(7) المصدر نفسه.

(8) ابن القلانسي، الذيل، ص298. وانظر: أبو شامة، الروضتين، ج1، ص186.

(9) رنسيان، تاريخ الحروب، ج1، ص454.

وهدموا الفتائر (1) الموجودة هناك (2)، ثم قاموا بالقبض على عدد من أفراد المقاومة الشعبية ممن "وجدوهم في المخابئ والبيوت فراح القوم ما بين أسيرٍ أخذوه، وقتيلٍ أردوه" (3)، فلما علم بذلك أهل البلد الذين هبوا للدفاع عن البساتين (4) أصابهم "الارتياح لهول ما شاهدوه، والروع بما عاينوه ما ضعفت به القلوب، وخرجت معه الصدور" (5).

كما استطاع ملك الألمان كونراد الثالث الزحف بقواته نحو الربوة الواقعة على نهر بردى تحت أسوار المدينة مباشرة وبعد مقاومة شعبية باسلة وصلت إلى الاشتباك "بالأيدي" استطاعت قواته السيطرة على تلك الربوة وقد علل السوري ذلك بقوله أن الأهالي خارج الأسوار "لم يعودوا قادرين على تحمل المقاومة" (6) أمام الأعداد الهائلة من القوات الصليبية التي كانت مصممة على اجتياح المدينة خصوصاً بعد أن افترى أحد قساوستهم على المسيح بأنه رآه في المنام وقد وعده بفتح دمشق في اليوم العاشر من حصارهم للمدينة (7)، وخشي أهلها أن يقتحم الصليبيون عليهم الأسوار بعد أن أصبحت الطريق خالية أمامهم، ولم يعد هناك بساتين وأشجار يختبئ فيها الأهالي ويمنعوا تقدم القوات الصليبية بعد أن سيطرت عليها تلك القوات التي اقتربت بشكل كبير نحو السور فسهر "أهل البلد على أسوارهم للحرس والاحتياط وهم يشاهدون أعداءهم بالقرب منهم" (8)، وباستطاعتهم اجتياح المدينة في أي وقت، ومن أجل ذلك استغلوا سكون الليل وشرعوا في إقامة المتاريس "في شوارع

(1) الفتائر: هي جدران ترابية تفصل ما بين بساتين غوطة دمشق، ولعلها سميت كذلك لأن التراب كان يدك بين دفين كبيرين من خشب مثنتين بعوارض خشبية، فكان إذا جف الطين رفع منه دفا الخشب والعوارض، فيتخلف عن هذه العوارض فتحات، وخلف هذه الجدران كان يكمن الدمشقيون، ومن خلال فتحاتها كانوا يطعنون برماحهم كل من يحاول العبور من الجنود الصليبيين. أبو شامة الروضتين، ج1، ص187، حاشية (5). وقد لبّس الأمر على وفاء جوني وظننت أنها الحظائر وليست الفتائر. انظر: دمشق، ص222.

(2) ابن القلانسي، الذيل، ص298. ابن قاضي شهبه، الكواكب الدرية، ص127.

(3) السوري، الأعمال المنجزة، ج2، ص782.

(4) المصدر نفسه.

(5) ابن القلانسي، الذيل، ص298-299. وانظر: ابن قاضي شهبه، الكواكب الدرية، ص127.

(6) السوري، الأعمال المنجزة، ج2، ص782-783. وانظر: رنسيان، تاريخ الحروب، ج1، ص454.

(7) ابن الجوزي، المنتظم، ج10، ص131. سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج8، ص198-199. السذهبي، سير

أعلام النبلاء، ج20، ص405. ابن كثير، البداية والنهاية، ج12، ص224. ابن قاضي شهبه، الكواكب الدرية،

ص128.

(8) ابن القلانسي، الذيل، ص299.

المدينة بجذوع أشجار شديدة الضخامة بالغة الطول⁽¹⁾، استعداداً للاستماتة في القتال المسمى بحرب الشوارع أو حرب العصابات.

وفي صباح اليوم التالي خرج الأهالي لقتال الجيش الصليبي الذي كان يتحصن بأشجار البساتين فـ"أفسدوها رشقاً بالنشاب وحذفاً بالأحجار"⁽²⁾ فأصيب الصليبيون بالذعر وأحجموا عن الظهور لدرجة أن الأهالي ظنوا أنهم يدبرون حيلة للهجوم المفاجئ عليهم، ولم يظهر منهم إلا فرقة صغيرة على سبيل المناوشة، وقد استغل أهل دمشق قلة أعداد هذه الفرقة من الجيش الصليبي " وطمع فيهم نفر كثير من رجاله الأحداث والضياع وجعلوا يرصدونهم في المسالك، ويقتلون من ظفروا به"⁽³⁾، وهذا الهجوم كما وصفه رنسيان حرب عصابات مارسها الأهالي ضد القوات الصليبية خلال الدروب وبين الأشجار التي تملئ البساتين والحدائق⁽⁴⁾، ولما رأى الصليبيون شدة المقاومة قرروا الجلاء عن البساتين، والتحرك صوب الشرق، وإقامة معسكرهم في بقعة لا يتسنى فيها لأفراد المقاومة الشعبية من الأهالي نصب الكمائن، وتجنبهم حرب العصابات وعنصر المفاجأة الذي كان يعتمد عليها الأهالي في هجومهم على القوات الصليبية، وبالفعل تحرك الصليبيون في 9 ربيع الأول سنة 543هـ/27 يوليو 1148م أي في اليوم الرابع من أيام حصارهم للمدينة إلى السهل الواقع خارج السور الشرقي، وقد اعتبر بعض المؤرخين الغربيين، هذا القرار في غاية الخطورة على الصليبيين من جانب، ولصالح المقاومة الشعبية من أهل دمشق من جانب آخر، ومكمن الخطورة بالنسبة للصليبيين أنهم انتقلوا إلى موضع يفتقر إلى الماء والغذاء، على عكس المكان الأول حيث الماء وبساتين الفاكهة التي يمكن أن تطعم الجيش الصليبي لفترة طويلة مهما كبر حجمه؛ كما أن هذا الموضع يواجه أمناً وأقوى قطاع في السور المحيط بالمدينة، أما بالنسبة لأهل المدينة فإنهم استفادوا من ترك الصليبيين للمناطق التي كانوا يحتلوها في البساتين، فوسعوا من انتشارهم في الغوطة⁽⁵⁾ والبساتين وأصبحوا يطوقون القوات الصليبية من الجنوب والغرب والشمال "وعمدوا إلى الطرق التي سبق

(1) الصوري، الأعمال المنجزة، ج2، ص783. رنسيان، تاريخ الحروب، ج2، ص454.

(2) ابن القلانسي، الذيل، ص299 وفي تلك الرواية إشارة مهمة حول قيام الأهالي برشق وحذف الصليبيين بالحجارة وهو نفس السلاح الذي يستخدمه أهلنا في الأراضي العربية المحتلة.

(3) المصدر نفسه.

(4) رنسيان، تاريخ الحروب، ج2، ص454.

(5) الغوطة: تقع شرقي دمشق، وهي القسم الذي يرويه نهر بردى بعد خروجه من دمشق وتحيط به الجبال والمزارع.

انظر: الإدريسي، نزهة المشتاق، ج1، ص366. حسن، جغرافية، ص96.

للصليبيين الدخول منها فسدوها بمتاريس من الكتل الخشبية الضخمة والأحجار الثقيلة⁽¹⁾ كما أقاموا هناك مجموعة من أفراد المقاومة الشعبية المسلمين بالنبال ليحولوا دون تمكن العدو من البلد من الناحية التي يعسكرون فيها لعدم وجود الطعام الكافي بين أيديهم⁽²⁾، وانقلب الصليبيون إلى مدافعين، والدمشقيون إلى مهاجمين⁽³⁾ وفي الواقع أن انسحاب الصليبيين من البساتين إلى المنطقة الشرقية أو عدم انسحابهم كان في غير صالحهم لأنهم لو ظلوا في البساتين وبرغم توفر الماء والغذاء فإنهم سيظلوا فريسة لمصائد المقاومة الشعبية في الدروب والمسالك وبين الأشجار، وبعد انسحابهم أصبحوا عرضة للجوع والعطش في منطقة جرداء قاحلة ومن السهل على المقاومين مهاجمتهم من بين البساتين التي انسحبوا منها، وفي غمرة هذه الظروف السيئة التي تحيط بالصليبيين دب الخلاف بين قادتهم وأخذوا يتهمون بعضهم البعض بالخيانة والجبن والرشوة⁽⁴⁾، عند ذلك قرر أبرز قادة الحملة وهما لويس السابع وكونراد الثالث الارتداد عن دمشق بعد أربعة أيام من إلقاء الحصار عليها⁽⁵⁾ وذلك يوم الأربعاء 28 يوليو سنة 1148م⁽⁶⁾/الموافق العاشر من ربيع الأول 543هـ⁽⁷⁾، وعلى الرغم من الانسحاب المخزي للجيش الصليبي فإن أهل دمشق وجيشها لم يتركوهم يعودوا إلى بيت المقدس المحتلة بهدوء فأخذوا يهاجمون مؤخرة الجيش وجناحيه ليلاً، وينصبون الكمائن له على طول طريق عودتهم وتناثرت جثث الجنود والخيل على امتداد الطريق "ووجد في آثار منازلهم وطرقاتهم من دفائن قتلاهم وفاخر خيولهم ما لا عدد له ولا حصر يلحقه بحيث لها روائح من جيفهم تكاد تصرع الطيور في الجو"⁽⁸⁾.

ومما سبق ندرك حجم الخسائر التي تكبدها الصليبيون نتيجة المقاومة الشعبية الشديدة التي أبداها أهل دمشق، واستطاعوا دحر الجيش الصليبي الضخم العدد والعتاد في خلال مدة وجيزة لم تتجاوز الخمسة أيام وهذا ما أذهل بعض المؤرخين وجعلهم يخلقون

(1) الصوري، الأعمال المنجزة، ج2، ص784.

(2) المصدر نفسه.

(3) ابن موسى، نظرة عربية، ص137.

(4) الصوري، الأعمال المنجزة، ج2، ص785.

(5) Stevenson, Crusades in the East, p160.

(6) رنسيان، تاريخ الحروب، ج2، ص457. بردج، تاريخ الحروب، ص156.

(7) ابن القلانسي، الذيل، ص300.

(8) المصدر نفسه.

الذرائع والأسباب⁽¹⁾ التي أدت إلى فشل هذه الحملة، وتناسوا المقاومة الأسطورية التي سطرها أهالي دمشق صغارهم وكبارهم، شيوخهم وفقهائهم، فمع أن الحملة الصليبية الثانية كانت أكثر تنظيماً وقوة من الحملة الصليبية الأولى⁽²⁾، فإن المقاومة الشعبية التي أبدتها أهل دمشق و قوات معين الدين أنر أكدت أن الصليبيين قابلوا هذه المرة مسلمين جدداً غير ما قابلوه في حملتهم الأولى، وهذا القول لا يعني أن الحملة الصليبية الأولى لم تجابه بمقاومة شعبية، فقد رأينا في صفحات البحث السابقة كيف قاوم أهالي المدن الإسلامية القوات الصليبية المهاجمة، ولكنها سقطت في النهاية، أما أهل دمشق فإنهم استطاعوا التصدي للهجوم الصليبي ودحره بعد حصار لم يدم إلا أربعة أيام، على عكس المدن الأخرى والتي كان يطول فيها الحصار إلى شهور وربما سنوات كدليل على قوة الصمود فإنه كان ينتهي باحتلال المدينة.

والأهم من ذلك كله أن فشل الحملة الثانية أمام دمشق أدى إلى تبديد وانتهاء "أسطورة فرسان الغرب الذين لا يقهرون، التي نمت وترعرعت أثناء مغامرة الحرب الصليبية الأولى"⁽³⁾ وانتعشت آمال المسلمين "واستبشر الناس بهذه النعمة التي اسبغها الله عليهم وأكثروا من الشكر لله تعالى"⁽⁴⁾، لأنه استجاب لدعائهم، وأهداهم مقاومتهم وصمودهم، فكانت نصراً عزيزاً مؤزراً.

اجتمع قادة الحملة الفاشلة في القدس "في محاولة جديدة منهم للقيام بأي عمل يرفع من ذكرهم فاقترح بعضهم محاصرة عسقلان"⁽⁵⁾.

(1) من بين الأسباب التي افتعلها مؤرخو الصليبيات ومن بينهم وليم الصوري اختلاف قادة الجيش الصليبي وهم أمام دمشق على من سيكون أميراً للمدينة بعد فتحها الأمر الذي دفع بعض الأمراء إلى التراخي في الهجوم حين لم يرشحو لإمارة المدينة، ومن بين الأسباب أيضاً ما بذله أمير أنطاكية من جهة لإفشال الحملة نكاية في الملك الفرنسي لويس السابع، وحمل بعض المؤرخين الإسطبارية الداوية بلدوين الثالث المسؤولية عن فشل الحملة واتهموهم بتلقي الرشوة من أمير دمشق أنر في سبيل الانسحاب من البساتين إلى الناحية الشرقية المكشوفة، وما تلقاه أنر من نجدات خارجية. راجع هذه الأسباب وغيرها في: الصوري، الأعمال المنجزة، ج2، ص785-787. Stevenson, Crusades in the East. p. 159-160. مجهول، الحملتان الأولى والثانية، ج2، ص523-524 رنسيان، تاريخ الحروب، ج2 ص455-457. بردج، تاريخ الحروب، ص156-157. عاشور، الحركة الصليبية، ج2، ص634. الشيخ، عصر الحروب، ص274-275. جوني، دمشق، ص225-228.

(2) ابن موسى، نظرة عربية، ص138.

(3) انظر: الصوري، الأعمال المنجزة، ج2، ص787. والنص مقتبس من رنسيان ج2، ص158 وفضلنا الاقتباس منه مع أن الأصل هو الصوري لأن رنسيان يوضح للفكرة التي أوردها الصوري بلغة العصر.

(4) ابن القلانسي، الذيل، ص300.

(5) الصوري، الأعمال المنجزة، ج2، ص788.

غير أنها كانت محاولة فاشلة على حد قول الصوري، إذ انفضت الحملة وعاد قادتها إلى الغرب دون تحقيق هذا الهدف، بيد أن بلدوين الثالث ملك بيت المقدس المحتلة عاد ففكر في هذا المشروع لتكون عسقلان بعد احتلالها نقطة للانطلاق نحو مصر⁽¹⁾ مقرر حصارها كما سنرى.

ب - المقاومة الشعبية خلال حصار الصليبيين لعسقلان:

عاد الصليبيون لحصار عسقلان وذلك في 25 يناير 1153م/27 شوال 547هـ بعد خمسين سنة من احتلالهم لبلاد الشام ومن الجدير بالذكر أن محاولاتهم لاحتلال عسقلان لم تتوقف البتة خلال هذه الخمسين السنة ولكنها باءت كلها بالفشل⁽²⁾ لدرجة جعلت ابن الأثير يبالغ بالقول بأن الصليبيين كانوا "كل سنة يقصدونها"⁽³⁾، ويحاصروها بشدة ولكن المقاومة الشعبية من الأهالي إلى جانب الحامية الفاطمية كانت تردهم على أعقابهم خاسرين "فلا يجدون إلى ملكها سبيلاً"⁽⁴⁾

ولعل صمود المدينة هذه المدة الطويلة من الزمن يعود إلى حصانة المدينة من ناحية⁽⁵⁾؛ وتوفر كل الإمكانيات التي تساعد الأهالي على المقاومة من أسلحة ومعدات، كانت ترسل من الخلافة الفاطمية في كل عام دون انقطاع⁽⁶⁾ لأنها كانت تشكل قاعدة الهجوم الفاطمي من مصر على مملكة بيت المقدس اللاتينية⁽⁷⁾، ولأن غزة هي حلقة الوصل بين مصر من جهة وعسقلان من جهة أخرى فقد قرر بلدوين الثالث بناء قلعة⁽⁸⁾ فيها تعمل على

-
- (1) Stevenson, Crusades in the East, p.171. الصوري، الأعمال المنجزة، ج2، ص788.
 - (2) ابن القلانسي، الذيل، ص321. ابن الأثير، الكامل، ج9 ص392. الحريري، الإعلام، ص77. الصوري، الأعمال المنجزة، ج2، ص811.
 - (3) ابن الأثير، الكامل، ج9، ص392.
 - (4) المصدر نفسه، ج9، ص392. وانظر: الحريري، الإعلام، ص77.
 - (5) الصوري، الأعمال المنجزة، ج2، ص809، 811. الفيتري، تاريخ بيت المقدس، ص45.
 - (6) الصوري، الأعمال المنجزة، ج2، ص810. أبو الفداء، المختصر، ج2، ص98. بردج، تاريخ الحروب، ص163.
 - (7) الصوري، الأعمال المنجزة، ج2 ص759.
 - (8) ابن منقذ الإعتبار، ص12. أبو شامة، الروضتين، ج1 ص239. الصوري، الأعمال المنجزة، ج2 ص794-795. الفيتري، تاريخ بيت المقدس، ص45. بردج، تاريخ الحروب، ص163. سميل، الحروب، ص215. براور، الإستهيطان، ص359-341-360.

سد الطريق الساحلي المؤدي إلى عسقلان⁽¹⁾، وكانت خطوتهم الأولى هي تدمير البساتين المحيطة بالمدينة نظراً لأنها كانت تشكل منطلقاً رحباً للمقاومين من أهل عسقلان⁽²⁾.
شرع الصليبيون في حصار عسقلان في 27 شوال 547هـ/25 يناير (كانون الثاني) 1153م براً وبحراً، وكان "بلدوين الثالث على رأس الجيش الصليبي وبصحبه عدد كبير من الشخصيات الدينية والعلمانية"⁽³⁾.

وقد عسكرت القوات الصليبية ونصبت خيامها حول المدينة بشكل دائري ثم بدأوا بنصب آلاتهم الحربية كالكبوش والمجانيق، والأبراج التي كان من بينها برجاً خشبياً عالياً جداً مركب على دواليب بعلو شاهق جداً أعلى من أسوار المدينة ويمكن فوقه قصف المدينة بالأحجار والصخور والسهام، وكل أنواع القذائف المهلكة لتصل إلى شوارع المدينة وبيوتها⁽⁴⁾، هذا من الناحية البرية، أما من الناحية البحرية فقد تم حصار المدينة بأسطول مؤلف من خمس عشرة سفينة حربية⁽⁵⁾، وتم تدعيم هذه القوة البحرية بعد شهرين من الحصار بأسطول بحري كبير يحمل عدداً غير قليل من الحجاج والفرسان والمشاة الذين انضموا إلى صفوف القوات الصليبية المحاصرة للمدينة⁽⁶⁾.

(1) ابن منقذ، الاعتبار، ص 12. الصوري، الأعمال المنجزة، ج 2، ص 794-795. ماير، تاريخ الحملات، ص 161. بردج، تاريخ الحروب، ص 162.

(2) الصوري، الأعمال المنجزة، ج 2، ص 808.

(3) كان ممن حضر حصار عسقلان من الشخصيات الدينية كما ذكر وليم الصوري كل من: فلوتشر بطريرك القدس، ورئيس أساقفة مدينة صور بطرس، ورئيس أساقفة قيسارية بلدوين، ورئيس أساقفة الناصرة، روبرت، وأسقف عكا روبرت، وأسقف بيت لحم جبرالد، ومقدم الداوية برناردي تريمل، ومقدم الإسطرابية ريموند. أما من حضر من الأمراء العلمانيين فهم: هيودي ابلين وقليوب حاكم نابلس، ومفري حاكم تيرون، وسيمون حاكم طبرية، وجيرارد حاكم صيدا، وغي حاكم بيروت، وموريس صاحب مونتريال (الشوبك) ورينو دي شاتليون (أرناط) وولتر أوف سانت أومر. وتدل هذه المشاركة الواسعة على تصميم الصليبيين على احتلال عسقلان ووضع حد لمقاومة الأهالي فيها. انظر: الصوري، الأعمال المنجزة، ج 2، ص 808-809، 811. بلدوين، الدويلات اللاتينية، ص 196.

(4) الصوري، الأعمال المنجزة، ج 2، ص 812-813. وانظر: بردج، تاريخ الحروب، ص 163.

(5) الصوري، الأعمال المنجزة، ج 2، ص 811، وهذا الذي أورده الصوري يدحض مقولة من يرجح بأن الصليبيين لم يكن لديهم قوة بحرية للتدخل.

(6) الصوري، الأعمال المنجزة، ج 2، ص 812. وانظر: بلدوين، الدويلات اللاتينية، ص 196، وهنا يجب التنويه بمشاركة الحجاج في حصار عسقلان مما يعني أن المقاومة الشعبية عندما كانت تقتل الحجاج على طريق يافا-القدس - كانت تعني ما فعله، كما أن ما أورده الصوري يرد الشبهات حول مشروعية قتل هؤلاء الحجاج بحجة أنه ليس لهم حول ولا قوة وأنهم إنما جاءوا للعبادة من خلال زيارة الأماكن المقدسة المسيحية في فلسطين وسيتم تفصيل ذلك في نقطة منفردة في الفصل الثالث إن شاء الله.

وإذا ما طالعنا الموقف على صعيد الأهالي في عسقلان فإننا نجد أنهم ونظراً لتجربتهم المريرة مع الغزاة الصليبيين على مدى خمسون عاماً، قد اتخذوا كافة السبل والوسائل التي تكفل لهم الحماية، ونجحوا في حراسة مدينتهم بعناية وخاصة خلال الليل فسهرروا معظم الليالي وقاموا بوضع مصابيح زجاجية تعمل بالزيت، وكانت مزودة بأغلفة شفافة لحماية لهيبها على طول الأسوار، وعلى شرفات الأبراج، وتحسباً لحصار طويل على المدينة قام الأهالي في عسقلان بتعبئة المستودعات بالطعام وقاموا ببناء صهاريج لتلقي مياه الأمطار⁽¹⁾، وبالنسبة لأهل المدينة وهم العنصر البشري المعول عليه، فإن عسقلان "كان فيها عدد كبير من السكان المدربين بشكل جيد... على استخدام الأسلحة"⁽²⁾، ومع كثرة الصليبيين المحاصرين للمدينة فإن هؤلاء السكان وهم المقاومة الشعبية كانوا ضعف الجيش المحاصر للمدينة حتى بعد وصول الدعم الأوروبي⁽³⁾.

استكمل الجيش الصليبي استعداداته الخاصة بنصب الآلات العسكري، وبدأوا بعدها بشن الهجمات الخاطفة على المدينة غير أن "سكان المدينة واجهوا هذه المحاولات بشجاعة وقاوموها بقوة، حيث كانوا يقاتلون دفاعاً عن زوجاتهم وأبنائهم... وحریتهم"⁽⁴⁾.

استمر الصليبيون بشن هجماتهم على المدينة وضاعفوها مع وصول الدعم الأوروبي وعمدوا إلى بناء مزيداً من الأبراج الخشبية من سوارى السفن ثم قاموا بحمايتها بجلود الحيوانات المدبوغة، وشرعوا بقصف المدينة ونجحوا في تدمير جزء من السدود المحيطة بالمدينة، وألصقوا بعدها برجهم الضخم بالأسوار وخلال هذا الهجوم الصليبي "استخدم سكان المدينة قسيهم وسهامهم بشجاعة وإصرار من الأسوار تارة ومن المتاريس أحياناً لإنهاك المحجوبين في داخل الأبراج"⁽⁵⁾ واستطاعوا رد القوات الصليبية إلى خيامهم مقهورين ولم يكتفوا بذلك بل لاحقوهم إلى تلك الخيام⁽⁶⁾.

ومما زاد من صمود الأهالي في عسقلان، وصول نجدة فاطمية من مصر مكونة من سبعين سفينة وكانت تحمل جنوداً ومواد غذائية⁽⁷⁾، غير أن ذلك لم يثن الصليبيون عن

(1) الصوري، الأعمال المنجزة، ج2، ص809-810. بردج، تاريخ الحروب، ص163.

(2) الصوري، الأعمال المنجزة، ج2، ص811.

(3) المصدر نفسه.

(4) المصدر نفسه، ج2، ص811.

(5) الصوري الأعمال المنجزة، ج2، ص813.

(6) ابن الأثير، الكامل، ج9، ص392، حيث يذكر بأن أهل عسقلان قاتلوا الصليبيين "داخل السور، وردوا الفرنج إلى خيامهم مقهورين، وتبعهم أهل البلاد إليها".

(7) الصوري، الأعمال المنجزة، ج2، ص814. ابن القلانسي، الذيل، ص320. أبو شامة، الروضتين، ج1، ص289.

عزمهم اجتياح المدينة وبدأوا بقصف المدينة بوابل من الصخور الضخمة والتي هددت بإضعاف الأسوار "وينسف المنازل... داخل المدينة"⁽¹⁾ وأدى ذلك بالإضافة إلى الهجوم الذي شنه الجنود المحتجبين في البرج الخشبي إلى وقوع عدد كبير من الشهداء والجرحى في صفوف السكان الذين صمموا على تدمير وإحراق تلك الآلة الحربية مهما كلفهم ذلك وشرعوا في جمع أكبر كمية من الأخشاب والمواد الحارقة لتوضع في أقرب مكان من البرج الخشبي ثم يقوموا بإشعال النار على أمل أن يصل لهيبها إليه فيحترق، وقد استجاب بعض الشباب الذين "اعتبروا سلامة أبناء مدينتهم أهم من سلامتهم"⁽²⁾ لنداء الأهالي بوجوب تدمير ذلك البرج، وقامت المجموعة الفدائية المختارة بتنفيذ هذه المهمة الخطيرة مضحين بأرواحهم في سبيل الله ومن أجل الوطن ولكن الريح جاءت بما لا يشتهي الفدائيون وسكان المدينة، فمع أن النار أحرقت البرج⁽³⁾ إلا أن رياحاً شرقية معاكسة هبت خلال اشتعال النار فارتد لهبها إلى سور المدينة فأدت الحرارة الشديدة للنيران إلى انهيار جزء منه، فاندفع الصليبيون وخاصة فرسان الداوية نحو الثغرة التي أحدثها الحريق في السور على أمل الدخول إلى المدينة ونجحوا بالوصول إلى أحد الشوارع وهناك التقى الأهالي بهؤلاء الجنود الأربعة وناقضوا عليهم "بعدما أدركوا أنهم انعزلوا عن رفاقهم وهاجموهم بقوة وشجاعة متجددتين وقتلوهم"⁽⁴⁾.

ولم يكتفوا بذلك فقط بل قاموا بتكديس قتلى الصليبيين في ثغرة السور حتى يتم إصلاحه وبعد أن انتهوا من بناء الجزء المنهار من السور قاموا بتعليق جثث القتلى بالحبال من شرفات السور مبهجين بالإنجاز الكبير الذي حققوه⁽⁵⁾.

ويبدو أن ما فعله أهل عسقلان بالجنود الصليبيين ليس الهدف منه التمثيل بالجثث وارتكاب المجازر كما يفعل الصليبيون، ولكن الهدف من ذلك هو ردع المهاجمين، ومنعهم من العودة مرة أخرى لمهاجمة المدينة، وإشاعة الإحباط واليأس في صفوف المعسكر الصليبي حيث عرف ذلك العصر ظاهرة الحرب النفسية في عدد من المواقف ومنها ذلك الموقف الذي فعلته المقاومة الشعبية، وقد نجحوا في ذلك إلى حد ما، فبعد هذه المصيبة

(1) الصوري، الأعمال المنجزة، ج2، ص816.

(2) المصدر نفسه، ج2، ص816.

(3) بردج، تاريخ الحروب، ص163.

(4) الصوري، الأعمال المنجزة، ج2، ص817. وانظر: ابن القلاسي، الذيل، ص321. بردج، تاريخ الحروب،

ص163. بلدوين، الدويلات اللاتينية، ص197. عوض، التنظيمات، ص115-116.

(5) الصوري، الأعمال المنجزة، ج2، ص817-818. بردج، تاريخ الحروب، ص163.

التي حلت بالأربعين جندي في ثغر عسقلان "آيس حينئذ الصليبيون من ملكه"⁽¹⁾ وقرروا الرحيل عن المدينة وانقسموا فيما بينهم بين مؤيد للانسحاب، وبين معارض له، وكانت الكفة الراجحة للفئة المعارضة لهذا الرحيل الذي سيكون مخزياً لو تم، واندفعوا بقوة نحو الأسوار مفعمين بروح الانتقام⁽²⁾، وهاجموا المدينة و"ضايقوها بمغادة القتال ومرأوحته"⁽³⁾ واستطاعوا قتل عدد كبير من سكان المدينة الذين قاوموا هذا الهجوم "ونادراً ما كانت هناك أية أسرة في المدينة لم يصب أفرادها بكرب عميق"⁽⁴⁾ جراء استشهاد أو إصابة أحد أبنائها. طال حصار الصليبيين للمدينة واشتدت ضرباتهم لها، "فصبر أهلها وقاتلوهم قتالاً شديداً"⁽⁵⁾ وذلك على مدى خمسة شهور اضطروا بعدها إلى طلب الأمان والسماح لهم بمغادرة المدينة بما يملكون من أموال وأمتعة في السادس والعشرين من جمادى الأولى سنة 548هـ/التاسع عشر من أغسطس (آب) سنة 1153م⁽⁶⁾ وبناءً عليه تم تسليم المدينة. وقام السكان بمغادرتها طوعاً عن طريق البر والبحر إلى مصر⁽⁷⁾.

ويأتي تسليم أهالي عسقلان بناء على اجتماع عقده أعيان ووجهاء المدينة وحضر هذا الاجتماع المصري كل من في البلد "وكان من بين الحشد نسوة ضممن أطفالهن إلى صدورهن، ورجال ضعفاء مسنون"⁽⁸⁾ بمعنى أن قرار تسليم المدينة وطلب الأمان لم يكن قراراً فردياً أو من سلطة عليا، أو بإيعاز من الخلافة الفاطمية بل كان قراراً شعبياً شاركت فيه حتى النساء والشيوخ والأطفال.

(1) ابن الأثير، الكامل، ج9، ص392.

(2) الصوري، الأعمال المنجزة، ج2، ص818-819. بردج، تاريخ الحروب، ص163. بلدوين، الدويلات اللاتينية، ص197.

(3) ابن القلانسي، الذيل، ص321.

(4) الصوري، الأعمال المنجزة، ج2، ص819.

(5) ابن الأثير، الكامل، ج9، ص392. وانظر: ابن قاضي شهبة الكواكب الدرية، ص144. الحريري، الإعلام، ص77.

(6) حول سقوط عسقلان بأيدي الصليبيين انظر: ابن القلانسي، الذيل، ص321. ابن الأثير، الكامل، ج9، ص392. أبو

شامة، الروضتين، ج1 ص289. أبو الفداء، المختصر، ج2، ص198. الدوداري، الدرّة المضيئة، ص562-563.

ابن قاضي شهبة الكواكب الدرية، ص144. الصوري، الأعمال المنجزة، ج2، ص821-822. الفيتري، تاريخ

بيت المقدس، ص45. ماير، تاريخ الحملات، ص161؛ بردج، تاريخ الحروب، ص163-164. بلدوين،

الدويلات اللاتينية، ص197. السيد، السياسة الخارجية، ص138-141. Conder, the Latin Kingdom of .

Jerusalem, p.115; Archer and Kings Ford, The Crusades, p.227; Stevenson, The Crusaders

.117-116. in The East, p.171; The Cambridge, History, Vol A, p.201. وانظر: العسقلاني، عسقلان، ص116-117.

(7) ابن القلانسي، الذيل، ص321. وانظر: أبو شامة، الروضتين، ج1، ص389.

(8) الصوري، الأعمال المنجزة، ج2، ص820.

وفي هذا الاجتماع استعرض الأهالي ما قاموا به من بطولات شعبية وكفاح وطني من أجل نيل الحرية على مدى خمسون عاماً؛ ومع ذلك اضطروا للتسليم في النهاية لأنهم اعتبروا أن ما كان يهددهم من خطر على مدى الخمسين سنة التي قاوموا فيها يساوي الخطر الذي يتعرضون له نتيجة للحملة الأخيرة⁽¹⁾.

ونستخلص مما سبق أن ما تعرضت له عسقلان من حملات على مدى خمسين عاماً لم يكن بقوة الحملة التي قادها بلدوين الثالث خاصة إذا ما علمنا أن مدينة عسقلان هي آخر المدن الساحلية التي ظلت بأيدي المسلمين وكانت كما ذكرنا في بداية حديثنا تمثل قاعدة الهجوم الفاطمي من مصر ضد المملكة اللاتينية في القدس، وعليه فإن مهاجمتها ومن ثم احتلالها كان ضرورياً جداً للصليبيين، وخاصة لبلدوين الثالث الذين يبدو أنه كان يريد تحقيق مجداً لنفسه ويرفع من مكانته بين الصليبيين خصوصاً بعد الهزيمة الساحقة التي مني بها هو وحلفاؤه أمام دمشق.

ومع كل هذا فإن ابن الأثير يخرج علينا برواية تؤكد على أن الصليبيين بعد أن هزموا أمام عسقلان عزموا على الرحيل، ولكن خلافاً داخلياً حدث بين أهالي عسقلان وصل إلى حد الاقتتال الداخلي بين أبناء البلد الواحد مما جعل الصليبيون يعودوا إلى المدينة ويهاجموها بقوة، فاضطر الأهالي المنهكين إلى معاودة الاقتتال وهذا بدوره أدى إلى قبولهم الأمان والتسليم، ويعزوا ابن الأثير هذه الفتنة الداخلية في عسقلان إلى أن الأهالي وبمجرد رحيل الصليبيين انقسموا فيما بينهم إلى طائفتين "ادعت كل طائفة منهم أن النصر من جهتهم كانت وأنهم هم الذين ردوا الفرنج خاسرين، فعظم الخصام بينهم إلى أن قتل من إحدى الطائفتين قتيلاً واشتد الخطب وعظم حينئذ، وتفاقم الشر ووقعت الحرب بينهم فقتل بينهم قتلى"⁽²⁾.

(1) أورد السوري نص قرار تسليم المدينة الذي أجمع عليه أهالي عسقلان ونظراً لما يحتويه البيان من مدلولات وعبارات حول المقاومة الشعبية التي أبداه أهل عسقلان، ونظراً لطوله بحيث لا يمكن إيرادها ضمن متن البحث فضلنا جعله ضمن ملاحق البحث.

(2) ابن الأثير، الكامل، ج9، ص392. لا يحمل ما أورده ابن الأثير أي غرابة خاصة في عصرنا الحالي ونحن نواجه الاحتلال الإسرائيلي، ففي بعض الأحيان نسمع ونشاهد ما يحدث من خلاف بين بعض التنظيمات والأحزاب حول تبني بعض العمليات الاستشهادية أو غيرها، فبمجرد وقوع أي عملية ضد الإسرائيليين تسارع التنظيمات إلى تبني تلك العملية فنجد أن عملية واحدة قد تبنتها أكثر من جهة وهنا يحصل الخلاف الذي قد يصل إلى الاقتتال الغير محمود والذي يكون في صالح العدو الذي يترصد بنا الدوائر، لماذا لا يكون أفراد المقاومة الشعبية جنود مجهولين لا يتغنون عرض الدنيا ومجدها الزائل، وإنما يرجون لقاء ربهم ونعيم الجنة الدائم، وفي النهاية فإن الهدف الذي تسعى إليه كل التنظيمات والأحزاب هو التحرير للأرض وطرده المحتل فلماذا الاختلاف على=

وإذا ما صحت رواية ابن الأثير فإنه يمكن استنتاج وجود ما يسمى بالتنظيمات والأحزاب السياسية التي نظمت سير المقاومة الشعبية ضد الصليبيين المحاصرين للمدينة، وبعد عزم الصليبيين على الرحيل عن عسقلان بسبب العملية الفدائية التي أودت بحياة أربعين من الجنود الصليبيين ونتيجة للمقاومة الشعبية الشديدة اندلع الخلاف بين التنظيمات السياسية حول نسبة هذه العملية إلى جهتهم، وتناشوا أهمية وضرورة الوحدة الوطنية حتى بعد انسحاب المحتل، وانشغل الأهالي بالافتتال الداخلي، فاستغل العدو ذلك وعاود الهجوم على نطاق واسع جعل الأهالي يذعنون لطلب الاستسلام والأمان.

ثالثاً: الحملة الصليبية الثالثة:

لم تكن معركة حطين مجرد هزيمة عسكرية ألحقت بالصليبيين⁽¹⁾ بل كانت بمثابة "مفتاح الفتوح الإسلامية"⁽²⁾ في المنطقة، فقد اتجه صلاح الدين بعدها إلى سائر المدن والقلاع الصليبية، وأخذ يحررها الواحدة تلو الأخرى⁽³⁾ وكانت أولى هذه المدن المحررة مدينة طبرية والتي استطاع تحريرها في 25 ربيع الآخر 583هـ / 4 تموز 1187م⁽⁴⁾، ثم اتجه بعدها إلى المدن الساحلية، ليحرم الصليبيين من قواعدهم البحرية التي تربطهم بأوروبا فيمسوا محصورين ببلاد الشام⁽⁵⁾ هذا من جانب، ومن جانب آخر يسهل على جيشه الاتصال البحري السريع بين موانئه البحرية الموجودة في الساحل وبين تلك المواني المنتشرة في

=الرتوش والألقاب. وللمزيد حول هذا النزاع بين أهل المدينة انظر: ابن القلانسي، الذيل، ص 320. الذهبي،

العبر، ج 4، ص 129. دول الإسلام، ج 2، ص 63. اليافعي، مرآة الجنان، ج 3، ص 386.

(1) انتصر المسلمون في حطين في يوم السبت 25 ربيع الآخر 583هـ / 4 تموز (يوليو) 1187م وقد اعتبرها بردج

بأنها "تكبة لا مثيل لها بالنسبة للمسيحيين" بردج، تاريخ الحروب، ص 197. وانظر: تفاصيل المعركة في ما يلي:

ابن شداد، النوادر، ص 60-64. ابن أيوب، المنتخبات، ص 289-290. البنداري، سنا البرق، ص 291-299. أبو

شامة، الروضتين، ج 3، ص 275-292 ابن واصل، مفرج الكروب، ج 2، ص 189-194. المقرئ، ابن العديم،

زبدة الحلب، ج 3، ص 93-95. سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج 8، ق 1، ص 392-394. الظاهري، زبدة

كشف الممالك، ص 43. الفيتري، تاريخ بيت المقدس، ص 148-152. جاكسون، معركة حطين، ص 86-110.

يوسف، معركة حطين، ص 235-251. الطيبي، وقعتنا حطين والأرك، ص 51-64. زيادة، يوم حطين، ص 36-

46. عاشور، حطين، ص 42-45. زنبير، معركة حطين، ص 165-176. الجنحاني، حطين، ص 165-176.

محمود، العلاقة، ص 155-160-160. Grousset, II, pp. 793-798; Stevenson, The Crusaders, pp 243-

(2) ابن واصل، مفرج الكروب، ج 2، ص 88.

(3) عبد القادر، سياسة صلاح الدين، ص 296.

(4) ابن شداد النوادر، ص 64. ابن واصل، مفرج الكروب، ج 2، ص 195. وانظر: Lane Pool, saladin, p. 223.

(5) عاشور، الحركة الصليبية، ج 2، ص 813. حسنين، تاريخ، ص 146. عبد القادر، سياسة صلاح الدين، ص 298.

سلامة، عكا، ص 65.

الساحل الشامي⁽¹⁾، وكانت عكا هي أول المدن الساحلية التي وضعها صلاح الدين نصب عينية فاتجه لفتحها معتبراً إياها "مفتاح بيت المقدس"⁽²⁾ ومنها انطلق الجيش الإسلامي لتحرير المدن الساحلية والداخلية الأخرى وخاصة مدينة القدس⁽³⁾. وقد أحدث سقوط بيت المقدس في أيدي المسلمين، إضافة إلى فتح الساحل الشامي، دويماً هائلاً، ورد فعل عنيف لدى العالم الأوروبي، انتشر على أثره القساوسة والرهبان في جميع أرجاء أوروبا يدعون حاكمها وملوكها للانتقام من المسلمين واستعادة ما حرروه من بلدان بما فيها القدس⁽⁴⁾.

وكان هذا الانتشار للقساوسة والرهبان بمثابة دعوة لحملة صليبية جديدة سميت بالحملة الثالثة، والتي كان هدفها الأسمى استعادة القدس، والطريق إلى ذلك يبدأ باحتلال مدينة عكا على اعتبارها -كما ذكرنا- مفتاح بيت المقدس، ويعتبر الماركيز كونراد⁽⁵⁾ هو صاحب الدعوة إلى احتلال تلك المدينة، وذلك الانطلاق من مدينة صور التي كانت لا تزال بأيدي الصليبيين وقد استعصت على المسلمين⁽⁶⁾؛ وقد قرر مهاجمة المدينة في الوقت الذي أرسل فيه رئيس أساقفة صور جوسياس Josias⁽⁷⁾، ومعه موناخاس Munakhus رئيس أساقفة قيسارية⁽⁸⁾

(1) Stevenson, op. cit, p. 249.

(2) باركر، الحروب، ص 88.

(3) للمزيد من التفاصيل حول تحرير صلاح الدين للمدن الإسلامية الساحلية والداخلية بعد تحريره لعكا، انظر: ابن شداد، النوادر، ص 64-81. ابن الأثير، الكامل. البنداري، سنا البرق، ص 311. أبو شامة، الروضتين، ج 3، ص 308-330. ابن واصل، مفرج الكروب، ج 2، ص 202-209. اليافعي، مرآة الجنان، ج 3، ص 454. ابن تغري بردي، النجوم، ج 6، ص 35. وانظر: الحيارى، تحرير القدس 1178م ص 85 وصفحات متفرقة. سلامة، عكا، ص 70. عبد القادر، سياسة صلاح الدين، ص 298-301.

(4) Grousset, op. cit, II, p. 747, II, p. 8. بردج، تاريخ الحروب، ص 87-198.

(5) الماركيز كونراد Conrad de Montferrat : ابن الملك الإيطالي وليم دي مونتيفرات، وشقيق الملكة سيبيل. انظر: ابن الأثير، الكامل، ج 3، ص 3؛ أبو شامة، الروضتين، ج 2، ص 23-24; Michaud, The History of the Crusades Vol. 1, p451.

(6) بدأ حصار المسلمين لصور بعد فتح القدس وذلك في 26 نوفمبر 1187م / 22 رمضان 583هـ، وانتهى بالفشل في 3 يناير 1188م / 2 ذي القعدة 583هـ. حول هجوم المسلمون على صور وفشلهم في السيطرة عليها. انظر: العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص 151-161. ابن شداد، النوادر، ص 67؛ البنداري، سنا البرق، ص 318-319. ابن الأثير، الكامل، ج 3، ص 3؛ أبو شامة، الروضتين، ص 2. ابن واصل، مفرج الكروب، ج 2، ص 242-246. حسين، مسئولية صلاح الدين، ص 35. عطية، قومون صور، ص 180؛ بلدوين، اضمحلال، ص 278-279؛ عبد القادر، سياسة صلاح الدين، ص 314. جب، صلاح الدين، ص 242.

(7) Ernoul, Le Chronique d,Ernoul, p.244 . مونروند، تاريخ الحروب، مج 2، ص 99-100.

(8) حسنين، تاريخ قيسارية، ص 151.

ومجموعة من الرهبان والقسس⁽¹⁾ إضافة إلى قادة الهيئات الدينية، الإستراتيجية والداوية⁽²⁾ لتحرير البابوية وملوك أوروبا على غزو بلاد الشام وإطلاعهم على ما وصلت إليه أحول الصليبيين من سوء⁽³⁾ وما حل بمملكتهم من "تخريب وتدمير"⁽⁴⁾ وذلك في صيف عام 583هـ/1187م⁽⁵⁾.

وقد وصل هذا الوفد الصليبي إلى مقر البابا أوربان الثالث الذي هاله الأمر فمات⁽⁶⁾، وخلفه البابا غريغوري الثامن والذي قام بدوره بإرسال جوسياس إلى عاهلي فرنسا وانجلترا لدعوتها للاشتراك في الحملة الصليبية الجديدة⁽⁷⁾ ثم انتقل بعدها إلى ألمانيا لدعوة إمبراطورها فريديريك بربروسا، والأمراء والمتدينين فيها للاشتراك في هذه الحملة⁽⁸⁾.

عقد ملكا كل من إنجلترا وفرنسا اجتماعاً لدراسة أمر الحملة الجديدة وتكاليفها⁽⁹⁾ واتفقا على فرض ضريبة مالية على سكان دولتيهما⁽¹⁰⁾ ممن لا يستطيع الاشتراك فيها، وقدرت قيمتها بعشرة بالمائة من ضريبة الدخل، وعشر الأرباح والأملاك المنقولة⁽¹¹⁾ وقد عرفت هذه الضريبة باسم "عشور صلاح الدين"⁽¹²⁾.

بدأ الصليبيون يحشدون قواتهم البرية والبحرية في سبيل الوصول إلى عكا وحصارها، فبادر ملك صقلية وليم الثاني فيما بين عامي 585-586هـ/1188-1189م

(1) ابن كثير، البداية والنهاية، ج12، ص357.

(2) سلامة، عكا، ص77.

(3) المصدر نفسه.

(4) ابن كثير، البداية والنهاية، ج12، ص357.

(5) عبد القادر، سياسة صلاح الدين، ص319.

(6) Campbell, The Crusaders p286 . بردج، تاريخ الحروب، ص199. موروند، تاريخ الحروب، مج2، ص99-100.

(7) Stevenson, The Crusaders, p.260; Painter, The third Crusade, p49

(8) موروند، تاريخ الحروب، مج2 ص100. شحاتة، العلاقات، ص119-120.

(9) Champder, Saladin, p.268.

(10) عطية، إمارة أنطاكية، ص222.

(11) موروند، تاريخ الحروب، مج2، ص101.

(12) Besent and Plamer, Jerusalem p.405 . زابوروف، الصليبيون، ص195، وقد أثارت هذه الضريبة ردود فعل غاضبة من قبل سكان فرنسا، الأمر الذي أدى إلى إلغائها من قبل ملك فرنسا، وتحولها إلى مواطني الدولة من اليهود. انظر: زابوروف، الصليبيون، ص195. الحريري، الأخبار السنوية، ص174.

بإرسال مجموعة من السفن العسكرية⁽¹⁾، أما البيازنة فقد وصل أسطولهم إلى صور في السابع من صفر 568هـ/ السادس من إبريل (نيسان) 1189م⁽²⁾.

وقد اجتمعت هذه القوات مع مجموعة من فرسان الهيئات الدينية الداوية والإستبارية⁽³⁾ في صور تحت قيادة الملك الصليبي جاي لوزجان، وأخوه جفري لوزجان على شكل جيش صغير وذلك استعداداً لحصار المدينة⁽⁴⁾.

— المقاومة الشعبية خلال حصار الصليبيين لعكا:

وصلت حملة جاي لوزيان وأخيه إلى أسوار عكا في 13 رجب 585هـ/ 27 أغسطس (آب) 1189م⁽⁵⁾، وفرض حصاراً برياً وبحرياً على المدينة، فمن جهة البر عسكر جاي لوزيان بقلب الجيش⁽⁶⁾، إلى جانب فرسان الداوية الإبتارية⁽⁷⁾، أما من جهة البحر فقد حاصرت المدينة السفن الصقلية والبيزانية⁽⁸⁾ وذلك لحرمان السكان والأهالي في المدينة من أي معونات قد تصلهم من جهة البحر⁽⁹⁾.

وفي شعبان 585هـ/ سبتمبر (أيلول) 1189م وصل من ألمانيا إثنا عشر ألف جندي من الفريزيين والفلمنج Frisan and Fleming⁽¹⁰⁾، ومن إيطاليا وصلت مجموعة من المحاربين⁽¹¹⁾، كما وصل من فرنسا عدد من البارونات⁽¹²⁾ واتجهوا جميعاً إلى عكا لمشاركة الصليبيين في حصار عكا.

وقد عسكروا جميعاً أمام أسوار المدينة لدراسة أسهل السبل والخطط العسكرية التي تمكنهم من الاستيلاء على المدينة⁽¹³⁾ بعد أن

(1) Painter, The third Crusade, p.47.

(2) الكنائي، العلاقات، ص 180-181.

(3) سلامة، عكا، ص 83.

(4) Richard, The Latin Kingdom, vol. I, p.187.

(5) ابن واصل، مفرج الكروب، ج 2، ص 265، 290، Ernoul, Le Chronique d'Ernoul, p.265, 290.

(6) Ernoul, Loc. Cit.

(7) لامب، شعلة الإسلام، ص 162.

(8) لامب، شعلة الإسلام، ص 162.

(9) ابن شداد، النوادر، ص 119. وانظر: شحاتة، العلاقات، ص 108-109.

(10) مونروند، تاريخ الحروب، مج 2، ص 121. سلامة، عكا، ص 86.

(11) رنسيان، تاريخ الحروب، ج 3، ص 56.

(12) Zoe Oldenburg, The Crusades, p.446.

(13) سلامة، عكا، ص 86. من الجدير بالذكر أن الصليبيين قد استخدموا وسائل وأساليب عدة لتسهيل اقتحامهم للمدن بشكل عام ولمدينة عكا بشكل خاص ويبرز ذلك من خلال الرسالة التي أرسلها السلطان صلاح الدين للخليفة=

"حاصروها من جهاتها الأربع"⁽¹⁾ وشرعوا في حفر الخنادق العميقة على معسكرهم حول عكا من "البحر إلى البحر"⁽²⁾ وجعلوا من التراب المستخرج تلالاً تحميهم، ويقاوتون من خلفها⁽³⁾، وإلى جانب الحماية التي قد توفرها الخنادق للصليبيين، كان الهدف من وراء حفرها حرمان السكان من أي معونة قد تصل إليهم من الناحية البرية⁽⁴⁾، وحتى يمنعوا وصول المياه إلى سكان المدينة من نهر النعامين⁽⁵⁾ قاموا بتحويل مجراه إلى الخنادق التي حفروها⁽⁶⁾ مما كان له أسوأ الأثر على السكان الذين كانوا يعانون من ندرة المياه وخاصة الجوفية بعد أن حل الصيف⁽⁷⁾، كما ساهمت المياه التي ملئت الخنادق في إعاقة تقدم القوات الإسلامية التي كانت تحاصر القوات الصليبية⁽⁸⁾، وفي سبيل تشديد الحصار على عكا قام الصليبيون ببناء المعدات والآلات الحربية التي تمكنهم من ذلك، فبنوا ثلاثة أبراج وركبوها من الأخشاب الطوال والعمد الثقال.... وأحكموها وسقفوها طباقاً، وسمروها بالحديد،

=العباسي الناصر لدين الله والتي أوضح فيها القاضي الفاضل البيهقي الوسائل التي استخدمها الصليبيون خلال حصارهم لعكا أثناء الحملة الصليبية الثالثة حيث يقول : "ولهم خذلهم الله تنوع في المكيدة، فانهم قاتلوا مرة بالأبرجة، وأخرى بالمنجنيقات وثالثة بالدبابات، ورابعة بالكباش، وأخرى باللونب، ويوماً بالنقب وليلاً بالسرايات (السرية أو السرية فرقة من الخيالة - Troupe de ccavaliers - وفي اللسان السرية جماعة ينسلون من العسكر فيغيرون ويرجعون، والسرية الجماعة من الخيل ما بين العشرين الى الثلاثين ، وقيل ما بين العشرة والعشرون. انظر: ابن منظور، لسان العرب، ج1، ص464. ابن واصل، مفرج الكروب، ج2، ص353، (هامش2) وطور بطم الخنادق، وأناة بنصب السلام، ودفعة الزحوف في الليل والنهار، وحالة في البحر في المراكب". انظر: ابن واصل، المصدر السابق، ج3، ص353.

(1) العسائي، المسجد المسبوك، ج1، ص209. وانظر: أبو شامة، الروضتين، ج4، ص79. الفيتري، تاريخ بيت المقدس، ص164.

(2) العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص325. أبو شامة، الروضتين، ج4، ص99. لامب، شعلة الإسلام، ص156.

(3) العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص325. أبو شامة، الروضتين، ج4، ص99. الحنبلي، شفاء القلوب، ص175.

(4) سلامة، عكا، ص87. الجميلي، العرب، ص86.

(5) نهر النعامين: ينبع هذا النهر من تل الكردانية الذين يرتفع (47م) عن مستوى سطح البحر، ويتغذى هذا النهر من مياه الأمطار والسيول القادمة من دير حنا وعرابية ثم وادي عبلين، ويصب في البحر المتوسط جنوبي عكا بحوالي (3كم). انظر: حمودة، وآخرون، موسوعة المدن، ص485.

(6) لامب، شعلة الإسلام، ص155.

(7) Ernoul Le Chronique d, Ernoul p.265.

(8) العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص98. و انظر: أبو شامة، الروضتين، ج4، ص78. الحنبلي، شفاء القلوب،

ص174-175. Conder, The Latin Kingdom, P257; Stevenson, The Crusaders, p.262;

Benvenisit, The Crusaders,p.85.

ولبسوها بالسلوخ⁽¹⁾»⁽²⁾ وقد استمر العمل فيها ما يزيد عن سبعة شهور⁽³⁾ حتى بلغ طول البرج ستون ذراعاً⁽⁴⁾ وفضلاً عن هذه الأبراج اصطنع الصليبيون "دبابة"⁽⁵⁾ عظيمة هائلة⁽⁶⁾ مكونة من أربع طبقات من الخشب والرصاص والحديد، ومن النحاس⁽⁷⁾ لحماية من بداخلها من بداخلها من المقاتلين من خطر الاحتراق، والضربات العنيفة⁽⁸⁾، التي قد تتعرض لها من قبل المقاومة الشعبية وقد بنيت بعد وصول الملك الإنجليزي ريتشارد⁽⁹⁾، و "خاف منها أهل البلاد خوفاً عظيماً"⁽¹⁰⁾ لما رأوها خاصة وأن الصليبيين قد أضافوا إلى مقدمتها كتلة حديدية ضخمة كانت تعرف "بالكبش" وألبسوه بالنحاس بعد الحديد لتخفيف تأثير النار عليه ثم أخذوا يوجهونه إلى السور ليهدمه بضرباته المتكررة⁽¹¹⁾ ثم أن الصليبيين نصبوا "منجنيقات هائلة"⁽¹²⁾ حول أسوار المدينة وبدأوا بقصف المدينة "بصورة مستمرة نهاراً وليلاً بحجارة ضخمة قد دمرت المنازل والمباني داخل المدينة"⁽¹³⁾.

- (1) السلوخ: هي جلود البقر المنقوع بالخل لثلا تعمل النار فيها. انظر: أبوشامة، الروضتين، ج4، ص121؛ ابن أيوب، منتخبات، ص297.
- (2) العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص367.. أبو شامة، الروضتين، ج4، ص212-212، 124. المقرزي، السلوك، ج1، ص217.
- (3) أبو شامة، الروضتين، ج4، ص124.
- (4) ابن أيوب، منتخبات، ص297. أبو الفداء، المختصر، ج2، ص.
- (5) الدبابة: وجمعها دبابات، وسميت بهذا الاسم لأنها تدب دببياً حتى تصل إلى الحصون، كانت في البداية صغيرة الحجم، قليلة العجلات، ثم تم توسيع بنائها حتى باتت تتسع لعشرة جنود، وأصبحت تجر على ثمان عجلات وصارت تشبه هودجاً مصنوعاً من كتل خشبية صلبة على هيئة برج مربع له سقف من ذلك الخشب، وبين كتل البرج مسافات قليلة ليستطيع الرجال العمل من خلالها، وبداخلها سلام مستعرضة تنتهي إلى شرفات فيها تقابل شرفات الحصن، فيصعد الرجال أعلاها وينقلون منها إلى شرفات السور ثم يطردون من رماة أعدائهم. انظر: الصالح، النظم الإسلامية، ص510-511.
- (6) ابن شداد النوادر، ص149.
- (7) ابن شداد، النوادر، ص149. أبو شامة، الروضتين، ج4، ص165.
- (8) سلامة، عكا، ص94.
- (9) ابن شداد، النوادر، ص149. أبو شامة، الروضتين، ج4، ص249.
- (10) نفس المصادر السابقة.
- (11) العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص433-434. ابن شداد، النوادر، ص126-127. أبو شامة، الروضتين، ج4، ص159-165. العلمي، الأنس الجليل، ج1، ص368.
- (12) ابن شداد، النوادر، ص120. أبو شامة، الروضتين، ج4، ص159.
- (13) الفيتري، تاريخ بيت المقدس، ص164-165.

وبعد استكمال الصليبيين لاستعداداتهم العسكرية الخاصة ببناء الأبراج اقتربوا من سور المدينة، وقاموا بنصب الأبراج الثلاثة في ثلاث جهات، الأول في الشمال حيث يتمركز الجنوبيون، والثاني في الجنوب حيث البيازنة، أما البرج الثالث فقد أُعد لمهاجمة المدينة من الشرق⁽¹⁾، وفي أثناء ذلك أي في 585هـ/1189م خرج الإمبراطور الألماني فريديريك بربروسا (547-586هـ/1152-1190م) قاصداً عكا على رأس حملة عسكرية قدرت بحوالي ثلاثين ألف من الفرسان والمشاة⁽²⁾ وتحرك هذا الجيش حتى وصل انطرسوس بآسيا الصغرى وهناك غرق الإمبراطور في نهر الباردان (سالف) Saleph⁽³⁾، وهو في طريقه إلى أنطاكية⁽⁴⁾ ونتيجة لموت الإمبراطور تم إسناد قيادة الحملة الألمانية إلى ابنه الملك فريديريك ديسوابيا⁽⁵⁾ فاختلف أفراد الحملة حول قيادته، فمنهم من أعلن تأييده وولائه له ومنهم من عاد إلى ألمانيا⁽⁶⁾، أما باقي الجيش فقد واصلوا المسير إلى أنطاكية، حيث تعرضوا لخسائر كبيرة في الأرواح بسبب طول المسافة وشدة الجوع⁽⁷⁾، وانتشار وباء الطاعون بينهم⁽⁸⁾ وقد أدت هذه الأمور إلى تأخر وصول الحملة

(1) سلامة، عكا، ص96.

(2) باركر، الحروب الصليبية، ص88. زابوروف، الصليبيون، ص200. بينما قدرهم بردج ب27 ألف، عشرون ألفاً من الفرسان وسبعة آلاف من المشاة. انظر: تاريخ الحروب، ص201. أما المصادر العربية فقد بالغت في تقدير أعداد المشاركين في الحملة، فمنهم من قدرهم بحوالي مائتي ألف، ومئتان وستون ألف، وثلاثمئة ألف، ولا شك أن هذه الأرقام مبالغ فيها خاصة إذا علمنا أن حماسة الغرب الأوربي في الحملة الثالثة قد اتسمت بالضعف والفتور. انظر حول ذلك: العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص330؛ ابن شداد، النوادر، ص98. أبو شامة، الروضتين، ج4 ص111-112. ابن واصل، مفرج الكروب، ج2، ص317-318. سلامة، عكا، هامش ص3 ص88.

(3) العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص390-391. ابن شداد، النوادر، ص106-107. ابن الأثير، الكامل، ج10 ص194. الحنبلي، شفاء القلوب، ص29.169. Anonymus. The Third Crusade p29.169؛ بردج، تاريخ الحروب، ص203.

(4) ابن شداد، النوادر، ص106. وانظر: ماير، الحملات الصليبية، ص192. Ernoul Le Chronique d, Ernoul, pp249-250; Cf. also: Conder, The Latrn Kingdom p.254. ابن الأثير، الكامل، ج10، ص194.

(5) Painter, The Third Crusade . p49.

(6) ابن الأثير، الكامل، ج10 ص194. الحنبلي، شفاء القلوب، ص163-164. ماير، الحملة الصليبية، ص192.

(7) ماير، الحملة الصليبية، ص192. بردج، تاريخ الحروب، ص203.

(8) ابن الأثير، الكامل، ج10، ص194. الحنبلي، شفاء القلوب، ص169. ماير، الحملة الصليبية، ص192. زابوروف، الصليبيون، ص202.

الألمانية إلى عكا حتى رمضان 578هـ/أكتوبر (تشرين الثاني) 1190م في عدد قليل لم يتجاوز الخمسة آلاف جندي⁽¹⁾

وفي تموز 1190م/جمادى الثانية 586هـ. تحرك الجيش الفرنسي بقيادة الملك الفرنسي فيليب أغسطس على متن أسطول بحري مؤلف من سفن بيزا وجنوا والبندقية⁽²⁾ باتجاه عكا. فوصلها في 12 ربيع الأول 587هـ/ابريل (نيسان) 1191م⁽³⁾ فقوي بوصوله عزم الصليبيين المحاصرين للمدينة⁽⁴⁾.

أما الملك الإنجليزي ريتشارد قلب الأسد فقد تحرك بقواته نحو عكا في 2 ربيع الأول 587هـ/العاشر ابريل (نيسان) 1191م⁽⁵⁾ على رأس أسطول بحري كبير يتألف من مائة وثمانين سفينة⁽⁶⁾ ولكنه وبسبب الرياح الشديدة⁽⁷⁾ وما وقع بينه وبين حاكم قبرص⁽⁸⁾ أدى إلى تأخر وصوله إلى عكا حتى الثالث عشر من جمادى الأولى 587هـ/الثامن يونيو

(1) ابن واصل، مفرج الكروب، ج2ص329-330. وانظر: ماير، الحملات الصليبية، ص192. Michaud, the History of The Crusade, VolII, p.468.

(2) Conder, op. cit. p262, Stevenson. The (9) Crusaders p260 (9) Crusaders p260-197-198.

(3) ابن شداد، النوادر، ص142. ابن الأثير، الكامل، ج10، ص196. أبو شامة، الروضتين، ج4، ص242. وانظر: Carousset, Historie des Craisades, Tom .Eracles, Estorie d, Eraeles, Tom,II,pp.151-156 6p146.

(4) ابن الأثير، الكامل، ج10، ص196.

(5) ومن الجدير بالذكر أن الملكين الفرنسي والإنجليزي تحركا من فيزلاي إلى ليون ثم افترقا، فالملك الفرنسي أبحر إلى جنوا والملك الإنجليزي إلى مرسيليا، وبعد ذلك اتفقا في مسينا بصقلية حيث قضوا فيه ا فصل الشتاء، ومن جنوا انطلق الملك الفرنسي إلى عكا، أما الملك الإنجليزي فقد أبحر من مسينا وفي طريقه إلى عكا اعترضه حاكم قبرص إسحاق كومنين. وانظر: رنسيما، تاريخ الحروب، ج3، ص79. ماير، الحملات الصليبية، ص198. بردج، تاريخ الحملة، ص204-206. Carousset, op.cit Tom6, p146.

(6) سلامة، عكا، ص105.

(7) رنسيما، تاريخ الحروب، ج3، ص89.

(8) قام حاكم قبرص إسحاق كومنين باعتراض سفن ريتشارد وهي في طريقها إلى عكا مما حدا بريتشارد إلى أن يهاجم الجزيرة، ويستولى عليها، وقد نجح في ذلك ووفرت له هذه الجزيرة فرصة كبيرة للاستيلاء على خيراتها وغنائمها والسفن الموجودة بها، وضمن له سرعة الاتصال بالغرب الأوروبي وجعلها قاعدة للإمدادات العسكرية طيلة فترة حصاره لعكا عن ذلك ينظر: رنسيما، تاريخ الحروب، ج3، ص92-93. ماير، الحملة الصليبية، ص198. بردج، تاريخ الحروب، ص207. Michaud, The History of The Crusade, Vol I, p.475

Conder, The Latin Kingdom, p.269.

(حزيران) 1191م⁽¹⁾ وبصحبته عدد كبير من السفن فأثار بوصوله فرح الصليبيين المحاصرين للمدينة⁽²⁾.

ونستخلص مما سبق أن الإمدادات الصليبية لم تنقطع عن الصليبيين المحاصرين لعكا وهذا طبعاً كان له الأثر السيئ على الأهالي في المدينة⁽³⁾، ومن الجدير بالذكر أن الحملة الفرنسية الإنجليزية جاءت ومعها الكثير من المعدات العسكرية وآلات الحصار، فضلاً عن قيام الملك الفرنسي ببناء منجنيق ضخمة⁽⁴⁾ أطلق عليه اسم "الجار السيئ"، كما وبنى أبراجاً وسلام لاستخدامها في تسلق الأسوار عرفت باسم "الهـر"⁽⁵⁾.

ومهما يكن من أمر فقد قاومت عكا هذا الحشد الهائل من الصليبيين ومعداتهم "ودبروا الحيل"⁽⁶⁾ في قتالهم؛ واستطاعوا إلحاق أضرار بالغة بهم، فبداية تمكن الأهالي في عكا من تدمير آليات وأبراج ودبابات العدو، وكبوشهم؛ ففي ربيع الأول 586هـ/أبريل (نيسان) 1190م استطاع أحد أفراد المقاومة الشعبية من سكان عكا، ويدعى علي بن عريف النحاسين الدمشقي الأصل، تدمير الأبراج الصليبية الثلاثة بعد اختراعه لمواد كيميائية فتكت بتلك الأبراج⁽⁷⁾، وقد فرح الأهالي بهذا الإنجاز الكبير من ذلك الشاب وبدأوا يكبرون

(1) Ernoul Le Chronique d, Ernoul, 273؛ لم يصل ريتشارد إلى عكا مباشرة من قبرص، فهو بعد أن خرج من قبرص عرج على جبيل وبيروت وهناك استطاع اعتراض إحدى السفن الإسلامية وإغراقها بعد مقاومة عنيفة اضطر بعدها ربان السفينة المسلم وهو من رجال المقاومة الشعبية من أهل حلب واسمه يعقوب إلى إغراق السفينة التي كان من المقرر أن تصل إلى عكا لمساندة أهلها وقد أطلق المسلمون على هذه الحادثة اسم حادث البطسة. انظر: العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص486. ابن شداد، النوادر، ص148-149. أبو شامة، الروضتين، ج4 ص248. الفيتري، تاريخ بيت المقدس، ص164. وقد ذكر بأن هذه السفينة كانت تحمل إلى جانب المؤمن بعض الثعابين لإرسالها إلى الجنود الصليبيين لقتلهم وهو سلاح جديد لم يعهده الصليبيون من قبل.

(2) ابن شداد، النوادر، ص148. أبو شامة، الروضتين، ج4، ص246. الفيتري، تاريخ بيت المقدس، ص164 Stevenson, The Crusaders, p267.

(3) ابن شداد، النوادر، ص153.

(4) ابن شداد، النوادر، ص120. الفيتري، تاريخ بيت المقدس، ص164.

(5) رنسيان، تاريخ الحروب، ج3، ص96.

(6) العلمي، الأنس الجليل، ج1، ص358.

(7) حول طريقة هذا الشاب في إحراق الأبراج بالتفصيل. انظر: العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص370. ابن شداد، النوادر، ص103-104. ابن الأثير، الكامل، ج10، ص192. أبو شامة، الروضتين، ج4، ص122-126. ابن واصل، مفرج الكروب، ج2، ص316. ابن أيوب، منتخبات، ص297. أبو الفداء، المختصر، ج2، ص164. الحنبلي، شفاء القلوب، ص168. المقرئ، السلوك، ج1، ص217. العلمي، الأنس الجليل، ج1، ص363. ليونز وآخرون، صلاح الدين، ص363. حماد، علم الكيمياء، ص144. بدوي، الحياة العقلية، ص300.

ويهللون "وغلّبهم الفرح حتى كادت عقولهم تذهب"⁽¹⁾، كما نجح الأهالي في عكا في تدمير ونسف مجموعة من المناجيق التي كانت تحيط بالمدينة، فقد ذكر ابن شداد بأنه "لما رأى أهل البلاد ما نزل بهم من مضايقة العدو وتعلق طمعهم بهم حركتهم النخوة الإسلامية... واجتمع رأيهم"⁽²⁾ على مهاجمة القوات الصليبية المحاصرة لهم "حتى أتوا المنجنيق وأضرموا فيه النار فاحترق"⁽³⁾.

أما الكباش فإن أهل عكا أعملوا فكرهم في كيفية نسفه، فاهتدوا إلى أن يهاجموا الصليبيين بالمجانيق والسهام في البداية مما يجعلهم يتفرقون عن الكباش ثم يخرجون إليهم ويهاجمونهم فيخاف الصليبيون ويولوا الأدبار، ثم يقوم المقاومون بمهاجمة الكباش وحرقه، وفعلاً نفذ الأهالي والجنود هذه الخطة "وفتحوا الأبواب.... وهاجموا على العدو من كل جانب وكبسوهم في الخنادق.... وذاقوا من الجرح والقتل، وبقي في الخندق خلق عظيم وقع فيهم السيف...ولما رأى المسلمون ما نزل بالعدو من الخذلان والهزيمة هجموا على كبشهم فألقوا فيه النار والنفط، وتمكنوا من حريقه..وعلق المسلمون في الكباش الكلاب الحديدية المصنوعة من السلاسل فسحبوه وهو يشتعل حتى حصلوه عندهم في البلد"⁽⁴⁾.

ونستنتج مما سبق أن المقاومة الشعبية إلى جانب حامية المدينة في عكا بذلت جهوداً مضيئة في محاربة ومقاومة العدو الصليبي وتدمير آلياته العسكرية التي كان لها دور مهم في تشديد الحصار على المدينة.

تابع أهل عكا تدميرهم للمعدات العسكرية الصليبية، وقرروا هذه المرة تدمير الدبابة واستطاعوا تدميرها بعد أن "أخذ أهل البلد في تواتر ضربها بالنفط ليلاً ونهاراً"⁽⁵⁾ حتى احترقت لدرجة أن النار ارتفعت نحو السماء فكبر الأهالي وهللوا فرحين وكان ذلك في رمضان 586هـ/أكتوبر 1190م⁽⁶⁾.

وعلى الرغم من إنجازات التدمير التي ألحقها الأهالي في عكا بحق آليات العدو الصليبي إلا أن ذلك لم يثني عزمهم على مواصلة الهجوم، وبناء معدات عسكرية جديدة

(1) ابن شداد، النوادر، ص104. ابن الأثير، الكامل، ج10، ص192. أبو شامة، الروضتين، ج4، ص122-159

(2) ابن شداد، النوادر، ص117.

(3) المصدر نفسه، ص118. أبو شامة، الروضتين، ج4، ص165.

(4) ابن شداد، النوادر، ص127. وانظر: العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص434.

(5) ابن شداد، النوادر، ص149. أبو شامة، الروضتين، ج4، ص249.

(6) ابن شداد، النوادر، ص150. وانظر: العليمي، الأنس الجليل، د1، ص373.

تساهم في تشديد الحصار على المدينة وخاصة بعد وصول القوات الفرنسية والإنجليزية⁽¹⁾ مما زاد من معاناة سكان المدينة وضعف قدرتهم على المقاومة⁽²⁾.

كثّف الصليبيون من هجماتهم وأخذوا يشددون حصارهم للمدينة فبدأوا أولاً بردم الخنادق حول المدينة بجثث القتلى والحيوانات النافقة وحتى الجنود ذوى الجراحات البالغة ممن لا يرجى شفاؤهم⁽³⁾، وقد تصدى سكان عكا وحاميتها لهذا الإجراء الصليبي، وحتى يسهل عليهم إعادة حفر الخنادق قاموا بتقسيم العمل فيما بينهم "وانقسم أهل البلد أقساماً قسم ينزلون في الخندق يقطعون الموتى والدواب التي يلقونها فيه قطعاً ليسهل نقلها، وقسم ينقلون ما يقطعه ذلك القسم ويلقونه في البحر، وقسم يذّبون عليهم ويدافعون حتى يتمكنوا من ذلك، وقسم في المنجنيقات وحراسة الأسوار"⁽⁴⁾ وفي تلك الرواية دلالة واضحة على مدى المعاناة التي عانى منها سكان عكا وحاميتها، وتعاونهم وصبرهم على تحمل أعباء المقاومة ومشاقها، ومما يؤكد ذلك ما حدث في أحد أيام الحصار المفروض على عكا وذلك في ذي الحجة 586هـ/1190م حيث استطاعت منجنيقات الصليبيين إحداث ثغرة في سور المدينة، فاستغلت القوات الصليبية تلك الثغرة لمهاجمة المدينة فخرج إليهم "أهل البلد وصدوهم بصدورهم"⁽⁵⁾، وقاتلوا الصليبيين بشراسة ثم "جمعوا من في البلد من البنائين والصناع ووضعوهم في ذلك الموضع"⁽⁶⁾ وقاموا بحمايتهم حتى "عمر الهدم"⁽⁷⁾ في وقت قياسي "ليال يسيرة"⁽⁸⁾. وعاد بناء السور المتضرر أقوى مما كان عليه في السابق⁽⁹⁾.

ومما سبق نستنتج مدى المشاركة الشعبية الواسعة في تصدي سكان عكا للصليبيين كل حسب حاجة المقاومة له، لذلك رأينا كيف شارك البنؤون والصناع الحرفيين في

(1) رنسيمن، تاريخ الحروب، ج3، ص96.

(2) ابن شداد، النوادر، ص155.

(3) المصدر نفسه، ص147. العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص483. أبو شامة، الروضتين، ج4، ص246.

(4) ابن شداد، النوادر، ص147. العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص483. أبو شامة، الروضتين، ج4، ص247.

(5) العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص459. أبو شامة، الروضتين، ج4، ص235. العليمي، الأنس الجليل، ج1، ص370.

(6) ابن شداد، النوادر، ص139.

(7) العليمي، الأنس الجليل، ج1، ص370. وانظر: ابن شداد، النوادر، ص140. العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص459. أبو شامة، الروضتين، ج4، ص235.

(8) ابن شداد، النوادر، ص139.

(9) ابن شداد، النوادر، ص140. العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص459. أبو شامة، الروضتين، ج4، ص235.

المقاومة إلى جانب الأهالي والحامية من خلال إعادة بناء وإصلاح ما تضرر من السور وهذا نوع من المقاومة والجهاد الذي لا يشترط فيه حمل السلاح ومواجهة العدو.

ساهم سكان عكا في استقبال وتفريغ سفن المعونات التي كان يرسلها صلاح الدين للمدينة نظراً لطول مدة الحصار وحاجة السكان والحامية للغذاء والسلاح⁽¹⁾ ففي الثامن من جمادى الأولى 586هـ/الرابع عشر من يونيو (حزيران) 1190م وصل من مصر عدد من سفن الإغاثة لنجدة المدينة فاعترضتها السفن الصليبية وجرى بينهم قتال عنيف انتهى بخسارة الصليبيين⁽²⁾، أما أهل عكا فكانوا يشاهدون القتال وألسنتهم تلهج بالدعاء والتهليل والتكبير "وقد كشف المسلمون رؤوسهم يبتهلون إلى الله تعالى في القضاء بتسليمها إلى البلد"⁽³⁾ وما أن وصلت هذه السفن "تلقاهم أهل عكا تلقى الأمطار عن جذب"⁽⁴⁾.

وفي سنة 587هـ/1191م وصلت من مصر مجموعة من السفن المحملة بالمعونات لإغاثة المدينة "فخرج أهل البلد لمشاهدتها والمساعدة في نقلها"⁽⁵⁾ وقد استغل الصليبيون انشغال سكان عكا باستقبال ونقل ما في السفن من مساعدات فشدوا من هجومهم على المدينة وأحاطوا بها من كل جانب، وقد بلغ من شدة هجومهم وزحفهم أن مجموعة كبيرة من الجنود صعدا على سلم واحد فانكسر بهم السلم "وأدركهم أهل البلد، فقتلوا منهم خلقاً عظيماً، وعادوا خائبين خاسرين"⁽⁶⁾.

ومهما يكن من أمر فقد استمرت الجيوش الصليبية في الزحف نحو عكا وردم الخنادق التي حفرها السكان لحماية المدينة⁽⁷⁾ مما زاد من معاناة سكان المدينة، بسبب طول زمن القتال، وما أعقبها من نقص كبير في المؤن بعد فشل محاولات صلاح الدين في

(1) ابن شداد، النوادر، ص119. أبو شامة، الروضتين، ج4، ص153.

(2) العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص385. ابن واصل، مفرج الكروب، ج2، ص332.

(3) ابن شداد، النوادر، ص123. أبو شامة، الروضتين، ج4، ص154.

(4) ابن شداد، النوادر، ص123. أبو شامة، الروضتين، ج4، ص155.

(5) العليمي، الأئس الجليل، ج1ص370. انظر: ابن شداد، النوادر، ص139. أبو شامة، الروضتين، ج4، ص155.

ابن واصل، مفرج الكروب، ج2، ص346.

(6) ابن شداد، النوادر، ص139. وانظر: أبو شامة، الروضتين، ج4، ص155. ابن واصل، مفرج الكروب، ج2،

ص346. العليمي، الأئس الجليل، ج2، ص370.

(7) العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص483. أبو شامة، الروضتين، ج4، ص258. ابن واصل، مفرج الكروب،

ج2ص356.

إيصال سفن الإغاثة الإسلامية إلى المدينة⁽¹⁾ ثم إن الصليبيين "لم يزالوا يوالون على الأسوار بالمجانيق المتواصلة، والضرب..حتى خلخلوا سور البلد وأضعفوا بنيانه، وأنهك التعب والسهر أهل البلد ثقله عددهم وكثرة الأعمال حتى أن جماعة منهم بقوا ليالي عدة لا ينامون أصلاً ليلاً ولا نهاراً"⁽²⁾ ويتضح من الرواية السابقة ما بذله أهل عكا من مقاومة شديدة بشكل متواصل جعلتهم لا يذوقوا طعم الراحة، وعلى الرغم من ذلك فإنهم قاموا بإرسال مجموعة من الرسائل التطمينية إلى السلطان صلاح الدين وجيشه يؤكدون فيها تصميمهم على مواصلة المقاومة وأنهم قد باعوا أنفسهم في سبيل الله "فإياكم أن تخضعوا لهذا العدو، وتلينوا له، فأما نحن فقد فات أمرنا"⁽³⁾.

أما الصليبيون فقد واصلوا قصف سور المدينة بقوة مما زاد من ثغرات السور "وتمكن العدو من الخنادق فملكوها وتمكنوا من السور فنقبوه وأشعلوا فيه النار بعد حشو النقب"⁽⁴⁾.

وهذا يعني أن العدو الصليبي استخدم وسائل عدة في سبيل إخضاع سكان عكا وخمد عزيمتهم عن المقاومة، فعمد إلى نفس السور بعد أن دمرت المقاومة الشعبية الكثير من آلياته العسكرية ومع ذلك فقد "ضعف أهل البلد"⁽⁵⁾ نتيجة كثافة الهجوم الصليبي وقوته، وعندما شعر الصليبيون بهذا الضعف قرروا وضع حد للمقاومة الشديدة التي يبديها الأهالي في عكا، فقاموا في الحادي عشر من جمادي 587هـ/ السادس من يونيو 1191م بشن هجوم شامل على أسوار عكا⁽⁶⁾.

فاشتبكوا مع الأهالي والحامية غير أن "أهل البلد ضاق بهم الأمر وعجزوا عن الحفظ والدفع"⁽⁷⁾، وقرروا تسليم البلد بالأمان⁽⁸⁾ بعد أن "أعلن المواطنون أنهم لا يستطيعون المقاومة أكثر"⁽¹⁾.

(1) ابن شداد، النوادر، ص155. العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص504. ابن واصل، مفرج الكروب، ج2، ص356.

(2) ابن شداد، النوادر، ص155. أبو شامة، الروضتين، ج4، ص254. الحنبلي، شفاء القلوب، ص175.

(3) ابن شداد، النوادر، ص159-160. أبو شامة، الروضتين، ج4، ص261.

(4) ابن شداد، النوادر، ص157.

(5) المصدر نفسه، ص157. أبو شامة، الروضتين، ج4، ص256.

(6) ابن شداد، النوادر، ص159. أبو شامة، الروضتين، ج4، ص260-261. وانظر: Grousset, Histoire, des Craisades. pp.159-160.

(7) ابن شداد، النوادر، ص160. أبو شامة، الروضتين، ج4، ص262.

(8) ابن العبري، المختصر، ص222. أبو لفداء، المختصر، ج2، ص165. الحنبلي، شفاء القلوب، ص175.

ويأتي قرار الحامية وسكان عكا بتسليم المدينة بالأمان من خلال أنهم تيقنوا بأن الصليبيين إذا اجتاحوا البلد بالقوة سيقومون بقتل كل من فيه من المسلمين الذين قاوموهم بشدة، ويشرعوا بعد ذلك بسلب ما فيه من عتاد وأسلحة ومراكب⁽²⁾. بدأ السكان والحامية في عكا بالتفاوض مع الصليبيين حول شروط تسليم المدينة من خلال القنوات الرسمية⁽³⁾ وانتهت المفاوضات بقبول التنازل عن عكا في 17 جمادى الآخرة 587هـ/12 يوليو (تموز) 1191م⁽⁴⁾، تحت شروط قاسية، اقتضت بتسليم عكا وكل ما فيها من ذخائر وأموال وعتاد عسكرية، ودفع غرامة عسكرية قدرها مائتي ألف قطعة ذهبية، وإطلاق سراح ألف وستمئة من أسرى الصليبيين المجاهيل لدى السلطان صلاح الدين، ومائة فارس ذكروا بأسمائهم، وإعادة صليب الصلبوت "الصليب المقدس"⁽⁵⁾، وكي يضمن الصليبيون تنفيذ صلاح الدين لشروطهم قاموا باحتجاز سكان وحامية عكا كرهائن لديهم⁽⁶⁾، وفي الوقت ذاته استمرت الاتصالات بين الجانبين الصليبي والإسلامي بشأن تنفيذ شروط الصلح التي تم عقدها حول تسليم عكا بالأمان؛ وقد رأى صلاح الدين تسليم جزء من المبلغ المقرر، مقابل لإطلاق سراح الأسرى المسلمين حتى يضمن هو الآخر عدم تراجع الصليبيين عن تنفيذ التزاماتهم القاضية بخروج سكان عكا وحاميتها سالمين، على أن يحتفظ الصليبيون في -الوقت نفسه- بعدد من الرهائن وليس كل من في عكا يصبحون رهائن.

لكن الصليبيون رفضوا هذا الاقتراح وأصر زعيمهم ريتشارد على استلام المبلغ كاملاً⁽⁷⁾.

(1) الفيتري، تاريخ بيت المقدس، ص 165.

(2) ابن شداد، النوادر، ص 160.

(3) تزعم المفاوضات مع الصليبيين كل من الوالي بهاء الدين قراقوش والقائد العسكري سيف الدين المشطوب. انظر: ابن الأثير، الكامل، ج 10، ص 205. سلامة، عكا، ص 116.

(4) ابن شداد، النوادر، ص 160-161. العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص 244-442. ابن الأثير، الكامل، ج 10، ص 205-206.

(5) ابن شداد، النوادر، ص 161. ابن الأثير، الكامل، ج 10، ص 260. وانظر: لامب، شعلة الإسلام، ص 215. ماير، تاريخ الحملات، ص 198. Conder, The Latin King dom, 73 Michaud, The Histouy of the Crusades vol.1, p.480;

(6) ابن شداد، النوادر، ص 164؛ Ernoul, Le Chronique d,Ernoul, p.275.

(7) ابن شداد، النوادر، ص 161. العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص 526. ابن أيوب، منتخبات، ص 299. ابن واصل، مفرج الكروب، ج 2، ص 364. ابن العبري، المختصر، ص 222. الحنبلي، شفاء القلوب، ص 175 وانظر: عبد القادر، سياسة صلاح الدين، ص 333.

هكذا فشلت مفاوضات الاستسلام والتسليم، وعندما اتخذ ريتشارد قراره الخطير في 27 رجب 588هـ/12 أغسطس 1191م بقتل ألفين وستمائة من أهل المدينة في سهل عكا⁽¹⁾، وقد علل الفيتري المذبحة التي قام بها ريتشارد بالقول بأن المسلمين قد أضاعوا صليب الصليبوت، وهذا التعليل ليس في محله وإنما للأسباب التي أوردناها⁽²⁾. وبهذه المذبحة الفظيعة أغلقت صفحة أخرى من صفحات المقاومة والتي استمرت حوالي عامين من 13 رجب 585هـ/28 أغسطس (آب) 1189م⁽³⁾ وحتى 17 جمادى الآخرة 587هـ/12 يوليو (تموز) 1191م⁽⁴⁾.

-
- (1) ابن شداد، النوادر، ص165. أبو شامة، الروضتين، ج4ص269. Anonymous, The deeds of The Franks, p.51. أبو الفداء، المختصر، ج2ص165. وانظر: لامب، شعلة الإسلام، ص217. ديوارنت Durant، قصة الحضارة، مج4، ج4، ص44.
- (2) تاريخ بيت المقدس، ص165.
- (3) ابن واصل، مفرج الكروب، ج2، ص265.290, Ernoul. Le Chronique, d, Ernoul, p.265.290.
- (4) ابن شداد، النوادر، ص160. العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص442. ابن الأثير، الكامل، ج10، ص205 وانظر: سلامة، عكا، ص114.

الفصل الثالث
موقف فئات السكان
المختلفة من الاحتلال الصليبي

أولاً: موقف الفقهاء والعلماء من المقاومة الشعبية:

كان للفقهاء والعلماء دور فاعل في المقاومة الشعبية ضد الصليبيين، وهذا الدور لا يقل بل يزيد على ما قام به الجنود المحاربون لمقاومة الغزو الصليبي، فحمل السلاح لم يكن هو الوسيلة الوحيدة التي استخدمها الفقهاء والعلماء في المقاومة الشعبية ضد المحتلين بل كان للوعظ والإرشاد والحث على الجهاد والتحريض والتوعية المستمرة بين الجنود، ومشاركتهم، وتبيان فضل الجهاد والمجاهدين عند الله، وشحن الهمم والتشجيع والخطابة الدائمة فيهم، وتلاوة القرآن الكريم، كل ذلك كان له أكبر الأثر في تعزيز المقاومة الشعبية وحثها للانتفاخ حول الزعماء والقادة⁽¹⁾، وقد وقف الفقهاء والعلماء بجانب القادة في المعارك يذكرونهم، ويعلمونهم ويفقهوهم أحكام القتال، والفئ والغنائم، لذلك كان دورهم أهم وأعمق وأدق.

اتخذ هؤلاء الفقهاء والعلماء من المساجد⁽²⁾ مكاناً خاصاً للقيام بهذا الدور، الذي لم يكن مقصوراً على الصلاة وأداء الشعائر الدينية فحسب، وإنما كان مكان مشاوراتهم، والمكان الذي ينطلق منه المقاومون والمحاربون في سبيل الله.

ولعل بداية المقاومة الشعبية لتلك الفئة؛ من مدينة القدس فبعد اجتياح الصليبيين الفرنجة للمدينة جاسوا خلال الديار، وانطلقوا في شوارعها وبيوتها ومساجدها يقتلون كل من صادفهم من الرجال والنساء والأطفال ولبث الإفرنج في البلد أسبوعاً يقتلون المسلمين⁽³⁾، ثم اقتحم الغزاة المحتلين المسجد الأقصى وارتكبوا فيه مذبحه وحشية ضد من لجأ إليه وكان منهم "جماعة كبيرة من أئمة المسلمين وعلمائهم وعبادهم وزهادهم ممن فارق الأوطان وجاور بذلك الموضع الشريف"⁽⁴⁾.

(1) انظر: موسى باشا، الأدب، ص799.

(2) عن أهمية دور المسجد وخاصة من الناحية السياسية والجهادية انظر: أبو القرايا، الدور السياسي للمسجد وقد استغرق إعداد رسالته تلك ثمان سنوات.

(3) ابن الأثير، الكامل، ج9، ص19. ابن العبري، تاريخ مختصر، ص197. أبو الفداء، المختصر، ج2، ص28. ابن تميم المقدسي، مثير الغرام، ص367. العليمي، الأنس الجليل، ج1، ص308، الذي لم يورد عدد الشهداء بل اكتفى بالقول بأنهم "خلق كثير لا يحصيه إلا الله تعالى".

(4) ابن الأثير، الكامل، ج9، ص19. ومن بين هؤلاء العلماء مكي بن عبد السلام الرميلى، وأبو بكر محمد بن أحمد الطوسي، وأبو القاسم سعد بن أحمد النسوي، وديسم بن مجاهد المقدسي، وأبو القاسم عبد الجبار بن أحمد الرازي، انظر: ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج20، ص404، ج50، ص12، ج51، ص89، ج60، ص256. السبكي، طبقات الشافعية، ج5، ص333، 98. ابن الصلاح، طبقات الشافعية، ج2، ص886. ابن تغري بردي، النجوم، ج5، ص164. العليمي، الأنس، ج1، ص298. ابن العماد، الشذرات، ج2، ص398.

ويبدو مما سبق في تركيز العلماء والعباد والفقهاء في المسجد الأقصى أنهم كانوا هم آخر من استسلم، ودليل واضح وقوي على أن رجال الدين آنذاك والعلماء أيضاً لم يقتصر دورهم على مهمة الوعظ والإرشاد وشحذ الهمم وتقوية النفوس وإنما حملوا السلاح، وقاتلوا حتى كانوا آخر من استشهدوا مدافعين عن شرف المسجد الأقصى أولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين، ومسرى النبي صلى الله عليه وسلم كما أوضحنا في بداية الفصل الأول.

وقد حفلت كتب التاريخ والتراجم بالكثير من الأمثلة حول علماء وفقهاء ساهموا مساهمة إيجابية بالسلاح واليد للتصدي للصليبيين، فقد كانوا هم عماد دعوة الجهاد لأنهم أحسوا بخطر الصليبيين، وكانت دعوتهم إلى التجمع ونسيان الخلافات والأطماع الدنيوية والنزاع الذي كان سبباً للفرقة والضعف، وبلغ الحماس الديني بالعمامة مبلغه، ولم يستجب الأمراء والحكام - أول الأمر - لذلك الحماس الديني لأنهم لم يكونوا ليستشعروا مسؤوليتهم في مواجهة العدوان، لكنهم استجابوا بعد ذلك في عهد صلاح الدين الأيوبي، وبشكل كبير حتى أن استجابتهم تلك تحولت في بعض الأحيان إلى معاتبة لبعض العلماء على تقصيرهم في عدم الوقوف ضد المتخاذلين، ومن أمثلة ذلك ما حدث بعد وفاة نور الدين محمود زنكي عام 569هـ/1174م حيث هاجم الصليبيون بانياس فـ"ظهرت خيبتهم وبان اليأس"⁽¹⁾، ثم خرج إليهم شمس الدين بن المقدم قائد عساكر دمشق واتفق معهم على الهدنة، وأن تدفع دمشق مبلغ مستعجل من المال، كما يتم إطلاق عدد من الأسرى الصليبيين⁽²⁾، وقد وصلت أخبار هذه الهدنة إلى صلاح الدين في مصر واعتبرها "مؤذنة بذل الإسلام"⁽³⁾ وأرسل كتباً إلى أعيان وعلماء دمشق منهم الشيخ شرف الدين ابن أبي عصرون⁽⁴⁾ فيها ملام وعتاب يقول فيها "وسيدنا الشيخ أول من جرد لسانه الذي تغمد له السيوف وتجرده، وقام في سبيل الله قيام من يقطّ عادية من تعدى وتمرد"⁽⁵⁾.

(1) أبو شامة، الروضتين، ج2، ص322.

(2) البنداري، سنا البرق، ص33. ابن واصل، مفرج الكروب، ج2، ص7. رنسيان، تاريخ، ج2، ص645. وقد كان على رأس المهاجمين من الفرنج أمريك Amalric (أموري الأول) ملك بيت المقدس.

(3) أبو شامة، الروضتين، ج2، ص322. ابن واصل، مفرج الكروب، ج2، ص8. وقد ذكر أن صلاح الدين جهز جيشاً وسار أربع مراحل قبل أن تصل أخبار الهدنة.

(4) شرف الدين ابن أبي عصرون: الروضتين، ج4، ص109. وورد ذكره في مواضع كثيرة تدل على الدور الكبير الذي لعبه في المقاومة في ج1، 58، 61، 73، 76، 77، 275، 276، وج2، ص31، 32، 119، 120، 174، 175، 176، 179، 322، 329، 428، 429، 432، ج3، ص6، 248، 299، ج4، ص108.

(5) أبو شامة، الروضتين، ج2، ص322، وقد أورد نص الكتاب كاملاً في ج2، ص329. وفي الكتاب عتاب يعبر عن مدى احترام صلاح الدين لدور العلماء والفقهاء في المقاومة الشعبية والتحريض عليها. وانظر: السبكي،

ويعتبر الخطيب أبو الحسن علي بن مسلم بن الحسن السلمي الدمشقي (452-533هـ) أحد هذه الأمثلة على بروز الفكرة السابقة- الجهاد والوحدة وضرورة نبذ الفرقة والتشردم- فقد شهد السلمي وهو في أواخر عمره غزو الصليبيين للشام، فخصص دروسه في جامع بني أمية الكبير للحديث عن فضائل الجهاد، تحريضاً لأهالي الشام على مقاومة المحتلين، وألف كتاباً في اثني عشر جزءاً أسماه "كتاب الجهاد"⁽¹⁾، ذكر فيه معارك الإسلام الأولى ودور المجاهدين، مع ذكر الآيات والأحاديث النبوية التي تحض على الجهاد وتبين مكانة المجاهدين، كما شرح فيه أبعاد الاحتلال الصليبي، وهو أول من بين أنه هجوم غربي على العالم الإسلامي كله ذو ثلاث شعب: الأولى في الأندلس، والثانية في صقلية وأفريقيا، والثالثة في بلاد الشام⁽²⁾.

وقد اعتبر السلمي في إحدى خطبه وهي بعنوان "الغزو واجب"⁽³⁾ توقف المسلمين عن ممارسته سبباً في اختلاف كلمتهم وتمزق وحدتهم من جهة، وفي طمع الأعداء بهم واحتلال بلادهم مبتدئين بالمناطق الأقرب متابعين حتى بلاد الشام التي وجدوها ممالك مختلفة متنافسة، ومذاهب متعددة مما أغرى باحتلالها، ثم شرح مسؤولية الإمام في قيادة الجهاد وفق مصلحة المسلمين، وبعد ذلك يقول: "فقد تبين مما ذكرت أنه إذا احتيج إلى الجماعة بغزو كلهم فرضاً واجباً عليهم وذلك في مثل هذه الحال التي نحن عليها الآن مع هذه الفرقة الهاجمة على بلاد الشام -يقصد الصليبيين-"⁽⁴⁾.

ثم يبين السلمي ضرورة النفير في الحال لاسيما مع قلة العدو وبعد ناصرهم، ثم ينادي: "فشمروا عن سوق الاجتهاد إلى مفترض هذا الجهاد ومتعين الذب عن دينكم وإخوانكم بالمؤازرة والإنجاز"، وفي هذا حث للمقاومة الشعبية على ضرب الصليبيين مع علمه أن هذا

طبقات الشافعية، ج7، ص361. أما العماد فقد اكتفى بالقول أن صلاح الدين "كتب إلى جماعة من الأعيان بالشام كتاباً دالة على التوبيخ والملام" ولم يورد أي نص لهذه الكتب، البنداري، سنا البرق، ص35.
(¹) لا يزال هذا الكتاب مخطوطاً، موجود منه في المكتبة الظاهرية بدمشق برقم (3796عام) أربعة أجزاء فقط، كاهن في كتاب الشرق والغرب زمن الحروب الصليبية مقتطفات صغيرة جداً مما اعتبره رسالة في الجهاد السلمي، ص281-282. In the Oxford III. Irwin, "Islam and the Crusades 1096-1699".
ustrated His tory of the crusades, ed. By Jonathan Riley- Smith, Oxford 1995. P 225.
(²) حلواني، ابن عساكر، ص40-41. عوض، الحروب الصليبية، ص53. وممن تأثر بهذه الرؤية ابن الأثير عندما أشار إلى الأصول الأندلسية لمرحلة الصليبيات واعتبرها حرباً ثار بين المسيحية والإسلام. انظر: الكامل، ج9، ص13.

(³) حلواني، ابن عساكر، ص41.

(⁴) نفس المرجع، ص42.

العدو لا يمكن أن يستمر دون أن يأتيه المدد من أوروبا لأنه يعاني من نقص العنصر البشري وهذا في مصلحة المقاومة الشعبية.

ويبين أن الجهاد متوجب على الجميع ، ثم يتحدث السلمي في خطبته عن ضرورة تألف ووحدة المسلمين في كل ديار الإسلام لمواجهة الغزو الصليبي ، ويطالب بعودة الوثام و الصفاء مستشهداً بما كان يفعله العرب حتى قبل الإسلام، ثم يصل إلى نقطة هامة فيطالب بمساعدة أهالي الساحل المحاصرين المجاهدين لأنهم الآن شاغلون للعدو عن هذه البلاد وما يليها من مصر ونواحيها⁽¹⁾.

ومن خلال عرض المقتطفات السابقة من خطبة السلمي يتضح -كما سبق أن قدمنا- مدى إحساس العلماء والفقهاء بمخاطر الغزو الصليبي على بلاد الشام، ويمكن أن نستنتج أن هؤلاء العلماء والفقهاء استندوا في حثهم الناس على المقاومة والجهاد من خلال استفادتهم من فكرة الجهاد التي رسخها الإسلام كمفهوم أساسي وواجب على جميع المسلمين للدفاع عن الأمة، وتأمين استمرارية حيويتها ونشاطها.

ولم يكن السلمي وحده من ركز في مؤلفاته على الجهاد وبيان فضائله، ولكنه يعتبر بداية من افتتح هذا التوجه نحو هذا النوع من المؤلفات، لأن طبيعة العصر وما حدث فيه من تحولات سياسية جذرية بعد احتلال الصليبيين لأجزاء كبيرة من بلاد الشام أثرت حتى على نتاجات ومؤلفات الفقهاء الذين ركزوا في طروحاتهم الفكرية ونتائجهم العقلية على الجهاد وفضائله وذلك من أجل شحذ همم السكان المحليين في بلاد الشام لمقاومة الصليبيين⁽²⁾، وينطبق ذلك بصورة واضحة على ابن عساكر الذي ألف كتاباً احتوى أربعين حديثاً عن فضائل الجهاد⁽³⁾، وظاهر بن نصر الله بن جهل المتوفى سنة 596هـ/1199م الذي ألف لنور الدين محمود زكي كتاباً في فضل الجهاد⁽⁴⁾ ولشغف نور الدين بالجهاد وضع فيه كتاباً بقلمه⁽⁵⁾، وذكر ابن شداد⁽⁶⁾ أن حب الجهاد قد استولى على قلب صلاح الدين ولهذا جمع له

(1) الحلواني، ابن عساكر، ص43.

(2) انظر: بدوي، الحياة الأدبية، ص536. الحياة العقلية، ص157. عوض السياسة، ص277. كاهن، الشرق، ص186.

(3) تحقيق، الحلواني، في كتابه ابن عساكر. وانظر: الذهبي، تذكرة الحفاظ، ج4، ص109.

(4) ابن الصلاح، طبقات الشافعية، ج2، ص762. الذهبي، العبر، ج3، ص115. اليسافعي، مرآة الجنان، ج3، ص485.

(5) سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج8، ق1، ص313. ابن قاضي شهبة، الكواكب الدرية، ص57. وانظر:

البحيري، عالمية الحضارة، ص96، هامش 75. علي، الإسلام، ج2، ص292. بدوي، الحياة العقلية، ص130.

(6) النوادر، ص16.

ابن شداد كتاباً جمع فيه كل آدابه، وكل آية وردت فيه، وكل حديث روي في فضله⁽¹⁾، ومن هذه الكتب كتاب ألفه محمود بن محمد بن صيفي⁽²⁾، ومنها كتاب لعز الدين ابن الأثير⁽³⁾، وكتاب لأبي العوالي⁽⁴⁾ وفرغ منه سنة 647هـ/1249م.

ومن الفقهاء و العلماء الذين برزوا في بداية مقاومة الصليبيين وحمل السلاح هو الشيخ أبو القاسم الأنصاري⁽⁵⁾ الذي كان قاضياً للقدس عندما اجتاحتها الصليبيون ، وقد تزعم حركة المقاومة الشعبية ضد الفرنج، ولعب دوراً بارزاً في القتال وتحريض الناس على الجهاد في سبيل الله، وقد قاموا بالقبض عليه وساقوه أسيراً وبدأوا ينادون في فكاكه بألف دينار لما علموا أنه من علماء المسلمين، غير أنه لم يستفكه أحد، وعند ذلك أقدموا على إعدامه رمي بالحجارة على باب أنطاكية⁽⁶⁾ ومن هؤلاء العلماء أيضاً الشيخ أبو القاسم الرازي⁽⁷⁾ الذي استشهد مدافعاً عن ثرى القدس الشريف⁽⁸⁾.

ولم تقتصر المقاومة الشعبية على علماء المشرق فقط، بل شاركهم ومنذ بدء الحركة الصليبية علماء وفقهاء مغاربة⁽⁹⁾ كانوا ضمن جيوش الأفضل بن بدر الجمالي، وأبلوا بلاء

(1) ابن شداد، النوادر، ص17، 70.

(2) بغية الوعاة، ص389.

(3) خليفة، كشف الظنون، ج2، ص410.

(4) بدوي، الحياة الأدبية، ص537.

(5) الأنصاري (432-492هـ/1099م) الشيخ أبو القاسم مكي بن عبد السلام بن الحسين، فقيه شافعي كان قاضياً لبيت المقدس قبيل الاحتلال الفرنسي، وكانت الفتاوى تأتيه من مصر والشام وغيرهما ليبدلي بها، وكان من الجوالين في الأفاق نسبته الرميلى إلى قرية من فلسطين إسمها الرملة. انظر ترجمته في: السبكي، طبقات الشافعية، ج5، ص332-333. ابن الصلاح، طبقات الشافعية، ج2، ص886. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج5، ص164. الحريري، الإعلام، ص66. العلمي، الأنس الجليل، ج1، ص298. ابن العماد، شذرات الذهب، ج2، ص398.

(6) العلمي، الأنس الجليل، ج1، ص298. وقد عارض السبكي وهو أقدم من العلمي مكان استشهاد الأنصاري فذكر أنه أثناء الدفاع عن القدس في شعبان 492هـ/1099م. انظر: طبقات الشافعية، ج5، ص333. وانظر كذلك: ابن الصلاح، طبقات الشافعية، ج2، ص886. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج5، ص164. الحريري، الإعلام، ص66. ابن العماد، شذرات الذهب، ج2، ص398.

(7) أبو القاسم الرازي (ت سنة 492هـ/1099م) عبد الجبار بن أحمد الشافعي، تفقه على الخجندي أبا بكر محمد بن ثابت بن الحسن بن علي بأصفهان ثم استوطن في بغداد مدة، ثم انتقل إلى بيت المقدس وسلك سبل الورع انظر: السبكي، طبقات الشافعية، ج5، ص98. العلمي، الأنس الجليل، ج1، ص299.

(8) السبكي، طبقات الشافعية، ج5، ص98. العلمي، الأنس الجليل، ج1، ص299.

(9) حول دور المغاربة في مقاومة الصليبيين في بلاد الشام، انظر: ابن جبير، الرحلة، ص247. أحمد، الأندلسيون والمغاربة، ص133. العبادي، دور المغاربة، ص81-102. كريم، الشام، ص489. التازي، حي المغاربة، =

حسناً⁽¹⁾ ومن هؤلاء العلماء فقيه مغربي كان قد وفد من المثلثين (المرابطين) إلى بغداد حيث قام بالوعظ والتحريض في جامع دار الخلافة " واجتمع له العالم الطيب"⁽²⁾ ثم غادر بغداد إلى القدس ليشارك في المقاومة الشعبية بحيث لم يكن للمصريين حرب مع الفرنج إلا من شهدها فقتل في بعضها شهيداً، وكان شجاعاً فتاكاً مقداماً⁽³⁾.

وممن استشهد في بداية الغزو الصليبي مدافعاً عن مدينة أنطاكية قبيل سقوطها عام 491هـ/1098م الفقيه أبو عبد الله الحسين بن الحسن الشهرستاني⁽⁴⁾، الذي "خرج مع الجموع إلى أنطاكية فاستشهد بها"⁽⁵⁾.

وقد أثار استيلاء الصليبيين على القدس المسلمين في جميع المناطق خاصة مصر والشام والعراق، وخلق ذلك الاحتلال توتراً في العالم الإسلامي "وانزعج المسلمون في سائر ممالك الإسلام بسبب أخذ بيت المقدس غاية الانزعاج"⁽⁶⁾ قاده زعامته الفكرية الشعراء والكتاب والعلماء والفقهاء، الذين جردوا حملة إعلامية لإثارة الناس ودفعهم لتحرير الأراضي المقدسة⁽⁷⁾، وبدأت دعوة الجهاد تسري بين الناس في العالم العربي الإسلامي بسرعة كبيرة⁽⁸⁾، وفي رحم الحركة الفكرية التي قادها المفكرون تبلورت اتجاهات المقاومة الشعبية ضد **المحتلين** الصليبيين، فخرجت من دمشق خاصة وبلاد الشام عامة سنة 492هـ/1099م

=ج1، ص97-112. العسلي، ص20-23. المغربي، طائفة المغاربة رسالة دكتوراه غير منشورة، جامعة عين شمس، مصر، عام 2000م. التازي، بلاد الشام في الوثائق الدبلوماسية المغربية، بحث كامل في مؤتمر بلاد الشام، عوض، السياسة الخارجية، ص212.

(1) ابن الأثير، الكامل، ج9، ص97. وانظر: العبادي، دورا لمغاربة، ص84.

(2) ابن الأثير، الكامل، ج9، ص97.

(3) المصدر نفسه.

(4) الشهرستاني: نسبة إلى شهرستان عندنا من بلدان خراسان فيما يلي خوارزم يقال رباط شهرستانية واسمه الحسين بن الحسن كان قاضياً لدمشق زمن تاج الدولة تتش سنة 477هـ، وقد سمع الحديث بنيسابور، وجرجان، والعراق، كان حسن السيرة في الأحكام شديداً على من خالف الحق وكانت وفاته بظاهر أنطاكية سنة 491هـ على يد الصليبيين إذ أنه قد خرج من دمشق مع العساكر التي خرج بها شمس الملوك دقاق وظهير الدين طغتكين لنجدة ياغي سيان. انظر ترجمته في: ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج1، ص314. السبكي، طبقات، ج7، ص73-74. ابن الأثير، اللباب، ج2، ص217.

(5) ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج1، ص315. وانظر: السبكي، طبقات، ج7، ص74.

(6) العليمي، لأنس الجليل، ج1، ص308.

(7) عبد القادر، سياسة صلاح الدين، ص58.

(8) قاسم، ماهية الحروب، ص136.

جماهير شعبية حاشدة بزعامة القاضي زين الدين أبي سعد الهروي⁽¹⁾ إلى بغداد ليشكلوا رأي عام ضاغط على الحكام المتخاذلين "فأوردوا كلاماً أبكي العيون وأوجع القلوب، وقاموا في الجامع يوم الجمعة فاستغاثوا وبكوا وأبكوا، وذكروا ما دهم المسلمين بذلك البلد الشريف معظم من قتل الرجال وسبي الحريم والأولاد"⁽²⁾، وبناءً على ماسبق "ندب الخليفة ببغداد⁽³⁾ الفقهاء إلى الخروج في البلاد ليحرضوا الملوك على الجهاد، فخرج الإمام أبو الوفاء بن عقيل الحنبلي، وغير واحد من أعيان الفقهاء وساروا في الناس"⁽⁴⁾، ليحرضوهم على المقاومة.

ونتيجة لذلك تجمهر الناس في المحلات العامة في دمشق وحلب، ودخل الكثير منهم بقيادة علماء الدين المساجد وأخذوا يدعون للجهاد والمقاومة، وبسرعة، ضد المحتلين⁽⁵⁾، فقد كان المسلمون إذا لمسوا تهاوناً من الحكام المسلمين، بصدد الجهاد ضد المحتلين الصليبيين، اجتمعوا ومعهم رجال الدين وتوجهوا إلى المساجد لإعلان احتجاجهم كي تصل صرخاتهم إلى الحكام، وقد استمرت حملات الإستنفار والاستغاثة الشعبية رغم مرور أكثر من عقد على سقوط القدس وغيره من المدن الإسلامية ففي أول جمعة من شعبان سنة 504هـ/1110م سار جماعة من "أهل حلب وجماعة من الصوفية والتجار والفقهاء إلى جامع السلطان⁽⁶⁾ ببغداد فاستغاثوا وانزلوا الخطيب عن المنبر وكسروه وصاحوا وبكوا لما لحق الإسلام من الإفرنج وقتل الرجال وسبي النساء والأطفال، ومنعوا الناس من الصلاة"⁽⁷⁾. وأخذ الخليفة في الاستعداد وتهيأ السلطان للغزو نتيجة لتلك الضغوط "فلم يتم ذلك لضعف عساكر العراق"⁽⁸⁾

(1) أبو سعد محمد بن نصر بن منصور الهروي أحد كبار القضاة المشهورين في الشام ، كان ذمروعة غزيرة وتقدم كثير في الدولة السلجوقية قتله الباطنية سنة 519هـ، ابن الأثير، الكامل، ج9، ص234. وانظر: الجامي، معجم، ص591.

(2) ابن الأثير، الكامل، ج9، ص19. وانظر: سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج1، ص327—328. أبو الفداء، المختصر، ج2، ص28. العليمي، الأنس الجليل، ج1، ص308.

(3) كان الخليفة المعاصر لتلك المحنة هو المستظهر بأمر الله أبو العباس أحمد العباسي.

(4) العليمي، الأنس الجليل، ج1، ص308. ومن الفقهاء الذين أخرجهم لتحريض أمراء السلاجقة على نجدة الشام، القاضي أبو محمد الدامغاني، وأبو بكر الشاشي وأبو القاسم الزبجاني وأبو سعيد الحلواني، وأبو الحسين بن سماك، ابن الأثير، الكامل، ج9، ص19. النويري، ج28، ص258. ابن خلدون، ج5، ص127.

(5) Champdor, Salodin Le Plus Pur heroes delslam Paris, 1956, p.27. كاهن، وثيقة رقم(4) ص285.

(6) سلطان السلاجقة غياث الدنيا والدين والدين محمد بن ملك شاه.

(7) ابن القلانسي، الذيل، ص173. ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج2، ص536. ابن العديم ، زبدة الحلب، ص158

(8) سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج2، ص536. ابن العديم ، زبدة الحلب ، ج2، ص157—158.

"ولم تتجدهم عساكر مصر ولا عساكر العراق"⁽¹⁾، وفي سنة 532هـ/1137م خرج أهالي حلب وبزاعة من النساء والصبيان والرجال في مظاهرة كبيرة دخلوا بها المساجد ومنعوا الناس من إقامة الصلاة، ودفعوهم لقتال الأعداء واضطروا لكسر المنابر⁽²⁾.

وواصل الفقهاء ورجال الحركة الفكرية تزعمهم لردود الأفعال الشعبية ضد أي تخاذل أو تفريط يلمسوه من جانب زعمائهم السياسيين، فقد اعتبر المسلمون في بلاد الشام أن معاهدة السلام التي عقدها السلطان الأيوبي الكامل مع الإمبراطور فريديريك الثاني في السابع والعشرون من حمادي الأولى عام 626هـ/23 نيسان (إبريل) 1229م⁽³⁾ والتي تقضي بتسليم القدس للصليبيين كارثة حقيقية، وكان رد الفعل الشعبي عنيفاً ضد السلطان الذي برر موقفه بقوله "إنا لم نسمح للفرنج إلا بكنائس وأدر (أديرة) خربة والحرم وما فيه من الصخرة المقدسة وسائر المزارات بأيدي المسلمين على حاله وشعار الإسلام قائم على ما كان عليه، ووالي المسلمين متحكم على رسائيقه وأعماله"⁽⁴⁾ وعلى الرغم من ذلك "استعظم المسلمون ذلك وأكبروه ووجدوا له من الوهن والتألم ما لا يمكن وصفه"⁽⁵⁾، وعندما قرر تطبيق الاتفاقية على أرض الواقع "تودي بالقدس بخروج المسلمين وتسليم القدس إلى الفرنج، فوقع في أهل القدس الضجيج والبكاء"⁽⁶⁾ "والصراخ والعويل، وحضر الأئمة والمؤذنون من القدس إلى مخيم الكامل، وأذنوا على بابيه في غير وقت الأذان، فعز عليه ذلك"⁽⁷⁾ وهذا من أكبر الأدلة على درجة التأثير التي تركتها ردود الفعل الشعبية بقيادة الفقهاء والعلماء على ما فعله الكامل الذي دافع عنه ابن واصل الذي روى له والده الواقعة كلها بعدما شاهدها بأم عينه بأن الكامل فعل ما فعله لحاجة في نفس يعقوب" وإنه إذا قضى غرضه واستتبت الأمور له كان متمكناً من

(1) الحريري، الإعلام، ص 73.

(2) سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج 8، ق 1، ص 163،

(3) حول هذه الاتفاقية وما أحدثته من ضجة وردة فعل شعبية غاضبة انظر: سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج 8، ص 432. ابن الأثير، الكامل، ج 10، ص 481. ابن واصل، مفرج الكرب، ج 4، ص 241-246. ابن كثير، البداية والنهاية، ج 13، ص 123-124. ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، ص 244. أبو الفداء المختصر، ج 2، ص 240، الحموي، التاريخ، ص 176. المقرئزي، السلوك، ج 1، ص 353-354. Grousset, Historire, Vol.3, p.344. عاشور، الإمبراطور، 208-211.

(4) ابن واصل، مفرج، ج 4، ص 243-244. المقرئزي، السلوك، ج 1، ص 354.

(5) ابن الأثير، الكامل، ج 9، ص 378. وانظر: الغساني، المسجد المسبوك، ج 2، ص 436. ابن واصل، مفرج، ج 4،

ص 243. المقرئزي، السلوك، ج 1، ص 354.

(6) ابن واصل، مفرج، ج 4، ص 243.

(7) المقرئزي، السلوك، ج 1، ص 354.

تطهيره من الفرنج وإخراجهم منه⁽¹⁾ أي من القدس، ولا نعلم ما الغرض الذي يقصده ابن واصل غير الصراع الذي كان دائراً بينه وبين أخيه المعظم عيسى⁽²⁾ ومن بعده ابنه الناصر داود⁽³⁾ الذي أسند إلى الشيخ الفقيه الواعظ سبط ابن الجوزي⁽⁴⁾ أن يعقد مجلساً للوعظ يذكر فيه فضائل بيت المقدس، وما حل بالمسلمين من تسليمه إلى الصليبيين وقد وصف سبط ابن الجوزي ذلك المجلس وردة الفعل الشعبية الإسلامية على تسليم الكامل القدس للصليبيين بقوله: بأنه عندما وصلت الأخبار بذلك "قامت القيامة في جميع بلاد الإسلام، واشتدت العظائم، بحيث أقيمت المآتم، وأشار الملك الناصر داود أن أجلس بجامع دمشق، وأذكر ما جرى على البيت المقدس، فما أمكنني مخالفته، ورأيت من جملة الديانة الحمية للإسلام موافقته، فجلست بجامع دمشق، وحضر الناصر داود، على باب مشهد علي، وكان يوماً مشهوراً، لم يتخلف من أهل دمشق أحد"⁽⁵⁾، وأورد كلاماً كثيراً عن هذه الحادثة العظيمة والمصاب الجلل الذي أصاب الأمة.

وقد وصف ابن واصل⁽⁶⁾ والذي حضر مجلس سبط ابن الجوزي بأنه "كان مجلساً عظيماً.. ارتفع ضجيج الناس وبكاؤهم، فلم ير إلا بالك أو باكية".

(1) ابن واصل، مفرج، ج4، ص243.

(2) المعظم عيسى بن العادل بن بكر بن أيوب ولد 576هـ توفي 624هـ ترجمته وحياته في: ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج8، ق2، ص644-652.

(3) عن هذا الصراع انظر: ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج8، ق2، ص625، 657. بداية الوحشة بدأت سنة 620هـ والملك الناصر داود هو (صلاح الدين أبو المظفر) بن الملك المعظم شرف الدين عيسى (الأول) بن الملك العادل سيف الدين أبي بكر محمد (الأول) بن الملك الأفضل نجم الدين أيوب بن شاذي بن مروان، رابع ملوك الأيوبيين في دمشق، ثم صاحب الكرك، ولد سنة (603هـ/1206م) وتوفي في قرية يقال لها البويضة على باب دمشق سنة (656هـ/1258م) ودفن عند والده في المدرسة. انظر ترجمته: ابن واصل، مفرج الكروب، ج4، ص224. ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج3، ص496. الكتبي، فوات الوفيات، ج1، ص156. المقرئ، السلوك، ج1، ص501. ابن العماد، شذرات الذهب، ج5، ص275.

(4) سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج8، ق2، ص654.

(5) كان من جملة ما قاله سبط ابن الجوزي بهذه المناسبة الحزينة "انقطعت عن البيت المقدس وفود الزائرين، ياوحشة المجاورين، كم كان لهم في تلك الأماكن من ركعة، وكم خرت لهم على تلك المساكن من دعة، الله لو صارت عيونهم عيوناً لما وفت، ولو تقطعت قلوبهم أسفاً لما شفت، أحسن الله عزاء المؤمنين، يا خجلة ملوك المسلمين لمثل هذه الحادثة تسكب العبرات، لمثلها تقطع القلوب من الزنرات، لمثلها تعظم الحسرات" المصدر نفسه، ج8، ق2، ص654.

(6) مفرج الكروب، ج4، ص246. وانظر: أبو الفداء، المختصر، ج2، ص240. المقرئ، السلوك، ج1، ص356. العليمي، الألس الجليل، ج1، ص407.

وعندما سلم الصالح عماد الدين إسماعيل⁽¹⁾ قلعة صفد وقلعة الشقيف وبلادها ومناصفة صيدا وطبريا وأعمالها، وجبل عاملة، وسائر المناطق الساحلية للصليبيين سنة 639هـ/1241م، ثم عزم على مهاجمة مصر، "وأذن للفرنج في دخول دمشق وشراء السلاح، فأكثروا من ابتياع الأسلحة وآلات الحرب من أهل دمشق، فأنكر المسلمون ذلك، ومشى أهل الدين منهم إلى العلماء واستفتوهم، فأفتى الشيخ عز الدين بن عبد السلام⁽²⁾ بتحريم بيع السلاح للفرنج وقطع من الخطبة بجامع دمشق الدعاء للصالح إسماعيل، وصار يدعو في الخطبة بدعاء منه: "اللهم أبرم لهذه الأمة إبرام رشد تعز فيه أوليائك، وتذل فيه أعدائك، ويعمل فيه بطاعتك، وينهي عن معصيتك، والناس يضجون بالدعاء"⁽³⁾ وعندما علم بذلك

(¹) الملك الصالح إسماعيل (الأول) عماد الدين، أبو الجيش، وقيل أبو الجيش بن الملك العادل سيف الدين أبي بكر محمد (الأول) بن الملك الأفضل بجم الدين أيوب بن شاذي، سادس ملوك الأيوبيين في دمشق وبصرى، وخامسهم في بعلبك قتل بمصر سنة (648هـ/1250م)، كان في البداية حاكم لبعلبك وبصرى ثم حكم دمشق خلفاً لأخيه المتوفى الملك الأشرف في سنة 635هـ، وقد رفض الكامل صاحب دمشق تولي الصالح إسماعيل لدمشق، فهاجمها وأخذها منه ثم رحل الصالح إسماعيل إلى بعلبك وعاد متحالفاً مع المجاهد صاحب حمص ليأخذ دمشق من الكامل سنة 637هـ/1239م، وحتى يضمن الاحتفاظ بدمشق لنفسه قام بالتحالف مع الصليبيين وعقد معهم اتفاقاً. انظر: ابن واصل، مفرج الكروب، ج3، ص275. الزبيدي، ترويح القلوب، ص50 ترجمة رقم 61. ابن كثير، البداية والنهاية، ج13، ص210. الصفدي، تحفة ذوي الألباب. ج1، ق2، ص129-130. المقرئزي، السلوك، ج1، ص407. ابن العماد، شذرات الذهب، ج5، ص241.

(²) العز بن عبد السلام: هو شيخ الإسلام أبو محمد عبد العزيز بن عبد السلام أبي القاسم بن الحسن السلمي الدمشقي، عز الدين، الملقب بسلطان العلماء فقيه شافعي، بلغ رتبة الاجتهاد، ولد في دمشق سنة 577هـ/1181م، وزار دمشق سنة 599هـ فأقام شهراً ثم عاد إلى دمشق فتولى الخطابة والتدريس بزواوية الغزالي، ثم الخطابة بالجامع = الأموي، ثم نزل مصر، فولاه صاحبها الصالح نجم الدين أيوب القضاء والخطابة ومكنه من الأمر والنهي، ثم اعتزل ولزم بيته، وكان من أكثر المحرضين على حرب الفرنج ثم التنازل حتى وفاته سنة 660هـ/1262م في عهد الظاهر بيبرس الذي صلى عليه في القاهرة، وصلى عليه الناس صلاة الغائب في جامع بني أمية بدمشق، وغير من جوامع الشام. عته انظر: أبو شامة، الذيل، ص216. ابن واصل، مفرج الكروب، ج5، ص302-303. أبو الفداء، المختصر، ج2، ص326. السبكي، طبقات الشافعية ج8، ص240-245. اليونيني ذيل، مرآة الزمان، ج1، ص55. ابن كثير، البداية والنهاية، ج13، ص235. المقرئزي، السلوك، ج1، ص411. ابن تغري بردي، النجوم، ج208، ص7. الكنتي، فوات الوفيات، ج2، ص287. العيني، عقد الجمان، ج1، ص338-339. ابن حبيب، درة الأسلاك، ورقة 29، ابن العماد، الشذرات، ج5، ص301. البغدادي، هدية العارفين، ج1، ص580.

(³) السبكي، طبقات الشافعية، ج8، ص243. وانظر: ابن واصل، مفرج الكروب، ج5، ص302-303. المقرئزي، السلوك، ج1، ص407. ابن كثير، البداية والنهاية، ج13، ص236. العيني، عقد الجمان، ج1، ص339.

الصالح إسماعيل أمر بحبسه هو وابن الحاجب⁽¹⁾ الذي أنكر معه ما فعله الصالح إسماعيل بفرض الإقامة الجبرية عليه بعد أن عزله عن الخطابة، ومنعه من الفتوى وأن لا يدخل عليه أحد إلا الطبيب أو المزين -الحلاق-⁽²⁾، ثم نرح إلى بيت المقدس ، ومنها إلى نابلس بناء على طلب من الملك الناصر حاكم الكرك و نابلس الذي استدعاه لتحريض الناس على مقاومة الصليبيين والصمود أمام المذابح التي أوقعها هجوم الداوية على نابلس في ذي الحجة 637هـ/يونيه -يوليه 1240م ،ويصف له فداحة الهجوم وما أحدثه من خسائر⁽³⁾.

وبعد نزوله عند الناصر وصل الصليبيون وحلفاءهم من العساكر الإسلامية بقيادة الصالح إسماعيل ،والمك المنصور صاحب حمص ،واستدعوا كذلك حليفهم الناصر ، وعسكروا في القدس ليستأنفوا بعدها الهجوم على مصر، ولأنهم خشوا من تحريض العز ابن عبد السلام للأهل هناك أمر الصالح إسماعيل جنوده بإحضاره من نابلس إلى القدس ثم "اعتقله في خيمة إلى جانب خيمة السلطان"⁽⁴⁾، وقد سأل الصليبيون الصالح ،من يكون هذا الشيخ؟ فرد عليهم قائلاً: "هذا أكبر قسوس المسلمين وقد حبسته لإنكاره علي تسليمي لكم حصون المسلمين وعزلته عن الخطابة بدمشق وعن مناصبه ثم أخرجته فجاء إلى القدس وقد جدت حبسه واعتقلته لأجلكم ،فقلت له ملوك الفرنج لو كان هذا قسيسنا لغسلنا رجليه وشربنا مرقتها"⁽⁵⁾

وقد برز دور الفقهاء والعلماء واضحاً في الدفاع عن المدن الإسلامية أثناء حصار الصليبيين للمدن الشامية، يدلنا على ذلك ما ذكره ابن القلانسي⁽⁶⁾ من أن أهل صيدا وبعد أن فشلوا في مقاومتهم للصليبيين سنة 503هـ/1109م قاموا "بإخراج قاضيها وجماعة من

(1) ابن الحاجب: هو عثمان بن عمر، جمال الدين، فقيه مالكي، ومن كبار العلماء، ولد في أسنا بصعيد مصر سنة 570هـ/1174م وسكن دمشق، ومات بالإسكندرية سنة 649هـ/1249م له مصنفات كثيرة. انظر: ابن خلكان، وفيات، ج2، ص412-414. ابن تغري بردي، المنهل، ج4، ص44. النجوم، ج6، ص360. الإدفوي، الطالع، ص352-357.

(2) السبكي، طبقات الشافعية، ج8، ص243. وانظر: المقرئزي، السلوك، ج1، ص407. الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج23، ص166. الصفدي، تحفة، ج1، ق2، ص132. العيني، عقد الجمان، ج1، ص339.

(3) انظر نص الرسالة التي أرسلها الناصر للعز بن عبد السلام في الملاحق. وعن الهجوم الذي شنته الداوية على نابلس. النظر: مؤلف مجهول، الفوائد، لوحة118. اليونيني، ذيل مرآة الزمان ج1، ص157-158. ابن لقلق، تاريخ، مجلد4، ج2، ص131. السبكي، طبقات الشافعية، ج8، ص243. زيادة، حملة لويس، ص72. البيضاوي، نابلس، ص160-161. العزة، نابلس، ص65.

(4) السبكي، طبقات الشافعية، ج8، ص244.

(5) نفس المصدر.

(6) الذيل، ص171.

شيوخها وطلبوا من بغدوين -بلدوين الأول- فأجابهم إلى ذلك" ويبدو من رواية ابن القلانسي أن القاضي وهو من الفقهاء كان يقود المقاومة الشعبية ضد الصليبيين المحاصرين لمدينة صيدا، وتدل روايته على أن أهل صيدا هم من قاوم الصليبيين ولم يكن هناك أي قوة نظامية أو حامية فاطمية رسمية تدافع عن المدينة وإلا فلماذا خرج القاضي والشيوخ لطلب الأمان، وإذا كانت هناك قوة رسمية أو نظامية تدافع عن المدينة فلماذا لم يخرج قائد الحامية، من يمثله ليتفاوض مع القوات الصليبية!؟

وقد ظهرت معالم أخرى لدور الفقهاء كمتطوعين في المقاومة الشعبية في شمال بلاد الشام حيث تزعم الفقيه الحلبي القاضي أبو الفضل ابن الخشاب المقاومة الشعبية ضد الصليبيين خاصة في معركة البلاط⁽¹⁾ سنة 513هـ/1119م، إذ عمل ابن الخشاب على شحذ همم مجموعات المقاومة الشعبية والجنود على قتال الصليبيين، وأقبل يحرض الناس على القتال، وهو على حجر ويده رمح، "وخطبهم خطبة بليغة استنهض فيها عزائمهم، واسترهب همهم بين الصفيين، فأبكى الناس وعظم في أعينهم"⁽²⁾.

وقُدر للحملة الصليبية الثانية 543هـ/1148م أن تشهد دوراً مقاوماً من جانب الفقهاء والعلماء الشاميين كنوع من المقاومة الشعبية ضد الصليبيين، وقد تمثل ذلك في دور اثنين من الفقهاء هما أبو الحجاج يوسف بن دوناس⁽³⁾.

وعبد الرحمن الحلولي⁽¹⁾ اللذان تزعما المقاومة الشعبية ضد الصليبيين المهاجمين لدمشق، ويصور لنا أسامه بن منقذ⁽²⁾ الحوار الذي دار بين الفقيهين حيث قال الحلولي للفندلاوي: هل

(1) البلاط: مدينة عتيقة بين مرعش وأنطاكية من أعمال حلب. ياقوت، معجم، ج1، ص477.

(2) ابن العديم، زبدة الحلبي، ج2، ص188. وانظر مايلي الفصل الرابع.

(3) يوسف ابن درناس، أو دوناس المغربي أبو الحجاج فقيه على المذهب المالكي، أصله من المغرب قدم من دمشق ليحج منها، فسكن بانياس مدة، وكان خطيباً لها، انتقل إلى دمشق فاستوطنها ودرّس بها المذهب المالكي وحدث بالموطأ، وكتاب التلخيص لأبي الحسن القاسمي، وقد علق عنه ابن عساكر أحاديث يسيرة، وصفه المؤرخون بأنه = كان إماماً عالمياً، دينياً بارعاً في فنونه وصالحاً فكهاً، طو المجالسة، شديد التعصب للأشعرية، صاحب تحزق على الحنابلة، لانعلم له أي مؤلفات إلا تلك الرسالة التي نشرها (جواد المرابط) بعنوان "فتوى الفندلاوي" في بيروت، سنة 1966. انظر ترجمته في: ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج14، ص49، ج37، ص342. ابن القلانسي، الذيل، ص298. ابن منقذ، الاعتبار، ص94. ابن الأثير، الكامل، ج9، ص353. ياقوت، معجم البلدان، ج4، ص277. أبو شامة، الروضتين، ج1، ص186، 191. ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج2، ص452. الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج20، ص204 = 209-210. ابن كثير، البداية والنهاية، ج12، ص224. الدارس، ج2، ص269. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج5، ص282. الحريري، الإعلام، ص76. ابن العماد، شذرات، ج2، ص136.

هؤلاء الروم؟ (يعني الصليبيين) قال: نعم، قال فالإلى متى نحن وقوف؟ قال: سر على اسم الله فتقدما فقاتلا حتى استشهدا رحمهما الله في مكان واحد". وكان معين الدين أنر حاكم دمشق قد طلب منهما ألا يشاركا في القتال نظراً لتقدم سنهما، ولكنهما رفضا إلا الجهاد والمقاومة، ويصور لنا ذلك الحوار رغبة دافئة للفقهاء لكي يشاركوا في المقاومة الشعبية ضد الصليبيين، وقد كان لاستشهادهما أكبر الأثر في إثارة المسلمين في دمشق ضد الصليبيين.

واستمر الفقهاء والعلماء في لعب دور هام كمتطوعين في المقاومة الشعبية في عهد نور الدين محمود فشاركوه الفتوح وصحبوه، فكانوا يساندونه بالدعاء له وقراءة القرآن، ومن أمثلة ذلك ما حدث في عام 545هـ/1150م عندما هاجم قلعة عزاز⁽³⁾ واستطاع فتحها، حيث اشترك الفقهاء في هذا الفتح⁽⁴⁾، ويظهر ذلك فيما أورده ابن العديم⁽⁵⁾ من أن أبو الحسين بن أبي عبد الله بن حمزة بن الصوفي المقدسي الزاهد أحد الأولياء المذكورين والأصفياء المستورين وأرباب الكرامات المشهورين، قد طلب من نور الدين فتح عزاز بعد أن أسر حاكمها جوسلين وقال له: " تعال حتى نحاصر عزاز ونعاون المسلمين ثم عمل صورة قلعة من طين وقال لي امش حتى نزحف عليها ثم جعل يقول نصر من الله وفتح قريب نصر من الله وكسر الصليب وجعل يكرر ذلك ثم قال ها أخذناها أخذناها ".

(1) الحلولي: عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الرحمن الطحولي نسبة إلى قرية في الخليل، ولد بطلب وسار في الأفاق، وكان آخر أمره أنه انقطع بمسجد في ظاهر دمشق حتى مجيء الحملة الصليبية الثانية حيث خرج مع صديقه الفندلاوي واستشهد، وتم دفنه في بستان الشعباني في جهة شرقه، ولا يزال قبره موجوداً إلى الآن، وهو بالقرب من جسر النحاس في حي الأكراد بدمشق/ انظر: ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج2، ص86. باقوت، معجم البلدان، ج2، ص290. ناصر الدين، توضيح المشتبه، ج2، ص280. أبو شامة، الروضتين، ج1، ص186، وهامش(2) من نفس الصفحة. عبد الهادي، ثمار لمقاصد، ص130هامش(5).

(2) الاعتبار، ص14. عن هذه الحادثة انظر: ابن الأثير، الكامل، ج9، ص353. الباهر، ص89. ابن منقذ، المصدر السابق، ص14. أبو شامة، الروضتين، ج1، ص186. سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج8، ق1، ص200. ابن كثير، البداية والنهاية، ج12، ص224. النعمي، الدارس، ج2، ص350. الذهبي، العبر، ج4، ص150. سير أعلام النبلاء، ج20، ص210. ابن أبيك الدوادري، الدررة المضيئة، ص549. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج5، ص288. ابن قاضي شهبة، الكواكب الدرية، ص126. ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج4، ص136.

(3) عزاز: العزاز الأرض الصلبة وهي بليدة فيها قلعة ولها رستاق شمالي حلب. باقوت، معجم، ج4، ص118.

(4) أبو شامة، الروضتين، ج2، ص243

(5) بغية الطلب، ج10، ص4419.

وخلال أحداث معركة بانياس عام 552هـ/1157م التي تعتبر من أهم المعارك الحربية التي جرت ضد الصليبيين في العهد النوري، اشترك فيها عناصر من " الفقهاء الصوفية والمتدينين العدد الكثير"⁽¹⁾.

ويبدو من الرواية السابقة بروز عناصر أخرى إلى جانب الفقهاء ألا وهم المتصوفة والمتدينين الذين لا يقلون أهمية عن الفقهاء والعلماء.

ويلاحظ أن هذا الدور من المتصوفة إلى جانب الفقهاء يجعلنا لا نأخذ كحقيقة مسلمة ما قد أشار إليه ابن جبير⁽²⁾ خلال رحلته في بلاد الشام من أن المتصوفة قد كفاهم الله "مؤن الدنيا وفرغ خواطرهم للعبادة من الفكر في أسباب المعاش".

فإن ابن جبير بحكم المدة القصيرة التي أمضاها هناك لم يلمس كافة جوانب نشاط المتصوفة الشاميين، ومن ثم فقد تصور تفرغهم لأموال العبادة⁽³⁾.

وسجل العلماء والفقهاء حضوراً في أول المعارك التي خاضها صلاح الدين في

الثاني من جمادي الآخرة عام 573هـ/السادس والعشرين من نوفمبر 1177م. في معركة

الرملة أو تل الصافية أو كما يسميها البعض بكسرة الرملة⁽⁴⁾، ومما يدل على مشاركة الفقهاء

(¹) ابن الفلانسني، الذيل، ص340. أبوشامة، الروضتين، ج1، ص341.

(²) الرحلة، ص199.

(³) عوض، الحركة الصوفية، ص102.

(⁴) العماد الأصفهاني، البرق، ج3، ص53-55. البنداري، سنا البرق، ص131. ابن شداد، النوادر، ص42-43.

ابن الأثير، الكامل، ج10، ص86. ابن العديم، زبدة الحلب، ج3، ص36. ابن أيوب، منتخبات، ص247. ابن

واصل، مفرج الكروب، ج2، ص59. الحنبلي، شفاء القلوب، ص115. المقريزي، السلوك، ج1، ص175.

العماد، الشذرات، ج2، ص244.

في هذه المعركة، أنه بعد هزيمة المسلمين الذين "قدر الله كسرتهم... وتددوا وأسر منهم الفقيه عيسى (1)» (2).

وظل الفقيه عيسى أسيراً لدى الصليبيين مدة سنتين أي سنة 575هـ/1179م حيث افتداه السلطان صلاح الدين بستين ألف دينار وعدد من أسرى الصليبيين⁽³⁾، وما فعله صلاح الدين لإطلاق سراح الفقيه عيسى إنما يدل على ما حظي به الفقهاء من أهمية، وتقديراً لدورهم في شذذ الهمم لمقاومة الاحتلال.

ارتبط الفقهاء والعلماء كذلك كمتطوعين في جيش صلاح الدين مما يعني مشاركتهم في المقاومة الشعبية وبرز دورهم في فتح مدينة القدس، وهذا يجعلنا نتصور احتمال اشتراكهم في معركة حطين التي سبقت الفتح المبارك للقدس عام 583هـ/1187م، وهذا ما يؤكد ابن كثير⁽⁴⁾ بأنه عندما عزم صلاح الدين على فتح القدس الشريف "قصده العلماء

(1) هو ضياء الدين أبو محمد عيسى بن محمد بن عيسى بن محمد بن أحمد وينتهي بسبه إلى الإمام علي بن أبي طالب، ويقال له الهكاري، كان في مبدأ أمره مدرساً للفقه بالمدرسة الزجاجية بحلب ثم اتصل بأسد الدين شيركوه وأصبح إمامه في الصلاة، وبعد وفاة الأخير، نجح الفقيه عيسى بإقناع الأمراء بتوليته صلاح الدين الوزارة في مصر، وأصبح بعدها من المقربين لصلاح الدين "وكثير الإدلال عليه يخاطبه بما لا يقدر عليه غيره من الكلام، وكان واسطة خير للناس نفع بجاهه كثير من الناس" وقد توفي في التاسع من ذي القعدة سنة 585هـ/بمنزلة الخروبة خلال مشاركته صلاح الدين في حصار الصليبيين المحاصرين لعكا، ثم نقلت جثته إلى القدس حيث دفن فيها. للمزيد حول الفقيه عيسى انظر: ابن خلكان، وفيات، ج3، ص497. ابن الأثير، الكامل، ج10، ص86، 140، 190، 257. أبو شامة، الروضتين، ج2، ص2، ج2، ص58، 71، 102، 105، 280-281، 428، ج3، ص28، 170، 310، 332، 398، ج4، ص9، 69، 87، 90، 109-110. السبكي، طبقات الشافعية، ج7، ص365. ابن شداد، النوادر، ص42-43. ابن أيوب، منتخبات، ص260، 297. ابن واصل، مفرج الكروب، ج2، ص309. البنداري، سنا البرق، ص316-317. أبو الفداء، المختصر، ج2، ص163. ابن كثير، البداية والنهاية، ج12، ص314، 326، 334. =الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج21، ص302. المقرئزي، السلوك، ج1، ص209، 216. ابن تغري بردي، النجوم، ج5، ص352، ج6، ص17، 27، 110. النعماني، المدارس، ج1، ص173. العليمي، الأئس الجليل، ج1، ص323.

(2) ابن شداد، النوادر، ص42. وانظر: البنداري، سنا البرق، ص131. ابن أيوب، منتخبات، ص274. ابن الأثير، الكامل، ج10، ص86. أبو شامة، الروضتين، ج2، ص464. الحنبلي، شفاء القلوب، ص115. الغساني، المسجد المسبوك، ج10، ص208. المقرئزي، السلوك، ج1، ص175.

(3) العماد الأصفهاني، البرق، ج3، ص166. البنداري، سنا البرق، ص131. مضمار الحقائق، ص18. أبو شامة، الروضتين، ج2، ص464. ابن تغري بردي، النجوم، ج6، ص27.

(4) البداية والنهاية، ج12، ص322. وانظر: ابن شداد، النوادر، ص66. أبو شامة، الروضتين، ج3، ص331، 345. العليمي، الأئس الجليل، ج1، ص330. وانظر كذلك: سعداوي، جيش مصر، ص15. عوض، الحركة=

والصالحون تطوعاً". وما تؤكد المصادر من أنه وبعد انتهاء المعركة فإن القاضي ابن أبي عصرون وهو من الفقهاء قاد الأسرى الصليبيين من الملوك والأمراء ودخل بهم دمشق وهو يحمل صليب الصليبيات منكساً⁽¹⁾.

وكان للفقهاء دور واضح في المشاركة في حصار الحملة الصليبية الثالثة المعاصرة لمدينة عكا، ومن بينهم الفقيه عيسى الهكاري الذي سبقت الإشارة إليه وقد وافته المنية خلال هذا الحصار ثم نقل جثمانه ليُدفن في القدس⁽²⁾.

كما واستشهد عدد من الفقهاء والعلماء خلال المعارك حول عكا منهم العالم الشاعر الزاهد الشيخ جمال الدين أبو علي الحسين بن عبد الله الذي ينتهي نسبه إلى ابن راحة الأنصاري الخزرجي⁽³⁾، والفقيه إسماعيل الصوفي الأرموي المكّسي وشيخ آخر لم يعرف اسمه⁽⁴⁾.

وأفادت إشارة ابن شداد⁽⁵⁾ أنه شارك بنفسه في الجهاد هو وعدد كبير من الفقهاء حين ذكر بأنه بعد استشهاده أحد الجنود قام بالصلاة "عليه مع جماعة من الفقهاء".

تعدى دور الفقهاء في المشاركة في المقاومة الشعبية إلى مشاركتهم في تحصين المدن الشامية من خلال بناء الأسوار وحفر الخنادق، ويدلنا على ذلك ما ذكرته المصادر الشامية من أنه عندما شرع السلطان صلاح الدين في تحصين القدس وعمارته أسواره، وحفر خنادقه سنة 587هـ، عمل السلطان في ذلك بنفسه وشاركه في نقل الحجارة "جماعة خواصه والأمراء، ويجتمع لذلك العلماء والقضاة والصوفية والأولياء، وحواشي العساكر والأتباع وعوام الناس، فبنى في أقرب مدة ما يتعذر بناؤه في سنين"⁽⁶⁾.

=الصوفية، ص102. العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص130-134. غوشة، حارة السعدية، ص67. وانظر مايلي الفصل الرابع.

(¹) أبو شامة، الروضتين، ج3، ص299. الحنبلي، شفاء القلوب، ص138. وفي حمل القاضي الصليب منكساً إشارة ذات مغزى تدل على ضرورة وأهمية مشاركة الفقهاء في مقاومة الصليبيين كونها حرباً دينية أكثر من أي شيء آخر.

(²) ابن شداد، النوادر، ص100.

(³) العماد الأصفهاني، الخريدة، قسم شعراء مصر، ج1، ص147. ابن شداد، النوادر، ص94. ياقوت، إرشاد الأريب، ج10، ص46. ابن واصل، مفرج الكروب، ج2، ص300.

(⁴) ابن واصل، مفرج الكروب، ج2، ص302.

(⁵) النوادر، ص91.

(⁶) العليمي، الأوس الجليل، ج1، ص384. وانظر: ابن واصل، مفرج الكروب، ج2، ص375.

ويواصل الفقهاء والعلماء جهودهم في مقاومة المحتل لنجدهم يشاركون في صد العدوان الذي وقع على مدينة حماة سنة 601هـ/1204م على الرغم من هروب الكثير من الأهالي أثناء هذا الهجوم الصليبي⁽¹⁾، فهذا الفقيه شهاب الدين أبو القاسم ابن البلاعي والذي يذكره ابن الفرات⁽²⁾ بأن كان من أكابر حماة "فقيهاً ورعاً شجاعاً يتزري بزى الجند"⁽³⁾. وكان من أوائل المقاومين الذين تصدوا لهذا الهجوم "فقاتل ذلك اليوم ورمى فارساً من الفرنج"⁽⁴⁾، غير أن فرسه وقعت به فوق أسيراً بأيدي الصليبيين وتم أخذه إلى إمارة طرابلس مع عدد كبير من الناس، ولكنه استطاع الهرب بعد وصوله إلى طرابلس بحيث لم يبيت في حبس طرابلس ولا ليلة واحدة وعاد إلى أهله سالمًا⁽⁵⁾.

وفي سنة 607هـ/1210م تزعم الفقيه العالم المؤرخ الواعظ سبط ابن الجوزي — وكان خطيباً بارعاً في الوعظ وتحبه العامة⁽⁶⁾ مجموعات المقاومة الشعبية للهجوم على الصليبيين حول عكا⁽⁷⁾.

وخلال المرحلة الأيوبية يمكن أن نلتصق ملامح الدور الجهادي للفقهاء والعلماء المشاركين في المقاومة الشعبية في تراجم أعلام الفقهاء والعلماء، فنجد كلاً من ابن مفلح⁽⁸⁾، والنعمي⁽⁹⁾ وابن العماد⁽¹⁰⁾ وخلال ترجمتهم للفقيه عز الدين عبد الهادي بن شرف الإسلام الحنبلي المتوفى سنة 586هـ/1190م يستشهدون على قوته الجسدية بقولهم أنه "بارز فارساً من الإفرنج فضربه بدبوس فقطع ظهره، وظهر الفرس فوقاً جميعاً".

وفي ترجمة الشيخ الفقيه أبي عمر محمد بن أحمد بن محمد بن قدامة المقدسي المولود بقريّة الساويّا من أعمال نابلس سنة 528هـ/1133م، والمتوفى سنة

(1) ابن الفرات، تاريخ، ج2، ص133-135. الحموي، التاريخ المنصوري، ج2، ص44.

(2) تاريخ، ج2، ص134-140.

(3) يقول عنه الحموي بأنه "كان شاطراً شجاعاً" التاريخ، المنصوري، ج2، ص44.

(4) ابن الفرات، تاريخ، ج2، ص143.

(5) المصدر نفسه، ج2، ص144. الحموي، التاريخ المنصوري، ص44.

(6) السبكي، طبقات الشافعية، ج8، ص239. ابن كثير، البداية و النهاية، ج13، ص58. النعمي،

الدارس، ج1، ص366-367.

(7) مرآة الزمان. وانظر: أبوشامة، الذيل، ص70.

(8) المقصد الأرشد، ج3، ص55.

(9) الدارس، ج2، ص54.

(10) الشذرات، ج2، ص286.

607هـ/1210م، نجد أن من ترجم له من المؤرخين⁽¹⁾، يؤكدون على دوره الجهادي في مقاومة الاحتلال الصليبي في عهد صلاح الدين بحيث كان "مسارعاً إلى الخروج في الغزوات قلما يتخلف عن غزاه"⁽²⁾، وقدمت بعض المصادر بعض التفاصيل عن تلك الأنشطة الجهادية حيث ذكرت أنه اشترك في المعارك التي سبقت دخول المسلمين للقدس وكذلك معارك الساحل الشامي⁽³⁾، ومن ناحية أخرى فإن الشيخ أبو محمد عبد الله بن عثمان بن جعفر اليوناني المتوفى سنة 617هـ/1220م، قد قيل عنه أنه لم تفته غزوة من الغزوات بين المسلمين والصليبيين إلا اشترك فيها⁽⁴⁾، وكان يطلب الصليبيين في مكائهم "ولا يبالي بالرجال قتلوا أو كثروا"⁽⁵⁾، وكان له معداته الخاصة بالحرب والقتال ويفرح فرحاً شديداً إذا ما التقى بالصليبيين متمنياً الشهادة ويلقي نفسه بالمهالك، ومن الأمور ذات الدلالة أن اليوناني قد لقب بلقب "أسد الشام"⁽⁶⁾، ومن المرجح أن هذا اللقب جاء نتاجاً طبيعياً لدوره الجهادي ضد الصليبيين .

وقد كان طبيعياً والأمر كذلك أن وجدنا للفقهاء والعلماء دورهم الجهادي في المقاومة الشعبية خلال عصر سلاطين المماليك، وقد وجد لهم نشاطهم الجهادي خلال حصار قلعة أرسوف عام 663هـ/1265م ويقرر ان عبد الظاهر⁽⁷⁾ ومن بعده المقرئزي⁽⁸⁾ انهم حضروا أحداث الحصار وشاركوا فيه، بل أن لدينا أسماء بعض أولئك الذين حضروا وشاركوا في إسقاط القلعة الحصينة ومنهم الشيخ علي البكا، والشيخ إلياس⁽⁹⁾.

وسجل المقرئزي⁽¹⁰⁾ حضور الفقهاء في فتح صغد سنة 664هـ/1265م، فقال عن ذلك خلال حديثه عن فتح المسلمين لمدينة صغد، مؤكداً بذلك مشاركة المقاومة الشعبية: "وقدم

(1) ابن عبد الواحد المقدسي، فضائل، ص 63. سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج 8، ق 2، ص 547، 551. أبوشامة، الذيل، ص 71. ابن كثير، البداية والنهاية، ج 13، ص 59. ابن تغري بردي، النجوم، ج 6، ص 201. ابن رجب، ذيل، ج 2، ص 57-61.

(2) ابن عبد الواحد المقدسي، فضائل، ص 63. وانظر: أبو شامة، الذيل، ص 71.

(3) انظر: ابن كثير، البداية والنهاية، ج 13، ص 59. وانظر كذلك: مصطفى، آل قدامة، ص 26.

(4) سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج 8، ق 2، ص 615. أبو شامة، الذيل، ص 126. الغساني، المسجد المسبوك، ج 2، ص 381. الذهبي، العبر، ج 2، ص 67-68. ابن العماد، شذرات الذهب، ج 5، ص 73.

(5) أبوشامة، الذيل، ص 126. الغساني، المسجد المسبوك، ج 2، ص 381.

(6) أبو شامة، الذيل، ص 126. الغساني، المسجد المسبوك، ج 2، ص 381.

(7) الروض الزاهرة، ص 238.

(8) السلوك، ج 2، ص 21. وانظر تفصيل ذلك في مايلي الفصل الرابع.

(9) المصدرين السابقين.

(10) السلوك، ج 2، ص 34. وانظر مايلي الفصل الرابع.

الفقهاء للجهاد⁽¹⁾ كذلك، خلال خروج الجيش لحصار الثقيف في سنة 666هـ/1267م، كما شكل الفقهاء أحد عناصر المتطوعة من المقاومة الشعبية خلال حصار مدينة طرابلس سنة 688هـ/1289م بحيث حضر عدد من الفقهاء هذا الحصار ومنهم قاضي القضاة الحنبلي نجم الدين أبو العباس أحمد بن عبد الرحمن بن أبي عمر بن محمد بن قدامة المقدسي المتوفي سنة 689هـ/1290م⁽²⁾، وفي خلال أحداث سقوط عكا في أيدي المماليك عام 690هـ/1291م اشتركت عناصر "الفقهاء والمدرسين والعلماء"⁽³⁾ في تلك الوقائع التاريخية كمتطوعين من أفراد المقاومة الشعبية في مواجهة الاحتلال الصليبي.

ومن ناحية أخرى شهدت بلاد الشام فصلاً ثانياً من الدور الجهادي للفقهاء، عندما تم صدامهم مع عناصر الرهبان الفرسان من الإسبترارية والداوية، ثم أن أحداث المواجهة بين الطرفين تعتبر وبحق من أخط الأحداث التي زخرت بها الحركة الصليبية نظراً لنوعية الفرسان أن يلعبوه ثم حقيقة موقف الفقهاء منهم وقتلهم لهم في بعض المعارك التي خاضها المسلمون⁽⁴⁾، وقد أدرك الفقهاء الشاميون خطورة هذه العناصر الرهبانية ومدى دورهم الحربي العنيف، ومن هؤلاء الفقهاء الشيخ عبد الله اليونيني⁽⁵⁾، ومن المحتمل أن إدراكه هذا كان يعكس إدراك قطاعات كبيرة من الفقهاء والعلماء بشأن التنظيمات الدينية الصليبية.

ثانياً: مشاركة الأدباء والشعراء في المقاومة الشعبية:

حمل الأدباء والشعراء وهم من الطبقة المثقفة في مجتمع بلاد الشام على عواتقهم عبء الدعوة إلى الجهاد ومقاومة المحتلين، وتوحيد الجهود الإسلامية المشتتة، لمقاومة العدو الصليبي الذي جاء ليقضي على المسلمين، ويحتل ديارهم، ومن هذا المنطلق بدأ الشعراء

(1) المقرئزي، السلوك، ج2، ص49.

(2) عنه انظر: النويرين نهاية الأرب، ج29، ورقة 48. ابن كثير، البداية والنهاية، ج13، ص317. المقرئزي، السلوك، ج2، ص220. الصفدي، الوافين ج7، ص46، رقم 2977. ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج1، ص330 رقم 187. النجوم، ج7، ص385. ابن الفرات، تاريخ، ج8، ص104. ابن حبيب، درة الأسلاك، ورقة 100 = تذكرة النبية، ج1، ص129. العيني، عقد الجمان، ج3، ص45-46. وحول اشتراكه في حصار طرابلس انظر: ابن كثير، البداية والنهاية، ج13، ص313. العيني، عقد الجمان، ج2، ص380.

(3) ابن الجزري، تاريخ، ج1، ص42. وانظر: ابن كثير، البداية والنهاية، ج13، ص320. العيني، عقد الجمان، ج3، ص56.

(4) عوض، الحركة الصوفية، ص103.

(5) انظر في ذلك الرواية التي أوردها كل من سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج8، ق2، ص615. وأبو شامة، الروضتين، الذيل، ص125.

بمهمة التحريض على جهاد ومقاومة الصليبيين، وبت دعوة الجهاد والكفاح بين الناس⁽¹⁾، وكان لهذه القصائد التي امتلئت حماسة وقوة أثر عظيم في دفع الأهالي إلى مواصلة كفاحهم، وتكثيف جهودهم، حتى يستردوا ديارهم، ولم ينس شعراء الجهاد⁽²⁾ أن يخصصوا جزءاً من أشعارهم لمدح القادة العظام، وفي الوقت نفسه هاجموا المتخاذلين المتقاعسين، كما نلاحظ أيضاً أن شعر الجهاد خلد عظماء المسلمين، الذين استشهدوا في سبيل الله؛ بقصائد رثائية رائعة⁽³⁾.

(1) موسى باشا، الآداب، ص 480.

(2) من أمثلتهم: ابن القيسراني (ت 548هـ/1154م) موفق الدين خالد بن محمد بن نصر، من أعيان الكتاب أصله من قيسارية الشام، ومولده ب حلب، انظر عنه: ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج 2، ص 16. ياقوت، إرشاد، ج 7، ص 112. العماد الأصفهاني، الخريدة، قسم الشام، ج 1، ص 96. النعمي، الدارس، ج 2، ص 388. الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج 20، ص 224-226. ابن الوردي، تنمة المختصر، ج 1، ص 45. ابن كثير، ج 14، ص 31. الصفدي، الوافي، ج 5، ص 112. ابن تغري بردي، النجوم، ج 5، ص 302. وانظر أيضاً: جرار، محمد بن نصر القيسراني، حياته وشعره. موسى باشا، الأدب، ص 174-204. الهرفي، شعر الجهاد، ص 218. ومن هؤلاء الشعراء أيضاً: ابن منير الطرابلسي، أحمد بن منير المتوفي أيضاً في 548هـ/1154م. انظر عنه: العماد الأصفهاني، الخريدة، قسم الشام، ج 1، ص 76-95. ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج 1، ص 49. ابن العديم، بغية الطلب، ج 3، ص 114-116. ابن الوردي، تنمة المختصر، ج 1، ص 53. ابن كثير، البداية والنهاية، ج 10، ص 231. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج 5، ص 299. سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج 8، ق 1، ص 132. السيوطي، بغية الوعاة، ج 2، ص 97-99. ابن قاضي، شهبه، الكواكب، ص 75. خليفة، كشف الظنون، ج 1 ص 769. وانظر: الهرفي، شعر الجهاد، ص 255-260. موسى باشا، الأدب، ص 205-227. ومن هؤلاء الشعراء أيضاً: ابن قسيم الحموي، شرف الدين، أبو المجد مسلم بن الخضر مولده في حماة وتوفي سنة 542هـ/1146م. انظر عنه: العماد الأصفهاني، الخريدة، قسم الشام، ج 1، ص 433. ابن واصل، مفرج الكروب، ج 1، ص 82. وانظر: موسى باشا، ص 228-298. ومنهم أيضاً: أبو الحسن بهاء الدين علي بن محمد ابن الساعاتي الذي ولد في دمشق وتوفي سنة 604هـ/1209م انظر عنه: ابن سعيد الأندلسي، الغصون البيانة، ص 118. ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج 1، ص 362. ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص 613-614. وانظر: موسى باشا، الأدب، ص 298. ومنهم ولكن أقل شأنًا الشاعر عرقلة الكلبي، المتوفي سنة 567هـ/771م. انظر: العماد الأصفهاني، خريدة القصر، قسم شعراء الشام، ج 1، ص 178. ابن تغري بردي، النجوم، ج 6، ص 64. ومن هؤلاء الشعراء أيضاً ثقة الدين أبو القاسم المتوفي سنة 571هـ/1175م. عنه انظر: العماد الأصفهاني، الخريدة، ج 1، ص 247.

(3) الهرفي، شعر الجهاد، ص 121.

كان الشاعر ابن الخياط (1) من أوائل الشعراء الذين دعوا إلى الجهاد فقد سمع بمجيء الصليبيين فنارت حميته، وأنشد قصيدة طويلة قدمها إلى عضب الدولة مقدم جيوش دمشق، حثه فيها على الجهاد، وذكر فيها بأن جيوش المشركين قد أقبلت إلى بلاد المسلمين، وهي كالسيل المنحدر، بل هي أعظم منه وأكبر حيث يقول:

وإني كمهذه إليك القريض
يطوي على النصيح والنصح يهدي
إلى كم وقد زخر المشركون
بسبيل يهال له السيل مداً.
وقد جاش من أرض إفرنجة
جيوش كمثل جبال تردا(2).

ثم بعد هذه الأبيات التي لم يرد لها صدى يثور الشاعر ثورة عنيفة، ويستنكر الحالة المزرية التي وصل إليها المسلمون، وهو يريد بذلك دفع الناس لسرعة الاستعداد لمقاومة الصليبيين فيقول:

أنوماً على مثل هذ الصفاة
وهزلاً وقد أصبح الأمر جدا
وكيف تتامون عن أعين
وترتم فأسهرتموهن حقدا(3).

وحتى يستثير الشاعر ابن الخياط همم ونخوة الأهالي للمقاومة، يصف لهم أفعال الصليبيين التي ارتكبوها في بلاد الشام، ووصف حالة الشعب المسلم وتعاسته وشقائه فيقول:

بنو الشرك لا ينكرون الفساد
ولا يعرفون مع الجور قصدا.
ولا يرددون عن القتل نفساً
ولا يتركون من الفتك جهدا.
فكم من فتاة بهم أصبحت
تدق من الخوف نحرأ وخدا.
وأم عواتق -الشاببة العزباء- ما إن عرف
ن حراً ولا ذقن في الليل بردأ.
تكاد عليهن من خيفة
تذوب وتتلف حزناً ووجدأ.
فحاموا عن دينكم والحريم
محاماة من لا يرى الموت فقدا.
وسدوا الثغور بطعن النحور
فمن حق ثغر بكم أن يسدا.
فقد أينعت رؤس المشركين
فلا تغفلوها قطافاً وحصداً.

(1) هو أبو عبد الله أحمد بن محمد بن علي التغلبي، شاعر دمشقي مشهور، له ديوان شعر منشور، كانت ولايته سنة خمسين وأربعمائة بدمشق، وتوفي بها في سنة سبع عشرة وخمسائة، انظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج1، ص145-147.

(2) ابن خياط، ديوانه، ص182.

(3) المصدر نفسه.

فلا بد من حدّهم أن يفل
 ثم يقول الشاعر في آخر قصيدته بأن العز في هذه الأيام مقترنات بجهاد الصليبيين، وإن الذي
 يريد العزة لنفسه يجب عليه أن يخلع الحديد عن جسمه، وأن يواصل الجهاد حتى طرد
 المحتل فيقول في ذلك.
 فما ينزع اليوم عنه الحديد
 وأيسر ما كابدته النفوس
 من رام أن يلبس العز رعداً.
 من الأمر مالم تجد منه بدا(2).
 ومن المؤكد أن قصائد ابن الخياط هذا قد أثرت تأثيراً كبيراً في أهل دمشق لذلك نجدهم
 يدافعون عنها ببسالة عندما قرر الصليبيون اجتياحها كما بينا ذلك من قبل.
 وعندما احتل الصليبيون بيت المقدس بعد المعركة سنة 4920هـ/1099م تأججت
 عواطف المسلمين واثرت تأثرتهم وكان لهذا الحدث الجلل رد شعبي كبير، وكان من بينهم
 الشعراء الذين عبروا عن حزنهم العميق وندبوا أنفسهم وأقلامهم لتحريض الناس على
 المقاومة، ومن هؤلاء الشعراء الشاعر أبو المظفر الأبيوردي(3) الذي قال قصيدة مطلعها:
 مزجنا دماء بالدموع السواجم
 وشر سلاح المرء دمع يفيضه
 فلم يبق منا عرصة للمراجم(4).
 إذ الحرب شبت نارها بالصوارم.
 فاءبها بني الإسلام، إن وراكم
 وقائع يلحقن الذري بالمناسم(5).
 والشاعر الأبيوردي كغيره من شعراء الجهاد في قصيدته الطويلة والتي اقتصرنا فيها على
 مطلعها فقط، يعبر عن أحاسيسه ومشاعره التي يثيرها في نفسه اعتداء الصليبيين على بلاد

(1) ابن خياط، ديوانه، ص184.

(2) المصدر نفسه، ص184.

(3) أبو المظفر الأبيوردي: محمد بن أبي العباس أحمد بن محمد، ينسب إلى أبيورد (مدينة بخراسان بين سرخس
 ونسا. ياقوت، معجم، ج1، ص286. وكان أديباً مشهوراً توفي في 507هـ/1113م. عنه انظر: ابن الأثير،
 الكامل، ج9، ص152. اللباب، ج1، ص27. ياقوت، إرشاد الأريب، ج6، ص341. سبط ابن الجوزي، مرآة
 الزمان، ج2، ص582. أبو الفداء، المختصر، ج2، ص47. ابن خلكان، وفيات، ج4، ص444-449. السبكي،
 طبقات الشافعية، ج6، ص81-84. ابن كثير، البداية والنهاية، ج12، ص176. الذهبي، سير أعلام النبلاء،
 ج19، ص283-292. ابن تغري بردي، النجوم، ج5، ص206.

(4) جمع مرجمة وهي الكلام القبيح.

(5) ابن الأثير، الكامل، ج9، ص20. ابن كثير، البداية والنهاية، ج12، ص156. ابن خلدون، العبر، ج5، ص217.
 العليمي، الأنس الجليل، ج1، ص309.

الشام وأهلها، ولذا فإن كلماته كانت تأتي صادقة معبرة عن الواقع الذي يعيشونه دون مبالغة أو تزييف في المشاعر لجمع المال أو نيل الشهرة⁽¹⁾.

وقد أدى هذا الشعر دوره فاتحد المسلمون بعد ذلك، وحققوا كثيراً من الانتصارات، وبدأ الشعراء يحرضون الحكام ويدعونهم لتحرير بيت المقدس قبل تحريره بأكثر من نصف قرن، وقد ظهرت الإشارة إلى ذلك في إحدى مدح ابن منير الطرابلسي بقوله:

وغداً يلقي على القدس لها كلكل يدرسها درس الدرين⁽²⁾.

همسة تسمي وتضحى عزيمة ليس حصن - إن تحطه - بحصين⁽³⁾.

واستغل الشعراء كل فتح من الفتوح الإسلامية لتذكير الناس بمتابعة الجهاد ومواصلة المقاومة لتحرير باقي المدن ومنها مدينة القدس الشريف، فعندما فتح عماد الدين زنكي الرها أنشد ابن القيسراني قصيدة، ومما قاله:

أما أن يزهد الباطل وأن ينجز العدة الماثل.

فإن يك فتح لجة فساحلها القدس والساحل⁽⁴⁾.

وانتهز الشعراء بعض الانتصارات التي حققها المسلمون ليحرضوهم على مواصلة المقاومة فقال ابن القيسراني أبياتاً يهنئ نور الدين محمود على إنتصاره على صاحب أنطاكية سنة 544هـ/1149م⁽⁵⁾، ويحرضه على النهوض لفتح القدس الشريف، ومما قاله:

أغررت سيوفك بالإفرنج راجفة فؤاد رومية الكبرى لها يجب

فانهض إلى المسجد الأقصى بذى لجب يوليئك أقصى المنى فالقدس مرتقب⁽⁶⁾.

ولما أسر نور الدين الأمير الصليبي جوسلين⁽⁷⁾ عاود ابن القيسراني ليذكر المسلمين بفتح القدس وأن هذا الفتح لا يتحقق إلا بالمقاومة وبذل الدم، فيقول:

كأنني بهذا الغرام لا فل حدّه وأقصاه بالأقصى، وقد قضى الأمر.

(1) انظر: الهرفي، شعر الجهاد، ص95.

(2) الدرين: هو الحشيش اليابس.

(3) أبو شامة، الروضتين، ج1، ص148.

(4) أبو شامة، الروضتين، ج1، ص177.

(5) انظر: ابن الأثير، الكامل، ج9، ص363. أبو شامة، الروضتين، ج1، ص206. ابن كثير، البداية والنهاية، ج12، ص226.

(6) ابن الأثير، الكامل، ج9، ص363. أبو شامة، الروضتين، ج1، ص210. وهو يورد، القصيدة كاملة منذ البداية حتى نهايتها. انظر: الروضتين، ج1، ص207-210.

(7) انظر: ابن الأثير، الكامل، ج9، ص370. أبو شامة، الروضتين، ج1، ص247. ابن كثير، البداية والنهاية، ج12، ص228.

وقد أصبح البيت المقدس طاهراً وليس سوى جاري الدماء له طهر⁽¹⁾. وهذا العماد الأصفهاني يمدح نور الدين محمود بعد استرداده لقلعة منبج سنة 563هـ/م⁽²⁾ ويحثه على مواصلة جهاده ويحرضه على فتح باقي البلاد ومنها القدس الشريف فقال: فانتفض إلى البيت المقدس غازياً وعلى طرابلس ونابلس عج⁽³⁾. وهنأ العماد الأصفهاني نور الدين محمود توحيد مصر مع الشام واستغل ذلك بالقول بأن هذه الوحدة هي السبيل إلى تحرير القدس الشريف ومما قاله: اغز الفرنج فهذا وقت غزوهم واحطم جموعهم بالذابل الحطم. وطهر القدس من رجس الصليب وثب على البغاث وثوب الأجدل القطم. فملك مصر وملك الشام قد نظما في عقد عز من الإسلام منتظم⁽⁴⁾. ولم يقتصر التحريض على الوقائع المذكورة آنفاً، وإنما كان يظهر حتى في المدح الشخصي، ومن ذلك ما امتدح به ابن منير الطرابلسي نور الدين محمود حين هنأه بحلول شهر رمضان، ومما جاء فيها: فذاك من صام ومن أفطرا ومن سعي سعيك، أو قصرأ. أبقاك للدين وللدنيا من خلاك في ليلهما نيرا. حتى ترى عيسى من القدس نجا إلى سيفك مستصرا⁽⁵⁾. توفي نور الدين محمود سنة 569هـ/1174م⁽⁶⁾ ولم يحقق الله على يديه آمال المسلمين ومنهم الشعراء في فتح القدس الشريف، فجاء بعده صلاح الدين الأيوبي الذي تطلعت المقاومة الشعبية على لسان قادة الحركة الفكرية ومن بينهم الشعراء والأدباء إليه ليحقق آمالهم في التحرير، وبدأوا يحرضونه على تحقيق هذا الأمل، فقد مدح العماد الأصفهاني السلطان صلاح الدين وحرضه قائلاً: ويوم الفرنج إذا مالقوك عبوس برغمهم قمطيرير. نهوضاً إلى القدس يشفي الغليبـ ل، بفتح الفتوح، وماذا عسير؟⁽⁷⁾.

(1) أبو شامة، الروضتين، ج1، ص249. باقوت، إرشاد الأريب، ج7، ص113.

(2) ابن الأثير، الكامل، ج10، ص75. أبو شامة، الروضتين، ج2، ص24.

(3) أبو شامة، الروضتين، ج2، ص33. وهو يورد القصيدة كاملة.

(4) المصدر نفسه، ج2، ص123.

(5) أبو شامة، الروضتين، ج1، ص203.

(6) المصدر نفسه، ج2، ص305-311. ابن كثير، البداية والنهاية، ج2، ص285.

(7) أبو شامة، الروضتين، ج، ص.

وفي سنة 566هـ/1171م غزا صلاح الدين بعض بلاد الشام المحتلة، وانتصر على من فيها من الصليبيين، فمدحه عمارة اليميني⁽¹⁾.

أضفت إلى أجر الجهاد زيارة الـ
وهيبت للبيت المقدس لوعة
وغزوك هذا سلم نحو فتحه
هو البيت إن تفتحه فالله فاعل
تخليل فأبشر أنت غاز موفق.
يطول بها منه إليك التشوق.
قريباً وإلا رائد ومطرق.
فما بعده باب من الشام مغلق⁽²⁾.

ولم يقتصر التحريض على تحرير القدس فقط بل شمل أيضاً مطالبه الشعراء حكامهم بتحرير الثغور التي تشكل تهديد بالنسبة للناس الأمنين، فعندما ملك صلاح الدين حصون أنطاكية، وفتح قلعة (برزويه)⁽³⁾، مدحه أحد الشعراء، وحرّضه على فتح مدينة صور، بقوله:

فانهض لصور، فهي أحسن صورة

ماسور صورٍ عاصم منه وهل
سور المعاصم عاصم لمسور؟⁽⁴⁾

وقد كان لأفراد المقاومة الشعبية دورهم كشعراء في إثارة حماس زعماء المسلمين حتى وهم يعانون من الأسر، فقد "كان في بيت المقدس شاب مأسور من أهل دمشق كتب هذه الأبيات وأرسل بها إلى السلطان صلاح الدين على لسان القدس فقال:

يا أيها الملك الذي

جاءت إليك ظلامه
وأنا على شرفي منجس.

فكانت هذه الأبيات هي الداعية له إلى فتح بيت المقدس، ويقال: أن السلطان وجد في ذلك الشاب أهلية فولاه بعد فك أسره خطابة المسجد الأقصى⁽⁵⁾.

(1) هو الفقيه أبو محمد عمارة بن أبي الحسن بن أحمد، شاعر مشهور له ديوان شعر، قتلته صلاح الدين سنة 569هـ/1174م، وذلك بسبب تأمره مع جماعة من المصريين لإعادة حكم الفاطميين لمصر. عنه انظر: ابن خلكان، وفيات، ج3، ص431-436. أبو شامة، الروضتين، ج2، ص282-304. ابن كثير، البداية والنهاية، ج12، ص275-277. الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج1، ص395. ابن تغري بردي، النجوم، ج6، ص70.

(2) أبو شامة، الروضتين، ج2، ص189.

(3) برزويه: وتسميها العامة برزیه، حصن قرب السواحل الشامية على سن جبل شاهق، يضرب بها المثل في جميع بلاد الإفرنج بالحصانة. ياقوت، معجم، ج1، ص383.

(4) أبو شامة، الروضتين، ج4، ص38.

(5) ابن واصل، مفرج الكروب، ج3، ص26. العليمي، الأس الجليل، ج1، ص318-319. وانظر: ابن تميم المقدسي، مثير الغرام، ص375.

لم يكن التحريض والحث على المقاومة مقصوداً على أمراء المسلمين أو ملوكهم ، بل تعداه إلى خليفة المسلمين، فعندما قصد الصليبيون جبل الطور قرب عكا سنة 614هـ/1217م وقاتلوه المسلمين فيه، وحاصروهم⁽¹⁾. فأرسل أحد الشعراء كتاباً إلى الخليفة فيهما بيتين من الشعر وهما:

قل للخليفة لا زالت عساكره
إن الفرنج بحصن الطور قد نزلوا
لها إلى النصر إصدار وإيراد.
لا تغفلن محصن الطور بغداد⁽²⁾.

وفي عصر المماليك لم يدخر الشعراء والأدباء وسعاً في تحريض السلاطين على مواصلة الجهاد والمقاومة تأسياً بأسلافهم الأيوبيين حتى يتم القضاء على المحتلين قضاءً مبرماً، فعندما فتح المماليك طرابلس الشام سنة 688هـ/1289م وخربوا حصنها، ابتهج لذلك الشعراء ومما قالوه في مدح أحدهم⁽³⁾.

ألا هكذا يوارث الملك فليكن
نهضت إلى عليا طرابلس التي
جهاد العلامة توالى به الدهر
أقل عناها أن خندقها البحر⁽⁴⁾.

وقد ذكر ابن تغري بردي⁽⁵⁾ أن القصيدة طويلة كلها على هذا المنوال، وأشار إلى أن الشعراء عملوا في الفتح عدة قصائد، إذ أن أخباره كتبت فيها البشائر، وزينت المدن وعملت القلاع في الشوارع⁽⁶⁾.

تلك هي صور عابرة اقتطفناها من الأحداث الكبرى، وننتهي من ذلك كله لنؤكد على أن الشعراء في ذلك العصر خرجوا عن نطاقهم التقليدي، وأدوا واجبهم كاملاً في حومة الصراع المرير، وكان لشعرهم أثر كبير في تهيئة النفوس وتحريضها على الجهاد ومقاومة المحتل، لأنهم يعبرون في قصائدهم عما يختلج في نفوسهم من بغض للأعداء، ورغبة ملحة في طردهم من بلاد المسلمين، كما كانوا يعبرون في الوقت نفسه عن أمانى الشعب المسلم

(1) ابن الأثير، الكامل، ج10، ص375. أبو شامة، الذيل، ص102-103. ابن واصل، مفرج الكروب، ج3، ص256
ابن كثير، البداية والنهاية، ج13، ص77. الحنبلي، شفاء القلوب، ص218. النعمي، السدارس، ج2، ص204-205.

(2) أبو شامة، ذيل الروضتين، ص103. الحنبلي، شفاء القلوب، ص218.

(3) وهو السلطان المنصور قلاوون وسيأتي تفصيل ذلك في الفصل الرابع إن شاء الله.

(4) ابن تغري بردي، النجوم، ج7، ص323-324.

(5) النجوم، ج7، ص322.

(6) انظر: القلقشندي، صبح الأعشى، ج7، ص366-370. تدمري، طرابلس، ص647-667. الملاحق. الهرفي، شعر الجهاد، ص185-86. موسى باشا، الأدب، ص531. الغامدي، جهاد المماليك، ص271.

وتطلعاته في استعادة بلاده ومقدساته، وقد خرج شعر الجهاد من رحم المعاناة التي عايشها ومر بها هؤلاء الشعراء من بلاد الشام فكان صادقاً ومعبراً⁽¹⁾.

لم يقتصر دور الشعراء والأدباء في مشاركتهم في المقاومة الشعبية على مجرد التحريض وشحن همم الحكام والناس من أجل طرد المحتلين بل تعدى ذلك إلى مجال أكثر حيوية ألا وهو المشاركة في المعارك فحين قصد الصليبيون دمشق في عام 548هـ/ وكان من بينهم الشاعر الأندلسي أبي الحكم بن المظفر⁽²⁾.

الذي وصف لنا هذا الاجتياح، وأكد على مشاركة كافة شرائح المجتمع ومنهم الشيخ الفندلاوي ويقول فيها:

وقلنا إذ رأيناهم	لعل الله يكفيننا.
سمالهم معين قد	أعان الخلق والدينا.
وفتيان تخالهم	لدى الهيجا شياطينا.
وشيخاً منذ لاوياً	فقيهاً يعضد الدينا.
وفتياناً تغانوا من	دمشق نحو سبعينا.
ومنهم مئتا علج	وخيل نحو تسعينا.
وباقبهم إلى الآن	من القتل يفروننا ⁽³⁾ .

وتظهر مشاركة الأدباء و الشعراء من خلال ما أورده البنداري⁽⁴⁾ من قول العماد الأصفهاني بأنه عند نزول الصليبيين من حماة ليقصدوا حلب سنة 573هـ/1177م كنا سايرين في رفقة من أهل الأدب" ترى ماذا كان يفعل هؤلاء الأدباء في رفقة جيش صلاح الدين المتجهة لنجدة مدينة حلب!؟

ومن الشعراء من شارك في معركة حطين ثم صحبه لفتح القدس الشريف في 27 رجب 583هـ/1187م ويظهر ذلك من خلال ما أورده الشاعر ابن الساعاتي، حيث

(1) انظر: الهرفي، شعر الجهاد، ص115-116.

(2) عبید الله بن المظفر بن عبد الله الباهلي الحكيم المغربي الأندلسي عالم بالطب والهندسة، أصله من الأندلس، اشتهر ببغداد، وخدم السلطان محمود بن ملكشاه وأنشأ له في معسكره مارستاناً ينقل على أربعين جملاً، ثم انتقل إلى دمشق وتوفي بها سنة 549هـ عنه انظر: ابن أبي أصيبعة، طبقات الأطباء، ص614-627. العماد الأصفهاني، الخريدة، قسم شعراء الشام، ج1، ص369-382. ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج3، ص123-125. المقرئ، نفع الطبيب، ج2، ص637-639.

(3) أبو شامة، الروضتين، ج1، ص192-193.

(4) سنا البرق، ص137. وفي المجال نفسه ينقل البنداري عن الأديب الشاعر العماد الأصفهاني قوله: "ما أنقطعت عن السلطان في غزواته إلا في هذه الغزوة" يقصد غزوة الرملة سنة 573هـ. انظر: المصدر نفسه، ص128.

تعرض الشاعر في قصيدته لحادثة وقعت له وهو في طريقه إلى صلاح الدين، فأنت على كل ماله، وأصبح معدماً⁽¹⁾ ويتضح ذلك من قوله:

فيا كاشف الجلى ويا محي الهدى
رمتي الليالي والليالي مصيبة
وأصبحت من مالي وصبري معدوماً
لقد جازت الأقدار في بحكمها
ويا قائل البلوى، ويا كاشف الغما.
فكم لسهام الحزن في كبدي كلما.
وفي أي باغي ثروة عدلت قدما.
ولم تزل الأقدار تقهرنا حكماً⁽²⁾.

ومهما يكن من أمر فقد دلت الأبيات الشعرية التي أوردها الكثير من شعراء الجهاد أمثال ابن القيسراني وابن منير الطرابلسي وابن الساعاتي وغيرهم من الشعراء حول وصف المعارك والأسلحة، وآلات الحصار وصفاً دقيقاً كما وصفوا سقوط الحصون والمعقل الصليبية؛ على أن هؤلاء الشعراء قد شاركوا إلى جانب القوات الرسمية في تلك المعارك وإلا فمن أين لهم بهذه المشاهد والأوصاف التي تتم على أنهم رأوها رأي العين، ولم يصفها لهم أحد، وإلا لما أجادوا الوصف⁽³⁾.

وكما تحدث الشعراء عن المعارك وحرصوا المسلمين وقادتهم على المقاومة والجهاد، فإنهم حملوا على الأمراء والملوك المتقاعسين الذين لا يشاركون في الجهاد، فانتقدوهم بشدة وشنعوا عليهم، فهذا ابن أسعد الموصل⁽⁴⁾ يمدح صلاح الدين سنة 576هـ/1180م ثم يتحدث عن الملوك المتقاعسين عن الجهاد فيقول:

ليفد حياء وجهك كل وجهه
ملوك جلهم مغري بظلم
إذا سئل الندى جهم وقاح
ومشغول بلهو أو فرح⁽⁵⁾.

(1) انظر: موسى باشا، الأدب، ص303.

(2) أبو شامة، الروضتين، ج، ص. ابن واصل، مفرج الكروب، ج2، ص334.

(3) العماد الأصفهاني، الخريدة، قسم الشام، ج1، ص34-35، 111، ص154-155، 159-257. باقوت، إرشاد الأريب، ج7، ص112-116. ابن واصل، مفرج الكروب، ج1، ص124-125. ابن كثير، البداية والنهاية، ج12، ص226-327، 329. وانظر: الهرقي، شعر الجهاد، ص101، 131-142.

(4) ابن أسعد، عبد الله فقيه فاضل وشارع مجيد، كان مدرساً بخص، وقد مدح نور الدين وأثنى عليه في مواقفه الجهادية في أكثر من مكان، وتوفي سنة 581هـ. عنه انظر: ج1، ص400-403. ج2، ص355، ج3، ص57، 111، 247. العماد الأصفهاني، الخريدة، قسم الشام، ج2، ص279-294. ابن خلكان، وفيات، ج3، ص57-61 الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج21، ص176-177. وقد حقق ديوانه وأعد تكملته عبد الله الجبوري، بغداد، سنة 1968م.

(5) الحموي، مضمار الحقائق، ص44.

ومن أشكال التنديد ما قاله بعض الشعراء حول تسليم بعض الأمراء لبعض الحصون وبيعها للصليبيين دون الدفاع عنها فقال العماد الأصفهاني سنة 594هـ/1197م عندما سلم الأمير عز الدين أسامه بيروت إلى الصليبيين دون قتال:

إن بيع الحصون من غير حرب
لعن الله كل من باع ذا البيع
سنة سنهها ببيروت سامه
وأخزي بخزيه من سامه(1).

كما ندد الشعراء بموقف الملك الكامل الذي سلم القدس للصليبيين سنة 626هـ/1229م وكان موقفهم هذا ضمن الموقف الشعبي العام الذي رفض ذلك العمل، واستشهد سبط ابن الجوزي(2) بأبيات شعرية قيلت عندما خرب الملك المعظم عيسى القدس سنة 616هـ/1219م(3) عندما علم بوصول الصليبيين، ومن هذه الأبيات:

لتبك على القدس البلاد بأسرها
على قبة المعراج والصخرة التي
وتعلن بالأحزان والترحات.
تفاخرت ما في الأرض من
صخرات.

مدارس آيات خلت من تلاوة
ومنزل وحي مقفر العرصات(4).
وبعد أن استعاد الملك الناصر داود القدس سنة 637هـ/1239م ابتهج الأهالي ومن بينهم الشعراء بهذا الفتح الجديد، وعبر عن ذلك قول ابن مطروح(5):

المسجد الأقصى له عادة(6)
سارت فصارت مثلاً سائراً
إذا غدا بالكفر مستوطناً
أن يبعث الله له ناصرأ.

(1) ابن شداد الحلبي، الأعلام الخطيرة، ج2، ق2، ص103. الغساني، المسجد، ج1، ص240. ابن واصل، مفرج الكروب، ج3، ص74. وهو الذي أورد الأبيات وذكر بأنه حيث استولى الفرنج على بيروت "لعن الناس أسامه لتقريبه فيها".

(2) مرآة الزمان، ج8، ق2، ص654.

(3) انظر: الحنبلي، شفاء القلوب، ص262. أبو شامة، الروضتين، ج4، ص334. ابن تغري بردي، النجوم، ج6، ص245. المقرئزي، السلوك، ج1، ص307. الحريري، الإعلام، ص93-94. العليمي، الأئس الجليل، ج1، ص402.

(4) أبو شامة، الروضتين، ج4، ص336. المقرئزي، السلوك، ج1، ص356.

(5) ابن مطروح: جمال الدين أبو الحسين يحيى بن عيسى شاعر وقته ولد سنة 592هـ/ وتوفي سنة 649هـ عنه انظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج6، ص258-266. وكان معاصراً له وكانت بينهم مودة ومراسلات وحين مات صلى عليه ابن خلكان وكان من أشد المعجبين به، وانظر: ابن تغري بردي، النجوم، ج7، ص27-29. ابن العماد، شذرات الذهب، ج3، ص247. الغساني، المسجد، ج2، ص585. ابن كثير، البداية والنهاية، ج13، ص182. اليونيني، ذيل مرآة الزمان، ج1، ص197. وأورد وفاته في 650هـ.

(6) المقرئزي، السلوك، ج1، ص476.

فناصر (ظهوره) (1) أولاً

وناصر (ظهوره) (2) أخراً (3).

ونلاحظ ونستنتج مما سبق أن الأدباء والشعراء شاركوا في المقاومة الشعبية، ولأنهم هم قادة الحركة الفكرية والطبقة المثقفة في المجتمع الشامي، فإنهم قادوا المقاومة الشعبية إلى جانب الفقهاء والعلماء وعضدوا إما بعلمهم وأقلامهم وإما بأرواحهم (4).

ثالثاً: دور النساء والأطفال في المقاومة الشعبية:

لم تكن المقاومة الشعبية في بلاد الشام قاصرة على الرجال فقط، بل شاركتهن النساء في تلك المقاومة كلما سنحت لهن الفرصة في ذلك، وسنعرض في هذا الموضوع أوجه مشاركة المرأة الشامية في المقاومة الشعبية ضد المحتلين الصليبيين فالمقاومة من وجهة نظرنا بالنسبة للنساء لا تتمحور حول حمل السلاح والقتال في صفوف الرجال، والتصدي للصليبيين فقط، ولكنها تحمل عدة وجوه، وأول هذه الوجوه تحملها لمعاناة الاحتلال فغالباً ما كانت النساء في بلاد الشام ضحية الوقوع في الأسر (5) بعد اجتياح الصليبيون للمدن الإسلامية واحتلالها لدرجة أن كثرة السبايا المسلمات قد مثلت مشكلة بالنسبة للصليبيين (6) وكان يتم معاملة الأسرى المسلمات معاملة سيئة جعلت ابن جبير (7) يشفق عليهن فقال بعدما شاهد مجموعة

(1) مابين القوسين في الأناضول (آية). العلمي، ج2، ص5.

(2) مابين القوسين في الأناضول (ظهوره) المصدر نفسه.

(3) ابن واصل، مفرج الكروب، ج5، ص247. المقرئ، السلوك، ج1، ص399-400 اليونيني، ذيل مرآة الزمان، ج1، ص141-143. ابن تغري بردي، النجوم، ج7، ص27.

(4) انظر: علي، العلاقات، ص197.

(5) ابن منقذ، الاعتبار، ص92.

(6) سميث، الحملة الصليبية، ص164.

(7) ابن جبير: هو أبو الحسن محمد ابن أحمد ابن جبير الكتاني الأندلسي الشاطبي الأصل، ولد في بلنسيا في عام 540هـ/1145م، وقد اهتم والده بتربيته فدرس العلوم الدينية واللغوية، وقد قام بثلاث رحلات إلى الشرق ابتداءً الأولى في عام 578هـ/1138م وانتهت في عام 581هـ/1185م، والثانية في عام 585هـ/1189م وكان هدفها مشاهدة المناطق الإسلامية المحررة بعد معركة حطين وانتهت 587هـ/1191م، أما الرحلة الثالثة فكانت في 614هـ/1217م إلى أن توفي في الإسكندرية في 616هـ/617 أو 1219م أو 1220م. انظر ترجمته في ابن الخطيب، الاحاطة، ج2 ص230-239؛ المقرئ، نفح الطيب، ج3 ص143؛ ابن الصابوني، تكملة الإكمال، ص199؛ كراتشكوفسكي، تاريخ الأدب، ص297-298؛ لانس، بلاد سوريا، ص387؛ زيادة، ابن جبير، مجلة العربي، العدد (19) يونيو 1960م، ص117؛ أبي حيدر، رحلات أندلسية، ص105؛ عوض، الجغرافيون، ص283-285.

منهن في صور المحتلة بأن " الأسيرات المسلمات.. في سيقاهن خلاخيل حديد فنتفطر لهم الأفئدة ولا يغني الإشفاق عنهم شيئاً"⁽¹⁾.

وبعد أسر النساء يتم استغلالهن أسوأ استغلال في الأعمال الشاقة كطحن الحبوب، فنساء قيسارية لم يتم قتلهن بعد اجتياح الصليبيين للمدينة "لأنهن يستطعن إدارة الطواحين اليدوية"⁽²⁾، أما من لم يستطعن العمل في الطواحين وغيرها فقد كان يتم المتاجرة فيهن⁽³⁾، ويمكن إجبارهن على ممارسة أعمال غير شريفة في الحانات⁽⁴⁾

كما وواجهت المرأة في بلاد الشام مشكلة أخرى كانت نتيجة أكيدة لكثرة المعارك بين المسلمين والصليبيين، ألا وهي مشكلة الترميل، وهي من المشاكل الإجتماعية الكبيرة حيث وجدت في بلاد الشام أعداد كبيرة من النساء المترملات اللاتي فقدن أزواجهن في ساحات المعارك⁽⁵⁾، مما دفع نور الدين محمود للقيام بتزويج عدد من النساء اللاتي فقدن أزواجهن⁽⁶⁾ في حروب الدولة وهذا دليل واضح على أن المشكلة كانت كبيرة، وأن عدد النساء المترملات كانت من الكثرة بحيث تدخلت الدولة نفسها لحل تلك المشكلة ونظراً لصمت المصادر عن مثل هذه المشكلة الهامة والتي نستنتج منها صمود النساء الشاميات وهو نوع من المقاومة. أضف لذلك استعداد النساء لتقديم أزواجهن وحثهم على مقاومة الاحتلال مع علمهن بالمصير الذي سيحل بهن نتيجة فقدانهن للزوج، ومن أمثلة النساء اللاتي كن يحرضن ليس فقط أزواجهن، بل أقربائهن على مقاومة الاحتلال الصليبي تلك المرأة الشيزرية التي حرضت أحد أقربائها على المقاومة بعد أن قرر الهرب من شيزر وترك القتال، فوبخته على هذا العمل وقالت له: "بئس ما تفعل تخلى بنات عمك وأهلك وتروح؟ أي عيش يكون عيشك إذا افتضحت في اهلك وانهزمت عنهم؟ اخرج قاتل عن أهلك حتي تقتل بينهم، ومنعته من الهرب"⁽⁷⁾.

أما الأطفال فقد أصبحوا يتامى بعد أن استشهد آباؤهم مما اضطر الدولة النورية إلى توفير مخصصات مالية وأكسية⁽⁸⁾ لكل من استشهد آباءه.

(¹) الرحلة، 214.

(²) الشارترى، تاريخ الحملة، ص 171.

(³) المصدر نفسه.

(⁴) الغامدي، جهاد المماليك، ص 184.

(⁵) عوض، السياسة الخارجية، ص 260.

(⁶) سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج 8، ق، ص 298؛ ابن العديم، زبدة الحلب، ج 2 ص 340.

(⁷) ابن منقذ، الاعتبار، ص 159.

(⁸) ابن الأثير، الباهر، ص 173؛ ابن العديم، زبدة الحلب، ج 2 ص 390؛ ابن قاضي شهبه، الكواكب، ص 39، 223.

ويلاحظ أن الظاهرتين - الترمل و التيم - كانتا نتاجاً طبيعياً لظروف واحدة مرت بها بلاد الشام خلال الاحتلال الصليبي.

ونخلص مما سبق أن النساء في بلاد الشام قاومن الاحتلال بتحملهن عواقبه فكن أسيرات وسبايا كما وأصبحن ضحية مشكلة الترمل كما أوضحنا سابقاً.

وقد فضل بعض النساء الموت على الوقوع في الأسر الصليبي فهذه امرأة شيزرية، أرادت أن تلقي بابنتها في الوادي لتموت بدلاً من أن تقع أسيرة في قبضة العدو⁽¹⁾، وفي ذلك أوضح دليل على العزة والكرامة لتلك النوعيات من النساء في ذلك العصر⁽²⁾، ومثال آخر على ما سبق، تلك المرأة التي تدعى رفول بنت أبي الجيش، وقد تم أسرها من جانب أحد الجنود الصليبيين، على نحو انعكس على والدها الذي فنكت بأعصابه المصيبة التي حلت بابنته⁽³⁾، وفيما بعد وجدت جثتها طافية في مياه أحد الأنهار الشامية بعد أن " رمت نفسها من على فرس الإفرنجي الذي أخذها فغرقت فسكنت لوعة أبيها أبي الجيش"⁽⁴⁾ على اعتبار أنها فضلت الموت على الوقوع في الأسر، وفي هذا إيضاح إلى أن الوقوع في أسر الصليبيين كان بمثابة كارثة كبرى لدى المسلمين⁽⁵⁾.

إن تفضيل النساء في بلاد الشام الموت على الوقوع في الأسر هو نوع من المقاومة السلبية للمحتل الصليبي، ودليل وعي كامل بخطر الوقوع في الأسر، مما جعل بعض النساء يخصصن جزءاً من ثرواتهم لتحرير بعض الأسرى من الرجال خاصة المغاربة⁽⁶⁾ وفي هذا ما يؤكد على تنوع أساليب المقاومة لدى نساء بلاد الشام وذلك من خلال الإنفاق لتحرير الأسرى اعترافاً منهم بالجهود التي بذلها هؤلاء الأسرى في مقاومة الاحتلال الصليبي.

والوجه الآخر للمقاومة النسائية وهو الأهم أنها شاركت الرجل في جهاد الصليبيين، ففي نابلس شاركت النسوة في قتل الصليبيين بأسلوبهن الخاص حيث قامت إحداهن بالزواج من أحد الصليبيين ثم قامت بقتله، وكانت تحرض ابنها على مقاومة الصليبيين فكان ابنها يحتال على الحجاج الصليبيين " ويتعاون هو وأمه على قتلهم"⁽⁷⁾.

(1) ابن منقذ، الاعتبار، ص 160.

(2) عوض، الجغرافيون، ص 250.

(3) ابن منقذ، الاعتبار، ص 192.

(4) المصدر السابق، ص 193.

(5) عوض، الجغرافيون، ص 250.

(6) ابن جبير، الرحلة، ص 214.

(7) ابن منقذ، الاعتبار، ص 179.

وهذا النوع من المقاومة يدل على توفر عنصر التخطيط و الإعداد لدى المرأة الشامية، ولكن هذه المقاومة البطولية لم تكن لتستمر لأن القوات الصليبية في نابلس اكتشفت مخططات هذا الشاب وما كان يفعله بالحجاج فقبضوا عليه وعاقبوه بسمل عينيه⁽¹⁾، ويبدو أنه على الرغم من التعذيب الذي مورس ضده فإنه لم يعترف بمشاركة أمه في عمليات الاحتياط القتل التي كانت تتم ضد الحجاج الصليبيين، فلم يتم القبض عليها.

وأظهرت بعض النساء بطولات من نوع خاص فكن يشاركن في التصدي للغزاة ويلبسن لبس الفرسان لدرجة أنه لم يكن في بعض الأحيان التفريق بينها وبين الرجل من حيث الشجاعة والقوة⁽²⁾، حتى ولو كانت عجوز حيث ذكر ابن منقذ أن عجوزاً من جوارى جده الأمير أبي الحسن على يقال لها فنون شاركت في التصدي للغزاة فتمثلت وأخذت سيفاً "وخرجت إلى القتال ومازالت كذلك حتى سعدنا وتكاثرنا عليهم"⁽³⁾ على حد قول ابن منقذ.

ومن بطولات النساء التي سجلها ابن منقذ والتي تتصل بمقاومة الصليبيين، من ذلك أن امرأة تدعى نضرة بنت يوزر مات استطاعت بذكائها وحيلتها أسر ثلاثة من الصليبيين الذين هاجموا مدينة شيزر، ففي أحد الأيام خرج الحجاج الصليبيون من القدس بعد أن قضاوا حجهم، واتجهوا إلى أفامية المحتلة "فتأهوا في الليل وجاءوا إلى شيزر وهي إذ ذاك بغير سور فدخلوا المدينة"⁽⁴⁾ فعلم بذلك أهل المدينة فهاجموا الحجاج، وكانت نضرة من بسين الأهالي "خرجت مع الناس فأخذت إفرنجياً أدخلته بيتها، وخرجت أخذت آخر أدخلته بيتها، وعادت خرجت أخذت آخر، فاجتمع عندها ثلاثة من الإفرنج، فأخذت ما كانت معهم وما صلح لها من سلبهم، وخرجت دعت قوماً من جيرانها قتلوهم"⁽⁵⁾.

وعلى الرغم من المبالغة الواضحة في الرواية التي أوردها ابن منقذ إلا أن فيها دليلاً واضحاً على المقاومة الشديدة التي أبدتها نسوة بلاد الشام، وأن الرجال لم يكونوا هم القوة الفاعلة فقط، بل إن المرأة المسلمة، شاركت ووقفت جنباً إلى جنب بجوار الرجل المسلم في معركة الجهاد ضد الصليبيين⁽⁶⁾.

(1) ابن منقذ، الإعتبار، ص 179.

(2) المصدر نفسه، ص 158-159.

(3) المصدر نفسه، ص 160.

(4) ابن منقذ، الإعتبار، ص 165.

(5) نفس المصدر، ص 166.

(6) عوض، الجغرافيون، ص 249.

ومن البطولات الأخرى لنساء بلاد الشام ما قامت به إحداهن من قتل زوجها المدعو علي بن أبي الريداء، والذي كان من رجال خلف بن ملاعب أمير أفامية وذلك انتقاماً منه بعد أن كان ينهض بالإفرنج إلى المسلمين يغمهم، ويبالغ في أذى المسلمين وأخذ مالهم وسفك دمهم حتى قطع سبل المسافرين⁽¹⁾.

وقد كانت زوجته "تنكر عليه فعله وتنهاه فلا ينتهي"⁽²⁾ فاتفقت هي وأخاها على قتله، فدفعتة إلى البيت وأخفته " إلى الليل، واجتمعت هي وهو على زوجها علي بن أبي الريداء فقتلاه"⁽³⁾ ثم هربا إلى شيزر، وعندما سؤلت عما فعلت قالت "غضبت للمسلمين مما نفعل بهم هذا الكافر"⁽⁴⁾ فقدر المسلمون لها دورها وعملوا على إكرامها واحترامها⁽⁵⁾.

كما وشاركت النسوة في بلاد الشام في التصدي لأي عدوان قد يحصل على أي مدينة من المدن الإسلامية، ومن ذلك ما حدث في عام 502هـ/1108م عندما ثار مجموعة من الباطنية الحشاشين في شيزر مستغلين غياب أمراء بنو منقذ ومعه غالبية رجال المدينة، واستطاعوا السيطرة على القلعة، فعلم بذلك رجال المدينة وكان للنساء دور في مساعدتهم على الدخول للمدينة من خلال قيامهن برمي الحبال ليصعد بواسطتها الرجال من الطاقات، فدخلوا واستطاعوا قتال الباطنية "وأخذهم بالسيف من كل جانب، فلم يسلم منهم أحد"⁽⁶⁾.

وشاركت المرأة إلى جانب الرجل في المقاومة الشعبية ضد الغزو الصليبي للقدس في عام 1099م/492هـ فكانت تنقل الصخور والأحجار لرجال المقاومة لتذفها على القسوات الصليبية⁽⁷⁾.

وفي عام 533هـ/1138م هاجم الصليبيون مدينة بزاعة وكان أبرز من قاد المقاومة الشعبية فيها ضد المهاجمين ولمدة سبعة أيام هي زوجة حاكم المدينة⁽⁸⁾. كما وتولت النسوة الدمشقيات جلب الذخيرة والطعام والمياه إلى المحاربين، كذلك تطيب المرضى والمصابين، وذلك خلال الحصار الذي فرضته الحملة الصليبية الثانية على دمشق⁽¹⁾ في ربيع الأول 543هـ/ يوليو 1148م.

(1) ابن منقذ، الإعتبار، ص164.

(2) المصدر نفسه.

(3) المصدر نفسه.

(4) المصدر نفسه.

(5) المصدر نفسه.

(6) أبو الفداء، المختصر، ج2ص43.

(7) ريمونداجيل، تاريخ الفرنجة، ص246. سميث، الحملة، ص201.

(8) ابن العديم، زبدة الحلب، ج2ص265.

وساهمت المرأة في دخول مدينة دمشق تحت حكم المجاهد نور الدين محمود في عام 549هـ/1154م فيذكر ابن القلانسي⁽²⁾ بأنه عندما عزم نور الدين على أخذ دمشق حاصرها كانت على السور "إمرأة". فدلّت حبلا فصعدوا فيه". وبذلك أصبحت دمشق تحت السيطرة النورية وعاصمة له، وشوكة في حلق الصليبيين في مملكة بيت المقدس، وهذا ما كان يخشاه الصليبيون ويعملون على الحيلولة دون وقوعه، لأن ذلك كان من "أبغض الأشياء إلى الفرنج لأنه كان يأخذ حصونهم و معاقلهم و ليست له دمشق فكيف إذا أخذها و قوي بها"⁽³⁾.

ولعل أبرز المواقف الدالة على مشاركة المرأة في المقاومة الشعبية ضد الغزاة الصليبيين ما ذكره أبو شامة⁽⁴⁾ نقلا عن سبط ابن الجوزي⁽⁵⁾ المعاصر له والذي حكى له أن الشيخ أبو قدامة الشامي بعثت إليه امرأة شعرها وقالت : اجعله قيذا لفرسك - في إشارة إلى مشاركته في المقاومة - في سبيل الله ،قال : فعملت من الشعور التي اجتمعت عندي شكلا لخيال المجاهدين .وقد استغل السبط تلك الشعور لشحذ همم المقاومة الشعبية للغزو والجهاد ضد الصليبيين الذين كانوا يخرجون من عكا للإغارة على نابلس، فذكر بأنه أمر بإحضار الشعور وكانت ثلاثمائة شكال ،فلما رآها الناس صاحوا صيحة عظيمة وقطعوا مثلها، وخرجت جموع أهل دمشق وضياعها والتقوا بالسلطان الأيوبي المعظم عيسى في نابلس سنة 607هـ/1211م واجتمع بهم في مسجد المدينة حيث عرض السبط على السلطان الشعور فقام بوضعها "على صدره وجعل يبكي"⁽⁶⁾.

وبعد استكمال الاستعدادات تحركت جموع المقاومة الشعبية نحو عكا وهاجمت المعقل الصليبية حول المدينة وأخربوا وأسروا ثم عادوا إلى نابلس⁽⁷⁾. كما وشاركت المرأة في فتح المدن التي كانت محتلة من الصليبيين حسب مقدرتها، فكانت تسقي الماء للجنود، أو تطيب الجرحى، وتحمل الذخيرة ومثال ذلك ما حدث في عام

(1) بن موسى، نظرة عربية، ص138.

(2) الذيل، ص327. وانظر: أبو شامة، الروضتين، ج1، ص305. ابن قاضي شهبة، الكواكب الدرية، ص145

(3) أبو شامة، الروضتين، ج1، ص302.

(4) الذيل، ص69.

(5) مرآة الزمان، ج8، ق2، ص544-545.

(6) سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج8، ق2، ص545.

(7) سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج8، ق2، ص545. أبو شامة، الذيل، ص70. ابن كثير، البداية و النهاية

ج13، ص58. وانظر كذلك: كرد علي، خطط، ج2، ص78. البيشاوي، نابلس، ص152.

633هـ/1264م، عندما اتجه السلطان المملوكي الظاهر بيبرس⁽¹⁾ لتحرير مدينة أرسوف من الاحتلال الصليبي، وخلال حصار جيش المسلمين للمدينة " كانت النساء الصالحات يسقين الماء في وسط القتال، ويعملن في جرّ المجانيق"⁽²⁾.

أما بالنسبة لمقاومة الأطفال أو الصبيان فلم أعثر وللأسف فيما بين يدي من مصادر أو مراجع إلا على رواية واحدة تؤكد مشاركة هذه الفئة من صغار السن في مقاومة الصليبيين وقد أوردها ابن شداد⁽³⁾ في النوادر السلطانية ونقلها عنه أبو شامة⁽⁴⁾ في الروضتين ومفادها أنه في خلال حصار الصليبيين لمدينة عكا قام الصبيان من المسلمين بمصارعة صبيان الصليبيين، وقد استطاع أحد الصبيان المسلمين هزيمة الصبي الصليبي "فاختطفه وضرب به الأرض" ثم أسره فقام الصليبيون باسترداده بدينارين أعطوها للصبي المسلم "وقالوا هو أسيرك حقاً"⁽⁵⁾.

ونستخلص من الرواية السابقة إلى أن المقاومة الشعبية كانت تشمل إلى جانب الرجال والنساء، الأطفال الذين استطاعوا تحقيق النصر على نظرائهم من الأطفال الصليبيين، وحازوا على إعجاب الصليبيين كما رأينا، ويمكن لنا أن نستنتج بأن هؤلاء الأطفال قد قاموا بدور فعال في مساعدة أفراد المقاومة الشعبية من الرجال، وكذلك القوات الإسلامية بقدر استطاعتهم: كنقل المؤن والأغذية والأسلحة، أو نقل الأخبار وربما كشف الطريق للمقاومين، ويمكن أن يكونوا قد ساهموا بدور ما في جرّ المجانيق مع النساء لأن جرّها يحتاج إلى أيدي بشرية كثيرة، لكننا لا يمكن لنا الجزم بذلك نظراً لانعدام المعلومات التي لم توفرها لنا المصادر.

(1) لظاهر بيبرس: هو الملك الظاهر بيبرس الأول، ركن الدين، البندقاري العلاني الصالح، رابع من تسلطن بمصر والشام من المماليك البحرية الأتراك، ولد حوالي سنة (625هـ/1228م) وتولى الحكم سنة (658هـ/1260م) وتوفي سنة (676هـ/1277م) ودفن بالمدرسة الظاهرية الكبرى بدمشق، ينظر: ابن كثير، البداية والنهاية، ج13 ص321؛ الكتبي، فوات الوفيات، ج؛ ابن إياس، بدائع الزهور ج1 ص308؛ الشهابي، معجم، ص134.

(2) المقرئزي، السلوك، ج2 ص21.

(3) النوادر، ص92.

(4) الروضتين، ج4 ص83.

(5) ابن شداد، النوادر، ص92؛ وانظر: أبو شامة، الروضتين، ج4، ص83. ابن واصل، مفرج الكروب، ج2، ص294.

رابعاً: دور الأحداث والمطوعة في المقاومة الشعبية:

أدى تقاعس كثير من الحكام عن الوقوف في وجه الهجمة الصليبية إلى ظهور حالة شعبية مناهضة للاحتلال الصليبي، تجلت بداياتها في حلب، حين ضاق أهلها بموقف الحكام "ومضى بعضهم إلى بغداد واستغاثوا في أيام الجمع، ومنعوا الخطباء من الخطبة، مستصرخين العساكر الإسلامية على الفرنج، وكسروا بعض المنابر"⁽¹⁾.

وكانت نواة هذه الحالة الشعبية من المتطوعين الذين أشارت إليهم المصادر قبل العهدين الأيوبي والمملوكي بالأحداث⁽²⁾ المطوعة. وذلك منذ عهد نور الدين محمود زنكي بن عماد الدين⁽³⁾، إذا كانت المصادر العربية قد ألمحت بشكل خجول إلى ما سمي بالمتطوعة، فإن القراءة الدقيقة لها، تؤكد على التفاعل الشعبي في حركة المواجهة للمد الصليبي داخل بلاد الشام، وهم عبارة عن جماعة من القوات المدنية الشابة التي كانت تنضم إلى القوات النظامية لمحاربة الأعداء وقت الحاجة إليهم أو بدافع حب الجهاد والمقاومة⁽⁴⁾.

وقد اتخذ الأحداث رئيساً لهم، وصارت الرئاسة في - بعض الأحيان - تتوارثها بعض الأسر⁽⁵⁾ وبرز دورهم الجهادي في المقاومة الشعبية مع بدايات الغزو الصليبي لبلاد الشام حيث ساهموا كمجموعات من المقاومة الشعبية في مقاومة الاحتلال الصليبي ابتداء من عام 491هـ/1097م فيما شهدته حلب استناداً إلى مروية ابن القلانسي عن جمع "الأحداث الحلبيين لقصد الجهاد"⁽⁶⁾ ضد الصليبيين بقيادة تانكرد الذي أغاظه تسليم الأرمن حصن أرتاح لرضوان صاحب حلب فقام بجمع قواته لمهاجمة الحصن فخرج إليه رضوان بقواته النظامية التي انضمت إليها مجموعات المقاومة الشعبية من المتطوعين والأحداث " فلما تقاربا نشبت الحرب بين الفريقين فثبت راجل المسلمين وانهزمت الخيل ووقع القتل في الرجالة ولم يسلم منهم إلا من كتب الله سلامته"⁽⁷⁾، ويتضح من ذلك أن المقاومة الشعبية المتمثلة في الشباب

(1) ابن العديم، زبدة الحلب، ج2، ص157. بغية الطلب، ج8، ص3664-3665. سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج2، ص536. أبو الفداء، المختصر، ج2، ص28. الحريري، الإعلام، ص73.

(2) الأحداث كما ذكر ابن منظور في اللسان هم الشباب في مقبل العمر، ج2، ص132-133.

(3) الحويري، الأوضاع الحضارية، ص155.

(4) المرجع السابق، وانظر الغامدي، جهاد المماليك، ص315 هامش3.

(5) ابن القلانسي، الذيل، ص189، 265. ابن العديم، زبدة الحلب، ج2، ص139.

(6) ابن القلانسي، المصدر السابق، ص148. وانظر: ابن الأثير، الكامل، ج9، ص84 وقد ذكر بأن رضوان انضم إليه "ثلاثة آلاف من المطوعة" وهم حسب رواية ابن القلانسي من الأحداث (الشباب المسلحين).

(7) ابن القلانسي، الذيل، وقد أضاف سبط ابن الجوزي إلى رواية ابن القلانسي قوله "وثبت الرجالة وأحداث حلب" انظر: مرآة الزمان، ج2، ص440-441. وانظر أيضاً ابن الأثير، الكامل، ج9، ص85.

الأحداث قد شاركوا في مقاومة الصليبيين، وقد أثبتوا فيما لا يدع مجالاً للشك تصميمهم على ذلك؛ واتضح أيضاً قوة ثباتهم على العكس من القوات النظامية المتمثلة بالفرسان والذين قاموا بالهرب.

وكما ذكرنا سابقاً عند الحديث عن معركة عسقلان وما تبعها من هجوم صليبي على المدينة في عام 492هـ/1099م فإن أحداث المدينة والذين شكلوا مجموعات المقاومة الشعبية في المدينة قاموا بالتصدي للصليبيين واستشهد "من أهل عسقلان.... وأحداثها سوى أجنادها ألفان وسبعمائة نفس"⁽¹⁾، واشترك أحداث حلب في العمليات المشتركة لقوات إيلغازي⁽²⁾ وحليفه طغتكين حاكم دمشق ضد الأتارب الذي "خرج أحداث من حلب ونهبوا حصنها"⁽³⁾ مما جعلهم يطلبون الأمان فأمنهم إيلغازي "بعد أن استأخذت، وسيرهم إلى مآمنهم"⁽⁴⁾

وفي سياق الاستعداد من جانب ظهير الدين طغتكين، لدفع العدوان الصليبي عن أعمال دمشق كوسيلة من وسائل الدفاع قرر في سنة 519هـ/1120م الخروج لملاقاة الصليبيين عندما علم باستعدادهم للعبث والإفساد في أعمال دمشق فاجتمع إليه خلق كثير "من أحداث دمشق والشباب الأغرار ورجال الغوطة والمرج والأطراف وأحداث الباطنية المعروفين بالشهامة والبسالة من حمص وغيرها والقبة وقصر حجاج والشاغور خلق كثير رجاله وخياله بالسلاح التام والناهض مع المتطوعة المتدينين وشرعوا بالمسير للحاق المصاف قبل اللقاء"⁽⁵⁾، ونجحوا في رد الصليبيين بقيادة بلدوين الأول خاسرين مدحورين. وقد لعب الأحداث المطوعة دوراً كبيراً في مقاومة الحصار الذي كان ينوي فرضه الصليبيين بقيادة حاكم أنطاكية ريموند في الخامس من شعبان عام 532هـ/1137م على

(1) ابن القلائسي، الذيل، ص137. وانظر: سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج1، ص327. وانظر: ما سبق الفصل الثاني.

(2) إيلغازي: هو الملك نجم الدين ابن الأمير أرتق بن أكسب التركماني حاكم ماردين، كان هو وأخوه سقمان من أمراء تاج الدولة تنش صاحب الشام فأقطعهما القدس، ثم حكم إيلغازي ماردين خلفاً لوالده وعندما استولى على حلب أبناء رضوان انتقل إلى ميفارقين ليحكمها، منذ سنة 498هـ/1104م حتى وفاته سنة 516هـ/1122م. وصف بالشجاعة والحكمة والهيبة. ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج1، ص191. ابن الأثير، الكامل، ج9، ص217. ابن العديم، زبدة الحلب، ج2، ص185-188، 205-206. الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج19، ص435. وانظر: خليل، الإمارات، ص220-259.

(3) ابن العديم، زبدة الحلب، ج2، ص191.

(4) المصدر نفسه.

(5) ابن القلائسي، الذيل، ص213. وانظر: علي، العلاقات، ص188، المقاومة، ص257. جوني، دمشق، ص137.

مدينة حلب، فقد زحف ريموند بقواته لحصار المدينة من الناحية الجنوبية والغربية فخرجت إليه " فرقة وافرة من أحداث حلب فقالتهم وظفرت عليهم"⁽¹⁾ فما كان من هذه القوات إلا أن اندحرت في الثامن من شعبان من نفس العام.

وفي الحصار الذي فرضته الحملة الصليبية الثانية على مدينة دمشق في العام 543هـ/ 1148م، أظهر الأحداث المطوعة براعة فائقة في حرب الشوارع وبين الأزقة والبساتين بحيث استطاعوا تكبيد القوات الصليبية خسائر فادحة في الأرواح"⁽²⁾، وكما أشرنا في صفحات سابقة فإن هذا الأسلوب الذي اتبعه الأحداث المطوعة هو ما يعرف بحرب العصابات أو حرب الشوارع التي تكلف المحتلين خسائر فادحة أكثر مما تسببه الحرب النظامية"⁽³⁾.

واعتمد نور الدين محمود زكي على الأحداث المطوعة اعتماداً كبيراً ومن ذلك ما أخبرنا به ابن القلانسي بأنه في ربيع الأول من سنة 552هـ/ نيسان (إبريل) 1158م قرر نور الدين قصد بانياس لفتحها واستردادها من الصليبيين، وخرج إلى معسكره بعد أن أمر " بالنداء في الغزاة والمجاهدين والأحداث المطوعة من فتيات البلد والغرباء بالتأهب والاستعداد لمجاهدة الإفرنج"⁽⁴⁾ وقد لبث مجموعات المقاومة الشعبية نداء الجهاد والمقاومة " فتبعه من الأحداث والمطوعة خلق كثير"⁽⁵⁾، وقد وصلت تلك المجموعات من المقاومة الشعبية إلى بانياس في يوم السبت السابع من شهر ربيع الآخر 552هـ/ الموافق الثامن مايو (أيار) 1158م وشاركت في نصب المنجنيقات حولها وبدأ القتال، وبعد إحكام الحصار حول المدينة، بدأت الحرب بضرب سور المدينة، والمدينة ذاتها بالمنجنيقات وغيرها من آلات الحرب، كما قام رماة الأحداث المطوعة برمي المدافع عن السور بالنشاب بصورة متواصلة حتى يتمكن النقابون من الاقتراب من السور ونقبه"⁽⁶⁾. وأجبر المدافعون على القتال

(1) ابن القلانسي، المصدر السابق، ص265. وانظر: ابن العديم، زبدة الحلب، ج2، ص265 حيث يقول: "وخرج إليهم أحداث حلب فقالتهم وأظهروا عليهم".

(2) ابن القلانسي، الذيل، ص298. وانظر: أبو شامة، الروضتين، ج1، ص180. الصوري، الأعمال المنجزة، ج2، ص758 وانظر: ما سبق الفصل الثاني.

(3) حبشي، الحملة الصليبية، ص175.

(4) ابن القلانسي، الذيل، ص340. وانظر: أبو شامة، الروضتين، ج1، ص341. الحباري، بانياس، ص181.

(5) أبو شامة، الروضتين، ج1، ص341. وانظر: ابن القلانسي، الذيل، ص340. الحباري، بانياس، ص181.

(6) ابن القلانسي، الذيل، ص340. الحباري، بانياس، ص181.

نهاراً وليلاً دون راحة وكانوا على وشك الاستسلام لولا استئصال همفري وابنه في الدفاع عن إقطاعهم الوراثة⁽¹⁾.

أما قوات نور الدين التي كانت تساندها مجموعات المقاومة الشعبية وضمنها الأحداث فقد ازداد حماسها في مواصلة الهجوم على المدينة بعد سماعها أخبار النجاح الذي حققه أسد الدين شيركوه في ناحية هونين القريبة من بانياس غرب النهر⁽²⁾ فشدت هجومها.

وفي يوم الثلاثاء 10 ربيع الآخر 552هـ/11 أيار 1158م سقطت بانياس بيد قوات نور الدين والمقاومين، وتختلف الروايات في كيفية الاستيلاء عليها، فرواية وليم الصوري تشير إلى أن المحاصرين فتحوا باب المدينة في أحد الأيام للقيام بغارة مفاجئة على القوات الإسلامية ومجموعات المقاومة الشعبية في الخارج ومنعهم عن المدينة، فتصدت لهم القوات الإسلامية وهزمتهم ثم لاحقتهم حتى باب المدينة، ولم يتمكن الصليبيون من إغلاق الباب نظراً لشدة تدافع المنهزمين في الدخول، ولحقهم الجنود المسلمين واختلطوا بهم وبالناس، فدخلوا بأعداد كبيرة إلى المدينة واستولوا عليها بالقوة، فانسحب المدافعون والناس إلى قلعتها القريبة⁽³⁾.

أما ابن القلانسي فيذكر أن النقبين والعمال انتهوا من حفر النقب وحشوه ثم أحرقوه فسقط البرج فوق النقب، وهجم "الرجال" من الفجوة التي أحدثها الإنهيار، فدخلوا المدينة وقتلوا من وجدوه في طريقهم، ونهبوا ما وصلت إليه أيديهم⁽⁴⁾. وهكذا سقطت بانياس في يد نور الدين محمود بعد مساهمة واضحة من الأحداث الدمشقيين.

وفي صفر من العام التالي 553هـ/آذار (مارس) 1158م شن الصليبيون عدة إجتياحات على أعمال حوران فأفسدوا وأحرقوا، وخرّبوا في الضياع، ونهبوا ما وقعت عليه أيديهم وأسروا وسبوا ثم قصدوا داريا القريبة من دمشق وأحرقوا منازلها وجامعها فظهر إليهم من العسكرية والأحداث العدد الكثير... حين شاهد الكفار خذلهم الله كثرة العدد الظاهرة إليهم رحلوا⁽⁵⁾ خوفاً من أي مقاومة قد يجابهم بها الأحداث المتطوعين للجهاد في سبيل الله.

(1) الصوري، الأعمال المنجزة، ج2، ص568.

(2) ابن القلانسي، الذيل، ص340-341. أبو شامة، الروضتين، ج1، ص340-341.

(3) الصوري، الأعمال المنجزة، ج2، ص569.

(4) ابن القلانسي، الذيل، ص341.

(5) ابن القلانسي، الذيل، ص351. وانظر: أبو شامة، الروضتين، ج1، ص362.

كما كان للمتطوعين دور في المشاركة في فتح العديد من المدن التي ظلت تعاني من الاحتلال الصليبي لزم من طويل ففي سنة 688هـ/1289م قرر السلطان المنصور قلاوون تحرير إمارة طرابلس انضم إليه " خلق كثير من المتطوعين"⁽¹⁾ للمساهمة في المقاومة الشعبية ضد المحتلين الصليبيين.

وهكذا لعبت المقاومة الشعبية المتمثلة بالأحداث والمتطوعين دوراً مهماً وبارزاً في جهاد الصليبيين والوقوف ضدهم بشتى الطرق والوسائل.

خامساً: موقف البدو من الاحتلال الصليبي:-

كان البدو قد أثبتوا حتى من قبل احتلال الصليبيين لبلاد الشام أنهم أولوا بأس، وأنهم يأبون الخضوع إلى حاكم غريب غير شيخ القبيلة صاحب الزعامة الشرعية في نظرهم⁽²⁾، وعندما احتل الصليبيون بلاد الشام استمرت تلك الروح تتملكهم أبرزوا فيها مقاومة شعبية واضحة لهذه السلطة الجديدة⁽³⁾، ولكن موقفهم كان ذا شقين؛ الشق الأول: وهو الشق المقاوم للصليبيين والمساند للمسلمين والجهات الرسمية الحاكمة وكانوا يشكلون الغالبية، والقسم الثاني من البدو الذين كانوا يبحثون عن مصالحهم التي كان يتحكم بها الصليبيين بحكم احتلالهم لغالبية بلاد الشام وسيطرتهم على الكثير من مناطق النفوذ البدوية، وهذا الأمر انعكس على مجموعة من القبائل البدوية وجعلها مناصرة للصليبيين بكل ما في الكلمة من معنى حتى "كانوا آفة على المسلمين ودليلاً للكفار على الإسلام"⁽⁴⁾ والمسلمين.

وسنتعرض لكلا الموقفين، وأولها الموقف المقاوم - وذلك بحكم موضوع البحث - فقد شارك البدو العرب من سكان بلاد الشام وخاصة في فلسطين في المقاومة الشعبية للاحتلال الصليبي، حيث رفض البدو الواقع الجديد المتمثل بالاحتلال الصليبي لبلادهم منذ اللحظة الأولى لهذا الاحتلال، وظهر هذا الموقف الرفض في قيام مجموعات من البدو بضرب طرق القوافل العسكرية، وقوافل الحجيج الصليبيين القادمين من أوروبا من خلال نصب الكمائن عبر الطرق الرئيسية التي تربط بين ميناء يافا والقدس⁽⁵⁾.

(1) ابن كثير، البداية والنهاية، ج13، ص313. وانظر: العيني، عقد الجمان، ج2، ص380.

(2) انظر: السيد، الخليل، ص324.

(3) Albert d, Aix, Historia, PP. 503-516.

(4) سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج8، ق1، ص299-293.

(5) سيتعرض الباحث لهذا الموضوع في الفصل الرابع بإذن الله.

فمن خلال وصف الرحالة للهجمات التي كانت تنش ضد الحجاج عبر طرق مواصلاتهم خلال الفترة الواقعة بين (495-500هـ/1102-1107م) دلت على أن هذه الهجمات كانت من صنع البدو الذين كانوا يقطنون في تلك المناطق، فتلك الهجمات كانت تأخذ شكل حرب العصابات، واعتمدت على أسلوب الكر والفر والمباغثة والعودة بسرعة إلى المخابئ في الجبال⁽¹⁾، وتلك الصفات كما هو معروف هي من صفات البدو.

ولحسن الحظ كشفت لنا المصادر الإسلامية عن هوية الأهالي الذين كانوا يسكنون في تلك المناطق من جنوب بلاد الشام، وذكرتهم بأنهم بنو ثعلبة وبنو جرم الذين يعدون من قبيلة طيئ العربية، وجرم هذه غير قضاة الذين ينزلون "ببلاد غزة والداروم"⁽²⁾.

مما يعني أن هؤلاء البدو هم الذين شنوا الإغارات على الصليبيين، وساهموا في خلخلة الأمن الصليبي مدة طويلة من الزمن حتى جاءت ردة الفعل الصليبي من أجل القضاء على الخطر الواضح للبدو في جنوب بلاد الشام وامتداده إلى مناطق أوسع، إذ كان من الضروري الإقدام على عمل لتأمين المناطق الجنوبية من البلاد المحتلة وخاصة المناطق المحيطة بمملكة بيت المقدس، ولذلك وجه الملك بلدوين الأول اهتمامه إلى توسيع ممتلكاته في جهة الشرق والجنوب من فلسطين لمنع غارات البدو وتسلبهم عن طريق النقب، فكان لا بد من السيطرة على الإقليم الواقع بين البحر الميت وخليج العقبة حيث وادي عربة⁽³⁾.

ويشير ابن القلانسي⁽⁴⁾ إلى أن البدو في تلك المنطقة أرسلوا إلى طغتكين أتابك دمشق يطلبون منه الحماية، فأرسل إليهم جيشاً قدره المؤرخ الفرنسي ألبرت دكس⁽⁵⁾ Alber d,Aix بثلاثة آلاف من الفرسان، وحين وصلت هذه القوة إلى منطقة وادي موسى شرعت في تشييد قلعة تطل على الوادي⁽⁶⁾، ويذكر دكس⁽⁷⁾ أن بدو تلك المناطق من شرقي الأردن وهم من بني جزام⁽⁸⁾ هم الذين استدعوا الأتراك الدماشقة للقدوم على سبيل الثورة على الصليبيين، ومن

(1) سايلف، الرحلة.

(2) المقرزي، البيان والإعراب، ص 3-4.

(3) السيد، الخليل، ص 186.

(4) الذيل، ص 395.

(5) P,645.

(6) تقع قلعة "وادي موسى" على تل شديد الانحدار، يعرف حالياً باسم تل وعيرة على أطراف البتراء، حيث تطل

خرائب استحكامات الصليبيين التي تغطي مساحة كبيرة على وادي موسى. انظر: Grousset, Histoire, Vol. I, PP. 250, 679. Vol.2, PP. 854-855.

(7) Historia, P. 644-645.

(8) المقرزي، البيان والإعراب، ص 18.

أجل إقامة القلعة سابقة الذكر، وقدم البدو للدماشقة كل المساعدات اللازمة لتشييد القلعة حتى تكون قاعدة عسكرية متقدمة لحماية طريق الحجاج المسلمين وتوجيه ضربات ضد مملكة بيت المقدس، غير أنه حينما مر الدماشقة تاركين القلعة بعد مهاجمة الصليبيين لها في رجب سنة 501هـ/مارس 1107م، لم يجد هؤلاء البدو بدأ فاختبئوا في كهوف الجبال المجاورة، وحاول الملك بلدوين الأول القضاء عليهم باستخدام الدخان وتمكن أخيراً من قتل البعض وأسّر ستمائة منهم وغنم كل ما لديهم⁽¹⁾.

وفي سنة 506هـ/ 1112م شارك العرب البدو " الطائيين والكلبيين والخفاجيين"⁽²⁾ بمساعدة القوات الإسلامية الدمشقية بقيادة طغتكين، والموصلية بقيادة مودود بعد انتصارها على الصليبيين في موقعة جسر الصنبرة⁽³⁾ لحمل الماء للقوات الإسلامية التي قررت متابعة هجومها على القوات الصليبية التي تحصنت في جبل إلى الغرب من طبرية، ومشاركة هؤلاء البدو في نقل الماء هو نوع من المقاومة الشعبية التي كانت تقتضي مساعدة القوات الإسلامية بمددهم بالماء اللازم للشرب، وتلك الأعمال هي من أعمال السكان المحليين في المنطقة الذين كانوا على معرفة بمصادر المياه اللازمة للجنود الذين يبذلون جهداً عظيماً في الصعود إلى الجبل الحصين الذي لجأ إليه الصليبيون "لصعوبة مرتفاه"⁽⁴⁾.

واستكمالاً لحملات بلدوين الأول فقد شن حملة جديدة على منطقة البحر الميت وشرقي الأردن، وذلك في سنة 509هـ/1115م بهدف إخضاع القبائل البدوية في شرقي الأردن بإقامة مراكز دائمة للصليبيين في جوف بلادهم، حيث تم تأسيس إقطاعية صليبية⁽⁵⁾، مما يؤكد حرج الموقف الأمني الصليبي في تلك المناطق.

وانتقاماً من الحملات التي قام بها بلدوين الصليبي، فإن البدو قاموا بمهاجمة الجيش الصليبي الذي كان يحمل نعش الملك الصليبي المتوفى عبر طريق الخليل نحو القدس وذلك في سنة 511هـ/1118م⁽⁶⁾.

لم يستقر أمن الصليبيين رغم الإجراءات التي اتخذت ضد البدو، فبعد فترة هدوء عادت المقاومة الشعبية من قبل البدو لتتأجج من جديد فيما بعد عام 524هـ/1129م حيث

(1) Albert d,Aix, I bid, PP. 645.

(2) ابن القلانسي، الذيل، ص 185.

(3) راجع الفصل الثاني من الرسالة.

(4) ابن القلانسي، الذيل، ص 185.

(5) السيد، الخليل، ص 193.

(6) المقرئزي، اتعاط الحنفا، ج 3، ص 53.

استمرت هجمات البدو الذين أطلق عليهم قطاع الطرق، ضد الحجاج الصليبيين، الأمر الذي دعا وليم بطريك بيت المقدس إلى قيادة حملة ضدهم، كما قام باستكمال تشييد قلعة الملك (أرنولد) للتصدي لهم⁽¹⁾.

ولما اعتاد المؤرخون الفرنجة اعتبار حركات المقاومة الشعبية الإسلامية في الداخل من قبيل قطع الطرق، فتبين أن مقاومة البدو للصليبيين أخذت في الظهور من جديد استجابة لروح الجهاد التي سادت المنطقة، ويخبرنا أسامة بن منقذ⁽²⁾ أنه في هذه الآونة شن المسلمون سلسلة من الغارات استهدفت المنقطة الممتدة حتى بيت جبرين والخلي قرب الخليل.

وبينما نجح الصليبيون في حماية أراضي جنوب بلاد الشام من هجمات وإغارات البدو، بتأسيس القلاع، قدم الخطر على المملكة من الشمال حيث أوعز الدماشقة الأتراك إلى البدو في شرقي الأردن بمهاجمة المملكة من الناحية الشرقية، ويشهد على ذلك استعانة دمشق غير مرة بقبيلة بني مر-أكبر القبائل البدوية- ونفهم موقف هؤلاء البدو من الصليبيين ومقاومتهم لهم علينا أن نرجع قليلاً بالأحداث، ونضرب لذلك مثالين: أولهما: حينما أوقع هؤلاء البدو الهزيمة في صفوف جيش جوسلين دي كورتناي الأول Joscelin I, du Courtenay في ربيع أول - جمادى الآخرة سنة 513هـ/آذار 1119م⁽³⁾، فقد سمع جوسلين بأن قبيلة بدوية غنية وهي من بني ربيعة، تنتجع بقطعانها المراعي في شرق الأردن، قرب نهر اليرموك، فنهض جوسلين، وبصحبته اثنان من كبار بارونات الجليل، وهما الأخوان جودفري ووليم بور، ونحو مائة وعشرين فارساً، لنهب القبيلة، وانقسمت الجماعة، كيما تطوق رجال القبيلة، غير أن الأمور لم تجر حسب ما كانوا يشتهون، إذ أن شيخ القبيلة تلقى التحذير، وضل جوسلين طريقه التلال، ووقع في الكمين جودفري ووليم، عند ركوبهما لمهاجمة المعسكر، فلقى جودفري مصرعه، ووقع معظم أتباعه في الأسر، وعاد جوسلين إلى طبرية، وأرسل إلى الملك بلدوين يخطر بهما حدث، فأقبل بلدوين في جيش، وخوّف البدو، فأعادوا الأسرى، ودفَعوا ما طلبه من تعويض، وعندئذ أجاز لهم أن يمضوا الصيف في هذه الجهات في سلام⁽⁴⁾.

(1) السيد، الخليل، ص198.

(2) الاعتبار، ص15-18.

(3) Albert d, Aix, Historia, P. 710-711.

(4) ابن الأثير، الكامل، ج9، ص186. أبو الفداء، المختصر، ج2، ص52-53. وانظر: Albert d, Aix, Historia, P. 710 الدويكات، إقطاعية طبريا، ص108-109.

ولم يكن أحد من المسلمين سوا الأكراد أو الأتراك أو الفاطميين في هذه المعركة سوى البدو مما يعني أنهم شكلوا ثورة شعبية قامت بمهاجمة ذلك الجيش الصليبي وهزيمته. أما المثال الثاني فيتمثل في استعانة دمشق بالبدو لإيجاد جبهة متماسكة نجحت في إفشال الحصار الصليبي لدمشق في حملة عام 523هـ/1129م⁽¹⁾، وقد ذكر الحريري⁽²⁾ أن الحصار فشل بعد أن "تناخى عسكر دمشق و التركمان، والفلاحون و العربان على الفرنج فهزموهم، وقتل وأسر من الفرنج خلق عظيم" كما وشارك العرب البدو في نهب الصليبيين "والفتك بهم"⁽³⁾، بعد أن كثر فسادهم في الأعمال الدمشقية بعد رحيلهم عن دمشق وذلك سنة 543هـ/1148م، وجاء ذلك بناء على طلب من حاكم دمشق معين الدين أنر الذي كان يخيم في حوران بجيشه فقام بمكاتبة "العرب"⁽⁴⁾ المقيمين في المنطقة.

وهذا يعني أن مجموعات المقاومة الشعبية من البدو كانت تعمل تحت سمع وبصر السلطة الحاكمة التي استغلت مواهب تلك المجموعات المقاومة في حرب العصابات التي لا يستطيع الجنود النظاميين القيام بها لأنها من أعمال المقاومة الشعبية، وإلا لماذا لم يوعز لجنوده بمهاجمة الصليبيين ليطلق "أيديهم في نهبهم والفتك بهم"⁽⁵⁾ كما ذكرنا.

وقد أتت تلك العمليات الفدائية التي قامت بها مجموعات المقاومة الشعبية من البدو أكلها مما ألجأ الصليبيون إلى "طلب المصالحة"⁽⁶⁾، وتكرر نفس الموقف السابق سنة 546هـ/1151م لكن بظروف مختلفة.

فعندما علم الصليبيون - وكانوا حلفاء للدماشقة لحمايتها من محاولات نور الدين لفتحها - بأن نور الدين على نية بمهاجمة دمشق وفتحها، تحركوا لمهاجمته، وكان معسكراً في ناحية الأعوج من البقاع، فتركها عندما علم بتحركات الصليبيين، وقربهم وعزمهم على قصده، اقتضى رأيه الرحيل إلى ناحية الزبداني، وفرق نحو أربعة آلاف فارس من فرسانه للانتشار في أعمال حوران، والمهم في هذا الأمر أن البدو الذين في حوران كانوا على علم بتحركات كل من جيش الصليبيين، وجيش نور الدين، ودليل ذلك أن هدف نور الدين من نشر قواته "ليكونوا في أعمال حوران مع العرب لقصد الإفرنج ولقاءهم، وترقباً لوصلهم

(1) ابن الأثير، الكامل، ج9، ص251. الحريري، الإعلام، ص76.

(2) إعلام، ص76.

(3) ابن القلاسي، الذيل، ص304. أبو شامة، الروضتين، ج1، ص204.

(4) ابن القلاسي، الذيل، ص304. أبو شامة، الروضتين، ج1، ص203.

(5) ابن القلاسي، الذيل، ص304. أبو شامة، الروضتين، ج1، ص204.

(6) ابن القلاسي، الذيل، ص304. أبو شامة، الروضتين، ج1، ص204.

وخروج العسكر الدمشقي إليهم واجتماعهم بهم⁽¹⁾ ليوقع بهم بعد ذلك وهم مجتمعين غير أن هذه الخطة التي رسمها نور الدين لم تنجح لأن القوات الصليبية حولت مسارها إلى ناحية حصن بصري لتملكه أما الجيش الدمشقي الحليف لهم فإنه لم يصل كما كان مقرراً له "لعجزهم واختلافهم"⁽²⁾، وهنا قامت مجموعات المقاومة الشعبية من البدو وكانوا في "خلق كثير"⁽³⁾ بقصد "تأحية الإفرنج للإيقاع بهم والنكاية فيهم"⁽⁴⁾ مما جعل الصليبيين يفرون إلى "لجاة حوران للاعتصام بها"⁽⁵⁾ أما نور الدين وجيشه فقد ترك الصليبيون يتلقون الضربات الخاطفة عبر حرب العصابات التي يمارسها البدو الذين يعتمدون على أسلوب الكروالفر، وعاد ليحاصر دمشق غير أنه فشل في ذلك.

استمر موقف البدو الواضح في مقاومة الصليبيين حتى بعد نجاح نور الدين في ضم مصر إلى أملاكه ويظهر لنا ذلك في عام 552هـ/1157م عندما هاجم هؤلاء البدو معسكرا للصليبيين على الملاحه بين طبرية وبنانيس وزاد الأمر سوءاً على الصليبيين بعد وصول نور الدين بجيشه ليساند مجموعات المقاومة الشعبية من البدو، ونجحوا في هزيمة القوات الصليبية ولم يستشهد من المسلمين سوى رجلين "أحدهما من الأبطال المذكورين"⁽⁶⁾ أما الآخر فيبدو أنه من البدو لأنه "غريب لا يعرف"⁽⁷⁾ ولو كان جندياً في صفوف الجيش النوري لأستطاع الجيش التعرف عليه.

اختلف موقف البدو ووضعهم كمقاومة شعبية في زمن الدولة الأيوبية ابتداءً من عهد صلاح الدين الذي أدرك أهمية موقف البدو، فبدأ سياسية جديدة تجاههم وتمثلت هذه السياسة في استخدامهم كقوات احتياطية مساعدة في المواقف التي تتطلب مساعدتهم⁽⁸⁾، غير أن ردة الفعل القبلية اختلفت من قبيلة لأخرى حول قبول الخضوع لصلاح الدين أو عدم

(1) ابن القلانسي، الذيل، ص 314. أبو شامة، الروضتين، ج 1، ص 265.

(2) ابن القلانسي، الذيل، ص 314. أبو شامة، الروضتين، ج 1، ص 266.

(3) المصادر نفسها.

(4) المصادر نفسها.

(5) المصادر نفسها.

(6) ابن القلانسي، الذيل، ص 341. أبو شامة، الروضتين، ج 1، ص 343.

(7) المصادر نفسها.

(8) انظر: ابن مماتي، قوانين الدواوين، ص 361. المقرئ، السلوك، ج 1، ص 47. سعدوي، جيش مصر، ص 5. حسين، جيش صلاح الدين، ص 39. جب، صلاح الدين، ص 174. الحيارى، الإمارة، ص 56. السيد، الخليل، ص 215.

الرضوخ لمطالبه واللجوء إلى الصليبيين لإعانتهم وهذا جعل صلاح الدين يلجأ إلى تأديب هؤلاء الخارجين ومعاقبتهم على مواقفهم المتخاذلة تجاه المسلمين.

فقد أوضحت المصادر الإسلامية ذلك بشيء من المبالغة فذكرت أن صلاح الدين أغار على بعض العشائر البدوية المقيمة حول الكرك والشوبك في شرق وجنوب البحر الميت في سنة 568هـ/1173م، وكان هؤلاء ينقلون الأخبار إلى الصليبيين فانزل بهم قتلاً وتشريداً حتى لم يبق في بلادهم أحد من العربان "وإذا نهض الفرنج لا يجدوا بين أيديهم دليلاً"⁽¹⁾.

برزت أول المواقف الإيجابية المناصرة للقوات الإسلامية في عهد صلاح الدين في الثاني من جمادى الآخرة سنة 573هـ/السادس والعشرين من نوفمبر 1177م خلال معركة الرملة حيث انضمت مجموعات من البدو الكنانية إلى القوات الإسلامية في معركتها مع الصليبيين⁽²⁾، ولا نعلم إذا ما كانت هذه المجموعات قد انضمت إلى صلاح الدين كمقاومة شعبية أو كقوات احتياطية كما قدمنا.

وفي مقابل ذلك الموقف الإيجابي ظهر موقف سلبي لبدو المنطقة الذين انتهزوا فرصة انهزام القوات الإسلامية فأعملوا فيهم السلب والنهب بل والقتل فبات من بقي منهم في أسوأ حال⁽³⁾.

ويبدو أن هؤلاء البدو أرادوا الانتقام من قوات صلاح الدين بعد عمليات التطهير التي قاموا بها ضد إخوانهم من البدو في منطقة الكرك والشوبك سنة 568هـ/1173م. ومهما يكن أمر فإن شهرة البدو في الإغارات السريعة وحرب العصابات جعلت القوات الإسلامية تستعين بها مرة أخرى في عام 574هـ/1179م حيث سارت قبائل العرب إلى بلد صيدا وبيروت حتى يحصدوا غلات العدو⁽⁴⁾، وفي عام 577هـ/1182م اشتركوا في الإغارة على جنين حتى قاربوا عكا، بينما كانت قوات صلاح الدين بقيادة ابن أخيه فرخشاه تشارك في الإغارة على منطقة الأغوار بالتحديد مدينة بيسان⁽⁵⁾.

(1) البنداري، سنا البرق، ص 66. أبو شامة، الروضتين، ج 2، ص 240. انظر أيضاً: سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج 8، ق 1، ص 292.

(2) ابن واصل، مفرج الكروب، ج 2، ص 60.

(3) السيد، الخليل، ص 226. العريني، الشرق، ص 166.

(4) العماد الأصفهاني، البرق الشامي، ج 3، ص 157-158. البنداري، سنا البرق، ص 163. أبو شامة، الروضتين، ج 3، ص 26-27. ابن واصل، مفرج الكروب ج 2، ص 74.

(5) الحموي، مضممار الحقائق، ص 95. ابن الأثير، الكامل، ج 10، ص 112.

وعلى الجانب الآخر ظهر بعض البدو المناهضين للمسلمين، ويفهم ذلك من المهمة التي أوكلها صلاح الدين إلى نائبه على دمشق "شمس الدين محمد بن عبد الملك" المعروف بابن المقدم، بتأديب وإخضاع البدو المتواطئين مع الصليبيين وإصلاح ذات البين فيما بين عشائريهم⁽¹⁾، وكان البدو من ضمن الجماعات الشعبية المشاركة في معركة حطين عام 583هـ/1187م⁽²⁾، ولعل أبرز وأوضح المواقف لمجموعات المقاومة الشعبية من البدو هي التي ظهرت خلال حصار الصليبيين لمدينة عكا في عام 585هـ/1189م، وخاصة في المعارك الخاطفة ونصب الكمائن والتجسس على الصليبيين ونقل أخبارهم للمسلمين وكان من نتائج ذلك أن استشهد عدد كبير منهم⁽³⁾، وبغض النظر عن كون البدو قد شكلوا قوات دعم احتياطية إضافة للقوات الإسلامية الصلاحية⁽⁴⁾ أم لا، فإن الأعمال التي قاموا بها هي من قبيل الأعمال التي لا يمكن تنفيذها من قبل القوات النظامية، التي لا ينتج نصراً مباشراً على العدو، وإنما تعمل على إنهاكه، وإحداث نوع من الخلل في صفوفه.

وفي أثناء الحرب النهائية بين المسلمين والقوات الصليبية بقيادة ريتشارد قبل توقيع صلح الرملة شارك البدو في الإغارة على الصليبيين، على طريق القدس⁽⁵⁾، وفي الوقت نفسه كانت مجموعة من هؤلاء البدو على اتصال بريتشارد، فبينما القوات الإسلامية كانت على وصول من مصر لدعم صلاح الدين في دفاعه عن القدس فأذ بريتشارد قد وصلته أخبار تلك القوافل العسكرية القادمة من مصر لأنه كان "يترقب أخبارهم ويتوصل إليهم بالعرب

(1) العماد الأصفهاني، البرق الشامي، ج5، ص71.

(2) العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص58. ابن واصل، مفرج الكروب، ج2، ص186.

(3) بالتفصيل فيما أورده كل من: ابن شداد، النوادر، ص84، 91، 194، 207-210. وهو يسميهم في ص207 بعرب الإسلام في إشارة منه إلى أن هناك من البدو العرب المناهضين للمسلمين. انظر أيضاً: أبو شامة، الروضتين، ج4، ص82، 119، 149، 282. وهو ينقل معظم رواياته من ابن شداد. ابن واصل، مفرج الكروب، ج2، ص312. الحنبلي، شفاء القلوب، ص167. المقرئ، السلوك، ج2، ص19. العليمي، الأنس الجليل، ج1، ص358-359، 377، 382. وانظر للمزيد: السيد، تاريخ، ص118. الحيارى، الإمارة، ص56، 140.

(4) جب، صلاح الدين، ص174.

(5) ابن شداد، النوادر، ص207-209. ص229. حيث يذكر أيضاً أنهم كانوا يقومون بدور الأدلاء وخاصة أنهم كما ذكر البنداري على معرفة بدروب المنطقة و"مداخلها وخبر طرقها ومناهجها" انظر: سنا البرق، ص66. وحول دور البدو كأدلاء انظر أيضاً ابن منقذ، الإعتبار، ص12-15.

المفسدين"⁽¹⁾، وعندما علم بمكانهم قام بالتكر بزي بدوي وسار مع العرب فهاجموا القوافل الإسلامية واستولى عليها وأسر من فيها" وكان السعيد من نجا بنفسه"⁽²⁾.

أما في عهد المماليك فيبدو أن موقف البدو أصبح موحداً لصالح المسلمين ومناهضها للصليبيين لأن هؤلاء البدو "صلحت سيرتهم وقل فسادهم"⁽³⁾، لذلك نجدهم يشتركون في الكثير من المعارك إلى جانب المماليك ومن ذلك حصار مدينة عكا الذي قام به المماليك في جمادى الأولى سنة 663هـ/مارس 1265م⁽⁴⁾، ثم نراهم يشاركون كمتطوعين في المقاومة الشعبية التي توجهت لفتح قلعة صغد سنة 664هـ/1266م⁽⁵⁾، وشاركوا في فتح حصن القصير بين حارم وأنطاكية في جمادى الأولى سنة 674هـ/نوفمبر 1275م، فتصل القوات المملوكية والحصن قد تم فتحه ويتم تسليمه إلى سلطة المماليك⁽⁶⁾، ومع تكافل الفتوح المملوكية لبلاد الساحل الشامي تظل عكا آخر المعاقل الصليبية ليقرر المماليك فتحها، وعند خروج القوات المملوكية لفتح المدينة تخرج مجموعات كبيرة من الأهالي لتشارك في هذا الفتح، والمهم في الأمر أن مجموعات المقاومة الشعبية من المتطوعين البدو العرب الذين اشتركوا في حصار المدينة وفتحها كان عددهم كما يذكر أبو المحاسن ابن تغري بردي؛ يفوق أعداد جنود الجيش المملوكي⁽⁷⁾.

ونستخلص مما سب مشاركة القبائل البدوية العربية كإحدى فئات السكان المهمة في بلاد الشام في المقاومة الشعبية إما بعيداً عن السلطة الرسمية، أو بعلم منها وتحت عيونها، ووجدنا أن بداية موقف البدو كان عبارة عن مقاومة شعبية بحتة ليس لها علاقة بالسلطة الحاكمة وتمثل ذلك بالهجمات التي كان يشنها البدو على طرق اتصالات الصليبيين، ثم أصبح هذا الموقف مرتبطاً بالسلطة الحاكمة بعدما أدركت هذه السلطة أهمية دور البدو، وحتى يكون هذا الموقف موقفاً موجهاً وواضحاً وذلك نظراً لسرعة التغيير في موقف هؤلاء البدو بسبب الضغوط الصليبية المستمرة عليهم فنجدهم يميلون إليهم ضد المسلمين.

(1) ابن شداد، النوادر، ص209. ونفس الرواية ينقلها أبو شامة، الروضتين، ج4، ص304.

(2) ابن شداد، النوادر، ص209. أبو شامة، الروضتين، ج4، ص305.

(3) ابن عبد الظاهر، تشریف الأيام، ص290.

(4) المقرئزي، السلوك، ج2، ص31.

(5) نفس المصدر، ج2، ص34.

(6) ابن تغري بردي، النجوم، ج7، ص165.

(7) النجوم، ج8، ص5. وانظر الفصل الرابع من الرسالة.

سادساً: - موقف أهل الذمة من الاحتلال الصليبي:

اختلفت آراء الباحثين حول موقف أهل الذمة - من المسيحيين الشرقيين واليهود - كفة من فئات السكان المحليين في بلاد الشام من المقاومة الشعبية فبعضهم يعتبر أن أهل الذمة قد شاركوا في المقاومة الشعبية ضد الصليبيين⁽¹⁾ أو كانوا محايدين، والبعض الآخر اعتبر أن موقفهم كان مؤيداً للصليبيين معادياً للمسلمين، وأنهم لم يشاركوا في المقاومة الشعبية ضد الصليبيين⁽²⁾.

ويبدو - اعتماداً على المصادر والوقائع التي سيتم إيرادها - أن موقفهم كان يتغير من حين لآخر حسب معطيات الأحداث، ولا اعتبارات دينية واجتماعية واقتصادية، وغيرها، وحتى موقف المسيحيين أنفسهم اختلف فهناك - كما ذكرنا من قبل - الأرمن، والروم، والسريان، والموارنة، فهل كان موقفهم من الصليبيين واحداً أم أنه كان متباين، أم أن مواقفهم تتفق وتختلف من وقت لآخر؟.

وأول الفئات التي سيتم استعراضها من المواقف المسيحية هو موقف السكان الشاميين من الأرمن الذين اختلف موقفهم من حين لآخر من المقاومة الشعبية، ففي عام 491هـ / 1098م "غلب أهل حارم من الأرمن عليها"⁽³⁾.

فقد استغل هؤلاء الأرمن هزيمة جيش المسلمين الذي كان يقوده سقمان بن أرتق من صليبي أنطاكية، وعندها هرب من بقي من هذا الجيش إلى حارم، فلحق بهم الصليبيون فانهزموا إلى حلب فأصبحت الأمور شاغرة في حارم فقام الأرمن بالسيطرة عليها⁽⁴⁾.

كما وقام الأرمن من سكان شمال بلاد الشام بانتهاز فرصة وصول الصليبيين من بني دينهم فقاموا بشن الغارات على بعض القرى التي في حوزة المسلمين، ومن أمثلة ذلك الإغارة التي قام بها الأرمن ضد أعمال حلب أوائل سنة 491هـ / 1098م حيث وصلوا إلى تل قباسين⁽⁵⁾، وقتلوا سكانها من المسلمين، فخرج سكان القرى المجاورة من المسلمين في

(1) انظر: أبو شامة، الروضتين، ج4، ص156. ابن واصل، مفرج الكروب، ج2، ص347-348. الحنبلي، شفاء القلوب، ص172-173. كاهن، الشرق، ص114، 285. جويبو، على خطى الصليبيين، ص193. فارح، المسيحيون، ص78-79، 85. قاسم، ماهية الحروب، ص206-207.

(2) الشارترى، تاريخ الحملة، ص130-131، 188، 297. ابن الفلانسى، الذيل، ص148. ابن العديم، زبدة الحلب، ج2، ص132.

(3) ابن العديم، زبدة الحلب، ج2، ص132.

(4) المصدر نفسه.

(5) تل قباسين: قرية من قرى العواصم من أعمال حلب. باقوت، معجم، ج2، ص43.

صحبة فرقة من الأتراك، وطاردوا الأرمن وقتلوا منهم جماعة، وأرغموا الفارين على الالتجاء إلى بعض الحصون، فلحق بهم عسكر حلب، وقتل بعضهم وساق منهم ألفاً وخمسمائة رجل أسرى إلى حلب، كما يقول ابن العديم⁽¹⁾.

كما وشارك الأرمن إلى جانب الصليبيين في عدد من المعارك ومن ذلك معركة البلاط⁽²⁾ في عام 513هـ/1119م حيث صحب صاحب أنطاكية سيرروجير " Sir Roger طوائف الإفرنج ورجالة الأرمن من سائر أعمالهم"⁽³⁾، وإذا ما تناولنا الجانب الإيجابي للأرمن فإن إشارات قليلة دلت على مشاركتهم في المقاومة الشعبية ومن ذلك اشتراكهم في حفر الخندق حول أنطاكية عند حصار الصليبيين لها في عام 490هـ/1097م، وهنا شك فيهم الصليبيون، وظنوا أنهم يتجسسون لصالح المسلمين في أنطاكية وينقلون المؤن إلى داخل المدينة⁽⁴⁾، وفي عام 498هـ/1104م ساءم الأهالي من الأرمن الذين في أرتاح بتسليم مدينتهم إلى فخر الملوك رضوان حاكم حلب "لما شملهم من جور الإفرنج وتزايد ظلمهم"⁽⁵⁾.

ونستخلص مما سبق أن المسيحيين من الأرمن تآرجح دورهم في المقاومة ضد الصليبيين مع كونهم من نفس الملة، ولكن الغالب عليهم هو التأييد للغزو الصليبي كما رأينا، أما موقفهم خلال حصار أنطاكية فقد حللناه في الفصل الثاني خلال حصار أنطاكية، وبالنسبة لتسليمهم أرتاح لرضوان - وهذا يُعد من قبيل المقاومة الشعبية- فقد كان ذلك لمصلحة اقتضاها الموقف وذلك أن الصليبيين قد ظلموهم وهذا الظلم قد يشمل النواحي الاقتصادية والاجتماعية والسياسية وحتى الدينية.

وإذا ما انتقلنا للحديث عن عنصر مهم من العناصر المسيحية في بلاد الشام ألا وهم الموارنة فإن موقفهم كان واضحاً في العداء ضد المسلمين وتقديم العون للصليبيين، فمعظم الوقائع تدلل على أن هذه الفئة من سكان بلاد الشام لم يشاركوا في المقاومة الشعبية باستثناء بعض الحوادث المتناثرة التي سيتم التعرض لها.

(1) زبدة الحلب، ج2، ص132.

(2) البلاط: مدينة عتيقة بين مرعش وأنطاكية من أعمال حلب. ياقوت، معجم، ج1، ص477.

(3) ابن القلانسي، الذيل، ص200. وانظر: ابن الأثير، . ابن العديم، زبدة الحلب، ج2، ص187. وسيتم الحديث عن هذه المعركة بالتفصيل في الفصل الرابع.

(4) ابن القلانسي، الذيل، ص134. ابن الأثير، الكامل، ج9، ص14. الحريري، الإعلام، ص63. مجهول، أعمال الفرنجة، ص54، 65. وراجع ما أوردهنا في الفصل الثاني.

(5) ابن القلانسي، الذيل، ص148.

ولعل أول الاتهامات التي أشيعت حول الدور الماروني هو أنهم شاركوا في استدعاء الصليبيين إلى الشرق⁽¹⁾، ولا ريب في أن الموارنة رأوا في قدوم الصليبيين نصيراً قوياً في مواجهة المحيط الإسلامي الذي يعتقد الموارنة أنهم معادين لوجودهم⁽²⁾.

اتصل الموارنة بالجيش الصليبي الزاحف نحو بيت المقدس سنة 492هـ/1099م، ولخبرتهم بالحرب ومعرفتهم "بالرمي على القوس الثقيل بالنشاب الخارق"⁽³⁾، وما وصفوا به من سرعة ومهارة في خوض المعارك⁽⁴⁾ وقوة شكيמתهم وشجاعتهم⁽⁵⁾، انضمت قوة منهم إلى هذا الجيش وقاتلوا معهم جنباً إلى جنب، وعملوا كأداء للصليبيين يرشدهم إلى الطرق والمعابر خلال زحفهم كما عملوا تراجمة لهم⁽⁶⁾، كما وساهموا في عناصر المشاة ورماة الأسهم المتطوعة ضمن فرق الجيش الصليبي⁽⁷⁾.

وبعد هزيمة قوات ريموند دي سانت جيل Raymond de Saint Gilles أمام المقاومة الشعبية خلال حصاره لطرابلس سنة 497هـ/1104م-كما أشرنا في الفصل الثاني- فإن ريموند لجأ إلى الاستعانة بالموارنة "وأتاه أهل الجبل فأعانوه على حصارها وكذلك أهل السواد وأكثرهم نصارى فقاتل من بها أشد قتال"⁽⁸⁾، هذا ما أكده اليونيني⁽⁹⁾ حين ذكر أن ريموند بعد أن شرع في حصار طرابلس واستقر في حصنه "نزل إليه أهل جبة بشري وسائر تلك النواحي وجميعهم نصارى"، ومنذ أن حاصر الفرنج طرابلس أخذ هؤلاء يستعينون في جيوشهم بفرقة نظامية من النصارى من سكان القرى في جبال لبنان، وبدا هذا واضحاً عندما نهض "وليم جوردان" ابن أخت ريموند، إلى عرقة فأبعد طغتكين أمير دمشق وعساكره عنها وأقام محاصراً لعرقة مدة ثلاثة أسابيع حتى استولى عليها في رجب 502هـ/1109م، وواصل تقدمه شمالاً فهاجم شيزر، ثم عاد إلى حصن صنجيل بظاهر

(1) Anonymus, The deedes of the Franks and Other, P.Lgrims, P.86.

(2) الصوري، الأعمال المنجزة، ج1، ص60. وانظر: عوض، أضواء، ص197. كاهن، الشرق، ص114.

(3) ابن الشحنة، الدر المنتخب، ص264. وانظر: الفيتري، تاريخ بيت المقدس، ص121.

(4) الفيتري، تاريخ بيت المقدس، ص121.

(5) لامنس، الحياة، ص725. سميل الحروب، ص53.

(6) ابن القلانسي، الذيل، ص141. صليبي، الموارنة، ص16. الحويري، الأوضاع، ص90. عوض، أضواء،

ص197. سالم، طرابلس، ص225. السيد، تاريخ، ص59.

(7) سميل، الحروب، ص53. باركر، الحروب، ص55. سالم، طرابلس، ص92. عوض، أضواء، ص199.

(8) ابن الأثير، الكامل، ج9، ص55. اليونيني، ذيل، ج3، ص63. وانظر: سميل، الحروب، ص53. سالم، طرابلس،

ص91. عوض، أضواء، ص200. تدمري، موقف، ص4.

(9) ذيل، ج3، ص63.

طرابلس⁽¹⁾، وقد استمر الموارنة في موقفهم المعادي للمسلمين حتى نهايات الاحتلال الصليبي لبلاد الشام فخلال عمليات التحرير التي قام بها المماليك للمدن والقلاع الإسلامية المحتلة قام الموارنة بمهاجمة قوات المماليك وذلك في عام 667هـ/1268م⁽²⁾ لإعاقة حركة المماليك ضد الصليبيين، خلال تلك المرحلة من تاريخ بلاد الشام.

ومع كل ماسبق فإن بعض الموارنة قاموا ببعض أعمال المقاومة الشعبية المختلفة ضد الصليبيين، ويبدو أن هذا الفريق من الموارنة أدرك طبيعة الاحتلال الصليبي المعادي لكل سكان الشام بغض النظر عن انتمائه الديني أو العرقي فقرر مقاومة هذا الاحتلال، ولعل أبرز ما قام به هؤلاء الموارنة النصاري الذين كانوا يسكنون مدينة جبلة التي كانت تتبع إمارة طرابلس هو المشاركة في الدفاع عن المدينة ضد الهجوم الصليبي وإفشاله في عام 494هـ/1101م⁽³⁾، كما وجدت بعض العناصر من الموارنة التي قامت بعمليات استنزاف اقتصادي للصليبيين من خلال القيام بعمليات سلب ونهب ضدهم، بل إن بعضهم قام بالتجسس ضد الصليبيين لصالح المسلمين⁽⁴⁾، أما بالنسبة لأحداث التآمر على قادة الصليبيين من جانب الموارنة فقد تمثل ذلك على أوضح صورة من خلال ظروف مقتل كونت بونز Pons حاكم طرابلس (506-531هـ/1112-1137م) من خلال ما أورده المصادر العربية ابن القلانسي⁽⁵⁾ وابن الأثير⁽⁶⁾ والقلقشندي⁽⁷⁾ وابن الجزري⁽⁸⁾ والدويهى⁽⁹⁾ وابن الفرات⁽¹⁰⁾، وما أورده المصادر الأجنبية كوليم السوري⁽¹¹⁾ من أن القوات الإسلامية ومعها أفراد من المتطوعين -المقاومة الشعبية- بقيادة مقدم إمارة دمشق بزواش أو بزواج (Baswaj) كما يسميه السوري قامت بغزو طرابلس المحتلة فتصدى له كونت بونزهو و قواته بالقرب من

(1) ابن القلانسي، الذيل، ص 162. ابن منقذ، الإعتبار، ص 50-51. ابن شداد، الأعلام الخطيرة، ج 2، ق 2، ص 94. النويري، نهاية الأرب، ج 28، ص 264.

(2) الحويري، الأوضاع، ص 91. عوض، أضواء، ص 202-203.

(3) ابن الأثير، الكامل، ج 9، ص 35. وراجع ما سبق في الفصل الثاني خلال حصار جبلة.

(4) صليبي، الموارنة، ص 18. عوض، أضواء، ص 207.

(5) الذيل، ص 258.

(6) الكامل، ج 9، ص 298.

(7) تاريخ، ص 330.

(8) صبح الأعشى، ج 6، ص 449.

(9) تاريخ، ص 127.

(10) تاريخ، ج 8، ص 79.

(11) الأعمال المنجزة، ج 2، 684. وانظر: Stevenson, The Crusaders, P.137.

حصن جبل الحجاج الذي يسميه كل من ابن القلانسي وابن الأثير "حصن وادي ابن الأحمر" وهناك جرت معركة حامية الوطيس انهزم فيها بونز وانسحب إلى مناطق الجبال إلا أن فلاحاً مارونياً دل المسلمين على مكانه فقبضوا عليه وقتلوه، وقد كان من الطبيعي أن يقوم ريموند الثاني Raymond II بالانتقام من الموارنة بسبب ما بدر منهم من مقاومة ومساندة للمسلمين مما سبب في مصرع والده، فقام بالتوجه بقواته صوب جبل لبنان وألقى على عدد كبير من الرجال المشتبه بهم هم وأبنائهم وقادهم مصفدين بالأغلال إلى طرابلس⁽¹⁾، ولعل حادثة بتلك الحجم تؤكد فيما لا يدع مجالاً للشك المشاركة الشعبية المارونية في مقاومة الصليبيين، ولكن لا ينبغي لنا أن نبالغ في هذا الدور لأنه لم ترد في أي من المصادر العربية أو الفرنجية ما يؤكد دور الموارنة النصارى في المقاومة الشعبية بعد حادثة اغتيال بونز وماتج عنها.

وإذا ما تناولنا دور الفئات المسيحية الأخرى فإننا نجدهم أيضاً لم يكونوا مناصرين ومؤيدين للصليبيين على طول الخط، وكذلك لم يشاركوا في المقاومة الشعبية بشكل دائم، ونقصد بهؤلاء المسيحيين النصارى السريان أو السوريين أو السوريين أو اليونانيين كما تطلق عليهم المصادر الفرنجية⁽²⁾، فقد كانوا يشكلون مصدراً مهماً للمساعدة العسكرية للصليبيين ففي عام 491هـ/1098م فقد شارك النصارى السوريين كما يسميهم سميث⁽³⁾ في الهجوم الفاشل الذي قام به الصليبيون على معرة النعمان⁽⁴⁾، وعند وصول الصليبيين إلى بيت لحم في العام 492هـ/1099م بعد احتلالهم للقدس "اكتشف المسيحيون الذين يقطنون هناك من اليونانيين والسريان أو السريان أن الفرنج قد وصلوا فغلبهم الفرح تماماً، وفي الحال حملوا الصليبان والرايات وخرجوا للقاؤهم، وهم يبكون وينشدون في خشوع.. وكانوا يغنون فرحين بأولئك الذين انتظروهم منذ زمن طويل"⁽⁵⁾، وفي العام 519هـ/1126م وصلت قوات ملك بيت المقدس اللاتينية "إلى قلعة الصنمين في طريق دمشق وهوران - خرج السوريات المسيحيين الذين يعيشون بها لمقابلة الملك"⁽⁶⁾، وهذه المقابلة يبدو أنها كانت تعني المساندة والتأييد وتقديم فروض الطاعة للملك الصليبي، وإلى جانب ترحيب النصارى السوريات

(1) الصوري، الأعمال المنجزة، ج2، ص684.

(2) الشارترى، تاريخ الحملة، ص130-131، 162، 188، 297. الفيتري، تاريخ بيت المقدس، ص108. Albert d,Aix, Historia,P 645.

(3) الحملة الصليبية، ص200.

(4) المصدر نفسه، وانظر: سميل، الحروب، ص53.

(5) الشارترى، تاريخ الحملة، ص130-131.

(6) المصدر نفسه.

بالقادمين من الصليبيين فإن الأخيرين استفادوا من السوريين للقيام بواجبات الحاميات، فبينما كان جيش مملكة بيت المقدس اللاتينية يحاصر صور في عام 517هـ/1124م أحبط أهالي القدس بمساعدة السوريين غارة قامت بها حامية عسقلان⁽¹⁾.

وبالإضافة إلى ما سبق عمل السوريان كأدلاء للجيش الصليبي نظراً لخبرتهم بمسالك الطرق، فقد قام أحد المسيحيين السريان "وهو رجل متواضع رث الثياب" بتحمل كل الأعباء والمتاعب وتسلل عبر "طريق وعر جداً غير مطروق وتحت ستر الليل، وخوفاً من أن يراه أحد.. وفي اليوم الثالث وصل القدس"⁽²⁾ وأخبر من فيها من الصليبيين بنجاة بلدوين الأول من المسلمين بعد هزيمته في معركة الرملة⁽³⁾ -كما أشرنا-، وقدم المسيحيون السوريان المعلومات الإستخبارية عن أماكن اختباء رجال المقاومة الشعبية، إذ يذكر الشارترى⁽⁴⁾ بأنه خلال عمليات التمشيط التي كان يقوم بها الصليبيون بحثاً عن أفراد المقاومة الشعبية "أخبرنا بعض المسيحيين السوريان الذين اندسوا بينهم- أي بين المقاومين- بأن أفعالهم السيئة من هذا النمط" ثم حاصروا كهفاً كان قد اختبأ بعض المقاومين والأهالي الهاربين من بطش الصليبيين "وصرنا نقتلهم بمجرد خروجهم من الكهف"⁽⁵⁾، ويبدو أن الأعمال الجهادية التي كان يقوم بها أفراد المقاومة الشعبية ضد الصليبيين باستمرار هي التي دفعت القيادة الصليبية لتجنيد العملاء من المسيحيين السريان وغيرهم للكشف عن مواقعهم⁽⁶⁾.

ولعل شكوك حاكم القدس الفاطمي افتخار الدولة من نوايا سكان القدس من المسيحيين الشرقيين في مساندة الصليبيين هو الذي جعله يعمل على إخراجهم من القدس ويجردهم من أملاكهم⁽⁷⁾.

وبموازاة الخط السابق، نلمس خطأ مغائراً يؤكد مشاركة سكان بلاد الشام من المسيحيين الشرقيين السوريان في المقاومة الشعبية إلى جانب المسلمين مما جعل جوييو⁽⁸⁾ يجزم بأن "المسيحيين لم يساهموا مطلقاً في الحملة الصليبية، وعلى العكس فإن مسيحي سوريا تحزبوا مع مواطنيهم المسلمين ضد الفرنجة"، لكن هذا التأكيد لا يمكن جعله مطلقاً لأننا كما

(1) سميل، الحروب، ص53.

(2) الشارترى، تاريخ الحملة، ص188.

(3) المصدر نفسه. وانظر: Albert, de Aix, Historia, P. 644.

(4) تاريخ الحملة، ص162.

(5) المصدر نفسه.

(6) البيضاوي، المقاومة، ص6.

(7) انظر: فارح، المسيحيون، ص78.

(8) على خطى الصليبيين، ص193.

أشرنا فإن المسيحيين السوريين أو السوريين وقفوا إلى جانب الصليبيين، وفي نفس الوقت فإن هناك ما يشير إلى أنهم تعاونوا كعنصر من عناصر السكان في بلاد الشام، إلى جانب المسلمين على اختلاف أطيافهم المذهبية والعرقية، وقد اشتملت مشاركتهم في المقاومة على القيام بمهاجمة المعسكرات الصليبية وسرقتها وعلوا كعملاء وجواسيس "يخبرون جميع أسرار المسيحيين إلى المسلمين الذين يحضرونهم إليهم، ويتحدثوا بلغتهم أفضل من أي لغة أخرى"⁽¹⁾، وساهم المسيحيون النصارى في نقل المساعدات والمؤن إلى المسلمين خلال حصار الصليبيين للمدن الإسلامية، ومن أمثلة ذلك ما قام به النصارى من أهل بيروت في عام 585هـ/1189م خلال حصار الصليبيين لمدينة عكا من نقل المساعدات والمواد الغذائية والحربية حيث أعد المسلمون سفينة فرنجية كانت قد أصيبت فرموها ورتبوا فيها رجال مسلمون ونصارى من أهل بيروت⁽²⁾ ليوهموا القوات الصليبية المحاصرين لعكا بأنهم من بني جلدتهم، وقد انطلقت عليهم خطة المقاومة الشعبية بمساعدة النصارى.

وظهر من الصليبيين ما أطلقت عليه المصادر الإسلامية اسم المستأمنين ممن الملل طول زمن الحصار المفروض على عكا سنة 585هـ/1189م فانحاز إلى المسلمين وطلب منهم الأمان، ومنهم من أعلن إسلامه وانضمامه إلى جانب المسلمين وقد عرض هؤلاء المستأمنين على المسلمين الدخول في المقاومة ضد الصليبيين وقالوا "نحن نخوض البحر في براكيس ونكسب من العدو ويكون المكسب بيننا وبين المسلمين... فركبوا بركوساً وهو المركب الصغير، وظفروا بمراكب لتجار العدو.. فأسروهم وكسبوهم"⁽³⁾.

وهكذا نلمس الموقف الإيجابي للنصارى في المقاومة الشعبية وإن كانت على نطاق ضيق ولم تشمل مشاركة فعلية في المعارك والأمر التي تتطلب دوراً فاعلاً وإنما اشتملت على أمور ربما لمس النصارى أن المصلحة تقتضي مشاركتهم فيها، وهذا ما أكدته المواقف القليلة السابقة خاصة إذ ما علمنا من أن المستأمنين الذين وقفوا إلى جانب المسلمين خلال حصار الصليبيين لعكا كانوا "خلق عظيم أخرجهم الجوع"⁽⁴⁾، ولم يدفعهم شيء آخر للخروج إلى صفوف المسلمين.

(1) الفيتري، تاريخ بيت المقدس، ص 109.

(2) أبو شامة، الروضتين، ج 4، ص 155-156. وانظر: ابن شداد، النوادر، ص 119. الحنبلي، شفاء القلوب، ص 172-173.

(3) أبو شامة، الروضتين، ج 4، ص 236. وانظر: ابن واصل، مفرج الكروب، ج 2، ص 347.

(4) نفس المصدرين السابقين.

ويمكن القول أن المواقف السابقة من المسيحيين السوريين كانت نتيجة للنظرة الدونية التي كان الصليبيون ينظرون بها إلى هؤلاء المسيحيين فعلى الرغم مما قدموه من مساندة واضحة لهم، إلا أنهم اعتبروهم هراطقة، ونظروا إليهم في أفضل الأحوال نظرة احتقار، وترتب على ذلك أن قاموا بمصادرة ثروات أعيانهم أو كنائسهم⁽¹⁾، ويدفعون هم واليهود المسلمين ضريبة الرأس⁽²⁾.

أما الفريق الآخر من أهل الذمة آلا وهم اليهود سواء أكانوا من (القرائين أو الربانيين، أو السامرة) فإن موقفهم كان غامضاً ولكنه في خط واحد، هو خط المعارضة للوجود الصليبي في بلاد الشام، وهذا لا يعني أنهم كانوا رجال مقاومة شعبية كما يصورهم البعض⁽³⁾، وينبع التأكيد على غموض الموقف اليهودي من الاحتلال الصليبي ومقاومته من تلك العداوة التاريخية والدينية المستفحلة التي اتضحت ورشحت مع بداية الحملة الصليبية الأولى وبدأ الصليبيون يمارسون الاضطهاد ضد اليهود حيثما كانوا، وأينما وجدوا⁽⁴⁾، وبناءً على ما لاقاه اليهود من اضطهادات ومذابح فإن اليهود - كما يعتقد أحد الباحثين - قرروا التحزب إلى جانب السكان المسلمين ومقاومة الصليبيين الذين قتلوا إخوانهم في أوروبا وعلى الرغم من أن أي من المصادر العربية المعاصرة أو حتى اللاحقة، أو أي من المصادر الفرنسية المباشرة لم تذكر شيء عن مشاركة اليهود إلى جانب المقاومة الشعبية في بلاد الشام إلا أن براور - اليهودي الأصل - يحاول الزج باليهود كمدافعين عن المدن ذات الأغلبية المسلمة ضد الهجوم الصليبي، ويبالغ في إعطاء صورة غير مؤكدة عن هذا الدور، وهذا ما يجافي الحقيقة التاريخية.

ومن الأمثلة التي يوردها براور⁽⁵⁾ - والتي لا نجد لها إلا عنده - قوله بأن اليهود الذين كانوا يقطنون منطقة الحي اليهودي⁽⁶⁾ The Juivrie في القدس تعهدوا بالدفاع عن منطقتهم ومقاومة أي هجوم صليبي وأنهم دافعوا عن منطقتهم التي استغل الصليبيون ضعفها فهاجموا

(1) كاهن، الشرق، ص 114، الملاحق، ص 285. براور، الاستيطان، ص 268..

(2) براور، الاستيطان، ص 265.

(3) المصدر نفسه، ص 284-285.

(4) عن هذه الاضطهادات انظر: براور، الاستيطان، ص 283. سميث، الحملة الصليبية، ص 198. Paltlayeam,

Les Juifs, P. 38-39. قاسم، الاضطهادات، ص 137-166. الحروب، ص 20-21.

(5) الاستيطان، ص 284.

(6) يقع بين بوابة دمشق في الشمال وبين ما كان يسمى برج طيور الأستوركس Tower of the Storls، والتي اعتبرها براور بأنه يمثل أضعف نقطة في دفاعات المدينة، بسبب عدم وجود واد طبيعي يقطع المدينة عن الأرض المحيطة بها. الاستيطان، ص 284.

المدينة من ناحيتهم فكان العبيء الأكبر في المقاومة على سكان هذا الحي من اليهود الذين "يأسوا من المقاومة" على حد تعبير براور⁽¹⁾، وبعد اجتياح الصليبيون للمدينة وقعوا فريسة للانتقام الصليبي، فقام الصليبيون بـ " جمع اليهود في الكنيسة وأحرقوها عليهم"⁽²⁾ أما من نجا منهم فقد تم بيعهم كعبيد ثم قام اليهود في مصر بافتداء أعداد كبيرة منهم بالمال في عسقلان⁽³⁾، وحتى نكون منصفين فإننا نورد ما ذكرته بعض المصادر الفرنجية حول مشاركة اليهود لأهالي مدينة حيفا في مقاومة الحصار الصليبي لها في شوال 493هـ/أغسطس 1100م حيث تصدى سكان المدينة من المسلمين واليهود على حد سواء للهجوم الصليبي، إذ قام المسلمون بتزويد الجالية اليهودية في المدينة بالسلاح ليقاوموا إلى جانبهم، لأن المصير المتوقع بعد انتهاء المقاومة هو القتل المحتم لهم جميعاً كما حدث في القدس بعد اجتياح القوات الصليبية لها، لذلك رأى اليهود الذين تردت أحوالهم النفسية نتيجة لما حدث لإخوانهم في القدس، أنه من الواجب الوقوف إلى جانب المسلمين في مقاومة الغزو الصليبي، واستطاعت تلك المقاومة الشعبية المشتركة أن ترد أكثر من محولة صليبية لاجتياح المدينة⁽⁴⁾.

ومهما يكن من أمر فإن موقف أهل الذمة من الاحتلال الصليبي شهداً الكثير من المد والجزر من حيث التأييد للمحتلين، أو المشاركة في المقاومة الشعبية، وهذا ما أوضحناه في الصفحات السابقة.

(1) الاستيطان، ص 284.

(2) ابن القلانسي، الذيل، ص 137. العمري، ذخيرة، الإعلام، ورقة 241. الحريري، الإعلام، ص 66. وانظر: زابوروف، الصليبيون، ص 123. سميث، الحملة الصليبية، ص 199. بالار، الحملات، ص 91. نسيبة، القدس، ص 67. جويبو، على خطى الصليبيين، ص 215. وقد ذكر بأن اليهود كانوا حلفاء للمسلمين دون أدنى تأكيد لما قاله. براور، الاستيطان، ص 284. كان، الشرق، ص 116. فارح، المسيحيون، ص 77.

(3) نسيبة، القدس، ص 67.

فارح، المسيحيون، ص 77. بالار، الحملات، ص 91، 173. سميث، الحملة، ص 198. نسيبة، القدس، ص 67. (4) Albert d, Aix, Historia. PP. 522-523. Transiltio Sanctic Nicolïa, PP.276-278. Grousset, Histoira P. 200 . وانظر: رنسيان، تاريخ الحروب، ج 1، ص 447. براور، الاستيطان، ص 285. البيشاوي، المقاومة، ص 3.

الفصل الرابع
أساليب المقاومة الشعبية للاحتلال
الصليبي وأثرها في بلاد الشام

أولاً: - نصب الكمائن وتعقب الصليبيين:

سأهمت مجموعات من أفراد المقاومة الشعبية بتعقب وقتل الصليبيين أينما وجدوا ومتى أتاحت الفرصة لهم في ذلك، وقد استغلت هذه المجموعات الإمكانيات الطبيعية مثل: الكهوف، والمغارات، والغابات الكثيفة والمناطق التي تكثر فيها الوديان⁽¹⁾، وبالقرب من "الينابيع حيث يستريح الحجاج ليلاً وهم في ذعر لأن المكان مهجور... حيث يقوم المسلمون بذبح الحجاج على الطريق" ومن هذه الأماكن كانت تنطلق المجموعات المسلحة.

ومنذ اللحظات الأولى لقدم الحملات الصليبية إلى بلاد الشام قامت المقاومة الشعبية بدورها للإيقاع بالعدو من خلال نصب الكمائن له، فمع وصول الجيش الصليبي إلى مشارف بلاد الشام انقض أفراد المقاومة الشعبية والذين أسماهم ريمونداجيل بقطاع الطرق ليلاً على فرقة من القوات الصليبية التي كانت تسير نحو أنطاكية وقاموا بقتلهم "في الحقائق وفي الأماكن النائية عن المعسكر"⁽²⁾ ومعنى ذلك أن المجموعات المقاومة قامت بالاحتماء خلف الأشجار واستغلت خروج بعض الجنود الصليبيين بعيداً عن معسكرهم وقاموا بقتلهم.

وعندما قرر الجنود الصليبيون مطاردة هذه المجموعات واجهوا صعوبة في ذلك، لأنهم كانوا غير ثقيلي السلاح وفي بعض الأحيان غير مسلحين، واستطاعت تلك المجموعات الهرب إلى جوف الجبال الوعرة والغابات الكثيفة⁽³⁾.

وخلال حصار القوات الصليبية لأنطاكية استطاع رجال المقاومة الشعبية الظفر برأس أدلبرو اللوكسمبورجي الشاب الأرستقراطي والذي كان يشغل رئيس شمامسة متر "وقد ذهب مع بعض أصدقائه ليلعبوا النرد بين الشجيرات النامية بالقرب من أنطاكية غير أن جماعة من المسلمين نصبوا لهم كميناً وقتلهم"⁽⁴⁾، وعقب سقوط مدينتي أرسوف وقيسارية في عام 494هـ/1101م استغل المقاومون الغابات الموجودة عند وادي الفلاح في المنطقة، وقاموا بنصب كمين في الموقع المسمى في المصادر الصليبية بترانسكيا (عتليت) في شوال 496هـ/ تموز يوليو 1103م، وهدف أفراد المقاومة الشعبية من هذا الكمين اغتيال ملك الصليبيين بلدوين الأول⁽⁵⁾، حيث يذكر الصوري⁽¹⁾ بأن "طائفة من قطاع

(1) ريمونداجيل، تاريخ الفرنجة، ص 59-60. الشارترى، تاريخ الحملة، ص 162، 186-188. سايلوف، الرحلة، ص 23. وانظر: سميت، الحملة الصليبية، ص 152.

(2) ريمونداجيل، تاريخ الفرنج، ص 60.

(3) المصدر نفسه، ص 59.

(4) سميت، الحملة الصليبية، ص 152.

(5) Albert d, Aix, Historia, pp602-603. الشارترى، تاريخ الحملة، ص 187-188.

الطرق والشطار⁽²⁾ كانوا مختفين في إحدى الغابات فأصابه أحدهم بخنجره في ظهره، نفذ من ضلوعه قريباً من قلبه"، وقطاع الطرق واللصوص والشطار كما يصفهم السوري وغيره هم أفراد المقاومة الشعبية ويبدو أن نعتهم بتلك الصفات لا تتعدى لغة العصر، فلغة العصر في الوقت المعاصر بالنسبة للمقاومة الشعبية هي أن أفرادها إرهابيون.

أدركت المقاومة الشعبية في بلاد الشام في ذلك الحين طبيعة المجتمع الصليبي الذي أقيم على أراضيهم، وعلاقة هذا المجتمع بأوروبا⁽³⁾، وبدأت أوروبا بإرسال أعداد وافرة من الحجاج لالتماس السعادة الروحية في أداء فريضة الحج، وزيارة الأماكن المسيحية المقدسة، وفضل كثير من منهم البقاء في بلاد الشام وخاصة القدس⁽⁴⁾.

ومع وصول هذه الأفواج من الحجاج بدأت المقاومة الشعبية بتطوير أساليب مقاومتها بما يتواءم مع المستجدات على الساحة لمواجهة العدو، واتخذت لنفسها ميداناً رحباً لمهاجمة خطوط الاتصال التي تربط الصليبيين في داخل الأراضي المحتلة بأوروبا من جهة، والتي تربط بين المدن والإمارات الصليبية من جهة أخرى، وهدفت المقاومة من ذلك إحداث أكبر خسارة ممكنة بالعدو، والأمثلة على ذلك كثيرة، فالطريق ما بين مدينتي الرملة والقدس كان يزرخ بمجموعات من رجال المقاومة التي تنصب كمائنها بهدف قتل الصليبيين⁽⁵⁾ حيث "اكتظت هذه المنطقة باللصوص وقطاع الطرق اللذين غالباً ما كانوا ينقضون "بسيفهم المعادي على المسافرين قليلي الحذر"⁽⁶⁾

ولعل الرحالة سايولف⁽⁷⁾ Saewalf والذي زار بلاد الشام في أوائل القرن الثاني

(1) الأعمال المنجزة، ج1، ص511.

(2) الشطار: أصل الكلمة من شطر عن أهله شطورا و شطورة و شطارة إذا نزع عنهم وتركهم مراغماً أو مخالفاً وأعيامهم خبثاً و الشاطر مأخوذ منه، وقد شطر شطورا و شطارة وهو الذي أعيا أهله ومؤدبه خبثاً، شطر و شطر أيضاً بالضم شطارة فيهما قول الناس: فلان شاطر، معناه أنه أخذ في نحو غير الاستواء ولذلك قيل له شاطر لأنه تباعد عن الاستواء. ابن منظور، لسان العرب، ج4، ص409.

(3) مجهول، أعمال الفرنجة، ص5.

(4) المصدر السابق، ص130.

(5) الشارثري، تاريخ الحملة، ص162.

(6) السوري، الأعمال المنجزة، ج1، ص487.

(7) سايولف: لقب أطلق على صاحب الرحلة المعروفة برحلة الحاج سايولف نظراً لكثرة ترحاله وأسفاره وهو يشبه تعبير "كلب البحر" وهو أحد الحجاج الإنجليز الذين زاروا فلسطين في بدايات الاحتلال الصليبي لبلاد الشام وكان أحد رجال الكنيسة اللورعين، ومن المتحمسين لرؤية الأماكن المقدسة التي سمع وقرأ عنها في الكتاب المقدس. انظر عنه: عوض، الرحالة، ص42. البيشوي، مقدمة ترجمة الرحلة، ص13-14.

عشر الميلادي ما بين عامي 495-496هـ/1102-1103م هو أكثر من عبر عن المعاناة التي واجهها الصليبيون وخاصة الحجاج القادمين من أوروبا، بسبب المقاومة الشعبية، وذلك من خلال تناوله للطريق الممتد من يافا⁽¹⁾ إلى بيت المقدس، إذ قطعه خلال رحلة امتدت يومين وهي مدة قياسية، ويصفه بأنه طريق جبلي وصخري خطر للغاية، ومكمن الخطورة لدى ذلك الرحالة أن أفراد المقاومة الشعبية يكمنون في كهوف الجبال، وذلك من أجل مراقبة الطريق نهاراً وليلاً بغرض اختيار الفرصة المناسبة لمهاجمة أولئك الذين يكونون قليلي العدد، ولا تتوافر لديهم حماية كافية، ويقرر أنه في خلال لحظات فإنهم يظهرون وينتشرون في كل مكان، وفي الحال يختفون من فورهم⁽²⁾ ويؤيده في ذلك الشارترى بقوله إن رجال المقاومة الشعبية من أهل عسقلان اعتادوا نصب "الكمان في سفوح التلال والجبال الواقعة بين الرملة وبيت المقدس وكان غرضهم الاتقضاض على مجموعة من أهلنا وأسرههم عندما عرفوا أنهم في سبيلهم للرحيل من يافا إلى بيت المقدس"⁽³⁾، ويبدو من خلال الوصف السابق الذي يقدمه سايولف، أن المقاومة الشعبية قامت بما يشبه حرب العصابات ضد الصليبيين القادمين من أوروبا وقد اعتمدت تلك المصادمات بين الجانبين على أسلوب الكر والفر والمباغثة وتحقيق أكبر قدر من الخسائر في صفوف الصليبيين، ثم الرجوع إلى مواقعهم المحصنة في الجبال، دون أن تقع خسائر كبيرة بين أفراد المقاومة الشعبية، والواضح أن المسلمين في بلاد الشام حينذاك قد أدركوا أن المعارك بين الجيوش النظامية الإسلامية والصليبية قد أدت إلى إلحاق الهزائم بهم على نحو أدى بدوره إلى نجاح الصليبيين في تحقيق أهدافهم، واحتلال أجزاء كبيرة من بلاد الشام ومن ثم فإن الحل المنطقي من وجهة نظرهم هو شن هجمات سريعة وخاطفة تلحق الضرر وتستهلك طاقاتهم وتحرمهم من الدعم

(1) يعتبر طريق يافا القدس على جانب كبير من الأهمية للصليبيين فهو الممر الحيوي والرئيس الذي سلكه الحجاج القادمون من أوروبا لزيارة الأماكن المقدسة لدى المسيحيين وهذا الطريق يمر بمناطق ذات طبيعة وعرة إلى أن يصل إلى السهل الساحلي وبلغ امتداده سبعة وستين كم، ويبدأ من غرب بيت المقدس من الباب الغربي لها والمسمى بباب يافا، ويستمر في الإمتداد على هضبة القدس نفسها ثم يعبر دير ياسين وأبوغوش ثم الرملة، وتجدر الإشارة - إلى أن من منطقة أبو غوش تنحدر الطريق إلى الرملة، ويطلق على الامتداد الواقع من جهة الرملة إلى السهل الساحلي اسم باب الوادي عن وصف ذلك الطريق انظر: دانيال، الرحلة، ص 49. الفيتري، تاريخ بيت المقدس، ص 89. الصوري، الأعمال المنجزة، ج 1، ص 471. رنسيان، تاريخ الحروب، ج 2 ص 18. زكي، القلاع، ص 63. على، القدس، ص 213. عوض، الجغرافيون، ص 25.

(2) سايولف، الرحلة، ص 23.

(3) الشارترى، تاريخ الحملة، ص 207.

البشري⁽¹⁾ الذي كان يعاني من نقصه الصليبيون، ولم يكن ذلك بسبب الحروب التي خاضوها مع المسلمين فقط، بل وبسبب عودة الغالبية العظمى من الأوروبيين إلى بلادهم بعد نجاح الحملة الصليبية الأولى في زرع الكيانات الصليبية في المنطقة العربية⁽²⁾، التي كانت تتفوق عددياً بالمقارنة مع أعداد الصليبيين، فمدينة دمشق كانت أكثر المدن كثافة سكانية فهي حسب وصف ابن جبير⁽³⁾ "أكثر بلاد الدنيا خلقاً" في ذلك العصر، أما مدينة حمص فإن الإدريسي⁽⁴⁾ ذكر صراحة أنها "عامرة بالناس"، وذكر ابن القلانسي⁽⁵⁾ عن سكان حماة أن "أهلها من الشيوخ والشبان والأطفال والنسوان وهم العدد الكثير والجم الغفير"، وقد أقر ابن العديم⁽⁶⁾ بازدياد كثافة السكان في مدينة حلب خلال حكم نور الدين محمود زنكي "حتى لم تبق مزرعة في جبل ولا واد إلا وفيها سكان".

ومن المعروف أن العنصر البشري في ذلك العصر هو الذي يدير آلة الحرب ويستولي على المواقع الحربية ولم تكن الأسلحة قد تطورت بالصورة التي يمكن أن تقلل دور الجانب البشري وأهميته الحربية⁽⁷⁾.

كما أن تلك الهجمات تجعل من استقرار الصليبيين في المنطقة باهظ التكاليف، ومن الواضح أن جهود المسلمين في هذا المجال كان لها أثرها الخاص في الطرق التي سلكها أولئك الحجاج المسيحيون من يافا إلى بيت المقدس، ويضيف أحد الرحالة المعاصرين أن أي امرئ يقوم بمثل هذه الرحلة بمقدوره أن يرى ذلك، حيث الأعداد الكبيرة من الأجساد البشرية "الملقاة أو الممزقة من قبل الوحوش سواء في الطريق أو على جانبيه"⁽⁸⁾ وقد أشار سايلوف إلى ناحية هامة، وهي أن القتلى من الصليبيين يتركون في العراء دون أن يدفنوا، وفي ذلك يذكر أنه ربما أخذت الدهشة البعض لرؤية ذلك الموقف، ويتساءل سايلوف لماذا يرقد المسيحيون في ذلك المكان دون أن يقبروا أو يوضعوا في قبور خاصة بهم؟ ويجيب على سؤاله بنفسه فيقول: بأن تلك الأرض غير صالحة للدفن "حيث أنه لا يوجد إلا القليل من

(1) عوض، الرحالة، ص 43-44.

(2) بردج، تاريخ الحروب، ص 118. زابوروف، الصليبيون، ص 157.

(3) الرحلة، ص 198.

(4) نزهة المشتاق، ج 1، ص 374.

(5) الذيل، ص 142.

(6) زبدة الحلب، ج 2، ص 341.

(7) عوض، الحروب الصليبية، ص 74. وانظر: توفيق، الدبلوماسية، ص 78-79.

(8) سايلوف، الرحلة، ص 23.

سادت البلاد التوترات السياسية والعسكرية المتمثلة بالغزو الصليبي⁽¹⁾ فمن الطبيعي أن يتعرض هؤلاء الحجاج للمقاومة عبر الطريق ما بين يافا والقدس، وهذا لا غرابة فيه لأنهم لم يعودوا في نظر السكان المسلمين مجرد حجاج وإنما أصبحوا غزاة⁽²⁾ ينضمون إلى القادمين من أوروبا باسم الحج والسياحة ويشاركون في مهاجمة المدن والمناطق الإسلامية في بلاد الشام، و يقدمون الدعم للصليبيين مادياً وبشراً وروحياً، وقد رأينا سابقاً ذلك الدعم الذي قدمه هؤلاء الغزاة الذين قدموا إلى بلاد الشام كحجاج⁽³⁾.

ولو أن الهدف هو قتل الحجاج فقط لأنهم مسيحيين فلماذا لم يتعرضوا لتلك الهجمات في زمن ما قبل الحركة الصليبية أو ما بعدها؟ فمنذ زمن الفتح العمري للقدس وحتى بداية الاحتلال الصليبي لم يسجل أحد من المؤرخين أو الرحالة تعرض المسيحيين الحجاج أو المواطنين لهجمات المسلمين⁽⁴⁾، وبعد انتهاء فترة التوترات التي انتهت مع انتهاء الوجود الصليبي في بلاد الشام لم يذكر الرحالة الذين قدموا إلى المنطقة آنذاك وقوع أي ضرر بالحجاج

(1) الجندي، فلسطين، ص147. الجدير بالذكر أن البيشاي في بحثه عن المقاومة دحض مهاجمة أفراد المقاومة الشعبية للحجاج المسيحيين لأن ذلك ليس من شيم المسلمين ولا من أخلاقهم واستشهد على ذلك بما فعله عمر بن الخطاب، ونحن لا ننكر ذلك ولكننا لانفي مهاجمة بعض أفراد المقاومة الشعبية للحجاج ولنا ما يبرر ذلك.

(2) زابوروف، الصليبيون، ص137.

(3) من أمثلة ذلك أنه في سنة 499هـ/1106م وصل إلى يافا أسطول يحمل عدداً كبيراً من الحجاج الإنجليز والفلمنكين والدانين يتراوح ما بين 7000 إلى 9000 حاج، فانتهز بلديون الأول فرصة وجود هؤلاء الحجاج ليستخدمهم في حصار صيدا، بعد أن ينتهوا من الحج في القدس، انظر: Albert d. Aix Historia. P 632 . Grousset, Histoire des Croisades , t . I, p245; Stevenson, Crusades in the East, p18; رنسيان، تاريخ الحروب، ج2، ص148-149. سالم، تاريخ مدينة صيدا، ص95. عوض، الحروب الصليبية، ص28-29. وانظر: ابن القلانسي، الذيل، ص171، وهو يتحدث عن وصول أكثر من ستين سفينة نرويجية محملة بالحجاج النرويجيين والذين ساهموا في الحصار الثاني لمدينة صيدا عام 504هـ / 1110م. كما أورد ألبرت دكس ما يفيد بأن الصليبيين لم يكن باستطاعتهم صد الهجوم الذي شنّه الحليفان مودود و طغتكين على مملكة بيت المقدس لولا وصول الحجاج من أوروبا و إنضمامهم للجيش الصليبي الذي تضاعف عنده إلى ستة عشر ألف جندي. انظر: Albert d. Aix Historia. Pp694_696. فنك، تأسيس الإمارات، ص91.

(4) من المعروف أن الغربيين قد مارسوا عملية الحج وزيارة الأراضي المقدسة بالشام منذ زمن بعيد (القرنين الرابع والخامس الميلاديين) ولم يتوقف الحج إلى الأرض المقدسة طوال العصور المختلفة وحتى بداية الحروب الصليبية التي اعتبرها البعض أنها عبارة عن حجاً مسلحاً بعدما شاع عن صعوبة وصول الحجاج إلى بلاد الشام وفلسطين، انظر عن رحلات الحج تلك: الفيتري، تاريخ بيت المقدس، ص89. رنسيان، رحلات الحج، ص38-48. عمران، أركولف ورحلته، ص318-348. عوض، الرحالة، ص20-33. دانيال، الرحلة، هامش ص123. حبشي، الحملة الصليبية، ص16-20. عاشور، الحركة الصليبية، ج1 ص23-24; Michaud: Histoire des Croisades, t. I, pp.92-94. الشيخ، عصر الحروب، ص9، 10. الجندي، فلسطين، ص126-133، 146.

التراب، ولا يمكن الحفر بسهولة في الصخور الصلبة، وحتى لو وجدت الأرض الترابية، فمن هو الأحق الذي سيكون بوسعه ترك جماعته والقيام بمفرده بحفر قبر لأحد رفاقه؟ لو فعل ذلك فإنه سيكون مستعداً لعمل قبر لنفسه بدلاً من أن يعمل قبراً لرفيقه⁽¹⁾، وهكذا فإن قول سايولف يكشف لنا أن عنف المقاومة الشعبية في ذلك الطريق بلغت حداً جعل الصليبيين يتجنبون دفن قتلاهم خوفاً من أن يغتتم أفراد المقاومة الشعبية الفرصة ويفتكون بهم.

لم يختلف سايولف عن باقي الصليبيين في وصفه لمجموعات المقاومة بأنهم عبارة عن حفنة من اللصوص وقطاع الطرق، وأن نشاطهم ضد الحجاج لا يتعدى كونه أعمال قرصنة وسلب ونهب، أو ما يقابله في المفهوم المعاصر عمليات إرهابية، ولكنه يغالط نفسه حين يقول: "على ذلك الطريق ليس الفقير أو الضعيف في خطر، الغني والقوي يواجهان الخطر نفسه"⁽²⁾، ومن الواضح أن الإقدام على قتل الفقراء يدل دلالة واضحة على أن قاتليهم لم يهدفوا إلى سلب أموالهم أو أمتعتهم، ولكن الرغبة في مقاومة الغزو الصليبي للمنطقة، وبالتالي فإن حركة المقاومة الشعبية اتسمت بطابع الجهاد، ولا تتصف بطابع القرصنة أو اللصوصية أو الإرهاب⁽³⁾ وهي كلها ألفاظ اشترك المستعمر على مر العصور والأزمنة في إطلاقها على حركات التحرر والمقاومة في العالم.

أوضحت رحلة سايولف أن الهجمات التي قام بها أفراد المقاومة الشعبية كانت تستهدف الحجاج المسيحيين لينفي عن المقاومة الشعبية الصفة الشرعية وحق الأهالي في بلاد الشام في مقاومة الاحتلال الصليبي لبلادهم، ويتهم المسلمين بالعداوة الدينية القديمة للمسيحيين وخاصة الحجاج القادمين من أوروبا لزيارة الأماكن المقدسة في فلسطين، وكأنه يريد أن يقول لنا: إن هذه المقاومة لو كانت حقيقية تستهدف طرد المحتل فلماذا يقتل الحجاج؟ الحقيقة أن أفراد المقاومة الشعبية قد قاموا فعلاً بمهاجمة وقتل الحجاج⁽⁴⁾ ولكن ليس للأسباب التي يظنها سايولف. كما أن هؤلاء الحجاج جاءوا إلى بلاد الشام وفلسطين بالأخص في وقت

(1) سايولف، الرحلة، ص 23.

(2) سايولف، الرحلة، ص 23. وانظر: الفيتري، تاريخ بيت المقدس، ص 89. الشارترى، تاريخ الحملة، ص 287، ويذكر في هذا الصدد بأنه حتى الفقراء والفلاحين وأصحاب الحرف لم يسلموا من ضربات المقاومة الشعبية التي كانت تتصيدهم "من كمائنهم ويقتلونهم بين الغابات وفي الأحرش" وهذا يدعم ما ذهبنا إليه بأن الهدف هو المقاومة وليس السرقة كما يذكر المؤرخين اللاتين.

(3) عوض، الرحالة، ص 45.

(4) سايولف، الرحلة، ص 23.

المسيحيين القادمين من أوروبا الى بلاد الشام خاصة عبر الطريق البري الواصل ما بين يافا والقدس، فالرحالة السيدة روجرز⁽¹⁾ التي جاءت عقب اندحار الإحتلال الصليبي عام 690هـ/1291م، وصفت الطريق الذي سارت فيه من يافا الى بيت المقدس، بأنه كان آمناً. وهذا دليل واضح على أن ما أصاب الحجاج المسيحيين من قتل وأذى خلال قدومهم من أوروبا الى بلاد الشام في فترة الحروب الصليبية كان حالة طارئة انتهت بانتهاء الوجود الصليبي، كما أنه كان يعبر عن مشاعر السخط والعداء الذي كان يكنه المسلمون للصليبيين بصفتهم محتلين لأرضهم، لأنهم اعتبروا أن قدوم الحجاج - كما ذكرنا - يمثل دعماً بشرياً للاحتلال الصليبي لبلادهم، وهذا ما أثار غضبهم عليهم، وخصوصاً أنهم كانوا يأتون بمجموعات صغيرة فضلاً عن أنهم لم يكونوا على دراية بجغرافية بلاد الشام، لذلك حرص الحجاج على أن تصحبهم القوافل العسكرية لكي تحميهم من خطر المقاومة الشعبية، فبعض الحجاج القادمين من أوروبا هددوا بلدوين الأول بالعودة إلى بلادهم إذا لم يقود هو بنفسه قافلة عسكرية تقلهم عبر الأراضي المحتلة في بلاد الشام لأنهم "كانوا يخشون عبور صور عبر المملكة خشية أن يهاجمهم سكان المدينة وهم لا يقدرّون على مقاومتهم، وحين رأى الملك تصميمهم على العودة، جمع ثلاثمائة جندي واتخذ الطريق معهم حتى جبال صور"⁽²⁾ وهناك هاجمهم أفراد المقاومة الشعبية من أهالي صور "وظاردوا الحجاج وهم يعبرون بالقرب من المدينة لكي يقتلوهم ويأسروهم فهجموا عليهم وهم يتصايحون"⁽³⁾ عند ذلك خرج بلدوين الأول من مكمنه هو والثلاثمائة جندي وهاجموا المقاومين واستطاعوا أن يقتلوا عدداً منهم ويأسروا عدداً آخراً⁽⁴⁾.

وقد ظلت طريق يافا - القدس تحمل نفس الخطورة بالنسبة للصليبيين لسنوات طويلة فبعد هزيمة الصليبيين في قرية قلونية التابعة لمدينة القدس سنة 585هـ/1189م هرب الجنود الصليبيون نحو يافا ظناً منهم أنهم سينجون غير أن أفراد المقاومة الشعبية كانوا لهم بالمرصاد ونصبوا لهم كميناً "عند طريق يافا فمرت به فوارس، فاستولى عليهم الكمين ولم يسلم منهم أحد"⁽⁵⁾.

وفي عام 588هـ/1192م "خرج كمين في طريق يافا على قافلة فأخذوها وأسروا

(1) الجندي، فلسطين، ص148.

(2) Albert d, Aix, Historia, pp695-696

(3) I bid, p 696

(4) I bid.

(5) ابن واصل، مفرج الكروب، ج2، ص383.

من فيها" (1)

ولم تكن طريق يافا - القدس وهي طريق الحج الأساسية للأوروبيين، الوحيدة التي استغلها أفراد المقاومة الشعبية لنصب الكمائن والإيقاع بالصلبيين بل إنهم استطاعوا بمهارتهم ومعرفتهم بجغرافية البلاد تعقب الصليبيين في كثير من الطرق خاصة الجبلية منها، والتي تكثر فيها الكهوف والمغارات ويمكن لأفراد المقاومة الشعبية اللجوء إليها بعد أن يقوموا بعملياتهم الفدائية، فالطريق " المؤدية من بيت المقدس إلى نهر الأردن من فوق جبل الزيتون، على الجانب الشمالي الشرقي، خطيرة ومتعبة، وتتواصل هجمات قطاع الطرق في هذه الجبال الوعرة والممرات المخيفة" (2)، أما الطريق القريب من وادي أطلس بالقرب من عسقلان وهو طريق جبلي مرتفع وتكسوه الغابات الكثيفة فإن أفراد المقاومة الشعبية استغلوا سماته الجغرافية التي تبدو مخيفة للصلبيين الذين يجهلون هذه السمات؛ وراحوا يقومون " بالإغارة على هؤلاء الذين قاموا بالمرور بأعداد صغيرة" (3)، وبالطبع كانوا يقتلهم؛ أما بالنسبة لدانيال (4) الذي يصف لنا رحلته عبر هذا الوادي فإنه يحمده على توفيقه له بأن هياً له عدد من الصليبيين الذين أنسوه في رحلته وبمعونتهم استطاع "عبور ذلك المكان المريع دون عوائق حيث يتجمع الكفار - بقصد المقاومين- بأعداد كبيرة ويهاجمون المسافرين في هذا الممر" (5).

وبالنسبة للطريق إلى بيت لحم فإن دانيال يؤكد أنه لا يستطيع أحد عبور ذلك الطريق دون حماية عسكرية أو مساعدة من أحد الزعماء المحليين الموالين للصلبيين "بسبب هجمات قطاع الطرق في الجبال" (6).

(1) العليمي، الأوس الجليل، ج1، ص387. وانظر: ابن شداد، النوادر، ص208، وقد وصف الطريق بأنها "سابلة لمن ينقل الميرة إلى العدو" ويعني ذلك أنها كانت إضافة إلى كونها طريق الحجاج فإنها كانت أيضاً طريقاً لنقل المؤن والعتاد للصلبيين فكان لا بد من نصب الكمائن فيها لمنع وصول هذه المؤن إلى الصليبيين.

(2) دانيال، الرحلة، ص69.

(3) المصدر نفسه، ص89.

(4) دانيال، راهب روسي قام برحلة إلى الأراضي المقدسة في بداية القرن الثاني عشر الميلادي 1106-1107م وكان اسقفاً لمدينة سيريف Suriev في حدود عام 1115م وتوفي في التاسع من سبتمبر سنة= 1122م. انظر: مقدمة الترجمة العربية لرحلته والتي قام بترجمتها الدكتور سعيد البيشاوي، ص20. وانظر: عوض، الرحالة، ص73-76

(5) دانيال، الرحلة، ص89.

(6) المصدر نفسه، ص97

كما يصف دانيال الطريق عبر الجليل إلى القدس بأنها "خطرة ومتعبة"⁽¹⁾ والسبب يبدو واضحاً من خلال حديثه عن الطرق السابقة.

والحال بالنسبة للطرق المؤدية إلى جبل لبنان لا يختلف عن سابقتها من الطرق، وليس باستطاعة الإنسان أن يعبر هذه الطريق إلا بصحبة مرشد أو دليل⁽²⁾ يمكن له أن يده على طرق بديلة يمكن أن تكون بعيدة عن كمائن أفراد المقاومة الشعبية الذين يمكن أن تصل بهم الشجاعة إلى السيطرة الكاملة على بعض الطرق وإغلاقها في وجه الصليبيين أو الحجاج القادمين من أوروبا ففي الفترة الزمنية التي سبقت تنويع بلدين الأول ملكاً على بيت المقدس "كان الطريق البري مغلقاً تماماً أمام الحجاج"⁽³⁾ الصليبيين.

ومما سبق ندرك أن أفراد المقاومة الشعبية لم يهدأ لهم بال أو ينم لهم جفن عن مراقبة تحركات العدو و"كانوا يحومون حول الممرات الضيقة على طول الطريق"⁽⁴⁾ ويظفرون بأعداد وافرة من رؤوس الجنود الصليبيين، ويأسرون آخرين ويغنمون خيولهم خلال ذهابهم للبحث عن الطعام وبذلك أصبح الفرسان النبلاء كما يذكر الشارترى "جنوداً مشاة لأنهم فقدوا خيولهم بطريقة أو بأخرى"⁽⁵⁾.

وقد عبر ابن واصل عن جهود المقاومة الشعبية في الإيقاع بالصليبيين من خلال استمرارهم بالعمل ضدهم فلم يكونوا يتركون لهم فرصة للراحة "وكمنا لهم تحت كل رابية"⁽⁶⁾.

ولما كان البحر من الطرق التي يسلكها الحجاج الصليبيون القادمون من أوروبا إلى بلاد الشام فقد عمد أفراد المقاومة الشعبية إلى إصابة هذه الطريق بالشلل وتعقب هؤلاء الحجاج في البحر قبل أن يتخطفوهم في البر، ومن أمثلة ذلك ما حدث عام 506هـ/1113م عندما سمع أهالي مدينة صور التي كانت ما تزال ضامنة بمجيء مجموعة من أبناء الغرب الأوروبي لزيارة بيت المقدس والبقاء في بلاد الشام وخاصة القدس مدة من الزمن، عندئذ أبحر مجموعة من أفراد المقاومة الشعبية من أهالي صور في عدد من المراكب لتعقبهم والظفر بهم، غير أن هؤلاء الحجاج قد أصابهم الذعر وعادوا أدراجهم الى عكا عندما

(1) دانيال، الرحلة، ص 106

(2) المصدر نفسه، ص 119.

(3) الشارترى، تاريخ الحملة، ص 166.

(4) المصدر نفسه، ص 146.

(5) المصدر نفسه، ص 146.

(6) ابن واصل، مفرج الكروب، ج 2، ص 382.

وصلتهم الأخبار بذلك الخطر الذي يتهددهم، إلا أنه يمكن القول أن هذا الأسلوب من المقاومة قد شمل ألبير والبحر على حد سواء مع تفاوت قليل⁽¹⁾.

كذلك ما حدث عام 513هـ/1119م ففي ربيع هذا العام وصلت جماعة من الحجاج الغربيين يقدر عددها بتسعمائة شخص، فقامت جماعة من أفراد المقاومة الشعبية في مدينة صور وعسقلان بمهاجمتهم وهم في طريقهم إلى بيت المقدس، وقتلوا منهم ثلاثمائة، وأسروا ستين، بينما هرب الباقيون⁽²⁾ كما كان في الزيب⁽³⁾ شمالي عكا" طائفة من المسلمين ... يقطعون الطريق على الفرنج⁽⁴⁾ القادمين إلى الأراضي المحتلة عبر هذا الميناء.

ويمكن القول أن الهجمات المتكررة التي تعرضت لها جماعات الحجاج المسيحيين الغربيين من خلال نصب الكمائن عبر الطرق المؤدية إلى القدس وغيرها من المدن قد دفعت زعيم طائفة الداوية هيودي باين Hugh de payns إلى القيام برحلته عام 522م/1128م إلى إنجلترا وفرنسا ليجتهد عن متطوعين لمساندة تلك الطائفة والانضمام إليها وذلك في سبيل حماية الحجاج⁽⁵⁾.

ومما لا شك فيه أيضاً أن هذا النوع والأسلوب الذي اتبعته المقاومة الشعبية قد حتم على الصليبيين إنشاء العديد من القلاع على طرق الحج لتأمين حماية الحجاج من خطر مهاجمة أفراد المقاومة الشعبية لها⁽⁶⁾ ولهذا شيدوا سبع قلاع بين يافا والقدس⁽¹⁾، ومن الأمثلة

(1) انظر: Stevenson, the Crusaders, p. 62.

(2) انظر: Stevenson, the Crusaders, p.67.68.

(3) الزيب: قرية كبيرة على ساحل فلسطين إلى الشمال من عكا وعلى بعد 14كم منها عند مصب وادي القرين، وقد أطلقت عليه المصادر الفرنجية اسم Casal Impert نسبة إلى الفارس الصليبي الذي احتلها عام (497هـ/1104م) كما عرفت باسم تل أكزيب (Tel Achzib) وهي تعرف اليوم باسم شارستان عكا، ونظراً لخصوبة أرضها وكثرة كرومها وحدائقها لتوفر المياه فقد قرر بلدوين الثالث بناء حصن في المنطقة أطلق عليها اسم حصن الزيب. انظر حول قرية الزيب وحصنها: الإدريسي، نزهة المشتاق، ج 1، ص 365. ابن جبير، الرحلة، ص 212. ياقوت، معجم البلدان، ج 3، ص 162. لي سترا نج فلسطين ص 396.

(4) العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص 478. أبو شامة، الروضتين، ج 4، ص 244. ابن واصل، مفرج الكروب، ج 2 ص 349. ابن الفرات، تاريخ، ج 1، ص 4.

(5) Albert d, Aix, Historia, p545. Stevenson, the Crusaders, p.127. King, the knights Hospitallers, p.31. Archer, the crusades, p. 170 Norman, Medieval soldier, P. 159, Deanesly, Medieval soldier, P. 159, Deanesly, Medieval Church, P. 110, C.M.H, Vol. V, P. 305. الفيتري، تاريخ بيت المقدس، ص 89-90. زابوروف، الصليبيون، ص 160. برار، الإسطبان، ص 311. توفيق، مملكة بيت المقدس، ص 101.

(6) برار، الإسطبان، ص 342. الصوافي، القلاع، ص 110. زكي، القلاع، ص 62. الحويري، الأوضاع، ص 186. عوض، الحروب الصليبية، ص 75. التنظيمات، ص 40. البيشاوي، دراسة، ص 99، 97.

على هذه القلاع: قلعة بيت نوبا⁽²⁾ Chastle Arnold على مشارف القدس من الغرب، وقلعة اللطرون⁽³⁾ Letorondes chebvaliers مما كان له الأثر في تخفيف حدة الهجمات لا كبها⁽⁴⁾، ولما تعذر على أفراد المقاومة الشعبية تكثيف هجماتهم على طرق الحجيج وخاصة طريق يافا - القدس وذلك في جنوب بلاد الشام نتيجة بناء الصليبيين لعدد من القلاع والحصون حول تلك الطرق فإنهم وجهوا نشاطهم إلى المناطق الشمالية حيث بدأوا بضرب الطرق المؤدية من طرابلس إلى فلسطين، ونلمس ذلك من تلك الإشارات التي وردت حول استجداد حكام طرابلس الفرنجة بطائفة الإستبارية منذ عام 536هـ / 1142م وذلك في عهد ريموند حاكم طرابلس؛ وهكذا أصبح الإستبارية المدافعين الرئيسيين عن وادي البقاع، وأوكلت إليهم حماية الطرق المارة به⁽⁵⁾.

كما واستفادت المقاومة الشعبية من الأحراش والغابات الموجودة حول الطرق الواصلة ما بين دمشق وشمال فلسطين لإنزال ضرباتها بالصليبيين، خصوصاً وأن أي قوة من رجال المقاومة كانت تتطلق من دمشق إلى بانياس في الجولان تصبح على مشارف الطرق الرئيسية المؤدية إلى صور وصيدا كما يمكنها أيضاً الوصول إلى الطرق المؤدية إلى الموانئ الساحلية الرئيسية لمملكة بيت المقدس بسهولة ويسر⁽⁶⁾.

وعلى أية حال يمكننا القول إن هذه السلسلة من الحصون والقلاع كان لها تأثيرها في تخفيف الخسائر التي لحقت بالصليبيين، إلا أنها لم تمنعها تماماً، مما يؤكد على أنها كانت وسيلة فعالة ومؤثرة في الوقت نفسه.

ففي الثالث من جمادى الآخرة سنة 588هـ / 1192م يخبرنا ابن شداد⁽⁷⁾ أنه لما علم المسلمون أن القوافل لا تتقطع -عبر طريق يافا- خرج جماعة... وكمنوا كميناً واجتازت

(1) Fedden, Crusader Castles, p16.

(2) قلعة بيت نوبا: وقعت إلى الشمال الغربي من القدس وذلك لتأمين طريق الحجاج بين يافا والقدس حيث كثرت في عهده الهجمات الخاطفة عبر الكمان على هؤلاء الحجاج. حروها صلاح الدين عام 583هـ / 1187م. الصوري، الأعمال المنجزة، ج2، ص662.

(3) قلعة اللطرون: وقعت على قمة تله مشفة على طريق بيت المقدس اللد المار خلال باب الواد. بناها فرسان الداوية في القرن 1200م. حررها صلاح الدين عام 583هـ / 1187م ودمرها عام 587هـ / 1191م. Denys pringle. Survey of castles Vol,23, p.89-90

(4) الصوري، الأعمال المنجزة، ج2، ص662. الصوافي، القلاع، ص110، 130. Stevenson, the crusaders, p. 150.

(5) Stevenson, the crusaders. P. 147.

(6) سميل، فن الحرب، ص302-303.

(7) النوادر، ص208. العليمي، الأسن الجليل، ج1، ص387.

القافلة ومعها جماعة كثيرة فخرجت العرب على القافلة وتبعتهم الخيالة فدحروا بين أيديهم منزهمين نحو المسلمين فخرجت الأتراك جماعة⁽¹⁾ وأخذوا القافلة بمن فيها.

ويبدو من الرواية سالفة الذكر أنه قد جرى تنسيق واضح بين أفراد المقاومة الشعبية من البدو العرب - السكان المحليين - وبين جنود صلاح الدين من الخيالة بحيث اتفق صلاح الدين مع هؤلاء البدو لقدرتهم على التظاهر بالهزيمة والضعف أمام العدو، وكذلك لسرعة اندفاعهم ولخفتهم⁽¹⁾، على أن يكمنوا في أي مكان بحيث لا يظهر منهم أحد، ويقوم فريق آخر بمهاجمة القافلة، وبينما ينشغل الصليبيون بمقاتلة أفراد المقاومة الشعبية والدفاع عن القافلة، يقوم الجنود بمباغتتهم والهجوم عليهم، وكأن صلاح الدين كان يعلم بأن مثل هذه الهجمات لا يقدر على القيام بها إلا من هو على علم بطبيعة المنطقة، وله مقدرة على التخفي والتستر، ويتصف بسرعة الحركة والخفة وهذا مما يتصف به السكان المحليون من أهل المناطق المحتلة الذين كرهوا الاحتلال الصليبي وسعوا للتخلص منه.

وكنتيجة للعملية الناجحة التي قام بها أفراد المقاومة الشعبية على طريق يافا في سنة 588هـ / 1192م - كما أسلفنا - فإن الصليبيين أدركوا أهمية إعادة النظر في حماية مثل هذه الطرق ولكن ليس على مستوى بناء القلاع والحصون كما كان في بداية عهدهم ببلاد الشام وهذا اتضح من خلال ما يرد حول قيام الصليبيين عام 588هـ / 1192م - أي في نفس العام الذي وقع فيه الهجوم على القافلة السابقة - بترتيب "جماعة على لد - مدينة اللد - يحفظون الطريق على من ينقلون الميرة - الأسلحة والأغذية"⁽²⁾.

وهذا يوضح تعرض طريق القوافل العسكرية الصليبية لضربات المقاومة الشعبية فكان من الضروري وضع حامية صليبية لتأمين تلك الطريق.

ومهما يكن من أمر فقد استمرت هجمات المقاومة الشعبية على الطرق الرئيسية، وظلت حماية هذه الطرق من أولويات المطالب الصليبية وقد اتضح ذلك من خلال بنود اتفاقية السلام التي وقعها الملك الكامل مع الامبراطور الألماني فريديريك الثاني في يافا⁽³⁾ في السابع والعشرين من جمادى الأولى عام 626هـ / 23 نيسان (إبريل) 1229م، والتي تضمنت

(1) ابن شداد، النوادر، ص 91، 108.

(2) المصدر السابق، ص 211.

(3) حول هذه الاتفاقية وما أحدثته من ضجة وردة فعل شعبية غاضبة انظر: سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج 8، ص 432. ابن الأثير، الكامل، ج 10، ص 481. ابن واصل، مفرج الكروب، ج 4، ص 241-246. ابن كثير، البداية والنهاية، ج 13، ص 123-124. ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، ص 244. أبو الفداء المختصر، ج 2، ص 240. المقرئ، السلوك، ج 1، ص 353-354. Grousset, Historire, Vol.3, p.344.

إقامة ما يسمى بالمر الأمن في عصرنا الحالي ما بين الساحل والقدس بحيث يكون للصليبيين " القرى التي فيما بين عكا وبين يافا، وبين القدس"⁽¹⁾ وقد علل ابن واصل اشتراط الصليبيين أخذ القرى والضياح الواقعة على الطريق إلى القدس بقوله " خوفاً أن يغتالهم أحد من المسلمين"⁽²⁾، وفي هذا التعليل ما يؤكد صحة ما ذهبنا إليه من أن هذا البند من الاتفاقية كان الهدف منه حماية الطريق من هجمات المقاومة الشعبية من السكان المحليين الذين يسكنون تلك القرى والضياح وعلى الرغم من هذه المعاهدة وما سبقها من بناء الصليبيين للعديد من التحصينات والقلاع فإن الهجمات التي كان يمارسها أفراد المقاومة الشعبية عبر الكمائن التي نصبت لتعرض الجيوش الصليبية وقوافل الحجاج لم تتوقف حتى زمن متأخر من الاحتلال الصليبي ففي سنة 682هـ / 1283م "خرج ملك الفرنج بقبرص"⁽³⁾ لقصده الساحل غازياً فرمته الريح إلى جهة بيروت فخرج منها وقصد الإغارة على تلك الجهات فكن له أهل جبل الخروب - قرب صيدا - وخرجوا عليه فقتلوا من أصحابه وأسروا ثمانين رجلاً، وأخذوا له شيئاً كثيراً من المال والخيل والبغال فركب في البحر وتوجه إلى صور ولم يلبث أن هلك وصارت روحه إلى جهنم وبئس المصير"⁽⁴⁾.

وإذا ما تركنا الحديث عن الطرق وما كانت تتعرض له من هجمات المقاومة الشعبية عبر نصب الكمائن على قارعة تلك الطرق وبين الكهوف والمغارات ومن خلال الغابات والأحراش فإنه مما يلفت الانتباه من خلال ما سبق أن نصب الكمائن ومهاجمة القوافل الصليبية من خلالها قد تركز بشكل كبير أثناء الحملة الصليبية الثالثة على عكا سنة

(1) المقرئزي، السلوك، ج1ص353. وانظر: ابن واصل، مفرج الكروب، ج4، ص241-242. ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، ص244. أبو الفداء، المختصر، ج2ص240. العليمي، الأنس الجليل، ج1ص406. وقد فضلنا أخذ النص من المقرئزي مع أنه متأخر عن ابن واصل - الذي عاصر والده الحدث - وأبو الفداء، لأن المقرئزي هو المؤرخ الوحيد من بينهم الذي قد ضمن مدينة يافا للطريق الذي يسلكه الصليبيين إلى القدس وهو الصواب، لأن الصليبيين لم يكن يصلوا إلى القدس - كما ذكرنا - من عكا إليها مباشرة بل كانوا ينزلون ميناء عكا ثم يصلوا إلى يافا ومنها إلى القدس وهذا ما لم يورده ابن واصل أو أبو الفداء وغيرهم. انظر: عن رحلة الحج التي يسلكها الحجاج ليصلها إلى القدس بالتفصيل لدى: الفيتري، تاريخ بيت المقدس، ص33. Phocas, Description of the Holyland, p.11، براور، الاستيطان، ص246. عوض، الرحالة، ص219.

(2) ابن واصل، مفرج الكروب، ج4، ص242. وقد ذكر بأن عدد هذه القرى أو الضياح هو عشرة. انظر: المصدر نفسه، ج5، ص246.

(3) صاحب قبرص في ذلك الوقت هو هيو الثالث أوزجان الذي حكم في الفترة من 1267-1284م.

(4) ابن الفرات، تاريخ، ج7، ص277. وانظر: العيني، عقد الجمان، ج2، ص302.

586هـ/1189م، وحتى قبل ذلك لدرجة جعلت مؤرخي تلك الفترة⁽¹⁾ يلجأون إلى تسمية بعض الكمائن "بوقعة الكمين" مع أنها ليست كذلك كما يبدو، لأن المقاومة الشعبية عندما كانت تقوم بعمل أي كمين لم تكن تقصد حدوث معركة لأن ذلك من اختصاص القوات النظامية، غير أنه تسميتها بالوقعة لم يأت من فراغ لأنه وكما ذكرنا سابقاً⁽²⁾ قد حدث أن الكمين تحول إلى معركة بعد تدخل الجيش النظامي الذي كان يسند مهمة الكمين إلى بعض أفراد المقاومة الشعبية⁽³⁾.

ومن أمثلة هذه الكمائن ما حدث في السادس عشر من شعبان عام 584هـ/العاشر من أكتوبر 1188م عندما علم المسلمون من أفراد المقاومة الشعبية بخروج "جمع من العدو يخرجون للاحتشاش من طرف النهر مما ينبت عليه فكمن لهم جماعة من العرب.. فخرجوا ولم يشعروا بهم فهجموا عليهم وقتلوا منهم خلقاً عظيماً وأسروا جماعة، وأحضروا رؤوساً عديدة بين يديه -السلطان صلاح الدين-"⁽⁴⁾.

ومعنى ذلك أن أفراد المقاومة الشعبية من العرب البدو كانوا يعملون تحت سمع وبصر السلطان الذي أسند إليهم مثل هذه المهمة الصعبة "خفتهم"⁽⁵⁾.

ولم تسلم الحملة الألمانية القادمة لنصرة الصليبيين المحاصرين لعكا من هجمات وضربات المقاومة الشعبية على طول الطريق الذي يقودهم شمال بلاد الشام إلى عكا، واتخذوا طريق الساحل مبتعدين عن طريق وسط بلاد الشام "خوفاً من أنه إذا أتى قائد الحملة ابن الملك فريدريك - على بلاد حلب وحماة ثار لهم المسلمون من كل جانب وقامت عليهم كلمة الحق من كل صوب ومع ذلك - كما يذكر ابن شداد- لم يسلموا من شن الغارات عليهم، ولم يزالوا سائرين وأيدي المسلمين تخطفهم من حولهم نهباً وقتلاً وأسراً حتى أتوا طرابلس"⁽⁶⁾، وذلك في الثامن من شعبان سنة 586هـ/العاشر من أيلول (سبتمبر) 1190م.

ومعنى ذلك أن جميع الطرق الشامية كانت تشكل خطراً حقيقياً بالنسبة للصليبيين الذين فقدوا الكثير من المدن والحصون بعد تحرير المسلمين لها على أثر انتصارهم في

(1) ابن شداد، النوادر، ص 84، 91، 193-194.

(2) انظر ما يلي.

(3) ابن شداد، النوادر، ص 84، 91، 208.

(4) ابن شداد، النوادر، ص 91. ابن واصل، مفرج الكروب، ج 2، ص 294. الحنبلي، شفاء القلوب، ص 167. العليمي، الأنس الجليل، ج 1، ص 359.

(5) ابن شداد، النوادر، ص 91.

(6) ابن شداد، النوادر، ص 121-122.

حطين سنة 583هـ/1187م وأصبحت تلك الطرق معبئة تعبئة جيدة من السكان المحليين الذين كانوا ينتظرون فرصة مرور أية قافلة عسكرية صليبية للانقضاض عليها. وكان بعض أفراد المقاومة الشعبية حول عكا "ربما يخنفون في الحشيش في أجراف الأنهار فإذا صادفوا فارساً ورد الماء فاجأوهم بالقتل والأسر"⁽¹⁾.

وبعد احتلال الصليبيين لعكا عام 587هـ/1191م وتقرير أمرها رحلوا قاصدين قيسارية وفي الطريق بين المدينتين هاجمهم أفراد المقاومة الشعبية وصاروا "يساورونهم - من المساورة بمعنى المناورة - ويتخطفون منهم"⁽²⁾. كما وحاول بعض أفراد المقاومة الشعبية اغتيال الملك الإنجليزي ريتشارد الذي أذاق المسلمين في عكا الويلات، فنصبوا له كمين وذلك في سنة 587هـ/1191م "وكان خرج في فوارسه فحفرها للحطابة والحشاشة، وكاد يؤخذ الملك، لكن فداه أحد خواصه بأن أحسن حسن لباسه فظن أنه الملك فأسر"⁽³⁾.

ونستخلص مما سبق مدى القدرة التي تمتع بها أفراد المقاومة الشعبية من خلال استغلالهم لطبيعة الأرض الشامية وعدم معرفة المحتل الصليبي لتلك الطبيعة فتراهم قد قعدوا للصليبيين في كل مرصد وهاجموهم من حيث لم يحتسبوا واستطاعوا من خلال هذا الأسلوب إحداث الكثير من الخسائر كما ذكرنا بل واستطاعوا إجبار الصليبيين على التفكير بكل الوسائل التي تمنع وقوعهم ضحية لكمانن المقاومة غير أنهم لم يقدروا على منعها نهائياً فلجأوا إلى المعاهدات السلمية ليحققوا ما لم يستطيعوا فرضه بالقوة بيد أن المقاومة الشعبية المحلية أفشلت كل مخططاتهم واستمرت على نهجها في الصمود والتحدي حتى تم تطهير بلاد الشام من الاحتلال الصليبي.

ثانياً:- المشاركة في فتوح القلاع والمدن:-

لم يقتصر دور الأهالي في بلاد الشام على مجرد الدفاع عن مدنهم وقراهم فقط بل تعدى دورهم إلى أكبر من ذلك، فقد كان للمقاومة الشعبية دورها في استرداد بعض القلاع والمدن التي خضعت للحكم الصليبي، فبعد الانتصار الذي تحقق في مرج عيون⁽⁴⁾ قوي عزم

(1) ابن واصل، مفرج الكروب، ج2، ص305.

(2) ابن أيوب، منتخبات، ص299.

(3) ابن واصل، مفرج الكروب، ج2، ص371. العليمي، الأُس الجليل، ج1، ص380.

(4) علم الملك بلدوين الثاني بتحركات صلاح الدين نحو حصن نيب الأخران فقرر مهاجمته بغته وفي أثناء تواجد صلاح الدين في منطقة البقاع وصله خبر الاستعدادات الصليبية لمهاجمته، وأن الصليبيين عازمون على قتاله، فتوجه إليهم والتفاهم قرب تل القاضي في سهل مرج عيون الثاني من محرم سنة 575هـ/في العاشر من يونيو حزيران عام 1179م ورغم عدم استعداد صلاح الدين لمواجهة الصليبيين مواجهة فعلية، إلا أنه استطاع

صلاح الدين على التوجه إلى حصن بيت الأحزان⁽¹⁾ وفتحه لذلك فقد أمضى الفترة من أوائل المحرم سنة 575هـ/حزيران يونيو 1179م أوائل ربيع الأول 575هـ/آب أغسطس 1179م بالاستعداد لهذا الأمر من استدعاء للمقاتلة وتجميع للمؤمن والذخائر⁽²⁾ ولما تمت الاستعدادات للحملة خرج صلاح الدين من دمشق على رأس جيش كبير اشتمل إلى جانب الجنود أعداداً كبيرة من المتطوعين⁽³⁾ الذين مثلوا المقاومة الشعبية، يوم الخامس من شهر ربيع الأول⁽⁴⁾ وتوجه نحو مخاضة بيت الأحزان وكان سير الجيش إلى الحدود بطيئاً جداً حتى يتمكن كل من أراد المشاركة ممن تأخر في الوصول إلى دمشق أو في الخروج منها، من اللحاق بالجيش، وحتى تصل أيضاً الآلات والمعدات الضرورية لعمليات الحصار، وقطعوا المسافة من دمشق إلى نهر الأردن وتوجه إلى الحصن فكان الوصول إلى أطراف منطقته يوم الثلاثاء 11 ربيع الأول 575هـ/16 آب أغسطس 1179م، وخيم صلاح الدين والجيش وأفراد المقاومة الشعبية حول الحصن من الجهتين الشمالية والغربية⁽⁵⁾، وبدأ

هزيمته = بفضل الله عز وجل، وتمكن من قتل وأسر عدد كبير من فرسانهم . انظر: العماد الأصفهاني، البرق الشامي، ج3ص161-172. الحموي، مضمار الحقائق، ص16-17. ابن الأثير، الكامل، ج10ص95. البنداري، سنا البرق، ص164-168. أبو شامة، الروضتين، ج3ص27-29. ابن واصل، مفرج الكروب، ج2ص76-79. الحنبلي، شفاء القلوب، ص116-117. ابن كثير، البداية والنهاية، ج12ص302.

(1) يقع حصن بيت الأحزان في منطقة مخاضة الأحزان وهي بلد بين دمشق والساحل وقد سمي بهذا الاسم لإعتقادهم بأنه كان مسكن سيدنا يعقوب عليه السلام أيام حزنه على سيدنا يوسف عليه السلام وقد أطلقت عليه بعض المصادر اسم مخاضة بيت الأضرار ، أما المصادر الفرنسية فقد أطلقت عليه اسم شاستيليت (Chastelet) ويقع هذا الحصن جنوبي بحيرة الحولة مباشرة وإلى الشمال من بحيرة طبرية، وبينه وبين دمشق مسافة يوم(اليوم يساوي بريدين والبريد يساوي 22.76كم) إذا اليوم هنا يساوي 44.352كم وبينه وبين طبرية وصفد نصف يوم (22.76كم ويرتفع 500م عن مستوى سطح البحر وقد بناه الصليبيون في جمادي الآخرة 574هـ/تشرين الأول 1178م، بلغ عرضه على حسب وصف القاضي الفاضل له مايزيد عن عشرة أذرع، للمزيد حول حصن بيت الأحزان انظر: العماد الأصفهاني، البرق الشامي، ج3، ص145. ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج1ص519. ابن الأثير، الكامل، ج10، ص95. البنداري، سنا البرق، ص158-159. أبو شامة، الروضتين، ج3ص19-21، 26، 42-44. ابن واصل، مفرج الكروب، ج2، ص72. ابن خلدون، العبر، ج5ص350. King, knight . Hospitalers, p. 109; Benvensit, the crusaders, p.303; Rey, les Colonies, p. 438 حصن الأحزان، ص41. الصوافي، القلاع، ص174-176.

(2) العماد الأصفهاني، البرق الشامي، ج3، ص175. الحموي، مضمار الحقائق، ص26. البنداري، سنا البرق، ص168-169. أبو شامة، الروضتين، ج3، ص36.

(3) العماد الأصفهاني، البرق الشامي، ج3، ص175.

(4) ابن الأثير، الكامل، ج10ص96. ابن واصل، مفرج الكروب، ج2، ص80.

(5) العماد الأصفهاني، البرق الشامي، ج3ص176-177. الحيارني، حصن بيت الأحزان، ص53.

الحصار وكان أول المبادرين بالهجوم على الحصن "شباب من العوام .. عليه قميص خلق وفي يده غضب⁽¹⁾ ودرق⁽²⁾ وهو بنار الحنق محترق"⁽³⁾ ويتضح من ذلك قوة اندفاع المقاومة الشعبية نحو التحرر، وبذل المستحيل للتخلص من نير المستعمر الصليبي بشتى الوسائل والسبل، وتوضح تلك الرواية مدى الحقد والحنق الذي يكنه أهالي الأرض المحتلة في بلاد الشام ضد الصليبيين فكان هذا الحقد والحنق الذي يحرق وجدانهم يدفعهم للمشاركة في أي عمل من شأنه أن يخلصهم من الاحتلال الصليبي.

وكان لاندفاع ذلك الشباب المقاوم دور كبير في حث باقي الأهالي والعساكر على الهجوم المكثف ضد الحصن "وأحاط الناس بالحائط"⁽⁴⁾ حتى سقط بأيدي المسلمين في 24 ربيع الأول 575هـ/ 30 آب (أغسطس) 1179م⁽⁵⁾ وتم أسر من فيه من الصليبيين وتخليص من فيه من أسرى المسلمين⁽⁶⁾ "وأكثر من أسر (من الصليبيين) قتله في الطريق الغزاة المطوعة والرعاع⁽⁷⁾ المجمع"⁽⁸⁾.

ونستخلص مما سبق النقطتين التاليتين: أولهما مشاركة أعداد كبيرة من المواطنين في فتح وهدم حصن بيت الأحزان وإن وصفوا بالرعاع، وأن هذا الوصف كما ورد في لسان العرب⁽⁹⁾، هو علم على الأحداث⁽¹⁰⁾ وليس رعاع الناس بمعنى سفلتهم وسقطاهم لأنه من غير المعقول أن يوصف من يقاوم المحتل بالساقط أو السافل؛ ولم تكن هذه المشاركة الواسعة من الناس في فتح وهدم الحصن دليلاً على دافعية الجهاد التي كانت تحرك مشاعر الناس كي

(1) الغضب: القطع، وهو السيف القاطع، انظر: ابن منظور، لسان العرب، ج1، ص609.

(2) الدرغ: نوع من التروس مفردها درقة تصنع من الجلود، لذلك لجأ المقاومون إلى مثل هذا النوع من التروس التي تشبه الدروع لحماية أنفسهم انظر: ابن منظور، لسان العرب، ج10، ص95.

(3) العماد الأصفهاني، البرق الشامي، ج3، ص178-179. وانظر: ابن الأثير، الكامل، ج10، ص96 وقد أكد على أن وجود أعداد كبيرة من أمثال ذلك الشباب الذين بادروا بالهجوم "ولحق بهم الجند" بمعنى أن عزيمة المقاومة الشعبية كانت أقوى وأحرص على التخلص من الصليبيين. انظر كذلك: البنداري، سنا البرق، ص169. ابن واصل، مفرج الكروب، ج2، ص81

(4) العماد الأصفهاني، البرق الشامي، ج3، ص178.

(5) المصدر نفسه، ج3، ص179.

(6) العماد الأصفهاني، البرق الشامي، ج3، ص180. أبو شامة، الروضتين، ج3، ص37.

(7) الرعاع: الأحداث، ورعاع الناس، سقطاهم وسفلتهم، انظر: ابن منظور، لسان العرب، ج8، ص128.

(8) العماد الأصفهاني، البرق الشامي، ج3، ص180. ابن الأثير، الكامل، ج10، ص96. البنداري، سنا البرق، ص170. أبو شامة، الروضتين، ج3، ص37. ابن واصل، مفرج الكروب، ج2، ص82

(9) ابن منظور، ج2، ص132-133 وقد أورد أن الرعاع هم الأحداث من الشباب في مقتبل العمر.

(10) الأحداث هم الشباب في مقتبل العمر. انظر: ابن منظور، لسان العرب، ج2، ص132-133.

يتخلصوا من الاحتلال الصليبي من خلال العمل على تقويض أركان هذا الاحتلال ومهاجمة مواقعه وأماكن تركزه فقط بل كانت تهدف أيضا إلى التخلص من هذه الحصون والقلاع هذا إذا ما علمنا أن مثل هذه الحصون والمواقع كان تشكل خطراً على المسلمين وتتغص عليهم معيشتهم وتضر بمصالحهم ، فحصن بيت الأحزان "كان على المسلمين منه ضررٌ عظيم" (1) بحكم موقعه ما بين دمشق وصفد وطبرية بحيث سيطر على المنطقة المعروفة اليوم بالجولان على الحدود السورية الأردنية الفلسطينية، وتمتعت هذه المنطقة بموقع استراتيجي هام ومميز نظراً لثرواتها الزراعية والمائية، كما أنها تميزت بموقع جغرافي لوقوعها على خط التجارة الدولية والمواصلات بين داخل بلاد الشام وسواحلها الجنوبية على البحر الأحمر (2) وتتحكم هذه المنطقة بثلاث طرق رئيسة (3)، قام الصليبيون بالسيطرة عليها وأسسوا فيها مجموعة من القلاع والحصون حيث اتخذوها كقواعد هجومية للتوسع وتضييق الخناق على الدمشقيين والإضرار بالمصالح التجارية لآلاف التجار، والمصالح الدينية للحجاج المارين بين دمشق وفلسطين (4)، ومن بين هذه الحصون التي أسست لذلك حصن بيت الأحزان كما ذكرنا.

ونستخلص مما سبق أن مشاركة السكان المحليين وأهالي دمشق في فتح حصن بيت الأحزان وغيره من الحصون والقلاع لم يكن من قبيل المصادفة ولكن ذلك كان ضمن حساباتهم التي تقضي بضرورة التخلص من الاحتلال الصليبي الذي يعطل مصالحهم ويستنزف ثرواتهم.

وما قيل حول الضرر الذي كان يسببه حصن بيت الأحزان للمسلمين ينطبق على

(1) أبو شامة، الروضتين، ج3، ص26.

(2) الحيارى، حصن بيت الأحزان، ص40. الصوافي، القلاع، ص174.

(3) يمر الطريق الأول عند قاعدة جبل الشيخ الجنوبية الشرقية بالقرب من مدينة بانياس ويستمر ماراً بوادي الحولة الشمالي حتى يصل إلى تبنين في جنوب لبنان ومنها إلى مدينة صور الساحلية والطريق الثاني يمر خلال القنيطرة قاطعاً شمال الأردن الحالي حتى يصل إلى مخاضة بيت الأحزان جنوب بحيرة الحولة حيث تبدأ الطريق بالتفرع واحدة إلى صفد والأخرى غرباً إلى عكا، أما الطريق الثالث فكان يجتاز هضبة الجولان ويعبر خسفين (من أعمال حورات إلى الشرق من طبريا) وعقبة فيق (بين دمشق وطبرية) ليجتاز نهر الأردن جنوب بحيرة طبرية حتى يصل إلى جسر الصنبرة ومنه إلى طبرية حتى يصل إلى عكا، ومن جسر الصنبرة يتفرع طريق آخر إلى الجنوب حتى يصل بيسان ومرج عامر. انظر حول هذه الطرق: الحيارى، حصن بيت الأحزان، ص40. غونمة، إمارة الكرك، ص344. الصوافي، القلاع، ص174-175. Benvensiti, the crusader's , p. 310-315.

(4) ابن جبير، الرحلة، ص66. وانظر: غونمة، إمارة الكرك، ص335. الصوافي، القلاع، ص175.

حصن عكار الذي " كان شديد الضرر على المسلمين"⁽¹⁾، أما حصن الأثارب فقد تخصص من فيه من الصليبيين بكثرة الإغارة والتخريب حول حلب⁽²⁾، فكان هذا الحصن "أضر شيء على أهل حلب"⁽³⁾ مما حدا بصاحب حلب⁽⁴⁾ إلى عقد هدنة مع الصليبيين "على أن يسلم الأثارب ويكفوا عن بلاده فأجابوه إلى ذلك"⁽⁵⁾، وبالفعل وافق بلدوين الثاني على ذلك وتم عقد الصلح في العاشر من صفر سنة 517هـ/1123م حيث تسلم الصليبيون الأثارب⁽⁶⁾ ومن ثم استقامت أحوال الرعية بأعمال حلب وجلبت إليها الأقوات⁽⁷⁾.

أما حصن بارين⁽⁸⁾ فإنه كان " من أضر بلاد الفرنج على المسلمين"⁽⁹⁾ لأن من فيه من الصليبيين كانوا دائمي التخريب والإغارة على البلاد الإسلامية الواقعة ما بين حماة وحلب حتى "تقطعت السبل"⁽¹⁰⁾ بالمسلمين في تلك المناطق⁽¹¹⁾.

وإذا ما تركنا شمال بلاد الشام وما كانت تسببه حصونه وقلاع الصليبية من أضرار للمسلمين جعلتهم ينتظرون اليوم الذي يتخلصون فيه من الاحتلال الصليبي مما حدا بهم إلى المشاركة في مهاجمة تلك الحصون والقلاع إلى جانب الجيوش الإسلامية بمشاركة الأهالي في فتح وهدم حصن بيت الأحزان يجعلنا نرجح احتمال مشاركة أهالي مدينة طرابلس وحلب في فتح عكار والأثارب وبارين.

ينقلنا ذلك للحديث عن حصن مهم وقلعة كبيرة كانت تراقب حركة القوافل التجارية

(1) العيني، عقد الجمان، ج2، ص77.

(2) ان الأثير، الكامل، ج9، ص221. ابن العديم، زبدة الحلب، ج2، ص198-199.

(3) أبو شامة، الروضتين، ج1، ص118.

(4) حاكم مدينة حلب في ذلك الوقت هو بدر الدولة سليمان بن عبد الجبار بن أرثق أحد حكام الأرافقة. انظر: ابن الأثير، الكامل، ج9، ص221. خليل، الإمارات، ص265.

(5) ابن الأثير، الكامل، نفس الجزء والصفحة.

(6) ابن القلانسي، الذيل، ص209. ابن الأثير، الكامل، ج9، ص221. ابن العديم، زبدة الحلب، ج2، ص210. وانظر: خليل، الإمارات، ص265-266.

(7) ابن القلانسي، الذيل، ص209. ابن الأثير، الكامل، ج9، ص221. وانظر: خليل، الإمارات، ص266.

(8) بارين أو بعيرين مدينة حسنة بين حلب وحماة من جهة الغرب. انظر: ياقوت، معجم البلدان، ج1، ص320-321.

(9) أبو شامة، الروضتين، ج1، ص131. وانظر: ابن قاضي شهبة، الكواكب الدرية، ص111.

(10) أبو شامة، الروضتين، ج1، ص131. وقد ذكر الكثير من الأمثلة على ذلك فقد ذكر بأن الطرق انقطعت إلى دمشق ولعل ذلك بسبب الممارسات الصليبية بحق الأهالي انظر: الروضتين، ج1، ص117. وانظر: ابن قاضي شهبة، الكواكب الدرية، ص111.

(11) وهذا يشبه ما فعله قوات الاحتلال الإسرائيلي اليوم من إغلاق للطرق وتقطيع لأوصال المناطق الفلسطينية المحتلة وما يترتب على ذلك من معاناة شديدة للفلسطينيين.

بين مصر والشام، وطريق الحج إلى الحجاز⁽¹⁾، ألا وهو حصن أو قلعة الكرك الذي وصفه ابن شداد⁽²⁾ بوصف لا يختلف عن وصف المؤرخين للحصون والقلاع السالفة الذكر حينما قال بأن حصن الكرك "كان على المسلمين منه ضررٌ - عظيمٌ" والحوادث التي تثبت هذا القول كثيرة، ولعل أشهرها ما فعله أرناط⁽³⁾ في نهاية العام 582هـ/1187م عندما قام بمهاجمة إحدى القوافل الإسلامية التي كانت في طريقها من مصر إلى الشام وقتل من فيها⁽⁴⁾، ونظراً لذلك فقد شارك الأهالي في مهاجمة هذا الحصن إلى جانب القوات الإسلامية عدة مرات في محاولة لهدمه وكف شره عن الناس وظل الأمر كذلك حتى تمكن المسلمون من فتحه سنة 548هـ/1188م⁽⁵⁾ ومن ضمن الغزوات التي شاركت فيها المقاومة الشعبية لفتح حصن الكرك تلك المحاولة اليائسة في 14 جمادي الأولى سنة 580هـ/23 أغسطس سنة 1184م⁽⁶⁾ والتي قام بها صلاح الدين ضد الحصن فحاصره وضيق الخناق عليه، لدرجة جعلته ينصب

(1) ابن شداد، النوادر، ص 53. أبو شامة، الروضتين، ج 2، ص 240، ج 3، ص 203. ابن جبير، الرحلة، ص 201. الشارترى، تاريخ الحملة، ص 157-158، 226. وانظر: غوانمة، إمارة الكرك، ص 62. دراسات، ص 44. Feddan, Crusader Castles. P.22. الصوافي، القلاع، ص 74-75.

(2) النوادر، ص 53. وانظر: أبو شامة، الروضتين، ج 3، ص 203.

(3) أرناط كما تسميه المصادر الإسلامية، أو رينالد دي شاتيون في المصادر اللاتينية حاكم الكرك، تزوج في بداية ظهوره على الساحة السياسية بكونستانس Constance أميرة أنطاكية فاحتل بذلك مكانة مرموقة حتى وقع في الأسر الإسلامي ففقد تلك المكانة وبعد إطلاق صراحه انتقل إلى إقطاعية نابلس حيث تزوج من ستيفاني ابنة فيليب دي ميللي سيد الإقطاعية، وبزوجه من ستيفاني أصبح سيداً على بارونية ماوراء نهر الأردن بما فيها الكرك والشوبك بعد وفاة والد ستيفاني وقد انصف بالمغامرة والإندفاع والجرأة والغدر مما جعل العماد الأصفهاني يقول في حقه أنه "أعذر الفرنجية وأخبثها وأفصحها عن الردي والرداءة وأبختها، وأنقضها للمواثيق المحكمة، و الأيمان المبرمة وأنكثها وأخبثها" أبو شامة، الروضتين، ج 2، ص 93-94، 400، 466، ج 3، ص 134، 274، 288، 296. وانظر عن أرناط: العماد الأصفهاني، البرق الشامي، ج 5، ص 69. الحموي، مضمار الحقائق، ص 60. ابن الأثير، الكامل، ج 10، ص 105، 142-143، 146. البنداري، سنا البرق، ص 289. بلدوين، اضمحلل، ص 265.

(4) حول هذه الحادثة ودورها في اندلاع معركة حطين انظر: ابن الأثير، الكامل، ج 10، ص 142. البنداري، سنا البرق، ص 289-290. أبو شامة، الروضتين، ج 3، ص 274-275. ابن واصل، مفرج الكروب، ج 2، ص 75. انظر: بلدوين، اضمحلل، ص 268. عبد القادر، سياسة صلاح الدين، ص 279-280. الصوافي، القلاع، ص 226.

(5) للإطلاع على محاولات صلاح الدين فتح حصن الكرك انظر: ابن شداد، النوادر، ص 50، 53، 59. العماد الأصفهاني، البرق الشامي، ج 5، ص 153. ابن الأثير، الكامل، ج 10، ص 105، 127. البنداري، سنا البرق، ص 243. ابن شداد الحلبي، الأعلام الخطيرة، ج 2، ص 70-73. العليمي، الأنس الجليل، ج 1، ص 317.

(6) ابن الأثير، الكامل، ج 10، ص 127.

تسعة مجانيق في جهة واحدة وهي جهة الباب، وتمكن بواسطتها من هدم السور المقابل لها⁽¹⁾ وبعد هدم هذا الجزء من السور بادرت المقاومة الشعبية بالهجوم على الحصن "وتسارع الناس إليه، وازدحموا عليه ولم يبق صغير ولا كبير إلا وهو مستبشر بالعمل... وقد تجاسروا حتى ازدحموا تحت القلعة كازدحامهم في المصلى"⁽²⁾ واشتد القتال حول الرّبض⁽³⁾، وتمكن المسلمون من الاستيلاء عليه، ولم يبق سوى الاستيلاء على الحصن ذاته، وكان يقع على قمة جبل إلا أنه بينه وبين الرّبض "خندقاً عظيماً عمقه ستون ذراعاً"⁽⁴⁾ فأمر صلاح الدين بردم الخندق على الرغم من أن ذلك كان عملاً شاقاً و "شرع الناس في طم الخندق"⁽⁵⁾ بالتراب⁽⁶⁾، غير أن عمق الخندق، وخشونة الأرض، ووصول بعض الإمدادات إلى الصليبيين المحاصرين في داخل الحصن⁽⁷⁾ جعلت صلاح الدين يترك الكرك متجهاً إلى نابلس بمن معه من القوات والأهالي "فسبى وسلب وغنم"⁽⁸⁾ وبعد ذلك اتجه إلى سبسطية⁽⁹⁾ وكان الناس قد تفرقوا في الشعاب والأودية [يتعقبون الصليبيين المذعورين]⁽¹⁰⁾ فلما تكامل جمعهم⁽¹¹⁾ قام بمهاجمة المدينة التي كانت تضم كنيسة⁽¹²⁾ عدداً من الرهبان والقساوسة الذين

(1) الحموي، مضمار الحقائق، ص 189. ابن شداد، النوادر، ص 53. ابن الأثير، الكامل، ج 10، ص 127. أبو شامة، الروضتين، ج 3، ص 206.

(2) أبو شامة، الروضتين، ج 3، ص 207. وانظر: البنداري، سنا البرق، ص 242.

(3) الرّبض: هو الفضاء حول المدينة. انظر: الرازي، مختار الصحاح، ص 97. ابن منظور، لسان العرب، ج 7، ص 152.

(4) ابن الأثير، الكامل، ج 10، ص 127. انظر: الحموي، مضمار الحقائق، ص 189. أبو شامة، الروضتين، ج 3، ص 207.

(5) أبو شامة، الروضتين، ج 3، ص 207.

(6) الحموي، مضمار الحقائق، ص 189.

(7) ابن جبير، الرحلة، ص 208. الحموي، مضمار الحقائق، ص 189. ابن شداد، النوادر، ص 53-54. ابن الأثير، الكامل، ج 10، ص 127-128. أبو شامة، الروضتين، ج 3، ص 206-208. ابن تغري بردي، النجوم، ج 6، ص 29.

(8) الحموي، مضمار الحقائق، ص 189. وانظر: ابن شداد، النوادر، ص 55. البنداري، سنا البرق، ص 244. ابن شداد الحلبي، الأعلام الخطيرة، ج 2، ص 72؛ الحلبي، شفاء القلوب، ص 127. المقرئ، السلوك، ج 1، ص 198.

(9) سبسطية: بلدة من نواحي فلسطين بينها وبين بيت المقدس يومان (نحو 42 ميل) وهي من أعمال نابلس. انظر: اليعقوبي، البلدان، ص 116. ياقوت، معجم البلدان، ج 3، ص 184. النابلسي، الحقيقة، مخطوط ورقة، (82). لى سترانج، فلسطين، ص 397-624، p. 17.

(10) Radulf, Imaginlabus Histuiarum, tome 115. انظر: البيشاي، نابلس، ص 115.

(11) مضمار الحقائق، ص 190.

(12) لم يكن في سبسطية قبل احتلالها من قبل الصليبيين كنيسة وإنما كان هناك قبر ومقام النبي زكريا عليه السلام =

طلبوا الأمان مقابل إطلاق ما بحوزتهم من أسرى المسلمين فأجابهم إلى ذلك⁽¹⁾.
وإذا كانت الحصون السالفة الذكر قد بناها الصليبيون لقطع الطريق على قوافل
التجار والحجاج، واعتراض طريق الأهالي فإن حصوناً أخرى قد أسست لأغراض مختلفة
عبرت عن سياسة الاحتلال الصليبي تجاه أصحاب الأرض، ومن هذه الحصون حصن الزيب
الذي هدف الصليبيون من إقامته جعله مركزاً لجمع الضرائب من سكان المنطقة المسلمين،
إضافة إلى هدفه في حماية وحراسة الطرق المؤدية إلى القدس⁽²⁾ من أي هجمات قد تشنها
المقاومة الشعبية ضد الحجاج القادمين من أوروبا فقد "كان في الزيب.... طائفة من
المسلمين... يقطعون الطريق على الفرنج"⁽³⁾.

ويتضح مما سبق أن مشاركة المقاومة الشعبية في فتح الحصون والقلاع جاء نتيجة لما كانت
تشكله هذه الأماكن من ضرر كبير يمس بحياتهم ويعكس عليهم صفو معيشتهم فكان لابد من
التخلص من تلك الحصون والقلاع التي زرعت على أرضهم.

وقد ساهم أهالي حارم⁽⁴⁾ في سنة 579هـ/1183م في تسليم مدينتهم إلى السلطان
صلاح الدين عندما علموا بأن حاكم المدينة هو أحد عملاء الصليبيين وقد كانتهم من أجل
تسليم المدينة لهم شريطة أن يعصموه من صلاح الدين، وعند ذلك قام الأهالي والجنود برصد
تحركات هذا الوالي المشبوهة واستغلوا خروجه في أحد الأيام "فوثب أهل القلعة لما خرج
وأغلقوا بابها ونادوا بشعار السلطان.... وشنعوا عليه بمكاتبة الفرنج، وقذفوه بالحجارة"⁽⁵⁾.
وعندما عزم صلاح الدين على استعادة بيت المقدس من الصليبيين في سنة

والذي حوله الصليبيون إلى كنيسة وجعلوها بالستانر وزينو المقام بالفضة وحددوا أوقات زيارته، وحصلوا على
هدايا وأموال كثيرة من الراغبين في هذه الزيارة إلى أن فتحها حسام الدين لاجين وخلص المقام من الصليبيين
وأمر بفتح أبوابه للمسلمين. انظر حول هذا المقام: العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص95. البنداري، سنا البرق،
ص303. الحموي، مضممار الحقائق، ص190. أبو شامة، الروضتين، ج3، ص208، 316.

(1) الحموي، مضممار الحقائق، ص190. ابن الأثير، الكامل، ج10، ص128. البنداري، سنا البرق، ص244. ابن
واصل، مفرج الكروب، ج2، ص159. ابن جبير، الرحلة، ص209.

(2) الصوافي، القلاع، ص219.

(3) أبو شامة، الروضتين، ج4، ص244. وانظر ما سبق في مبحث الكمانن.

(4) حارم: حصن حصين وكورة جبلية تجاه أنطاكية وهي من أعمال حلب، ياقوت، معجم، ج2، ص205.

(5) أبو شامة، الروضتين، ج3، ص173. وانظر: العماد الأصفهاني، البرق الشامي، ج5، ص124. ابن الأثير، الكامل،
ج10، ص122. البنداري، سنا البرق، ص123-124. ابن العديم، زبدة الحلب، ج3، ص70. وانظر: عبد القادر،
سياسة صلاح الدين، ص238.

583هـ/1187م "قصده العلماء والصالحون تطوعاً"⁽¹⁾ والعلماء والصالحون هنا من أفراد المقاومة الشعبية وقد وصف ابن شداد هذا الفتح ومدى مشاركة المقاومة الشعبية فيه بقوله بأن فتح القدس "كان فتوحاً عظيماً شهده من أهل العلم خلقاً عظيماً ومن أرباب الخرق"⁽²⁾ والخرق⁽³⁾ "ذلك أن الناس لما بلغهم ما يسر الله على يده-صلاح الدين- من فتوح الساحل وشاع قصده القدس فقصده العلماء من مصر والشام بحيث لم يتخلف معروف عن الحضور"⁽⁴⁾ ويتضح من الرواية السابقة مدى المشاركة الشعبية الواسعة في فتح مدينة القدس نظراً لأهميتها الدينية ومكانتها العظيمة في قلوب المسلمين في كل مكان، وتدل على مدى تعطش الشاميين للتخلص من الاحتلال الصليبي وانظارهم لليوم الذي يندحرون فيه عن بلادهم، وهذا ما دفعهم للمشاركة بأعداد كبيرة في الفتوحات التي صاحبت انتصار المسلمين في حطين.

واستكمالاً لمسيرة التحرير بعد الانتصار في حطين وصلت الجيوش الإسلامية يتبعها مجموعات المقاومة الشعبية إلى مدينة انطرطوس في السادس من جمادى الأولى عام 584هـ/ الموافق الثالث من تموز (يوليو) 1188م وأحدقوا بها "من البحر إلى البحر"⁽⁵⁾ ثم أمر صلاح الدين جنوده ومن معهم من "الناس بالزحف والقتال... فما استتم نصب الخيم حتى صعد الناس السور، وأخذوها بالسيف، وغنم العسكر جميع من بها، وخرج الناس"⁽⁶⁾ ومعهم الأسرى والأموال⁽⁷⁾.

وبهذا ساهمت المقاومة الشعبية في فتح انطرطوس ودليل ذلك فصل ابن شداد وأبو شامة وابن واصل في حديثهم عن فتح المدينة بين العسكر والناس، فلو كان العسكر هم أنفسهم الناس لكان من الأسهل على هؤلاء المؤرخين أن يقولوا ، وغنم العسكر جميع من بها وخرجوا ومعهم الأسرى والأموال، ولكن عطف الناس على العسكر دل دلالة واضحة على

(1) ابن كثير، البداية والنهاية، ج12، ص322.

(2) الخرق: يعني الصوفية، والخرقة التي يلبسونها رمز للإرتباط بين الشيخ والمريد. انظر: الحفني، معجم المصطلحات، ص89.

(3) الخرق: ذكر الزبيق محقق كتاب الروضتين بأنها يمكن أن يكون المقصود بها المتطوعة. انظر: أبو شامة، الروضتين، ج3، ص331هامش(5).

(4) ابن شداد، النوادر، ص66. انظر: أبو شامة، الروضتين، ج3، ص331.

(5) العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص228.

(6) ابن شداد، النوادر، ص71. وانظر: أبو شامة، الروضتين، ج4، ص61. ابن واصل، مفرج الكروب، ج2، ص256.

(7) ابن واصل، مفرج الكروب، ج2، ص256.

مشاركة شعبية في فتح المدينة⁽¹⁾.

وصلت الجيوش الإسلامية أصحابها مجموعات المقاومة الشعبية إلى جبلة في الثامن عشر من جمادى الأولى 584هـ/الخامس عشر من تموز (يوليو) 1188م⁽²⁾ التي استطاع من بها من المسلمين السيطرة على الوضع بمساعدة قاضي المدينة⁽³⁾، أما الصليبيون فقد اعتصموا بقلعة المدينة خشية من المسلمين⁽⁴⁾ "فما أن تم نزول العسكر حتى تسلم البلد، سلمها إليه قاضيها وأهلها، وكانوا مسلمين تحت يد الفرنج، فعملوا عليها وسلموها"⁽⁵⁾ ولم ينزل الصليبيون من القلعة إلا بوساطة من قاضي جبلة الذي استطاع إقناعهم بتسليم القلعة بالأمان، بحيث لا يتركهم إلا بعد أن يسلم الصليبيون الذين بأنطاكية "رهائن جبلة من المسلمين"⁽⁶⁾ وبذلك تكون المقاومة الشعبية قد ساهمت أيضاً في تسليم مدينة جبلة إلى المسلمين بعد أن ثاروا على محتليهم من الصليبيين عندما علموا بانتصار المسلمين في حطين عام 583هـ/1187م.

وفي الرابع والعشرين من نفس الشهر جمادى الأولى 584هـ/الحادي والعشرين من تموز (يوليو) 1188م زحف صلاح الدين بجيشه نحو مدينة اللاذقية فقام بمن معه من الجيش والأهالي بحصار المدينة "من جميع نواحيها إلا من ناحية البلد"⁽⁷⁾، وبدأوا بنقب السور، واشتد القتال حول المدينة، واشتد الزحف على السور خاصة من مجموعات المقاومة الشعبية "حتى صعد الناس الجبل، وقاربوا السور، وتواصل القتال حتى صاروا يتحازفون بحجارة اليد"⁽⁸⁾ مما حدا بأهل المدينة من الصليبيين إلى طلب الأمان، الأمر الذي رفضه المسلمون، فاستغاث الصليبيون بقاضي جبلة الذي كان يرافق الجيش الصلاحي ومعه مجموعات من المقاومة

(1) انظر: مثلاً ما ذكر حول وصول قبائل العربان وقاضي جبلة ومعه جماعة من أهل جبلة إلى صلاح الدين قبل وصوله إلى انطرطوس ثم جبلة وبكسرايل واللاذقية وغيرها من المدن، وما قام به صلاح الدين من غارات سريعة مع تلك القبائل على حصن الحصن وصافينا والعزيمة، وفتحهم لحصن يحمور في الشمال بالقرب من حصن الأكراد، انظر: العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص 219-228. أبو شامة، الروضتين، ج 4، ص 14 وهو يبدأ بالحديث عن فتح انطرطوس في ص 15 من نفس الجزء.

(2) ابن شداد، النوادر، ص 72. ابن الأثير، الكامل، ج 10، ص 168. أبو شامة، الروضتين، ج 4، ص 17.

(3) كان يدعى منصور بن نبيل

(4) ابن الأثير، الكامل، ج 10، ص 168. أبو شامة، الروضتين، ج 4، ص 14، 19.

(5) ابن العديم، زبدة الحلب، ج 3، ص 75.

(6) أبو شامة، الروضتين، ج 4، ص 19. وانظر: العلمي، الأنس الجليل، ج 1، ص 352.

(7) ابن شداد، النوادر، ص 73. أبو شامة، الروضتين، ج 4، ص 20.

(8) ابن شداد، النوادر، ص 73. انظر: أبو شامة، الروضتين، ج 4، ص 21.

الشعبية، "ودخل قاضي جبلة إليهم، واستقر الحال معهم على أن يطلقون بأنفسهم وذريتهم ونسائهم وأموالهم خلا -عدا- الغلال والذخائر والآلات والسلاح والدواب"⁽¹⁾.

وفي السادس والعشرين من جمادى الآخرة 584هـ/الثالث والعشرين من تموز (يوليو) 1188م حاصر المسلمون من العساكر ومجموعات المقاومة الشعبية حصن برزويه⁽²⁾ واشتد القتال حتى "ضرس - تعب - الناس من القتال"⁽³⁾ فصاح بهم صلاح الدين يشجعهم على القتال والمقاومة "فحملوا حملة الرجل الواحد... وقصدوا السور من كل جانب، فلم يكن إلا بعض ساعة حتى رقى الناس على الأسوار، وهجموا القلعة، وأخذت عنوة"⁽⁴⁾ وطلب من فيها من الصليبيين الأمان فأجابهم السلطان إلى ذلك⁽⁵⁾.

ولم تأت مشاركة الأهالي ومجموعات المقاومة الشعبية في فتح هذه القلعة من قبيل المصادفة بل إن مشاركتهم كانت تهدف إلى التخلص من تلك القلعة التي طالما سببت لهم الضرر مما جعل "المسلمين في جوارها في جور، وفي حور بعد كور"⁽⁶⁾⁽⁷⁾ على حد قول العماد الأصفهاني.

وفي عام 588هـ/ 1191م ساهمت مجموعات المقاومة الشعبية إلى جانب الجيش الإسلامي في فتح مدينة يافا المحتلة، وفرض الحصار على المدينة ثم أمر صلاح الدين "الناس فزحفوا وضايقوا القوم مضايقة عظيمة.... ولم يزالوا يقاتلون خارج الأبواب أعظم قتال حتى فصل الليل"⁽⁸⁾ بينهم ثم عاودوا القتال في الصباح "ودخل الناس البلد عنوة ونهبوا ما فيه"⁽⁹⁾ من الغنائم والأثاث.

والواضح أن مجموعات المقاومة الشعبية قد نشطت إلى جانب الجيش الأيوبي وقد ظهر ذلك من خلال مشاركتهم الكبيرة في فتح العديد من المدن والقلاع والحصون الإسلامية

(1) ابن شداد، النوادر، ص73. وانظر: أبو شامة، الروضتين، ج4، ص21.

(2) برزويه والعامية نقول برزويه حصن قرب السواحل الشامية على سن جبل شاهق يضرب بها المثل في جميع بلاد الأفرنج بالحصانة تحيط بها أودية من جميع جوانبها. ياقوت، معجم، ج1، ص383.

(3) ابن شداد، النوادر، ص76. أبو شامة، الروضتين، ج4، ص32.

(4) ابن شداد، النوادر، ص76. أبو شامة، الروضتين، ج4، ص33.

(5) المصدرين السابقين.

(6) في حور بعد كور: أي في فساد بعد اصلاح. انظر ابن منظور، اللسان، مادة حور.

(7) الفتح القسي، ص248. وانظر: أبو شامة، الروضتين، ج4، ص35.

(8) ابن شداد، النوادر، ص222.

(9) ابن شداد، النوادر، ص223. وانظر: ابن واصل، مفرج الكروب، ج2، ص395.

التي كانت تزرع تحت الاحتلال الصليبي، وكان لانتصار الجيش الإسلامي في حطين دوراً كبيراً ودافع قوي لثورة أهالي المدن المحتلة على محتليهم من الصليبيين كما بينا ذلك في نابلس وجبلة وغيرها من المدن التي لم يكن على الجيش الأيوبي إلا أن يتسلمها من أهلها ليعلن تبعيتها للدولة الأيوبية.

ولم يكن العصر الأيوبي وحده العصر الذي نشطت فيه المقاومة الشعبية فقط، فقد شهدت دولة المماليك بشقيها البحري والشركسي نشاطاً واسعاً خاصة بعدما بدأ سلاطين المماليك جهادهم ضد الصليبيين، وشرعوا في طرد بقاياهم من المدن التي كانت لا تزال في قبضتهم، ويبدو أن هذا النشاط الجهادي والذي سنستعرضه لاحقاً كان نتيجة صحوة ووعي كبيرين تشربت به نفوس الأهالي في بلاد الشام، ورأوا أنه حان الوقت لتطهير بلادهم من الشرزمة الباقية من المحتلين الصليبيين.

كان السلطان الظاهر بيبرس (658-676هـ/1260-1277م) هو أول السلاطين المماليك الذين بدأوا جهادهم ضد الصليبيين، فمع بداية عهده بدأ الوجود الصليبي يتلاشى رويداً رويداً من بلاد الشام وذلك ابتداءً من سنة 658هـ/1261م⁽¹⁾.

وفي سنة 661هـ/1263م شرع في عملياته العسكرية ضد مدن الساحل الصليبية فهاجم مدينة عكا المحتلة، وأحاط بها من ناحية البر، وندب فرقة من عسكره لمحاصرة أحد أبراجها الهامة فشرعوا في نقبه، واستمر السلطان في حصار المدينة إلى قريب المغرب، وكان قصده من ذلك الهجوم، كشف المدينة التي كان الصليبيون يزعمون أن أحداً لا يستطيع الاقتراب منها لحصانتها، وفي صباح اليوم الثاني نظم المسلمون هجوماً آخرأ أقوى على مدينة عكا، فوجدوا أن الصليبيين قد حفرُوا خندقاً حول المدينة، ووقفوا صفاً واحداً، فلما أشرف عليهم السلطان بيبرس رتب عسكره وأخذت مجموعات المقاومة الشعبية في التهليل والتكبير، والسلاطين يحثهم على الإكثار من ذلك حتى ارتفعت أصواتهم، ثم أمر غلمان العساكر، ومن حضر معه من مجموعات المقاومة الشعبية التي كانت تشمل ما أطلق عليهم "الفقراء المجاهدون" بردم الخنادق، ثم امتدت أيدي المسلمين من العساكر والمقاومة الشعبية إلى ما حول عكا، فهدموا الأبراج وأحرقوا الأشجار حتى انعقد الجو من دخانها ثم استغلوا ذلك وتقدموا إلى الأبواب وهاجموا بضراوة من وجدوا عليها من الجنود الصليبيين، وبات المسلمون ليلتهم على ذلك، ولما أصبحوا عاودوا الهجوم على المدينة حتى كشفوها ثم

(1) ابن تغري بردي، النجوم، ج7، ص148-149. وانظر: الغامدي، جهاد المماليك، ص162-163. قاسم، ماهية الحروب، ص166.

انسحبوا. (1)

وينضح مما سبق مشاركة المقاومة الشعبية في الإغارة على مدينة عكا ومحاولة فتحها وتمثلت مجموعات المقاومة الشعبية التي شاركت في هذا الهجوم بما أطلق عليهم المؤرخون⁽²⁾ "الفقراء المجاهدون"، وقد أسند إليهم مهمات تتواءم مع مقدرتهم العسكرية كردم الخنادق والعبث والتخريب والحرق لممتلكات الصليبيين وما يحيط بالمدينة من أشجار وهذا يدل على معرفة السلطان بقلّة خبرة هؤلاء المقاومين العسكرية، ولأن مثل تلك الأعمال التي قام بها أفراد المقاومة الشعبية ليست من المهام الرسمية للجند المدربين على مواجهة الجيوش المعادية في ساحات المعارك وعلى اقتحام المدن، لهذا فإنه لم يشركهم في عمليات الاقتحام الكبرى كما سنرى، بل أسند إليهم كما ذكرنا مهمات التخريب والتحريق وسيسند إليهم خلال الفتوح القادمة جر المجانيق وهدم الأسوار.

على الرغم مما قام به الظاهر بيبرس من تأديب للصليبيين في عكا، فإن الصليبيين قاموا في رمضان من سنة 662هـ/تموز (يوليو) 1264م بالإغارة على المناطق المجاورة لمدينة يافا، فكان ذلك دافعاً لبيبرس على إصدار أوامره للجيوش الإسلامية بمهاجمة قيسارية⁽³⁾.

وبالفعل بدأ المسلمون بشن هجوم شامل على المدينة في التاسع من جمادى الأولى سنة 663هـ/السابع والعشرون من شباط (فبراير) 1265م، وأمر بيبرس بإحضار المنجنيقات والصلالم والتي يبدو أن الأهالي قد ساهموا بجرها، وأمر السلطان جيوشه بالتقدم وفرض الحصار عليها، وردم خنادقها وخرّب أسوارها⁽⁴⁾، واندفعت مجموعات المقاومة الشعبية مقتحمة للأسوار و"ألقي الناس أنفسهم في خندقها"⁽⁵⁾، وفي الوقت نفسه تمكنت المنجنيقات من خرق الأبواب فاندفعت تلك الجموع الفقيرة إلى الداخل، ولجأ من بداخل المدينة من الصليبيين إلى قلعتها التي كانت تعرف بالخضراء وهي القلاع وأحسنها، وزحف المسلمون عليها

(1) بيبرس الدوادر، زبدة الفكرة، ج9، حوادث سنة 661هـ. ابن شداد الحلبي، تاريخ الظاهر بيبرس، ج2، ورقة 257-258. شافع بن علي، حسن المناقب، ص75. النويري، نهاية الأرب، ج28، ص79. العيني، عقد الجمان، ج1، ص356. وانظر: الغامدي، جهاد المماليك، ص167-168.

(2) المصدر نفسه.

(3) ابن عبد الظاهر، الروض الزاهرة، ص200. المقرئزي، السلوك، ج2، ص19. شافع بن علي، حسن المناقب، ص78. القلقشندي، صبح الأعشى، ج3، ص243. وانظر: الغامدي، جهاد المماليك، ص169.

(4) ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص230-231. اليونيني، ذيل مرآة الزمان، ج2، ص318-319. شافع بن علي، حسن المناقب، ص88. العيني، عقد الجمان، ج1، ص396. ابن العماد، شذرات الذهب، ج3، ص312.

(5) المقرئزي، السلوك، ج2، ص19.

بالمجنقيات والدبابات ورشقوها بالسهام، واستمروا في حصارها وضربها إلى منتصف جمادى الأولى/الخامس من آذار (مارس)، حيث شعر من بداخل القلعة بعجزهم عن الاستمرار في الدفاع عنها، فسلموها للمسلمين بما فيها من المؤن والعتاد، فدخلها المسلمون من أعلاها وأسفلها بتسلق أسوارها وخرق أبوابها وأذنوا لصلاة الصبح عليها⁽¹⁾.

وهكذا أسهمت مجموعات المقاومة الشعبية التي أطلق عليها المقريزي⁽²⁾ اسم الناس إسهاماً كبيراً في مساعدة الجيش الإسلامي في اقتحام وفتح مدينة قيسارية.

وفي التاسع والعشرين من جمادى الأولى من نفس العام/الموافق التاسع عشر من آذار (مارس) رحل الظاهر بيبرس من قيسارية وسار إلى أرسوف لفتحها وقد اصطحب معه مجموعات من المقاومة الشعبية والتي كانت تشتمل على "جمع كبير من العباد والزهاد والفقهاء وأصناف الناس"⁽³⁾ وحتى النساء واللاتي أسند إليهن مهمة إسعاف الجرحى وسقاية الجنود والمقاومين في وسط القتال⁽⁴⁾.

وقد نزل المسلمون على المدينة في مستهل جمادى الآخرة سنة 636هـ/الحادي والعشرين من آذار (مارس) 1265م، وفرضوا الحصار عليها وبدأوا بصناعة آلات الحصار من الأخشاب المحيطة بالمدينة، ثم شرعوا في ردم الخنادق حول المدينة، ولما أتم المسلمون ذلك العمل زحفوا على المدينة وذلك في ثاني رجب، ولم يشعر الصليبيون إلا بالمسلمين قد تسلقوا الأسوار ونزلوا إلى داخل المدينة، وأحرقوا أبوابها، ثم تدافعوا إلى وسط البلد وصعدوا إلى القلعة، ورفعوا الأعلام الإسلامية إيذاناً بسقوط أرسوف⁽⁵⁾.

وقد كافأ السلطان مجموعات المقاومة الشعبية على جهودهم في هذا الفتح المبارك

(1) عن هذا الفتح المبارك، انظر بالتفصيل: ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص 230-231. اليونيني، ذيل مرآة الزمان، ج 2 ص 318-319. شافع بن علي، حسن المناقب، ص 78. أبو شامة، الذيل على الروضتين، ص 233. القلقشندي، صبح الأعشى، ج 4، ص 184. ابن كثير، البداية والنهاية، ج 13، ص 244. ابن أبيك، الدرّة الزكية، ج 8، ص 107. ابن العماد، شذرات الذهب، ج 3، ص 312. وانظر: الغامدي، جهاد المماليك، ص 169-170. قاسم، ماهية الحروب، ص 166

(2) السلوك، ج 2، ص 19.

(3) المقريزي، السلوك، ج 2 ص 21.

(4) المصدر نفسه. وانظر ما سبق الفصل الثالث.

(5) ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص 235-239. ابن كثير، البداية والنهاية، ج 13، ص 244-245. أبو شامة، الذيل على الروضتين، ص 234. المقريزي، السلوك، ج 2، ص 20-21. ابن أبيك، الدرّة الزكية، ج 8، ص 107. شافع بن علي، حسن المناقب، ص 89-90. العيني، عقد الجمان، ص 397. ابن العماد، شذرات الذهب، ج 3، ص 312. وانظر: الغامدي، جهاد المماليك، ص 171.

وأطلق "الرواتب من الأغنام وغيرها لجماعة من الصلحاء"⁽¹⁾ الذين جاهدوا بأنفسهم وأموالهم في سبيل الله.

واستكمالاً لسياسة الظاهر ببيرس القاضية بتحرير المدن المحتلة من الصليبيين سار بجيوشه التي تبعتها مجموعات من المقاومة الشعبية إلى صفد ووصلوا إليها في التاسع عشر من رمضان سنة 664هـ/1266م؛ وقد أبدت مجموعات المقاومة الشعبية بشكل خاص شجاعة فائقة خلال مهاجمتها لصفد وقاتلوا عليها قتالاً عظيماً استشهد فيه جماعة، وكان الواحد من المسلمين إذ قُتل جرّه رفيقة ووقف موضعه"⁽²⁾ وقد جرح عدد كبير " من العربان والفقهاء والفقراء وغيرهم"⁽³⁾ من مجموعات المقاومة الشعبية فكان يتم علاجهم في خيمة خاصة ضمت مجموعات من الأطباء الجراحين"⁽⁴⁾، وقد اعترف السلطان بجهود المقاومة الشعبية في فتح مدينة صفد، فبعد الانتهاء من فتح المدينة "حضر إليه الناس، فشكر اجتهادهم"⁽⁵⁾ وخاصة بعد أن تخاذل عدد كبير من الأمراء عن المشاركة في فتح المدينة فأرسل السلطان إليهم وعاتبهم قائلاً لهم: " المسلمون على هذه الصورة - يعني من الجهاد والمقاومة- وأنتم تستريحون؟"⁽⁶⁾ لذلك "قبض السلطان على نيف وأربعين أميراً، وقيدهم وسجنهم"⁽⁷⁾ عقاباً لهم على تخاذلهم وتقاعدتهم عن الجهاد والمقاومة.

وفي رمضان 666هـ/مايو (أيار) 1268م زحف السلطان ببيرس بقواته التي رافقتها مجموعات من المقاومة الشعبية وحاصر مدينة أنطاكية من كل جانب، وقاتلها المسلمون قتالاً شديداً، ثم تسلقوا الأسوار من جهة الجبل بالقرب من القلعة، ونزلوا داخل المدينة حتى لا يفر منها أحد، واجتمع بالقلعة عدد كبير من الصليبيين المقاتلين غير النساء والأطفال، وكانت القلعة ضيقة فتزاحم الصليبيون بها وشح عليهم الماء وقلت الأموال، وفي الليل هرب ثلاثة من كبار الصليبيين فقت ذلك من عضد الصليبيين وخارت قواهم فبعثوا إلى السلطان يعلنون استسلامهم ويطلبون منه الأمان من القتل على أن يؤخذوا أسرى، فقبل السلطان ذلك ودخل

(1) المقرئزي، السلوك، ج2، ص21.

(2) المصدر نفسه، ج2، ص34.

(3) المصدر نفسه، انظر ما سبق الفصل الثالث.

(4) المصدر نفسه، ج2، ص34.

(5) المقرئزي، السلوك، ج2، ص34.

(6) المصدر نفسه، ج2، ص34.

(7) المقرئزي، السلوك، ج2، ص34. وانظر أيضاً عن فتح مدينة صفد: ابن عبد الظاهر، الروض الزاهرة، ص245-

260. ابن كثير، البداية والنهاية، ج13، ص246-247. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج7، ص138-139. ابن

إياس، بدائع الزهور، ج1، ق1، ص325. ابن العماد، شذرات الذهب، ج3، ص314. الحريري، الإعلام، ص101.

المسلمون المدينة فاتحين و"أحضر الناس الأموال والمصاغ والذهب والفضة حتى صارت تلاً بها وقسمت في الناس"⁽¹⁾.

وفي العاشر من محرم سنة 688هـ/الثالث من شباط(فبراير) 1289م قرر السلطان المنصور قلاوون⁽²⁾ مهاجمة إمارة طرابلس الصليبية وتحريرها من الاحتلال الصليبي، ومن أجل تحقيق هذه الرغبة أعلن السلطان النفير العام في جميع بلاد الشام، وبعد أن تكاملت أعداد الجيش الإسلامي خرج المسلمون من دمشق "ونزل السلطان على طرابلس وصحبته خلق كثير من المتطوعة.... وخلق من المقدسة وغيرهم"⁽³⁾ الذين يمثلون كما هو واضح المقاومة الشعبية التي لبت نداء الجهاد وخرجت مع الجيوش الإسلامية متجهة صوب المدينة المحتلة، ونلاحظ هنا المشاركة الشعبية الكبيرة في هذا الفتح ليشمل بعض الأهالي من مدينة القدس التي طالما قدمت المجاهدين والشهداء.

وصل السلطان قلاوون بقواته إلى مشارف طرابلس، ولم يلق في طريقه أية مقاومة تذكر، فقد آثر الصليبيون التحصن خلف أسوار المدينة، ونزل الجيش ومجموعات المقاومة الشعبية على سفح مرتفع أشرفوا من خلاله على المدينة، وشرعوا في محاصرتها من الجهة الشرقية، ونظراً لكون المدينة محاطة من بقية الجهات بالبحر "وليس عليها قتال في البر إلا من جهة الشرق وهو مقدار قليل"⁽⁴⁾، فقد عمد السلطان قلاوون إلى نصب مزيد من المنجنيقات بلغت تسعة عشر منجنيقاً، وبدأ الرمي على المدينة في حين واصل باقي المسلمين عملهم في النقب حتى تمكنوا من فتح ثغرات في سور المدينة الشرقي⁽⁵⁾ واستمر الحال على

(1) المقرئزي، السلوك، ج2، ص50. وانظر عن فتح أنطاكية: ابن عبد الظاهر، الروض الزاهرة، ص307-309؛ اليونيني، ذيل مرآة الزمان، ج2، ص381-382. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج7، ص143. ابن كثير، البداية والنهاية، ج13، ص252. النواداري، الدرر الزكية، ص126-127. شافع بن علي، حسن المناقب، ص127-128. ابن إياس، بدائع الزهور، ج1، ص330. العيني، عقد الزمان، ج2، ص21-23. ابن العماد، شذرات الذهب، ج3، ص321-322. النويري، نهاية الأرب، ج8، ص94-96. وانظر: الغامدي، جهاد المماليك، ص189-190.

(2) الملك المنصور قلاوون (سيف الدين، أبو المعالي) الألفي العلاني الصالحي النجمي، سابع من تسلطن بمصر والشام من المماليك البحرية الأتراك ولد سنة (620هـ/1223م) وتولى سنة (678هـ/1279م) توفي سنة(689هـ/1290م) انظر: ترجمته ابن كثير، البداية والنهاية، ج13، ص317. الكتبي، فوات الوفيات، =ج3، ص203. ابن إياس، بدائع الزهور، ج1، ص1، ص347. الشهابي، معجم، ص164.

(3) ابن كثير، البداية والنهاية، ج13، ص313. وانظر: العيني، عقد الجمان، ج2، ص380. تدمري، تاريخ طرابلس، ص582-583. عاشور، الحركة الصليبية، ج2، ص1174.

(4) أبو الفداء، المختصر، ج2، ص316.

(5) ابن كثير، البداية والنهاية، ج13، ص313. ابن الفرات، تاريخ، ج8، ص80.

ذلك، وضايق المسلمون المدينة مضايقة شديدة إلى أن تمكنت قذائف المنجنيفات من هدم برج كبير للصليبيين في الركن الجنوبي الشرقي من السور، وكذلك برج الأسبترارية الممتد إلى البحر، وأمام هذا الحصار الشديد أدرك معظم من بداخل المدينة أنه لاجدوى من المقاومة، واستغل قلاوون ما حل بالصليبيين فشن هجوماً قوياً عليها، ووجد المسلمون طريقاً إلى الداخل عبر السور الشرقي المتهم، ولما رأى الصليبيون عجز موقفهم بادروا بالهرب فتبعهم المسلمون حتى لحقوا بهم، وحدث أن جماعة من الصليبيين حاولوا النجاة بأنفسهم واستغلوا مركباً في البحر فألقتهم الرياح إلى الساحل فظفر بهم بعض أفراد المقاومة الشعبية الذين كانوا يتربصون بالصليبيين الدوائر، وقتلوا وأسروا عدداً كبيراً وغنموا منهم غنائم كثيرة⁽¹⁾ وقد أحدث سقوط مدينة طرابلس دويماً هائلاً خفقت له قلوب المسلمين بعد أن أرسلت البشائر بذلك الفتح العظيم إلى كافة الآفاق الإسلامية فزينت المدن، وسر الناس والأهالي في بلاد الشام بهذا النصر سروراً عظيماً وتبارى الخطباء والشعراء في وصفه والتهنئة به⁽²⁾.

صدم الصليبيون لما حدث لهم في طرابلس فقرروا الانتقام من المسلمين بأي طريقة كانت حيث وصلت مجموعة السفن الإيطالية المحملة بالصليبيين إلى عكا في السنة التالية لسقوط طرابلس وعبروا عن حماسهم الصليبية بطريقتهم الهمجية المعتادة فهاجموا المسلمين وقتلوا عدداً من التجار المسلمين الذين اعتادوا دخول عكا لأغراض تجارية منذ زمن بعيد⁽³⁾ "فغضب السلطان"⁽⁴⁾ وبدأ يعد جيشه للخروج وتأييد الصليبيين في عكا غير أن المنية وافته في ذي القعدة 689هـ/تشرين ثان (نوفمبر) 1290م⁽⁵⁾.

وبعد أن تسلّم الملك الأشرف خليل بن قلاوون⁽⁶⁾ السلطنة ونظم أمور دولته، شرع في

(1) ابن الفرات، تاريخ، ج8، ص80. العيني، عقد الجمان، ج2، ص381. النويري، نهاية الأرب، ج29، ص13.

وانظر: تدمري، تاريخ طرابلس، ص586-587. الغامدي، جهاد المماليك، ص267-268.

(2) انظر: على سبيل المثال لا الحصر: ابن عبد الظاهر، تشریف الأيام، ص180-182. الكتبي، عيون السوارب، ج12، ص2-6. العيني، عقد الجمان، ج2، ص383-385: الدواداري، الدرّة الزكية، ج8، ص87 وما بعدها. تدمري، تاريخ طرابلس، الملاحق..

(3) المقرئزي، السلوك، ج2، ص216. العيني، عقد الجمان ج3، ص10. أما الحريري فقد جانبه الصواب حين ذكر أن هذا الحادث وقع في سنة 688هـ، انظر: الإعلام، ص106.

(4) المقرئزي، السلوك، ج2، ص216.

(5) ابن عبد الظاهر، تشریف الأيام، ص138. النويري، نهاية الأرب، ج29، ص55.

(6) الملك الأشرف خليل بن قلاوون (صلح الدين) بن الملك المنصور قلاوون ثامن سلاطين مصر والشام من المماليك البحرية الأتراك ولد سنة (666هـ/1268م) وتولى سنة (689هـ/1290م) وقتل سنة (693هـ/1293م). انظر: الكتبي، فوات الوفيات، ج1، ص406. ابن كثير، البداية والنهاية، ج13، ص334.

إتمام الإستعدادات التي كان قد بدأها والده "ونودي بجامع دمشق الغزاة إلى عكا... فخرج أكثر أهل دمشق إلى ظاهر البلد .. حتى الفقهاء والمدرسين والعلماء والصلحاء ينقلون الآلات ويجرون خشب المجانيق"⁽¹⁾ فكانت هبة شعبية كبيرة دلت على أن الوقت قد حان وأذن بانتهاج الوجود الصليبي من بلاد الشام، وأن هذه النهاية لابد أن تكون على يد المقاومة الشعبية، وفعلاً وصلت الجيوش الإسلامية إلى عكا تساندها مجموعات المقاومة الشعبية من أهالي بلاد الشام والمتطوعين من العرب الذين ذكر ابن تغري بردي بأن عددهم كان يفوق عدد جنود الجيش المملوكي⁽²⁾، وحطت هذه الجموع حول المدينة في 3 ربيع الآخر 690هـ/5 نيسان (ابريل) 1291م، وبجهود الأهالي الشاميين تم نصب اثنتين وتسعين منجنيقاً كان قد تم حمل أخشابها، وجر بعضها جاهزاً من دمشق و باقي المدن الشامية⁽³⁾.

شدد المسلمون من حصارهم للمدينة، وكما كان للمقاومة الشعبية دورها في حصار المدينة كان دور من داخل المدينة لا يقل أهمية عن الدور الذي لعبته في حصار واقتحام المدينة فقد حذر أحد رجال المقاومة الشعبية من داخل مدينة عكا -ويبدو أنه كان يعمل في الصفوف الخلفية للعدو ويخبر المسلمين بكل تحركات الصليبيين - المسلمين من هجوم مفاجئ قد يقوم به الصليبيون من داخل المدينة. وهذا ما ذكره العيني⁽⁴⁾ حيث أورد بأنه بينما " كان الناس في الحرب مع الإفرنج إذا سهم قد رمي من القلعة وفي نصله ورقة مشدود عليها بخيط، فوقع السهم في وسط العسكر، فأخذوه وأحضره إلى السلطان، ففتح الورقة فوجد فيها مكتوب بالعربي: بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وآله، إن الدين عند الله الإسلام، يا سلطان المسلمين احفظ عسكرك من الكبسة في هذه الليلة فإن أهل عكا قد اتفقوا على ذلك، وهم قاصدون الهجوم عليك، وكانت هذه الورقة من رجل من أهل عكا رزقه أهل الإسلام وكان يكتم إسلامه". بدأ هجوم المسلمين على المدينة في صبيحة يوم الجمعة السابع والعشرين من جمادى الأولى سنة 690هـ/18 نيسان (ابريل) 1219م، ولم ترتفع شمس ذلك

الشهابي، معجم ص 119.

(1) ابن الجزري، تاريخ، ج 1، ص 42. وانظر: ابن كثير، البداية والنهاية، ج 13، ص 320. العيني، عقد الجمان، ج 3، ص 56.

(2) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج 8، ص 5.

(3) ابن الجزري، تاريخ، ج 1، ص 42. ابن كثير، البداية والنهاية، ج 13، ص 32. ابن الفرات، تاريخ ابن الفرات، ج 8، ص 111-112. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج 8، ص 5. العيني، عقد الجمان، ج 3، ص 56. وانظر: =

غوانمة، معاهدات الصلح، ص 91. الغامدي، جهاد المماليك، ص 278.

(4) عقد الجمان، ج 3، ص 59.

النهار حتى كانت القوات الإسلامية ومجموعات المقاومة الشعبية قد اجتاحت أسوار المدينة وبهذا سقطت عكا في أيدي المسلمين بعد حصار طويل دام أكثر من أربعة وأربعين يوماً⁽¹⁾ وبعد أن ظلت في أيدي الصليبيين أكثر من مائة عام منذ أن تمكن الصليبيون من احتلالها سنة 587هـ/1190م وكانت قد استردت من أيديهم في سنة 583هـ/1187م.

يتضح من خلال كل ما سبق الجهد الواضح الذي بذلته المقاومة الشعبية في مساعدة القوات الإسلامية ومشاركتها في فتح وتحرير المدن الإسلامية المحتلة من نير الاحتلال الصليبي حتى تم دحر آخر جندي صليبي عن بلاد الشام بعد احتلال دام أكثر من قرنين ونصف من الزمان ذاق خلاله الأهالي في بلاد الشام مر العيش وضمنك الحياة إلى أن حان موعد التحرير.

ثالثاً: المشاركة في المعارك:

اشتبك المسلمون منذ وطأت أقدام الصليبيين أرض بلاد الشام مع القوات الصليبية في عدة معارك كان الهدف منها هزيمة هذه القوات ودحرها عن بلاد المسلمين، وللوهلة الأولى رفض الأهالي في بلاد الشام ذلك الوجود، وقرروا مواجهته بشتى الوسائل والسبل، ومن هنا جاءت مشاركتهم الواسعة في المعارك التي خاضها الحكام المسلمون بقواتهم النظامية ضد الصليبيين.

كانت أول المعارك التي خاضتها مجموعات المقاومة الشعبية المساندة للقوات الإسلامية بعد سقوط مدينة أنطاكية بيد الصليبيين سنة 491هـ/1098م⁽²⁾؛ فعلى أثر سقوط المدينة ظهر أول رد فعل إسلامي على المستويين الرسمي والشعبي، وتزعّم حركة التصدي للفرنج قوام الدين كربوقا حاكم الموصل، وأمراء السلاجقة في الشام، وصحب القوات الإسلامية عدد كبير من المتطوعة والغلمان والسوقة العرب⁽³⁾.

وقد قدرهم ابن الأثير⁽⁴⁾ بأنهم كانوا بالألوف حينما ذكر بأنه أثناء المعركة قتل

(1) ابن الفوطي، الحوادث، ص320 وهو المؤرخ الوحيد الذي يخرج عن إجماع المؤرخين ليؤكد أن عكا قد تم فتحها في العام 691هـ. ابن كثير، البداية والنهاية، ج3، ص320. ابن الجزري، تاريخ، ج1، ص45. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج8، ص6-7. العيني، عقد الجمان، ج3، ص56-70. الحريري، الإعلام، ص106..

(2) انظر حول سقوط أنطاكية: ابن الأثير، الكامل، ج9، ص14. ابن العديم، زبدة الحلب، ج2، ص132. سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج1، ص308. أبو الفداء، المختصر، ج2، ص27. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج5، ص144. النويري، نهاية الأرب، ج8، ص252. الحريري، الإعلام، ص63. توديبسود، تاريخ الرحلة، ص260. وانظر ما سبق الفصل الثاني.

(3) ابن العديم، زبدة الحلب، ج2، ص136-137. ابن الأثير، الكامل، ج9، ص15.

(4) الكامل، ج9، ص15. وانظر: النويري، نهاية الأرب، ج28، ص255.

الفرنج منهم ألوفاً" ويبدو من هذه الأعداد الهائلة من المتطوعين والذين مثلوا مجموعات المقاومة الشعبية، أن الأهالي أدركوا مدى الخطر الصليبي القادم إلى بلادهم، كما وتوضح تلك الأعداد الكبيرة الرغبة في الجهاد والاستشهاد في سبيل الله دفاعاً عن بلادهم.

وقد حاصرت تلك القوات الإسلامية الصليبيين في أنطاكية حصاراً شديداً حتى أوشكوا على الهلاك لانعدام الطعام في المدينة "فتقوت الأقياء بدوابهم والضعفاء بالميتة وورق الشجر"⁽¹⁾، ولما انتهت حالهم إلى ذلك طلبوا من كربوقا الأمان للخروج من المدينة، غير أنه رفض، وقال: "لا تخرجون منها إلا بالسيف"⁽²⁾.

ومع ذلك بدأ الصليبيون بالخروج لأنهم فقدوا الأمل في الحصول على الأمان، وضربوا مصافاً عظيماً ثم اشتبكوا مع قوات المسلمين من النظاميين والمقاومة الشعبية، فانهزم المسلمون "لاستياء أمرائهم من سياسة كربوفا الذي أساء إليهم، ولم يسمح لهم بقتل الفرنج أثناء خروجهم من المدينة"⁽³⁾، ولما هزم الجند ثبت المتطوعون ومجموعات المقاومة الشعبية من أهالي بلاد الشام وهاجمتهم القوات الصليبية "ووقع القتل في الرجال المتطوعين والمجاهدين والمغالبين في رغبة الجهاد وحماية المسلمين"⁽⁴⁾ فقتل خلق كثير منهم⁽⁵⁾ بعد أن قاتلوا حسبة ورغبة في الشهادة"⁽⁶⁾ كما يقول ابن الأثير.

وفي معركة عسقلان والتي سبق الحديث عنها⁽⁷⁾ شاركت مجموعات من المقاومة الشعبية لصد العدوان عن مدينة عسقلان بعد نجاح الصليبيين في احتلال مدينة القدس؛ وانهزم الجيش الفاطمي⁽⁸⁾ في المعركة واستطاعت المقاومة الشعبية الصمود بعض الوقت إلا

(1) ابن الأثير، الكامل، ج9، ص15. وانظر: ابن العديم، زبدة الحلب، ج2، ص136. ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، ص196. ابن تغري بردي، النجوم، ج5، ص146. النويري، نهاية الأرب، ج28، ص245؛ وانظر حول هذا الحصار: ريمونداجيل، تاريخ الفرنجة، ص141-147. ثوديبود، تاريخ الرحلة، ص185-223، 204، 188، 232 سميث، الحملة الصليبية، ص111. الشيخ، الجهاد، ص139-150.

(2) ابن الأثير، الكامل، ج9، ص16. وانظر: ابن العديم، زبدة الحلب، ج2، ص137. ابن تغري بردي، المصدر السابق، ج5، ص147. النويري، نهاية الأرب، ج28، ص255.

(3) انظر: نفس المصادر السابقة بالإضافة إلى: أبو الفداء، المختصر ج2، ص27. وانظر: يونس، دور سكان الشام، ص8.

(4) ابن القلانسي، الذيل، ص221.

(5) ابن العديم، زبدة الحلب، ج2، ص137.

(6) الكامل، ج9، ص15. وانظر: نهاية الأرب، ج28، ص255.

(7) انظر ما سبق في الفصل الثاني.

(8) ابن القلانسي، الذيل، ص137. ابن الطوير، نزهة المقلتين، ص3-5. ابن الأثير، الكامل، ج9، ص21. ابن ميسر، المنتقى، ص66-67. سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج1، ص325. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة،

أن سيوف الصليبيين المتعطشة للدماء تمكّنت منهم " فأنتي القتل على الراجل والمطوعة وأهل البلد وكانوا زهاء عشرة آلاف نفس"⁽¹⁾.

وكون عدد الشهداء قد وصل إلى عشرة آلاف فهذا يدل على مدى المشاركة الشعبية الكبيرة التي تصدّت للعدوان الصليبي دفاعاً عن ثرى بلادهم، وجهاداً في سبيل الله عز وجل. وفي المعركة التي سبقت الهجوم على حصن تل باشر⁽²⁾ في المحرم سنة 505هـ/تموز (يونيو) 1111م "قاتل المطوعة والسوقة"⁽³⁾ إلى جانب " العساكر الإسلامية النازلة على تل باشر"⁽⁴⁾.

كما وشاركت المقاومة الشعبية إلى جانب قوات إيلغازي وحلفاؤه في المعركة الكبيرة التي حدثت في تل عفرين⁽⁵⁾ الواقع بالقرب من البلاط فبعد الهجمات المتكررة من الصليبيين على إقليم حوران⁽⁶⁾ قرر طغتكين حاكم دمشق عقد تحالف إسلامي مع إيلغازي لمهاجمة الصليبيين في أنطاكية واتفقا على أن يحشد كل منهما ما باستطاعته من جنود ومنتطوعين لمقاومة الصليبيين وحددا شهر صفر/أيار (مايو) من عام 1119/513م موعداً للإجتماع وتنفيذ الهجوم⁽⁷⁾.

استطاع إيلغازي حشد ما يزيد عن عشرين ألفاً من "العساكر والمتطوعة للغزاة"⁽⁸⁾ وانطلقت تلك الحشود المجاهدة حتى وصلت إلى تل باشر وتل خالد⁽⁹⁾ والمناطق المحيطة بهما تقتل وتأسر وتنهب، وغنمت ما قدرت عليه.

وفي تلك الأثناء وصلت الاستغااثات من أهل حلب إلى إيلغازي يستحثونه على سرعة

ج5، ص148. الشارثري، تاريخ الحملة، ص141.

(1) ابن القلانسي، الذيل، ص137.

(2) تل باشر: قلعة حصينة وكورة واسعة في شمالي حلب بينها وبين حلب يومان ياقوت، معجم البلدان، ج2، ص40.

(3) ابن القلانسي، الذيل، ص175.

(4) ابن العديم، زبدة الحلب، ج2، ص159.

(5) تل عفرين: لم ننع عليها في الأماكن والمواقع ولكن ياقوت ذكر ما يعرف بنهر عفرين في نواحي حلب وذكر أن عفرين بلد ولكنه لم يحدد موقعها. ياقوت، معجم البلدان، ج4، ص132. ولكنها حسب العظمي ص671. وابن الأثير، الكامل، ج9، ص185. وابن العديم، زبدة الحلب، ج2، ص188 تسمى تل عفرين.

(6) ابن العديم، زبدة الحلب، ج2، ص181.

(7) ابن القلانسي، الذيل، ص199-201. ابن الأثير، الكامل، ج9، ص178.

(8) ابن الأثير. الكامل، ج9، ص185.

(9) تل خالد: قلعة من نواحي حلب. ياقوت، معجم البلدان، ج2، ص41.

الوصول⁽¹⁾ بعد أن قام الصليبيون بحصارهم "وأخرجوا بلد حلب ونازلوها ولم يكن بحلب من الذخائر ما يكفيها شهراً واحداً، وخاف أهلها خوفاً شديداً ولو مكنوا من القتال لم يبق بها أحد"⁽²⁾ "وانقطعت قلوب أهل حلب"⁽³⁾ لاستمرار غارات الصليبيين، فتقدّم إيلغازي وتمكنت قواته ومجموعات المقاومة الشعبية التي ترافقها من الإستيلاء على عدة حصون⁽⁴⁾ وهنا استنجد روجر بأمير الرها وبونز pons أمير طرابلس، وبلدوين الثاني ملك بيت المقدس، وعسكر عند أرتاح على الطريق الرئيسي الذهاب إلى أنطاكية لحماية المدينة من جهة، ولمراقبة القوات الإسلامية المتجهة إلى حلب من جهة أخرى إلى أن يصل إليه حلفاؤه من الصليبيين⁽⁵⁾.

لم يصبر روجر لحين وصول النجيدات، بل تقدم صوب القوات الإسلامية ومن معها من المتطوعين على رأس ثلاثة آلاف فارس وتسعة آلاف رجل⁽⁶⁾، وعسكر في تل عفرين الواقع في منطقة استراتيجية بالقرب من البلاط، إذ كان يحده جبلان يجعلان من الصعب على المهاجمين اختراق الموقع، وكان ذلك في يوم الجمعة التاسع من ربيع الأول سنة 513هـ⁽⁷⁾/الموافق العشرين من حزيران (يونية) 1119م.

واعتقد الصليبيون أن حصانة هذا الموقع ستحميهم من هجمات المسلمين لحين وصول النجيدات من بيت المقدس وأنطاكية وطرابلس، إذ لم يكن لذلك الموقع طريق إلا من جهة ضيقة واحدة "فأخذوا إلى المطاولة، وكانت هذه عادة لهم إذا رأوا قوة من المسلمين، وأرسلوا إلى إيلغازي يقولون له: لاتتعب نفسك بالمسير إلينا فنحن واصلون إليك"⁽⁸⁾.

(1) ابن العديم، زبدة الحلب، ج2، ص185.

(2) ابن الأثير، الكامل، ج9، ص185. وقد ذكر ابن العديم أنه وبسبب الحصار الشديد من الفرنج على حلب وسيطرتهم على جزء كبير من المدينة أصبح القوت فيها قليلاً جداً وبلغ مكوك الحنطة دينار. زبدة الحلب، ج2، ص182.

(3) ابن العديم، زبدة الحلب، ج2، ص182.

(4) منها حصن قسطون في الروج. ابن العديم، زبدة الحلب، ج2، ص187.

(5) Grousset, *Histoire*, vol 1, p552-553.

(6) ابن الأثير، الكامل، ج9، ص185. أما ابن القلاسي في الذيل ص200 فيذكر ان عدد القوات الصليبية بلغ عشرون ألفاً من الفرسان والرجالة سوى الأتباع وأنهم كانوا في أتم عدة "ونقل عنه ذلك سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج2، ص680. ويظهر أن ابن القلاسي قد بالغ في عدد قوات الأعداد لكي يضيفي على النصر الإسلامي قيمة أكبر، أو أنه اضاف إلى قوات روجر تلك التي كانت في الطريق إليه ولم تسهم في المعركة.

(7) ابن العديم، زبدة الحلب، ج2، ص188.

(8) ابن الأثير، الكامل، ج9، ص185.

تيقن إيلغازي بعد هذه المراسلة من أن الصليبيين في مأزق فحثَّ المسلمين على النهوض لمهاجمة الصليبيين قبل وصول المدد إليهم على جناح السرعة، وعسكروا بالقرب من الصليبيين الذين كانوا قد شرعوا في بناء حصن يطل على تل عفرين معتقدين أن المسلمين ينزلون آنذاك حصني الأثارب و زردنا⁽¹⁾ فما شعروا في الصباح إلا ورايات المسلمين قد أمتلأت وأحاطت بهم "ودخل الناس من الطرق الثلاثة"⁽²⁾ .

وبدأ هجوم المسلمين الخاطف في يوم السبت ظهراً وألقى الله النصر على المسلمين، وصار من انهزم من الصليبيين هاربا نحو الخيام فلحقهم الجيش وأفراد المقاومة الشعبية وقتلوا منهم أعداد كبيرة، وتمَّ أسر معظمهم⁽³⁾، "ووجد مقدمهم روجير صريعاً بين القتلى"⁽⁴⁾، في هذه المعركة وحملت رأسه إلى إيلغازي⁽⁵⁾، وبعد انتهاء المعركة "أحرق أهل القرى القتلى من الفرنج"⁽⁶⁾ للتخلص من جنثهم.

أما أهل حلب فقد فرحوا بهذا النصر العظيم فأعربوا عن مشاركتهم الوجدانية والدينية من خلال الصلاة والدعاء في المساجد، فقد "وصل البشير إلى حلب بالنصر والمصاف قائم، والناس يصلون الظهر بجامع حلب، سمعوا صيحة عظيمة بذلك من نحو الغرب"⁽⁷⁾. وفي رجب سنة 531هـ/نيسان(إبريل)1137م سار عسكر دمشق بقيادة مقدمها بزواش -أو بزواج- إلى طرابلس المحتلة لفتحها "فاجتمع معه من الغزاة المتطوعة خلق كثير"⁽⁸⁾ واستطاعوا هزيمة أمير طرابلس بونز أو القمص كما يسميه ابن الأثير.

وفي سنة 544هـ/1149م تحركت جيوش نور الدين محمود نحو القوات الصليبية بالقرب من أنطاكية لمقاتلتهم، وقد "صار عسكره يناهز الستة آلاف فارس مقاتل سوى الأتباع

(1) بليدة من نواحي حلب الغربية. ياقوت، معجم البلدان، ج3، ص136.

(2) ابن الأثير، الكامل، ج9، ص185. ابن العديم، زبدة الحلب، ج2، ص188.

(3) العظيمي، تاريخ، ص671. ابن القلانسي، الذيل، ص200-201. ابن منقذ، الاعتبار، ص40، 119. ابن الأثير، الكامل، ج9، ص186. ابن العديم، زبدة الحلب، ج2، ص189. سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج2، ص680. ابن كثير، البداية والنهاية، ج12، ص184. ابن قاضي شهبة، الكواكب الدرية، ص85، وكلها أجمعت على هذا النصر العظيم الذي لم يقع للمسلمين مثله في ذلك العصر.

(4) ابن القلانسي، الذيل، ص201.

(5) ابن الأثير، الكامل، ج9، ص186. ابن العديم، زبدة الحلب، ج2، ص189.

(6) ابن العديم، زبدة الحلب، ج2، ص190.

(7) ابن العديم، زبدة الحلب، ج2، ص189.

(8) ابن الأثير، الكامل، ج9، ص298.

والسواد⁽¹⁾ والذي لا شك فيه أن هؤلاء الأتباع هم من مجموعات المقاومة الشعبية التي انضمت إلى جيش نور الدين بدافع الجهاد والمقاومة للمحتل الصليبي، واستطاعت هذه المجموعات إلى جانب الجيش الإسلامي هزيمة القوات الصليبية وقتل مقدمهم⁽²⁾.

وفي التاسع من جمادى الأولى سنة 552هـ/18 يونيو (حزيران) 1157م علم نور الدين محمود بوجود مجموعة من القوات الصليبية بين طبرية وبانياس فنهض بقواته التي تصحبها مجموعات المقاومة الشعبية إلى تلك الفئة الباغية من الصليبيين وقاتلهم حتى استطاع هزيمتهم⁽³⁾ " ولم يفقد من عسكر الإسلام سوى رجلين أحدهما من الأبطال المذكورين... والآخر غريب لا يعرف، وكل منهما مضى شهيداً"⁽⁴⁾ وكون الشهيد الثاني غريب لا يعرف يدل على أنه من أفراد المقاومة الشعبية، ولو كان من الجنود النظاميين لتمّ التعرف عليه، لأنه

من المعروف أن الجنود النظاميين كان يتم تسجيل أسمائهم في ديوان الجند ليقتضوا رواتبهم وتعرف مراتبهم.

وقد أحدث هذا الانتصار الذي حققته قوات نور الدين ومجموعات المقاومة الشعبية ضجة شعبية، وسرور كبير بين صفوف المواطنين "وخرج من أهل البلد الخلق الذي لا يحصى لهم عدد من الشيوخ والشبان، والنساء والصبيان، لمشاهدة ما منح الله كافة المسلمين من هذا النصر المبين وأكثروا شكر الله تعالى والدعاء لنور الدين المحامي عنهم والرامي دونهم والثناء على مكارمة"⁽⁵⁾ وهذا النص من الروضتين يؤكد مشاركة المقاومة الشعبية ليس بالسلاح والقتال فقط، بل وبالدعاء، ويدل هذا على المحبة الكبيرة من قبل الشعب للقيادة المجاهدة في سبيل الله، كما وتعبّر عن مدى التلاحم الشعبي في مواجهة الهجمة الصليبية على بلاد المسلمين شاباً وشيوخاً، وحتى الصبية والنسوة من أفراد الشعب.

كما وشاركت مجموعات المقاومة الشعبية في المعركة التي حدثت بالقرب من حصن

(1) ابن القلانسي، الذيل، ص304-305.

(2) ابن القلانسي، الذيل، ص305. وانظر: ابن العديم، زبدة الحلب، ج2، ص298-299. ابن قاضي شهبة، الكواكب الدرية، ص130.

(3) ابن القلانسي، الذيل، ص338-339. أبو شامة، الروضتين، ج1، ص41. ابن العديم، زبدة الحلب، ج2، ص308. ابن قاضي شهبة، الكواكب الدرية، ص150 وقد أورد هذا الخبر في أحداث سنة 551هـ والأصح هو ما ذكره ابن القلانسي وأبو شامة لأنهم الأقرب إلى الحدث من ابن شهبة المتوفى في سنة 874هـ/1469م.

(4) أبو شامة، الروضتين، ج1، ص443. وانظر: القلانسي، الذيل، ص339. ابن قاضي شهبة، الكواكب الدرية، ص150.

(5) أبو شامة، الروضتين، ج1، ص443-444.

بيت الأحزان في سنة 575هـ/1179م ووقع الصليبيون أسرى و "أكثر من أسر قتله في الطريق الغزاة المطوعة"⁽¹⁾ الذين كانوا يترصدون لهم في كل مكان.

وفي العصر الأيوبي شاركت المقاومة الشعبية والتي وصف العماد الأصفهاني⁽²⁾ مجموعاتها بالمتطوعة في الهجوم على مخيمات الصليبيين في مرج عيون سنة 585هـ/1189م وقد استطاعوا محاصرة الصليبيين في تلك المخيمات وتسايقوا إلى المسير إليهم وهزيمتهم وكان معظمهم من أهالي مدينة دمشق التي طالما شارك المواطنون فيها في مقاومة الصليبيين وكان شعورهم دائم التوحد مع إخوانهم في المدن الشامية المحتلة.

أما في معركة حطين فقد شاركت تلك المجموعات الشعبية "المتطوعة" مشاركة واضحة ويبدو أن تلك المجموعات الشعبية كانت على معرفة كبيرة بطبيعة الأرض التي جرت عليها المعركة لأنهم من أهالي المنطقة الذين كانوا ينتظرون الفرصة السانحة لطرد المحتل الصليبي فكانت فرصتهم في المساهمة بدور واضح في معركة حطين التي حسمت الموقف لصالح السكان في بلاد الشام بعد هزيمة القوات الصليبية فالفضل الأكبر يرجع لمجموعات المقاومة الشعبية في هزيمة هذه القوات بعدما "رمى بعض مطوعة المجاهدين النار في الحشيش"⁽³⁾ اليبس والعشب الجاف فزاد ذلك من الحرارة في أشد شهور الصيف حرارة ألا وهو شهر تموز (يوليو) "فاجتمع عليهم العطش وحر الزمان وحر النار والدخان وحر القتال"⁽⁴⁾ فقد ساعدت هذه النار -والتي أشعلها أفراد المقاومة الشعبية كما ذكرنا- في الضغط على الصليبيين وعجل في هزيمتهم، وزاد من بأسهم من النصر.

وكان من ضمن المجموعات الشعبية المقاومة والتي شاركت في معركة حطين عدد كبير من الفلاحين⁽⁵⁾، والفقراء⁽⁶⁾، والفقهاء وحتى المتصوفين الذين حضروا مجلس صلاح الدين وهو يستعرض الأسرى وقد سألوهم أن يطلق لهم العنان في أن يقتل كل واحد منهم فرد

(1) العماد الأصفهاني، البرق الشامي، ج3، ص180. وانظر: ابن الأثير، الكامل، ج10، ص96. البنداري، سنا البرق، ص170. أبو شامة، الروضتين، ج3، ص37. ابن واصل، مفرج الكروب، ج2، ص82. وانظر: جب، صلاح الدين، ص175. انظر ما سبق من نفس الفصل المبحث الأول.

(2) الفتح القسي، ص291-292. وانظر: الغامدي، جهاد المماليك، ص316.

(3) العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص77، البرق، ج3، ص143. وانظر: ابن الأثير، الكامل، ج10، ص147. البنداري، سنا البرق، ص295. وانظر: جب، صلاح الدين، ص175.

(4) ابن الأثير، الكامل، ج10، ص147.

(5) العلمي، الأوس الجليل، ج1، ص318-319. وانظر: علي، العلاقات، ص187. المقاومة، ص257.

(6) أبو شامة، الروضتين، ج3، ص299.

من الداوية أو الأستبارية الذين تمّ وصفهم "بالجنسين النجسين"⁽¹⁾.

وبعد انتهاء المعركة أيضاً "رؤي بعض الفلاحين وهو يقود نيفاً وثلاثين أسيراً من أسرى الفرنج قد ربطهم في طنّب خيمته، وباع منهم واحداً بنعل لبسه في رجله، فقيل له في ذلك فقال: أحببت أن يقال باع أسيراً بمداس"⁽²⁾.

والرواية السابقة تحمل دليلاً واضحاً على المقاومة الشعبية التي ساهمت في معركة حطين وتوضح شراسة تلك المقاومة التي جعلت ذلك الفلاح البسيط باستطاعته أسر أكثر من ثلاثين جندي صليبي بسلاح بسيط هو خشبة الخيمة، وقد تبدو الرواية ضعيفة ولكننا نكاد نجزم بصحتها، لأن مثل هذه الرواية لو كانت غير صحيحة فما الذي يجعل المؤرخين وخاصة العلمي ينقلونها ويتواترون على نقلها، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن التعب والإنهاك اللذان وصل إليهما الصليبيون واجتماع حرارة الصيف والنار والعطش عليهم كانت تمكن حتى الطفل الصغير من أسر عشر صليبيين وليس صليبي واحد فقط.

ومهما يكن من أمر فإن دخول المقاومة الشعبية كمتطوعين في معركة حطين دليل واضح على روح التحدي والمقاومة التي امتلأت بها نفوس الأهالي في بلاد الشام ضد الاحتلال الصليبي وتلك الروح كانت كفيلة بهزيمة الجيش الصليبي في المعركة.

كما أسهمت مجموعات المقاومة الشعبية في معركة صفورية التي حدثت بعد إغارة جيش الأفضل بن صلاح الدين على عكا، ففي أواخر صفر سنة 583هـ/ الموافق منتصف مايو (أيار) 1187م، أرسل صلاح الدين الأيوبي إلى ولده الأفضل يأمره أن يبعث له بفرقة من الجيش الإسلامي للإغارة على مدينة عكا المحتلة، فسيّر إليه صاحب حران والرها⁽³⁾ ومجموعة من أكابر الأمراء⁽⁴⁾ وعندما وصلوا إلى صفورية خرج إليهم الصليبيون في جمع كبير من الداوية والأستبارية واشتبكوا في معركة طاحنة انهزم فيها الصليبيون وقتل مقدم الأستبارية، وغنم المسلمون غنائم عظيمة⁽⁵⁾، ومن المؤكد أن المقاومة الشعبية قد شاركت في

(1) أبو شامة، الروضتين، ج3، ص290.

(2) العلمي، الأنس الجليل، ج1، ص318-319. وانظر: الحنبلي، شفاء القلوب، ص138 وهو في روايته لم يحدد هوية الشخص كونه من الفلاحين أو غيرهم، بل أنه قال بأنه شخص من حوران، ومن المعروف أن معظم من في حوران كانوا من الفلاحين، أمّا ما يتعلق ببيع أحد الأسرى الصليبيين بنعل فقد ذكر أبو شامة أن الذي باع الأسير هو من فقراء العسكر. الروضتين، ج3، ص299.

(3) هو مظفر الدين كوكبري، ابن الأثير، الكامل، ج1، ص144. أبو شامة، الروضتين، ج3، ص276.

(4) منهم قايماز النجمي ودلدرم الياقوتي، أبو شامة، الروضتين، ج3، ص276-277.

(5) ابن شداد، النوادر، ص61. ابن الأثير، الكامل، ج10، ص144. أبو شامة، الروضتين، ج3، ص277.

هذه المعركة التي سبقت معركة حطين بشهرين فقط ربيع الآخر 583هـ/يوليو (تموز) 1187م والدليل على ذلك أن هذا الجيش قد وصل إلى صلاح الدين قرب طبرية وجري استعراضه فكان عدد من فيه من الجنود "اثني عشر ألف مدجج"⁽¹⁾ "سوي المتطوعة"⁽²⁾، والمتطوعة كما أسلفنا هم عناصر ومجموعات المقاومة الشعبية التي لم يجر الإفصاح عنها في المصادر والمراجع لأن التركيز كما هو معروف كان على الدور الرسمي في الجهاد ضد الصليبيين ولم يجر التركيز على المقاومة الشعبية إلا في نطاق ضيق.

اتسعت المقاومة الشعبية في جهادها ضد الصليبيين في عام 585هـ/1189م لدرجة جعلت ابن الأثير⁽³⁾ يطلق على المعركة التي خاضتها قوات صلاح الدين على الجسر القريب من صور، موقعة الغزاة المتطوعة، بل أنه يجعل هذه الواقعة عبارة عن ثلاث وقعات كلها للمتطوعين من أفراد المقاومة الشعبية لأن أعداد المتطوعين غلبت على أعداد الجيش الإسلامي الذي كان مشغولاً بالفتوحات الإسلامية كما رأينا.

ولعلَّ أبرز هذه الوقعات هي الواقعة الثانية التي حدثت في جمادي الأولى سنة 585هـ/يونية (حزيران) 1189م، فمع أنَّ المعركة كانت مقررة للجيش النظامي فقط، وذلك لأن تلك المنطقة القريبة من صور كانت صليبية خالصة وخشي صلاح الدين على مجموعات المقاومة الشعبية أن تشترك في تلك المعركة لعدم معرفتهم بطبيعة المنطقة إلاَّ أنه "تبع العسكر خلق عظيم من الرجالة والغزاة والسوقة"⁽⁴⁾ و" المتطوعة"⁽⁵⁾ وحرص (صلاح الدين) على ردهم فلم يفعلوا، وخاف عليهم، لأن المكان كان ضيقاً وكثير الشجر وليس للراجل فيه ملجأ⁽⁶⁾، ولأن أفراد المقاومة الشعبية الذين تسميهم المصادر بالغزاة والسوقة والمطوعة يرغبون في الجهاد والاستشهاد، وينتظرون الفرصة للإنقضاض على الصليبيين وضربهم في كل مكان حتى ولو ضحوا بأغلى ما يملكون في سبيل الله ثم تحرير أوطانهم وطرد الاحتلال فإنهم اندفعوا نحو الصليبيين "وأوغلوا في أرض العدو مبعدين وفارقوا الحزم وخلفوا السلطان وراء ظهورهم وقاربوا الفرنج"⁽⁷⁾ وناوشوهم ثم جرى بينهم قتال شديد، وعندما علم

(1) أبو شامة، الروضتين، ج3، ص277.

(2) ابن الأثير، الكامل، ج10، ص144.

(3) الكامل، ج10، ص181-182.

(4) ابن شداد، النوادر، ص82. وانظر: أبو شامة، الروضتين، ج4، ص72. ابن واصل، مفرج الكروب، ج2، ص285.

(5) ابن الأثير، الكامل، ج10، ص181. ابن واصل، مفرج الكروب، ج2، ص285.

(6) ابن شداد، النوادر، ص82. أبو شامة، الروضتين، ج4، ص72.

(7) ابن الأثير، الكامل، ج10، ص181.

الصلبيون بأن تلك المجموعات الشعبية بعيدة عن نواة الجيش الرئيسي الذي يقوده صلاح الدين⁽¹⁾ حملوا عليهم حملة رجل واحد فقاتلوه⁽²⁾ فاستشهد منهم "مئة وثمانين نفراً"⁽³⁾ فلماً رأى صلاح الدين ما قد حصل هاجم هو وقواته الصليبيين و"ألقوهم إلى جسر وقد أخذ طريقهم فألقوا أنفسهم في الماء"⁽⁴⁾ واستطاع صلاح الدين بمن معه من الجنود قتل عدد كبير من الصليبيين⁽⁵⁾ انتقاماً لما فعلوه بالمتطوعين من أفراد المقاومة الشعبية. ولم ينس صلاح الدين ما أبدته المقاومة الشعبية في موقعة الجسر من بسالة وجرأة فراح يتحين الفرص للانتقام من الصليبيين على ما فعلوه، ومن ذلك أنه في جمادي الآخر سنة 585هـ/ يوليو (تموز) سنة 1188م استطاعت قواته أن تأسر عدداً من الجنود الصليبيين بالقرب من صور "فحملوا إلى سجن دمشق، ثم ذكر قتلهم للغزاة المطوعة على الجسر"⁽⁶⁾.

ونستخلص مما سبق أن المقاومة الشعبية في بلاد الشام شاركت في خوض معارك عديدة ضد المحتلين، وإن كانت هذه المعارك لم تكن فيها المقاومة الشعبية خالصة لأن المقاومة الشعبية كانت رديفاً للجيش النظامية، ولأنها لم تكن على دراية واسعة بالحرب وخدمها كما رأينا في معركة الجسر، كما أن تلك المقاومة لم تكن مسلحة تسليحاً يليق بالقوة الصليبية كما ذكرنا في معركة حطين من أن الفلاح الذي شارك في المعركة لم يكن يملك إلا خشبة الخيمة ليقاتل بها.

لم يقتصر دور المقاومة الشعبية على المشاركة في المعارك فقط بل كان لها دورها الفاعل في تتبع ومهاجمة مؤخرة الجيوش الصليبية المنهزمة، ومن ذلك ما يرويه ابن القلانسي⁽⁷⁾ في سنة 504هـ/1111م عندما انسحبت قوات الصليبيين من حول شيزر بعد أن طال حصارهم لها⁽⁸⁾ قامت مجموعات المقاومة الشعبية عند رحيلهم "وتخطفوا أطرافهم ومن

(1) ابن شداد، النوادر ص 82. أبو شامة، الروضتين ج 4، ص 72. ابن واصل، مفرج الكروب، ج 2، ص 286.

(2) ابن الأثير، الكامل، ج 10، ص 182. ابن واصل، مفرج الكروب، ج 2، ص 286.

(3) ابن شداد، النوادر، ص 82. ابن واصل، مفرج الكروب، ج 2، ص 286.

(4) ابن الأثير، الكامل، ج 10، ص 182. وانظر: أبو شامة، الروضتين، ج 4، ص 72.

(5) المصادر نفسها مع نفس الأجزاء و الصفحات.

(6) العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص 289. وانظر: أبو شامة، الروضتين، ج 4، ص 76.

(7) الذيل، ص 177.

(8) هاجم الصليبيون شيزر بعد مهاجمتهم لأفامية في سنة 514هـ/1111م فقام أميرها سلطان بن علي بن منقذ بالاستجداد بالأمراء المجاورين له، فاستجاب له شرف الدين مودود صاحب الموصل والأمير أحمد، والأمير قطب الدين سكران القطبي صاحب ديار بكر، وقد عسكرت قواتهم أمام شيزر، وبعد ذلك هاجموا الصليبيين

ظفروا به سائراً على آثارهم⁽¹⁾ فأصبحوا سائرين، يحمى بعضهم بعضاً⁽²⁾.

وبعد فشل القوات الصليبية في احتلال حلب بعد حصارهم لها في سنة 505هـ/1112م⁽³⁾ أمر "رضوان الحرامية بتخطف من ينفرد من العساكر فيأخذونه"⁽⁴⁾ ويبدو أنّ هؤلاء الذين تسميهم المصادر بالحرامية هم من أفراد المقاومة الشعبية من أهل حلب الذين أسند إليهم رضوان عمليات خطف الجنود فكان عملهم هذا يشبه أعمال الحرامية واللصوص لأنهم كانوا يتخفون ويتربصون بالجنود ويقتلون من تخلف منهم في مؤخرة الجيش.

كما وساهمت المقاومة الشعبية في تتبع وملاحقة قادة الصليبيين المنهزمين والقبض عليهم وتقديمهم كأسرى للجيش الإسلامي المنتصر، ففي الرابع من جمادى الأولى سنة 513هـ/10 آب (أغسطس) 1119م انهزم الجيش الصليبي بقيادة الكونت روبرت⁽⁵⁾ في المعركة التي حدثت قرب دانيث⁽⁶⁾ أمام الجيش الإسلامي الخارج من حلب، وقد هرب هذا الكونت وفي أثناء هروبه سقط عن فرسه فأدركه قوم من أهل جبل السماق ومن أهل مريمين⁽⁷⁾ فقبضوه وحملوه إلى إيلغازي بظاهر حلب⁽⁸⁾.

الغزاة، ومنعومهم من وراء نهر العاصي وهاجمهم من المنطقة الغربية وغنموا كثيراً من خيامهم وأتقالهم واشتد الرعب في صفوف الصليبيين فانسحبوا منهزمين من حدود شيزر وذلك في سنة 505هـ/1112م. حول هذا الحصار انظر: ابن منقذ، الإعتبار، ص 68-69. ابن القلانسي، الذيل، ص 175، 177. ابن الأثير، الكامل، ج 9، ص 144. ابن العديم، زبدة الحلب، ج 2، ص 158، 167. وانظر: المشهداني، موقف بني منقذ، ص 5.

(1) ابن القلانسي، الذيل، ص 177. ابن الأثير، الكامل، ج 9، ص 144. وانظر: علي، المقاومة، ص 259.

(2) ابن العديم، زبدة الحلب، ج 2، ص 161.

(3) حاصر الصليبيون حلب في سنة 505هـ/1112م وكان حاكمها في ذلك الوقت هو رضوان الذي حرص على أن لا تسقط حلب بأيدي الصليبيين ورتب الجند وأحداث الباطنية والطائعين لحفظ الأسوار" ابن القلانسي، الذيل، ص 175. وهذا يعني أنه أشرك المقاومة الشعبية في حفظ البلد وحمائتها من الصليبيين وبقيت حلب صامدة سبع عشرة ليلة حتى أن الناس أقاموا الثلاث ليلي الأخرى من الحصار لا يجدون شيئاً يقتاتون به، وبعد بأس الصليبيين من حصار حلب انسحبوا. انظر: ابن القلانسي، الذيل، ص 175. ابن الأثير، الكامل، ج 9، ص 144. ابن العديم، زبدة الحلب، ج 2، ص 159-160.

(4) ابن العديم، زبدة الحلب، ج 2، ص 160. وانظر: ابن القلانسي، الذيل، ص 175، حيث يقول "وأطلق الحرامية في أخذ من يظفرون به من أطراف العسكر".

(5) روبرت Robert : حاكم زردنا، وصهيون - بين اللاذقية وحمّة، وبلاطنس - جنوبي صهيون - والمناطق المجاورة. ابن منقذ، الإعتبار، ص 119.

(6) دانيث: اسم بلد من أعمال حلب بين حلب وكفرطاب. ياقوت، معجم البلدان، ج 2، ص 434.

(7) مريمين: من قرى حلب المشهورة. ياقوت، معجم البلدان، ج 5، ص 119.

(8) ابن العديم، زبدة الحلب، ج 2، ص 192-193. ابن منقذ، الإعتبار، ص 119-120.

وفي المجال نفسه قام أفراد المقاومة الشعبية في عام 531هـ/1136م بتتبع وملاحقة فلول جيش طرابلس الصليبي بقيادة الأمير بونز عقب هزيمته - كما أوردنا سابقاً - ففرّ الأمير بونز وبعض أصحابه إلى جبال لبنان، وقام الأهالي في هذه المنطقة بالقبض عليهم وقتل الأمير بونز وبعض أصحابه، مما كان سبباً لتعرض أهل جبل لبنان للانتقام ابن بونز وهو الأمير ريموند الذي خلفه في الحكم بعد ذلك⁽¹⁾.

ومثال آخر ما حدث في عام 586هـ/1190م بعد أن ضلّت فرقة من الجنود الصليبيين طريقها عن الحملة الرئيسية وهي الحملة الألمانية التي كانت متجهة إلى عكا، فوصلت تلك الفرقة الضالة ليلاً إلى بغراس ظناً منها أنها ما تزال في أيدي القوات الصليبية، ففتح والي القلعة لهم الباب وجعلهم يطمئنون ثم أطلق أيدي العساكر والناس عليهم فنهبوهم وقتلوا وأسروا منهم الكثير، أمّا من أفلت فإنه تمّ تعقبهم "وخرج بعد ذلك أهل حلب وجنودها إلى طرفهم، وفرقوا بين فرقهم، والتقطوهم من الخمر⁽²⁾، والغياض، وكان الواحد يستأسر منهم ثلاثة... وباعوهم في الأسواق بالثمن الأبخس"⁽³⁾.

وهكذا ساهمت المقاومة الشعبية ليس في قتال الصليبيين في المعارك فحسب بل وملاحقتهم بعد إلحاق الهزيمة بهم، والهدف الأسمى من ذلك هو طرد الصليبيين المحتلين من بلاد الشام وتطهيرها من رجسهم.

مارست المقاومة الشعبية إلى جانب المعارك التي كانت تتم وجهاً لوجه في الأرض المكشوفة، حرباً من نوع آخر ألا وهي حرب الشوارع داخل المدن وحولها وفي الدروب وبين الأشجار والبساتين، وقد ذكرنا أمثلة واضحة على ذلك خلال حصار الصليبيين لمدينة دمشق في الحملة الصليبية الثانية سنة 543هـ/1148م⁽⁴⁾.

وهناك الكثير من الأمثلة الشبيهة لحرب الشوارع التي حدثت في دمشق والتي استطاعت فيها المقاومة الشعبية تكبيد القوات الصليبية خسائر فادحة ومضاعفة عن تلك الخسائر التي تتكبدها في المعارك الكبيرة.

ومن ذلك ما حدث في العشرين من جمادي الأولى سنة 573هـ/الرابع عشر من

(1) ابن القلانسي، الذيل، ص262. ابن الأثير، الكامل، ج9، ص298. الصوري، الأعمال المنجزة، ج2، ص684.

Stevenson, the Crusaders, p. 137. تدمري، موقف، ص7-8.

(2) الخمر: هو كل ما وارك من أكمة أو جبل، رضا، معجم متن اللغة، ج2، ص332.

(3) العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص396. أبو شامة، الروضتين، ج4، ص135-136. ابن واصل، مفرج الكروب، ج2، ص323.

(4) انظر ما سبق في الفصل الثاني من البحث.

نوفمبر (تشرين ثان) 1177م حيث هاجم الصليبيون مدينة حماة "وكادوا يملكون البلد قهراً وقسراً فاجتمع أهل البلد مع العسكر إلى تلك الناحية واشتد القتال وعظم الخطب على الفريقين واستقلَّ المسلمون وحاموا عن الأنفس والأهل والمال، فأخرجوا الفرنج من البلد إلى ظاهره، ودام القتال ظاهر البلد ليلاً ونهاراً وقويت نفوس المسلمين حين أخرجوهم من البلد، وطمعوا فيهم وأكثروا فيهم القتل فرحل الفرنج"⁽¹⁾ "فما صدقوا كيف يرحلون"⁽²⁾ عن البلد بعد أربعة أيام من القتال والمقاومة البطولية بين الدروب والأشجار التي قام الصليبيون بقطعها⁽³⁾ خوفاً من أن يتخذها أفراد المقاومة الشعبية مخابئ لهم يشنوا من بينها هجماتهم الفدائية. وقد وصلت قوات صلاح الدين لإنفاذ المدينة في الوقت المناسب" وأعانوا أهل البلد وأزاحوا الفرنج"⁽⁴⁾.

كما كان للمقاومة الشعبية دوراً مهماً في عمليات الاقتحام والتسلل والهجمات الفدائية ضد معسكرات الصليبيين ومخيماتهم وما كان ينتج عن هذه الهجمات من قتل وخطف للجنود الصليبيين، وهذه العمليات كانت لا تقل أهمية عن الدور الذي لعبته المقاومة الشعبية في المعارك، فالأولى كانت مكشوفة واضحة، أمَّا الثانية فقد كانت تتم في الخفاء وكان أفراد المقاومة الشعبية يحرصون فيها على عدم كشف هويتهم حتى يستطيعوا إحداث أكبر قدر من الخسائر دون أن يحدث لهم أي ضرر من وراء ذلك، ولعلَّ ما يرويه أسامة ابن منقذ⁽⁵⁾ في مشاهداته دليل واضح على ما قدَّمنا له من حديث فيقول "شاهدت من لطف الله تعالى وحسن دفاعه أن الإفرنج لعنهم الله نزلوا علينا بالفارس والراجل وبيننا وبينهم العاصي وهو زائد زيادة عظيمة لا يمكنهم أن يجوزوا إلينا ولا نقدر نحن نجوز إليهم، فنزلوا على الجبل بخيامهم، ونزل منهم قوم إلى البساتين، وهي من جانبهم، وعملوا خيلهم في القصيل⁽⁶⁾ وناموا، فتجرد شباب من شيزر وخلعوا ثيابهم وأخذوا سيوفهم وسبحوا إلى أولئك النيام، فقتلوا بعضهم، وتكاثروا على أصحابنا فرموا نفوسهم إلى الماء وجازوا".

(1) ابن الأثير، الكامل، ج10، ص87.

(2) البنداري، سنا البرق، ص136. وانظر: أبو شامة، الروضتين، ج2، ص471.

(3) ابن الأثير، الكامل، ج10، ص87. البنداري، سن البرق، ص136. أبو شامة، الروضتين، ج2، ص471. ابن واصل، مفرج الكروب، ج2، ص64. أبو الفداء، المختصر، ج2، ص140. الحنبلي، شفاء القلوب، ص116. المقريزي، =السلوك، ج1، ص175.

(4) الحنبلي، شفاء القلوب، ص116.

(5) الإعتبار، ص91-92.

(6) القصيل: ما اقتلع من الزرع أخضرا ليصبح علفا للدواب. ابن منظور، اللسان، ج11، ص578.

ويروي لنا ابن شداد في أحداث سنة 587هـ/1191م كيف أن أفراد المقاومة الشعبية الذين يسميهم باللصوص استطاعوا التسلل إلى معسكرات الصليبيين وخيامهم وخطف عدد من الصليبيين، فيقول: إن هؤلاء اللصوص كانوا "يسرقون الرجال أحياء، وذلك لأن الواحد منهم يكون نائماً، فيوقع على حلقه الخنجر، ثم يُوظف فيرى الشلح⁽¹⁾ والخنجر في يده، وقد وضع في نحره فيسكت ولا يتجاسر أن يتكلم، فيحمل وهو على هذا الوضع إلى أن يخرج من الخيمة، ويؤخذ أسيراً، وتكلم منهم جماعة فحروا، فصار من أصابه ذلك سكت واختار الأسر على القتل، وداموا على ذلك مدة طويلة"⁽²⁾.

ولم تكن عمليات الخطف التي يقوم بها أفراد المقاومة الشعبية للجنود الصليبيين فقط، بل كان للنساء الصليبيات نصيب من ذلك أيضاً ففي أول ليلة من شهر ربيع الأول سنة 587هـ/1191م "خرج المسلمون على العدو فكبسوه في مخيمه، وأسروا من الإفرنج وقتلوا وعادوا سالمين ومعهم اثنتا عشرة امرأة في السبي"⁽³⁾.

كما أن أطفال الصليبيين لم يسلموا من عمليات الخطف ثم البيع في الأسواق، فيروي لنا ابن شداد⁽⁴⁾ كيف أن بعض أفراد المقاومة الشعبية "الحرامية واللصوص" هاجموا إحدى المخيمات الصليبية وسرقوا من إحدى الخيام طفلاً صغيراً لم يتجاوز الثلاثة أشهر، ثم قاموا ببيعه في سوق العسكر.

ويبدو أن أفراد المقاومة الشعبية أرادوا الانتقام من كل من هو صليبي فلم يفرقوا بين أحد منهم حتى ولو كان رضيعاً لأن مثل هذا الطفل الرضيع سيصبح جندياً في المستقبل يقتل الأطفال المسلمين.

غير أن سماحة الإسلام والتي مثلها آنذاك صلاح الدين الأيوبي جعلته يرفض ما فعله هؤلاء اللصوص بهذا الطفل فطلب منهم إعادته إلى أمه الثكلى والتي جاءت تبكي تحت أقدام السلطان صلاح الدين متوسلة أن يعيد لها طفلها الرضيع⁽⁵⁾.

(1) الشلح: من التشليح وهي عربية فصحي كما يقول ابن منظور، لأن اللصوص إذا خرجوا على أحد وهاجموه عروه من ثيابه فهنا الشلح علم على اللص الذي يقوم بذلك العمل. ابن منظور، لسان العرب، ج2 ص500.

(2) النوادر، ص185.

(3) العلمي، الأنس الجليل، ج1، ص371.

(4) النوادر، ص145-146. وانظر: العلمي، المصدر السابق، ج1، ص372.

(5) ابن شداد، النوادر، ص146، 26.

رابعاً: المشاركة في رصد تحركات الصليبيين:

عملت المقاومة الشعبية ومنذ وطأت أقدام الصليبيين بلاد الشام على رصد تحركاتهم وتفصي أخبارهم ونقلها إلى قادة وحكام المسلمين كإسهام منهم في مقاومة هذا العدو، وحتى يتخذ قادة المسلمين الإحتياطات اللازمة لتوخي أي هجوم صليبي والحذر منه⁽¹⁾، فإلى جانب الجواسيس الذين كان يتم تعيينهم من الجهات الرسمية كعناصر في الجيش الإسلامي⁽²⁾ قدّمت المقاومة الشعبية معلومات مهمة في مجال رصد وتتبع الصليبيين نظراً لمعايشتهم المباشرة لهم، ومعرفتهم بتحركات العدو بين القرى والضياع والمدن الإسلامية المحتلة، وقد أوردت المصادر الإسلامية بعض الأمثلة التي تؤكد ذلك، ومن هذه الأدلة ما ذكره ابن القلانسي⁽³⁾ خلال حديثه عن حوادث سنة 513هـ/1119م من أنه قد "وردت الأخبار ببيروز روجير صاحب أنطاكية منها فيمن جمعه وحشده "لمهاجمة المسلمين، ولكنه انهزم كما ذكرنا.

ومن الأمثلة الأخرى التي توردها المصادر المعاصرة ما حدث عام 519هـ/1125م عندما وصلت الأخبار من ناحية بلدوين الأول ملك الصليبيين بالاحتشاد والتأهب والاستعداد لقصد ناحية حوران من عمل دمشق للعبث فيها والإفساد، وشرع في شن الغارات على الجهات القريبة من دمشق والمضايقة لها وقطع الطرقات على الواردين إليها، فعند المعرفة بذلك والتحقق، شرع ظهير الدين أتابك دمشق في الاستعداد للقاءه والاجتماع على جهاده وكاتب أمراء التركمان ومقدميهم وأعيانهم بإعلامهم صورة الحال ويستجد بهم عليه ويبذل لهم الإحسان والأنعام، وظهر في عسكره، وقد ورد عليه خبر قربهم من طبرية قاصدين أعمال البلد من مرج الصفر، ويشير المصدر نفسه إلى أن وصول الأخبار من رجال المقاومة الشعبية الذين كانوا يعملون كعيون للمسلمين، واتخاذ الإحتياطات لمواجهة هذه الغزوة كانا من أهم الأسباب في إفشال مخطط الصليبيين⁽⁴⁾.

ومثال آخر ما حدث عام 522هـ/1128م عندما طمع الصليبيون في دمشق بعد وفاة حاكمها ظهير الدين طغتكين وتولية ابنه تاج الملوك بوري⁽⁵⁾، فأكثرُوا الحديث في قصدها

(1) علي، العلاقات، ص188، المقاومة، ص257.

(2) العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص204، 215، 230. الحموي، مضمار الحقائق، ص16. وانظر: رنسيان، تاريخ الحروب، ج3، ص671 الذي وصف جهاز الجاسوسية التابع لجيش صلاح الدين بالتفوق الدائم.

(3) الذيل، ص وعن هذه المعركة انظر: العظيمي، تاريخ، ص671. ابن العديم، زبدة الحلب، ج3، ص551-554. ابن قاضي شهبة، الكواكب الدرية، ص85. وقد سبق الحديث عنها ألا وهي معركة البلاط.

(4) ابن القلانسي، الذيل، ص213.

(5) تاج الملوك بوري أبو السعيد بن أتابك طغتكين، من أتابكة السلاجقة وصاحب دمشق سنة (522هـ/1128م) =

وبثوا رسلهم إلى الأعمال في جمع الرجال والاحتشاد فاجتمع إليهم سائر ما اشتملت عليه بلادهم من الرها وأنطاكية وطرابلس والساحل، كما وصلت إليهم أساطيل أوروبية محملة بأعداد كبيرة من الجنود الصليبيين فاجتمعوا ونزلوا على بانياس وخيموا عليها وشرعوا في تحصيل المؤن والأغذية للإقامة "وتواترت الحكايات عنهم ممن شاهدتهم وأحصى عددهم أنهم يزيدون عن ستين ألف فارس، ورجالاً وأكثرهم الرجال"⁽¹⁾.

وعندما تأكد تاج الملوك بوري من صحة الخبر الذي نقله له بعض أفراد المقاومة الشعبية أعدَّ العدة وخرج لملاقاة الصليبيين، وكان الصليبيين قد رحلوا عن بانياس طالبين دمشق ونزلوا على جسر الخشب والميدان المعروف المجاور له وخيموا هناك، فعسكر تاج الملوك بوري بقواته في مواجهتهم، لكنَّ جيش الصليبيين لم يتحرك لعدة أيام من مكانه وهنا لعب أفراد المقاومة الشعبية دورهم في كشف أخبار العدو حيث علموا أنَّ الذي أوجب تأخر زحف الصليبيين "أنَّهم قد جردوا أبطال خيلهم وشجعان رجالهم للمسير مع البغال إلى حوران لجمع المير والغلال التي يستعان بمثلها على الإقامة والنزال وأنَّهم لم يتحركوا إلا بعد عود المذكورين"⁽²⁾، فكان لهذا الخبر الذي نقله بعض أهالي المنطقة أثره الواضح في الخطة التي وضعها بوري، حيث قرر عمل كمين عند ناحية براق في طريق حوران لأنَّ الصليبيين سيمرون عليها عند عودتهم بالمؤن والغلال، وبالفعل نجحت الخطة وتمَّ الإيقاع بهذه القوة وغنموا منهم وأسروا أكثرهم، وكان لهذه الهزيمة التي ألحقت بالفرقة الصليبية دورها في انسحاب القوة الرئيسية التي كانت تنوي مهاجمة دمشق⁽³⁾. وقد أشار ابن منقذ⁽⁴⁾ في مشاهدته إلى دور المقاومة الشعبية في نقل أخبار العدو ورصد تحركاته إلى حكام شيزر من بني منقذ خلال حصار الروم و الصليبيين لمدينتهم، حيث قال: "كنا في حصار الروم في دهليز الحصن بعددنا وسيوفنا فإذا شيخ قد جاءنا يعدو، وقال: يا مسلمون، الحرير! ادخل الروم علينا، فأخذنا سيوفنا وخرجنا وجدناهم قد طلعوا من ثغرة في السور فضربناهم بالسيوف حتى

= ولد سنة (478هـ/1085م) وإلى اسمه ترجع تسمية هذه السلالة الحاكمة (بالبوربيين) اتصف بالحكم والكرم قتل سنة (526هـ/1132م). انظر في ترجمته ابن الأثير، الكامل، ج9، ص248، 265. ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج1، ص290-292. الذهبي، سير أعلام النبلاء ج19 ص573-574. وانظر: المنجد، ولاة دمشق، ص21. الشهابي، معجم، ص31.

(1) ابن القلانسي، الذيل، ص224-225.

(2) ابن القلانسي، الذيل، ص225.

(3) المصدر السابق، ص225. وانظر: ابن الأثير، الكامل، ج9 ص251 وقد روى هذه الأحداث سنة

523هـ/1129م. ابن قاضي شهبه، الكواكب الدرية، ص96. وانظر كذلك: جوني، دمشق، ص139.

(4) الإعتبار، ص146.

أخرجناهم ،وبقيت أنا وذلك الشيخ الذي استفزنا.فوقف وأدار وجهه إلى الحائط يريق الماء.فأعرضت عنه،فسمعت صرخة ،فالتفت وإذا الشيخ قد ضربت رأسه حجر المنجنيق كسرتة وألصقته بالحائط ومخه قد سال على الحائط".وفي الرواية السابقة التي أوردها ابن منقذ وهو شاهد عيان ما يفيد أيضا بأن أفراد المقاومة الشعبية لم ينقلوا الأخبار فحسب بل أنهم شاركوا في المقاومة بقدر استطاعتهم فالشيخ الذي يحدثنا عنه ابن منقذ والذي استشهد بعد إصابته بجراح بالغة في رأسه نتيجة القصف المتواصل لشيزر كان يسقي الماء للجند بعد أن استفز همهم لحماية أعراسهم التي جاء الصليبيون لينتهكوها.

ويواصل ابن منقذ⁽¹⁾ نقل مشاهداته لنا فيذكر "أن فلاحاً...جاء يركض إلى أبي وعمي، رحمه الله، قال: شاهدت سرية إفرنج تائهين قد جاءوا من البرية، لو خرجتم إليهم أخذتموهم" وهنا حشد أبو أسامة وعمه عساكرهم وقاموا بمهاجمة السرية النائية وجرت بينهم معركة على نطاق ضيق كانت نتيجتها لصالح الصليبيين في البداية، وما لبثت أن تحولت لصالح المسلمين.

ويتضح مما سبق سعي الأهالي الدائم للتخلص من الإحتلال الصليبي، فهذا الفلاح المتضرر من الصليبيين لا يملك أن يطردهم بمفرده، ولأنه حريص على التخلص من ظلمهم فقد صرف جهده لمعرفة المعلومات التي تتعلق بهم، ورصد تحركاتهم ونقل كل ذلك إلى من هو أقدر منه، فما أن تأكد من معلوماته حتى أسرع وهو يركض خشية أن تقلت تلك السرية الصليبية من المسلمين، إلى حكام منطقته من بني منقذ وقال لهم بثقة بالغة "لو خرجتم إليهم أخذتموهم" وكان الرد بالإيجاب ولعل هذا الرد قد أدخل السرور والفرح إلى نفس هذا الفلاح الذي استطاع أن يفعل شيئاً ولو بسيطاً في سبيل مقاومة الإحتلال الصليبي.

والواضح أن خروج الحكام بناء على المعلومات التي كان يقدمها الأهالي من أفراد المقاومة الشعبية دليل مؤكد على ثقة هؤلاء الحكام المسلمين من تلك الأخبار التي يتم نقلها، لأنهم يعلمون علم اليقين من أن تلك المعلومات صادقة ومؤكدة لأنها جاءت من واقع المعاناة التي يعيشها أهل الأرض المحتلة تحت نير المحتل الصليبي، كما ويدل خروج حكام المسلمين بناءً على تلك المعلومات أيضاً أنهم استفادوا منها ونجحوا في استثمارها لصالح الخطط العسكرية التي كان يتم وضعها بناءً على ما يقدمه أفراد المقاومة الشعبية من معلومات استخبارية.

وإن كانت الأمثلة السابقة تشير إلى ذلك، إلا أننا سنورد بعض الأمثلة للتأكيد على أن

(1) الإعتبار،ص65.

سكان الأرض المحتلة - أي الذين خضعوا للحكم الصليبي - قد أدوا دوراً على جانب كبير من الأهمية في نفس الجانب، وبخاصة عندما يشعرون بوجود قائد مسلم يحمل راية الجهاد، وهذا ما نستطيع أن نستنتجه ممّا حدث في كثير من الحالات.

ففي سنة 545هـ/1150م استطاعت مجموعة من التركمان وهم من أفراد المقاومة الشعبية الظفر بالأمير جوسلين الصليبي حاكم تل باشر بعد أن طلب منهم نور الدين محمود ذلك ووعدهم بكل ما يطلبوه، ولم يكن باستطاعة تلك المجموعات الظفر به لسولا أن جعل "التركمان عليه العيون، فخرج متصيدياً فظفر به طائفة منهم وحملوه إلى نور الدين أسيراً"⁽¹⁾ ويبدو أن هؤلاء التركمان قد استفادوا من المعلومات المتعلقة بتحركات ذلك القائد الصليبي من خلال سكان المنطقة من الفلاحين الذين علموا بخروج جوسلين للصيد في منطقتهم فأسرعوا بنقل الخبر إلى التركمان ليستغلوا الموقف لصالحهم، ونجحوا بالاستفراد به والقبض عليه. "فكان أسره من أعظم الفتوح لأنه كان شيطاناً عاتياً شديداً على المسلمين قاسي القلب، وأصيبت النصرانية كافة بأسره"⁽²⁾.

وفي 13 ربيع الأول 552هـ/25 إبريل (نيسان) 1157م توجه نور الدين محمود لتفقد أحوال مدينة بعلبك، وبعد وصوله "تواصلت الأخبار إليه من ناحية حمص وحماة بإغارة الإفرنج الملاحين على تلك الأعمال وإطلاقهم فيها أيدي العبث والفساد"⁽³⁾، واستدعت تلك الأخبار التي تناقلها أفراد المقاومة الشعبية لنور الدين محمود ترك بعلبك والخروج لوضع حد للانتهاكات التي ترتكبها قوات الاحتلال الصليبي⁽⁴⁾.

وعندما نزل نور الدين إلى الكرك وذلك سنة 565هـ/1169م "أتاه الخبر أن الفرنج قد جمعوا له وساروا إليه"⁽⁵⁾، ممّا جعل نور الدين يرحل عن الكرك ليلقاهم قبل أن يصلوا إليه، وقبل أن تزداد أعدادهم بوصول المدد العسكري إليهم⁽⁶⁾.

واستمراراً لنهج المقاومة في تعقب ورصد الصليبيين فإننا نجدهم يزودون صلاح

(1) ابن العديم، زبدة الحلب، ج2، ص302. ابن الأثير، الكامل، ج9، ص369. ابن واصل، مفرج الكروب،

ج1، ص24. ابن الشحنة، الدر المنتخب، ص219. ابن قاضي شهبة، الكواكب الدرية، ص136.

(2) ابن الأثير، الكامل، ج9، ص369.

(3) ابن القلانسي، الذيل، ص338.

(4) المصدر نفسه.

(5) ابن الأثير، الكامل، ج10، ص23.

(6) الكامل، ج10، ص23. وانظر: البنداري، سنا البرق، ص47. ابن العديم، زبدة الحلب، ج2، ص329. ابو شامة.

الروضتين، ج3، ص204. ابن قاضي شهبة، الكواكب الدرية، ص188.

الدين الأيوبي وقواته بالمعلومات التي تتعلق بتحركات العدو، ومن أمثلة ذلك ما حدث سنة 570هـ/ 1174م عندما كان صلاح الدين في حلب "جاء الخبر بتوجه القومص في الإفرنجية إلى حمص"⁽¹⁾، مما استدعى بأن يقوم صلاح الدين بمغادرة المدينة لإنقاذ حمص من الخطر الصليبي، وهذا بدوره أدى إلى أن يرجع الصليبيون هم وقائدهم عن الهدف المنشود دون تحقيق أي شيء يذكر "خوفاً مما يقع فيه ويتم عليه"⁽²⁾.

وما حدث بعد هزيمة الصليبيين وفشلهم في احتلال مدينة حماة عام 573هـ/ 1173م جعلهم يتوجهون بعد ذلك لاحتلال حارم فقام أفراد المقاومة الشعبية بنقل هذا الخبر إلى صلاح الدين " فحثَّ السلطان العزائم"⁽³⁾ لإنقاذ المدينة من الهجوم الصليبي.

وفي سنة 574هـ/ 1187م "تواترت الأخبار باجتماع الفرنج لغزو بلاد المسلمين"⁽⁴⁾، ونظراً لأن هذا الخبر كان متواتراً ونقله أكثر من فرد من أفراد المقاومة الشعبية فإن صلاح الدين تأكد من صحته وأصدر أوامره بخروج فرقة من عساكر المسلمين بقيادة ابن أخيه عز الدين فرخشاه لمواجهة تلك الجماعة الصليبية، وبالفعل اتجه عز الدين نحو الصليبيين واشتبك معهم في موقعة صغيرة "قتل فيها جماعة من مقدمي الفرنج وغيرهم، منهم الهنفري وصاحب الناصرة فانهمزوا وأسر منهم جماعة"⁽⁵⁾، وفي بعض الأحيان لم يكن صلاح الدين يثق بكل الأخبار والمعلومات التي ينقلها له سكان الأرض المحتلة لأنه كما ذكرنا كان يعتمد على جهاز المخابرات الذي كوَّنه لنفسه من الجواسيس، لأنه كان يعلم جيداً أن القائد العسكري الماهر يجب عليه التأكد من صحة كل خبر أو معلومة تنقل إليه لأنها قد تكون من قبيل الإشاعات، أما ما ينقله الجاسوس أو العميل المزروع وسط العدو فإنها معلومات موثقة ورسمية ولعل أبرز ما يؤكد ذلك هو ما حدث في سنة 575هـ/ 1179م قبيل اندلاع معركة مرج عيون والسلطان مخيم بنتل القاضي في بانياس فبينما هو على تلك الحال وقد قرر ترك المنطقة شاهد أبقاراً واغناماً جافلة عن موضعها "وجاءه بعض الرعاة وأخبر أنه شاهد عسكر

(1) البنداري، سنا البرق، ص 84.

(2) المصدر نفسه.

(3) المصدر نفسه، ص 137.

(4) المقرئزي، السلوك، ج 1، ص 177 ويقصد ببلاد المسلمين هنا دمشق. انظر: ابن الأثير، الكامل، ج 10، ص 92.

(5) المقرئزي، السلوك، ج 1، ص 177. وانظر: ابن الأثير، الكامل، ج 10، ص 93 وقد وصف القتال الذي جرى بين

المسلمين والصليبيين بقيادة الهنفري بأنه "أشد قتال رآه الناس" وأنه بمقتل الهنفري فأنَّ المسلمين قد أراحهم الله من شره لأنه "كان بلاء صبه الله على المسلمين".

العداء⁽¹⁾ الصليبيين، ولكنَّ السلطان استبعد ذلك قائلاً: "لو كان ذلك صحيحاً لجاننا الجاسوس"⁽²⁾.

ومهما يكن من أمر فإنه مع استمرار الإحتلال الصليبي للأرض العربية الإسلامية في بلاد الشام ظل الأهل في هذه البلاد أوفياء لحكامهم في نقلهم أخبار العدو فبالإضافة إلى ما تمَّ من عمليات استخبارية قام بها أفراد المقاومة الشعبية فإنه وفي سنة 577هـ/1181م "شاع الخبر بغارة فرنج انطاكية على حارم وأتوا من السبي والنهب بالعظام"⁽³⁾ وإشاعة الخبر هنا ونقل مثل هذا الحدث لا يمكن أن يكون عن طريق الجاسوس لأنه خبر عام ويمس بمصالح أهالي المنطقة لما أصابهم من السبي والنهب، فقاموا بنقل ما حلَّ بهم إلى المعنيين بالأمر ليقوموا بحمايتهم والوقوف في وجه الغطرسة الصليبية، كما أن الإشاعة هنا لا يقصد بها الشائعة المعروفة في عصرنا وإنما وكما وردت في سياق الرواية تحمل معني الإنتشار والتفرق⁽⁴⁾.

وفي سنة 583هـ/1178م وخلال حصار صلاح الدين لمدينة طبرية في سبيل الضغط على الصليبيين المتمركزين في صفورية⁽⁵⁾ "جاء من أخبر بأنَّ الفرنج قد ركبوا"⁽⁶⁾ لمساعدة من في طبريا من الصليبيين، وبذلك نجحت خطة السلطان في إخراج الصليبيين من صفورية ففرح "وقال: جاءنا ما نريد ونحن أولو بأس شديد"⁽⁷⁾.

وقد جرى أنَّ بعض أفراد المقاومة الشعبية لم يكتف بجمع المعلومات ورصد تحركات العدو بالمشاهدة السرية فقط، بل لجأ إلى الاستفراد بالجنود الصليبيين وإجبارهم على الإدلاء

(1) البنداري، سنا البرق، ص164. وانظر: السبكي، طبقات الشافعية، ج7، ص366. الحريري، الإعلام، ص366.

(2) العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص220. الحموي، مضمار الحقائق، ص16. ابن الأثير، الكامل، ج10 ص95. البنداري، سنا البرق، ص165. أبو شامة، الروضتين، ج3 ص34 وروايته المنقولة من ابن أبي طي لم تشر إلى وجود الجاسوس بل أكدت بأنه "وصل بعض الرعاة، فأخبر أن الفرنج قد عبروا وصاروا قريباً منه على هيئة المتغفلة، فسار- أي السلطان- حتى أشرف على الفرنج". انظر: السبكي، طبقات الشافعية، ج7، ص366. السبكي، طبقات الشافعية، ج7، ص366. الحريري، الإعلام، ص80.

(3) الحموي، مضمار الحقائق، ص59. البنداري، سنا البرق، ص185. أبو شامة، الروضتين، ج3، ص82.

(4) ابن منظور، لسان العرب، ج1، ص182 مادة شاع.

(5) صفورية: كورة وبلدة من نواحي الأردن بالشام وهي قرب طبرية. ياقوت، معجم البلدان، ج3، ص414. وانظر: حول حصار طبرية وفتحها ابن الأثير، الكامل، ج10، ص145-146. أبو شامة، الروضتين، ج3، ص279.

(6) البنداري، سنا البرق، ص294. وانظر: ابن الأثير، الكامل، ج10، ص146. أبو شامة، الروضتين، ج3، ص279.

(7) أبو شامة، الروضتين، ج3، ص279.

بالمعلومات التي يمكن أن تفيد المسلمين ومن ثم نقل هذه المعلومات إلى قادة وحكام المسلمين، وكمثال على ذلك ما حدث سنة 584هـ/1188م حيث قرر الصليبيون إنفاذ النجدة العسكرية إلى مدينة صفد⁽¹⁾ والتي كان يحاصرها صلاح الدين بقواته، وقد بلغ عدد أفراد هذه النجدة العسكرية ما يقارب المائتي رجل من شجعانهم وأقويائهم- ما يطلق عليهم حديثاً بالوحدات الخاصة أو الكوماندوز- "فساروا في الليل مستخفين وأقاموا النهار مكمنين، فاتفق أن رجلاً من المسلمين، خرج متصيدياً، فلقى رجلاً من تلك النجدة، فاستغربه بتلك الأرض فضربه ليعلمه بحاله وما الذي أقدمه هناك، فأقرّ بالحال ودلّه على أصحابه"⁽²⁾ وهنا ذهب الرجل المسلم إلى قائد العسكر وأعلمه "بصورة الحال والفرنجي معه، فركب في طائفة من العسكر إلى الموضع الذي اختفى فيه الرجال، فكبسهم وأخذهم، وتتبعهم في الشعاب والكهوف فلم ينفلت منهم أحد"⁽³⁾.

كما ولعبت المقاومة الشعبية دوراً هاماً في نقل أخبار الحملة الصليبية الثالثة وإيصال المعلومات التي تتعلق بحصار القوات الصليبية لمدينة عكا، وما كان يجري للمحاصرين داخل المدينة، وكانت تتواتر الأخبار إلى السلطان عن طريق العوامين- السباحين- الذين كانوا يخترقون الحصار البحري للعدو سباحة، وهم يحملون الكتب ونفقات الجند، ويعومون بالكتب المدونة بترجمة مصطلح عليها- أي مكتوبة بالشفيرة - خوفاً من وقوعها في أيدي الأعداء⁽⁴⁾ وعندما تعذر الاتصال بين أهل عكا وحاميتها، وبين صلاح الدين عام 586هـ/1190م، أنفذ إليهم "عواماً مسلماً كان يقال له عيسى .. بالكتب والنفقات على وسطه ليلاً على غرّة من العدو وكان يغوص ويخرج من الجانب الآخر من مراكب العدو"⁽⁵⁾، وفي إحدى الليالي أرسله صلاح الدين وعلى وسطه ثلاثة أكياس فيها ألف دينار، فعام في البحر، ثم انقطعت أخباره، وبعد أيام وجد عيسى العوام ميتاً غريقاً على طرف البحر وعلى وسطه أكياس من النقود⁽⁶⁾.

(1) صفد: مدينة في جبال عاملة المطلة على حمص بالشام وهي من جبال لبنان.. ياقوت، معجم البلدان، ج3، ص412.

(2) ابن واصل، مفرج الكروب، ج2، ص273.

(3) ابن واصل، مفرج الكروب، ج2، ص273.

(4) العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص367. أبو شامة، الروضتين، ج4، ص118، 149. الحنبلي شفاء القلوب، ص171. العلمي، الأنس الجليل، ج1، ص363.

(5) ابن شداد، النوادر، 120. أبو شامة، الروضتين، ج4، ص160.

(6) ابن شداد، النوادر، 120. العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص423. أبو شامة، الروضتين، ج4، ص160.

وقد حاول الصليبيون منع أفراد المقاومة الشعبية من إيصال المعلومات إلى المحاصرين في عكا "فنصب الفرنج الشبك في البحر، فإذا جاء سباح وقع فيها، فامتنع الناس"⁽¹⁾. ويبدو أن طريقة الصليبيين تلك قد أتت أكلها ممّا جعلهم يمتنعون عن نقل المعلومات عبر البحر، وخاصة بعد استشهاد وأسر أعداداً كبيرة منهم كعيسى العوام الذي سبق الإشارة إليه.

كذلك ساهم "الباعة من المسلمين" القادمين من القرى المجاورة ولا يحملون السلاح، بل يحملون فاكهة أو لحماً يبيعونه للمعسكر الصليبي، في نقل المعلومات الدقيقة إلى معسكر الجيش الإسلامي المحاصر للصليبيين المحاصرين لمدينة عكا⁽²⁾.

ولعلّ أول من أدرك دور التجار والباعة المسلمين في نقل أخبار الصليبيين ووصف استعداداتهم العسكرية هو الإمبراطور البيزنطي يوحنا كومنين الذي أصدر أوامره في مدينة أنطاكية باعتقال كل التجار والمسافرين القادمين من حلب والبلاد الإسلامية المجاورة، حتى لا ينقلوا ما شهدوه من التدابير الحربية⁽³⁾ إلى حكام المسلمين المجاهدين منهم بعد عودتهم إلى بلادهم.

ومما سبق ندرك أن فئات الشعب المختلفة شاركت في مقاومة العدو الصليبي من خلال نقل المعلومات، سواء أكانوا من السباحين المهرة الذين قدموا أنفسهم ومهارتهم في السباحة رخيصة في سبيل الله ومقاومة العدو، أو من التجار الشاميين الذين استغلوا تجارتهم ومقدرتهم على الدخول إلى معسكرات العدو في معرفة أخبار هذا العدو ونقل المعلومات المتعلقة به إلى الحكام المسلمين.

وكانت أبرز الأخبار التي تناقلها أفراد المقاومة الشعبية أخبار الحملة الألمانية القادمة من ألمانيا إلى الصليبيين المحاصرين لعكا وذلك نظراً لتشتت أفراد هذه الحملة وتفرقهم في المناطق الإسلامية بعد غرق مليكهم فريدريك بربروسا⁽⁴⁾.

وقد روى ابن شداد⁽⁵⁾ كيف أنه شاهد أحد أفراد المقاومة الشعبية وهو ينقل بعض أخبار هذه الحملة إلى صلاح الدين فقال: "ولقد حضرت من يخبر السلطان عنهم ويقول: هم

(1) الحنبلي شفاء القلوب، ص 171.

(2) لامب، شعلة الإسلام، ص 192.

(3) رنسيان، تاريخ الحروب، ج 1، ص 344-345. المشهداني، موقف بني منقذ، ص 8.

(4) العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص 396. ابن شداد، النوادر، ص 106-170. أبو شامة، الروضتين، ج 4، ص 134-138.

(5) النوادر، ص 111. وانظر: أبو شامة، الروضتين، ج 4، ص 137. ابن واصل، مفرج الكروب، ج 2، ص 323.

عدد كثير لكنهم ضعفاء، قليلو الخيل والعدة، وأكثر ثقلهم على حمير وخيل ضعيفة"، ولم يتوقف سبل المعلومات المتعلقة بهذه الحملة وأفرادها "ولم تزل أخبارهم تتواتر بالضعف والمرض"⁽¹⁾، وعندما تحقق صلاح الدين من هذه الأخبار والمعلومات أصدر أوامره بتسيير العساكر إلى البلاد المتاخمة لطريق ما تبقى من فلول الجيش الألماني، ويظل هو وباقي العسكر حول عكا⁽²⁾.

لم تخف المقاومة الشعبية كرها لقادة الصليبيين وزعمائهم فعملوا على تعقبهم ورصد تحركاتهم ونقلها إلى صلاح الدين الأيوبي ومثال ذلك ما حدث في شهر رمضان سنة 587هـ/سبتمبر (أيلول) 1191م عندما علمت المقاومة الشعبية بأن الملك الإنجليزي والذي أذاق أهل عكا الويلات قد خرج للحطابة والحشاشة، وهنا أرسل بعض أفراد المقاومة الشعبية بهذا الخبر للمجاهد السلطان صلاح الدين، الذي أصدر بدوره الأوامر بنصب كميناً له بناءً على هذه المعلومات "وكاد يؤخذ الملك، لكن فداه أحد خواصه بنفسه بأن أظهر حسن لباسه، فظن أنه الملك فأسره"⁽³⁾.

ونظراً لمواصلة الصليبيين إغاراتهم على المناطق الإسلامية وما كانت تحدثه تلك الإغارات فإن أفراد المقاومة الشعبية واصلوا نقل أخبارها إلى السلطان صلاح الدين ليضع حداً لها ففي الحادي عشر من ربيع الأول سنة 588هـ/آذار (مارس) 1192م وصل من أخبر أن الإفرنج أغاروا على حلة عرب قريية من الدارون - الداروم - وأنهم أخذوا منهم جماعة... وزهاء ألف رأس غنم، فعظم ذلك على السلطان وشق عليه فسير جماعة فلم تلحقهم"⁽⁴⁾، لأنهم استطاعوا الفرار من المنطقة قبل وصول القوات الإسلامية إليهم بناءً على المعلومات التي قدمها بعض أفراد المقاومة الشعبية.

وكان السلاطين والحكام والمسلمون المجاهدون منهم يقدمون المكافآت والأعطيات لمن ينقل خبراً ساراً لهم من أفراد المقاومة الشعبية الذين يبدو أنهم كانوا يتنافسون على نقل المعلومات والأخبار التي تتعلق بالانتصارات والفتوح التي يحققها الجيش الإسلامي. فبعد فتح الجيش الإسلامي لحصن دير بساك⁽⁵⁾ والمصيصة، طرطوس⁽¹⁾ سنة

(1) ابن شداد، النوادر، ص 111. وانظر: أبو شامة، الروضتين، ج 4، ص 138.

(2) ابن شداد، النوادر، ص 111. وانظر: أبو شامة، الروضتين، ج 4، ص 138.

(3) ابن الأثير، الكامل، ج 10، ص 59. ابن العديم، زبدة الحلب، ج 3، ص 103. ابن واصل، مفرج الكروب، ج 2، ص 178.

(4) ابن شداد، النوادر، ص 200.

(5) دير بساك حصن تسكنه النصارى قرب أنطاكية وهو من أعمال حلب. ياقوت، معجم البلدان، ج 2، ص 500.

664هـ/1265م "فورد الخبر بذلك والسلطان -الظاهر بيبرس- في الصيد بجرود⁽²⁾ فأعطى المبشر ألف دينار⁽³⁾، وفي نفس العام نزل السلطان الظاهر بيبرس على قارا فقام أهل المناطق المحيطة بها بتقديم المعلومات والأخبار المتعلقة بأهل هذه المنطقة بأنهم "يعدون عليهم ويتخطفونهم، ويبيعون من وقع لهم إلى الفرنج بحصن عكار"⁽⁴⁾، وبناءً على تلك المعلومات التي قدمها أهل الضياع، أمر السلطان عسكره "بنهبهم، فنهبوا، وقتل كبارهم، وسبي النساء والأولاد"⁽⁵⁾

وهكذا تعدت أساليب المقاومة الشعبية ضد الصليبيين في بلاد الشام من نصب للكمان، ومشاركة في الفتوحات، والمعارك، كما ساهموا في تعقب الجيوش الصليبية، ورصد تحركات العدو المحتل لأرضهم.

وأرى أن تعدد أساليب المقاومة ضروري جدا لمواجهة المحتل والقضاء عليه لأن السير على وتيرة واحدة في نوع المقاومة يمكن العدو المتربص بالمقاومين من اكتشاف إحدى تلك الأساليب مع مرور الوقت، ولكنه لا يستطيع الإحاطة بكل الأساليب والوسائل معا خاصة وأنه محاط بالأعداء من أصحاب الحق المحتلة أرضهم والذين هم بدورهم يتربصون بالصليبيين الدوائر وينتهبون الفرص للانقضاض عليهم في أي لحظة.

خامساً: أثر المقاومة الشعبية على المسلمين والصليبيين

1- الهجرة والنزوح:-

من العواقب والنناج التي تبدو حتمية بعد تبديد قدرة الأهالي على المقاومة، قيامهم بالهجرة والنزوح عن المناطق التي يعجزون عن حمايتها والدفاع عنها، ومع أن هذه الهجرة سمة سلبية للمقاومة إلا أنها كانت تشكل نوعاً أو أسلوباً من أساليب المقاومة السلبية للاحتلال.

والجانب السلبي لهذه المقاومة يظهر فيما كانت تلحقه تلك الهجرة من آثار ديمغرافية

(1) المقرئزي، السلوك، ج2، ص37.

(2) جرود: من إقليم معلولا من أعمال غوطة دمشق. ياقوت، معجم البلدان، ج2، ص130. القلقشندي، صبح الأعشى، ج4، ص117.

(3) المقرئزي، السلوك، ج2، ص38.

(4) العيني، عقد الجمان، ج1، ص424. أبو الفداء، المختصر، ج2، ص333.

(5) المقرئزي، السلوك، ج2، ص38. أبو الفداء، المختصر، ج2، ص333.

واقتصادية سلبية على الوجود الصليبي في بلاد الشام، ولا سيما أن الصليبيين كانوا يعانون من نقص العنصر البشري⁽¹⁾، والجانب السلبي الآخر لتلك الهجرة هو ترك الأهالي لبلادهم و أوطانهم بدل من التمسك بها، وهنا تبدو الصورة واضحة للمقاومة فهجرة الأهالي كانت خطأ وفي نفس الوقت أحدثت أضراراً على المحتلين الذين لم يجدوا في الكثير من المناطق التي - كالقدس مثلاً - من يستعبده أو يعمل في مستوطناتهم ومزارعهم.

بدأت هذه المقاومة السلبيّة للاحتلال الصليبي منذ وصول الحملة الصليبية الأولى إلى مشارف بلاد الشام، فقد صاحبت استيلاء الصليبيين على مدن ومناطق بلاد الشام قيام الكثير من عمليات الإبادة ضد السكان⁽²⁾، مما أدى فرار العديد من السكان المحليين بعد اجتياح الصليبيين، على الرغم من المقاومة الشديدة التي أبدوها⁽³⁾.

وإلى جانب السكان النازحين جرّاء المذابح، فإن هناك مجموعة من المهاجرين الذين هاجروا بإرادتهم بعد أن استسلمت بعض المدن، وحدث ذلك بعد أن أعطى الصليبيين عهداً وميثاقاً لهؤلاء السكان بالحفاظ على أرواحهم، وكفالة حقوقهم بالمغادرة أو البقاء تحت الحكم الصليبي، وقد حدث أن بعض سكان هذه المدن من المسلمين صمّموا على التمسك بأرضهم والبقاء في المدن إلى أن يحين موعد التحرير وقد حدث ذلك عند استيلاء الصليبيين على مدن طرابلس عام 503هـ/1109م⁽⁴⁾ وصيدا عام 504هـ/1110م التي طلب أهلها الأمان وتمّ السماح بهجرة من "أراد الخروج منها إلى دمشق، وخرج خلق كثير من أهل البلد وتوجهوا إلى دمشق"⁽⁵⁾.

(1) الصوري، الأعمال المنجزة، ج1، ص588. البيشواوي، الاستيطان، ص4. كيلاني، الصليبية، ص39.

(2) راجع الفصل الثاني.

(3) انظر: ابن القلانسي، الذيل، ص135-136. ابن الأثير، الكامل، ج9، ص15-16. ابن العديم زبدة الحلبي، ج2، ص135، 142 حيث يذكر أنه وبعد سقوط أنطاكية وما وقع فيها من المذابح عمت موجة من الذعر والخوف البلدان المجاورة "فهرب من كان بها من المسلمين". وانظر كذلك: سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج1، ص306، 309، 324. أبو الفداء، المختصر، ج2، ص27-28. ابن الشحنة، الدر المنتخب، ص77. الحريري، الإعلام، ص63، 65. توديبود، تاريخ الرحلة، ص257، 260، 262، 290، 318-319. ريمونداجيل، تاريخ الفرنجة، ص120، 163، 181، 183، 220، 247. مجهول، أعمال الفرنجة، ص70، 114، 118-119. 120. الشارترى، تاريخ الرحلة، ص115، 128، 146-147، 213. Albert d'Aix, Histories, Vol,4, 205, 452, 606, 608 PP. الفيتري، تاريخ بيت المقدس، ص33. فارح، الصليبيون، ص55. زابوروف، الصليبيون، ص133-134. سيفان، اللاجنون، ص79. براور، استيطان اللاتين، ص55.

(4) أبو الفداء، المختصر، ج2، ص44.

(5) ابن القلانسي، الذيل، ص171. ابن الأثير، الكامل، ج9، ص139. سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج2، ص527. النويري، نهاية الأرب، ج28، ص268-269. الشارترى، تاريخ الحملة، ص216.

وقد قدر عددهم بخمسة آلاف نسمة⁽¹⁾، أمّا حصن الأثارب فإنّ أهله عندما عجزوا عن الدفاع عنه، سلموه بالأمان إلى تانكرد وذلك في جمادى الأولى سنة 504هـ/ديسمبر 1110م، ثم نزحوا عنه بناء على عقد الأمان، والجدير بالذكر أنّ الحصن لم يكن فيه إلا الرجال فقط أما النساء فقد أخرجهن أزواجهن من الحصن عشية وصول الصليبيين، وطلبوا منهم الذهاب إلى حلب وتولوا هم مهمة المقاومة، ولمّا عجزوا عن المقاومة لحقوا بزوجاتهم بعد طلبهم الأمان⁽²⁾، وبالنسبة للأهالي في صور والتي استسلمت في 518هـ/1124م، فبعد طلبهم الأمان بقي بعضهم، أما الباقيون فقد خرجوا من المدينة⁽³⁾، وتتألف المجموعة الثالثة من السكان المهاجرين من مدنهم بالكامل قبل وصول القوات الصليبية إلى مدنهم، وقد أثر هؤلاء السكان اللّجوء إلى المدن التي رأوا أنّها بعيدة عن خطر الصليبيين⁽⁴⁾، أو إلى المدن الأكثر حصانة من مدنهم، وهؤلاء هم سكان مدن يافا عام 492هـ/1099م⁽⁵⁾ والتي أعاد المسلمون إخلائها للمرة الثانية كأسلوب من أساليب المقاومة الشعبية السليبية بعد مهاجمة الصليبيين لها عام 587هـ/1191م⁽⁶⁾.

ومن الأمثلة كذلك مدينة الرملة التي "كان سكانها المسلمون قد هجروها في اليوم السابق"⁽⁷⁾ لوصول القوات الصليبية سنة 492هـ/1099م، وخلال حملة بلدوين الأول في منطقة البحر الميت سنة 493هـ 1100م يقول الشارترى⁽⁸⁾ بأنّ "المسلمين في المنطقة قد هربوا عندما سمعوا إشاعات عنا" وفي عام 504هـ/1110م "أخلى أهل منبج وبالس بلديهما"⁽⁹⁾ بعدما علموا بوصول الصليبيين، وتعرض الفلاحون في قرى نابلس للطرد والتهجير من قراهم على يد السلطات الصليبية، إذ تم تهجير سكان قرية كفر مالك⁽¹⁰⁾ إلى

(1) فارح، الصليبيون، ص 77.

(2) ابن العديم، زبدة الحلب، ج 2، ص 155-157.

(3) ابن شداد الحلبي، الأعلام الخطيرة، ج 2، ق 2، ص 170-171. أبو الفداء، المختصر، ج 2، ص 60. الشارترى، تاريخ الحملة، ص 275. الفيتري، تاريخ بيت المقدس، ص 54.

(4) سيفان، اللاجئون، ص 80. عوض، الحروب، ص 95.

(5) الصوري، الأعمال المنجزة، ج 1، ص 423. وانظر: بالار، الحملات، ص 89.

(6) أبو الفداء، المختصر، ج 2، ص 165. وانظر: ابن أيوب، منتخبات، ص 299. الحنبلي، شفاء القلوب، ص 176.

(7) الشارترى، تاريخ الحملة، ص 130. الصوري، الأعمال المنجزة، ج 1، ص 423، 498. وانظر أيضا: ماير، الحملة، ص 88. Stevenson, The Crusaders, P. 33. Richard, The Latin Kingdom, P99.

(8) تاريخ الحملة، ص 164.

(9) الحريري، الإعلام، ص 72.

(10) كفر مالك: تقع في أقصى حدود إقطاعية نابلس الجنوبية، وهي تبعد عن مدينة نابلس نحو ثلاثة وثلاثين كم، =

قرية بيت فوريك⁽¹⁾.

استمرت حالات الهجرة والنزوح حتى زمن متأخر من الوجود الصليبي في بلاد الشام، مثلما حدث عام 614هـ/1218م⁽²⁾ وكان قد سبق بعد انتهاء الفترة المبكرة من الغزو الصليبي أن عاد إلى هذه المدن بعض من هاجر منها من سكانها المسلمين، الذين كانوا قد نزحوا منها خوفاً من بطش الصليبيين، حيث أخبرنا الرحالة ابن جبير⁽³⁾ عن بعض أهل صور الذين تركوا مدينتهم عند احتلال الصليبيين لها في عام 518هـ/1124م، ثم عادوا إليها بعد فترة بعد أن دفعهم الحنين إلى أوطانهم إلى العودة ليعيشوا تحت حكم الصليبيين بعد أمان كتب لهم وشروط اشترطوها.

ويبدو أن أهل صور وجدوا أنه لا جدوى من ترك الأوطان للمحتل يعيث بها كيفما يشاء، وأدركوا أن عدم الهجرة والتمسك بالوطن رغم ما سوف يعانونه تحت الاحتلال هو نوع من المقاومة، حيث هم في رباط في سبيل الله حتى يتم التحرير الكامل لمدينتهم.

ولعل أبرز أنواع المقاومة السلبية التي تمثلت بعكس ما فعله أهل صور، هو قيام بعض الأسر في نابلس بالهجرة من المدينة كأسلوب من أساليب المقاومة الشعبية، وقد اعتبر سيفان⁽⁴⁾ أن الهجرة من منطقة نابلس ذات طابع مختلف عن باقي موجات النزوح والهجرة التي حدثت في بلاد الشام، ووجه الاختلاف كما توضحه الأحداث أن الأهالي في القرى والضياح النابلسية قبلوا البقاء تحت سلطة الاحتلال الصليبي، يقاومونهم على أرضهم المحتلة حتى يأتي اليوم الذي يتخلصون فيه من هذا الاحتلال نهائياً⁽⁵⁾، وعندما ازداد الضغط عليهم قرروا الهجرة ليتركوا أراضيهم الزراعية خراباً - وهذا بالطبع سيؤثر على الاقتصاد الصليبي - وتبدو الأمور أكثر وضوحاً في حادثة الهجرة التي قام بها آل قدامة⁽⁶⁾ سكان قرية

=ويحدها من الشمال قرية ترمسعياء، وخربة كفر استينا. انظر: البيشاي، الممتلكات الكنسية، ص152، هامش (7). نابلس، ص99، هامش(88).

(1) البيشاي، الممتلكات، ص152. نابلس، ص215. دراسة، ص97. وبيت فوريك: تقع في الجنوب الغربي من مدينة نابلس، وتشتهر بزراعة الحبوب، والبقوليات، ويهتم سكانها بتربية الماشية.

(2) ابن واصل، مفرج الكروب، ج3، ص256. ابن كثير، البداية والنهاية، ج13، ص76. الغساني، المسجد المسبوك، ج1، ص360.

(3) الرحلة، ص214.

(4) اللاجئون، ص81.

(5) هذا ما سنوضحه في مبحث لاحق.

(6) آل قدامة: من العائلات الفلسطينية المهاجرة، التي قاومت الصليبيين وكان لها تأثير واضح على سكان القرى والضياح المجاورة لإقليم نابلس، الأمر الذي لفت أنظار الصليبيين لهم فقرروا ملاحقتهم وسجنهم، وعندما علم=

جماعيل⁽¹⁾، وقد اشتهر آل قدامة سكان جماعيل بالنقوى والعلم وقوة التأثير على سكان القرى المجاورة مثل مروان، والساوية، وياسوف، ودير عوريف⁽²⁾، إذ كان سكان هذه القرى يفتدون إلى جماعيل لحضور خطبهم أيام الجمع⁽³⁾، وكانت الاجتماعات التي تعقد في جماعيل بمثابة

=آل قدامة بذلك غادروا أماكنهم إلى دمشق، وهناك عرفوا بالصالحية، حيث أنشوا بلدة خاصة بهم قرب جبل قاسيون المجاور لدمشق وتركوا أثراً واضحاً في الفكر الإسلامي، وقد وصل عدد علماء هذه العائلة ما يزيد عن 115 بين رجال ونساء. انظر: مصطفى، آل قدامة، ص7. جويبو، على خطى الصليبيين، ص187. البيشاوي، المقاومة، ص7، هامش77.

(¹) جماعيل: قرية في جبل نابلس من أرض نابلس، ياقوت، معجم، ج2، ص113. والعجيب كما يقول المنجد في بحثه اللاجئون، ص722، هامش17، أن الدباغ أخطأ في كتابه "بلادنا فلسطين" ياقوتاً في ضبطه لجماعيل، ورغم أن صوابها "جماعين" بالنون، كما أخطأ جميع المصادر العربية التي ذكرتها بلام، وحجته أن أهل القرية يلفظونها بالنون، لكثرة من ظهر فيها من جماعين للعلم! وما ذكره هو الخطأ. ومثل ياقوت لا يخطئ في ضبط الأسماء، فدقته معروفة مشهورة، كما أن المصادر العربية لم تخطأ، وتابعته على قوله من الصفدي إلى ابن رجب، إلى النعمي، إلى ابن طولون، بل إن الضياء المقدسي، وأصله منها، ذكر الاسم باللام، ووضح أن أهل القرية اليوم قد حرفوا اسمها، وبدلوا اللام نوناً لأنها أسهل في النطق. أما زعمهم أنها سميت كذلك لكثرة من ظهر فيها من أهل العلم فغير صحيح، لأن جماعيل لم تخرج أي عالم حتى القرن السادس، والذين ظهروا بعد ذلك، فإنما كان أصلهم منها، ولكن نشأوا وتعلموا في دمشق. انظر: المنجد، اللاجئون، ص722-723، هامش17. وتقع القرية بالتحديد في الجنوب الغربي من نابلس، وعلى بعد ستة عشر كم منها، انظر: شراب، معجم، ص268-269.

(²) عرفت هذه القرى باسم الجماعينيات أو الجماعيليات. وتقع قرية مردا جنوب مدينة نابلس، ويحدها من الشمال قرية جماعيل، ومن الشرق قرية ياسوف، ومن الجنوب الشرقي قرية إسكاكة، ويحدها من الغرب قرية الدير، وذكرها ياقوت بأنها كانت من أعمال نابلس، وبطبيعة الحال فإن قرية مردا كانت من أعمال نابلس في العصر الصليبي والأيوبي والمملوكي. انظر: معجم البلدان، ج5، ص104. شراب، معجم، ص656. البيشاوي، المقاومة، ص7، هامش79. أما قرية الساوية، فتقع إلى الجنوب الشرقي من مدينة نابلس، وضمن قرى الجماعيليات أيضاً، ويحدها من الشرق قرية سلفيت، ومن الشمال الشرقي قرية تيماء، ومن الشمال الغربي قرية ياسوف، ومن الجنوب الغربي قرية اللين الشرقي، وكان لهذه القرية شأن عظيم زمن الإحتلال الصليبي التي تعرضت له المنطقة فقد خرج منها مجموعة من العلماء المشهورين والخطباء الذين قاوموا الصليبيين وشجعوا الناس على الجهاد عن طريق الخطب التحريضية. انظر: البيشاوي، نابلس، ص58، هامش73. المقاومة، ص7. هامش79. شراب، معجم، ص442.

أما قرية ياسوف فقد كان يقوم في موقعها قرية يشوب في العصر الروماني، ويحدها من الشرق قرية تيماء، ومن الغرب قرية مردا، ومن الجنوب قرية الساوية، ومن الجنوب قرية إسكاكا. انظر: ياقوت، معجم، ج5، ص245. البيشاوي، نابلس، ص57، هامش59. شراب، معجم، ص725. أما فيما يتعلق بقرية دير عوريف فهي إحدى القرى الواقعة جنوب غرب مدينة نابلس، ويحدها من الجنوب قرية ياسوف، ومن الجنوب قرية جماعيل، ومن الشمال الشرقي قرية بورين. انظر: البيشاوي، المقاومة، ص7، هامش79.

(³) مصطفى، آل قدامة، ص11-12.

حلقات لقراءة القرآن، وتدارس الأحاديث النبوية الشريفة، والتفقه في أمور الدين⁽¹⁾. هذا بالإضافة إلى أنهم كانوا يشجعون الناس على مقاومة الاحتلال الصليبي، ويشجعون الفلاحين على ترك العمل في أراضي السيد الإقطاعي والانصراف إلى أمور الدين، ولاشك أن تحريض آل قدامة للفلاحين على ترك العمل في أراضي الصليبيين كان يلقي استجابة من أهالي القرى الذين كانوا يعانون من ظلم السادة الإقطاعيين⁽²⁾. وقد تنبّه الصليبيون لنشاطات آل قدامة وتحريضهم الفلاحين ضدهم، وأمر صاحب إقطاع نابلس⁽³⁾ آنذاك بقتل كبير عائلة آل قدامة الشيخ أحمد بن محمد بن قدامة⁽⁴⁾، وعلم الشيخ بذلك عن طريق رجل يدعى ابن تيسير كان يعمل كاتباً لصاحب الإقطاع، فقرر الهرب إلى دمشق وتمكن من ذلك فعلاً في شهر رجب سنة 551هـ/أغسطس- سبتمبر 1156م⁽⁵⁾، وفي شوال من نفس السنة هاجر من نابلس عدد من آل قدامة بلغوا نحو خمسة وثلاثين نفساً

- (1) ابن طولون، القلائد، ج1، ص27. وانظر: مصطفى، آل قدامة، ص12.
- (2) ابن طولون، القلائد، ج1، ص27. مصطفى، آل قدامة، ص11-12. سيفان، اللاجئون، ص81-84. المنجد، اللاجئون، ص712. البيشاوي، نابلس، ص204. المقاومة، ص7.
- (3) أشار ابن طولون إلى أن صاحب إقطاع نابلس آنذاك كان ابن بارزان (باليان بن بارزان) الذي تولى حكم إقطاعية نابلس بعد زواجه من مريم كومنينا سيدة الإقطاع في حوالي سنة 1176م. انظر: القلائد، ج1، ص27-28. مصطفى، آل قدامة، ص12-13، هامش 9. البيشاوي، نابلس، ص110-111، 229، هامش 102.
- ومن المرجح كما يذكر البيشاوي أن سيد إقطاع نابلس في الفترة الواقعة بين سنتي 1142-1161م كان فيليب دي ميللي، ولم يكن باليان دي إيلين، ويبدو أن ابن طولون وقع في لبس خلال تعرضه لهذا الموضوع، خاصة وأنه ألف كتابه بعد انتهاء الحروب الصليبية بحوالي مائتي سنة انظر: البيشاوي، نابلس، ص86-92.
- (4) أحمد بن قدامة، ينتمي لعائلة قدامة التي كانت تقيم في قرية جماعيل القريبة من نابلس، وتلقى علومه الدينية في دمشق على يد الحنابلة من بني الشيرازي، فر بدينه من الصليبيين مهاجراً إلى دمشق ونزل بمسجد أبي صالح بظاهر الباب الشرقي لدمشق، ثم نزل هو ووالده أبي عمر المولود في جماعيل سنة 528هـ/1133م، وتوفي سنة 607هـ/1210م، وموفق الدين عبد الله وتوفي سنة 620هـ/1223م إلى سطح جبل قاسيون، وعرفوا بالصالحية نسبة إلى مسجد أبي صالح، وقد توفي الشيخ أحمد بن قدامة في سنة 558هـ/1163م. انظر: ابن العماد، شذرات الذهب، ج2، ص182. النعمي، الدارس، ج2، ص78. وعن الشيخ أبي عمر انظر: أبو شامة، نيل، ص71. سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج8، ق2، ص546-547. ابن شداد الحلبي، الأعلام، ج2، ق2، ص259. ابن كثير، البداية والنهاية، ج13، ص55. النعمي، الدارس، ج2، ص78. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج6، ص201-202. وانظر كذلك: غوشه، حارة السعدية، ص80. البيشاوي، نابلس، ص207. الهواري، أعلام، ص348-349. وعن ترجمة موفق الدين عبد الله بن أحمد انظر: أبو شامة، نيل، ص139. سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج8، ق2، ص627-628. الذهبي، دول الإسلام، ج2، ص124. ابن كثير، البداية والنهاية، ج13، ص100. السلامي، مختصر التواريخ، ورقة، 424. وانظر: زيادة، دمشق، ص204. البيشاوي، نابلس، ص207.
- (5) ابن طولون، القلائد، ج1، ص27-28. مصطفى، آل قدامة، ص13-14. المنجد، اللاجئون، ص713-712.

بين ذكر وأنثى كانوا موزعين في قرى الجماعليات⁽¹⁾.

وتمكن هؤلاء المهاجرين من الوصول إلى دمشق حيث استقبلهم الشيخ أحمد وأنزلهم مسجد الشيخ أبي صالح بالقرب من دمشق⁽²⁾.

ويتضح مما سبق أن هجرة آل قدامة لم تأتي من قبيل المصادفة، بل كان لها ظروفها التاريخية القاهرة، وكان لمقاومتهم للإحتلال من خلال تحريضهم للفلاحين على ترك العمل في أراضي المحتلين الغزاة أثر كبير في هجرتهم من قراهم، وهذه الهجرة مثلت نوع من المقاومة، ولكنها كانت سلبية وكان من الممكن لها أن تكون إيجابية لولا التهديد الذي لاقوه ففرّوا بنفوسهم ودينهم، ليعودوا لبلادهم وأوطانهم عندما عزم صلاح الدين على فتح القدس، ولم يترك هؤلاء المهاجرين من آل قدامة الجهاد البتة واشتركوا في معظم غزوات صلاح الدين⁽³⁾.

ومهما يكن من أمر فيمكن أن نستخلص من عمليات الهجرة والنزوح التي حدثت خلال الإحتلال الصليبي لبلاد الشام كانت أثراً من آثار المقاومة الشعبية التي اشتعلت ضد الغزاة الصليبيين منذ قدومهم وحتى اندحارهم في عام 690هـ/1291م.

2 - المحاكم الصليبية:-

أدت عمليات المقاومة الشعبية وتمسك السكان المحليين بأرضهم، خاصة في المناطق الريفية إلى حقد الصليبيين الذين عملوا على كبح عمليات المقاومة، وإجبار الفلاحين على العمل في أرض السيد الإقطاعي المسلوقة من أصحابها الشرعيين، ومعاقبة كل من يقوم بمقاومتهم، أو تقديم أي نوع من المساندة المعنوية أو المادية للمقاوميين، أو تسهيل مهمة الجيش الإسلامي أو تقديم أي معلومات تتعلق بالصليبيين.

وحتى يتم ذلك قام الصليبيون في الأراضي المحتلة بإنشاء ما يسمى بالمحكمة الإقطاعية لمحاكمة كل من يثبت عليه أي تهمة من التهم السابقة الذكر، وكان يقف أمام هذه المحكمة جميع الفلاحين الشاميين⁽⁴⁾.

(1) ابن طولون، القلائد، ج1، ص29-30. انظر أيضاً: مصطفى، آل قدامة، ص14. المنجد، اللاجئون، ص713. البيشاوي، نابلس، ص205.

(2) مصطفى، آل قدامة، ص15. البيشاوي، نابلس، ص205.

(3) أبو شامة، ذيل، ص71. وانظر: المبحث الأول من الفصل الثالث.

(4) سميل، تاريخ، ص51. حول المحاكم الصليبية بشكل عام والتي تتناول عدة هيئات، وتشمل على عدة أنواع: منها المحاكم الوطنية Civil Courts، ومحكمة المدينة Courde Lafonde، والمحاكم البرجوازية Court of

كانت المحاكم الإقطاعية التي أنشأها الصليبيون في الأراضي المحتلة هي الوعاء القانوني الذي تمكن من خلاله السادة الإقطاعيون من حفظ النظام والأمن في قراهم⁽¹⁾، ومنع أي محاولات للثورة ضد حكمهم ممّا يضر بمصالحهم الاستيطانية والعنصرية. وقد شاهد أسامة بن منقذ بنفسه بعض المحاكمات الصليبية ضد السكان المحليين في المناطق الريفية، وخاصة في إقليم نابلس خلال زيارته لها مع الأمير معين الدين أنر في العام 535هـ/1140م⁽²⁾ تلبية لدعوة أولريك فيسكونت⁽³⁾ نابلس لحضور إحدى المحاكمات الفرنجية⁽⁴⁾، وكان من بين هذه المحاكمات محاكمتهم لأحد أفراد المقاومة الشعبية الذي كان يحتال على الحجاج المسيحيين "ويتعاون هو وأمه على قتلهم، فاتهموه وعملوا له حكم الفرنج، بأن أحضروا بيّنة⁽⁵⁾ عظيمة، وملؤها ماء وعرضوا عليها دف خشب، وكتفوا ذلك المتهم، وربطوا أكتافه بحبل ورموه في البنية، فإن كان بريئاً غاص في الماء فرفعه بذلك الحبل كي لا يموت وإن كان له الذنب لا يغوص في الماء، فحرض ذلك المتهم لما رموه في الماء أن يغوص، فما قدر، فوجب عليه حكمهم... فكحلوه"⁽⁶⁾، غير أن مثل هذه الأحكام على الرغم من قسوتها لم تكن لتنتي عزم ذلك الشاب على مواصلة الجهاد والمقاومة ضد الصليبيين، حيث أشار أسامة⁽⁷⁾، إلى أنّ هذا الشاب والذي أصبح أعمى قد ذهب في زيارة إلى دمشق فأكرمه صاحبها معين الدين أنر، وأمر بتعليمه القرآن "وشيناً من الفقه" تقديراً لدوره في

the Burgeses=، ومحكمة السوق Court of the Market، إلى جانب المحكمة الإقطاعية. انظر: Besant, Jerusalem, P. 225. Michaud, Histoury, Vol,3,P. 272. برلور، عالم الصليبيين، ص31، 136. رنسيان، تاريخ الحروب، ج2، ص481-484. البيشاوي، نابلس، ص199-200.

(1) الطحاوي، الاقتصاد، ص192.

(2) الإعتبار، ص179.

(3) الفيسكونت: Viscount : هو نائب اللورد، وكان منصبه وراثياً في معظم الأحيان، وكان يتولى المحكمة الليرجوازية، ومن مهامه أنه ينفذ العدالة بواسطة القانون، وهو يعتقل المجرمين وينفذ الأحكام التي تصدرها المحكمة، والفيسكونت هو الوكيل المالي لمنطقته، فهو يقوم بجمع الضرائب، الأجور، الرسوم، الغرامات، ووضع اليد على الإملك التي ليس لها وكيل، كما كان يقوم بالخدمة الليلية أثناء غياب المحتسب، وكان أولريك فيسكونت (نائب) للملك بلدوين الأول في نابلس سنة 498هـ/1105م. انظر: Barder, The Crusades, P. 44. البيشاوي، الممتلكات، ص96-97. نابلس، ص75. 94. هامش 14.

(4) البيشاوي، نابلس، ص85.

(5) البيّنة: بمعنى البرميل الكبير الحجم أو البركة التي توصل المياه إلى الأراضي الزراعية، وكانت هذه الكلمة مستخدمة عند الفلاحين الفلسطينيين في منطقة يافا قبل نكبة 1948م. انظر: البيشاوي، المقاومة، ص7.

(6) ابن منقذ، الإعتبار، ص179.

(7) المصدر نفسه. وانظر الفصل الثالث مقاومة النساء.

المقاومة، غير أن الشاب - وعلى الرغم من عاهته - طلب حصاناً وبغلة وسلاحاً فأدهش طلبه بطبيعة الحال الأمير معين الدين الذي قال: " ما اعتقدت أن أعى يصير من الفرسان". ولا شك أن ما طلبه هذا الشاب يوضح تصميمه على الاستمرار في محاربة الصليبيين ومقاومتهم على الرغم مما أصابه بعد المحاكمة الجائرة التي تمت له.

وأمدنا أسامة بن منقذ⁽¹⁾ بمثال آخر يوضح قسوة الأحكام الصليبية التي جاءت نتيجة للمقاومة الشعبية التي قام بها السكان المحليين في بلاد الشام، حيث روى لنا قصة تكيل وحشي اقترفه الصليبيون بفلاح كبير السن ارتابوا بأنه أرشد أفراد المقاومة الشعبية إلى قرية في جوار نابلس ليهاجموا الصليبيين فيها ويسرقونهم، وقد حاول الفلاح الهرب، فقبض الصليبيون على أولاده بأمر من الملك فولك الأنجوي (1133-1143م)، ولإنقاذ العائلة أقدم الفلاح إلى شتى الوسائل والطرق فعاد وقال: "انصفي، أنا أبارز الذي قال عني أنني دلت الحرامية على القرية". فقال الملك لصاحب القرية المقطع: "أحضر من يبارزه" ثم يصف أسامة المبارزة المنظمة عقاباً للمتهم، بالقول أنهم أجبروا الفلاح على مقاتلة حداد قوي البنية من القرية، وادعوا أنه هو من بلغ عن الفلاح، وانتهت هذه المبارزة والتي تمت على مرأى ومسمع من الأهالي لتخويفهم وتحذيرهم من انتهاج سبيل المقاومة بمقتل الفلاح المتهم بالاتصال بالحرامية - رجال المقاومة الشعبية - ولم يكتف الصليبيون بما حل بالفلاح فرموا "على رقبة الشيخ - الفلاح - حبلاً في الحال وسحبوه وعلقوه" في وسط القرية ليكون عبرة لكل من تسول له نفسه مقاومة الصليبيين.

وكان فيليب دي ميللي أشد الحكام الصليبيين تعسفاً في أحكامه القضائية ضد المسلمين المقيمين في نطاق إقطاعه، فقد أوقع بالمسلمين الخاضعين لسلطته أشد الأحكام وأنواع العقوبات البدنية حيث كان "يقطع أرجلهم ولم يكن في الكفار أعنى منه ولا أكثر تحييراً"⁽²⁾.

ولم تكن تلك الأحكام التي أصدرها باليان ضد المسلمين من قبيل الصدفة، بل إنها جاءت نتيجة طبيعية لما كان يقوم به الأهالي من مقاومة، فقد كان بعض المزارعين يمتنعون عن ممارسة عملهم في أرضه استجابة لدعوة الفقيه الحنبلي بقرية جماعيل أحمد بن محمد بن قدامة في خطبة الجمعة الذي كان يحرض الفلاحين على الانصراف للدين وترك العمل في أراضي الفرنجة، وكانت أقواله تلقى صدى لدى أهل القرى ليس في جماعيل وحدها بل وما

(1) ابن منقذ، الإعتبار، ص 177-178.

(2) ابن طولون، القلاند، ج 1، ص 27. ابن كنان، المروج، ص 3.

جاورها من القرى، وتحمل المزارعون المسلمون كل المظالم والأحكام الجائرة التي كانت تجرى بحقهم بالصبر عليها من أجل هدف واضح وهو عدم ترك الأرض، لأنها بالنسبة لهم كانت تعني الشرعية في البقاء والوجود⁽¹⁾.

وهكذا أثرت المقاومة الشعبية على السكان المحليين من خلال الأحكام الصليبية التي كانت تصدرها المحاكم الصليبية ضد الأهالي رداً على مقاومتهم، وعقاباً قاسياً لهم.

3 - ثورات الفلاحين ضد الاحتلال:-

قبل الحديث عن الثورات التي قام بها السكان المحليون الذين خضعوا للحكم الصليبي وخاصة من الفلاحين وما نتج عن ذلك من أضرار للصليبيين وانعكس على الفلاحين فإنه من الضروري استعراض الأحوال السيئة للفلاحين في ظل الاحتلال الصليبي والتي دفعتهم للثورة على هذا الاحتلال، فقد كانت الغالبية العظمى من سكان القرى والضياح في بلاد الشام من المسلمين الذين كانوا يعملون بالزراعة، وعاشوا مرتبطين بالأرض في القرى العديدة في المناطق التي خضعت للحكم الصليبي، وهم الذين عرفوا عند الفرنج باسم المزارعين Rustici، أو الفلاحين Villani⁽²⁾، فقد كان الفلاح المسلم مرتبطاً بالأرض حتى لو انتقلت ملكيتها من سيد إلى آخر من السادة الإقطاعيين اللاتين، فينتقل فلاحوها ليكونوا تحت سلطة السيد الجديد⁽³⁾، وكانوا جميعاً يعملون في الحقول الزراعية التابعة للسادة الإقطاعيين ملاك القرى والأراضي، الذين لم يسكنوا في تلك القرى بل عاشوا في قصورهم أو منازلهم بالمدن الصليبية⁽⁴⁾، واعتبر الفلاحون أبقاناً غير أحرار⁽⁵⁾، ولم يكن أي منهم يستطيع أن يمتلك أي شيء وبالتالي لم يستطيعوا التصرف في الأراضي الزراعية التي كانوا يعملون بها بالبيع أو المنح أو حتى بتوريث العمل بها وبدل من ذلك كان الفلاحون بمثابة مستأجرين عند السيد الإقطاعي، مالك الأراضي الزراعية الذي لم يكتف بالحصول على نصيبه من المحاصيل الزراعية، بل اعتبر الفلاحين ضمن ممتلكاته الشخصية تقريباً، بحيث كانوا ينتقلون مع ملكية القرية من سيد إقطاعي إلى آخر، كما لم يستطيعوا الانتقال بإرادتهم من قرية إلى أخرى من

(1) ابن طولون، القلائد، ص26-27. ابن كنان، المروج، ص3: وانظر: مصطفى، آل قدامة، ص12. المنجد، اللاجنون، ص712.

(2) Smith, The Feudal, P. 40. وانظر: علي، العلاقات، ص172.

(3) Ernst Strehlke, Tabulae Ordinis, no.3, P.3. Smith, The Feudal, P. 41.

(4) الطحاوي، الاقتصاد، ص191. زابوروف، الصليبيون، ص134.

(5) زابوروف، الصليبيون، ص134. عطية، المسلمون، ص8.

أجل كسب رزقهم⁽¹⁾.

وعلى الرغم من هجرة الكثير من الفلاحين المسلمين من الريف نتيجة للغزو الصليبي وما رافقه من عمليات قمع وقتل، فقد احتفظوا بكثرتهم العددية، وخاصة في القرى المتاخمة للممتلكات الإسلامية، وحول المدن الكبرى داخل المناطق المحتلة مثل عكا⁽²⁾ ونابلس التي كان "أهل ضياعها ومعظم أهلها كانوا مسلمين في سلك الرعية مع الفرنج منتظمين"⁽³⁾ وكذلك الحال بالنسبة لأهل القرى حول صيدا وبيروت وجبيل⁽⁴⁾ وجبله⁽⁵⁾ وصور التي بلغ متوسط عدد سكان القرى المجاورة لها حوالي أربعة عشر أسرة⁽⁶⁾، وعسقلان التي وجد حولها اثنتا وسبعون قرية وصلت عدد الأسر فيها ما بين عشرين إلى مائتي أسرة⁽⁷⁾.

كانت أحوال الفلاحين المسلمين تحت الحكم الصليبي متردية بشكل عام، وقبل الشروع في توضيح أوجه المعاناة الأخرى التي عاناها الفلاحون في ظل الاحتلال الصليبي يجب أن نذكر ما أورده الرحالة ابن جبير بأن السكان المحليين من فلاحي تبنين⁽⁸⁾ والصليبيين عاشوا معاً "وهم مع الإفرنج على حالة ترفيه"⁽⁹⁾، بمعنى أنهم عاشوا بوضع أفضل بالمقارنة مع فلاحي المناطق الإسلامية المجاورة، ويمكن إرجاع ذلك إلى كون جميع فلاحي تبنين من المسلمين - فكان الصليبيون يخشون ثورتهم في أي لحظة، فقاموا بتخفيف الضرائب عنهم⁽¹⁰⁾ وإلى حاجة الصليبيين إلى الاعتماد عليهم بشكل كلي في هذه المنطقة⁽¹¹⁾. غير أنه يجب عدم التسليم - كما لم يسلم بذلك كاهن⁽¹²⁾ وعطية⁽¹³⁾ - لما أورده ابن

(1) Loc. Cit; Conder, The Latin Kingdom, P. 239; Preston, Rural Conditions, P. 22 . وانظر:

عطية، المسلمون، ص 8-9. الطحاوي، الاقتصاد، ص 195.

(2) ابن جبير، الرحلة، ص 211.

(3) أبو شامة، الروضتين، ج 3، ص 315. ابن واصل، مفرج الكروب، ج 2، ص 203. العليمي، الأوس الجليل، ج 1، ص 324.

(4) أبو شامة، الروضتين، ج 3، ص 323. العليمي، الأوس الجليل، ج 1، ص 326.

(5) أبو شامة، الروضتين، ج 4، ص 19.

(6) Russell, The Popultion, Vol,V, P. 297. Smith, Fendal, P. 47.

(7) براور، الاستيطان، ص 449.

(8) تبنين: بلدة مطلة على بلد بانياس بين دمشق وصور. ياقوت، معجم، ج 2، ص 14.

(9) ابن جبير، الرحلة، ص 210.

(10) المصدر نفسه، ص 210-211. وانظر: براور، الاستيطان، ص 446.

(11) قاسم، ماهية الحروب، ص 213.

(12) الشرق، ص 216.

(13) المسلمون، ص 6-7.

جبير لأن الوضع العام للسكان سواء في المدن أو القرى المحتلة كان سيئاً كما ذكرنا، وسنذكر كذلك ما يدل على ذلك هذا فضلاً عن أن الاعتماد على عبارة منفردة لا يكفي لتعميمها مثل تلك الرواية التي أوردها ابن جبير، ذلك لأن أحد من المؤرخين أو الرحالة لم يشير إلى ذلك كما أن الفترة التي قضاها ابن جبير في زيارته لبلاد الشام لم تتعدى أكثر من أيام، وهي ليست كافية بأي حال من الأحوال لتقصي الحقائق وأخذ فكرة واضحة عن حقيقة الأحوال التي عاناها السكان تحت الاحتلال الصليبي، بل نجد ابن جبير نفسه يجسد لنا مدى المعاناة التي كان يعاني منها السكان المحليون تحت حكم الصليبيين وأن أهم ما اتصفت به حياتهم هو "الذلة والمسكنة الذميمة، ومنها سماع ما يفجع الأفتدة"⁽¹⁾، بل نستطيع أن نؤكد أن زيارته هذه وما لمسها خلالها من سوء أحوال السكان المحليين ومدى معاناتهم قد تركت انطباعاً سيئاً في نفسه، وأتضح هذا الانطباع بشدة من خلال إبدائه النصيحة لمن أراد الدخول إلى الأراضي المحتلة بقوله "الحذر من دخول بلادهم، والله تعالى المسئول حسن الإقالة"⁽²⁾ ثم كيف لابن جبير أن يفسر تلك الثورات التي قام بها السكان في القرى وحتى المدن ضد الحكم الصليبي كلما سنحت لهم الفرصة، وما أحدثوه من دمار، وامتناع عن زراعة الأرض وهو ما سوف نوضحه في الصفحات القادمة كوسيلة من وسائل المقاومة الشعبية ضد المعاناة.

وهكذا فإن ما رواه ابن جبير عن الفلاحين في إقليم صور وبالتحديد في تبنيين لم يكن قاعدة أو وضعاً عاماً، بقدر ما كان استثناءً، بالنسبة للمسلمين المقيمين في بقية البلاد الشامية المحتلة.

ويمكننا أن نذكر - وكنتيجة حتمية للنظام الإقطاعي - أن الفلاحين كانوا في أدنى درجات السلم الإقطاعي فإلى جانب العمل اليومي في الحقول أجبر الفلاحون على دفع العديد من الضرائب المادية العينية أو النقدية لأسيادهم الإقطاعيين⁽³⁾، حيث قام الفلاحون بتقديم هدايا إجبارية للسادة الإقطاعيين ثلاث مرات سنوياً وكانت تسمى هذه الضريبة "Xenia"، حيث قَدَّم الفلاحون من خلالها الدجاج والبيض والجبن والأخشاب⁽⁴⁾، كما كان على الفلاحين

(1) ابن جبير، الرحلة، ص 214.

(2) ابن جبير، الرحلة، ص 211. وانظر: الرقب، بلاد الشام، ص 355.

(3) زابوروف، الصليبيون، ص 133-135. عطية، المسلمون، ص 9. الطحاوي، الاقتصاد، ص 196. البيشاوي، الممتلكات، ص 298-303. المقاومة، ص 6. وانظر: أبو الكاس، النشاط، ص 66-70.

(4) Archer, The Crusades, P. 292. Smith, The Feudal, P. 45. براور، الاستيطان، ص 447. البيشاوي، الأراضي، ص 59 من الكتاب، وص 122 من المجلة. الطحاوي، الاقتصاد، ص 197. عطية، المسلمون، ص 9-10. وانظر: أبو الكاس، النشاط، ص 68.

أن يؤدوا ضريبة تتراوح من مكان إلى آخر ما بين ثلث وربع محصول بساتين الكروم والزيتون عن كل قطعة أرض تبلغ مساحتها "Carruacate" واحدة صالحة للزراعة⁽¹⁾، كما كان الفلاح يؤدي ضريبة المراعي "Passcbarium" في مقابل رعي مواشيه في مراعي الإقطاع⁽²⁾ وضريبة في مقابل نقل المحصول من الحقول إلى الأجران واستغلال مخازن القرية "Rasium".

كما كان هناك ضريبة على النحل والعسل، وضرائب تدفع على الماشية والأغنام، وعلى الحطب الذي يتم جمعه لاستخدامه في الطهي أو التدفئة⁽³⁾، وضريبة "Mensuragium" التي يؤدونها في مقابل استخدام الموازين والمقاييس في معاملاتهم، وضريبة استخدام الطواحين والمخابز والحمامات⁽⁴⁾.

بالإضافة إلى ما كان الفلاحون يدفعونه من ضرائب للسيد الإقطاعي، فقد دفعوا أيضاً ضريبة العشر للكنيسة التابعين لها، وفرضت هذه الضريبة على الممتلكات والمنقولات في عام 579هـ/1183م بقرار من المجلس الصليبي برئاسة الملك بلدوين الرابع (1174-1185م) لمواجهة تكاليف الدفاع عن المملكة الصليبية ضد تحركات صلاح الدين⁽⁵⁾.

أما الفلاحون الذين لم يدفعوا ضريبة العشر للكنيسة بالطبع فقد دفعوا ضريبة نقدية عرفت بضريبة الرأس "Capitation Tax"⁽⁶⁾، والتي كانت تزداد إلى أضعاف مضاعفة نتيجة لتعسف بعض الإقطاعيين، الذين كانوا يزيدون من الالتزامات التي يفرضونها على الفلاحين، فقد ضاعف (فيليب دي ميللي) قيمة ضريبة الرأس التي فرضها على الفلاحين من مسلمي قرية جماعيل إلى أربعة أضعاف قيمتها المقررة على الفلاحين في شتى أنحاء المملة

(1) زاينوروف، الصليبيون، ص 135. عطية، المسلمون، ص 9.

(2) عطية، المسلمون، ص 10.

(3) ماير، تاريخ الحروب، ص 268. براور، الاستيطان، ص 448. عطية، المسلمون، ص 10. علي، العلاقات، ص 179. أبو الكاس، النشاط، ص 69. الطحاوي، الاقتصاد، ص 197.

(4) Smith, The Feudal, P.50. عطية، المسلمون، ص 10. علي، العلاقات، ص 179. أبو الكاس، النشاط، ص 69. البيشاوي، الممتلكات، ص 299.

(5) Prston, Rural Conditions, P.46. عطية، المسلمون، ص 11. علي، العلاقات، ص 171. الطحاوي، الاقتصاد، ص 197.

(6) ابن جبير، الرحلة، ص 210. حيث يذكر أن ضريبة الرأس بالقرب من قلعة تبنين كانت تبلغ ديناراً سورياً وخمسة قراريط (بيزانت وخمسة كارويلات من العملات الصليبية) للمزيد انظر: Reston, Rural Conditions, PP. 36, 46.

الصليبية⁽¹⁾.

كما كان على الفلاحين أن يلتزموا لموظفي الجهاز الإداري التابع لسيد الإقطاعي مثل الكاتب والترجمان بإعطائهم ثلاث وعشرين كيلو من القمح ومثلها من الشعير عن كل هكتار من الأرض المنزرعة، وستة أمثال المقدار السابق عند حضورهم اقتسام المحصول بين الفلاحين وسيدهم الإقطاعي نظير حضورهم القسمة، كما كان على سكان القرية أن يعطوهم المئونة لهم ولخيولهم عندما يتجولون حول قريتهم، وإذا مات حصان أحدهم فإنهم مطالبين بمنح صاحب الحصان خمس وعشرين ديناراً ليشتري بها حصاناً آخر على سبيل التعويض⁽²⁾، وإلى جانب الالتزامات المادية السابقة، فقد أجبر الصليبيون من أصحاب الإقطاعيات الفلاحين المسلمين على العمل بالسخرة "Corvees" في الأراضي المخصصة للسادة اللاتين⁽³⁾.

فقد استعار صاحب قيسارية في عام 609هـ/1213م من الأسبترارية بعض الفلاحين المسلمين للعمل في أراضيه بالسخرة، وفي عام 640هـ/1243م أجبر البنادقة الفلاحين المسلمين في إقليم صور على العمل يوماً من كل أسبوع في خدمة البنادقة عن كل قطعة أرض يمتلكها كل منهم⁽⁴⁾.

وإذا كانت الالتزامات التي فرضها الصليبيون على المسلمين المقيمين في الإمارات الصليبية، وخاصة في المناطق الريفية، تشكل عبئاً معيشياً على هؤلاء المسلمين، فإنهم كانوا يخضعون -في بعض المناطق- لضغوط من نوع آخر، مثل منعهم من إقامة الشعائر الدينية، ورأى الصليبيون في المساجد عدواً عليهم هدمه نظراً لكون المسجد رمز الإسلام، ولأهميته، وحيوية دوره في حياة الجماعة المسلمة ذاتها، ويظهر ذلك في استغلال السلطان صلاح الدين ليوم الجمعة للقيام بشن حملاته ضد المعقل الصليبية "اغتناماً لدعاء الخطباء على المنابر"⁽⁵⁾، بل أن المصادر الإسلامية المعاصرة تؤكد على أن معظم فتوحات صلاح الدين كانت في أيام صلاة الجمعة وقت اجتماع المسلمين ودعواتهم⁽⁶⁾، ولذلك فإن الصليبيين لم يتورعوا عن هدم

(1) ابن طولون، القلائد، ج1، ص27. ابن كنان، المروج، ص3.

(2) Smith, The Feudal, P. 55-57. براور، الاستيطان، ص440-441.

(3) براور، الاستيطان، ص446.

(4) Smith, The Feudal, P. 46.

(5) ابن شداد، النوادر، ص89.

(6) ابن شداد، النوادر، ص89. وانظر: أبو شامة، الروضتين، ج3، ص293. ابن واصل، مفرج الكروب، ج2، ص265.

المساجد، كما حصل في طرابلس عد اجتياحها⁽¹⁾، وما حصل عام 514هـ/ 1120م عندما قصد بلديين الأول مصر لاحتلالها فمرَّ على غزة فدخلها ودمرها ثمَّ " حرق مساجدها"⁽²⁾، وفي بعض الأحيان كانوا يجتاحون المساجد دون هدمها⁽³⁾ كما حدث عام 508هـ/ 1115م عندما اجتاح الصليبيون مدينة شيزر، ودخلوا أحد مساجدها بالخيول، وكان فيه رجل يقال له حسن الزاهد قائم يصلى إلاَّ أنَّهم لم يقتلوه⁽⁴⁾، ولأنَّ أسامة ابن منقذ على معرفة وعلم بأساليب الصليبيين الوحشية نظراً لمعاشرته لهم وإطلاعه على أوضاعهم⁽⁵⁾، فإننا نجد بيدى استغرابه من خروج الجند الصليبيين دون أن يقتلوا ذلك الشيخ معللاً ذلك بقوله بأنَّ "الله سبحانه أعماهم عنه وستره عن أبصارهم، فسيحان القادر الرحيم"⁽⁶⁾.

وعلى الرغم من السياسة العنصرية السابقة اتَّجاه المساجد فإنَّ هذا لم يمنع من وجود بعض المساجد الصغيرة التي كان يجتمع فيها الفلاحون لأداء الفرائض الخمسة، وخاصة صلاة الجمعة، واستمر الفقهاء والخطباء يباشرون مهماتهم التحريضية ضد الصليبيين فعلى الرغم من شدة تعسف فيليب دي ميللي في معاملته لمسلمي إقليم نابلس فقد اعتاد الفلاحون إقامة فريضة الجمعة في قرية جماعيل⁽⁷⁾.

ومهما يكن من أمر فإنَّ الممارسات الصليبية العنصرية السابقة الذكر، إضافة إلى الأعباء الضريبية الكبيرة التي فرضت على الفلاحين من جانب المحتل الصليبي الذي سلب أرضهم وجلهم عبيداً فيها، شكلت عبئاً جسيماً على الفلاحين مما ترك آثاراً سلبية على المدى الطويل، وتمثلت هذه الآثار بالثورات العديدة كنوع من المقاومة الشعبية التي قام بها المسلمين تحت الحكم الصليبي، خاصة في المناطق الريفية التي كانت تعاني أضعاف ما كانت تعانيه المناطق الأخرى.

وفي الحقيقة فإنَّ المسلمين قد بقوا في قراهم ومدنهم وتمسكوا بالأرض التي يعملون بها، والتي كانوا يمتلكونها قبل الغزو الصليبي، ومن الأمثلة الدالة فعلاً على أن المسلمين قد استوعبوا الدرس ولم يفرطوا في الأرض مهما كان الثمن الذي دفعوه في سبيل ذلك، ما تشير

(1) كاهن، الشرق، وثيقة (4)، ص 285.

(2) العليمي، الأوس الجليل، ج 1، ص 309.

(3) ابن منقذ، الاعتبار، ص 119.

(4) المصدر نفسه، ص 118-119.

(5) المصدر نفسه، ص 135-140.

(6) المصدر نفسه، ص 119.

(7) ابن طولون، القلائد، ج 1، ص 27. ابن كنان، المروج، ص 3.

إليه بعض المصادر المعاصرة من أنه في عام 614هـ/1212م - قام الصليبيون بمهاجمة بيسان وما حولها وبذلوا في أهلها السيف ونهبوا البلاد والرسائيق - أي القرى - وأخذوا جميع غلاتها ومحاصيلها وغنموا من المسلمين الكثير، وعاثوا في فساداً فيما بين بيسان وبانياس، وخرّبوا أرض الجولان، وبثوا السرايا في القرى، وعلى الرغم من كل ذلك فإن "أهل بيسان وسائر الأعمال التي حولها" فلم يجفلوا - يهاجروا - إلى مكان⁽¹⁾ وهذا عكس ما أشار إليه بعض الباحثين من أن السكان قاموا بالهرب من المكان إلى غزة ورفع⁽²⁾.

قبل الفلاحون بوضعهم الجديد تحت سلطة الاحتلال الصليبي، على أن يأتي اليوم الذي يخلصون منه من السيطرة الصليبية، وكانوا يتحفزون لمهاجمة الصليبيين وطردهم من البلاد وكانوا مستعدين للإقدام على كل شيء لكي يجعلوا إقامة الصليبيين لا تطاق، ولكي يجبروهم على الرحيل عاجلاً أم آجلاً⁽³⁾ لأنهم رفضوا العبودية والخضوع للاحتلال الصليبي فكانوا

مفعمين بالحق على الصليبيين وعلى النظم التي أقاموها⁽⁴⁾، ولذا كان يجب عليهم أن يثأروا لأنفسهم⁽⁵⁾ ووطنهم ودينهم متى سنحت الفرصة لهم في ذلك،، وحتى يحدث ذلك كان المسلمون في المناطق المحتلة ينتظرون الفرصة للثورة ضد الحكم الصليبي كشكل من أشكال المقاومة الشعبية، على الرغم من المخاطرة الكبيرة التي قد تحملها مثل هذه الثورات، وغالبية الحالات التي ثار فيها المسلمون على حكم الصليبيين كانت تلي ظروف اضطربت معها أحوال الصليبيين، أو تسبق اقتراب القوات الإسلامية النظامية لمحاربة الصليبيين في تلك المناطق⁽⁶⁾، وفي الحالتين كانت تتوفر الفرصة للمسلمين لمقاومة السلطات الصليبية، وهذا ما أثبتته الأحداث ففي عام 506هـ/1113م قامت القوات الإسلامية بغارات على البلاد الواقعة تحت السيطرة الصليبية بين عكا وبيت المقدس⁽⁷⁾ بحيث "لم يبق بين عكا والقدس

(1) ابن واصل، مفرج الكروب، ج3، ص255. وانظر: ابن كثير، البداية والنهاية، ج13، ص76. النعمي، الدارس، ج2، ص205. العلمي، الأوس الجليل، ج1، ص401.

(2) أبو الكاس، النشاط، ص71.

(3) البيشاوي، الممتلكات، ص302. عطية، المسلمون، ص13.

(4) زابوروف، الصليبيون ص137.

(5) Grousset, Histoire, Vol. 1, P. 181.

(6) عطية، المسلمون، ص13.

(7) ابن القلانسي، الذيل، ص186. أبو الفداء، المختصر، ج2ص46، قامت بهذه الغارة القوات الإسلامية المتحالفة بقيادة أمير الموصل مودود بن التونتكين، وأمير دمشق معتمد الدولة طغتكين بعد أن هزموا الصليبيين في معركة جسر الصنبرة قرب طبريا في يونية حزيران 11م/13محرم 507هـ واستطاعت أن تجتاح أجزاء كبيرة من=

ضبعة عامرة⁽¹⁾ فقام سكان قرى نابلس من المسلمين بالوقوف إلى جانب هذه القوات وأمدوها بكل ما يلزمها "وعلموها كيف تتولى إبادتنا — يقصد الصليبيين — حيث تمكن الأعداء من صنع هذا بشكل جيد ، لأنه كانت لديهم معلومات كاملة عن موقفنا، ذلك أنه ليس هناك وباء أشد هلاكاً وفعالية من عدو داخل منزل المرء"⁽²⁾ كما قاموا بعمليات فدائية ضد المحتلين الصليبيين في مدينتهم "وهجرنا المسلمون الخاضعون لنا وبصفتهم أعدائنا فقد أحاطوا بنا من كل جانب ليقعوا بنا" على حد قول الشارترى⁽³⁾ فكان ما قام به أهالي مدينة نابلس ثورة على الصليبيين، لمساعدة القوات الإسلامية كما ذكر يوشع براور⁽⁴⁾، وما فعله أهل نابلس دليل واضح على أن سكان مدينة نابلس لم يكونوا يرغبون في وجود المحتل الصليبي، بل كانوا يتمنون اللحظة التي يتخلصون فيها منهم دون النظر إلى عاقبة ما يفعلون⁽⁵⁾.

وفي سنة 519هـ/1125م نشبت انتفاضة فلاحية كبيرة في منطقة بيروت وصيدا ورفض الفلاحون أن يدفعوا الضرائب للصليبيين⁽⁶⁾.

وفي الثلاثينات من القرن الثاني عشر الميلادي/ السادس الهجري سعى سكان جبل بهرا شرقي أنطاكية إلى التحرر من التبعية للصليبيين مستغلين الظروف التي تلت وفاة بوهيمند الثاني أمير أنطاكية في عام 524هـ/ 1130م، فبعد عام 525هـ/ 1131م "ملك أهل

=فلسطين ووصلوا إلى حدود القدس ولكنها تراجعت لعدم تمكنها من إحراز نصر نهائي على الصليبيين، انظر: ابن الأثير، التاريخ الباهر، ص18، ابن القلانسي، الذيل، ص185-186؛ البنداري، تاريخ، ص161. سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان ج2، ص562-563. أبو الفداء، المختصر، ج2، ص46، ابن الوردي، تنمة المختصر، الذهبي، دول الإسلام، ج2، ص24. الحريري، الإعلام، ص21. الشارترى، تاريخ الحملة 151-152. الصوري، الأعمال المنجزة، ج1، ص548-549. السديكات، إقطاعية طبرية، ص182-185. عاشور، الحركة الصليبية، ج1، ص311، الشيخ، الجهاد المقدس، ص235. بيضون، تاريخ، ص310. البيشاوي، نابلس، ص78-79. جوني، دمشق، ص135. انظر أيضاً: Albert d. Aix. Historia, P694.

(1) ابن القلانسي، الذيل، ص186.

(2) الصوري، الأعمال المنجزة، ج1، ص549.

(3) تاريخ الحملة، ص222.

(4) عالم الصليبيين، ص68.

(5) وهذا ما يحصل يومياً في الأراضي الفلسطينية المحتلة، فجميع الفلسطينيين يقفون بدأ واحدة من أجل تحرير الأرض الفلسطينية، وطرد المحتلين الصهاينة وكل هذا يحتاج إلى عزيمة قوية وإرادة صلبة ثابتة.

(6) زابوروف، الصليبيون، ص136. الرقب، صور من الحياة، ص347.

بهاء حصن بكسراييل⁽¹⁾ " (2) من حاكمه الصليبي رينو مازوار⁽³⁾. كما ثار سكان بلاطنس⁽⁴⁾ على الحامية الصليبية الموجودة بالحصن وحاصروها، واستطاعت الحامية الصمود حتى جاءت النجدة من أنطاكية وخلصتهم، وعاد الصليبيون إلى احتلال حصن بكسراييل، لكن من ظروف وزمن غير معروفين⁽⁵⁾، كما قام المسلمون بحركة مشابهة لذلك كانت هي الأصل في تأسيس واستقرار جماعة الباطنية في إقليم بهرا الجنوبي، فبين عامي 524هـ / 1130م و526هـ / 1132م استولى سكان جبل القدموس⁽⁶⁾ على الموقع الذي كان الصليبيون يحتلونه منذ عام 523هـ / 1129م وأعادوه إلى صاحب حصن الكهف⁽⁷⁾ سيف الدين بن عمرون⁽⁸⁾ وفيما بين عامي 531-532هـ / 1136-1137م أبادت مجموعة من الباطنية إبادة الحامية الصليبية في حصن الخريبة⁽⁹⁾.

أما في وادي موسى فقد كان السكان المحليون - أهل المنطقة - قد طلبوا من الأتراك في دمشق القدوم إلى المنطقة عام 537هـ / 1143م لتولي أمورها وحمايتها. وعندما وصل الأتراك ثار أهالي القرى هناك، وساعدوا الأتراك في السيطرة على القلعة التي قد بناها الصليبيون هناك، وعندما علم الملك بلدوين الثالث ملك الصليبيين (537-557هـ / 1143-1162م) بما حدث قام بحملة تأديبية للمنطقة لمعاقبة أهالي القرى،

(1) يقع حصن بكسراييل شمالي حصن القدموس وجنوب شرقي جيلة على طريق حماة. ياقوت، معجم، ج1، ص475.

(2) العظيمي، تاريخ، ص680.

(3) المصدر نفسه، ص680.

(4) بلاطنس: حصن منيع بسواحل الشام مقابل اللاذقية من أعمال حلب. انظر: ياقوت، معجم، ج1، ص478. القلقشندي، صبح الأعشى، ج4، ص145. لي سترانج، فلسطين، ص337.

(5) عطية، المسلمون، ص14.

(6) تقع القدموس إلى الشرق من قلعة المرقب فيما بين قلعتي مصياف والكهف، وقد تمكن الإسماعيلية النزارية من الاستيلاء عليها. من أصحابها سيف الدين ابن عمرون أو عصفرون عام 1112-1113م / 506هـ واستفادوا من موقعها ضمن إقليم بانياس في سبيل مهاجمة الصليبيين والمسلمين على حد سواء. عنها انظر: ابن العديم، زبدة الحلب، ج2 ص51، 252. القلقشندي، صبح الأعشى، ج4، ص47. رنسيان، تاريخ الحروب، ج3، ص309. نقاش، الحشاشون، ص133. لويس، الدعوة، ص125. حاملة، صلاح الدين، ص162.

(7) يقع حسن الكهف جنوب قلعة المنيقة وإلى الشمال من قلعة الخوابي. عنها انظر: القلقشندي، صبح الأعشى، ج4، ص147. عوض، الجغرافيون، ص68. هامش(79).

(8) العظيمي، تاريخ، ص681. ابن العديم، زبدة الحلب، ج2، ص251. وانظر: عطية، المسلمون، ص140. وقد ذكر ابن بطوطة في رحلته أن القدموس حصن للإسماعيلية الباطنية، ج1، ص93.

(9) Cahen, La Syrie, du Nord, P.354. عطية، المسلمون، ص14.

وعند وصوله قام الأهالي بالاحتفاء داخل القلعة، وحاصره بلدوين مدة دون طائل، وحينها أمر الملك الصليبي جنوده بقطع أشجار الزيتون في المنطقة، التي كانت تشكل المورد الأساسي لمعيشة السكان⁽¹⁾.

وكان "أهل حصن بكسراييل استعادوه من الفرنج منذ سنين"⁽²⁾ فيما بين عامي 576-582هـ/1180-1186م فاستأنفوا محاولاتهم التي أجهضت عشية موت بوهمند الثاني أمير أنطاكية وتحرروا من الحكم الصليبي، وأصبحت منطقة الجبال بين حصن بكسراييل وأبو قبيس جاهزة للتسليم للقوات الإسلامية⁽³⁾ وهذا ما حصل بعد هزيمة الصليبيين في حطين.

كما اعتاد فلاحو إقليم نابلس على مقاومة الصليبيين والثورة عليهم منذ بداية الاحتلال الصليبي لبلادهم، فقد كونوا جماعات تهاجم الضياع وتنهبها، أو تتصيد الصليبيين فرادى في بعض المدن التي يحتالون في المبيت فيها ويقتلونهم⁽⁴⁾، وكانوا يقودون أفراد المقاومة الشعبية إلى حيث يتواجد الصليبيون⁽⁵⁾ لأنهم -أي الفلاحين- كانوا يعرفون جميع السبل والأسرار ولربما أخفوا أفراد المقاومة في أماكن موثوقة إذا ما شعروا أن سادتهم قد علموا بوجود بعض أفراد المقاومة الشعبية في المنطقة⁽⁶⁾، وبعد انتصار المسلمين في موقعة حطين 583هـ/1187م فعلت المقاومة الشعبية من دورها في المناطق الريفية المحتلة وقاموا بانتهاز فرصة النصر التي حققها المسلمون، فعندما ما وصلت أنباء هزيمة الصليبيين في حطين إلى سكان نابلس من المسلمين الذين يقطنون في القرى والضياع النابلسية قاموا بمهاجمة المدينة واقتحموا بيوت الصليبيين المهجورة "وكسبهم أهل الضياع في الدور والرباع وغنموا ما وجدوه من الذخائر والمتاع وأوقعوا بضيعاتهم وضايقوا الحصون على أقوىائهم"⁽⁷⁾ وتمكنوا من بسط سيطرتهم على مباني ومنشآت مدينة نابلس قبل وصول القوات الإسلامية إليها⁽⁸⁾.

(1) الصوري، الأعمال المنجزة، ج1، ص538-539. وانظر الحباري، حصن، ص146-147.

(2) أبو شامة، الروضتين، ج4، ص20. وانظر: العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص234.

(3) عطية، المسلمون، ص14.

(4) ابن منقذ، الاعتبار، ص177-179.

(5) المصدر نفسه، ص138.

(6) زابوروف، الصليبيون، ص138.

(7) العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص95-96. سنا البرق، ص302. ابن الأثير، الكامل، ج10، ص150. أبو

شامة، الروضتين، ج3، ص316. الحنبلي، شفاء القلوب، ص141.

(8) Richard, the Latin Kingdom of Jerusalem, Vol. I. P. 117. انظر: سميل الحروب، ص55.

وما أن وصل حسام الدين لاجين⁽¹⁾ نابلس في جمادى الأولى 583هـ /منتصف يولييه 1187م حتى وجدها قد أصبحت خالية من الصليبيين⁽²⁾ بفضل الجهود التي بذلتها المقاومة الشعبية في نابلس، ولعل ما قام به الأهالي في نابلس ما هو إلا تعبيراً واضحاً عن رغبتهم الصادقة في التخلص من نير الاحتلال الصليبي العاشم الذي استمر نحو ثمان وثمانين سنة، عانوا خلالها ظلماً وذاقوا إبانها كثيراً من العذاب⁽³⁾، وبذلوا الكثير من الجهود للتخلص من ذلك الاحتلال كغيرهم من سكان بلاد الشام.

وهكذا كان لانتصار المسلمين في حطين دوراً كبيراً ودافعاً قوياً لثورة الأهالي في المناطق المحتلة على محتليهم من الصليبيين، وما كان على القوات المنتصرة إلا تسليم تلك المناطق من أهلها لأنها كانت قد حررت.

وفي عام 613هـ/1211م هاجم الصليبيون إقليم جزين⁽⁴⁾ فأخلاها أهلها ثم عادوا في تجمع كبير وثاروا على الصليبيين الذين احتلوا المنطقة وكانوا خمسمائة فارس " فكبسوا الفرنج وقتلوا أكثرهم وأسروا مقدمهم، وفرقوهم وأبادوهم عن آخرهم"⁽⁵⁾، فلما بلغ صاحب عكا ذلك غضب وقام بحملة تأديبية ضد الفلاحين هناك "وشن الغارات على جزين وما حولها من القرى"⁽⁶⁾.

ومن المواقف الثورية الماثورة ما حدث عام 626هـ/1229م عندما عبّر الأهالي في

بلدوين، اضمحلال، ص280. البيشاوي، نابلس، ص127. العزة، نابلس، ص55.

(1) حسام الدين لاجين: هو محمد بن عمر بن لاجين وقيل عمر بن لاجين أحد أمراء الدولة الصلاحية، وابن أخت السلطان صلاح الدين الأيوبي، أسند إليه صلاح الدين مهمة فتح سبسطية، ونابلس وبعد أن تم فتح الأخيرة قام بإقطاعه إياها وظل أميراً عليها حتى وفاته في 19 رمضان سنة 587هـ، وقد اشترك في معارك هامة كحطين وفي ميمنة المصاف الأعظم التي وقعت بالقرب من عكا سنة 586هـ، واشتهر بالعدل والإحسان والرفق والشجاعة والعلم، الأمر الذي أدى إلى ازدهار نابلس في عهده "فعادت بلدة محشوة بساكنيها كالرمان وبقيت إلى آخر عهده وعمرت بعدله وإحسانه، رفة ورفده " البنداري، سنا البرق، ص303. وانظر: العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص571. ابن الأثير، الكامل، ج10، ص212. أبو شامة، الروضتين، ج3، ص65-316، ج4، ص87، 225، 291. سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج8، ق1، ص413. ابن الفرات، تاريخ، المجلد الرابع، ج2، ص49. الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج21، ص203. ابن كثير، البداية والنهاية، ج12، ص322، ج13، ص84.

(2) العماد الأصفهاني، الفتح القسين ص95-96. وانظر: البيشاوي، نابلس، ص129. المقاومة، ص6.

(3) البيشاوي، نابلس، ص127.

(4) أحد الأقاليم التابعة التابعة لمدينة صيدا مشهور بالخصب، وكثير الفواكه. الإدريسي، نزهة، ج1، ص370.

(5) الحريري، الإعلام، ص90.

(6) الحريري، الإعلام، ص90..

فلسطين عن سخطهم على تسليم الملك الكامل بيت المقدس لإمبراطور ألمانيا فريدريك الثاني، وتبلور هذا السخط في انضمام أهل إقليم الخليل إلى أهل إقليم نابلس الإسلامية، وقد كونوا فرقةً بلغت أعدادها خمسة عشر ألفاً من الثوار انقضوا على مدينة بيت المقدس المحتلة فدخلوها بسهولة، وانتشروا في شوارعها، واستولوا على كل ما وقعت عليه أيديهم⁽¹⁾، وظلت المدينة مباحة للثوار في حين أسرع سكانها المسيحيون من السريان واللاتين واعتصموا ببرج داود⁽²⁾، وهو الحصن الوحيد الذي كان لا يزال باقياً في بيت المقدس في ذلك الوقت، ولذلك كانت الخسائر المادية أكثر من الخسائر في الأرواح⁽³⁾ وعندما وصلت أخبار اجتياح الثوار للقدس إلى الصليبيين في عكا تقدموا في جيش كبير بعد يومين من استرداد الثوار لبيت المقدس فتشجع بهم السكان الهاربون إلى برج داود، ووفقاً لما ذكره صاحب تاريخ هرقل أن المسيحيين قاموا بتنظيف الشوارع من المهاجمين وتمت مطاردتهم في كل اتجاه كما تم قتل ألف منهم⁽⁴⁾.

ورغم المبالغة التي تشوب رواية المؤرخ اللاتيني، إلا أن هناك حقيقة تأكدت وهي أنه لا يمكن تفسير ما حدث إلا بأنه رد فعل شعبي يعكس الرأي العام في ضرورة الاحتفاظ بالسيادة على القدس.

وهذا ما تمّ تأكيده أيضاً في عام 641هـ/1244م حيث قامت ثورة مشابهة بعد أن قام كل من الملك الصالح عماد الدين إسماعيل صاحب دمشق، والملك المنصور إبراهيم صاحب حمص، والملك الناصر داود صاحب الكرك بتسليم الصليبيين مدن القدس وطبرية وعسقلان، في مقابل مساعدة الصليبيين لهؤلاء الحكام على الوقوف ضد سلطان مصر الأيوبي الصالح نجم الدين أيوب⁽⁵⁾.

الذي قام في المقابل باستدعاء قوات الخوارزمية⁽⁶⁾، وقبيل وصول هذه القوات قام

(1) Eracles, L, Wstoire, PP 383-384. Benvenistl, M., The Crusaders, P. 48.

(2) Ibid, P. 384. وانظر: السيد، الخليل، ص252.

(3) Grousset, Histoire, Vol.III, PP. 325-326.

(4) Eracles, Op. Cit, P 385.

(5) سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج8، ق2، ص745. ابن واصل، مفرج الكرب، ج5، ص332. وقد زار هو نفسه القدس بعد تسليمها عام 641هـ/1244م رأى ما حل بالقدس الأقصى من المنكرات.

(6) الخوارزمية: قوم ينتسبون إلى خوارزم وهي بلاد على المجرى الأسفل لأحد أنهار أواسط آسيا، شهدت نهضة في عهد السلطان محمد (596-617هـ/1200-1220م) وعاصمتها الجرجانية، وقد سقطت في يد جنكيز خان عام 617هـ/1220م ما انهارت الدولة، وتفرق جيشها وأخذ يعملون كمرتزقة. انظر: زيد، الخوارزمية، ص246-249. السيد، الخليل، ص251، هامش 3.

الفلاحون المقيمون في منطقة الجبال المحيطة بمدينة بيت المقدس بتعقب الصليبيين الفارين من المدينة، وأعملوا فيهم القتل، وقاموا بأسر بعضهم⁽¹⁾.

ومن صور عداء السكان المحليين في المناطق الريفية للصليبيين ما يرويه أسامة بن منقذ⁽²⁾ عن مساعدتهم لأفراد المقاومة الشعبية الهاربين من أسر القوات الصليبية، فبعد نجاح أحد الأسرى المسلمين بالفرار من سجن الصليبيين قام بالهروب إلى إحدى القرى القريبة من عكا، وهناك أخفاه سكانها "ثم أوصلوه إلى بلاد الإسلام" أي أنهم ساعدوه على الذهاب إلى ذويه.

وتتضح صور العداة أكثر فأكثر في أن الفلاحين، حتى العزل من السلاح، كانوا يشتبكون مع الفرسان، فيروي ابن منقذ⁽³⁾، أن أحد الفلاحين من محلة الجسر قرب شيزر جاء إلى قريبه الكاتب واضعاً يده تحت رداءه، فسأله: "أي شيء بيدك؟" قال " يامولاي، تقابضت أنا والإفرنجي وما معي عدة ولا سيف فرميتة، ولكمت وجهه وعليه اللثام الزرد حتى أسكرته، وأخذت سيفه فقتلته به"، نظر الصليبيون إلى محكومهم من الفلاحين على أنهم "عدو داخل منزل المرء"⁽⁴⁾ ووباء يجب الحذر منه لأنهم على علم كامل بكل ما يتعلق بحكامهم الصليبيين⁽⁵⁾، ولهذا فقد عمل الصليبيون على زيادة الضغط على هؤلاء المحكومين والسيطرة عليهم بكل السبل، وشتى الطرق، فقاموا ببناء عدد من القلاع والحصون لأجل ضمان أمنهم وسلامتهم، ولإجبار الفلاحين على دفع الضرائب⁶ وحماية الأسياد الإقطاعيين من " العدو القريب، حُرّاث الحقول المظلومين " كما يسميهم زابوروف⁽⁷⁾، وفي حال قيام الفلاحين بأي ثورة كان يتم إسناد مهمة قمع تلك الثورة إلى المنظمات الدينية الصليبية، الداوية الإسيبتارية⁽⁸⁾.

(1) Mathew Paris, Chronica Majora, Vol, 257, P. 339

(2) الإعتبار، ص 82.

(3) المصدر نفسه، ص 149.

(4) الصوري، الأعمال المنجزة، ج 1، ص 549.

(5) الصوري، الأعمال المنجزة، ج 1، ص 549.

(6) الشارترى، تاريخ الحملة، ص 291.

(7) الصليبيون، ص 139.

(8) المرجع السابق، ص 161. وانظر: Robbin, Syria, P. 197

4- الأوضاع الاقتصادية للصليبيين:-

أثرت هجمات المقاومة الشعبية على الاحتلال الصليبي من الناحية الاقتصادية فيما أحدثته من خسائر في هذا الجانب على- الرغم أن قوة هذا التأثير لم تكن بالحجم المطلوب، ولكن تراكم الهجمات وما أحدثته على المدى البعيد قد أحدث نوعاً من الخسائر الاقتصادية.

حيث كانت هجمات المقاومة الشعبية ضد الصليبيين عبارة عن حرب عصابات-كما أسلفنا- تُشن بدورها ما يعرف في عصرنا الحالي باسم حرب استنزاف لموارد العدو بصفة مستمرة وهذا الاستمرار في الهجمات هو الذي أحدث نوع من الخلل في شتى المجالات وخاصة في المجال الاقتصادي للعدو، وفي بعض الأحيان مارست السلطات الرسمية وبمساعدة مجموعات المقاومة الشعبية ما يعرف بالأرض المحترقة⁽¹⁾ ضد كل ما هو صليبي على أرض بلاد الشام.

والأمثلة التي توضح العمليات الممارسة من قبل أفراد المقاومة الشعبية ضد المصالح الاقتصادية الصليبية كثيرة، وروى كثيراً من حوادثها شاهد العيان أسامة بن منقذ في مشاهداته التي دونها في كتابه الإعتبار⁽²⁾، غير أن ما يؤخذ على أسامة وغيره من المؤرخين أنهم أطلقوا على أفراد المقاومة الشعبية الذين كانوا يقومون بعمليات نهب واستنزاف موارد العدو اسم "الحرامية"⁽³⁾، أو "اللصوص"⁽⁴⁾، والذين كانوا ينتشرون في كثير من مناطق بلاد الشام، بين ممراتها، وفي كهوفها، وعبر المسالك الوعرة يتصدون الصليبيين وقوافلهم⁽⁵⁾، كما كانوا يقومون بمهاجمة خيام العدو⁽⁶⁾ وسرقتها واختطاف الجنود الصليبيين

(1) الأرض المحترقة Scorched earth :- هو مصطلح يفيد عدم البقاء في الأماكن المعرضة لاحتلال الصليبيين، بل تدميرها وحرق محاصيها وتخزينها حتى لا يستفيد العدو منها، وهي نوع من الحرب الاقتصادية التي تمارس ضد العدو حتى لا يستفيد من الموارد المتاحة في المدينة المهاجمة. انظر: توديبود، تاريخ الرحلة، ص128. هامش(7).

(2) ص18-19، 56-59، 99، 198-199.

(3) ابن القلانسي، الذيل، ص178. أسامة بن منقذ، الإعتبار، ص102، 198-199. سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج8، ق2، ص689. ابن العديم، زبدة الحلب، ج2، ص160.

(4) ابن منقذ، الإعتبار، ص56. ابن شداد، النوادر، ص153، 185. العليمي، الأوس الجليل، ج1، ص371-372.

(5) ابن منقذ، الإعتبار، ص57، 102-103، 196-199. سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج8، ص189. ابن العماد، الشذرات، ج3، ص145.

(6) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج19، ص521.

وكذلك النساء والأطفال الصليبيين⁽¹⁾.

وربما كان أفراد المقاومة الشعبية (الحرامية) رديفاً -أي يتبع- الجيش النظامي فيعملون تحت سمعه وبصره، وليتم إطلاقهم للعمل على استنزاف العدو وإحراق الأذى الاقتصادي بعيد الأمد في صفوفه، ويظهر لنا ذلك فيما يرويهِ القلانسي⁽²⁾ حول أحداث سنة 505هـ/1112م عندما كان بلدوين الثاني يحاصر مدينة صور، وكان أفراد المقاومة الشعبية يعملون تحت سمع وبصر وحماية حكام دمشق، حيث يذكر ذلك في قوله: "وخرج ظهير الدين من دمشق حين عرف نزولهم على صور وخيم ببانياس وبث سراياه ورجاله الحرامية في أعمال الفرنج، وأطلق لهم النهب والقتل والسلب والتخريب والحرق طلباً للإزعاجهم وترحيلهم" أي أن حاكم دمشق استغل أفراد المقاومة الشعبية في إحداث خسائر اقتصادية ونوع من الاضطراب والدمار في صفوف الصليبيين.

وفي سنة 510هـ/1117م هاجم الصليبيون حماة فخيّموا حول المدينة تمهيداً لحصارها ثم اجتياحها وفي الحال علم أفراد المقاومة الشعبية بخبر الصليبيين "وخرج من شيزر جماعة من الحرامية يدورون بعسكر الإفرنج يسرقون منه"⁽³⁾، ويتكرر ما حدث في عام 505هـ/1112م، ليحدث في عام 513هـ/1119م عندما صحب أسامة بن منقذ جماعة من النهاية والبادية "لنهب زرع أفامية"⁽⁴⁾.

فعاثوا في زرع الصليبيين وخربوه إلى أن وصلت فرقة من فرسانهم وتم الاشتباك مع النهاية الذين أنقذهم أسامة بمن معه من فرسان المسلمين⁽⁵⁾.

وفي نفس العام قام أفراد المقاومة الشعبية من البدو بمهاجمة الضياع والقرى المحتلة حول مدينة القدس "وأشعلوا النيران في المحاصيل التي كان قد تم تجميعها هناك"⁽⁶⁾ ثم عادوا أدرجهم، ورداً على عمليات النهب والاستنزاف الاقتصادي ضد الصليبيين سار بلدوين الثاني عام 515هـ/1121م لمهاجمة دمشق، وذلك لتأديب "العرب الذين يتهبون الأرض المتاخمة لطبرية"⁽⁷⁾، وقد ذكر الشارترى⁽¹⁾ كيف أن مجموعات المقاومة الشعبية من أهالي عسقلان

(1) ابن شداد، النوادر، ص 153، 185.

(2) الذيل، ص 178.

(3) ابن منقذ، الإعتبار، ص 111.

(4) المصدر نفسه، ص 52.

(5) المصدر نفسه، ص 52.

(6) الشارترى، تاريخ الحملة، ص 222.

(7) المصدر نفسه، ص 247.

كانوا يهاجمون المزارعين الصليبيين ففي سنة 518هـ/1124م هاجم أفراد المقاومة الشعبية ضياع القدس "وقتلوا ثمانية رجال كانوا يعملون في مزارع الكروم خارج المدينة". ويتابع الشارترى⁽²⁾ حديثه في نفس العام مستغرياً الموقف السلبي للصليبيين فيقول: "وهكذا عاش العسقلانيون في الأرض يسرقون يقتلون، ويسبون، وفعلوا ما حلا لهم من الدمار والتخريب، ولم يكن هناك من يقاومهم". وتواصل المقاومة الشعبية تأثيرها على الاقتصاد الصليبي من خلال مهاجمة خيام العدو في أعقاب انتهاء المعركة.

ففي عام 520هـ/1126م خرج طغتكين حاكم دمشق لصد الهجوم الصليبي على دمشق "فجمع التركمانيين وشارط دمشق"⁽³⁾ والتقى بالصليبيين، غير أنه هزم، ففر هو وفرسانه، ولكن الشطار لم يفرو كما فعل طغتكين وجيشه، بل قاموا بالانحياز "على خيام العدو، وقتلوا في الفرنج وحازوا الأموال"⁽⁴⁾.

كما وتمَّ استغلال الفلاحين في عمليات نهب محاصيل العدو الصليبي، ويبدو أن ذلك كان الغرض من وراءه الاستفادة من هذا المحصول وإلحاق الضرر بالاقتصاد الزراعي للصليبيين لما له من دور في دعم الصليبيين في معاشهم واستيطانهم في بلاد الشام، ولو كان الهدف هو التخريب لما تم إسناد مثل هذه العمليات للفلاحين، نظراً لخبرتهم في عمليات جني المحصول وحصاده دون الإضرار به، ويظهر ذلك فيما أورده ابن منقذ⁽⁵⁾ من أنه في عام 532هـ/1138م خرج هو وعمه من شيزر لمهاجمة كفر طاب - وكانت محتلة - وكان معهم "خلق من الفلاحين .. لنهب ما على كفر طاب من غلة وقطن، فانتشر الناس في النهب، وخيل كفر طاب قد ركبت ووقفت عند البلد، ونحن -أسامة وعمه والفرسان- بينهم وبين الناس المنتشرين في الرزح والقطن".

وفي سنة 579هـ/1183م وخلال هجوم صلاح الدين على بيسان "أطلق الناس فيها النيران ونهبوا ما فيها"⁽⁶⁾.

وخلال حصار الصليبيين لعكا سنة 585هـ/1189م كان رجال المقاومة الشعبية قد

(1) الشارترى، تاريخ الحملة، ص 267.

(2) تاريخ الحملة، ص 275-276.

(3) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج 19، ص 521.

(4) المصدر نفسه ج 19، ص 521..

(5) الإعتبار، ص 195.

(6) أبو شامة، الروضتين، ج 3، ص 186.

"شرعوا يتلصصون على الكفار وكبسوا ليلة سوق الخمارات، وسبوا عدة من النساء الحسان فكان في ذلك نكاية عظيمة للكفار، وأمكن الله المسلمين منهم وشرعوا في نهبهم وأسرههم في كل وقت" (1).

وخلال حصار الصليبيين لعكا أيضاً كان "للصوص يدخلون إلى خيامهم ويسرقون أقمشتهم" (2).

وفي سنة 588هـ/1192م شاركت المقاومة الشعبية جيش صلاح الدين في مهاجمة يافا بعد أن استولى عليها الصليبيين خلال الحملة الثالثة " ودخل الناس البلد عنوةً ونهبوا منه أقمشة عظيمة، وغلاباً كثيرة" (3).

ويتضح مما سبق أن السلطة الرسمية قد استغلت أفراد المقاومة الشعبية، في عمليات نهب وسرقة الصليبيين واستنزافهم اقتصادياً، وقامت بحمايتهم، والواضح كذلك أن مثل تلك العمليات لم تكن لتنفيذها القوات النظامية، لأنها أعمال لا يمكن أن يقوم بها أفراد المقاومة الشعبية.

وإذا كانت العمليات السابقة التي قام بها أفراد المقاومة الشعبية ضد موارد الصليبيين الاقتصادية هي أعمال جماعية شاركت فيها أعداد كبيرة من السكان المحليين، فإن هناك الكثير من الأعمال الفردية التي قام بها أفراد المقاومة الشعبية بهدف الإضرار بالمصالح الاقتصادية.

وقد قابل أسامة ابن منقذ أحد أفراد المقاومة الشعبية ممن كانوا يقومون بمهاجمة معسكرات الصليبيين وسرقة خيلهم، وهو شيخ يدعى (الزمركل) يضع على رأسه غطا إمرأه ليتكر من الصليبيين، وقد سأله صديق أسامة: "يا شيخ أي شيء تعمل ها هنا؟ قال: أنتظر الظلام واسترزق الله تعالى من خيل هؤلاء الكفار، قال: يا شيخ، بأسنانك تقطع عن خيلهم؟ قال: لاه بهذه السكين، وجذب سكين من وسطه مشدودة بخيط مثل شعلة النار" (4).

وفي اليوم التالي التقى أسامة وصاحبه بالشيخ وقد جلس في الطريق "على حجر والدم على ساقه وقدمه وقد جمد، قلت -الكلام لأسامة- يهنئك السلامة، أي شيء عملت؟، قال: أخذت منهم حصاناً وترساً ورمحاً ولحقتني راجل وأنا خارج من عسكرهم، فطعنني في

(1) العليمي، الأنس الجليل، ج1، ص361.

(2) ابن شداد، النوادر، ص153.

(3) ابن واصل، مفرج الكروب، ج2، ص395.

(4) ابن منقذ، الإعتبار، ص56.

فخدي، وسبقت الحصان والترس والرمح"⁽¹⁾، وقد ذكر أسامة بأن هذا الشيخ "لص عظيم، وما تبع العسكر إلا وسرق منه"⁽²⁾ فهو من "شياطين اللصوص"⁽³⁾، والذين يبدو أنهم كانوا موجودين بكثرة في نواحي بلاد الشام، ويشتهرون بسرقة أجود أنواع الخيل ليحرموا الصليبيين وسيلة هامة من وسائل النقل.

ومن الأمثلة الأخرى التي تدل على عمليات السطوة الفردية، ما كان يقوم به أحد رجال المقاومة الشعبية ويدعى بعلي بن الدودوية، والذي كان يهاجم المخيمات الصليبية ويسرق أجود أنواع الخيول، وعندما عسكر الصليبيون بخيامهم حول كفر طاب تسلل إليهم علي بن الدودوية خفية "وأخذ حصاناً ركبه وخرج به يركض.. وكان الحصان من أجود الخيل وأحسنها وأسبقها"⁽⁴⁾.

وقد يقوم أحد أفراد المقاومة الشعبية، بتسهيل عملية سرقة كبيرة لمعسكر الصليبيين بمساعدة أهالي القرى من الفلاحين مما يكون له أسوء الأمر على الاقتصاد الصليبي، ومن الأمثلة على ذلك ما رواه الشيخ أبو الحسين بن أبي عبد الله بن حمزة الصوفي المقدسي الزاهد والذي كان يقيم في حلب، حيث يذكر بأنه كان "صادف جماعة من خيالة الفرنج وهم يشربون، فجنّت إلى قرية من قرى المسلمين، التي تجاورهم وتقرب منهم، فقلت لهم: تعالوا حتى أعطيكم خيول الفرنج، قال: فأخذتهم وجئت بهم إلى الموضع والفرنج قد ناموا سكارى، فانتقيت لهم أربعين حصاناً من خيار خيولهم وسلمتها إليهم فأخذوها ومضوا"⁽⁵⁾، وعندما استيقظ الفرنج من سكرتهم استدلوا على الشيخ فقبضوا عليه، وأقرّوه بما فعل، فأخذ يسخر منهم، وادعى أنه قد أخذ خيلهم وربطها عنده لتأكل، فطلبوا منه أن يدلهم على مكانها إذا كانت عنده فعلاً، يقول أبو الحسين الزاهد "فأخذتهم، وجعلت أصعد بهم جبلاً، وأنزل وادياً إلى أن علمت أن المسلمين قد وصلوا بالخيول إلى مأمئهم، فجنّت بهم إلى مغارة هناك فأدخلتهم إليها، وقلت: ها هي خيولكم، وكنت قد ربطت قصباً على معالف وجعلت بين يديها تبناً وربطتها"⁽⁶⁾.

ومن الجدير بالذكر أن البدو من أفراد المقاومة الشعبية قد لعبوا دوراً مهماً في

(1) ابن منقذ، الإعتبار، ص56.

(2) المصدر نفسه، ص58.

(3) المصدر نفسه، ص56.

(4) المصدر نفسه، ص58.

(5) ابن العديم، بغية الطلب، ج10، ص4414.

(6) ابن العديم، بغية الطلب، ج10، ص4414.

استنزاف اقتصاد الصليبيين، ويظهر ذلك في أحداث سنة 574هـ/1179م، وخلال حصار صلاح الدين لحصن بيت الأحزان، كانت بالقرب من الحصن أعداد كبيرة من البدو الذين كانوا قد قدموا للرعي، فعملوا تحت بصر السلطة الرسمية على الوصول إلى حدود الصليبيين⁽¹⁾، حتى وصلوا إلى صيدا وبيروت وصور وأخذوا يسرقون وينهبون، ويخربون و"يعودوا بجمالهم وأحمالها موثقة أنقالها، حتى خف زرع الكفار"⁽²⁾.

وفي سنة 614هـ/1218م أحضر الجنود إلى السلطان المعظم عيسى "خيمة فرنجية سرقها العرب من مخيم الفرنج بظاهر عكا"⁽³⁾.

ومما يؤكد على قوة تأثير المقاومة الشعبية على الصليبيين ما ذكره وليم الصوري⁽⁴⁾ من أن الفلاحين في الأراضي المحتلة "رفضوا زراعة الحقول حتى يعاني شعبنا من الجوع، وفضلوا أن يتحملوا المجاعة على أن يزودوا المسيحيين - يقصد الصليبيين - بأي شيء، ذلك لأنهم أعداء لهم".

ومهما يكن من أمر فقد تأثر الاقتصاد الصليبي بالهجمات التي كانت تشنها المقاومة الشعبية، مما أسهم في القضاء على الاحتلال الصليبي الجاثم على أراضي بلاد الشام. وقد حاول الصليبيون تعويض خسائرهم الاقتصادية، أو ربما الرد على عمليات الاستنزاف المستمرة بعمليات مماثلة، مما أدى إلى خراب الكثير من المحاصيل وتشريد الفلاحين، والأمثلة على ذلك كثيرة، بل أنها أكثر بالمقارنة بعمليات المقاومة الشعبية لأن عملياتهم كانت أكثر تنظيماً وأوسع من عمليات المقاومة التي كانت كما أوضحنا تقوم على الاستنزاف أكثر من أي شيء، ولربما كانت عمليات المقاومة أيضاً رداً طبيعياً لما كانت تقوم به قوات الاحتلال الصليبي ومن ذلك ما حدث سنة 500هـ/ عندما "كثر الفساد من الفرنج في أعمال السواد وهوران"⁽⁵⁾.

وما حدث في نفس العام في ناحية وادي موسى ومآب البلقاء حيث كان الصليبيون قد

(1) الصوري، الأعمال المنجزة، ج2، ص440.

(2) العماد الأصفهاني، البرق الشامي، ج3، ص157-159. البنداري، سنا البرق، ص163-164. أبو شامة، الروضتين، ج3، ص26-27، 35. ابن واصل، مفرج الكروب، ج2، ص74. وانظر: الحيارى، حصن، ص51.

(3) أبو شامة، ذيل الروضتين، ص100.

(4) الأعمال المنجزة، ج1، ص471.

(5) ابن القلانسي، الذيل، ص151. سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ص467.

نهضوا إلى هذه الأعمال وقتلوا فيها وسبوا ونهبوا ما قدروا عليه منها"⁽¹⁾ حتى أصبح "أهلها على غاية من الخوف وسوء الحال عما جرى عليهم من الإفرنج"⁽²⁾، وقد أقر ابن القلانسي صراحة بحدوث الكثير من عمليات السلب والنهب والتخريب في الممتلكات وفي المزارع التي تقع ضمن الأعمال الدمشقية والمناطق الحدودية المتاخمة لمملكة بيت المقدس اللاتينية، مثلما حدث عام 544هـ/1149م⁽³⁾.

كذلك عام 545هـ/1150م حيث جاء الصليبيون إلى ضياع حوران "للإفساد ومنع الفلاحين من الزرع"⁽⁴⁾.

وكذلك في عام 546هـ/1151م من سرقة الصليبيين لأعداد كبيرة من المواشي ممّا أضرَّ بالثروة الحيوانية لناحية البقاع، وهذا الأمر جعل نور الدين يرد على هذا الهجوم، واجتمع إليه "خلق كثير من رجال البقاع"⁽⁵⁾ من السكان المحليين-رجال المقاومة الشعبية- وأدركوا الصليبيين "فقتلوا رجالهم، واستخلصوا من الأسرى والمواشي ما سلم من الهلاك"⁽⁶⁾. وعلى الرغم من الهدنة التي وقعها معين الدين أتر مع الصليبيين في العام 551هـ/ والتي كان من بين شروطها حق المسلمين من عساكر رسمية وفلاحين وأعراب الاستفادة من المراعي الخصبة حول بانياس لرعي خيولهم⁽⁷⁾، إلا أن الصليبيين ونظراً للضيق الاقتصادي نقضوا تلك الهدنة، وذلك أن الأعداد الكبيرة من الخيل والماشية قد أثارت بعض رجالهم الصليبيين -مثل أبناء بليال Belial - فأغاروا على مدينة بانياس⁽⁸⁾ وقد اجتمع فيها "عوامل الفلاحين - فلاحي الضياع- ومواشي الجلابين والعرب الفلاحين الشيء الكثير الذي لا يحصى"⁽⁹⁾ وقتلوا بعضهم وهرب الباقون داخل الغابات القريبة، واستولى الصليبيون على الماشية⁽¹⁰⁾، "واستاقوا جميع ما وجدوه وأفقروا أهله منه"⁽¹⁾.

(1) ابن القلانسي، الذيل، ص 159.

(2) المصدر نفسه، ص 159.

(3) ابن القلانسي، الذيل، ص 308-309. أبو شامة، الروضتين، ج 1، ص 240. حيث يذكر أن "أهل حوران من العربان والفلاحين أخذت أموالهم وسبيت نساؤهم وأطفالهم بيد الإفرنج".

(4) ابن القلانسي، الذيل، ص 311.

(5) ابن القلانسي، الذيل، ص 317.

(6) المصدر نفسه، ص 318.

(7) المصدر نفسه، ص 337. وانظر: الصوري، الأعمال المنجزة، ج 2، ص 255.

(8) الصوري، الأعمال المنجزة، ج 2، ص 255-256.

(9) ابن القلانسي، الذيل، ص 337.

(10) الصوري، الأعمال المنجزة، ج 2، ص 256.

وفي عام 552هـ/1157م تكررت عمليات السلب والنهب والتخريب الصليبية في الممتلكات الإسلامية خاصة في ضياع حمص وحماة⁽²⁾.

وفي العام التالي 553هـ/1158م في مناطق حوران وكذلك يخبرنا أبو شامة عن عمليات التخريب والفساد في الممتلكات الاقتصادية للفلاحين وغيرهم، فالصليبيين في حصن أفامية كانوا "يغيرون على أعمال حمص وشيزر وينهبونها فأهل تلك الأعمال معهم تحت الذل والصغار"⁽³⁾.

وفي سنة 626هـ/1229م أغار الصليبيون على مدينة بارين "وأخذوا جملة من مواشي"⁽⁴⁾.

وقد أسفرت تلك العمليات التي تهدف إلى إنهاء المسلمين اقتصادياً إلى أن تصبح كثير من المناطق خراباً مهجورة حتى أصبحت "الطريق من حمص إلى دمشق قليل العمارة إلا في ثلاثة مواضع أو أربعة"⁽⁵⁾، وهذا بالتالي انعكس على مستوى الإنتاج الزراعي، ممّا جعل بلاد الشام تعاني أوقات عصيبة جراء ذلك، وتعرضت مناطق عديدة لخطر المجاعة أكثر من مرة⁽⁶⁾.

ومن الطريف أن الصليبيين كوّنوا فرقاً من الحرامية التي كانت تقوم بمهاجمة الضياع الإسلامية وسرقتها، وعرفت هذه الفرقة بـ "حرامية الإفرنج" ويذكر سبط ابن الجوزي⁽⁷⁾ أن هؤلاء الحرامية قد هاجموا الشيخ عبد الله الأرمني المتوفي سنة 631هـ/1233م، وأخذوه أسيراً وأن مجموعة من أفراد المقاومة الشعبية "حرامية المسلمين كانوا يطلبون حرامية الفرنج" لمنعهم من مهاجمة القرى الإسلامية حول جبل لبنان".

(1) ابن القلانسي، الذيل، ص 337.

(2) المصدر نفسه، ص 338.

(3) أبو شامة، الروضتين، ج 1، ص 215.

(4) الحموي، التاريخ المنصوري، ص 188.

(5) ابن جبير، الرحلة، ص 183.

(6) قاسم، ماهية الحروب، ص 211.

(7) مرآة الزمان، ج 8، ق 2، ص 689. وانظر: ابن العماد، الشذرات، ج 3، ص 145.

الخاتمة

يمكن إيجاز أهم النتائج التي خلصت إليها الدراسة بما يلي:-

- 1- لعبت الجغرافية دوراً هاماً ومؤثراً في الأحداث السياسية في بلاد الشام زمن الاحتلال الصليبي وساعدت تضاريس ومظاهر سطح بلاد الشام المتنوعة رجال المقاومة الشعبية- أصحاب الأرض الشرعيين- في مقارعة وهزيمة الصليبيين عبر نصب الكمائن، وشن الهجمات المباغتة، وأثرت سلبياً على الصليبيين الذين كونوا مستعمراتهم وقلاعهم لتكون جزر متناثرة في بحر من السكان المعارضين لوجودهم.
- 2- أثرت الأوضاع السياسية المتدهورة، وأوضاع السكان العرقية والمذهبية في بلاد الشام قبيل الغزو الصليبي على شكل وتكوين الجيش الإسلامي، وأضعف من قوته، وهذا بالتالي جعله قوة غير مؤثرة على الساحة، وغير قادر على مواجهة أي قوة عسكرية أجنبية في ذلك الوقت.
- 3- نتيجة لضعف الجيش الإسلامي وتشتت قوته في الحروب الداخلية بين حكام وقادة بلاد الشام أصبحت بلاد الشام تعاني من خلل أمني بعد أن طرق الجيش الصليبي أبوابها فوجدوها مفتوحة أمامهم، وأدى ذلك إلى حشد السكان في المدن لمواجهة الغازي، فظهرت مقاومة من نوع جديد، ألا وهي المقاومة الشعبية.
- 4- كان للظروف السياسية، والتفكك الذي كانت تعانيه بلاد الشام قبيل الغزو الصليبي تأثيرات سلبية ليس على الجيش فقط، بل وعلى السكان المحليين الذين عانوا من تلك الظروف، وهذا بالتالي انعكس على مقاومتهم للاحتلال في بداية الغزو، فكثيراً ما كانت بعض المدن تستسلم دون مقاومة، بل إن بعض الأهالي هجروا مدنهم وقراهم بمجرد سماعهم أنباء وصول الصليبيين.
- 5- قاوم السكان في بلاد الشام الغزو الصليبي بشدة خلال حصار الصليبيين لمدنهم على الرغم مما كانوا يعانونه من سوء الأوضاع على شتى الأصعدة، ولعل ثبات المدن الساحلية أمام الحصار الصليبي لعدة سنين دليل واضح على مدى عزمهم على مواصلة المقاومة حتى الشهادة دفاعاً عن ثرى بلادهم.
- 6- على الرغم مما كانت تعانيه القوى السياسية وجيوشها النظامية من ضعف نظراً للظروف السياسية التي كانت تمر بها البلاد قبيل الغزو الصليبي، إلا أنه ظهرت للباحث خلال الدراسة نتيجة مفادها أن للدعم السياسي الرسمي دور في دعم صمود المقاومة الشعبية ومساندتها، حيث أنها كثيراً ما كانت تعمل تحت رعاية القوة الرسمية.

- 7- شارك السكان في بلاد الشام على اختلاف فئاتهم وتنوع طبقاتهم، وتعدد أطيافهم السياسية وألوانهم العرقية والمذهبية في المقاومة الشعبية ضد الاحتلال الصليبي.
- 8- تأرجح موقف الطوائف المسيحية، والعرقية من المحتل الصليبي فتارة نجدهم يقاومون المحتل الصليبي، وتارة أخرى نجدهم مساندين لذلك المحتل.
- 9- نوعت المقاومة الشعبية من أساليبها، وطورت من أدائها حسب ما كانت تقتضيه الظروف المختلفة.
- 10- أدرك الصليبيون مدى العداوة التي يكنها لهم السكان المحليون، فزادوا من أعبائهم وشددوا عليهم من خلال فرض الضرائب الباهظة، وتشكيل المحاكم لمعاقبة أفراد المقاومة الشعبية، كما قاموا ببناء العديد من القلاع والمخافر على طول الطرق المؤدية إلى المناطق المحتلة لحماية قوافل الحجاج، والعسكريين، كما وقاموا بمعاقبة السكان بالقتل والتهجير.
- 11- أثرت المقاومة الشعبية تأثيراً واضحاً على الوجود الصليبي في بلاد الشام في عدة مجالات، وذلك من خلال ما قام به الأهالي من ثورات، وتقديم معلومات هامة للحكام المسلمين، ومشاركتهم في المعارك وفتوح المدن والمناطق المحتلة، أضف إلى ذلك التأثير الواضح على الإقتصاد الصليبي، من خلال رفض الفلاحين لزراعة الأراضي بهدف تجويع الصليبيين، والهجمات الاستنزافية التي كان يشنها أفراد المقاومة الشعبية على الضياع الصليبية فينهبوها أو يقوموا بحرقها.
- وختاماً أسأل العلي القدير، أن نكون وفقنا في إتمام هذه الدراسة، والله الهادي والموفق إلى سواء السبيل، فإن أخطأت فمن نفسي، وإن أصبت فمن الله " وما أبري نفسي " ربنا لاتؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا".

الملاحق

ملحق رقم (1)

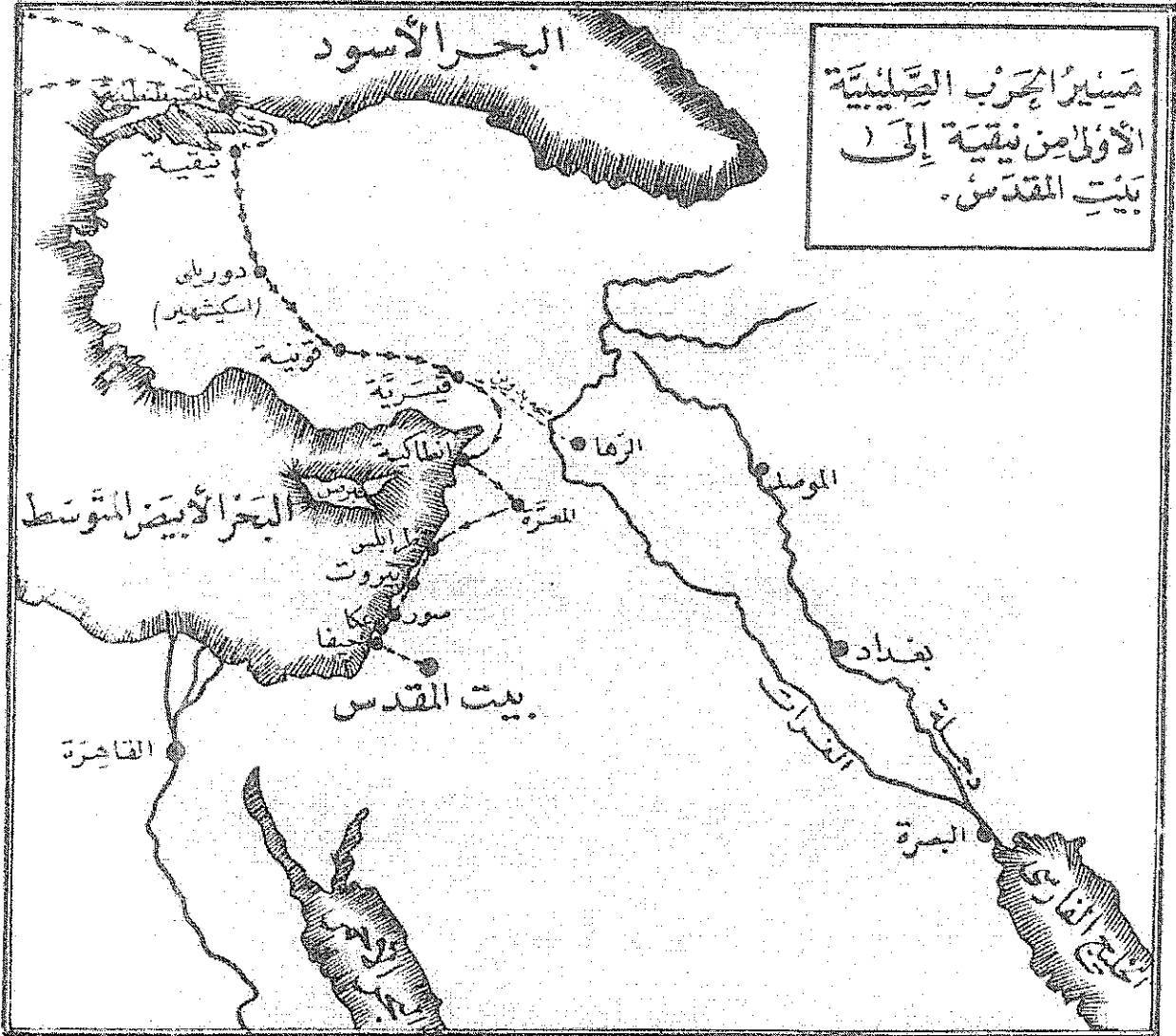
نص رسالة الناصر داود صاحب الكرك إلى الشيخ عز الدين بن عبد السلام يذكر فيه خبر الهجوم الذي قام به الداوية على مدينة نابلس في الفترة ما بين يوم الجمعة 4 جمادى الأولى سنة 640هـ/31 تشرين الأول 1224م، حتى الأحد 6 جمادى الأولى 640هـ/2 تشرين ثاني 1242م.

النص (1)

"أحسن الله عزاء المجلس السامي القاضوي العزمي في مصابة بالمسلمين وصبرنا على ما دهمت به حوزة الدين وأثاب الذين استشهدوا بها وعد الشهداء من رضوانه وعوضهم عن بمنازل الأمن من قصور جنانه وسامحننا وإياه بما أهملنا من حماية الدين وحفظ أركانه وبما اعتمده من إغفاله وخذلانه ولا حول ولا قوة بالله قول معترف بتقصيره عن جهاد أعداء الله وأعداء دينه ذكراً جریمته جهراً بلسانه وسراً بيقينه وذلك بمصيبة المسلمين بمدينة نابلس التي قتلت فيها المشايخ والشبان وسببت الحلايل والصبيان واستولت يد الكفر على ما كان مدخراً من الأموال والغلال وما جمعه المسلمون لازمتهم في السنين الطوال فهو يوم ضرب فيه الكفر بجرانه وتبخر فيها أنصاره وأعوانه وزها على الإسلام برونق زمانه وهو اليوم الذي تقابلا فيه بأحجم الإسلام ثم تولى واقتسما فيه بالسهام فكان سهم الكفر هو السهم المعلا فيا لها من فجیعة أبكت العيون وانكت الجفون وهجمت على القلوب من أسماعها فودت لو أنها سبقت المنون ليتني نبذت قبل سماعها قصياً أو ليت ربي لم يجعلني لعباده أو ليتني مت قبل هذا وكتبت نسياً منسياً".

(¹) (مجهول، الفوائد، لوحة، 119-120. اليونيني، ذيل، ج1، ص157-158.

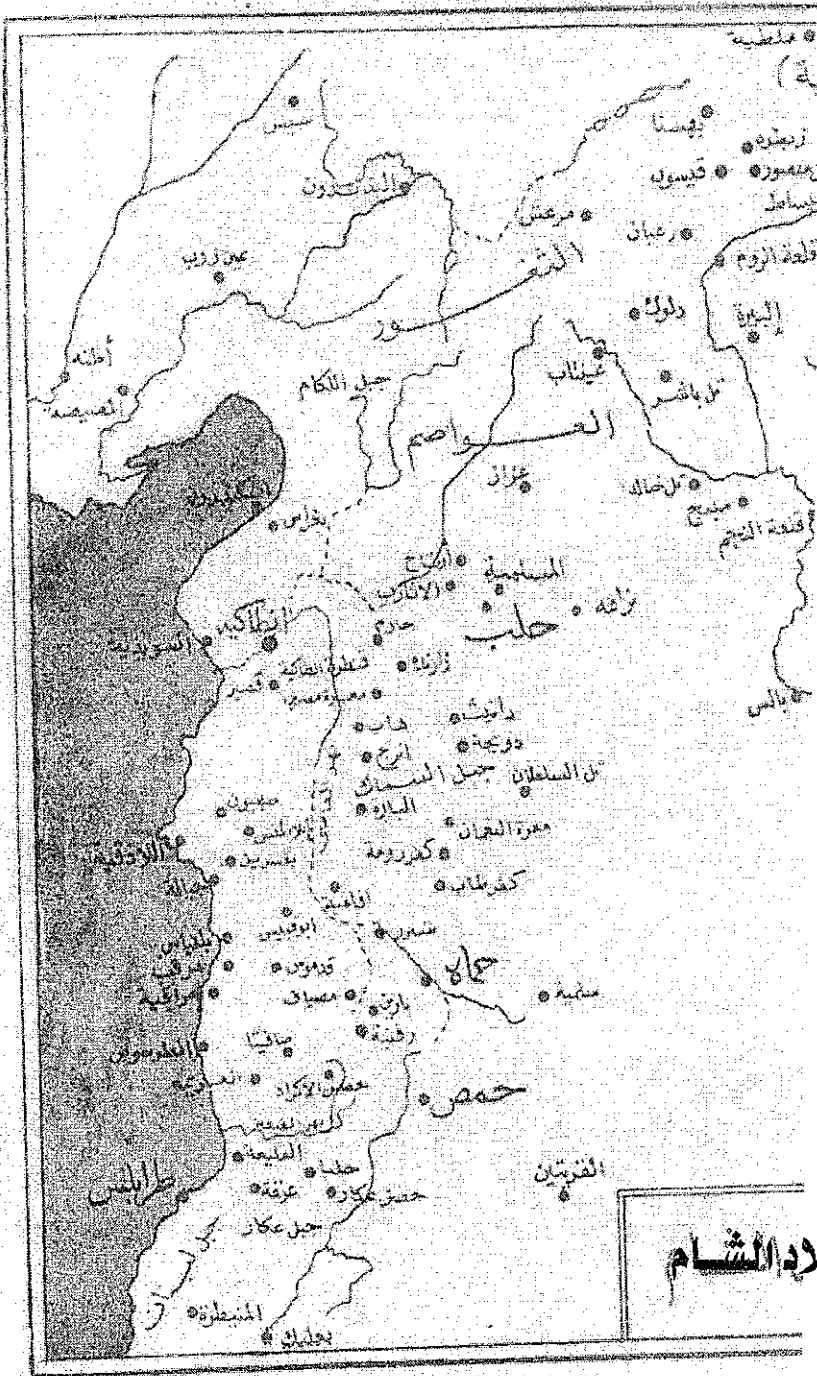
ملحق رقم (3)
خط سير الحملة الصليبية الأولى



المصدر: المطوي، الحروب الصليبية، ص 53.

ملحق رقم (4)

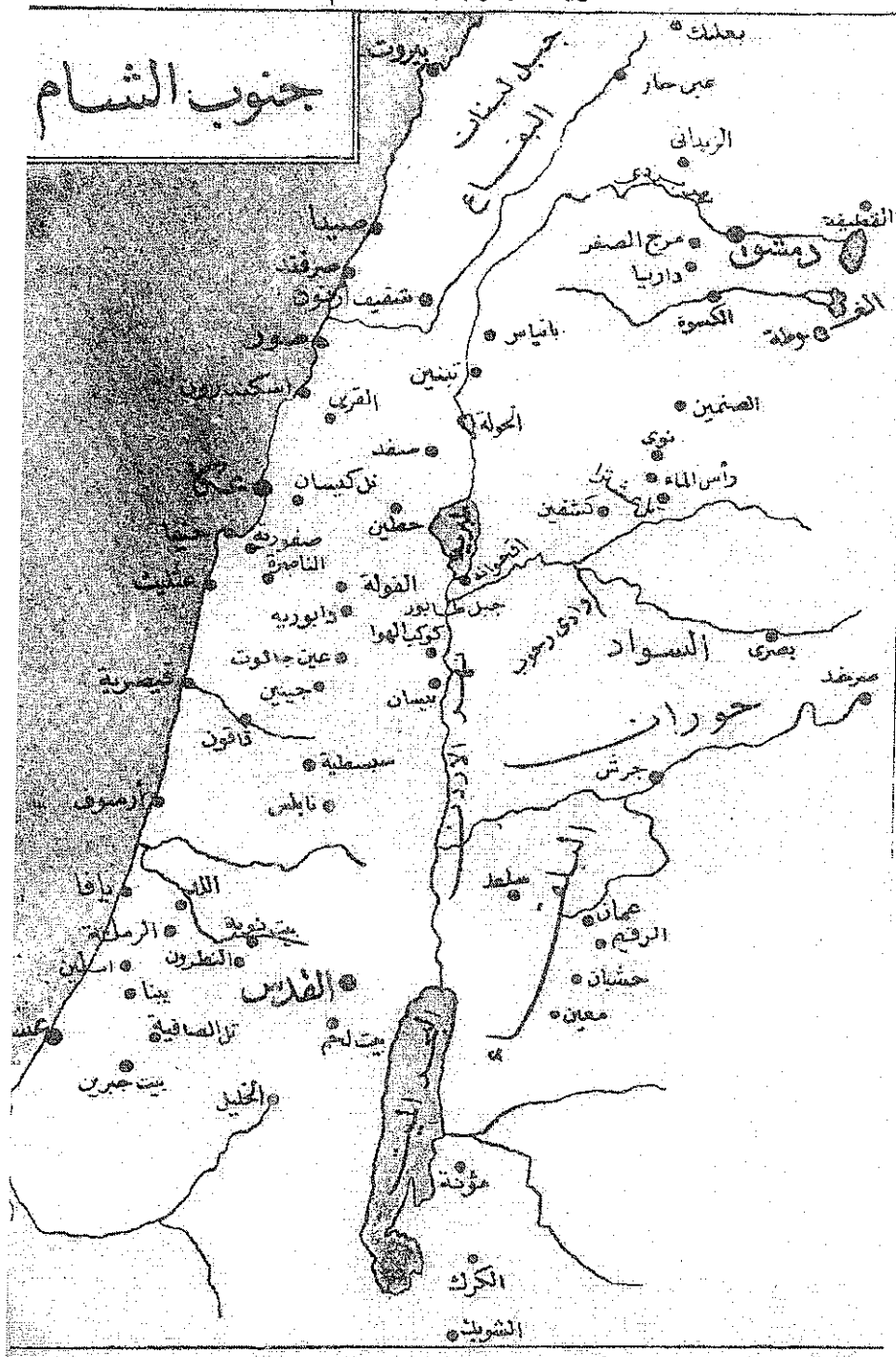
خريطة شمال بلاد الشام



المصدر: مؤنس، نور الدين، ص 418.

ملحق رقم (5)

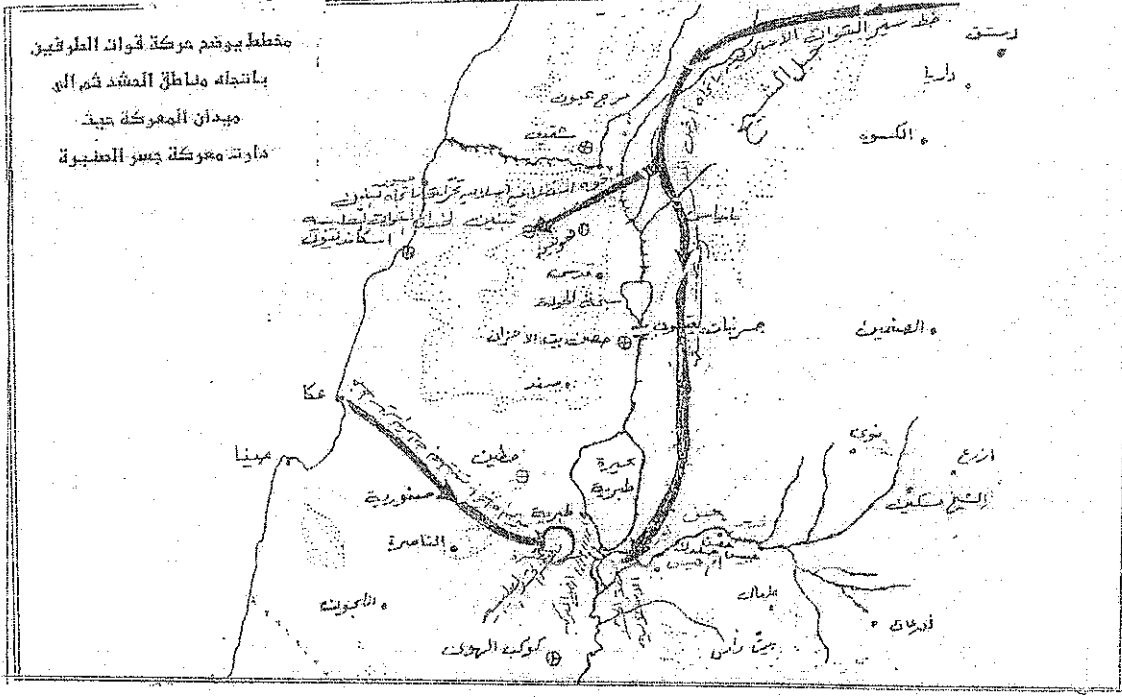
خريطة جنوب بلاد الشام



المصدر: مؤنس، نور الدين، ص 419.

ملحق رقم (6)

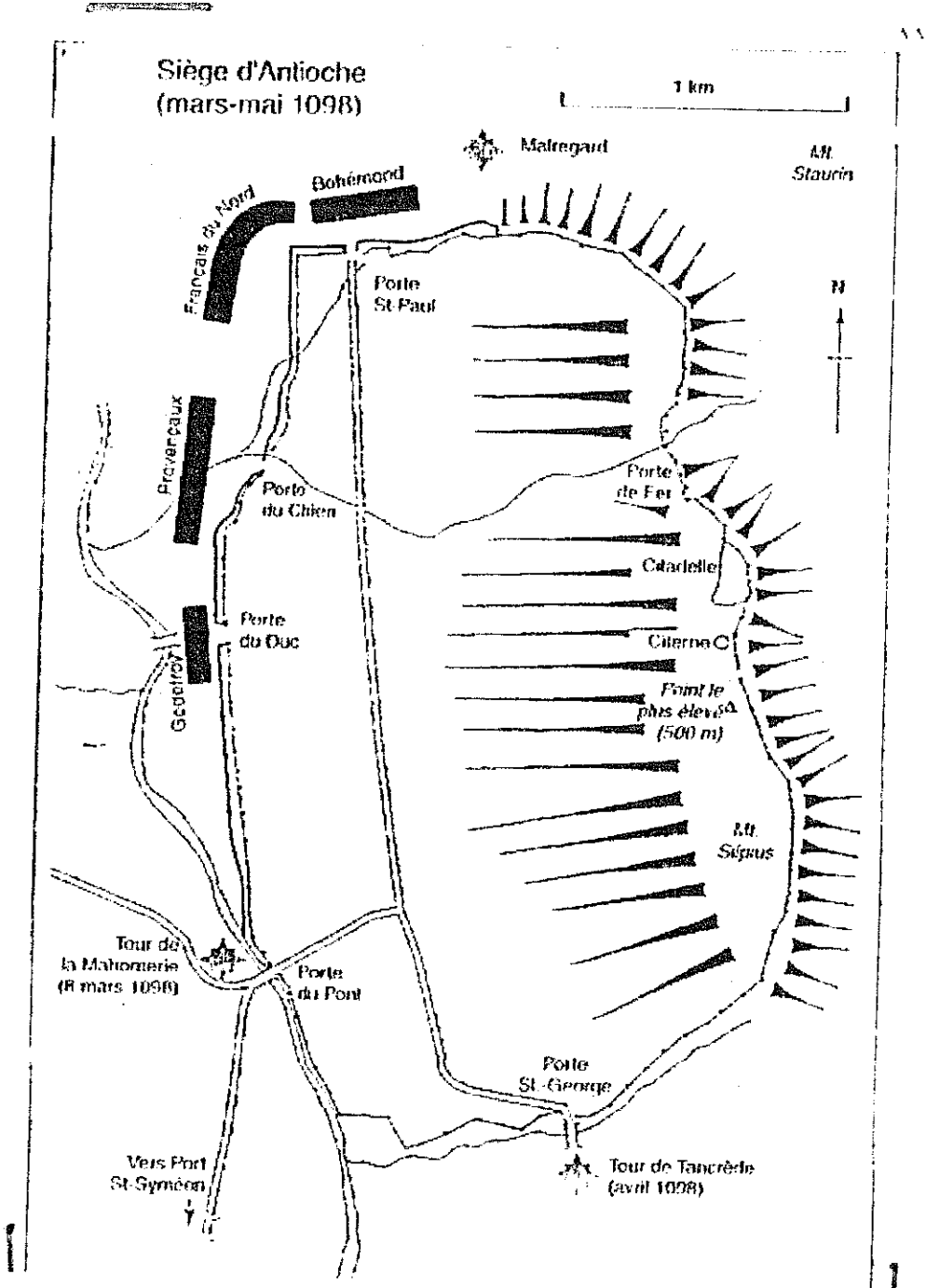
خريطة معركة جسر الصنبرة 507 هـ



المصدر: الدويكات، إقطاعية طبرية، ص 383.

ملحق رقم (7)

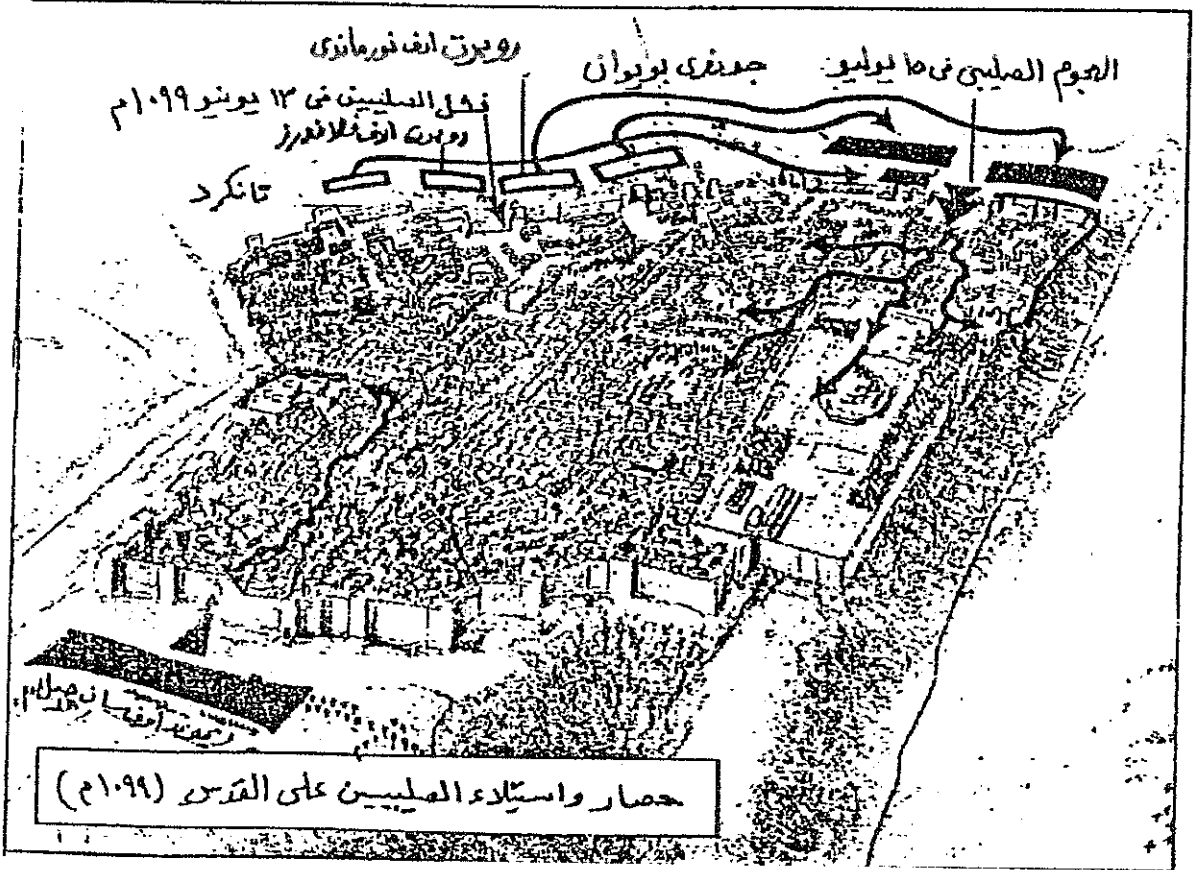
لوحة تمثل حصار الصليبيين لأنطاكية عام 1098م/491هـ



المصدر: بالار، الحملات الصليبية، ص 88.

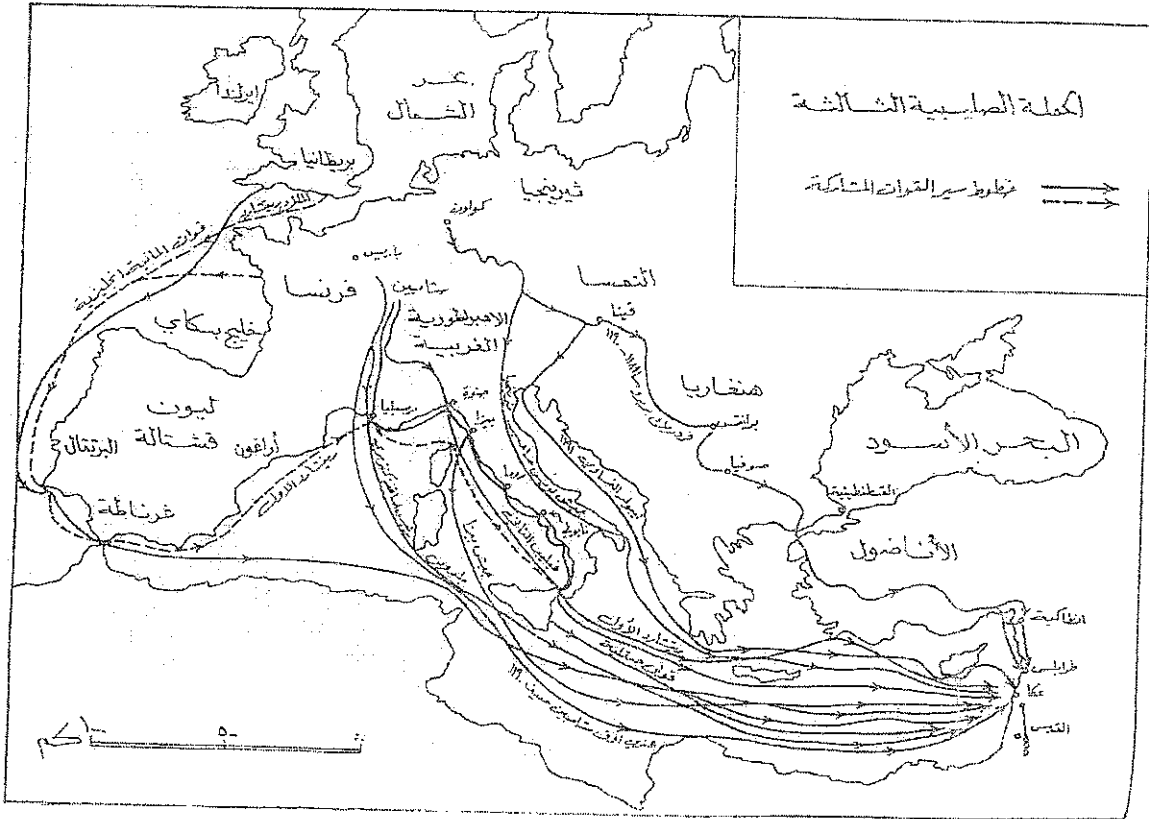
ملحق رقم (8)

حصار الصليبيين للقدس عام 1099م/492هـ



ATIAS of the crusades.

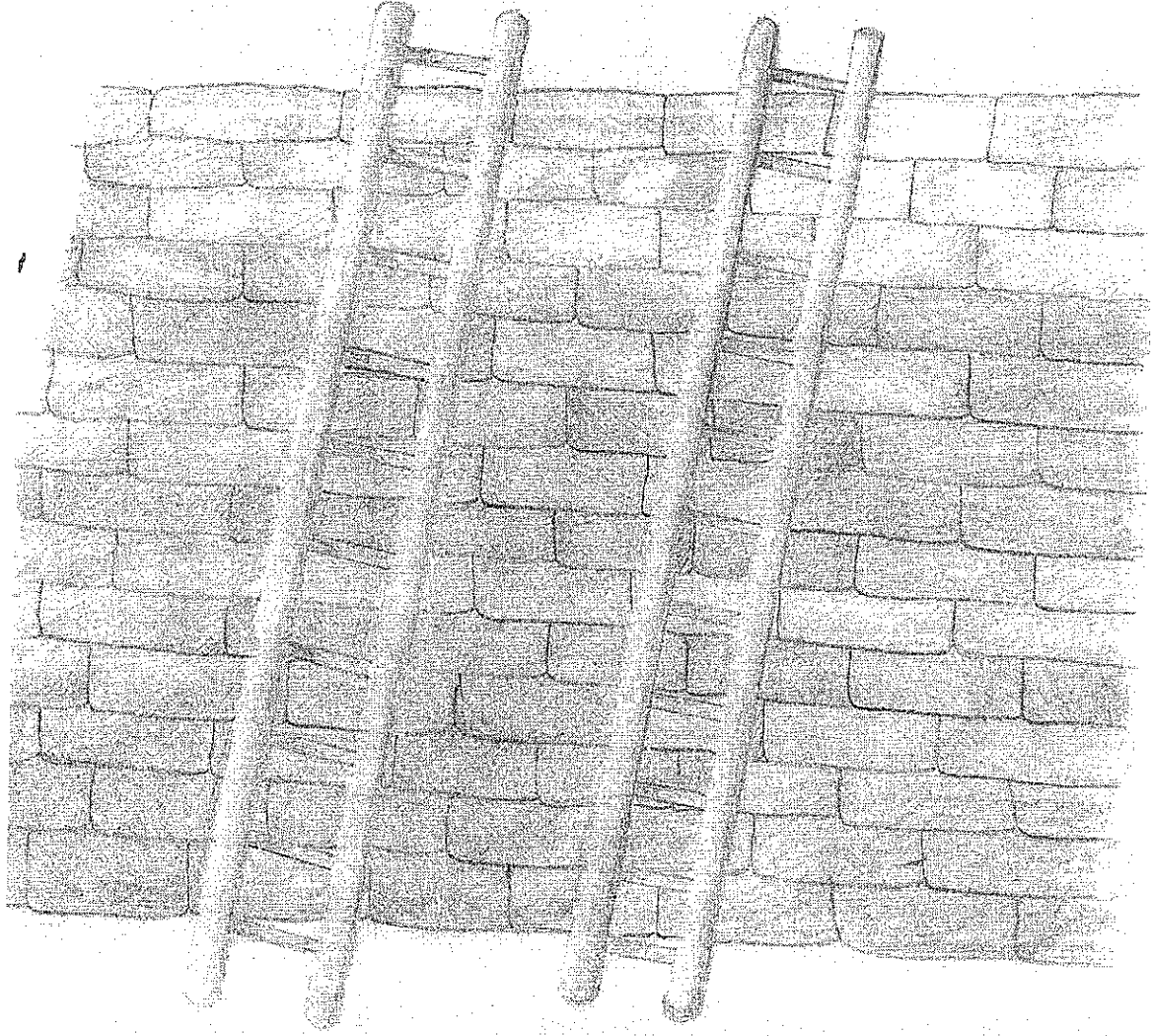
ملحق رقم (9)
خط سير الحملة الصليبية الثالثة



المصدر: سلامة، عكا، ص 159.

ملحق رقم (10)

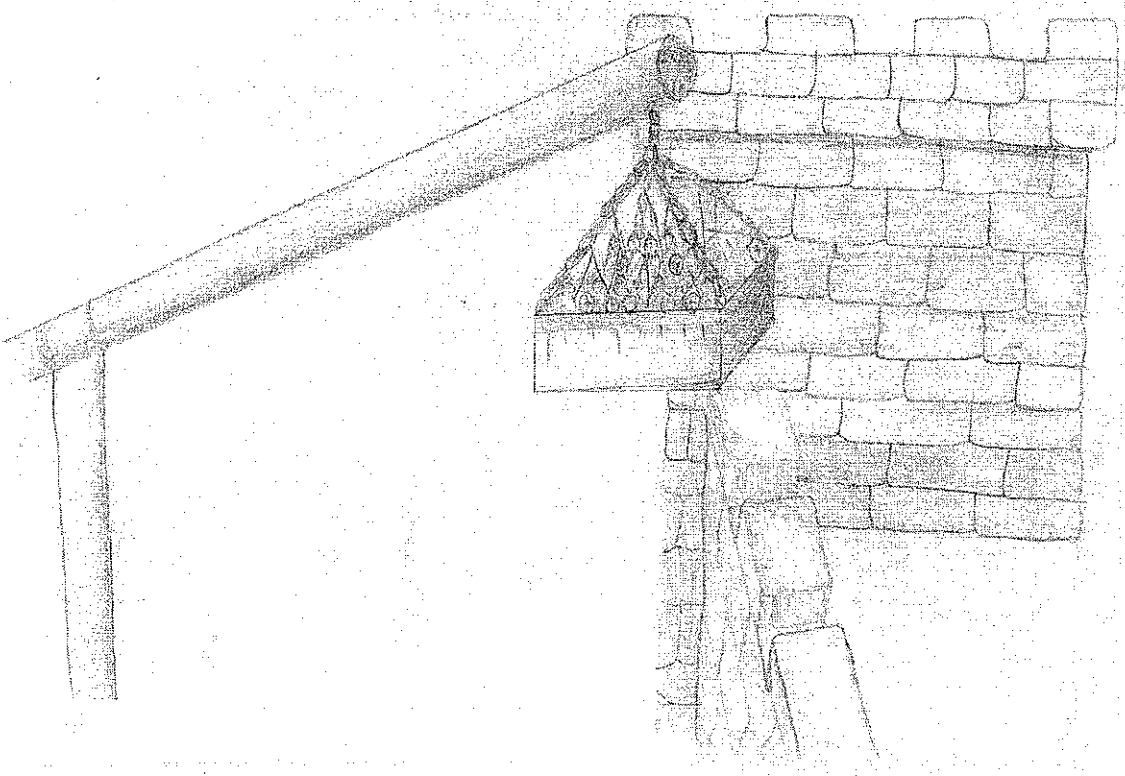
لوحة تمثل آلة من آلات الحصار الصليبية للمدن الإسلامية (السلام) من رسم الباحث



المصمم

ملحق رقم (11)

لوحة تمثل آلة من آلات الحصار الصليبية للمدن الإسلامية (الرافعة) من رسم الباحث

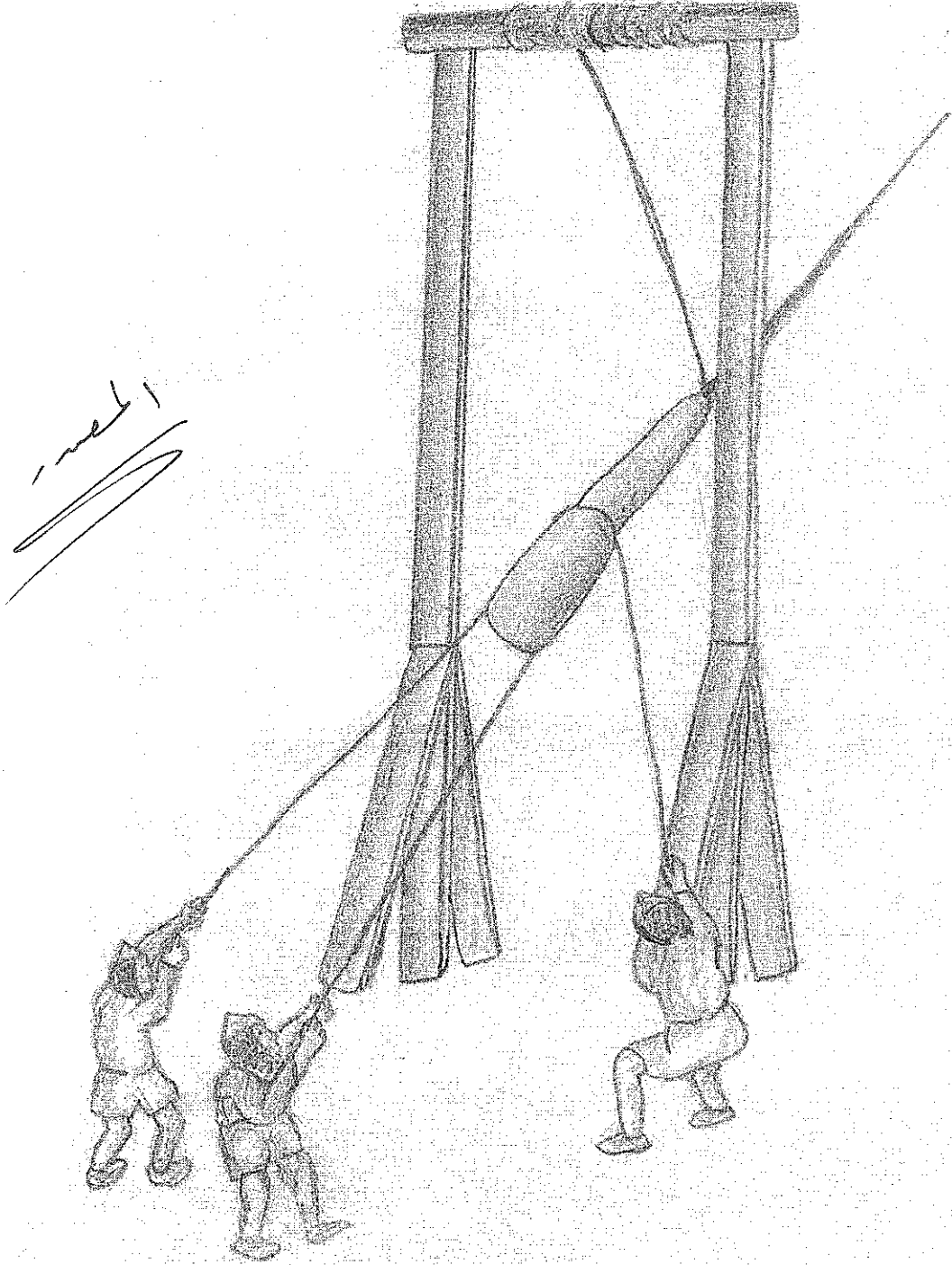


المسرح

ملحق رقم (12)

لوحة تمثل آلة من آلات الحصار الصليبية للمدن الإسلامية (خطاف طويل لتخريب السور

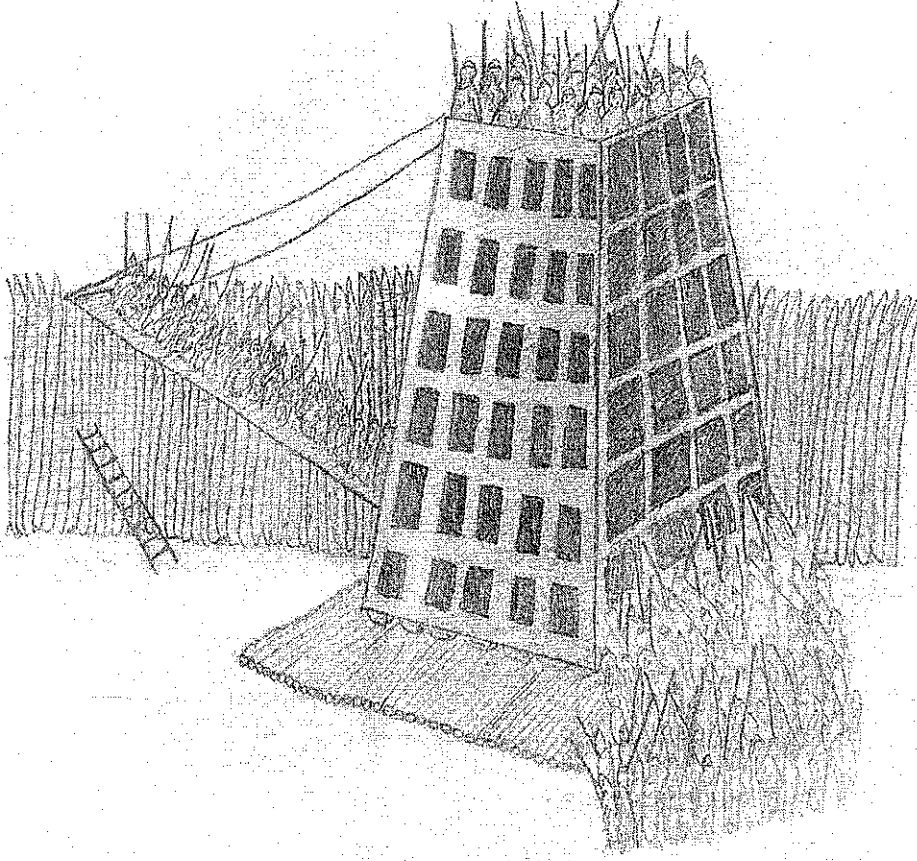
وفتح ثغرة) من رسم الباحث



ملحق رقم (13)

نوحة تمثل آلة من آلات الحصار الصليبية للمدن الإسلامية (الدبابة، أو برج الاقتحام) من

رسم الباحث



المعلم

المصادر والمراجع

- أولاً : المخطوطات.
- ثانياً : المصادر العربية.
- ثالثاً : المصادر الأجنبية.
- رابعاً : المصادر الأجنبية المترجمة.
- خامساً : المراجع العربية.
- سادساً : المراجع الأجنبية.
- سابعاً : المراجع الأجنبية المترجمة.
- ثامناً : الدوريات العربية.
- تاسعاً : الدوريات الأجنبية المترجمة.
- عاشراً : الموسوعات والمجموعات الخاصة.

أولاً: المخطوطات

1. ابن حبيب، الحسن بن عمر (ت 799هـ/1377م):
"درة الأسلاك في دولة الأتراك"، مخطوط مصور بداية الكتب المصرية تحت رقم (6170 ح).
2. السلامي، شهاب الدين أحمد (مجهول سنة الوفاة):
"مختصر التواريخ"، دار الكتب المصرية، رقم (9051 ح)
3. العمري، أحمد بن سعيد:
"نخيرة الإعلام بتاريخ الخلف والأعلام من أمراء مصر الحكام"، مخطوط بمكتبة
الأسكندرية، رقم 12428.
4. مجهول:
"الفوائد الجليلة في الفرائد الناصرية"، أو كتاب "سيرة الملك الناصر"، مخطوط في المتحف
البريطاني، لندن، رقم (3025 ح).

أولاً:المخطوطات

1. ابن حبيب، الحسن بن عمر (ت 799هـ/1377م):
"درة الأسلاك في دولة الأتراك"، مخطوط مصور بداية الكتب المصرية تحت رقم (6170ح).
2. السلامي، شهاب الدين أحمد (مجهول سنة الوفاة):
"مختصر التواريخ"، دار الكتب المصرية، رقم (9051ح)
3. العمري، أحمد بن سعيد:
"نخيرة الإعلام بتاريخ الخلف والأعلام من أمراء مصر الحكام"، مخطوط بمكتبة
الأسكندرية، رقم 12428.
4. مجهول:
"الفوائد الجليلة في الفرائد الناصرية"، أو كتاب "سيرة الملك الناصر"، مخطوط في المتحف
البريطاني، لندن، رقم (3025 ح).

ثانياً: المصادر العربية:

1. ابن الأثير، أبو الحسن علي بن أبي الكرم الشيباني الجزري الملقب بعز الدين (ت 630هـ/1232م):
- "الكامل في التاريخ"، تحقيق أبو الفداء عبد الله القاضي، ط2، دار الكتب العلمية، بيروت 1995م.
- "التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية بالموصل"، تحقيق عبد القادر أحمد طليمات، دار الكتب الحديثة، القاهرة، ط2، 1995م.
- "اللباب في تهذيب الأنساب"، دار صادر بيروت، د.ط، د.ت.
2. الإدريسي، أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس، (ت 560هـ/1164م):
"المشتاق في اختراق الآفاق"، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 1415هـ/1994م.
3. الأزدي، أبو الحسن علي بن منصور ظافر بن حسين (ت 613هـ/1326م):
- "أخبار الدول المنقطعة"، تحقيق عصام هزايمة وآخرون، ط1، دار الكندي، أربد، 1999م.
- "أخبار الدولة الحمدانية بالموصل وحلب وديار بكر والشغور"، تحقيق تيممة الرواف، ط1، دار حسان للطباعة والنشر، 1985م. اللبان في تهذيب الأنساب، يتيمة الدهر.
4. ابن أسعد، عبد الله بن أسعد الموصلية (ت 581هـ/1185م):
"ديوان ابن أسعد الموصلية"، أعد تكملته وحققه عبد الله الجبوري، بغداد، 1986م، دن، د.ط.
5. الإصطخري، أبي اسحاق إبراهيم بن محمد الفارسي (توفي في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي):
"مسالك الممالك" مطبعة إيريل، لندن، 1937م.
6. ابن أبي أصيبعة، موفق الدين أبي العباس أحمد بن القاسم السعدي الخرجي، (ت 668هـ/1269م): "عيون الأنباء في طبقات الأطباء"، ضبطه وصححه ووضع فهرسه محمد باسل عيون السود، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت 14هـ/1998م.
7. ابن أيوب، تاج الدين:
"منتخبات من كتاب التاريخ"، مطبوع في ذيل كتاب النوادر السلطانية، المحاسن اليوسفية، لابن شداد، دار الفكر، بيروت، د.ط، د.ت.

8. البخاري، أبو عبد الله (256هـ/869م) :
"صحيح البخاري"، شرح الحافظ أحمد بن محمد بن علي ابن حجر العسقلاني، عناية عبد العزيز بن عبد الله بن باز، ترقيم، محمد فؤاد عبد الباقي، المكتبة السلفية.
9. ابن بطوطة، محمد بن عبد الله بن محمد اللواتي (ت779هـ/1377م):
"الرحلة المسماة تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار"، تحقيق علي المنتصر الكتاني، ط4، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1984م.
10. البغدادي، صفي الدين، عبد المؤمن بن عبد الحق (739هـ/1339م):
"مرصد الإطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع"، تحقيق علي محمد اليحاوي، دار المعرفة الجامعية، بيروت، د.ط، د.ت.
11. البكري، أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز بن محمد (ت 487هـ/1094م):
"معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع"، تحقيق مصطفى السقا، ط3، عالم الكتب، بيروت، 1982م.
12. البنداري، الفتح بن علي بن محمد (ت 622هـ/1225م):
- "تاريخ دولة آل سلجوق للعماد الأصفهاني"، تحقيق لجنة إحياء التراث العربي في دار الآفاق الجديدة، ط3، دار الآفاق الجديدة، بيروت، 1980م.
- "سنا البرق الشامى"، مختصر البرق الشامى للعماد الأصفهاني، تحقيق فتحية النبراوي، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1979م.
13. ابن تغري بردي، أبو المحاسن جمال الدين يوسف (ت 874هـ/1469م):
"النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة"، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، القاهرة، د.ت.د.ط.
14. ابن تميم المقدسي، شهاب الدين أبي محمود، (ت 765هـ/1363م):
"مثير الغرام إلى زيارة القدس والشام"، ط1، دار الجيل، بيروت، 1415هـ/1994م.
15. الترمذي، محمد بن عيسى (ت279هـ/892م):
"الجامع الصحيح أو سنن الترمذي"، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار الحديث، القاهرة، ب.ت.
16. الثعالبي، أبو منصور عبد الملك (ت 429هـ/1037م):
"بئيمة الدهر في محاسن أهل العصر"، تحقيق مفيد محمد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، 1983م.

17. ابن جبير، محمد بن أحمد (ت 614هـ/1217م):
"الرحلة المسماة تذكرة الأخبار عن اتفاقات الأسفار"، دار الكتاب اللبناني، دار الكتاب،
المصري، بيروت-مصر.
18. الجزري، شمس الدين أبي عبد الله محمد بن إبراهيم بن أبي بكر القرشي (ت 699
هـ/1299م):
- "تاريخ حوادث الزمان وأنبائه ووفيات الأكابر والأعيان من أبنائه المعروف بتاريخ
ابن الجزري"، 3 أجزاء، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، ط1، المكتبة العصرية
للطباعة والنشر، صيدا / بيروت، 1419هـ/1998م.
- "المختار من تاريخ بن الجزري"، اختيار الذهبي، تحقيق خضير عباس وخليفة
المنشداوي، دار الكتابة العربي، بيروت، 1988م.
19. ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي (ت 597هـ/1200م):
"المنتظم في تاريخ الأمم والملوك"، 17 جزء، تحقيق محمد عبد القادر عطا ومصطفى
عبد القادر عطا، ط1، بيروت، 1413هـ/1992م.
20. ابن حبان، محمد بن حبان بن أحمد (ت 354هـ/965م):
"مشاهير علماء الأمصار"، تحقيق فلايشهمر دار الكتب العلمية، بيروت، 1987م.
21. ابن حبيب، الحسن بن عمر (ت 799هـ/1377م):
"تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه"، تحقيق محمد محمد أمين، الهيئة المصرية العامة
للكتاب، القاهرة ج(1) سنة 1976م، ج(2) سنة 1982م، ج(3) سنة 1986م.
22. ابن حجر العسقلاني، شهاب الدين أحمد (ت 852هـ/1448م):
"الدرر الكامنة في أعيان المئة الثانية"، تحقيق محمد سيد جاد الحق، بيروت، د.ت، د.ن،
د.ط.
23. الحريري، أحمد بن علي، (ت بعد سنة 926هـ/1519م):
"الإعلام والتبيين في خروج الفرنج الملاعين على نيار المسلمين"، تحقيق سهيل زكار،
مكتبة دار الملاح، 1401هـ/1980م.
24. ابن حزم، أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الظاهري (ت
456هـ/1064م):
"الفصل في الملل والأهواء والنحل"، بيروت، 1975م، د.ط، د.ن.

25. الحسيني، صدر الدين بن علي (ت 575هـ/1179م):
"أخبار الدولة السلجوقية"، اعتنى بتصحيحه محمد إقبال، دار الآفاق الجديدة، بيروت.
26. ابن أبي حصينة، الأمير أبي الفتح الحسن بن عبد الله السلمي المعري، (ت 457هـ/1065م):
"ديوان ابن أبي حصينة"، تحقيق محمد أسعد طلس، دمشق، 1375هـ/1956م، د.ط.
27. الحموي، أبي الفضائل محمد بن علي بن نظيف (630هـ/1232م):
"التاريخ المنصوري"، تلخيص الكشف والبيان في حوادث الزمان، تحقيق أبو العيد دودو، مراجعة عدنان درويش، مطبعة الحجاز، دمشق، 1981م.
28. الحموي، شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله: (ت 626هـ/1228م):
-"معجم الأدباء" المعروف بإرشاد الأريب إلى معرفة الأديب، 7 أجزاء، حققه وضبط نصوصه وقدم له: عمر فاروق الطباع، ط1، مؤسسة المعارف، بيروت، 1420هـ/1999م.
- "معجم البلدان"، 7 أجزاء، ط2، دار صادر، بيروت، 1416هـ/1995م.
29. ابن حنبل، أحمد (ت 241هـ/855م):
"المسند"، شرحه وضع فهارسه أحمد محمد شاكر، دار المعارف بمصر، ب.ت.
30. الحنبلي، أحمد بن إبراهيم (ت 876هـ/1471م):
"شفاء القلوب في أخبار بني أيوب"، تحقيق وتعليق مديحة الشرقاوي، مكتبة الثقافة الدينية، بور سعيد، 1996م.
31. ابن حيوس، أبو الفتيان محمد بن سلطان بن محمد، (ت 473هـ/1080م):
"ديوان ابن حيوس"، جزءان، تحقيق ونشر خليل مردم بك، دمشق، 1371هـ/1951م.
32. ابن خرداذبة، أبو القاسم عبد الله بن عبد الله (ت 380هـ/993م):
"المسالك والممالك"، تحقيق دي جويه، مطبعة بريل ليدن، 1889م.
33. خسرو، ناصر (ت 480هـ/1087م):
"سفر نامه"، ترجمة يحيى الخشاب، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1414هـ/1993م.
34. ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد الحضرمي (ت 808هـ/1405م):
"العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من نوي السلطان الأكبر"، دار الكتب العلمية، بيروت، 1992م.

35. ابن خلكان، أبي العباس شمس الدين أحمد بن محمد (ت 681هـ/1282):
 "وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان"، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت،
 1968م.
36. خليفة، حاجي مصطفى بن عبد الله القسطنطيني (ت 1067هـ/1656م):
 "كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون"، دار الكتب العلمية، بيروت، 1992م.
37. ابن خياط، خليفة (ت 240هـ/854م):
 "تاريخ خليفة بن خياط"، تحقيق أكرم ضياء العمري، ط2، دار القلم، مؤسسة الرسالة،
 دمشق، بيروت، 1397هـ. "الطبقات"، تحقيق أكرم ضياء العمري، ط2، دار طيبة،
 الرياض، 1982م.
38. ابن خياط، أبي عبد الله محمد بن علي التغلبي (ت 517هـ/1123م):
 "ديوان ابن خياط"، تحقيق خليل مردم بكن المطبعة الهاشمية - دمشق، نشرة مجمع اللغة
 العربية بدمشق، سنة 1958م، د.ط.
39. الدارمي، أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن بن الفضل (ت 255هـ/868م):
 سنن الدرامي، طبع بعناية محمد أحمد دهمان، دار إحياء السنة النبوية، د.ت، د.ط.
40. أبو داود، سليمان بن الأشعث (ت 275هـ/888م):
 "السنن"، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار الحديث، القاهرة، 1994م.
41. الدوارني، أبو بكر بن عبد الله بن أبيك (ت 367هـ/1335م):
 "الدرة المضيئة في أخبار الدولة الفاطمية"، تحقيق صلاح الدين المنجد، المعهد الألماني
 للأثار الشرقية، قسم الدراسات الإسلامية، القاهرة، 1961م
42. الدويهي، البطريك اسطفانوس:
 "تاريخ الأزمنة 1095هـ/1699م"، تحقيق بطرس فهد، منشورات دار لحد خاطر،
 بيروت، 1983م، د.ط.
43. الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان (ت 748هـ/1347م):
 -"تذكرة الحفاظ"، 4 أجزاء، وضع حواشيه الشيخ زكريا عميرات، ط1، دار الكتب
 العلمية، بيروت 1419هـ/1998م.
 -"سير أعلام النبلاء"، 17 جزء، تحقيق محب الدين أبي سعيد عمر بن غرامة العمروي،
 ط1، دار الفكر، بيروت، 1418هـ/1997م.

- "تذكرة الحفاظ"، طبعة 1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1998م. "العبر في خبر من غير"، 4 أجزاء، حققه وضبطه أب هاجر محمد السعيد بن بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت.
- "معجم الشيوخ"، جزءان، تحقيق محمد الحبيب الهيلة، ط1، مكتبة الصديق للنشر والتوزيع، الطائف، 1409هـ/1988م.
- "نول الإسلام"، تحقيق فهيم محمد شلتوت، ومحمد مصطفى إبراهيم، القاهرة، 1974م.
44. الرازي، محمد بن أبي بكر بن عبد القادر (ت 721هـ/1321م):
"مختار الصحاح"، تحقيق محمود خاطر، ط1، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، 1995م.
45. ابن الراهب، أبو شاکر بطرس بن أبي الكرم بن المهذب (681هـ/1282م):
"تاريخ ابن الراهب"، عني بنشره، لويس شيخو، بيروت، 1903م، د.ط، ذ.ن.
46. الربيعي، محمد بن عبد الله بن أحمد (ت 397هـ/1006م):
"تاريخ مولد العلماء ووفياتهم"، تحقيق عبد الله أحمد الحمد، ط1، دار العاصمة، الرياض، 1410هـ.
47. ابن رسته، أبي علي أحمد بن عمر (توفي في أوائل القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي):
"الأعلاق النفيسة"، مطبعة بريل، ليدن، 1891م، د.ط.
48. ابن رجب، عبد الرحمن بن أحمد (ت 795هـ/1392م):
"ذيل طبقات الحنابلة"، تحقيق محمد حامد الفقي، مطبعة السنة المحمدية، القاهرة، 195-1953م.
49. سبط ابن الجوزي، شمس الدين أبي المظفر، يوسف بن قزاوغلي (ت 654هـ/1256م):
-"مرآة الزمان في تاريخ الأعيان"، تحقيق ودراسة مسفر ابن سالم الغامدي، الجزء الأول، لمملكة العربية السعودية جامعة أم القرى معهد البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامي، مركز إحياء التراث الإسلامي، مكة، 1987م.
- "مرآة الزمان في تاريخ الأعيان"، تحقيق حيدر آباد، الدكن، الهند، 1952م الجزء الثامن.
50. السبكي، أبي نصر عبد الوهاب بن علي (ت 771هـ/1369م):

- "طبقات الشافعية الكبرى"، تحقيق عبد الفتاح محمد الحلو ومحمود الطناحي، ط2، دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع، الجيزة، القاهرة، 1992م.
51. السخاوي، شمس الدين محمد بن عبد الرحمن، (ت 902هـ/1496م):
"الضوء اللامع لأهل القرن التاسع"، القاهرة، 1934-1936م، د.ط، د.ن.
52. ابن سعد، محمد بن سعد بن منيع (ت 230هـ/844م):
"الطبقات الكبرى"، دار صادر، بيروت.
53. أبو شامة، شهاب الدين أبي محمد عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم، (ت 665هـ/1266م):
- "الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية" ط1، تحقيق إبراهيم الزبيق، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1997م.
- "تراجم رجال القرنين السادس والسابع المعروف بالذيل على الروضتين"، ط2، دار الجيل، بيروت، 1394هـ/1974م.
54. ابن شداد، بهاء الدين يوسف (ت 632هـ/1234م):
"النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية"، دار الفكر، بيروت، د.ط، د.ت.
55. ابن شاهنشاه، محمد بن نقي الدين عمر الأيوبي (ت 617هـ/1220م):
"مضمار الحقائق وسر الخلائق"، تحقيق حسن حبشي، عالم الكتب، القاهرة، د.ط، د.ت..
56. ابن الشحنة، أبو الوليد محب الدين محمد بن محمد، (ت 815هـ/1412م):
"الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب"، وقف على طبعه وعلق حواشيه يوسف بن اليان سركيس الدمشقي، المطبعة الكاثوليكية للأباء اليسوعيين، بيروت، 1909م.
57. ابن شداد الحلبي، عز الدين أبي عبد الله محمد بن علي بن إبراهيم (ت 684هـ/1258م):
"الأعلاق الخطيرة في نكر أمراء الشام والجزيرة"، تاريخ لبنان والأردن وفلسطين، عني بنشره وتحقيقه ووضع فهارسه سامي الدهان، منشورات المعهد الفرنسي للدراسات العربية، دمشق، 1992م.
58. الشهرستاني، أبو الفتح محمد بن عبد الكريم (ت 548هـ/1153م):
"الملل والنحل" تقديم إعداد عبد اللطيف محمد العبد، القاهرة، 1977م، د.ط، د.ن.

59. شيخ الربوة دمشقي الأنصاري:
 "تخبة الدهر في عجائب البر والبحر"، تحقيق مهرن، ط بطرسبرج 1835م.
60. الشيرازي، إبراهيم بن علي بن يوسف (ت 476هـ/1083م):
 "طبقات الفقهاء"، تحقيق خليل الميس، دار القلم، بيروت.
61. الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك (ت 764هـ/1362م):
 -"أمراء دمشق في الإسلام"، تحقيق صلاح الدين المنجد، دمشق، 1955م. "تحفة نوي
 الأبواب فيمن حكم بدمشق من الخلفاء والملوك والنواب"، تحقيق إحسان خلوصي وزهير
 حميدان الصمصام، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، 1992م.
 -"الوفي بالوفيات"، تحقيق مجموعة من الأساتذة، فرانز شتاينر بفيسبادن، بيروت،
 (1962-1963م).
62. ابن الصلاح، تقي الدين أبي عمرو عثمان بن عبد الرحمن الشهرزوري،
 (ت 643هـ/1245م):
 "طبقات الفقهاء الشافعية" جزءان تحقيق محي الدين علي نجيب، ط1، دار البشائر
 الإسلامية للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 1413هـ/1992م.
63. الطبري، محمد بن جرير (ت 310هـ/922م):
 "تاريخ الأمم الملوك"، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1407هـ/1982م.
64. الطرسوسي، مرضي بن علي بن مرضي (ت 589هـ/1193م):
 "تبصرة أرباب الأبواب في كيفية النجاة في الحروب من الأسواء، ونشر أعلام العلم في
 العدد والآلات المعينة على لقاء الأعداء" تحقيق كلود كاهن، مجلة الدراسات الشرقية،
 عدد (12)، بيروت، 1948م.
65. ابن طولون، محمد بن علي الصالحي (ت 953هـ/1546م):
 "القلائد الجوهريّة في تاريخ الصالحية"، تحقيق محمد أحمد دهمان، دمشق، 1949م.
66. ابن الطوير، أبو محمد المرتضي عبد السلام بن الحسن القيسراني (ت
 617هـ/1220م):
 "نزهة المقلتين في تاريخ الدولتين"، أعاد بنائه وحققه وقدم له أيمن فؤاد سيد، دار النشر،
 فرانكس شتايز شتوتغارب، 1992م، د.ط.

67. الظاهري، غرس الدين خليل بن شاهين (ت 872هـ/1467م):
 "زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك"، نشره بولس راديس، مطبعة الجمهورية،
 باريس، 1894م، د.ط.
68. ابن عبد الظاهر، محي الدين عبد الله بن رشيد الدين، بن عبد الظاهر بن نشوان بسن
 عبد الظاهر السعدي المصري، (ت 692هـ/1292م):
 -"الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر" تحقيق عبد العزيز الخويطر، ط1، الرياض،
 1976م، د.ن.
 -"تشریف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور" تحقيق مراد كامل، ط1، القاهرة،
 1961م، د.ن.
69. ابن عبد الواحد المقدسي، ضياء الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الواحد(ت
 643هـ/1245م):
 "فضائل الشيخ الإمام العالم الزاهد أبي عمر محمد بن أحمد بن محمد ابن قدامة
 المقدسي"، تحقيق الحافظ، ضمن كتابه المدرسة العمرية، ط1، دار الفكر، دمشق،
 2000م.
70. ابن العبري، غريغوريوس أبو الفرح بن أهرون(660هـ/1286م):
 "تاريخ مختصر الدول"، بيروت، د.ط، د.ت، د.ن.
71. ابن العديم، كمال الدين عمر بن أحمد بن هبة الله (ت 660هـ/1261م):
 -"بغية الطلب في تاريخ حلب"، تحقيق سهيل زكار، ط1، دار الفكر، بيروت، 1988م.
 -"زبدة الحلب من تاريخ حلب"، تحقيق سامي الدهان، دمشق، 1968م.
72. ابن عساكر، أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله بن عبد الله،(ت 571هـ/1175م):
 "تهذيب تاريخ دمشق الكبير"، هذبه ورتبه الشيخ عبد القادر بدران، ط3، دار إحياء
 التراث العربي للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 1407هـ/1987م.
73. العظيمي محمد بن علي(ت 556هـ/1107م):
 "تاريخ العظيمي"، إعتماًداً على كتاب سهير زكار الحروب الصليبية الحملتان الصليبيتان
 الأولى، والثانية، د.ط، دار حسان د.ت.
74. العليمي، مجير الدين الحنبلي، (ت 927هـ/1520م):

- "الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل"، جزءان، الجزء الأول تحقيق عدنان يونس أبو تيانة، والجزء الثاني تحقيق محمود الكعابنة، ط1، مكتبة دنيس، عمان، 1420هـ/1999م.
75. ابن علي، شافع بن علي بن عباس الكاتب (ت حوالي 730هـ/1329):
 "حسن المناقب السرية المنتزعة من السيرة الظاهرية"، تحقيق عبد العزيز الخويطر، الرياض، 1976م، د.ط، د.ن.
76. العماد الأصفهاني عماد الدين بن عبد الله محمد بن محمد الكاتب (ت 597هـ/1201م):
 -"البرق الشامي"، تحقيق فالح حسين، ط1، مؤسسة عبد الحميد شومان، عمان، الأردن، 1987م.
- "الفتح القسي في الفتح القدسي"، تحقيق محمد محمود صبح، القاهرة، 1965م.
 -"خريدة القصر وجريدة العصر"، قسم شعراء الشام، ط1، تحقيق شكري فيصل، المطبعة الهاشمية، نشره مجمع اللغة العربية بدمشق، 1968م، قسم شعراء مصر، تحقيق أحمد أمين وآخرون، نشر لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، د.ت، د.ط.
77. ابن العماد، شهاب الدين أبي الفلاح عبد الحي بن أحمد بن محمد الحنبلي العكري الدمشقي (ت 1089هـ/1678م):
 "شذرات الذهب في أخبار من ذهب"، 8 أجزاء، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت.
78. ابن العمراني، محمد بن علي بن محمد (ت 580هـ/1184م):
 "الإنباء في تاريخ الخلفاء"، تحقيق قاسم السامرائي، المعهد الهولندي للأثار، القاهرة، 1973/1393م.
79. العمري، شهاب الدين أحمد بن يحيى بن فضل الله، (ت 749هـ/1349م):
 "مسالك الأبصار"، نشره احمد زكي باشا، القاهرة 1924.
80. العيني، بد الدين محمود (ت 855هـ/1451م):
 "عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان"، تحقيق محمد محمد أمين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ج(1) سنة 1987م، ج(2) سنة 1988م، ج(3) سنة 1990م.

81. الغساني، الملك الأشرف، (ت 803هـ/1400م):
 "العسد المسبوك والجوهر المحكوك في طبقات الخلفاء والملوك"، تحقيق شاكراً محمود
 عبد المنعم، دار التراث الإسلامي للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت،
 1395هـ/1975م.
82. الفارقي، أحمد بن يوسف بن علي بن الأزرق، (ت 590هـ/1094م):
 "تاريخ الفارقي، أو الدولة المروانية"، تحقيق بدوي عبد اللطيف، دار الكتاب اللبناني،
 بيروت، 1974م.
83. أبو الفداء، إسماعيل بن علي بن محمود، (ت 732هـ/1331م):
 -"المختصر في أخبار البشر"، جزءان، علق عليه ووضع حواشيه محمود ديوب، ط1،
 دار الكتب العلمية، بيروت، 1417هـ/1997م.
 -"تقويم البلدان"، اعتنى بتصحيحه مطبعة رينود، والبارون ماك كوكين ريسلان، دار
 الطباعة السلطانية، باريس، 1840م.
84. ابن الفرات، ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم (ت 807هـ/1404م):
 "تاريخ الدول والملوك المعروف بتاريخ ابن الفرات"، المجلد الرابع في قسمين تحقيق
 حسن محمد الشماع، البصرة، 1967م/1979م، د.ط، المجلد السابع والثامن، تحقيق
 قسطنطين زريق، ونجلاء عز الدين، بيروت، 1939م.
85. ابن الفوطي أبي الفضل عبد الرزاق بن تاج الدين أحمد الشيباني البغدادي (ت—
 723هـ/1323م):
 -"الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة"، تحقيق مهدي النجم، ط1، دار
 الكتب العلمية، بيروت، 2003م.
 -"تلخيص مجمع الآداب في معجم الألقاب"، الجزء الرابع، القسم الثالث، تحقيق
 مصطفى جواد، دمشق 1965م.
86. ابن قاضي شهبة، بدر الدين (ت 874هـ/1469م):
 "الكواكب الدرية في السيرة النورية"، تحقيق محمود زايد، ط1، دار الكتاب الجديد،
 بيروت، 1971م.
87. القزويني، زكريا بن محمد بن محمود (ت 682هـ/1283م):
 -"أخبار البلاد وأخبار العباد"، دار صادر، بيروت، 1969م، د.ط.
 -"عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات"، ط1، مكتبة الإيمان، المنصورة، 2003م.

88. ابن القلانسي، أبي يعلي حمزة (ت 555هـ/1160م):
 "ذيل تاريخ دمشق"، مطبعة الآباء اليسوعيين، بيروت، 1908م.
89. القلقشندي، أبو العباس أحمد بن علي بن أحمد بن عبد الله (ت 821هـ/1418م):
 "صبح الأعشى في صناعة الإنشاء"، دار الكتب المصرية، 1963م. "مآثر الأناقة في معالم
 الخلافة، تحقيق عبد الستار أحمد فراج، ط2. مطبعة حكومة الكويت، الكويت، 1985م.
90. الكتبي، محمد بن شاكر، (ت 764هـ/1362م):
 "قوات الوفيات"، 5 أجزاء، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت،
 1393هـ/1973م.
91. ابن كثير، أبي الفداء إسماعيل بن عمر (ت 774هـ/1372م):
 "البداية والنهاية"، مكتبة المعارف بيروت، د.ط، د.ت.
92. ابن كنان، محمد بن عيسى (ت 1153هـ): "المروج السند سية الفيحية في تلخيص
 تاريخ الصالحية"، تحقيق محمد أحمد دهمان، مديرية الآثار، دمشق، 1947م.
93. ابن لقلق، كيرلس الثالث (ت 641هـ/1243م):
 "تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية"، نشره أنطون فاخر وازولد بورستر، مطبوعات
 جمعية الآثار القبطية، القاهرة، 1974م.
94. المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين بن علي (ت 354هـ/965م):
 "التنبيه والإشراف"، دار ومكتبة الهلال، بيروت، 1981م.
95. ابن مفلح، برهان الدين إبراهيم بن محمد بن عبد الله بن محمد (ت 884هـ/1479م):
 "المقصد الأرشد في ذكر أصحاب الإمام أحمد"، 3 أجزاء، تحقيق عبد الرحمن بن
 سليمان العثيمين، ط1، مكتبة الرشد للنشر والتوزيع، 1411هـ/1990م.
96. المقدسي، محمد بن أحمد (ت 390هـ/999م):
 "أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم"، تحقيق، غازي طليمات، وزارة الثقافة والإرشاد
 القومي، دمشق، 1980م.
97. المقدسي، شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أحمد المعروف بالبشايوي، (ت
 387هـ/1997م):
 "أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم"، تحقيق غازي طليمات، وزارة الثقافة والإرشاد
 القومي، دمشق، 1980م، د.ط.

98. المقدسي، محمد بن عبد الواحد بن أحمد (ت 643هـ/1245م):
"فضائل بيت المقدس"، تحقيق محمد مطيع الحافظ، ط1، دار الفكر، دمشق، 1984م.
99. المقرئ، نقي الدين أحمد بن علي بن عبد القادر، (ت 845هـ/1441م):
-"السلوك لمعرفة دول الملوك"، تحقيق محمد علي بيضون، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1997م.
- "كتاب المقفى الكبير"، 8 أجزاء، تحقيق محمد اليعلاوي، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1412هـ/1991م.
- "المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط المقرئية"، جزءان، ط2، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 1408هـ/1987م.
- "البيان والإعراب عما بأرض مصر من الأعراب"، تحقيق عبد المجيد عابدين، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1410هـ/1989م.
- "اعتاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء"، جزءان، تحقيق محمد حلمي أحمد، القاهرة، 1971م، د.ط.
100. ابن ممتي، الأسعد بن ممتي (ت 606هـ/1209م):
"قوانين الدواوين"، تحقيق عزيز سوريان عطية، القاهرة، 1973م.
101. ابن منظور، محمد بن مكرم (ت 711هـ/1311م):
"لسان العرب"، ط1، دار صادر، بيروت، د.ت.
102. ابن منقذ، مؤيد الدولة أبو المظفر أسامة بن مرشد بن علي الكناني الشيرازي (ت 584هـ/1188م):
"كتاب الإعتبار"، حرره فيليب حتى، مطبعة جامعة برستون، الولايات المتحدة، 1930، والدار المتحدة، 1986م.
103. ابن ميسر، تاج الدين محمد علي (ت 677هـ/1278):
المنتقى من أخبار مصر، تحقيق أيمن فؤاد سيد، المعهد الفرنسي للآثار الشرقية، القاهرة، 1981، د.ط.
104. مؤلف مجهول (ت 372هـ/938م):
"حدود العالم من المشرق إلى المغرب"، تحقيق يوسف الهادي، ط1، الدار للثقافة والنشر، القاهرة، 1999م.
105. المؤيد في الدين، هبة الله بن موسى بن داود الشيرازي (ت 470هـ/1078م):
"سيرة المؤيد في الدين داعي الدعاة"، تحقيق محمد كامل حسين، القاهرة، 1949م.

106. النسائي، أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي (ت303هـ/915م) :
"سنن النسائي"، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت، د.ط.
107. النعيمي، عبد القادر بن محمد، (ت978هـ/1570م):
"الدارس في تاريخ المدارس"، جزءان، أعد فهارسه إبراهيم شمس الدين، ط1، دار
الكتب العلمية، بيروت، 1410هـ/1990م.
108. النويري، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب، (ت733هـ/1332م):
"نهاية الأرب في فنون الأدب"، 31 جزء، مركز تحقيق التراث، القاهرة،
1412هـ/1992م.
109. الهمذاني، أبو بكر أحمد بن محمد بن الفقيه (ت340هـ/951-952م):
"مختصر كتاب البلدان"، مطبعة بريل، ليدن، 1885م، د.ط.
110. الواسطي، الخطيب أبو بكر محمد بن أحمد (كان حيا في عام 410هـ/1019م):
"فضائل بيت المقدس"، تحقيق إسحاق حسون، معهد الدراسات الآسيوية والأفريقية،
جامعة العبرية بالقدس، القدس، 1979م، د.ط.
111. ابن واصل، جمال الدين محمد بن سالم (ت697هـ/1298م):
"مفرج الكروب في أخبار بني أيوب"، ج1-3، تحقيق جمال الدين الشيال، مطبوعات
إدارة إحياء التراث القديم، المطبعة الأميرية، القاهرة، 1953/1957م.
112. ابن الوردي زين الدين عمر ابن المظفر بن أبي الفوارس (ت749هـ/1348م):
"تتمة المختصر في أخبار البشر"، المعروف بتاريخ ابن الوردي، تحقيق أحمد رفعت
البدرأوي، ط1، دار المعرفة بيروت، 1970م.
113. اليافعي، أبو محمد عبد الله بن أسعد بن علي بن سليمان، (ت768هـ/1366م):
"مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان"، بيروت، 1974م،
د.ن، د.ط.
114. ابن يحيى، صالح بن يحيى بن الحسين (ت840هـ/1437م):
"تاريخ بيروت"، تحقيق فرنسيس هورس و آخرون، بيروت، 1967.
115. اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب بن واضح (ت284هـ/897م):
"البلدان"، ط1، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1988م.
116. اليونيني، قطب الدين أبو الفتح موسى بن أحمد، (ت726هـ/1325م):
"نيل مرآة الزمان"، 4 أجزاء، ط2، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، 1413هـ/1992م.

ثالثاً: المصادر الأجنبية

1. Albert d, Aix:
"Historia Nicenae Vel Antiochenae Prologum, Ed., R.H.C.- O cc." Tome V Paris 1869.
2. Anne Comnen
"The Alexiad, English" trans by Elezabeth Dawes, London, 1928.
3. Eracles:
" L, Estoire d, Eracles Empereur et de Conques, de la Terre d, outré mer. Ed. R.H . C. H. occ." Tome 11, Paris 1859. Mathew Paris, Chronica Majora, inRs, ed. H. R. Luard, London, 1877.
4. 10. Ernst Strehlke:
"Tabulae The ntonici". Toront, 1975.
5. Guibert de Nagen, :
" Historia quae dicitur Gesta Deiper Francos. Ed. R.H. G.F." tom IV, Paris: Imprimerie Nationale, 1879.
6. Henri Glaesner, Raoul de Caen:
"Historien et Ecrivain, in R.H.E., 1951.Norman Daniel :The Arabs and Mediaeral Europe" Liban, 1975.
7. Monitum in Balduini III, :
"Historia Ninicenae Vel Antiochenae Prologum, Ed.,R.H.c.-H.O cc".Tome V.Paris 1869.
8. Raoul de Caen:
"Gesta Tancredi in Expedition Hierosolymitana, Ed. R. H. C- H Occ." Tome III, (Paris, 1866).

رابعاً: المصادر الأجنبية المترجمة:

1. بورشارد من جبل صهيون (عاش في القرن الثالث عشر الميلادي السابع الهجري):
"وصف الأرض المقدسة"، ترجمة سعيد البيشاوي (عمان دار الشروق 1995م).
2. التطيلي الأندلسي، بنيامين بن يونه (ت 569هـ/1173م):
"رحلة بنيامين"، ترجمة عزرا حداد المدرسة الوطنية، بغداد، 1365هـ/1945م.
3. توديبود، بطرس:
"تاريخ الرحلة إلى بيت المقدس" ترجمة حسين محمد عطية، ط1، دار المعرفة الجامعية، 1999م.
4. دانيال الراهب (توفي في القرن الحادي عشر الميلادي/ القرن الخامس الهجري):
"رحلة الحاج الروسي دانيال الراهب في الديار المقدسة، 1106-1107م"، ترجمة:
سعيد البيشاوي وداود أبو هدبة، ط1، دف، عمان 1992م.
5. دويل، أودو أوف: "رحلة لويس السابع إلى الشرق من خلال كتاب سهيل زكار
الحروب الصليبية"، ط1، دار حسان، دمشق 1984م.
6. ريموندا جيل:
"تاريخ الفرنجة غزاة بيت المقدس"، ترجمة حسنين محمد عطية، ط1، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، 1990م.
7. سايلوف:
"رحلة الحاج سايلوف في بيت المقدس والأراضي المقدسة 1102-1103م"، ترجمة
سعيد البيشاوي، ط1، دار الشروق، عمان الأردن، 1997م.
8. الشارترى، فوشيه:
"الاستيطان الصليبي في بيت المقدس"، ترجمة قاسم عبده قاسم، ط1، دار الشروق،
القاهرة، 2001م.
9. الصوري، وليم "الأعمال المنجزة فيما وراء البحار"، ترجمة: سهيل زكار ط1، دار
الفكر 1990م.
10. الفيتري، يعقوب:
"تاريخ بيت المقدس"، ترجمة: سعيد البيشاوي ط1، عمان دار الشروق 1997م.

11. المؤرخ المجهول:

"أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس، ترجمة حسن حبشي"، القاهرة دار الفكر العربي، د.ط 1958م.

خامسا:المراجع

1. إبراهيم، محمود:
"فضائل بيت المقدس في مخطوطات عربية قديمة"، ط1، معهد المخطوطات العربية، الكويت، 1406هـ/1985م.
2. أحمد، أحمد رمضان:
"المجتمع الإسلامي في بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية" د. ط، د. ن، القاهرة 1977. "شبه جزيرة سيناء في العصور الوسطى"، د.ط، د.ن، القاهرة 1977م.
3. الباشا، حسن:
"الألقاب الإسلامية في التاريخ والوثائق والآثار"، القاهرة، 1978م.
4. بدوي، أحمد أحمد:
"الحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام"، دار نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة، د.ط، د.ت.
5. البستاني، بطرس:
"دائرة معارف البستاني"، دار المعارف، بيروت، د.ط، د.ت.
6. البيشاوي، سعيد عبد الله:
"الأراضي الزراعية ومنتجاتها في الخليل في العصر الفرنجي، 492-583هـ/1099-1187م" ضمن كتاب دراسات في تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ط1، 2003م.
- "الممتلكات الكنسية في مملكة بيت المقدس الصليبية"، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1990م.
- "تابلس، الأوضاع السياسية والاجتماعية والثقافية والإقتصادية في عصر الحروب الصليبية" 492-690هـ/1099-1291م" د.ن عمان، الأردن، ط1، 1991م.
7. بيضون، إبراهيم:
"تاريخ بلاد الشام، إشكالية الموقع والدور في العصور الإسلامية"، ط1، دار المنتخب العربي، 1997م.
8. تدمري، عمر عبد السلام:

- تاريخ طرابلس السياسي والحضاري عبر العصور، عصر الصراع العربي-البيزنطي والحروب الصليبية"، ط2، مؤسسة الرسالة، بيروت، دار الإيمان طرابلس، 1984م.
9. توفيق، عمر كمال:
- "مملكة بيت المقدس الصليبية"، ط، الإسكندرية، 1958م.
- "الدبلوماسية الإسلامية والعلاقات السلمية مع الصليبيين دراسات تحليلية وثائقية في التاريخ الدبلوماسي (491-690هـ/1097-1291م)" مؤسسة شباب الجامعة، 1986م، د.ط.
- "معاهدات الصلح والسلام بين المسلمين والفرنج"، خطاب جيد في العجز الإسلامي العربي والمشروع النهوضي العربي الوحدوي، دار الفكر، عمان، ط1، 1995م.
10. جوزيف نسيم يوسف:
"الوحدة وحركات اليقظة العربية إبان العدوان الصليبي"، الإسكندرية، 1966م.
11. جوني، وفاء:
"دمشق والمملكة اللاتينية في القدس منذ أواخر القرن الحادي عشر حتى أواخر القرن الثاني عشر الميلاديين 492-569هـ/1174-1908م"، ط1، دار الفكر، بيروت، 1997م.
12. الحافظ، محمد مطيع:
"المدرسة العمريّة بدمشق وفضائل مؤسسها"، ط1، دار الفكر، دمشق، 1421هـ/2000م.
13. حبشي، حسن:
"الحملة الصليبية الأولى"، دار الفكر، د.ت، د.ط.
14. الحريري، سيد علي:
"الأخبار السنوية في الحروب الصليبية"، المطبعة العمومية، ط1، 1899م، 1317هـ-القاهرة.
15. حسن، محمد إبراهيم:
"جغرافية أوراسيا دراسة إقليمية مقارنة بمظاهرها الطبيعية والبشرية"، مؤسسة الجامعة، ط2004م.
16. حسنين، حسن عبد الوهاب:

- "تاريخ قيسارية الشام في العصر الإسلامي الإسكندرية"، 1990، دار المعرفة الجامعية، ط1.
17. حسنين، عبد النعيم محمد:
"سلاجقة إيران والعراق"، ط2، القاهرة، 1970م، دن.
18. حلواني، أحمد عبد الكريم:
"ابن عساكر ودوره في الجهاد ضد الصليبيين في عهد الدولتين النورية والأيوبية"،
دار الفداء، دمشق، 1991م، دط، دب.
19. حماد، محمد رفيق:
"علم الكيمياء عند العرب وأعلامه"، ط1، دار سعاد الصباح، الكويت، 2001م،
حمادة، محمد ماهر:
20. "المكتبات في الإسلام نشأتها وتطورها ومصائرهما"، ط2، مؤسسة الرسالة للطباعة
والنشر، بيروت، 1398هـ / 1978م.
21. حميدان، إرشيد يوسف راشد:
"سلاجقة الشام والجزيرة في الفترة ما بين 435-570هـ"، المؤسسة الصحفية
الأردنية "الرأي"، عمان، 1409هـ / 1988م.
22. الحويري، محمود محمد:
"الأوضاع الحضارية في بلاد الشام في القرنين الثاني عشر والثالث عشر من
الميلاد" دار المعارف، القاهرة، 1400هـ / 1979م.
23. الحيارى، مصطفى:
-"الإمارة الطائفة في بلاد الشام، وزارة الثقافة والشباب"، عمان، الأردن، ط1،
1977م.
- "تحرير القدس 1187م عبرة من الوحدة في الماضي" مؤتمر يوم القدس، الندوة
الثانية، عمان-الأردن، 12-14، تشرين أول، 1991م، ط1، مؤسسة الأبحاث
العربية، بيروت، 1992م.
24. الخطيب، مصطفى عبد الكريم:
"معجم المصطلحات والألفاظ التاريخية"، ط1، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1996م.

25. خليل، عماد الدين:
" الإمارات الأرتقية في الجزيرة والشام" (465-812هـ / 1072-1409م) أضواء
جديدة على المقاومة الإسلامية للصليبيين والتتر، ط1، مؤسسة الرسالة، بيروت،
1980م.
26. الدباغ، مصطفى مراد: "بلدنا فلسطين"، 11 جزء، ط4، دار الطباعة، بيروت،
1409هـ/1988م.
27. الدجاني، هادية:
"القاضي الفاضل البيساني"، د.ط، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت، 1993.
28. الدويكات، فؤاد عبد الرحيم:
"إقطاعية طبريا ودورها في الصراع الصليبي الإسلامي"، مؤسسة حمادة للدراسات
الجامعية والنشر والتوزيع، اربد، 1423هـ/2002م.
29. أبو الرب، هاني:
"تاريخ فلسطين في صدر الإسلام 1-132هـ"، ط1، بيت المقدس للنشر والتوزيع،
القدس، دار الشروق، عمان-الأردن، 2003م.
30. ربيع، حسنين محمد:
"النظم المالية في مصر زمن الأيوبيين"، القاهرة، 1964م.
31. زكار، سهيل:
"- حطين مسيرة التحرير من دمشق الى القدس"، دار حسان، دمشق، ط1،
1986م "الحملتان الصليبيتان الأولى والثانية".
"-إمارة حلب"، دار الكتاب العربي، دمشق، د.ط، د.ت.
32. زكي، أسامة:
"صيدا ودورها في الصراع الصليبي"، الإسكندرية 1981م، د، ط، دن.
33. زهرة، محمد: "محاضرات في النصرانية"، القاهرة، 1977م.
34. زيادة، نيقولا:
"رواد الشرق العربي في العصور الوسطى"، القاهرة، 1948م، د.ط، دن.

35. سالم، السيد عبد العزيز:
 -"تاريخ مدينة صيدا في العصر الاسلاميين"، مؤسسة شباب الجامعة، 1986م، د.ط.
 -"تاريخ مدينة طرابلس في العصر الاسلامي"، مؤسسة شباب الجامعة، الاسكندرية، 1967م، د.ط.
 -"تاريخ البحرية في حوض البحر المتوسط" بالاشتراك مع: أحمد مختار العبادي، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، د.ط، د.ت.
 -"طرابلس الشام في التاريخ الإسلامي"، مؤسسة شباب الجامعة للطباعة والنشر، الإسكندرية، 1386هـ/1966م.
 -"التاريخ والمؤرخون العرب" مؤسسة شباب الجامعة، الاسكندرية، 1981م، د.ط.
36. سرور، محمد جمال الدين:
 "النفوذ الفاطمي في بلاد الشام ومصر والعراق في القرنين الرابع والخامس بعد الهجرة"، القاهرة، 1964م.
37. سعداوي، نظير حسان:
 -"جيش مصر في أيام صلاح الدين"، ط2، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1959م.--"المؤرخون المعاصرون لصلاح الدين"، مكتبة النهضة العربية، القاهرة، 1962م، د.ط.
38. سلامة، جلال حسني:
 "عكا أثناء الحملة الصليبية الثالثة"، ط1، دار الفاروق للثقافة والنشر، نابلس، 1419هـ/1998م.
39. السيد، علي أحمد:
 "الخليل والحرم الإبراهيمي في عصر الحروب الصليبية 1099-1187م/492-583هـ"، ط1 دار الفكر العربي، القاهرة، 1998م.
40. السيد، محمود:
 "تاريخ غرب الشام في العصر المملوكي"، مؤسسة شباب الجامعة، 1997م، ب.ط.
41. شراب، محمد:
 "معجم بلدان فلسطين"، ط1، بيروت، 1987م، دن.

42. ششن، رمضان:
 "توادر المخطوطات العربية في مكتبات تركيا"، المجلد الثاني، بيروت، 1972م،
 د.ط، د.ن.
43. الشهابي، قتيبه:
 "معجم ألقاب أرباب السلطان في الدولة الإسلامية من العصر الراشدي حتى بدايات
 القرن العشرين"، منشورات وزارة الثقافة السورية، دمشق، 1995م.
44. الشيخ، محمد محمد مرسي:
 -"عصر الحروب الصليبية في الشرق"، الإسكندرية، 1998م. "دولة الفرنجة
 وعلاقتها بالأمويين في الأندلس حتى أواخر القرن العاشر الميلادي، 755-
 976/138-366هـ، مؤسسة الثقافة الجامعية، القاهرة، د.ط، د.ن.
 -"الجهاد المقدس ضد الصليبيين حتى سقوط الرها"، د.ط، و.ن، الإسكندرية 1972م.
 "الإمارات العربية في بلاد الشام في القرنين الحادي عشر والثاني عشر الميلاديين"،
 ط1، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الإسكندرية، 1980م.
45. صبرة، عفاف سيد:
 -"العلاقات بين الشرق والغرب" علاقة البندقيّة بمصر والشام في الفترة 1100-
 1400م، د.ط، دار النهضة، القاهرة 1983م.
 -"دراسات في تاريخ الحروب الصليبية"، دار الكتاب الجامعي/ القاهرة، 1985م،
 د.ط.
46. الصوافي، طالب عبد الفتاح:
 "القلاع في شمال فلسطين في فترة الصلاخ الفرنجي الإسلامي 492-
 691هـ/1099-1291م"، ط1، مؤسسة الأسوار، عكا، 2000م.
47. الطراونة، طه تلجي:
 "مملكة صفد في عهد المماليك"، ط1، دار الآفاق الجديدة، بيروت، 1982م.
48. طوطح، خليل:
 "جغرافية فلسطين"، مطبعة بيت المقدس، القدس، 1923م.
49. العارف، عارف:
 "المفصل في تاريخ القدس"، ط1، مكتبة الأندلس، القدس، 1381هـ/1961م.

50. عاشور، سعيد عبد الفتاح:
 -"تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى"، دار النهضة العربية، بيروت، ط 1991م.
 -"الحركة الصليبية"، الجزء الثاني: ط7، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة 1418هـ/1978م. --"أوروبا في العصور الوسطى"، مكتبة الأنجلو المصرية، ط8، 1985م.
51. عاشور، فايد حماد:
 -"العلاقات بين البندقية والشرق الأدنى الإسلامي في العصر الأيوبي"، د.ط دار المعارف، القاهرة، 1980م.
 -"جهاد المسلمين في الحروب الصليبية"، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1985م، د.ط.
52. عبد القادر، دريد:
 "سياسة صلاح الدين في بلاد مصر والشام والجزيرة 570-589هـ/1174-1193م"، بغداد، 1979م، د.ط، د.ت.
53. عبد المهدي، عبد الجليل حسن:
 "الحركة الفكرية في ظل المسجد الأقصى في العصرين الأيوبي والمملوكي"، ط1، مكتبة الأقصى، عمان، 1980م، د.ن.
54. عبيدات، فوزي محمد:
 "أهمية منطقة غور الأردن في صدر الإسلام"، ط1، منشورات وزارة الثقافة، عمان، 1997م.
55. عثمان، فتحي:
 "الحدود الإسلامية البيزنطية بين الإحتكاك الحربي والإتصال الحضاري"، دار الكتاب العربي، القاهرة، 1966م، د.ط.
56. العدوي، إبراهيم:
 "الأمويون والبيزنطيون"، ط1، دار رياض الصالحين، 1994م.
57. العريني، السيد الباز:
 "مؤرخو الحروب الصليبية"، دار الهيئة العربية، القاهرة، 1962م، د.ط. "الشرق الأدنى في العصور الإسلامية، الأيوبية"، دار النهضة العربية القاهرة.

58. العزة، رئيسة عبد الفتاح:
"نابلس في العصر المملوكي"، ط1، دار الفاروق، نابلس - فلسطين، 1999م.
59. العسلي، كامل:
"مخطوطات فضائل بيت المقدس"، دراسة وببليوغرافيا، عمان، 1984م، د.ط، دن.
60. عطا الله، محمود علي خليل:
"ثيابة غزة في العهد المملوكي"، ط1، دار الآفاق الجديدة، بيروت، 1986م.
61. عطا، زبيدة محمد:
"الشرق الإسلامي والدولة البيزنطية زمن الأيوبيين"، ط2، دار الأمين، 1994م.
62. عطية، محمد حسين:
"إمارة أنطاكية الصليبية والمسلمون 1171-1268م/567-666هـ"، دار المعرفة،
الجامعة الأسكندرية، ط1، 1989م.
63. علي، علي السيد:
-"العلاقات الاقتصادية بين المسلمين والصليبيين"، ط1، عين للدراسات والبحوث
الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، 1996م.
-"القدس في العصر المملوكي"، القاهرة، 1986م، د.ط، دن.
64. عمار، جمال فوزي محمد:
"التاريخ والمؤرخون في بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية (531-660هـ)،
ط1، مكتبة القاهرة للكتاب، 2001م.
65. عنان، محمد عبد الله:
"مؤرخو مصر الإسلامية ومصادر التاريخ المصري"، القاهرة 1969م، د.ط، دن.
66. عوض، محمد مؤنس:
-"الحروب الصليبية"، دراسات تاريخية ونقدية، ط1، دار الشروق، عمان، 1999م.
-"التنظيمات الدينية الحربية في مملكة بيت المقدس اللاتينية"، ط1، دار الشروق،
الأردن، 2004م.
-"الحروب الصليبية، السياسة، العقيدة، المياه"، عين للدراسات والبحوث الإنسانية
والاجتماعية، ط1، 2001م.
-"الرحالة الأوروبيون في مملكة بيت المقدس"، 1099-1187م، د.ط، مكتبة
مدبولي، القاهرة، 1992م.

- "الجغرافيون والرحالة المسلمون في بلاد الشام زمن الحروب الصليبية"، ط1، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، 1995م.
- "في الصراع الإسلامي الصليبي السياسة الخارجية للدولة النورية"، 541-569هـ/1146-1174م. ط1، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، 1998م.
67. الغامدي، عبد الله سعيد محمد:
- جهاد المماليك ضد المغول والصليبيين في النصف الثاني من القرن السابع الهجري"، معهد البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامي، جامعة أم القرى، 1410هـ، د.ط، د.ن.
68. الغامدي، علي محمد علي:
- "بلاد الشام قبيل الغزو الصليبي 463-491هـ/1070-1098م"، المكتبة الفيصلية، الرياض، 1984م، د.ط.
69. غوانمة، يوسف حسن:
- "إمارة الكرك الأيوبية"، ط2، دار الفكر عمان، 1982م.
70. غوشة، محمد هاشم موسى:
- "حارة السعدية في القدس، ط1، مطبعة بيت المقدس، 1999م.
71. الفاخوري، حنا:
- "تاريخ الأدب العربي"، ط2، بيروت، د.ت.
72. فضل الله، عبد الرؤوف:
- "لبنان دراسة جغرافية"، مكتبة كريدية، بيروت، 1983م، د.ط.
73. قاسم، قاسم عبده:
- "ماهية الحروب الصليبية، الإيديولوجية- الدوافع- النتائج" ط6 عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، 2002م.
- "الحملة الصليبية الأولى نصوص ووثائق"، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ط1، 2001م.
74. كرد، علي، محمد:
- "خطط الشام"، بيروت، 1971م. - "الإسلام والحضارة العربية"، دار الكتب المصرية، 1934م، د.ط.

75. مؤنس، حسن:
"تور الدين بن زكي فجر الحروب الصليبية"، ط2، الدار السعودية للنشر والتوزيع،
جدة، 1984م.
76. مصطفى، شاكر:
"التاريخ العربي والمؤرخون"، دراسة في تطور علم التاريخ ومعرفة رجال في
الإسلام، د.ط، بيروت، 1979م. "المدن في الإسلام حتى العصر العثماني"، ط1،
مطبعة ذات السلاسل، الكويت، 1988م.
77. مقلد، عبد الفتاح:
"الكنعانيون وتاريخ فلسطين القديم"، العربي للنشر والتوزيع، القاهرة، 2003م.
78. المنجد، صلاح الدين:
"ولاية دمشق في العهد السلجوقي"، دار الكتاب الجديد، بيروت، 1981م.
79. موسى باشا، عمر:
"الأدب في بلاد الشام عصور الزنكيين والأيوبيين والمماليك"، دار الفكر، بيروت،
دار الفكر دمشق، د.ط.
80. ابن موسى، تيسير:
"نظرة عربية على غزوات الإفرنج منذ بداية الحروب الصليبية حتى وفاة نور
الدين"، الدار العربية للكتاب، ب.ت.ط.
81. النبراوي، فتحية:
"العلاقات السياسية الإسلامية وصراع القوى الدولية في العصور الوسطى 1000-
1300م"، القاهرة، 1982م.
82. النحال، محمد سلامة:
"جغرافية فلسطين"، ط1، دار العلم للملايين، بيروت، 1966م.
83. نسيبة، زكي حسن:
"اليهود في القدس العربية الإسلامية عبد الفتاح العمري وحتى القرن التاسع عشر"،
د.ط، دن، د.ت. تم الحصول عليه من مكتبة الزميل إبراهيم نعمة الله.
84. نصري، كامل وآخرون:
"جغرافية سوريا - سوريا الشمالية"، مطبعة الترقى، دمشق، 1934م، د.ط.

1. Archer, T.H, and Kingsford C.L: The Crusades.
"The story of the latin Kingdom of Jerusalem" London 1914.
2. Barker, E.:
"The Crusades", London, 1949.
3. Benvenisti, Meron:
"The Crusaders in the Holy land", Jerusalem, 1976.
4. Besant, W. and Palmer, E.H:
"Jerusalem the city of Herod and Saladin", London 1888.
5. Besant, W. and Palmer, E.H.:
"Jerusalem "The city of Herod and Saladin" London.
6. Chalandon, F: Histoire de la premiere Croisade, (Paris, 1925).
7. Claud Cahen:
"La syrie du Nord a l' Epoque des Croisades et la Principaute Franque d' Antioche", Paris, 1940.
8. Conder, C. R.:
"The latin Kingdom of Jerusalem 1099-1291". London, 1897.
9. Deanesly, M :
" A history of the Medieval Church" Cambridge 1978.
10. Fedden, Robin:
"Crusades Castles". London, 1950.
11. Gibb; H.A.R:
"The Damascus Chronicle of the Crusades", London, 1932.
12. Grousset. R:
"Histoire de Croisades, 1185-1210", Paris 1948.
13. Hagenmer, H:
"Chronologie de La Premiere Croisade", 1094- 1100, in R. O.L. 1902-1911.
14. J.France:
"Victory in the East". Cambridge univ". Paris, 1994.
15. King, E:
"The knights Hospitallers in the Holy Land, London 1931.
16. Marino Santo:
"Secrets for true crusaders to help them to recover the holy land" , Trans . by A. Stewart, P.P T.S., London 1896.
17. Michaud, M.:
"History of the Croisades", trans. From the original by W. Robson, 3 vols. London, 1852.
18. Patlayeam:
"Les Juifs, Les ingidels d Europe", L, Histoire, T, LXVII, Annee 1982.
19. Preston, H:

- "Rural Conditions in the Kingdom of Jerusalem during the Twelfth and Thirteenth Centuries". Philadelphia, 1903.
20. Richard, J:
 "The Latin Kingdom of Jerusalem", trans. From the original by Janet Shirley, Amsterdam 1979.
21. Anonymous Pilgrims I-VII. Translated by Stewart, London 1894 .
22. Robbin Fedden:
 Syria "Historical Appreciation", Robert Hale Limited London, 1946.
23. Russell, J.C.:
 "The Populations of the Crusader states" in, Sotton, vol. V, New York, 1983.
24. Smith, Riley:
 "The Feudal Nobility and the Kingdom of Jerusalem 1174-1277". London, 1973.
 "The Atlas of the Crusades", London 1991.
25. Stanley Lane-Poole:—Saladin and the fall of the kingdom of Jerusalem New York: G.P. Putnam. 1898.
26. Stevenson, W.B:
 "The Crusaders in the East", Lebanon, Beirut, 1968.
27. Translatio Sancti Nicolai in:—28. Ventianum: "R.H.C.—H.occ, tome V, Paris 1869.

سابعاً: المراجع الأجنبية المترجمه:

1. باركر، آرنست:
"الحروب الصليبية"، ترجمة السيد الباز العريني، ط2، دار النهضة العربية، بيروت
1967م.
2. بالار، ميشيل:
"الحملات الصليبية والشرق اللاتيني من القرن الحادي عشر إلى القرن الرابع"، ط1،
ترجمة بشير السباعي، عين للدراسات والنشور، 2003م.
3. براور، يوشع:
"الاستيطان الصليبي في فلسطين، مملكة بيت المقدس"، ترجمة: عبد الحافظ البنا،
عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، 2001م.
- "عالم الصليبيين"، ترجمة قاسم عبده قاسم، ومحمد خليفة حسن، ط 1، القاهرة
1981م.
4. بردج، انتوني:
"تاريخ الحروب"، ترجمة احمد غسان سبانو، و نبيل الجيرودي، مراجعة: سهيل
زكار، د.ط، دار فتيبة، 1985م.
5. بروكلمان، كارل:
"تاريخ الادب العربي"، ترجمة السيد يعقوب بكر، القاهرة، 1977م، د.ط، دن.
6. بورتو، هارفي:
"مختصر التاريخ القديم"، ط1، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1991م.
7. بوست، جورج:
"قاموس الكتاب المقدس"، بيروت، 1849-1901م.
8. جب، هاملتون:
"صلاح الدين الايوبي"، دراسات في التاريخ الإسلامي، حررها يوسف ايش، بيسان،
بيروت، ط2، 1996م.
9. جونز، أ.ه.م:
"مدن بلاد الشام"، ترجمة إحسان عباس، ط1، دار الشروق، عمان، 1987م.

10. جويبو:
"على خطى الصليبيين"، ترجمة عبد الهادي عباس، ط1، دار الحصاد، دمشق،
1995.
11. حتي، فيليب:
"تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين"، ترجمة جورج حداد، وعبد الكريم رافق. بيروت،
1958م.
12. ديوارنت، وول وبرايل:
"قصة الحضارة، عصر الإيمان"، ترجمة محمد بدران، دار الجيل، بيروت، 1988م.
13. رايس، تماراتالبوت:
"السلاجقة تاريخهم وحضارتهم"، ترجمة لطفي الخوري، إبراهيم السداقوي، د.ط،
دن، بغداد 1968م.
14. رنسيان، ستيفن:
- "تاريخ الحروب الصليبية"، ترجمة السيد الباز العريني، دار الثقافة، بيروت،
1969م.
- "الحضارة البيزنطية"، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد، ط2، الهيئة المصرية العامة
للكتاب، 1997م.
15. زابوروف، ميخائيل: "الصليبيون في الشرق"، ترجمة إلياس شاهين، دار التقدم -
وسكو، 1986م.
16. زامباور:
"معجم الانساب والاسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي"، أخرجه، زكي محمد حسن
، د.ط، دن، القاهرة 1951م.
17. سميث، جوناثان ريلي:
"الحملة الصليبية الاولى وفكرة الحروب الصليبية"، ترجمة محمد فتحي الشاعر،
ط2، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1999م.
18. سميل، ريلي:
"الحروب الصليبية"، ترجمة سامي هاشم، ط1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر
بيروت، 1982م.
19. فارح، فيليب-ويوسف كرباح:

- "المسيحيون واليهود في التاريخ الإسلامي العربي والتركي"، ترجمة بشير السباعي، ط1، دار سينا للنشر، 1994م.
20. كاهن، كلود:
"الشرق والغرب زمن الحروب الصليبية"، ترجمة احمد الشيخ، سينا للنشر، بيروت، 1995م، د.ط.
21. لي سترانج:
"فلسطين في العهد الإسلامي"، ترجمة محمود عما يرى، ط1، جمعية المطابع التعاونية، عمان، 1970.
22. ليونز، ملكوم كاميرون، وجاكسون:
"صلاح الدين"، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت، 1988م، د.ط.
23. ماير، إتش:
"تاريخ الحملات الصليبية"، ترجمة، محمد فتحي الشاعر، ط1، دار الامين، القاهرة، 1999م.
24. معلوف، أمين:
"الحروب الصليبية كما رآها العرب"، ترجمة عفيف دمشقية، ط2، دار الفارابي، بيروت، 1998م.
25. مولر، فولفغانغ فينيز:
"القتال ايام الحروب الصليبية"، ترجمة محمد وليد الجلال، مراجعة سعيد طياف، ط2، دار الفكر، دمشق، 1984م.
26. مونروند، مكسيموس: "تاريخ الحروب المقدسة في الشرق المدعوة حرب الصليب"، ترجمة كير بوكير مكسيموس مظلوم، دير الرهبان، الفرنيسكان، اورشليم، 1865م، د.ط.
27. مؤلف، رهاوي مجهول: "الحملتان الصليبيتان الأولى والثانية"، تحقيق سهيل زكار، ضمن كتابه الحروب الصليبية، ط1، دار حسان، 1984م.
28. هنتس، فالتر:
"المكايل والأوزان الإسلامية وما يعادلها في النظام المترى"، ترجمة كامل العسلي، منشورات الجامعة الأردنية، عمان، 1970م.

ثامنًا: الرسائل الجامعية:

- إبراهيم، إبراهيم خميس:
"العلاقات السياسية بين جماعة فرسان الداوية والمسلمين في مصر والشام" 1193-1291م/585-690هـ، رسالة دكتوراة غير منشورة، كلية الآداب، جامعة الإسكندرية، عام 1983م.
- إبراهيم، عبد المجيد غفور:
"الحياة الاجتماعية في بلاد الشام في العصر الأيوبي (569-658هـ/1173-1260م)، رسالة دكتوراة غير منشورة، معهد التاريخ والتراث العلمي للدراسات العليا-بغداد، اشراف: دريد عبد القادر نوري، سنة 1421هـ-2000م.
- الحناوي، مفيد داود:
"العلاقات السياسية بين إمارة دمشق ومملكة بيت المقدس في القرن الثاني عشر الميلادي (1100-1193م)"، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، قسم التاريخ، الجامعة الأردنية، عام 1986م بإشراف مصطفى الحيارى.
- السامرائي، يونس:
"الدولة المرديسية في حلب"، رسالة دكتوراة غير منشورة، كلية دار العلوم، جامعة القاهرة، 1982.
- السيد، عبد اللطيف عبد الوهاب:
"السياسة الخارجية لمملكة بيت المقدس في عهد بلدوين الثالث (1143-1163م)، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، عين شمس، عام 1990م.
- السيد، عبد اللطيف عبد الوهاب:
"السياسة الخارجية لمملكة بيت المقدس في عهد بلدوين الثالث (1143-1163م)" رسالة ماجستير غير منشورة كلية الآداب جامعة عين شمس، القاهرة عام 1990م.
- العاتى، عبد اللطيف عبد الرازق:
"إدارة بلاد الشام في العهدين الراشدي والأموي، رسالة ماجستير غير منشورة، إشراف صالح احمد احمد العلي، جامعة بغداد، كلية الآداب، قسم التاريخ، 1968م.
- عبد الله، فتحي عبد العزيز:
"دور الكنيسة في مملكة بيت المقدس اللاتينية حتى عام 1187م"، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة الزقازيق، عام 1986م.

- عثمان، سر الختم:
"مدينة صور في القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين"، رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية الآداب جامعة القاهرة، 1971م.
- العسقلاني، مصطفى عبد العزيز:
"عسقلان ودورها في الصراع الصليبي الإسلامي"، رسالة ماجستير غير منشورة، إشراف محمد مرسي الشيخ، جامعة الإسكندرية، كلية الآداب قسم التاريخ، 1992م.
- أبو القرايا، بشير سعيد:
"الدور السياسي للمسجد"، رسالة غير منشورة، إشراف حورية توفيق مجاهد، كلية الاقتصاد والعلوم السياسية، جامعة القاهرة، 1994م.
- أبو الكاس، جهاد علي:
"النشاط الاقتصادي في فلسطين في العهد الأيوبي (583-650هـ/1187-1252م)" رسالة ماجستير غير منشورة، الجامعة الإسلامية، كلية الدراسات العليا، قسم التاريخ والآثار، تحت إشراف: رياض مصطفى شاهين، 2004م.
- محمود، محمود رزق:
"العلاقة بين أرناط أمير حصن الكرك وصلاح الدين الأيوبي حتى موقعة حطين 1187م"، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة عين شمس، عام 1973م.
- المغربي، عبد الرحمن:
"طائفة المغاربة في القدس الشريف 492-922هـ/1099-1516م"، رسالة دكتوراه غير منشورة، جامعة عين شمس، القاهرة، عام 2000م.
- نقاش، زكي:
"الحشاشون وأثرهم في السياسة والاجتماع"، رسالة دكتوراه غير منشورة كلية الآداب، جامعة القاهرة، عام 1950م.

تاسعا: الدوريات العربية:

1. الأمين، حسن:
" بنو عمار ودورهم في مقاومة الغزو الصليبي"، مجلة نور الإسلام، العدد (73)-
(74) السنة السابعة.
2. بدر، أحمد:
"الأندلسيون والمغاربة في القدس"، مجلة أوراق، المعهد الأسباني العربي للثقافة،
العدد(4) عام 1981م.
3. بني يونس، محمد صلاح و عيسى محمود عزام:
"نور سكان الشام في مقاومة الغزو الفرنجي حتى نهاية الحملة الفرنجية الأولى
490-542هـ/1096-1146م، مؤتمر بلاد الشام في فترة الصراع الإسلامي
الفرنجي، 491-690هـ، 8-10، تشرين ثاني، 30 رجب،-2 شعبان 1420هـ، قسم
التاريخ، كلية الآداب، جامعة اليرموك، اربد، الأردن.
4. البيشاوي، سعيد:
"-الأراضي الزراعية ومنتجاتها في الخليل في العصر الفرنجي" (492-
583هـ/1099-1187م)، المجلة الفلسطينية للدراسات التاريخية، رام الله مجلد(1)
عدد (2) ذي الحجة 1421هـ/مارس 2000م.
"-دراسة مقارنة بين الإسطبان الصليبي والصهيوني" المجلة الفلسطينية للدراسات
التاريخية، رام الله، مجلد (1) عدد(1) صفر 1419هـ/1998م.
5. البيطار، عبد الرحمن:
"دور حمص والشام في مقاومة الغزو الصليبي الفرنجي" مؤتمر بلاد الشام في فترة
الصراع الإسلامي الفرنجي، 491-690هـ، 8-10، تشرين ثاني، 30 رجب،-
2 شعبان 1420هـ، قسم التاريخ، كلية الآداب، جامعة اليرموك، اربد، الأردن.
6. التازي، عبد الهادي:
"بلاد الشام في الوثائق الدبلوماسية"، المؤتمر الدولي لتاريخ بلاد الشام، الجامعة
الأردنية، عمان، إبريل، 1974م.

7. تدمري، عمر عبد السلام:
"موقف النصارى في ساحل دمشق من الصراع الاسلامي - الفرنجي"، بحث مقدم إلى مؤتمر بلاد الشام في فترة الصراع الاسلامي الفرنجي 491-690هـ، الجامعة الأردنية، كلية الآداب قسم التاريخ 8-10 تشرين الثاني/1999م إلى 30 رجب-2 شعبان 1420هـ.
8. التميمي:
"النظم والطرق التجارية بين الشرق والغرب قبل الحروب الصليبية"، مقال في مجلة المقتطف مجلد (98) سنة 1941م.
9. توفيق، عمر كمال:
"المؤرخ وليم الصوري"، مجلة كلية الآداب، جامعة الإسكندرية، مجلد (21)، عام 1967م.
10. الجميلي، خضير عباس:
"مدينة أنطاكية في مواجهة الحملة الصليبية الأولى"، مؤتمر الشام، في فترة الصراع الإسلامي الفرنجي، 491-690هـ، 8-10، تشرين ثاني، 30 رجب، -2 شعبان 1420هـ، قسم التاريخ، كلية الآداب، جامعة اليرموك، اردن، الأردن.
11. الجنحاني: الحبيب:
"حطين رمز الوحدة والتحرر"، مجلة المؤرخ العربي، العدد (39)، السنة (15)، عام 1989م.
12. الجندي، إبراهيم:
"فلسطين في عيون الرحالة الأوروبيين"، المجلة الفلسطينية إلى الدراسات التاريخية، مجلد (1) عدد (3)، نو القعدة 1423هـ/كانون ثاني 2003م.
13. حتاملة، عبد الكريم:
"صلاح الدين وموقفه من الدول المناوئة في بلاد الشام"، مجلة الدارة السنة (12) العدد (2) سبتمبر 1986م.
14. حسين، حسن عبد الوهاب:
"أثر العوامل الجغرافية على الحروب الصليبية منذ الحملة الأولى حتى معركة حطين (1097-1187م/490-583هـ) ضمن كتاب مقالات وبحوث في التاريخ الاجتماعي للحروب الصليبية، دار المعرفة الجامعية، 1997م.

15. حسين، محسن محمد:
- "جيش صلاح الدين"، مجلة المورد، مجلد (16) عدد (3) 1981م، بغداد.
- "مسؤولية صلاح الدين عن فشل حصار بيروت"، المجلة العربية للعلوم الإنسانية،
مجلد (7)، العدد (6)، الكويت، 1987م.
16. الحفناوي، أحمد: "الصراع من أجل صيدا"، مجلة المنهل، السنة (50) مجلد (46)
صفر 1404هـ/نوفمبر 1983م.
17. الحيارى، مصطفى:
"حصن بيت الأحزان جانب من العلاقات بين المسلمين والفرنجة الصليبيين في زمن
صلاح الدين"، مجلة دراسات "العلوم الإسلامية" مجلد (13) عدد (4) الأردن -
عمان، الجامعة الأردنية، كانون ثاني 1986م/جمادى الأولى 1406هـ.
18. خرايشه، سليمان:
"فلسطين في العصر السلجوقي"، مجلة دراسات العلوم الإنسانية والاجتماعية، مجلد
(24)، ملحق، 1997.
19. خليل، إبراهيم:
"كربوقا صاحب الموصل ودوره في مقاومة الصليبيين"، مجلة المؤرخ العربي،
العدد الخامس 1974، ص 95-111.
20. الرقب، شفيق محمد:
"بلاد الشام في رحلة ابن جبير"، مجلة دراسات العلوم الإنسانية والاجتماعية، المجلد
(28) العدد (2)، سنة 2001م. "صورة في الحياة الاجتماعية للفرنجة في النثر الفني
زمن الحروب الصليبية"، مجلة دراسات للعلوم الإنسانية والاجتماعية، المجلد (23)
العدد (2)، 1996م.
21. رمضان، أحمد: "الأقصى المبارك في ذاكرة العلماء والمؤرخين"، مجلة المنهل،
مجلد (55) العدد (508)، الربيعان 1424هـ/أغسطس سبتمبر 1993م، ص 68-73.
22. زيادة، مصطفى: "يوم حطين اليوم الفاصل بين المسلمين و الصليبيين"، مجلة
العربي، العدد (59)، أكتوبر 1963م.
23. زكي، عبد الرحمن:
"القلاع في الحروب الصليبية"، المجلة التاريخية المصرية، مجلد (5)، عام 1969م.

24. زيد، أسامة زكي:
"الخوارزمية ودورهم في الصراع الصليبي الإسلامي في عصر بني أيوب"، مجلة
كلية الآداب، جامعة الاسكندرية، مجلد (3)، مطبعة جامعة الاسكندرية، 1984م.
25. شعيرة، عبد الهادي:
" الرملة ورباطاتها السبعة"، المجلة التاريخية المصرية، مجلد(15) عام 1969م.
26. صبرة، عفاف:
-"صلاح الدين الأيوبي وموقفه من القوى المناوئة في بلاد الشام 570-
589هـ/1174-1193م" مجلة الدارة، المجلد (12) عدد (2) السنة (9) 1986م ص
159-172.
- "الأمير مودود بن التونتكين أتابك الموصل ودوره في حركة الجهاد الإسلامي"،
مجلة الدارة، المجلد (12) عدد(2) السنة (9) 1986م ص109-138.
27. صليبي، كمال:
"الموارنة صورة تاريخية" ملف النهار، بيروت، ط 1970م.
28. طرخان، إبراهيم علي:
"الإقطاع الإسلامي أصوله وتطوره- دراسة مقارنة"، مجلة الجمعية المصرية
للدراسات التاريخية المجلد (6) 1957م.
29. الطيبي، أحمد توفيق:
"وقعتا حطين والأرك نصران متوازيات على الغزاة الصليبيين في الشرق والغرب"،
مجلة البحوث التاريخية، السنة (10)، العدد(1) يناير 1988م.
30. عاشور، سعيد عبد الفتاح: "حطين وقائع وعبر"، مجلة العربي، العدد(344)، يوليو
1978م.
31. العبادي، أحمد مختار: "دور المغاربة في الحروب الصليبية في المشرق العربي"،
ضمن بحوث في تاريخ الحضارة الإسلامية، القيت في ندوة الحضارة الإسلامية (16-20
أكتوبر 1976م) مؤسسة شباب الجامعة، 1997م.
32. عبد الله عنان:
" قلاع المسلمين والصليبيين في سوريا ولبنان"، مجلة الهلال السنة (42) ج(5) عام
1933.

33. العبيدي، صلاح:
" التراث المعماري واثره في العمارة الأوروبية من خلال الحروب الصليبية"، مجلة
المورد عدد(4) مجلد (16) بغداد، دار الشؤون الثقافية، 1987م.
34. العسلي، كامل:
"حارة المغاربة في القدس وأهميتها التاريخية"، مجلة أرض الإسرائ، عدد(103)،
عمان، 1987م.
35. عطية، حسين محمد:
" المسلمون في الإمارات الصليبية في بلاد الشام، مؤتمر بلاد الشام، في فترة
الصراع الإسلامي الفرنجي، 491-690هـ، 8-10، تشرين ثاني، 30رجب، -
2شعبان 1420هـ، قسم التاريخ، كلية الآداب، جامعة اليرموك، اربد، الأردن. .
36. عطية، محمد حسين: "قومون صور (1187-1189م)، نشأته وأهدافه، ونهايته"،
ضمن كتاب دراسات في تاريخ الحروب الصليبية، تحرير محمد حسين عطية، دار
المعرفة، الجامعة الاسكندرية، 2000م، د.ط.
37. علي، علي السيد:
المقاومة الشعبية للغزوة الصليبية في بلاد الشام 491-690هـ/1097-1291م"،
مجلة العصور، المجلد(6)، الجزء الثاني، دار المريخ، لندن، 1991م.
38. العلي، صالح:
"القبائل العربية في بلاد الشام زمن الخلفاء الراشدين" مجلة دراسات الجامعة
الأردنية، عمان مجلد (11) عدد(4) إبريل 1987م.
39. علي، وفاء محمد:
"بنو منقذ ودورهم في الحروب الصليبية"، مجلة التاريخ الإسلامي، مجلد (2)، (3)،
(4)، نيودلهي، الهند، 1997م.
40. عوض، محمد مؤنس:
"أضواء على تاريخ موارد لبنان عصر الحروب الصليبية"، ضمن كتاب دراسات في
تاريخ العلاقات بين الشرق و الغرب في العصور الوسطي، عين للدراسات والبحوث
الإنسانية والاجتماعية، ط1، 2003م.

41. العوفي، محمد سالم بن شداد:
"الحركة الصليبية وأثرها في تطور العلاقات بين مصر والشام" في الفترة (490-
554هـ/1096-1156م) مجلة كلية العلوم الاجتماعية، جامعة الإمام محمد بن
سعود الإسلامية العدد (8) 1044هـ/1984م.
42. غبريل، يوسف:
"رحلة إلى الشام" مجلة المقتطف، مجلد (56) الجزء الخامس لعام 1920م.
43. غلاب، محمد السيد:
"سكان فلسطين ودراسة تاريخهم الجغرافي"، الجمعية المصرية للدراسات التاريخية،
المجلة التاريخية المصرية، مجلد (5) 1956م.
44. غنيم، حامد:
"جغرافيو القرن الرابع الهجري، الخريطة الدينية والمذهبية لغربي آسيا الإسلامية"،
مجلة الدارة، السنة (5)، العدد (2)، عام 1978م.
45. غوانمة، يوسف درويش:
"الأفضل بن بدر الجمالي"، مجلة كلية الآداب، جامعة الملك سعود مجلد (10) سنة
1983م.
46. فراج، عبد الستار:
"معجم البلدان لياقوت الحموي"، مجلة العربي، العدد (141)، أغسطس 1970م.
47. فرج، سيد:
"القدس عربية إسلامية"، مجلة الدارة، العدد (3)، السنة (8)، يناير 1984م.
48. قاسم، قاسم عبده:
"الإضطهاد الصليبي ليهود أوروبا من خلال حولية يهودية الظاهرة ومغزاها،
ندوة التاريخ الإسلامي والوسيط"، مجلد (1) دار المعارف القاهرة، 1982م.
"الحروب الصليبية في الأدبيات العربية والأوروبية واليهودية"، مجلة المستقبل
العربي، عدد (8) عام 1987م.
"ماهية الحروب الصليبية"، عالم المعرفة، العدد (149)، الكويت، 1990م.
49. كريم، عبد الكريم كريم:
"الشام والمغرب خلال القرن العاشر للهجرة"، المؤتمر الدولي لتاريخ بلاد الشام،
الجامعة الأردنية، عمان، إبريل، 1974م.

50. كيلاني، هيثم:
"الصليبية والصهيونية: دراسة مقارنة" مجلة شؤون عربية، جامعة الدول العربية،
(فلسطين) كانون الأول/ديسمبر 1987م - ربيع الثاني 1408م. عدد (52).
51. محمد، سوادى عبد:
مقنمة في دراسة صليبي المشرق العربي في المصادر العربية الأولية (490-
90هـ/1096-1291م) مجلة دراسات، مجلد (2)، عدد (3)، 1985م.
52. المشهداني، محمد جاسم:
"موقف بني منقذ من الغزو الصليبي"، مؤتمر بلاد الشام في فترة الصراع الإسلامي
الفرنجي 491-690هـ، 8-10 تشرين ثاني 1999م، 30 رجب-2 شعبان،
420هـ، قسم التاريخ، كلية الآداب، جامعة اليرموك، اربد، الأردن.
53. مصطفى، شاكرا:
"طغتكين رأس الدولة البورية ومؤسس النظام الأتابكي"، مجلة كلية الآداب
التربية، جامعة الكويت، عدد (2) 1972م: دخول الترك الغز إلى الشام في النصف
لثاني من القرن الحادي عشر الميلادي "مجلة كلية الآداب، جامعة الكويت، عدد (5)
يونيو 1977م وهو نفسه مقدم إلى المؤتمر الدولي لتاريخ بلاد الشام (ثبت كامل
أعمال المؤتمر المنعقد في الجامعة الأردنية من 28 ربيع الأول - 3 ربيع الثاني
1394هـ) ط بيروت 1974م، تحرير: عبد الكريم عزابيه، وعبد العزيز السدوري
وهو الذي اعتمدنا عليه. مجلة المورد، بغداد، المجلد السادس عشر/عدد (3) 1408-
1987م.
- "آل قدامة في الصالحية"، حوليات كلية الآداب، جامعة الكويت، الحولية رقم (3)،
الكويت، 1982م.
54. المنجد، صلاح الدين:
"اللاجئون المقدسة إلى دمشق بعد الغزو الفرنجي ونتائج هجرتهم"، المؤتمر الدولي
الثالث لتاريخ بلاد الشام-فلسطين، ط1، المجلد الثالث، الجامعة الأردنية، عمان،
جامعة اليرموك، اربد، 1983م/1404هـ.
55. النقر، محمد حافظ:
"التغيرات الإدارية والعمرائية والسكانية في مدينة القدس في فترة الاحتلال الفرجي
الصليبي"، بحث ضمن ندوة بلاد الشام في فترة الصراع الإسلامي الفرنجي 491-

690هـ، والمنعقد في جامعة اليرموك- اربد الأردن، في الفترة من 8-10، تشرين الثاني 1999م الموافق 20 رجب إلى 2 شعبان 1120هـ.

56. يوسف، جوزيف نسيم:

"معركة حطين خلفياتها ودلالاتها"، مجلة عالم الفكر، مجلد (20)، عدد (1)، أبريل، مايو، يونيو، عام 1989م.

عاشراً: الدوريات الأجنبية المترجمة:

1. إيمانيل، سيفان Sivan, Emmanuel:
"اللاجئون السوريون-الفلسطينيون في زمن الحملات الصليبية"، ترجمة حسن عبد الوهاب حسن، ضمن كتابه مقالات وبحوث في التاريخ الاجتماعي للحروب الصليبية، دار المعرفة الجامعية، 1997م.
2. براور، يوشع:
"استيطان اللاتين في بيت المقدس"، ترجمة حسن عبد الوهاب حسين، ضمن كتاب مقالات وبحوث في التاريخ الاجتماعي للحروب الصليبية، دار المعرفة الجامعية، 1997، د.ط.
3. بلدوين، مارشال:
-"الدويلات اللاتينية تحت حكم بلدوين الثالث وعموري الأول 1143-1174م"، ترجمة وتعليق صلاح حسن العاوور. ضمن كتاب تاريخ الحروب الصليبية، فصول مختارة، تحرير سعيد عبد الله البيشاوي، محمد مؤنس عوض، بإشراف: كينيث ستون، ط1، مطبعة بيت المقدس، رام الله، 2004م.
- اضمحلال وسقوط بيت المقدس 1174-1189م"، ترجمة وتعليق سعيد عبد الله البيشاوي. ضمن كتاب تاريخ الحروب الصليبية، فصول مختارة، تحرير سعيد عبد الله البيشاوي، محمد مؤنس عوض، بإشراف: كينيث ستون، ط1، مطبعة بيت المقدس، رام الله، 2004م.
4. جاكسون، ديفيد:
"معركة حطين والإستيلاء على بيت المقدس"، ضمن كتاب حطين صلاح الدين والعمل العربي الموحد، القاهرة، 1989م.
5. جب، هاملتون:
"زكي وسقوط الرها"، ترجمة وتعليق علي عبد السميع الجنزوري، ضمن كتاب تاريخ الحروب الصليبية، فصول مختارة، تحرير سعيد عبد الله البيشاوي، محمد مؤنس عوض، بإشراف: كينيث ستون، ط1، مطبعة بيت المقدس، رام الله، 2004م.

6. رنسيان، ستيفن:

"رحلات الحج إلى فلسطين فيما يلي قبل عام 1095م"، تعليق محمد مؤنس، ضمن كتاب تاريخ الحروب الصليبية، فصول مختارة، تحرير سعيد عبد الله البيشاوي، محمد مؤنس عوض، بإشراف: كينيث ستون، ط1، مطبعة بيت المقدس، رام الله، 2004م.

روبرت.ل. نيكلسون:

"تطور الدويلات اللاتينية"، ترجمة عبد الرحمن المغربي ضمن بحوث تاريخ الحروب الصليبية، فصول مختارة، تحرير سعيد عبد الله البيشاوي، محمد مؤنس عوض، بإشراف: كينيث ستون، ط1، مطبعة بيت المقدس، رام الله، 2004م.

7. شيخو، لويس:

"أثر قديم عن دير مارون غرب العاصي"، مجلة المشرق، السنة (23) عام 1925م.

8. فنك، هارولد:

"تأسيس الإمارات الصليبية 1099-1118م"، ترجمة وتعليق عامر بخيت ناصر، ضمن كتاب تاريخ الحروب الصليبية، فصول مختارة، تحرير سعيد عبد الله البيشاوي، محمد مؤنس عوض، بإشراف: كينيث ستون، ط1، مطبعة بيت المقدس، رام الله، 2004م.
لامنس، هنري:

- "بحث تاريخي في سيرة القديس مارون الناسك" مجلة المشرق، السنة (6) العدد (6)، عام 1903م.

- "الحياة في بيروت في عهد الصليبيين"، مجلة المشرق، العدد الأول، السنة (31) عام 1933.

9. يوغوليوسكي:

"رحلة السائح الروسي دانيال إلى الأرض المقدسة في أول عهد الصليبيين"، مجلة المشرق، العدد (9)، السنة 24، لعام 1926م،

حادي عشر: الموسوعات:

1. حمودة، أحمد عبد الرحمن وآخرون:
2. "موسوعة المدن الفلسطينية"، ط1، دائرة الثقافة، منظمة التحرير الفلسطينية، الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، 411هـ/1990م.
3. خمار، قسطنطين:
4. "موسوعة فلسطين الجغرافية"، مركز الأبحاث منظمة التحرير الفلسطينية، بيروت، 1996م.
5. العجم، رفيق:
- "موسوعة مصطلحات علم التاريخ العربي والإسلامي"، مكتبة لبنان، ناشرون، ط1، 2000م.
6. "كشاف البلدان الفلسطينية"، ط القاهرة 1979م، د.ط.
7. -"المنجد في اللغة والأعلام"، طبعة 37، دار المشرق، بيروت، 1998م
8. "الموسوعة العربية الميسرة"، دار نهضة لبنان، بيروت، 1981م، د.ط.
9. "الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة"، الندوة العالمية للشباب الإسلامي، الرياض، ط 1972م.

Abstract

This is a research about the resistance against the crusade occupation at "Sham Land" during the period 491H /1098 AD until they had been dismissed in 690H /1291 AD .

The research began to talk about the arrival of crusade at the borders of "Sham Land" and their occupation to Antakia. They continued attacking forward until they reached "Al Aresh".

This study is includes the period of crusade occupation for about 200years because of the lack of information.

The study has been divided into four sections each section consists of several points.

The researcher concentrated on the conditions of Sham Land before occupation. He wrote about the geography of AL Sham Land and its administrative areas during the Islam up to the subject of study. He wrote about polilitcal situations and its effect on Al Sham Land before the crusade's arrival.

He didn't forget the inhabitants situations such as religion and beliefs and it's influence on the whole events.

The researcher studied the citizen's ideas, who defended their Land bravery, against the invoders.

The study showed all classes of society, men, woman, old, young, scientists, educated, poets, farmers, nomads and civilians and different religions and beliefs.

The researcher studied the different styles of resistance that people used such as making ambush, battles, attacking and giving information to Islamic army. He also studied the effect of the popular resistance on both Muslims and crusades.

People were punished severely by the enemy because of their co-operation with Islamic army.

This led them to emigrate to other spots.

On the other hand the popular resistance affected the crusade negatively because of the farmers revolution and burning fire and destroying the buildings of crusade. This led to a great effect on the economic.

The researcher concluded the results, resources and references. He wrote his study in details hoping that he has written every thing belongs to the subject of the study.

He gave a clear idea about the efforts of Muslims in "Al Sham Land" and how the historians didn't write much about this subject.

He hopes this is the beginning leads to serial studies later about other stages of popular resistance history against the invaders and colonialists through the different ages.

مكتبة
الجامعة
بغداد
الكويت
البحرين
القطر
السعودية
البحرين
الكويت
السعودية

Islamic University-Gaza
Deanery of High Studies
Department Of History Archaeology



**Popular Resistance against crusade
occupation in "Sham Land"
(491-690H)(1098-1291)**

Prepared by:

Abdul Hameed Jamal Al-Farani

Supervised by:

Dr.Reiad M. Shaheen

Associate Prof. in department of history and archaeology This research introduced to complete to obtain M.A. on Islamic history. Faculty of arts at Islamic University-Gaza, Palestine.

1426H/2005A.D.